تيه البروفيسور دهشان ... !

رواية

الكاتب والروائي:

عبد المجيد الدبّاس

تيه البروفيسور دهشان ... !

رواية

عبد المجيد عبدالله أحمد الدبّاس

- 1 -

لأسباب سياسية ، فلقد حذفت من هذه الرواية مئة صفحة ونيف ... قبل أن أقدمها للنشر ... !!

المؤلف

" نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى　　　ما الحب إلا للحبيب الأولِ !
كم منزلٍ في الأرض يعشقه الفتى　　　وحنينه أبدًا ا لأول منزل ِ !"

***

"وطني لو ُشغلت بالخلد عنه　　　نازعتني إليه في الخلد نفسي!"

***

"يقولون جاهد يا جميل بغزوةٍ　　　فقلت وأيّ جهادٍ غيرهنّ أريد؟!!"

***

"مشيناها خُطى كُتبت علينا　　　ومن كتبت عليه خطى مشاها!
ومن كانت منيته بأرضٍ　　　فليس يموت في أرضٍ سواها ! "

***

"ما تراها بين أتراب لها تحمل الإنجيل يوم الأحدِ!
في حياءٍ وخشوع ظاهرٍ وجمالٍ كشذا الورد الندي
أيها الحسناء في مشيتها اتقي الله وتوبي واعبدي
جرّدت عيناك سيفاً قاتلاً قتلتْ عشاق هذا البلدِ
وامنحيني بسمةً عذريةً　　　كشموع الدير يومَ المولِدِ!"

***

" كل ابن أنثى وإن طالت سلامته　　　يوماً على آلة حدباء محمولُ !"
" فكيف يلهو بعيشٍ أو يلذّ له　　　مَن التراب على عينيه مجبول؟! "

***

"إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى　　　وأذللت دمعاً من علائمه الكبرُ!
تكاد تضيء النار بين جوانحي　　　إذا هي أذكتها الصبابة و الفكرُ! "

***

إلى روح أمينة، أمّي ... العملاقة الشامخة ... التي بصبرها
وإيمانها تحدت مآسي الحياة وظلم البشر ،
من سلب أولادها منها...!

تنويه ...!

لقد تجاوزت هذه الرواية الخطوط الحمراء، اجتماعياً وسياسياً ، حسب مفاهيم وتفسيرات بعض الذين يعيشون في الوطن العربي الكبير ... فقد جرت حوادثها في بلد ليس عربياً ولا إسلامياً.. بلد يطلق عليه بعضنا ، بلد الانحطاط الأخلاقي والانفلات الشهواني والإباحية الجنسية ... فإذا صادف وكان عندك حساسية من هذه المواضيع، وأن التحدث فيها يثير مشاعرك ويؤذي أحاسيسك ، فإنني أنصحك مخلصاً بأن لا تقرأها ... !

لقد بدأت سيدة ملتزمة دينياً ومتزوجة أيضاً بتلقيم كلمات هذه الرواية إلى الحاسوب، وعندما وصلت إلى الصفحة الخامسة توقفت عن الطباعة واعتذرت بأدب ودبلوماسية عن مواصلة العمل، بحجة أن كلماتها تخدش الحياء وتجرح العفة ... ! ولقد حمدت الله على أنها فعلت، إذ لو أنها انتظرت حتى تعمقت في بعض صفحات الرواية، لكانت ربما طلبت محاكمتي واتهامي بالكفر والزندقة وكذلك الإباحية...!

ألم يتظاهر عشرات الآلاف من المتعلمين وأشباه المتعلمين بالوطن العربي الكبير ... طلاباً وركّاب منابر، بسبب نشر رواية قيل إنها تمسّ بالأخلاق وتحط من القيم وتشوه المثل العليا، وتعتبر تعدياً صارخاً على الدين والعقيدة ، مع أنه، ومن العجيب الغريب، والمذهل والمحير، وأقسم برب الأكوان ، أن جميع الذين تظاهروا لم يقرأ واحد منهم تلك الرواية ... ومن المحزن والمعيب أن الكثيرين الكثيرين منهم لم يعرفوا حتى اسمها ... !!

إن التعصب الفكري والتزمت الديني، هما في ملّتي واعتقادي، كالحكم الدكتاتوري المطلق، فكلاهما يلغيان العقل وكلاهما يقمعان الفكر... ! بالإضافة إلى أنهما يعيقان التقدم الحضاري بجميع أشكاله وأطيافه ... إنهما انتهاك لجميع القيم الإلهية والإنسانية؛ كما وأنهما امتهان لكرامة الإنسان واحتقاراً لآدميته... !

أولم يقمعنا أساطين الحكم عندنا ويغرقوننا في محيطات من الحيرة والتوهان حتى أفقدونا توازننا، وحتى جعلوا منا أجهل أمة أخرجت للناس، ننهى عن المعروف، ونأمر بالمنكر، مع أننا والله خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ... وأن الخالق مباه بنا الأمم يوم القيامة ...؟!!

الفصل الأول

انتهيت من محاضرتي، وأخذت أجمع أوراقي المتناثرة وأضعها في حقيبتي وأستعد للخروج، وسط أسئلة طلبتي الذين تحلقوا حولي يمطرونني بوابل من الأسئلة ِوالإيضاحات... كانت هناك طالبة، أغرقتني ببحر من الأسئلة الذكية الواعية، المثيرة والنيّرة، ذات المغزى، وقفت تعترض طريقي إلى الخروج بإصرار وعناد شديدين، فأربكتني وحيرتني !

أخذت أنظر إلى هذه الصبية التي لم تبلغ العشرين من عمرها، وقد ارتدت فستانا حريريا ناعما شفافا زاهي الألوان، يكاد يظهر ما خلفه، وربطت شعرها الأشقر الطويل إلى الخلف، فبدا لي وكأنه حصان جامح يتوثب للقفز !

كانت ملامحها توحي بالذكاء الحاد، وكانت عيناها نافذتين متوقدتين، وكانت لديها قدرة على التحكم بالكلمات والتعبير عن أفكارها... وعندما كنت أخرج من باب القاعة، كانت لا تزال تلاحقني بأسئلتها وتحاورني باستفساراتها، دون أن أقدر على التخلص منها على الرغم من محاولتي الجادة !

لقد شعرت حقا أنني أمام طالبة غير عادية، يصعب على المرء أن يتجاهلها أو أن يتجاهل مقدرتها على الحوار والمناقشة، كما إنه كان من الصعب عليّ أيضا أن أتجاهل قوة شخصيتها، وجمالها الأخاذ...!

وصلت إلى نهاية الممر المؤدي إلى الشارع الرئيسي أمام قاعة المحاضرات، وأخذت أتجه نحو العمارة التي يقع فيها مكتبي. سألت بكل كياسة وأدب، وهي تسدد إلي نظرات حالمة تخرج من عينين زرقاوين كنبع ماءٍ صافٍ هادئ.

- بروفيسور دهشان ! إذا كان لديك الوقت وسمحت لي، فهل نستطيع أن نكمل الحديث في مكتبك؟! عندي أسئلة كثيرة تجول بخاطري وتحيرني ولم أجد من يجيب عنها، وأعتقد أنك أنت الذي تستطيع أن توقف حيرتي وتروي عطشي... !

ضحكت لتعبيراتها السجعية، وأطربتني إطراءاتها الفحولية ... !

- لدي الوقت ولكن...

- لكن ماذا ؟! سألت بلهفة.

وقبل أن أجيب أضافت :

- أرجوك، لا ترفض طلبي.

- إنني في الواقع عطش وأريد أن أشرب شيئاً، أو على الأصح إنني أشعر بحاجة إلى أن أغسل وجهي، وأتخفف من حقيبتي، وهذا الجاكيت الخشن، أوه... كم هو حار هذا اليوم ! تعالي نذهب إلى مكتبي لأضع حقيبتي ثم نتوجه بعدها إلى الكافتيريا.

لقد شعرت بالراحة والانتعاش بعد أن غسلت وجهي وذراعي، ومشطت شعري، وخرجت وأنا أرتدي قميصا بنصف كم، وبدون ربطة عنق. لقد أحسست بالزهو والرجولة وأنا أسير مع تلك الفتاة الشقراء الناعمة، والتي تشبه حزمة من الغيوم المتحركة إلى الكافتيريا! قالت الحسناء بصوت يضج أنوثة وقد تورد خداها:

- بروفيسور... إنك تبدو الآن أصغر من سنك بسنوات كثيرة !

- لماذا ؟!
- إنك تتصرف على سجيتك، وتتحل من طبيعتك الرسمية في المحاضرة.
قلت ضاحكاً وقد أسعدني مديحها:
- أهكذا تعتقدين؟
- نعم، بل إنني فخورة بك.
- حقا؟
- وسعيدة أيضاً، إذ تمنحني هذه الفرصة الرائعة لأشرب معك شيئاً ما، وألقي عليك ببعض أسئلتي.
قلت دون أن أخفي امتعاضي من الأسئلة:
- دعي الأسئلة لقاعة المحاضرات... هذه لحظات استجمامية !
- إذن أسألك شيئا آخر !
- هه... ماذا ؟
- أنت شرق أوسطي ؟
- نعم من الشرق الأوسط... ! بلد الأحلام والغيبيات؛ بلد الجوع الفكري والقحط العاطفي ... !
ثم همستُ في سري بعصبية ونزق:"بلد "التابوهات" ! قلعة العيب والحلال والحرام... حصن القمع والقهر والإذلال...! عرين الحكام الجهلة والمستبدين...!
- وأنتِ؟
- من الجنوب؛ من ولاية " تنسي. "
- وتسكنين قريباً من الجامعة ؟
- نعم في سانتا مونيكا ... أما أبي وأمي فيسكنان في الجنوب.
- وهذه سنتك الجامعية الأولى ؟
- نعم، "فرشمن"!
دخلنا إلى كافتيريا الطلبة، ولا أعرف لماذا لم نذهب إلى كافتيريا الأساتذة ! أخذت أسير إلى ركن قصي وأنا أشعر بالحرج الشديد وأتلفت لا شعورياً حولي، إذ تسير إلى جانبي طالبة فاتنة، بخيلاء واعتداد، تتثنى كعود الخيزران !
جلست على كرسي في الزاوية عند الشباك، وجلست قبالتي. أخذت أتأمل ملامحها وشعرت بأنني أمام حالة استثنائية، وحضور غير عادي. فمنذ أن بدأت التدريس قبل ثلاث سنوات لم أفعل شيئاً كهذا، ولم تلفت انتباهي طالبة مثل " ألكسس ". شعرت بشيء من التردد والندم، وأحسست كأن الصبية استدرجتني إلى هذا المكان، بعد أن نومتني تنويماً مغناطيسياً بعذب حديثها ورقة أنوثتها. ومع ذلك بدأت أهون الأمر على نفسي. سألتها لأبدد حالة الاضطراب والتوتر في كياني:
- وماذا يعمل والدك ؟
- إن والدي يملك شركة عقارات كبيرة لها فروع في جميع أنحاء الولاية.
- وأمك؟
- موظفة في بنك؛ مديرة فرع.
- وماذا تدرسين؟

- إدارة أعمال؛ "بزنس".
- حسنا. لقد اخترت جامعة متميزة.
- كنت أتمنى أن أدرس شيئا آخر، أقرب إلى طموحاتي.شيئاً يشبع ميولي... ويحقق رغباتي.
- وما هو؟
- شيء عن الشرق الأوسط.
- مثل ماذا ؟ الشرق الأوسط عالم قائم بذاته !
- تاريخ...حضارة...لغات...أي شيء.
- ولهذا تأخذين معي مساق "الشرق الأوسط في العصر الحديث"؟
- نعم، هذا صحيح.إنني ما زلت في أول الطريق، وقد أغير موضوع اختصاصي إلى دراسات شرق أوسطية !
- آه... أرى من الأفضل أن تتمهلي؛ ما زال أمامك متسع من الوقت للاختيار.
نهضت بعد أن استأذنتها لأحضر شيئاً من المرطبات، فقالت بدلال وهي تسدد إليَّ عينين حالمتين:
- أنا جائعة، أريد شطيرة أيضاً أو "هامبورجر."
- ما رأيك بالاثنتين معاً، الشطيرة والهامبورجر؟
ضحكت بسعادة وصفاء:
- لا... لا... الشطيرة وفنجان قهوة يكفياني.
قالت بعد أن وضعت أمامها ما طلبته، ووضعت أمامي علبة البيبسي، ثم أعدت الصينية إلى مكانها.
- هذا شرف لي يا بروفيسور أن أكون ضيفتك.
- أوه...نحن من قوم يسعدهم أن يرحبوا بالناس ويستضيفوهم. الضيافة عندنا شيء متأصل في النفس، وتستمد جذورها من العادات والدين والتاريخ. نحن سعداء وفخورين بها !
- أوه، عظيم. اسمح لي أن أقول لك بأنني سعيدة بهذا الشرف الذي توليه لي. حقاً أنا فخورة باستضافتك لي. لم أكن أحلم بمثل هذا أبداً !
شعرت الصدق والعفوية في كلماتها.
هززت رأسي معترضاً على المجاملة، وأخذت أحملق بعينيها اللتين بدتا كبركتين زرقاوين صافيتين...من العسل المصفى ... لاحظت أنني سرحت طويلاً في عالم وجهها الأخاذ، وتوقفت عن التفكير بشيء إلا بجمالها ... !
- هل من شيء غير عادي؟! سألت باهتمام.
أحسست بأنها أمسكت بي متلبساً بحالة من التفحص غير المبرر.
- لا... ! فقط أنا أحيانا أسرح في تخيلاتي. قلت.
- وماذا كنت تتخيل؟! سألت بخبث أنثوي وهي تبتسم.
- كنت أعود بأفكاري إلى الوطن.
- الوطن؟!

- آه...الوطن ! وطني الحبيب ! وطني البعيد المعذب، وإنسانه المسكين المقهور المسحوق ! لقد طال عذابه وتعمقت جراحاته...ونزف كثيراً...كثيراً جداً. عليهم اللعنة ... !

قالت وهي ترسم ملامح الحزن على وجهها:

- ولكن لماذا؟! لماذا مقهور؟! ومن الذي يقهره؟!

- إنها قصة تطول. وقد أحكيها لك يوماً.

- لا شك أنني بشوق لأعرف شيئاً كثيراً عن الشرق، إنه بالنسبة لي ساحر وجميل، ولكن ليس مقهوراً ! وأغمضت عينيها كأنما تحلم.

- إنه ساحر وجميل حقاً، لو أن قوى الشر، في الداخل والخارج، تتركه وشأنه.

- صحراء واسعة... خيام وجمال... وقناديل مضاءة في الليل... وسلاطين بملابس أسطورية. .. وحسان ساحرات يرقصن رقصات ابتهال وتعبد في حضرت الخالق الأعظم .... ! قالت وكأنها تنشد !

ضحكتُ بمرارة وحسرة.

- لماذا تضحك؟! سألتْ وقد اختفت من على وجهها زغاريد الفرح ووشوشات الرومانسية... !

- هل قرأتِ ألف ليلة وليلة؟!

شهقت الصبية وكأن سطح الكافتيريا قد هبط علينا. هتفت بذهول:

- أرجوك... ! هل تعرف شيئاً عن هذا الكتاب؟ سمعت عنه الشيء الكثير، وقيل لي إنه ممتع ... ممتع لدرجة كبيرة. كيف أحصل على نسخة منه ؟

- يوجد في مكتبتي في البيت نسخة منه مترجمة للإنجليزية.

- ومترجمة ؟! رائع ! رائع !

- نعم. وصدقيني إنني قرأت مجلداته الأربعة وكان عمري عشر سنوات. إن بها أشعاراً كثيرة، وحفظت معظمها عن ظهر قلب، لأنني كنت أفكر بأن أكون شاعراً في يوم من الأيام.

- أنت شاعر؟! أرجوك بروفيسور دهشان، انظم بي قصيدة ! لطالما حلمت أن ينظم بي أحدهم شعراً !

- قلت كنت؛ ولم أقل إنني شاعر. لقد ظننت وأنا صغير أن عندي الموهبة الشعرية وأنني سأنظم معلقة أعلقها على باب " السرايا " ، في مدينتنا السلط الخالدة ، لينحني لها إجلالاً كل من يدخل أو يخرج ... تماماً كما كان يفعل آباؤنا الفطاحل أيام الجاهلية ... يوم كانوا يعلقون قصائدهم المتميزة على باب الكعبة فينحني الداخل و الخارج احتراماً لها و تبجيلا ! لكن للأسف ... !

قالت و الشعور بالخيبة يبدو في نغمة صوتها:

- أرجوك بروفيسور دهشان. أريد أن أشتري نسخة من كتاب ألف ليلة وليلة.

- يمكنك أن تقرئي نسختي.

- شكراً لك. إذا شئت أزورك اليوم أو غداً لاستعارة النسخة.

ارتبكت... قفز قلبي.. .وتلاحقت ضرباته... اهتاجت مشاعري... تيقظت جميع أحاسيسي... تشنجت عضلاتي... تفتحت شهيتي... هزرت رأسي بشدة كأنما لأطرد

أفكاري... وتصورت نفسي مع ألكسس في شقتي منفردين... ما خلا رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما... القحط العاطفي... الجوع الجنسي... والشيطان ثالثهما !

أخذت أسأل نفسي "تزورني هذه الفاتنة الساحرة؟ ولكن لماذا؟ ما الذي يدفعها لزيارة رجل في الثامنة والعشرين؟ تأتي هي إلي؟! هل هذا معقول؟!"

لا شك أنها لاحظت ترددي واتساع عيني، وتقلص عضلات وجهي وتبدل لونه، ثم احمرار أذني، فاكفهر وجهها وحملقت بي، وقالت:

- لا تريد أن أزورك في البيت؟!

- لا...لا... لماذا تتعبين نفسك! أنا أحضر الكتاب إلى مكتبي في الجامعة !

- كما تشاء. كنت فقط أريد أن أجنبك عناء إحضاره.

قالتها بصوت مخذول ونفس مقبوضة، وعلائم الخيبة تبدو على وجهها الذي فارقته إضاءته فجأة !

- اليوم هو اليوم الذي تأتي به الشغالة لتنظف لي الشقة، وتجلي كل ما تراكم من أدوات المطبخ طيلة الأسبوع، ثم إنها أيضا تغسل ملابسي وتكويها. إنها عادةً لا تنتهي قبل الساعة السادسة مساءً.

قلت غير صادق، لأن هذا قد حدث فعلا، ولكن قبل يومين اثنين. لم أترك لها مجالا للاستزادة، فأضفت:

- سأراك في قاعة المحاضرات يوم الاثنين القادم.

- أستطيع أن آتي إلى شقتك لآخذ الكتاب هذا المساء، أو غداً السبت، أو حتى يوم الأحد.

- في الحقيقة إنني مرتبط طيلة عطلة نهاية هذا الأسبوع لأقضيها خارج المدينة، في منتجع "لقونابيش". سأغادر عصر هذا اليوم ولن أعود إلا مساء الأحد.

- رحلة سعيدة، أرجو أن تقضي وقتاً ممتعاً.

- شكراً. وأنتِ أيضاً.

- وهل تذهب إلى هناك كثيراً؟

- نعم معظم الأسابيع. إنني أحب هذه المدينة جداً ! لا تسأليني ما الذي أحبه بها...أنا نفسي لا أدري ! كل ما أعرف، أنني أشعر براحة نفسية غامرة وأنا فيها ! لقد كان يعتريني نفس هذا الشعور أيام كنت طفلاً ، وأن اسير وأخي في شوارع مدينة القدس ويافا وحيفا !!

- آسفة، أنا لم أسمع بها من قبل، والسبب هو أنني أتيت إلى كاليفورنيا قبل أقل من أسبوعين، فأنا لم أر شيئاً بعد ! أنا أحب السفر كثيراً. أشعر بالاختناق إذا مر وقت طويل ولم أسافر ... !

- سترين كل شيء. لا تتسرعي. كاليفورنيا ولاية جميلة جداً، ويقولون إنها أجمل الولايات الأميركية على الإطلاق. سواحلها تشبه سواحل بلادنا التي طردنا منها... !

قطعاً لم تفهم ما عنيت. ومرت فترة صمت قطعتها بقولي:

- أنا لا أحب أن أقضي عطلة نهاية الأسبوع في البلد الذي أعمل به. أنا مثلك مهووس بالسفر، حتى لو كان ليومين اثنين. قد تكون المنطقة التي أذهب إليها تبعد خمسين ميلاً من هنا فقط.

- وأين تذهب إذا كانت العطلة أكثر من عطلة نهاية الأسبوع ؟
- إلى منتجع "كرميل" أو مدينتي سان فرانسيسكو وبيركلي.
ثم ضحكتُ وأضفتُ:
- أو إلى "لاص فيقص" أو "رينو"، مدينتي القمار العتيدتين !
- وهل تحب لعب القمار؟!
- أكرهها جداً وأرثي للذين يقامرون. لقد تمزق قلبي في إحدى زياراتي إلى "لاص فيقص" قبل بضعة شهور، وأنا أشاهد أحد كبار السن وقد أثقله السكر، وكان يقف وسط أحد "الكازينوهات" يبكي وينتحب بأعلى صوته، وقال بأنه خسر كل ثروته وليس معه ما يدفع حساب الفندق. لقد حولت مرة خمسة دولارات ورقية إلى "دايمات ونكلات" معدنية ولعبت بها لأجرب حظي كما يقولون ! لقد كانت المرة الأولى والأخير ... !
- وهل كسبت؟!
- وهل يكسب أحد من القمار؟!
- ولماذا تذهب إلى هناك وتلعب إذن؟!
سألت وقد اتسعت حدقتا عينيها فتصورتهما غابتي نخيل ساعة السحر. فتمنيت لو أجوس خلالهما.
- أحب أن أشاهد الترف والبذخ هناك ... وأستعرض النساء الجميلات المعطرات وهن يربحن ويخسرن... ثم أتفرج على حياة الليل... فرجة فقط... لا أشارك بها ! صدقيني !
سألتني بعد صمت وتردد:
- وهل تذهب وحدك !؟ أعذرني لهذا السؤال الشخصي.
- أرجوكِ ألا تعتذري ! أنا أحب من الذين أعرفهم أن يكونوا طبيعيين ويسألوا عن كل ما يبدو لهم. الحقيقة هي أنني لا أذهب إلى مكان وحدي، إلا في حالة تتطلب ذلك. أنا صراحة لا أحب رفقة الرجال، إنها تضجرني... تضغط على أعصابي... تكتم أنفاسي... وأحيانا تثير قرفي واشمئزازي !!
انفجرت تضحك وتقهقه بصوت أحرجني، فقد لاحظت أن جميع الطلبة الذين يجلسون حولنا قد صاروا ينظرون إلينا، وخصوصاً الطالبات،
فإن بعضهن صرن يحملقن بنا ويهززن رؤوسهن!
- كيف تقول هذا وأنت رجل؟!
سألتْ بعد أن كفت عن الضحك، وبعد أن مسحت دموعها بالمنديل الورقي أمامها.
- أقول هذا لأنني رجل! وبعد أن ابتسمتُ أضفت:
- وإنّ أي رجل عنده إحساس وإدراك لما خلق الله من جمال أنثوي، لا يحب أن يمضي وقته مع رجل مثله... أنا أحب أن أكون دائماً برفقة الحسناوات... الرقيقات الناعمات... المغناجات... والتحدث إليهن ! إ ن صحبة المرأة الجميلة، صدقيني، مبعث لسعادة الرجل وغذاء لروحه وقلبه !
- بروفيسور دهشان ! أنت تتملقنا كثيراً !
- صدقيني، هذا هو رأيي وهذه هي فلسفتي !

- إذا كنت تريد رفيقة في رحلتك هذه، قد لا تكون بي جميع الصفات التي تنشدها بالمرأة، ولكني رفيقة درب لا بأس بها ! تستطيع أن تعتمد علي ! قالتها بخبث وهي تضحك.

- لو لم أكن مرتبطاً مسبقاً لفعلتها. ربما في عطلة نهاية أسبوع آخر.

- فليكن إذن الأسبوع القادم، ولنصمم عليه منذ الآن. قالتها بفرح صبياني غامر.

- لا تتسرعي بمعرفتي، فقد تندمين ! أحذرك !

- ولم تقول ذلك عن نفسك؟! سألت باستغراب.

- لأنني إنسان عندي كل سلبيات الشرق العتيد وعقده... !

- أنت وافق... ودعني أواجه قدري.

- سأفكر بالأمر ... !

نظرتُ إلى ساعتي وشهقت بطريقة عفوية ثم نهضت واقفاً وصحت:

- يا إلهي ! هل تصدقين أن لنا في جلستنا هذه ما يقارب الساعة والنصف؟ لقد خلتها نصف ساعة أو أقل !

قالت وقد نهضت هي أن أبدو أصغر من سني؟ من المفروض أن يكون أستاذ الجامعة أغزر علماً وأكثر تجارباً كلما تقدمت به السن. كما إنه أكثر هيبة ووقاراً ... !

- هذه النظرية ليست صحيحة دائماً، إذ إن بعضهم يتوقف عن الدرس والبحث بعد التخرج، والبعض الآخر يعتقد أنه ختم العلم كله.

- أنا أقول من المفروض ولم أقل دائماً !

خرجنا من الكافتيريا معاً وتوقفنا أمام الباب، ثم نظرت إلى ألكسس، وتمنيت من أعماقي لو أن باستطاعتي أن لا أفارقها، وان أبقى معها العمر كله، أنهل من رضاب شفتيها، وأغفو فوق صدرها وبين نهديها ... !

- أشكركِ جداً على هذا الوقت الممتع. حقاً لقد استمتعت بكل ثانية منه. أتمنى لكِ عطلة نهاية أسبوع سعيدة ! إلى اللقاء ! قلت.

- أنا التي أشكرك على الوقت الذي منحتني إياه. وكذلك شكراً جزيلاً للفطائر والقهوة.

مدت يدها ومددت يدي، فأمسكت بها للحظات، أحسست بيد طرية صغيرة، ترقد بين يدي ... شعرت بعدها بنشوة غامرة، فأبقيت يدي ممسكة بها للحظة، فتركت لي حرية التصرف دون أن تسحبها من بين يدي ... ثم فجأة بدأت تضحك مما أخجلني وأحرجني معاً، فتركت يدها وقد ظننت إنها تضحك لفعلتي هذه! ولما توقفت عن الضحك قالت:

- أرجوك أن تعذرني لما سأقول! إنني لا أدري كيف أبدأ! لا أريدك أن تفكر أنني أحاول أن أرشوك أو أنني أريد أن أتفاخر وأتباهى أمامك !

قلت وقد بدأت شكوكي تضمحل وحرجي يفارقني.

- أرجوكِ ...! تكلمي بصراحة ِ... اريدكِ أن تكوني نفسك وعلى سجيتك ! أنا أحب أن يكون الذين أتعامل معهم في منتهى الصدق والصراحة معي، ومع أنفسهم !

- حسناً... حسناً... قالت وهي تشير بيديها إلى الأسفل لأهدأ وأخفف من انفعالي.

- إذا أحببت أن نذهب إلى أي مكان، فعندي سيارة " لكسس" اشتريتها جديدة من شركتها، عندما أتيت إلى كاليفورنيا قبل أسبوعين... قيادتها مريحة جداً... ستحبها...!

فقلت بطريقة مسرحية مبالغ فيها وقد ضربت بكف يدي على جبيني:

- اللهم يا رب السموات والأرضين ... ارحم عبدك المسكين سهيلاً والطف به ! زوده بالمنعة واعصمه من الخطيئة ! إنه لا يستطيع أن يقاوم إغراء ألكسس واحدة ... فكيف باثنتين؟!

لا شك أن النكتة أسعدتها كثيراً، إذ انفجرت تضحك وتقهقه، فبانت أسنانها، ناصعة البياض متراصة، كأنها طابور من العسكر وقفوا تحية وإجلالاً لعظيم !

- أنا لا أعني أن...

- أرجوكِ لا تقولي أكثر ... فقد أنزلت أشرعتي وألقيت بسلاحي، وتخليت عن حصوني وقلاعي، ووقّعت على صك استسلامي ... ! لقد انتصرت الآنسة ألكسس وانهزم البروفيسور سهيل دهشان ... !

قلت هذا ورفعت يدي اليسرى ملوحاً لها بالهواء بعد أن أعطيتها ظهري وأسرعت أحث الخطى نحو مكتبي حيث تركتها واقفة تضحك وحدها !

*****

كنت أهم بمغادرة المكتب لأذهب إلى البيت، حيث أن"صوفيا" ستمر علي بعد حوالي الساعتين لنتوجه إلى منتجع "لقونابيش" لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، عندما قرع الباب ودخل شاب طويل القامة، حنطي اللون وسيم الوجه، حياني بالعربية وسماني باسمي، كأنما هو يعرفني من قبل. وبعد أن تبادلنا التحيات المعتادة تراجع عدة خطوات وأشار إلى فتاة كانت تقف بالباب أن تدخل. تقدمت شابة بخطى واثقة ومدت يدها بجرأة وتصافحنا بينما كان زميلها يقدمنا لبعض.

- بروفيسور دهشان! أقدم لك زميلتي الآنسة كارولاين، قصدتني في معروف وأنا أقصدك بدوري. ثم استدرك وقال:

- آسف. نسيت أن أقدم نفسي. أنا ممدوح عمران من الوطن، طالب ماجستير في قسم الحاسوب، هنا في الجامعة.

رحبت بهما وطلبت منهما أن يتفضلا ويجلسا، ثم استأنفنا الأسئلة، ممدوح وأنا، عن الصحة والدراسة والأخبار، ومتى حضر من الوطن... الخ...

2

سعدت بزيارة ممدوح، وتمنيت لو أنني لم أكن في عجلة من أمري، إذ لفت انتباهي هدوء زميلته واحتشامها، وكذلك جمال وجهها وطول قامتها. وعندما اشتركت معنا بالحديث، لاحظت قوة شخصيتها وغزارة معرفتها، ثم رجاحة عقلها. تحدثنا كثيراً عن أخبار الوطن الحبيب وعن أوجاعه وهمومه، تمزقه وتشرذمه، وعن الظلم والبطش والدكتاتوريات التي تمارس عليه. وعلقت كارولاين على تعلقي بالوطن واهتمامي به بأن قالت بأنها مهتمة بالشرق الأوسط منذ دراستها في مرحلة البكالوريوس.

- هل تعلمت العربية؟

- قليلاً. درست عاماً واحداً فقط.

- وماذا قرأت عن الشرق؟

- قرأت مواد مترجمة كثيرة ونصوصاً متنوعة، قصصاً قصيرة وروايات، وأعمالا أدبية لشعراء سوريين وكتاب مصريين وفلسطينيين. وقرأت كتاباً عن حياة جمال عبد الناصر، والصراعات في الشرق الأوسط.

- أوه... هذا جيد. إذن لديك فكرة لا بأس بها عن الشرق؟
- فكرة عن بلاد الشام ومصر، وكذلك عن تركيا. ولكنني آمل أن أقرأ شيئاً عن التاريخ الإسلامي، وخاصة العهدين الأموي والعباسي.
- عهدا الذروة والشموخ ! قلت بحماس وفخر.
- بالضبط. أشعر بالسعادة والتألق وأنا أقرأ عن تلك الفترة. قالت.
- أيام كنا نصنع التاريخ ونبني البطولات، ونسجل الأمجاد بحروف من نور!

استطردت الصبية في الحديث عمّا تعرفه عن الشرق، وأخذت تمطرني بأسئلة عن الحج إلى الأماكن المقدسة، وظروف الحياة الاقتصادية والسياسية فيها. وبين كل جملة وأخرى من حديثها، كانت تلفظ كلمة عربية بطريقة غريبة، معبرة عن افتخارها بمعرفة مفردات وجملٍ عربية.

لقد طغى حضور كارولاين على اللقاء... حضورها كامرأة ناعمة جميلة... وامرأة مثقفة أعادت للذاكرة الكثير من ذكريات الوطن الحبيب، وهي تقرأ أبياتا مترجمة من أشعار نزار قباني، وعلي محمود طه، ومحمود درويش. كنت أستمع إليها بكل جوارحي وأنا أجوس بعيني خلال عينيها الناعستين، ووجهها المشرق الذي يفيض صحة ونقاءً،فبدت مغرية كرمانتي أمنا حواء، عندما وقعت عليهما عينا أبينا آدم لأول مرة، قبل أن تستعمل ورقة التوت لتستر بها مفاتنها! أدهشتني معرفتها الجيدة بتاريخ الثورة المصرية، وحياة الرئيس جمال عبد الناصر، ونضاله الطويل ضد السياسة الإنجليزية والأميركية.

- إنني سعيد بما تقولين عن نضال مصر القومي. قلت.
- شكراً. تأكد يا بروفيسور دهشان، أنني أنظر لمصر، وللشرق الأوسط ككل، كإنسانة قبل أن أكون أميركية.
- عظيم. هذا ما يجب أن يكون عليه كل إنسان مثقف واع، حتى تسود المحبة ويعم السلام!
- أحببت مصر وسوريا، أحببت الشرق المسكين الذي ينتقل من أيدي العثمانيين إلى أيدي الإمبرياليين. ولذلك فإنني أعتبر أن عبد الناصر واحد من الحكام العرب الذين حاولوا مخلصين أن يجمعوا كلمة العرب وأن يوحدوا أوطانهم، ليصبحوا شيئاً مذكوراً؛ شيئاً له ثقله وحضوره في العالم!
- ولكن الخونة والعملاء والانتهازيين من بني أمته هم الذين أفسدوا مشروعه القومي، فمات قهراً. قال ممدوح وقد غطت وجهه علامات الحزن والألم.
- إنه كلما نهض من بينكم وطني مخلص، فإنكم تتآمرون عليه... تتهمونه بالعمالة... فيفقد الشعب ثقته به، ويكفر بجميع القادة والزعماء! قالت كارولاين.
- ولهذا فنحن نعيش الآن حياة ضياعٍ وفقدان الهوية. قال ممدوح.
- إنه قدرنا! قلت مواسياً.
- نحن نصنع أقدارنا، يا بروفيسور دهشان، وليست أقدارنا هي التي تتحكم بمصائرنا!

قالت كارولاين بحماس وتحد. وبما أن لي رأياً قد يكون متفقاً مع رأيها إلى حد ما، وبما أن وقتي ضيق، ومناقشة هذا الموضوع قد تستغرق ساعات وساعات، فقد اكتفيت بابتسامة وهزة من رأسي، وكأنما أقول لها: أتفق معك!

- لدي الكثير من المراجع عن المنطقة، فإذا أحببت فهي تحت تصرفك.
- بالعربية؟
- وبالإنجليزية أيضا.
- وهل هي لديك هنا في مكتبك؟
- وفي بيتي كذلك.

قلت لممدوح بالعربية، بأنني أود أن أرحب به في البيت وأستضيفه، إذ أن له علينا واجب التكريم والحفاوة؛ ولو لم أكن ملتزماً وأستعد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع خارج المدينة، لكنت قد حددت هذا المساء، موعداً لاستضافته هو وزميلته.

- شكراً لك! سنزورك إن شاء الله، في المستقبل القريب.

اعتذرت لكارولاين إذ أتحدث بالعربية مع ممدوح، وشرحت لها بأنني كنت أتكلم معه عن واجبات استقبال ضيف قادم من الوطن. أخذت أشرح لها التقاليد العربية الموروثة المتعلقة بذلك. وقد عبرتْ عن سعادتها وامتنانها بلقائها بي وبممدوح. قلت:

- يمكنك أن تتعرفي على الشرق الذي تحبين من خلالنا.
- ومن خلال ما قد أقرأه من الكتب التي بحوزتكم.
- اسمعي يا آنسة كارولاين. يجب أن تتعلمي العربية جيداً. لا يمكن أن تفهمي الشرق العربي جيداً، بدون تعلم اللغة العربية. إنه لكي نفهم خصائص أمة من الأمم جيداً، يجب أن نتعلم لغتها، ونعيش حضارتها وثقافتها. قلت، ثم أضفت:
- وكما قلت لك يجب أن يكون المدرس يدرس اللغة بطريقة مشوقة جداً.
- أنا جاهز لمساعدتها، ولكن الأشهر القليلة القادمة تفرض علي واجبات كثيرة، كالرحيل إلى سكن قريب من الجامعة، إذ أنني أسكن مسافة ساعة من هنا بالسيارة، وفوق ذلك يجب أن أشتغل لأؤمن نفقات حياتي. قال ممدوح .
- كان الله في عونك وفي عون الكثير من أبناء أمتنا المقهورة. قلت.
- وأرجو أن تكون أنت والآنسة كارولاين في عوني. قال ممدوح.

ابتسمت كارولاين وقالت:

- سأقدم ممدوح لصاحب بقالة صغيرة يملكها صديق لعائلتنا، ليشتغل معه ليلاً وأيام العطل. أنا شبه متأكدة بأنه سيستخدم ممدوح لأنه أعلمني أنه بحاجة إلى مساعدٍ أمين وكفؤ!
- هذا فضل منك يا آنسة كارولاين. قال ممدوح بخجل وانكسار.
- والآن، ما هي القضية التي أتيتما من أجلها؟

قفز ممدوح من على مقعده وكأنما نخزه أحدهم، فقال وهو يضحك:

- والله لقد نسينا ما أتينا من أجله في غمرة الحديث الممتع!

أما الصبية فقد شاركت الشاب الضحك، ولكن بطريقة مؤدبة محتشمة! ثم أضافت:

- إن أحاديثك يا بروفيسور أنستنا المعروف الذي أتينا نرجوه منك!
- سأكون سعيداً جداً إن استطعت أن ألبي طلبكما. قلت صادقاً.

- لقد قيل لنا بأنه إن كان هناك من يستطيع تحقيق ما نريد فهو أنت! قالت الصبية بعفوية وحماس محبب.
- زميلتي الآنسة كارولاين، لها خطيب تركي، تعرفت عليه في اسطنبول صيف هذا العام، ووقعا في غرام بعضهما، ويريدان أن يتزوجا في الصيف القادم، وهي تحب أن تبدأ بدراسة اللغة التركية هنا في الجامعة.
- فكرة رائعة، وألف مبروك يا آنسة كارولاين. قلت بفرح صادق.
- عندما ذهبت للتسجيل في هذا المساق قيل لها إنه مغلق، ولكنها فهمت أنها من الممكن أن تكون إحدى الطلبة إذا أحضرت ورقة إلى قسم التسجيل من الدكتور فاروق، وهو كما تعرف أستاذ المادة. وعندما راجعناه وشرحنا له القضية رفض وأصر على الرفض، رغم التوسلات والإلحاح!
- أرجوك بروفيسور دهشان! تعلمي اللغة التركية يعني الكثير بالنسبة لي. لقد وعدت خطيبي بأنني سأبدأ بدراسة اللغة حال عودتي من رحلتي من تركيا!
- لقد أعلمها بعض الطلبة أن لك عليه دالة بأنه صديق حميم ولا يرفض لك طلباً.
- وماذا يعمل خطيبك؟ سألتها وأنا أرفع سماعة الهاتف وأدير قرصه.
- إنه يشتغل دليلاً سياحياً. زرنا، والدتي وأنا، اسطنبول هذا الصيف مع مجموعة من السياح الأميركان، وأعجب بي وأعجبت به وأحببنا بعضنا، خطبني فوافقت، وكذلك وافقت والدتي.

لم يرد مكتب الدكتور فاروق فأدرت رقم المنزل.
- كيف حال الرجل العجوز اليوم؟ هل أيقظتك من قيلولتك؟
- نعم، فعلت. ولكن لا بأس. بالمناسبة، كنت أفكر أن أدعوك إلى مطعم صيني فتح حديثاً، قيل لي إن طعامه لذيذ جداً وسعره معقول. أنا أعرف أنك مغرم بالأكل الصيني، ولكنني أعرف أنك تسافر آخر الأسبوع!
- أنت تعرف أنني لا أذهب إلى الأماكن العامة بصحبة الرجال! أنا أذهب بصحبة النساء الجميلات فقط، ذوات الشعر الذهبي والعيون الزرقاء، والطويلات أيضا! قلت مازحاً وعيناي ترقبان الصبية. أنني ...

ضحك ممدوح وابتسمت كارولاين، واحمرّت وجنتاها. إذ لا شك أنها ظنت أنني قد عنيتها.
- شكراً للدعوة. سنذهب معاً إن شاء الله في منتصف الأسبوع القادم. أضفت.
- إن شاء الله. قال هو أيضا. ثم كأنما تذكر.
- أنت وصديقتك! بالمناسبة، هل ما زلت محتفظاً بها؟ أعني صوفيا؟
- نعم، ما زلت. ولكن ليس لمدة طويلة!
- ولم؟! إنها فتاة ذكية ومخلصة. لا أظن أنك ستجد لها مثيلاً!

تجاهلت تعليقه أمام الضيوف، وخصوصاً وأنا أعرف رأيه في صوفيا. إنه يقدرها ويحترمها كثيراً ! لقد تعشينا ثلاثتنا سوية مرات عديدة في مطاعم غالية وفخمة قريبة وبعيدة، وكنا نحن دائماً اللذين يدفعون فاتورة الحساب، صوفيا وأنا! ولقد ذهبنا أكثر من مرة إلى مسارح وشاهدنا أفخم أفلام الموسم! وطالما طلب إلى أن أكمل ديني وأتزوجها،

فقد أخبرته أنها مستعدة لاعتناق الدين الإسلامي، وإنها تقبل أن تعيش معي في أي مكان أختاره، حتى لو كان في صحراء قاحلة!

- عندي شابة أميركية مخطوبة لشاب تركي وهي...

- أعرف...أعرف...قل لها أن تكون في قاعة المحاضرات صباح الاثنين القادم في الساعة الثامنة. قال الدكتور فاروق مقاطعاً!

- شكراً لك نيابة عنها وعني، وآسف مرة أخرى لإيقاظك من قيلولتك، وأغلقت السماعة.

- وافق؟ صاح الاثنان معاً وقد قفز كلاهما.

- صباح الاثنين، الساعة الثامنة، أنت طالبة في المستوى الأول في قسم اللغة التركية.

- أوه... بروفيسور دهشان! شكراً! شكراً! شكراً! أنت "عزيم".

قالتها بالعربية، فخرجت من بين شفتيها ساحرة ومثيرة، وكأنها تطارحك الغرام...!

- لقد بيضت وجهي أمامها. لن أنسى معروفك هذا. قال ممدوح بالعربية وهو يكاد يبكي من التأثر.

- قلت لها بأنه لم يسبق لي شرف معرفتك، ولكن لي عليك دالة باسم العروبة، وباسم ديننا الحنيف الذي يأمرنا بمساعدة المحتاجين وإغاثة الملهوف، وإنك لن تخذلني، ولكن في الحقيقة كنت متردداً، كنت قلقاً جداً من الفشل.

- ربنا يقدرنا دائماً على عمل الخير، وما فيه السمعة الطيبة لأمتينا العربية والإسلامية! قلت .

- لا يوجد كلمات تعبر عن شكري لك! قالت الصبية وهي ترقص فرحاً.

- أتمنى أن تطلبي مني معروفاً أكبر من هذا.

- صدقني أن هذا المعروف كبير جداً جداً بالنسبة لي. قالت الصبية بصدق وإخلاص ثم أضافت:

- إن خطيبي سيفرح كثيراً عندما أكتب له وأعلمه بذلك.

الدكتور ممدوع أوغلو هو أحد أساتذة اللغة التركية في جامعة اسطنبول ، حضر إلى جامعة كاليفورنيا كأستاذ زائر معار من جامعة اسطنبول لمدة عام إلا إذا رغب الطرفان على التمديد لعام آخر.

لقد جاء بمفرده وترك وراءه في تركيا زوجته وابنته الوحيدة وهي متزوجة وموظفة في وزارة الخارجية التركية باسطنبول، وكنا صوفيا وأنا دائماً نركبه معنا حيث إنه لا يملك سيارة.

تصافحنا وخرجا، وخرجت خلفهما بعد أن أغلقت الباب بالمفتاح .

*****

الفصـــل الثاني

إن صاحب "موتيل الشاطئ" يعرفني معرفة جيدة، وبيننا صداقة حميمة وعميقة. إنني أحد زبائنه المقربين والمفضلين، وأنا أعرفه منذ ما يزيد على العامين، أقضي عطلة

نهاية الأسبوع في نزله بمعدل مرتين، على الأقل بالشهر. أنا لست بحاجة لأن أحجز مقدماً، لأنه يعطيني الغرفة المخصصة له ويذهب فينام في بيته، هذا إذا لم تكن هناك غرفة خالية. إنه نزل صغير، مؤلف من خمس وعشرين غرفة تقريباً، ولكنه فندق مريح ونظيف جداً، والخدمة فيه رائعة.

إنه يقع على حافة البحر، وبه بركة سباحة وبار، وقاعة طعام من الدرجة الأولى. أما أكله فهو يفوق الوصف! إنه يقع عند أول مدخل المدينة، على تلة بجانب حديقة عامة صغيرة، مطلة على البحروكأنماتركب فوقه !

إنني دائماً أجلس عند الغروب، على الكرسي الخشبي المزروع عند طرف التلة، أرقب الشمس وهي تلقي بنفسها في أحضان البحر. إنني مرات ومرات، احتدمت عواطفي وغلت مشاعري تأثراً بالمنظر البانورامي الرائع، فأصير أبكي وأنشج كطفل صغير من شدة الاندماج والانعتاق والتصوف...!

إحساس غامض غريب لم أستطع تفسيره! أهو الشعور بعظمة الخالق وضآلة الإنسان؟ أم هو التأثر بجمال الطبيعة الخلاب؟ أو لعله الإرث الاجتماعي والزخم العاطفي، زخم ذكريات الطفولة الذي اكتسبته من مدينتنا السلط الخالدة وأنا ابن أربعة عشر عاما، يوم كنت أصعد من حارة الجدعة السفلى إلى حيث يقع بيت سميحة إلى حارة الجدعة العليا حيث يقع بيتنا، أكفكف دموعي وأجففها لأنني لم ألمح سميحة رغم انتظاري كل هذه الساعات الطويلة ، حتى لا تراها والدتي وأخواتي ، بعد أن أكون أمضيت أربع أو خمس ساعات تحت لهيب الشمس اللافح صيفاً، وبرد الطقس القارس شتاءً؛ أقطع الشارع ذهاباً وعودة لتكتحل عيناي برؤية سميحة من بعيد! ؟ أما إذا أردت أن أتمشى وأجلس على الشاطئ، فإن كل ما عليّ فعله، هو أن أنزل من على التلة وأكون في خلال دقيقتين، بل أقل واضعاً قدمي بماء البحر!

*****

كانت هذه هي المرة الثالثة التي نأتي بها إلى هذا النزل ، صوفياوأنا ، كنت قد طلبت من موظفة الاستقبال، حال الانتهاء من إجراءات التسجيل واستلام مفتاح الغرفة، إن كان بإمكانها أن تؤمن لنا فيلم "كازينو" لشارون ستون، لنشاهده هذا المساء في غرفتنا، فأعلمتني إنه سيكون عندي قبل موعد السهرة. لقد سمعت عن هذا الفيلم كثيراً، كما قرأت عنه نقداً مسهباً.

كان بصحبتي في تلك الرحلة "روزمري" إحدى الصديقات اللواتي أعرفهن من خارج الجامعة، وكانت قد أبدت رغبتها، قبل أن نغادر قرية "وست وود" لنأتي الى هنا ، بأنها تتمنى لو أن أدعوها هذه الليلة إلى مطعم ماليزي، حيث إن صديقة لها من تلك البلاد، تعمل معها في نفس البنك، كانت قد دعتها قبل شهر إلى إحدى المطاعم الماليزية في مدينة هوليوود، وإنها أحبت الطعام كثيراً، وإنها ترغب في تناوله ثانية؛ هذا إن كان يوجد واحد في مدينة لقونابيش.

لقد رحبت بفكرتها وقلت لها بأنني أحب الطعام الماليزي جداً، وإنه يوجد أكثر من مطعم في المدينة، وأنني أنا نفسي قد تعشيت في أحدها قبل عدة أسابيع.

في طريقنا إلى المطعم، توقفت في مكتب الاستقبال لأطمئن على أن الموظفة قد أمنت لنا الفيلم، ولكنني وجدت مكانها رجلاً أصلع الرأس، مربوع القامة، حنطي اللون،

بحدود الخمسين من عمره، يلبس نظارة طبية؛ حييته بمودة واحترام، ثم سألته عن الموظفة، وبعد أن نظر إلى الساعة المعلقة على الجدار قبالته، أعلمني بأنها ذهبت إلى العشاء، وإنها ستعود بعد خمس وعشرين دقيقة، ولكنه سيكون سعيداً جداً أن يجيب على أي سؤال، وأن يلبي أي طلب أريده. ولما أعلمته عن "الكاسيت" أكد لي بأنني سأجده في المكتب عند عودتي من الخارج. شكرته بحرارة وأدب، وأدرت ظهري لانصرف، عندما سمعته يقول بمنتهى اللطف والاحترام:

- لا أدري إن كنت تعلم هذا! إن أصحاب مكاتب تأجير "الكاسيتات" يطلبون أن تعاد إليهم الأشرطة قبل الساعة السادسة من مساء اليوم التالي، وإلا ستعتبر متجددة لليلة أخرى تلقائياً. فهل تتكرم مشكوراً وتعيده إلينا قبل ذلك الموعد؟

وبدلاً من أن أقول "أوكي" بالإنجليزية، أو أي تعبير آخر علامة الموافقة؛ قلت له وبطريقة عفوية "إن شاء الله" بالعربية.

- "دا" أنت عربي؟! قال ذلك وقد اتسعت عيناه وفرش ابتسامة كبيرة أضاءت كل وجهه.

- وأنت عربي أيضا من مصر؟! قلت وفرحتي لا تقل عن فرحته.

- لا، أنا يوناني. أنا اتولدت بالإسكندرية، واسمي أندرياس. قال هذا بالعربي، ثم أكمل بالإنجليزية.

كان عمره عشر سنوات عندما حدثت الثورة المصرية، وألغيت الملكية وطرد الملك فاروق، وتولى الحكم محمد نجيب وجمال عبد الناصر، ولم تعد مصر البقرة الحلوب لغير أهلها، وبدأ الأجانب يغادرون مصر إلى بلادهم التي يحملون جنسياتها، ورحل هو وعائلته مع من رحل، ولكن بعد مضي سنتين على قيام الثورة.

- وماذا كان يعمل والداك في مصر؟

- كانا يملكان "بنسيوناً" فخماً يدر علينا ربحاً جيداً، وكنا نعيش حياة ترف وبذخ كبقية الأجانب في تلك الفترة. لقد بعناه إلى مصري بأبخس الأثمان عند رحيلنا.

- وهل طُلب إليكم الرحيل وبيع ممتلكاتكم؟

- كلا؛ ولكننا خفنا أن تصادر الثورة ممتلكاتنا ويرموا بنا في الشارع.عدنا إلى اليونان أولا، ثم هاجرنا إلى أميركا بعد خمس سنوات. خالي كان عنده بقالة في مدينة نيويورك تبيع مواد تموينية من منتوجات بلدان حوض البحر المتوسط، بما فيها سوريا ولبنان ومصر. ثم ضحك، وأضاف ولكن بالعربية:

- كان كل أفندي ينادي بابتي البيه "الخواقة" الكبير، وأنا اسمي عندهم البيه "الخواقة" الصُغيّر. مامتي لما بكلموها بنادوا لها "الخواقاية" الكبيرة، وأختي "الخواقايه" الصُغيّرة.

شاركته الضحك، ولكن ليس على التسمية، فهي ليست غريبة عليّ، ولكن للطريقة التي كان ينطق بها كلمتي "الخواقة والخواقاية"، فقد كان يفتح فمه وينفخ صدره، يرفع رأسه ثم ينزله، وكأنما هو ديك يريد أن يكاكي.

- إذن هل تسمح لي أن أناديك الخواجة أندرياس؟

- طبعاً، طبعاً؛ أحب ذلك كثيراً. قالها بالإنجليزية، ثم أضاف بالعربي:

- دنا وحشتني كلمة "خواقة" أوي، أوي. قالها بشهية وتلذذ.

- إذن ، من الآن فصاعداً أنت صديقي الخواجة أندرياس.
- "عزيم. عزيم. دا "فنان" !
ضحكت من جديد للطريقة التي ينطق بها الكلمات، وشاركتني روز ماري الضحك دون أن تفهم ما نقول، والتي كانت طيلة هذا الوقت محدقة بنا، دون أن تتفوه بكلمة، وتنقل طرفها بيننا، وكأنما تشاهد أحد أفلام السينما الصامتة!
- وهل عدت لزيارة الإسكندرية منذ مغادرتكم لها؟ سألته بالإنجليزية.
- نعم، وليتني لم أفعل. كانت جميلة وساحرة قبل أن نغادرها. كل مكان كان نظيفاً، ولكن وجدتها قذرة، حتى البنسيون الذي كان قطعة من النظافة والجمال، صار بشعاً تشم رائحته القبيحة من الباب.
- ولم هذا التغيير إلى الأسوأ برأيك؟
- لأن الذين حلّوا مكاننا لم يتعبوا في بنائه بل حصلوا عليه بدون مشقة ولا عناء! قال بمرارة.
- وهل تعلمت اللغة العربية أيام كنت بالإسكندرية؟
- نعم. اللهجة المصرية. كنت دائماً أتكلم مع أقرأني في المدرسة بالعربية والإنجليزية واليونانية، لأن المدرسة كان بها طلاب من جنسيات متعددة، مع إنها كانت مدرسة يونانية. كنت أتكلم جيداً، أما الآن وبسبب عدم الممارسة فقد نسيت اللغة.
- سهيل دعاني للعشاء على أكل ماليزي، فهل تعرف مطعماً جيداً نذهب إليه؟ سألت روز ماري الخواجة أندرياس، بعد أن قدمتهما لبعض.
- طبعاً، طبعاً. كنت أفكر أن أدعوكما الليلة هنا في مطعم الفندق، ولكن بما أنكما قد عقدتما النية على تناول العشاء في مطعم ماليزي، فسأدعوكما مساء الغد. ثم فتح درجاً، وأخرج منه دفتراً مملوءاً بالعناوين، اختار منه رقماً ثم ضغط على أزرار الهاتف، وسمعته يحجز طاولة لأثنين الساعة الثامنة باسم "موتيل الشاطئ".

*****

نظرت إلى ساعتي فإذا هي السابعة إلا خمس دقائق، فاستغربت هذا التأخير في الموعد؛ ولكن دهشتي زالت عندما عادت موظفة الاستقبال من تناول عشاءها ، وطلب إلينا مضيفنا أن نرافقه إلى داخل المطعم، وأجلسنا على إحدى الطاولات، ثم طلب قارورة من الشمبانيا الفاخرة مع ثلاثة كؤوس، وبعد أن ملأها، وقف ورفع كأسه إلى أعلى، ثم فعلنا نحن مثله، وقال "فلنشرب نخب تعارفنا" ثم قرب كأسه من كأسينا، وضرب كل واحد منا كأسه بكأس الاثنين الآخرين، وقلنا معاً بصوت واحد "فلنشرب نخب صداقتنا الجديدة" وأفرغ كل واحد منا كأسه في جوفه.
بعدها تفّرع بنا الحديث وتشعب، فتحدثنا طويلاً عن مصر والبلاد العربية، وعن إسرائيل وعربدتها في المنطقة، وخضنا في السياسة والعادات والأكل والحياة الاجتماعية. وأعلمنا بأن له أختا أصغر منه تعيش في اليونان، متزوجة وعندها ولدان وبنت وهي سعيدة جداً، إذ إن زوجها تاجر موفق؛ كما أخبرني بأن له بنتاً هي الأخرى متزوجة من شاب يوناني، ولكنهما لم يرزقا بذرية، فتبنيا بنتاً عمرها الآن تسع سنوات، وهما يملكان فندقاً أيضاً في مثل حجم فندقه، في مدينة سان فرانسيسكو، وأعطاني عنوانهما حتى إن

ذهبت إلى هناك فإنهما سيهتمان بي كثيراً. وكذلك قال بأن والديه قد توفيا الاثنين في نفس العام في مدينة نيويورك قبل أكثر من عشر سنوات.

حقاً كان الأكل الماليزي لذيذاً جداً، وكان النبيذ الفرنسي فاخراً أيضا، فأكلنا وشربنا، روز ماري وأنا، بشهية ! جاء مدير المطعم، وأعلمنا بأن ثمن العشاء مدفوع من قبل موتيل الشاطئ.

رفضت رفضاً شديداً، وأصررت على الدفع، ولكن مدير المطعم أعلمني بأن هذه هي رغبة السيد أندرياس، وإنه لو قبل أن يأخذ مني ثمن العشاء، فإن صاحب الموتيل سيغضب منه، ولن يرسل له زبوناً بعد اليوم.

عندما عاتبت الخواجة أندرياس على فعلته هذه، ضحك حتى استلقى على ظهره، وقال:

- أنسيت أن عاداتكم تلزمك بأن تقدم الطعام والمأوى لضيفك لمدة ثلاثة أيام قبل أن تسأله من هو؟ أنا أقدم لك الضيافة ليومين فقط. اليوم وغداً.

- لم يعد أحد يعترف بهذه العادة، إذ إن الناس يعتبرونها من مخلفات العهد البائد، إن المضيف في هذه الأيام، يدفّعك ثمن الطعام والمأوى سلفاً وقبل أن يقدمه لك. قلت.

لا شك أن ما قلته لم يسعد الخواجة أندرياس لوحده، وإنما نال استحسان روز ماري أيضا. إذ انفجرت هي الأخرى تضحك حتى دمعت عيناها.

في الليلة التالية كذلك أصر الخواجة أندرياس على دعوتنا، ولكن هذه المرة في مطعم الفندق. كانت زوجته حاضرة، فأمضينا أمسية من أروع الأمسيات، إذ إن "الخواجاية" روزلند، امرأة ممتعة وشيقة جداً! إنها متعلمة وذات ثقافة واسعة، تجعل مستمعيها يتمنون لو أنها تظل تتكلم ولا تكف عن الحديث، لطلاوة أسلوبها وعذوبة صوتها، فهي أستاذة تدرّس مادة التاريخ في مدرسة "القونابيش" الثانوية. إنها جميلة جداً، أنيقة ورشيقة، وطباخة ماهرة. إنها من أبوين مهاجرين من السويد، ولكنها من مواليد كاليفورنيا!

طبعاً، لم يقبل الخواجة أندرياس أن ندفع فاتورة حساب "الموتيل" لليلتين، رغم إصراري وإلحاحي الشديدين!

لم آت إلى لقونابيش، بعد تلك الرحلة، إلا وأحضرت معي لهما أو لأحدهما أو للبيت هدية، ولو رمزية، ولم أترك مناسبة تمر دون أن أقدم لهما شيئاً وكذلك كانا يفعلان معي.

*****

- ما رأيك أن نستبدل "الموتيل" هذه المرة؟ فقط لمجرد التغيير وليس لأي سبب آخر؟!

سألت صوفيا حالما أوقفت السيارة فوق التل قبل دخولنا مرآب النزل.

- ولم تقولين ذلك يا عزيزتي؟! قلت باستغراب وحيرة.

- يوجد فنادق كثيرة في الطرف الثاني من المدينة تقع في التلال، ولا تقل جمالاً عن هذا النزل! أنا أحب التجديد دائماً!

- لو كنت أبغي التلال، لما كانت هناك من حاجة للمجيء إلى "القونابيش"، ولكنّا ذهبنا إلى منتجع آخر يقع على التلال أو الجبال، نحن نأتي إلى هنا خصيصاً من أجل البحر... نعم؛ البحر...!

- آسفة، لقد نسيت ذلك! اعذرني! ومسحت بيدها على شعري لتطيب خاطري.

- أحب أن أسمع صوت الأمواج، وتشنف آذاني تكسرات الموج فوق الصخور! إنها موسيقى الطبيعة. نحن شعب نعشق البحر. لقد خسرنا بسبب جهلنا وجهالتنا، بحراً كبيراً طويلاً عريضاً ومعه كل مدن الشاطئ!يافا وحيفا وعشرات مدن الشاطيء !

ابتسمت صوفيا، إذ لا شك أنها لم تفهم ما عنيت! أسندت ظهرها على كرسي السيارة، ومدت رجليها اللتين هربتا من تنورة جلدية بنية، فبان فخذاها السمينان البضان تحت كولون ضارب للزرقة فزادها إغراء!

- لا اعتراض لي على شيء، حتى لو اقترحت أن ننام في السيارة عند حافة الرمل.

اقتربت مني، وأخذت تنظر في عيني وتتأمل وجهي، وصارت تتحسس شعري الأسود الجعدي، كما كانت تفعل في كثير من الأحايين.

- يا إلهي! لو صبغت شعري بالأسود، فهل يصبح جميلاً مثل شعرك؟! قالت فجأة.

ضحكت باعتزاز وزهو، اعتزاز وزهو الرجل الشرقي الذي تمتدحه أنثاه، فقلت:

- ولكنني أحب شعرك الذهبي! هل هناك ما هو أروع وأكثر سحراً من الشعر الذهبي؟! نحن أبناء الشرق العربي نهيم غراماً بالشعر الذهبي والعيون الزرقاء، وحكامنا وقادتنا يبددون ثروات الأمة على الأجنبيات ذوات الشعر الذهبي والعيون الزرقاء! صدقيني يا عزيزتي، إنهم يسلمون مصائر شعوبهم للأجنبيات ذوات الشعور الذهبية والعيون الزرقاء! إنهن يتحكمن بأقدارنا وثرواتنا ويُدِرْنَ دفة الحكم حسب رغباتهن وأهوائهن، وطبقاً لمصالح بلادهن! إنهن اللواتي يُنصّبن حكامنا، وهن اللواتي يعزلنهم!

فرحت لقولتي هذه وضحكت برضا وجذل، لأن هاتين الخصلتين تتوافران بها!

- إنني أعبد شعرك الأسود المجعّد... إنه يسحرني... يثير رغباتي!

قالت ذلك وفكت أزرار قميصي، وأخذت تتحسس الشعر الأسود على صدري بطريقة أثارت غرائزي، وأيقظت الوحش النائم في داخلي، فأبعدت يدها عني بلطف، وقلت:

- نحن في الشارع يا صوفيا، والناس ينظرون إلينا ويتغامزون! لدينا وقت كاف في النزل، دعينا ندخل أولا فنستريح في غرفتنا من عناء السفر!

- نعم دعنا ندخل، فقد بدأت أشعر بجوع شديد. إنني أيضاً متعبة وأشعر بالجو الحار يشتد على عنقي.

عندما دخلنا غرفتنا، شعرت بأنني أدخل في ظل التكييف إلى عالم آخر. خلعت ملابسي وأبقيت السروال فقط، واسترخيت على الكنبة الكبيرة في الصالة. كان الهواء يصل إلى كل ذرة في جسدي فيمنحني شعوراً لذيذاً بالراحة والسعادة والرضا، فأغمضت عيني لأستريح لحظات.

دخلت صوفيا إلى الحمام، وما لبثت أن بدأت أسمع صوت انهمار الماء. أخذت أتخيل جسم ألكسس الذي يتثنى كالخيزران، ولمعت في مخيلتي صورة ما لجسدها أسعدتني جداً. وتذكرت شفتي كارولاين ووجهها الساحر وعينيها الهادئتين، وشعرت بالفرح إذ أنني سألقى ألكسس صباح يوم الاثنين في قاعة المحاضرات، وربما في بيت أحدنا! فنشرب الجن بالليمون الممزوج بقطع الثلج، ونستمع إلى الموسيقى الناعمة... الدافئة... في هدأة الليل! ولكن يا لهذا الحاجز الذي يقف بيننا...عشر سنوات من العمر!

لكن عشر سنوات ليست بالكثير. ولكن كارولاين تناسبني أكثر، فهي أكبر عمراً من ألكسس، وأكثر هدوءاً، واحتشاماً، ثم إنها فتاة ناضجة، عقلياً وجسدياً، إذ لو أسير معها في الحرم الجامعي، فلا أظن أن أحدا ينظر إلينا باستغراب. ولكنها مرتبطة... ملتزمة... اللعنة...! آه يا ألكسس يا قطعة من الكريما الشهية!

وفجأة خرجت صوفيا من الحمام، فقطعت عليّ حبل أحلامي. كانت ترتدي "شورت" من الحرير الكحلي، بالكاد يصل إلى قمتي فخذيها السمينتين، وبدا جذعها كبرميل من الجعة، في يوم صيف حار، أما شعرها الكثيف، فقد غطى نهديها الكبيرين العاريين. كان جسمها الشهي يتحرك بتثاقل، ولكنها كانت تتمايل بطريقة تثير الرغبة. تقدمت مني وشيء كالنيران يخرج من عينيها، وأمسكت بيدي وحاولت أن تقودني نحو غرفة النوم.

- أرجوكِ! اتركيني، فإنني مرتاح هنا على الكنبة! قلت وأنا أقاوم يدها.

- الكنبة غير مريحة يا حبيب القلب. تعال إلى غرفة النوم، فهي أكثر راحة! تعال واستلق بجانبي!

قالت ذلك وهي تضحك وتغمز بعينيها!

- دعيني خمس دقائق أخرى... فقط خمس دقائق...!

- ولا ثانية... إنني جوعى ولا أستطيع الانتظار! قالت ذلك وسحبت يدي بشدة فاقتلعتني من فوق الكنبة، فنهضت واقفاً حتى كاد جسمي يضرب بجسمها!

- إذن، دعيني أستحم أولا، لأستعيد نشاطي. قلت وأنا أحاول جاهدا تخليص يدي من قبضتها.

- ليس الآن! قالت ذلك وسحبتني من يدي، فسرت خائفا مذعنا كطفل صغير يتبع أمه.

ولأول مرة منذ أن عرفت صوفيا، قبل أكثر من ستة شهور أعانقها وأقبلها وأداعبها، ثم أمارس الجنس بغير رغبة مني ولا شهية. أؤدي واجباً فقط...!

*** * *

لقد قابلت صوفيا في شركة التأمين، يوم ذهبت لأؤمن على سيارتي. استقبلتني بحفاوة فائقة، وكانت لطيفة معي جداً، وبشوشة وكريمة أيضا! لقد شعرت إنها عاملتني كصديق وليس كزبون، مع أننا نتقابل لأول مرة. لقد أحسست وكأنما أعرفها منذ سنوات، إذ أعطتني سعراً خاصاً... مخفضاً، وشرحت لي كل حقوقي كمؤمن، وكشفت لي جميع حيل وألاعيب شركات التأمين، وحذرتني منها!

- أشكر الله الذي عرفني إليك! لا شك أنني محظوظ! قلت بعد أن انتهيت من توقيع الأوراق وناولتها لها.

- لقد دخلت قلبي منذ أن وقعت عيناي عليك، فشعرت كأنما أعرفك من مدة طويلة، وأننا صديقان حميمان. قالتها بجرأة أدهشتني وعيناها تتحدان عيني.

- نحن الآن أصدقاء. قلت ببراءة مجاملاً وأنا أضحك.

- إذن اقبل دعوتي إلى فنجان قهوة أو كأس من البيرة، أيهما تريد!

- أين؟! سألت بارتباك وحيرة، وقد فاجأتني الدعوة.

- في شقتي إن أحببت أو في مكان آخر.

- متى؟! سألت وقد صرت أعريها بمخيلتي، وبدأت شهيتي لجسدها تنمو وتتعاظم.
- الليلة! هذا إذا لم يكن عندك ارتباط. شريكتي في الشقة في إجازة في كندا هي وصديقها لمدة ثلاثة أسابيع. لقد غادرا قبل خمسة أيام فقط. أنا وحدي في الشقة!
- أنا دائماً عندي ارتباط... مع كتبي وأوراقي!ا نا متيم بهما اشعر بالاختناق ان ابتعدت عنهما مدة طويلة ! صدقيني!
قلت وأنا أضحك، وعيناي تتأملان وجهها الباسم... الواسع... المستدير، والذي يطفح عافية ونقاءً، وشفتيها المملوءتين اللتين تشبهان حبتي كرز كبيرتين ناضجتين.
- إذن اعتذر الليلة لكتبك وأوراقك بأن عندك موعداً !
قالتها واستغرقت في ضحكة عميقة جذلى بعد أن أغلقت عينيها كأنما تحلم.
- سأفعل بكل سرور! قلت وقد بدأت بمخيلتي، أعريها وأعانقها وأتعارك معها، وأغرق نفسي المحرومة والمسغوبة والقادمة من قحط الربع الخالي، في جنة جسمها المملوء والمترف...! نفسي التي لو نالت كل بنات حواء لطمحت بالمزيد !
شربنا الويسكي الفاخر بالصودا، وتعشينا شرائح اللحم البقري المشوي، الذي أهيم به وآكله بشراهة ولا أشبع منه أبدا... آكله بنهم وكأنما لأعوض عن سنوات القحط والحرمان الطويلة ! يوم كنا نأكل اللحم بالمناسبات فقط، لم نكن الوحيدين الذين يعانون من هذا الحرمان، وإنما كانت الأغلبية من سكان منطقتنا السلط الحبيبة، والتي كانت غالباً لا تحدث إلا خلال أشهر الصيف وبالمناسبات السعيدة كزواجٍ أو ولادة طفل ذكرٍ !
لقد شوته صوفيا بنفسها... وما ألذ شويها، وهي تضمخه بتوابل ابتساماتها ونظراتها... وغمزاتها وإيحاءاتها...!
إن صوفيا لا تجيد شوي شرائح اللحم البقري فقط، وإنما تجيد إلهاب أجسام وعواطف عشاقها... إن الواحد منهم لا يصدق في الصباح ما حدث له في الليلة الماضية، لأنه سيظن إنه كان في حلم لغرابته وزخم متعته...!
في الصباح الباكر، وأنا أغادر شقة صوفيا عائداً إلى بيتي، لأستعد للذهاب إلى الجامعة، كانت هناك قضية تزعجني وتستبد بتفكيري... كانت تجعلني غير سعيد، ومنقوص الفرحة بمعرفة صوفيا... وهي أنني كفارس عربي، أفخر بذكورتي وفحولتي معاً وبقبليّتي أيضاً... أحب أن أكون أنا الذي يقنع أنثاه بأن يأخذها إلى الفراش، وليست هي التي تفعل... أريدها أن تغضب أول الأمر... أن ترفض بإصرار... تمانع... يتورد خداها خجلاً... تتدلل... تبتسم... ثم تقبل بعد ذلك... أنا لا أريد من أنثاي أن تكون هي التي تقوم بكل ذلك... "تطبقني" لقد أزعجتني الفكرة كثيراً، وما زالت تزعجني إلى هذا اليوم... لا أريدها أن تأخذ دوري... خصوصاً ونحن بالفراش...!
إن مبادرتها هي بالطلب إلي أن نتطارح الغرام ، تنال من رجولتي وتثير فيّ إحساسا بالتضاؤل أمامها. إذ يجب أن أكون أنا الذي أمارس دور الرجولة والفحولة والانقضاض...! فأنا كرجل شرقي يعربي ، أعتبر أن مضاجعة الرجل للمرأة هي مغامرة... اكتشاف... مطاردة... اصطياد... اغتصاب...! هي علاقة قمعية... اقتحام لحصونها... استيلاء على قلاعها... إخضاع لها وانتصار عليها... امتلاك واحتكار لها... وليست علاقة الند للند كما هي الحال في المجتمعات الغربية...! هكذا علمتنا قوانين القبيلة، وهكذا ألزمنا دستورها العتيد !

لقد تعلمنا هذا وحفظناه عن ظهر قلب، منذ أن تفتحت عيوننا على هذه الأرض الطيبة...!

*****

كنا نجلس بعد العشاء في شرفة غرفتنا بالدور الثاني في الفندق، وكنت أحملق بعينين جامدتين بأضواء المراكب الغادية والرائحة أمامنا، بعيدة في عرض البحر. كان صوت الأمواج الهادر الذي يضرب الصخور الكبيرة ويتكسر عليها، يذكرني بالوطن السليب، والبحر الذي ضاع؛ ويذكرني بالوعود التي كان القادة السياسيون يلوحون لنا بها حول استعادة البحر ومدن الشاطئ ! عليهم اللعنة! لقد أضاعوا فوقها المروج الخضراء ومدن الجبال؛ وتركونا نهيم على وجوهنا في بلاد الغربة كالكلاب الضالة، نجوب الشوارع الخالية في برد الشتاء القارس، نبكي الوطن السليب والعرض المثلوم، كالأرامل واليتامى وأبناء السبيل!

كانت صوفيا تتمطى على الكرسي إلى جانبي بجسمها الضخم المكتنز، ونهديها الكبيرين العاريين، وتحملق بي بعينيها الشبقتين الجائعتين، ونظراتها النهمة المحمومة ! وكانت بين وقت وآخر، تذهب إلى الداخل لتحضر شيئاً نأكله أو نشربه، فتطعمني أو تسقيني بيديها، ثم تعود لتلتصق بي من جديد كقطة وادعة، وتدغدغ الشعر الأسود على صدري؛ وعندما كانت تقبلني بنهم وكأنها تأكل شفتي، كنت أغمض عيني لأتخيل شفتي كارولاين الحمراوين دون روج ولا مكياج، أو جسم ألكسس الذي يتثنى كغصن زيتون غض من زيتون بلادي، فأحس باللهفة والفرحة معاً.

لقد قررت بيني وبين نفسي، قراراً لا رجعة عنه، إن تلك هي آخر مرة أجيء بها إلى هنا أو إلى أي مكان آخر مع صوفيا. كنت أعرف أن قهوتنا قد بردت، وأن نبيذنا قد تحول إلى خل وأن مشاعري نحوها قد خمدت، بل اضمحلّت!

إن صوفيا قد انتهت بالنسبة لي... إنها لم تعد ممتعة... لم تعد تثيرني وتلهب عاطفتي... لقد مللتها... قرفت منها.. .لقد آن الأوان لأستبدلها...! كنت أحتفظ بها حتى أجد البديل... فهل وجدته...؟! ربما...! أنا رجل مفجوع... مفجوع... حتى نخاع النخاع... وأطراف الأصابع...! أنا دائماً جائع... بي جوع كالسعار... بي قحط عاطفي... قحط روحي، وقحط جنسي أيضا! إن في داخلي قحطاً، وفي خارجي قحطاً... وفي نظراتي قحطاً، وكلي قحط... بي قحط كقحط صحراء تهامة، وحفر الباطن، والربع الخالي وتخوم نجد! إن جوعي لا تشبعه مضاجعة كل جميلات العالم أجمع! إن في قلبي وعاطفتي شروخاً وخروقاً وتمزقاً لا يمكن شفاؤها...! إنها لعنة "التابوهات" التي أرضعوها لنا مع الحليب، وتنفسناها مع الهواء...!

*****

إن من عادتي أن لا أغادر منتجع "لقونابيش" عائداً إلى بيتي مساء يوم الأحد، إلا بعد غروب الشمس بساعة على الأقل، حيث أجلس على التلة التي تركب البحر، وأرقب الشمس وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة وتدفن نفسها عند الأفق! أما في هذا اليوم، فقد غادرنا قبل غروبها بحوالي ساعتين مما حير صوفيا وأثار تساؤلاتها!

- علي أن أصلح الليلة مجموعة كبيرة من أبحاث الطلاب، لأنني يجب أن أعيدها إليهم صباح الغد؛ وقد تستغرق مني هذه العملية الليل كله!

- ليتك أحضرتها معك، لكنت فعلت ذلك ونحن نجلس على الشاطئ، أو ونحن في الفندق ! ثم أنني أحب أن أقرأ ما يكتبه طلبتك. لطالما تمنيت في صغري أن أكون مدرسة!

- لقد غابت الفكرة عن بالي، وقد أفعلها في المرة القادمة؛ ثم إنني لا أحب عندما أكون بصحبتك أن أنشغل عنك بأحد، أو بشيء سواك. قلت أطيب خاطرها، وأبالغ في محبتي وتوددي إليها، وكانت يدي تداعب خدها.

- إنك لطيف جداً يا حبيبي! كم أحزن على السنوات التي مضت من عمري قبل أن أتعرف إليك، إنني أعتبر ميلادي ابتدأ منذ تلك اللحظة التي قابلتك بها!

- أرجوك! لا تقولي ذلك، فإنه بقدر ما يسعدني فإنه يحزنني! قلت صادقاً وأنا أتألم فعلاً من أجلها. ثم تابعت:

- نحن لا نقدّر ما عندنا إلا إذا حرمنا منه!

- لن أحب بعد اليوم سواك، ولن أسمح لإنسان أن يمسني غيرك!

لم أعلق على ما قالت، وإنما ضغطت على البنزين بقسوة، حتى شعرت أن السيارة ترقص تحتنا وتتمايل يمنة ويسرة، وعلى وشك أن تنقلب على الطريق السريع، حيث لاحظت أن عداد السرعة يكاد يلامس خانة المائة، مع أن سرعتي في العادة لا تتعدى السبعين ميلاً. التصقت بي صوفيا، ولفت يدها اليسرى حول عنقي، وبيدها اليمنى صارت تعبث بشعري، وتقبل أذني وعنقي وصدغي المقابل لها.

أبعدتها عني بلطف، ورجوتها أن تكف عما تفعل، لأن مداعبتها لي قد تفقدني السيطرة على القيادة، فتخرج السيارة عن مسارها فنموت، خصوصاً وقد ازدادت كثافة السيارات على الطريق السريع بسبب انتهاء عطلة نهاية الأسبوع، وعودة المتنزهين إلى بيوتهم. لقد وجدت نفسي مرغماً على تخفيف السرعة.

- هل تعرف يا سهيل؟ إنني منذ أن بدأت أخرج مع الشباب، لم يتودد إلي واحد منهم إطلاقا كما تفعل أنت! إنك أنت الوحيد الذي يعاملني برومانسية زائدة وباحترام شديد، وتجعلني أشعر حقاً أنني سيدة... أنني امرأة... يعشقها رجلها... يفكر بها دائماً... يخـاف عليها... وإنها صنوه ونصفه الآخر!

- أنا أعامل كل النساء اللواتي أصاحبهن بهذا الأسلوب. قلت صادقاً.

- إننا ونحن نمارس الجنس بالفراش، تجعلني أعتقد أنني أنا المرأة المعشوقة والوحيدة في هذا العالم، فأتمنى لو أعيش العمر كله هكذا! أحلق بين السحاب، وأن أتلاشى بين يديك!

كلامها أثار أحزاني من جديد، ومن جديد أيضا ضغطت على البنزين أكثر، حتى صارت السيارة تتراقص إلى اليمين تارة وإلى الشمال تارة أخرى، فأحسست كأنما الماتور يتأوه من ظلمي له وقسوتي عليه.

لا شك أن الصبية كانت سارحة مع أحلامها، وكنت أنا أناقش أفكاري وأحاورها، وأهيئ في عقلي الذرائع والحجج التي سأقولها لها هذا المساء! لقد سهونا كلانا عن السرعة التي كنت أقود بها السيارة، فلم تنبهني هي، ولم أنتبه أنا؛ وإنما نبهتنا سيارة بوليس الدوريات الخارجية التي عبرت من جانبنا كالسهم، تطارد سيارة كانت تسابق الريح؛ عندها تنبهنا لسرعتنا الزائدة، فخففتها بشكل ملحوظ! لقد ارتعبت أنا، ولا شك أن

صوفيا هي الأخرى قد ارتعدت فرائصها، لأن قيمة مخالفة سير من هذا النوع سترهق ميزانيتنا لشهور طويلة.

لم أدعُ صوفيا أن تصعد معي إلى شقتي كما هي العادة، بحجة أن علي أن أعمل لعدة ساعات لتصليح أبحاث الطلاب قبل أن آوي إلى فراشي؛ ولأن صعودها معي سيعوق عملي، حيث إننا سنمضي الوقت بالأكل والشرب والحديث، وبأشياء أخرى.

- سأفتقدك كثيراً... في الحقيقة لقد بدأت أفتقدك من الآن... إن حياتي خاوية بدونك! إنني أحبك كثيراً يا سهيل! أنت لي كالهواء... لا أستطيع أن أعيش بدونك..

قالت بحزن ونفس مكسورة وهي تكاد تبكي.

- وأنا أيضا. قلتها بفتور وانقباض شديدين.

- سأكلمك الليلة، وأراك غداً بعد انتهاء ساعات العمل. قالت.

- حسناً. ليلة سعيدة. وقبلتها قبلة خاطفة على جبينها.

نزلت من مقعد السائق وحملت حقيبة حاجياتي. نزلت هي من مقعدها ودارت أمام السيارة، وقبلتني على شفتي قبلة خاطفة أيضا، ثم فتحتُ باب السيارة وجلستُ خلف المقود وانطلقتُ وهي تلوح لي بيدها.

لم تكن السيارة التي أقودها لي، إذ إن سيارتي كانت مستهلكة وتحتاج إلى تغيير. لقد كان عمرها ثلاثة عشر عاماً "فوكس فاجن" صغيرة، أما سيارة اليوم فهي سيارة صوفيا، عمرها بضعة شهور فقط، هوندا حمراء موديل " بروليود " سبورت ! كنت أنا الذي يسوقها دائماً كلما كنا معاً، وكانت تجلس إلى جانبي، حيث إنها كانت تشعر بالرضا والغبطة، وهي تجلس إلى جانب رجلها وهو يقود السيارة، كما أخبرتني بعد بدء تعارفنا!

وسط جو من التوتر النفسي، والثورة العصبية الجارفة، والاضطراب الذهني الثقيل، وتحت وقع سياط الحيرة والتردد، وتجاذب التيارات الموافقة والرافضة، بين نعم ولا، بين صرّح ولا تصرحْ... بين قل ولا تقل... يا للعذاب ! يا للعذاب! يا للعذاب ! بين كل هذه المشاعر الفياضة المثيرة، كنت أقول لنفسي، هل أصارح صوفيا بحقيقة شعوري نحوها؟ وأنهي العلاقة حالاً؟ أم هل أبدأ بالتهرب من مقابلتها ومكالمتها؟ فتدرك هي، وهي الذكية، بأنني بدأت أعافها ولا أريدها؟ ستعرف حالاً، أنني تركتها لأجل أخرى، لأنها واثقة من أنني لا أستطيع أن أعيش يوماً واحداً من دون امرأة! إنني أشعر بالضياع وأحس بالاختناق بدون حواء!

هي تعرفني جيداً، وأنا صرحت لها بذلك يوماً! المرأة هي بالنسبة لي كالماء والهواء، لا أستطيع أن أتنفس وهي بعيدة عني! إنني حتى عندما أقف أحاضر في طلبتي، فإنني لا أحسن الكلام، وتهرب الأفكار مني، إذا لم يكن بين المستمعين فتيات جميلات، يمنحنني ابتساماتهن العذبة، ويرسلن نظراتهن التي تلفني بين جفونهن! إن جمالهن وابتساماتهن ونظراتهن؛ هي زادي وإلهامي وطاقاتي... هي التي تجعل كلماتي ساحرة، ممتعة، جذابة ومثيرة! تعساً لأولئك الطلبة الذين تنعدم في فصولهم طالبات حسناوات، مغناجات، ذوات نظرات لاهبة، وعيون ساحرة، يثرن عواطفي ويشعلن الحرائق بدمي، فإنهم لا يسمعون مني إلا لغواً، ولا يجدون في شخصيتي إلاّ مللاً وبروداً وتفاهة!

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلاً، فصممت أن أحسم الأمر الآن. رفعت سماعة الهاتف وضغطت على خانة الحاسوب المدون بها رقم صوفيا، وحالما سمعت صوتي صاحت بفرح ضاغط:

- سهيل! لو تأخرت دقيقة واحدة لكنت سبقتك! لقد افتقدتك كثيراً. هل انتهيت من تصحيح الأبحاث؟

- تقريباً. بقي علي أن أرصد العلامات. قلت بفتور وإن كانت أعصابي تتمزق في داخلي وتحترق.

- هل آتي لرؤيتك الآن؟ أرجوك، لا ترفض طلبي! أعدك بأنني لن أتأخر. أشاهدك فقط لبضع دقائق ثم أعود. لن يزور الكرى جفنيّ إلا إذا تكحلا برؤيتك. أنا أعرف أنك مرهق ويجب أن تأوي إلى فراشك.

- اسمعي يا صوفيا، أريد أن أقول لك شيئاً مهماً... مهماً جداً...

- لا تتعب نفسك، أعرفه! أجابت وكأن جوابها كان معدّاً. وأخذت تضحك بحبور وتلذذ ومتعة.

- تعرفينه؟! ومن أخبرك به؟ أعني كيف عرفت؟ من قال لك؟! أنا لم أعلم أحدا قط!

- شعوري... أحاسيسي... قلب المرأة العاشقة... المتيمة بمن تحب.

شعرت بالارتياح فجأة، وتنفست الصعداء، إذ إنها قد وفرت علي مصارحتها بالحقيقة ومشقة إقناعها، وسرد المبررات والذرائع. ولكن فجأة سيطر عليّ شعور بالإذلال المهين، والغضب الماحق، فأحسست أن كرامتي قد أهينت، وأن رجولتي قد ديس عليها! فأنا رجل شرقي أفتخر بشرقيتي، إذ ليس من طبعي، بل لا يمكن لرجل مثلي، تربى وترعرع على عادات أهل حفر الباطن ومعتقداتهم، أن يجيز لأنثاه أن تتعالى عليه وتهمشّه، وإنما هو الذي يجب أن يسرحها. إنه هو الذي ينبذها، وليست هي التي تفعل! أين الرجولة والشهامة والكرامة؟!!

إذن؟! وجدت الحقيرة الخائنة من هو أحسن مني، فتريد أن تتخلص مني قبل أن أفعلها أنـــا...! الساقطة...هكذا هنّ النساء... كلهن خائنات... دارت برأسي كل هذه الخواطر خلال ثوان.

- وماذا قالت لك أحاسيسك وشعورك وقلبك؟! سألت باهتمام وترقب شديدين.

ضحكت بعمق وشهية، وكأنما تأكل شيئاً لذيذاً... لذيذاً جداً!

- قالت لي إنك لا تستطيع العيش بدوني، وإنك ستطلب يدي للزواج !

يا للكارثة! كم بعدت بي الأفكار! ولكن في داخلي... في أعماقي... فرغم المفارقات التراجيدية، فقد شعرت بأن كرامتي قد ردّت إلي، وأن إحساسي بالإذلال قد فارقني. إذن أنا الذي سأتخلص منها أولا وليست هي! يحيا العدل! لقد انتصر الحق! الديك العربي انتصر على فرخته!

وفجأة استبدت بي الحمية القبلية، فاعتراني شعور بالغبطة والرضا عن نفسي، كما أحسست بالاعتزاز والفخر برجولتي، فقلت:

- لا شك أن خيالك قد شطح بك بعيداً... بعيداً جداً! إنه ليس هذا الموضوع الذي أردت التحدث به معك.

- وما هو إذن؟

قالتها بخيبة، وتصورت وجهها قد اكفهر، فقد وصل إليّ صوتها ذليلاً مكسوراً مخذولاً!

قلت وقد استجمعت كل شجاعتي ومنطقي وحججي:

- الخبر الذي أريد أن أقوله لك هو... أعني هو... إنه لا فائدة من صداقتنا، وإنني لست بالرجل المناسب لك... أعني لست مناسباً لأن أتزوجك... أنا إنسان أناني... يجب أن نفترق..!

- حبيبي! أرجوك! إن قلبي لا يحتمل مثل هذا المزاح السخيف! إذا أحببت أن تمزح معي فقل شيئاً غير هذا! أنت تعرف كم أحبك، وأنني لا أستطيع أن أعيش بعيدة عنك!

- أنا لا أمزح يا صوفيا! أنا في منتهى الجدية... لقد اتخذت هذا القرار بعد تفكير طويل ودراسة مستفيضة. مرت فترة صمت مهيب كئيب خلتها شهوراً قبل أن أسترسل:

- إنكِ دائماً تتحدثين عن المستقبل، وعن الاستقرار مع زوج يحبك وتحبينه، وعن الأطفال... فأنت تحتاجين إلى من يحقق لك هذه الرغبات والأحلام. أما أنا فمتشرد بتفكيري وتصرفاتي، لقد رهنت نفسي لقضية الوطن، والتزمت بهمومه ومشاكله... أنا لا أصلح للزواج... أنا غير كفؤ لأن أتحمل مسؤولياته والتزاماته... أنا لا أصلح لأن أكون أبا...! صدقيني. أنا لا أقول هذا لأي سبب، إلا من أجل مصلحتك...!

توقفت لأسمع ما تقول، ولما لم تتفوه بشيء، تابعت:

- أنت فتاة جميلة ذكية... ممتعة... مثقفة... جذابة... دافئة... حنونة... ناجحة في عملك. الكثيرون من الشباب يتمنون صداقتك، ويحلمون بالزواج منك... إنك ستكونين زوجة ناجحة وأمّاً ممتازة...!

اندفعت أقول ما كنت قد رتبته في مخيلتي طيلة اليومين السابقين، دون تردد أو توقف.

- إنني أشعر بالذنب العظيم وبالألم المرير، إذ إن ارتباطك بي يضيع عليك فرصة معرفة إنسان يحب أن يرتبط بك، بعد أن يتبين كل هذه الصفات الرائعة فيك، والتي قلما تتوفر بفتاة واحدة... أنت يا صوفيا غير مدركة لما تتمتعين به من فضائل ومواهب... أنا أشعر بالتعاسة والألم العظيمين معاً، وأنا...!

وهنا انقطع الاتصال، وبدأ صوت الهاتف كأنه الأنين المتواصل. وفجأة أحسست بالسعادة والرضا معاً، إذ شعرت بأن هماً عظيماً قد انزاح عن صدري، وكأنما أُطلقت من معتقل إلى الحرية، فتنفست الصعداء...!

استحممت، وشربت كأساً من الحليب المثلج، شعرت أن مذاقه هذه المرة أكثر لذة من السابق. ثم أويت إلى فراشي وأنا أحلم بألكسس وحياتي الجديدة معها... أحلاماً وردية... مخملية...!

لا أدري كم مرّ من الوقت، وكنت بين النائم والمستيقظ، عندما نبهني رنين الهاتف.

- ألو! قلت بتكاسل وتراخ.

- إنك عربي نتن عفن... أنت مخلوق تافه وحقير... أنت خاوٍ كذاب... نذل... جبان... بلا أخلاق ولا رجولة... أنت جرثومة... حشرة... صرصور... أنت معتوه متخلف... غبي... ليس عندك إحساس ولا شعور... أنت "skunk"... ثم انفجرت تبكي بهستيريا...

كانت تتكلم بغضب ماحق وبسرعة فائقة، وكأنها تقرأ من ورقة مكتوبة. إذ لعلها كانت تريد أن تقول كل ما يختلج بخاطرها قبل أن أغلق السماعة.

- صدقيني يا آنسة صوفيا إننا لم نكن أقواما من الأنذال والجبناء، ولم نكن أمة تافهة وحقيرة؛ بل لقد كنا يوماً من أطهر أمم الأرض وأنبلها؛ وكنا من أكثرها عفة وشهامة ورجولة؛ ولكن حكامنا وزعماءنا، وكذلك الخونة والمارقين منا جعلونا ما نحن عليه اليوم! وصدقيني أيضا إنني لست الوحيد من بين أبناء وطني الذي تتوفر فيه كل هذه النقائص... نحن كلنا ذلك الشخص الذي ذكرته... كلنا "دقّة" الحاج علي... من السلطان حتى كناس الشارع، ومن إمام المسجد حتى الذي ينظف مراحيضه...! إننا لو لم نكن هكذا لما كنا قد رضينا حياة الذل والهوان هذه...، ونحن مليار ونصف المليار متحرك؛ وعندنا من الطاقات والثروات ما لا تأكله النيران...!

ثم أغلقت السماعة وعدت إلى فراشي، إذ أحسست الآن بأنني قد تحررت حقاً من جميع التزاماتي العاطفية والأدبية نحو صوفيا. لا أعتقد أن صوفيا قد سمعت ما قلت، وإن كانت قد فعلت، فلا شك في أنها لم تفهم ما عنيت.

في الحقيقة إنني تألمت كثيراً لبكاء صوفيا، فقد نزلت دمعتان كبيرتان من عينيّ خلتهما جمرتين تشتعلان! لقد كانت صديقة ملتزمة، متفانية في حبي وخدمتي والسهر على راحتي... كانت تدللني وترعاني، وكأنما أنا طفلها الصغير الذي لم تكن لترفض له طلباً مهما كان تحقيقه صعباً ومضنياً... ولكن... لا بد مما ليس منه بد...

*****

الفصل الثالث

- من ؟ ! الآنسة ألكسس؟! ماذا تفعلين هنا، في هذا الصباح الباكر، بحق السماء؟! هل هناك من مشكلة ؟! طمئنيني !

- صباح الخير بروفيسور دهشان. كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع؟ آمل أن تكون قد أمضيت وقتاً ممتعاً!

- لا بأس بها. ولكنك لم تجيبيني عن سؤالي. ماذا تفعلين هنا؟!

- أنا أنتظر وصولك. أريد أن أدعوك لطعام العشاء. لقد كنت كريماً معي ذلك اليوم، وأحب أن أرد لك الجميل. لقد أمضيت لحظات حلوة أستمع إلى أحاديثك الشيقة وآرائك الحكيمة.

- أوه ! لا تذكري ذلك. إنه شيء تافه... تافه جداً !

- ثم إنني قد اشتريت أشرطة الفيديو لأتعلم العربية، وأريد أن أرى بعضها أو كلها بحضورك... لتساعدني إن كان وقتك يسمح بذلك... هذا إذا لم يكن عندك مانع...!

- طبعاً... طبعاً... وقتي يسمح... ولا مانع عندي... أعني إن عندي دائماً وقتاً لمساعدة طلابي... إنه يسعدني... وكذلك فهو واجبي نحو طلابي ونحو قوميتي. قلت جاهداً وأنا أحاول إخفاء سروري.

- شكراً يا بروفيسور. شكراً جزيلاً. إنك شهم وكريم.
- أحضريها إلى هنا بعد انتهاء المحاضرات... في أي يوم تشائين!
- هنا في المكتب؟! ألا تعتقد أنه سيكون من الصعب التركيز، والمراجعون من الطلبة يدخلون ويخرجون؟!
- أتقصدين في بيتك إذن؟ أعني، أين تريدين أن نشاهدها؟
- في بيتي... في بيتك لا فرق. اختر أنت المكان.
- نعم... نعم لا فرق ! قلت وأنا أهز رأسي موافقاً، وأفتح باب مكتبي وأشير لها بالدخول.
- لم جشّمتِ نفسك عناء الحضور المبكر!! الساعة الآن ليست الثامنة بعد، ومحاضرتنا تبدأ في التاسعة... أعني، كان باستطاعتك إعلامي في ذلك الوقت.
- أنت أستاذ محبوب جداً، والطلبة يتجمهرون حولك بعد المحاضرة ويلاحقونك بأسئلتهم، وخصوصاً الطالبات منهن ، فخفت أن لا تكون لي فرصة محادثتك!
- إطراؤك يسعدني كثيراً، ولكن ألا ترين أنك تبالغين في مدحك لي؟ قلت وأنا أشير لها بالجلوس.
- صدقني إنني حاولت جاهدة التحدث معك بعد المحاضرة يومي الاثنين والأربعاء، فلم أستطع؛ فصممت أن أحادثك يوم الجمعة...! طبعاً لم أكن أعرف أنني محظوظة إلى تلك الدرجة، وأنك كريم إلى هذا الحد... إنك لم تتحدث معي فقط، وإنما دعوتني إلى شطيرة وفنجان قهوة!
- أنا آسف أن الظروف لم تسمح بمحادثتك إلا يوم الجمعة، ثم إنني سعيد جداً أنني لم أخيب ظنك بي، وأنني نلت رضاك. قلت ذلك وأتبعته بضحكة خفيفة حتى ليبدو وكأنما قلته كان مجرد نكتة.
- قل لي؛ كيف كانت مدينة "لقونابيش"؟
- جميلة كعادتها... ولكنها كانت مليئة بالزوار هذه المرة أكثر من المعتاد، هكذا شعرت... قد أكون مخطئاً.
- حقاً، لقد كانت مزدحمة جداً بالناس، حتى يخيل للإنسان كأنما جميع سكان لوس أنجلوس قد انتقلوا إليها... ولكنني لا أعرف إذا كانت هكذا دائماً، أم أن هذا الأسبوع كان مختلفاً.
- ماذا تعنين؟ لقد أخبرتني ظهر الجمعة الماضي بأنك لم يسبق لك أن رأيتها.
وبعد أن ضحكت طويلاً بخبث ودلال وجذل قالت:
- نعم لقد كنت صادقة. لقد رأيتها لأول مرة يوم السبت... أمس الأول!
- تعنين أنك كنت في مدينة "لقونابيش" يوم السبت!
- وكذلك يوم الأحد.
- ولماذا؟ وكيف؟ أعني لماذا لم تقولي لي؟ لماذا لم تدعيني أراك؟! أعني لو كنت قلت لي لكنا تقابلنا... تكلمنا... دعوتك إلى فنجان قهوة... غداء... عشاء... أي شيء.
- أنا رأيتك! لقد كنت ساحراً في ملابس البحر... كنت تبدو وكأنك أحد ممثلي هوليود... وكذلك رأيت صديقتك... لقد كنتما متمددين على رمال الشاطئ.
- ولماذا لم تكلمينا؟ لكنت قدمتكما لبعض.

- هممت أن أفعل، ولكنني خفت أن أحرجك أمام صديقتك... وأنك قد تتضايق. وعرفت كذلك النزل الذي تسكنانه... إنه جميل وساحر... حاولت أن أجد به مكاناً فلم أوفق. كان معبأً.

- ليتكِ أخبرتني، لكنت وجدت لك مكاناً فيه؛ إن صاحبه صديقي الحميم. وأين نزلت؟ سألتها بلهفة ممزوجة بالأسف والحزن معاً.

- تعبت كثيراً حتى وجدت مكاناً في الطرف الآخر من المدينة... نزلاً متواضعاً جداً... جميعهم أخبروني بأنه عليّ أن أحجز مقدماً في عطلة نهاية الأسبوع.

- نعم، هذا صحيح... صيفاً وشتاء... لا فرق. ولكن كيف لم أرك أنا؟

- لقد كنت أضع نظارة شمسية، وأربط شعري فوق رأسي.ثم إنني كنت أنظر إليكما من بعيد! كنت حريصة على أن لا ترياني!

- إنك عفريتة يا آنسة ألكسس! لم أكن أعرف أنك ذكية وماهرة إلى هذا الحد!

ضحكت بسعادة وحبور وبدت عذبة وساحرة ولم تقل شيئاً! وتمنيت لو أستطيع أن أطبق على شفتيها وأحرقهما بقبلاتي المحمومة !

- ما الذي جعلك تفكرين بالذهاب إلى هناك، وكيف عرفت طريقك ؟!

- إطراؤك للمدينة أثار غريزة حب الاستطلاع عندي، ثم ذهابك إليها. أما معرفتي للطريق فسهلة جداً، سألت عامل مضخة البنزين فوصف لي الطريق !

- على كل حال، ما رأيك بصديقتي؟ أعني هل أعجبك جمالها... شكلها...

- هي جميلة وأنيقة حقاً، واختيارك لا بأس به... ولكني لم أعرف أنك تحب النساء المملوءات.

- ماذا تعنين؟! سألت مع أنني أعرف ما قصدت.

- صديقتك سمينة نوعاً ما... قل لها لو تخفف من وزنها فتصبح رائعة... إلا إذا كنت تفضلها أن تكون هكذا... بعض الرجال يفضلون السمينات ! قالتها وأتبعتها بضحكة خفيفة.

- ما أروعك يا آنسة ألكسس، وما أطيب قلبك ! حقاً لقد عظمت في عيني. إن المرأة عادة تحط من قدر أختها، لتبدو خيراً منها في نظر الرجل؛ أي رجل كان... أما أنت فتترفعين عن مثل هذا! قلت مخلصاً.

- هكذا تربيت... وهكذا أتصرف... أن أقول دائماً ما أعتقد إنه الصدق... حتى لو كان في غير صالحي.

- ولكن الصدق يضّر بصاحبه في كثير من الأحايين !

- هذا صحيح. قد يضّر به، ولكنه يكسبه احترامه لنفسه ! قالتها بإصرارٍ وتحدٍ أذهلاني...!

- صدقتِ... صدقتِ ... أنتِ رائعة في أعمالك وأقوالكِ !

ومرّت فترة صمت قصيرة، كنت خلالها أفكر بهذه الفتاة الصغيرة... الذكية... الناعمة... الجريئة... عندما قالت وكانت عيناها المتحديتان تحدقان بوجهي، وكأنما لتخترقا رأسي وتقرأا ما به من أفكار:

- بروفيسور دهشان ! أحب أن أسألك سؤالاً شخصيا، هذا إذا لم يكن عندك مانع.

قلت وأنا أضحك بسعادة وطرب، وعيناي تتأملان فتحة الفستان عند التقاء النهدين.

- إن أسئلتك تخيفني وتحيرني يا آنسة ألكسس؛ على كل حال تفضلي.

- لقد ذكرت لي ونحن نجلس بالكافتيريا، ولست أدري إن كنت جاداً أو مازحاً، بأنك كنت مدعواً في إحدى المرات إلى حفلة في سانتا مونيكا، وأنك شربت قارورة كاملة من النبيذ الفرنسي، ثم إنك لم تستطع قيادة سيارتك للعودة إلى بيتك، فنمت تلك الليلة في بيت مضيفك. وقلت أيضا بأنك كمسلم ملتزم لم تذق طعم الخمر إلا في أميركا، فهل تعني أننا نحن الذين علمناك شرب الخمر؟! سألت ذلك وأتبعته بضحكة تضج بالإغراء والشقاوة معاً!

ضحكتُ طويلاً ثم قلت:

- ليس بهذا المعنى تماماً. إن ما عنيته، هو أنني لم أذق طعم الخمر، إلا بعد أن غادرت الوطن العربي الكبير ... في طريقي إلى أميركا. أي أنني لم أذق الخمر إطلاقا طيلة وجودي بالوطن.

- ما زلت لم تشرب الخمر في وطنك، فما الذي جعلك تشربه خارجه؟! قالتها بجرأة وتحد أذهلاني !

- إن لذلك قصة طويلة، فلا الوقت ولا المكان يسمحان بقصها عليك. ولكن أحب أن أخبرك عن حادثة بسيطة جرت لي وأنا صغير.

- يسعدني أن أسمعها، فأنا أحب أن أعرف عنك الشيء الكثير.

- كان عمري وقتها ستة عشر عاماً، وكان الفصل صيفاً. وكنا نسكن في بيت شعر أسود مصنوع من شعر الماعز يقع بجانب كرم عنب نملكه، يبعد أقل من ثلاثة أميال عن بيتنا في المدينة. وكانت تلك عادتنا في كل صيف منذ أيام والدي رحمه الله، والذي كان توفي قبل ذلك ببضع سنوات. دعا أخي، وكان يكبرني ببضع سنوات أيضا مجموعة من أصدقائه في المدرسة ليقضوا اليوم ضيوفاً عندنا في الكرم... طبعاً كلهم كانوا ذكوراً... وعمل أخي لهم غداء، وكنت أنا في المدينة أحضر صلاة الجمعة في المسجد. وعندما عدت رأيت أخي ممدداً على الأرض يتلوى من شدة الألم... يبكي وينتحب بحرقة أذهلتني... كان مسنداً رأسه على صدر أختي الكبرى، أميرة... وكانت هي تسقيه كميات كبيرة من القهوة المرة لعلها تشفيه من آلامه.

- وهل تستعملون القهوة المرّة في بلادكم دواء لعلاج ألم البطن؟! سألتْ باستغراب وقد اتسعت حدقتا عينيها اللوزيتين.

تجاهلت سؤالها، وكأنما لأقول لها لا تتعجلي حتى تسمعي القصة إلى آخرها، وتابعت:

- عندما سألت أختي الثانية ، آمنة ، عن السبب، همست بأذني بأن أخانا شرب "عرقاً" مع ضيوفه، مما أذهلني وأفقدني صوابي ...! كنت واثقاً إنها كانت المرة الأولى التي يشرب بها أخي خمرا ً ! هذا المنظر يا آنسة ألكسس، أحزنني حزناً محرقاً، وأثر في نفسيتي تأثيراً كبيراً...أقسم لكِ بالله العظيم وبكل ما أؤمن به ؛ بأني قد بقيت أسبوعا كاملاً، أبكي ليل نهار ... لا أكف عن البكاء إلا لدقائق، أعود بعدها للبكاء من جديد ... حتى ذوى عودي وغارت عيناي في محجريهما، مما أرعب والدتي وشقيقاتي وأخي نفسه، وسبب لهم حزناً وقلقاً شديدين ... ! إنني ما زلت أتصور المنظر أمامي وكأنه حدث الليلة الماضية.

- ولماذا فعلت ذلك ؟! أهو اعتقاد ديني وشعور بالخطيئة؟! إن الذي فعل ذلك هو أخاك ولست أنت؟!

- في الحقيقة إنه كان هناك أكثر من سبب... لقد كنت في تلك الفترة أقرأ كثيراً من الكتب الصوفية والرومانسية ، وأحفظ عن ظهر قلب كثيراً من أشعارهم! وكنت متأثرا بفلسفتهم وأفكارهم ... هذا بالإضافة إلى أنني كنت أمر بأزمة عاطفية حادة جداً ... إذ كنت وقتها أحب فتاة لم تكن تحس حتى بوجودي، بل لم تكن تعرف حتى أنني خلقت... كنت أحاول جاهداً أن أشعرها بأنني أحبها، وأنني أتعذب في حبها، وأنني لا أطمع بشيء منها أكثر من أن تعرف أنني موجود، وأنني متيم بهواها...! إن الإنسان أناني بطبعه، فهو يحب أن يعرف الآخرون حقيقة عواطفه نحوهم.

- تقرأ الفلسفة الصوفية، وتحب هذا النوع من الحب وأنت ابن السادسة عشرة؟! إنك تذهلني...!

- لقد بدأت أقرأ تلك الفلسفة وأنا ابن الثالثة عشر ؛ صدقيني !

- وتستوعبها؟! يا إله السماء! ولهذا السبب أنت محيط من المعرفة! أنا سعيدة ومحظوظة جداً أنني طالبتك.

أطربني ثناؤها، وإن كنت ما زلت واقعاً تحت تأثير أحداث قصتي التي قصصتها عليها، والتي أثارت كوامن أحاسيسي وذكرياتي من جديد.

- أنا طالب علم بسيط. أنا فقط أحب المطالعة الجادة. أحب أن أغوص في أعماق الكتب ! "كما أغوص في أعماق الفتيات الجميلات" قلت الفقرة الأخيرة بضميري، ولكن الكلمات لم تصل إلى لساني !

- ولم لم تدرس الفلسفة إذن ؟!

- أقولها بتواضع، أنا لا أريدك أن تظني أنني مغرور... لقد أدركت بأنه ليس هناك من جديد أتعلمه في ذلك الميدان ... وإذا كان هناك ما يجب معرفته، فأستطيع أن أطّلع عليه دون مساعدة أستاذ...!

هزت ألكسس رأسها، وقلبت شفتيها وحدقت بي بعينيها الواسعتين ... وشعرت كأنما تقول لي بأنني رجل مغرور، وإنها لا تصدق مقولتي هذه ... لأنه مهما تعمق الإنسان في أي علم من العلوم وتبحر، فإن هناك الكثير الكثير الذي ما زال بحاجة لأن يتعلمه من الكتب ومن الآخرين... !

- الفتاة التي كنت تحبها، ما الذي كان يمنعك من مصارحتها بحبك؟! أظن أنها ستكون سعيدة جداً لو عرفت أن إنسانا يحبها مثل هذا الحب ! أنا نفسي أتشوق لأن يحبني رجلٌ مثل هذا الحب !

- هذا ما تعتقدينه أنتِ ... ثم إنه من الصعب جداً عليك، كأميركية، أن تفهمي الوضع في ذلك الجزء من العالم ... وخصوصاً في ذلك الوقت ... ! كان من الصعب عليّ، بل من المستحيل حتى مكالمتها. فقد كانت تكبرني ربما بعامين، ولا شك أنها كانت ستنظر إلي كطفل صغير ما زال بحاجة إلى رعاية أمه، لا أن يفكر بالحب... ثم إن عقل الفتاة عندنا في الوطن مبرمج للتفكير في رجل ناضج يتزوجها، وليس تلميذاً ما زال في المدرسة الابتدائية ... بالإضافة إلى أنه كانت هناك الفروق الاجتماعية، والعادات

والتقاليد... العيب والحرام... الممنوع والمحظور... فقد كانت هي ابنة قاضي المدينة، وكنت أنا ابن مزارع بسيط ويتيم الأب أيضا... !

هزت رأسها مرة ثانية يمنة ويسرة، هزات متتالية، وكأنما تطرد شيئاً من مخيلتها، أو كأنما تحاول أن توقظ عقلها النائم ليستوعب ما تسمع عن عالم غريب عجيب... يعيش ويفكر هكذا في القرن العشرين...!

- كنت أعيش فترة رومانسية... صوفية... عذرية... أحس بأنني أعيش بين السحاب تارة، وأخرى أنزل إلى أعماق السعير... أعيش مع تصوراتي وتأملاتي، من صنع أحلامي وتهويماتي... مرة قصة حب جميلة، كلها سعادة وانسجام... ومرة ثانية قصة أخرى كلها ألم وعذاب ومعاناة... كنت حائراً... ضالاً... ضائعاً... ليس هناك من يهديني ولا من ينصحني أو يأخذ بيدي. لذلك كنت أحس أنني أعيش في أعماق الظلمة، فلم أجد أمامي من متنفس سوى البكاء بحرقة ولساعات تارة ... والتعبد لدرجة الانسحاق بالخالق تارة أخرى... ثم التصوف لحد أن أنسى نفسي تماماً حيناً... والعزلة الصارمة أحيانا... !

- تبكي؟! رجل يبكي ! ومن أجل فتاة لم تعرف حتى أنك موجود ؟!

- ألم أقل لك بأنك لن تستطيعي لي فهماً ! الكثيرون من الناس يعتقدون أن البكاء هو من طبيعة المرأة ... وأن دموع الرجل يجب أن لا تنزل حتى لو تحجرت بمآقيه ... وإنها إن نزلت فهي عيب وعار وضعف... وأنا أعتقد عكس ذلك تماماً ... إذ إن البكاء في مثل هذه المواقف، هو نتيجة إحساس مرهف، وتصوف مفرط، غاية في الشفافية... إنه نوع من العبادة والتهجد في محراب الخالق الأعظم ...!!!

لم تعلق على مقولتي هذه، ولست أدري إن كانت قد اقتنعت بها، أو أنها اعتبرتها نوعاً من الفلسفة السفسطائية ... ! ولكنني أحسست بأنها كانت تفكر فيما قلت، وأن ما قلته بدأ يثير اهتمامها... !

مرت فترة صمت... وفجأة رفعت رأسها ونظرت إلى وجهي من جديد.

- بروفيسور دهشان ! شيءٌ واحدٌ لم أفهمه؛ وهو قولك بأنك كنت تريد من تلك الفتاة فقط أن تعرف بأنك تحبها ... ما هذا النوع من الحب؟! أعني ما فائدته؟! إننا حتى عندما نحب الله، نريده أن يعرف ليسامح خطايانا، ويدخلنا جنته ! نحن نريد من الذي نحبه أن يكون معنا... نذهب وإياه إلى أماكن معينة... نعانقه... نقبله... نذهب معه إلى الفراش... نتطارح الغرام... ماذا يهمني إذا عرف كل رجال العالم بأنني أموت بهم حباً، وأذوب شوقاً للقائهم ؟!

- كنت ، واقسم برب السموات والأرضين ، في تلك الأيام أؤمن بعمق، بأن المرأة مخلوق جميل... جميل... كالزهرة... كاللوحة الزيتية... كالتحفة الفنية... كالسمفونية ... خلقها الله فقط لنتأملها... لنحبها من بعيد... لنتعبد في محراب حبها... لنصلي بين يديها... لنتهجد في حضرتها... وأننا يجب حتى أن لا نلمسها... ولو مجرد لمس... لأن لمسنا لها يدنسها... يذهب بجمالها... يفقدها شفافيتها وطهارتها وعذريتها...!

- آمل أن تكون قد تخلصت من هذا التفكير... أعني... أعني، هل ما زلت تؤمن بذلك ؟!

- وهل تظنينني معتوهاً ؟! لقد رأيت الضوء الآن كما يقول إخواننا المسيحيون المتجددون.

- إذن كيف تنظر إليها الآن؟ سألت بخبث وهي تتأملني بعمق.
- كما يجب أن يُنظر إليها... أن نأخذها إلى الفراش، نقبلها ونعانقها ونضاجعها وأن نقتلها حباً !

قلت ذلك وانفجرتُ أضحك بصوت عالٍ، وانضمت هي إلي، ولم يوقف ضحكنا إلا دقات ساعة الجامعة تعلن تمام الساعة التاسعة.

- سامحكِ الله يا آنسة ألكسس... لقد تأخرنا عن المحاضرة !
- أنا آسفة جداً يا بروفيسور. إن حديثك ينسي الواحدة منا نفسها !

ابتسمتُ ولم أعلق. وحمل كل منا حاجياته، وخرجنا مسرعين نحو قاعة المحاضرات وهي تسير إلى جانبي، وأنا أشعر بسعادة ورضا وفخر لا يوصف، خصوصاً وأنا أرى الطلبة من الجنسين، ينظرون إلينا باهتمام زائد كلما قابلونا أو مررنا بهم... !

أخذت أراقب بطرف عيني اليسرى شعرها الذهبي المتموج، وهي تسير مرفوعة الرأس منتصبة القامة، تتثنى داخل ثوب حريري فضفاض... كانت وهي تهرول كأنما هي ترقص رقصات ابتهال وتعبد... وسألت نفسي: ما وراء هذه الصبية ؟! وهل هي حقاً مهتمة بالبروفيسور الإنسان، أم المثقف !؟ لا أدري؟! نعم لا أدري ...!

إننا نبدع... نتألق ونتعملق... نحلق في أجواء السموات العلى، عندما نؤدي عملاً مبعثه العواطف والأحاسيس، والشعور الذكوري...! لقد شعرت وأنا ألقي محاضرتي، وألكسس تجلس أمامي، وعيناها ترسلان لي نظرات شوق ولهفة ... وكذلك عيون كل حسناوات القاعة، بأن مشاعري تلتهب وقريحتي تتوقد وتشتعل!

كنت أشعر وأنا ألقي محاضرتي وكأنما ألقي قصيدة عاطفية رومانسية ... عشت أحداثها وتفاصيلها ! على الرغم من أنني كنت أنقل طرفي، كعادتي ، بين طلبتي جميعاً، إلا أنني أحسست وكأنما أخاطب ألكسس وحدها وأناجيها ... ! لقد كانت ابتسامتها الحنونة العذبة التي تمنحني إياها كلما هدّت عيناي فوق وجهها، تجعلني أسمو وأسمو، فتتعاظم فحولتي، حتى يكاد رأسي يلامس عنان السماء ... !

كان يعتريني شعور مزلزل بأن أصيح بأعلى صوتي و من أعماق وجداني ؛ ليس "أنا هنا يا قورش!" بل أنا هنا يا صلاح الدين ... ! إنهض أيها العملاق الشامخ من رقدتك، وحرر أمتك ثانية من ذلها وعارها... إنهض من عرينك يا بطل، وأعد لأمتك كرامتها وهيبتها... فلقد ديس على شرفها، وثلم عرضها، واستبيحت أراضيها ومقدساتها...! إنهض يا رجل، فقد ماتت الرجال، كل الرجال ... ولم يبق منهم إلا من رحم ربي ... !

كنت وأنا أقف أمامها، يغالبني شعور عارم بتفوقي الذكوري، وتتنازعني شهوة متأججة لا أستطيع مقاومتها ... !

لقد شعرت وهي تنظر إلي بعينيها المتأججتين شوقاً ولهفة ... بأنها تتحداني وتتوعدني، كما تتحدى بلادها دول العالم أجمع، قائلة " أيها البدوي التائه ... القادم إلينا من هجير حفر الباطن، الفخور بذكوريته، والمعتد بعروبيته، ستأتي إلي قريباً قريباً، رافعاً راية الاستسلام، فتسجد تحت قدمي، طالباً الودّ والوصال...!"

- لقد كنت رائعاً حقاً يا بروفيسور دهشان ! إن محاضرتك تروي الظمأ الفكري، وتشبع الجوع المعرفي ... إنها نزهة فكرية ممتعة ... ! لقد شعرت بأنني أدخل عالماً سحرياً ... تمنيت لو يدوم !

قالت طالبة يبدو عليها النضوج الجسمي والفكري، وقد علمت فيما بعد أنها زوجة طالب عربي يحضّر للدكتوراة، وعندها منه طفلة في الخامسة من عمرها... !

- إن جميع الدارسين الذين سبق وكانوا طلبة عندك وسألتهم عنك، قبل أن أسجل في صفك امتدحوك كثيراً ... وشجعوني لأخذ مساقات معك ... ولكنني لم أتصور بأنك رائع إلى هذا الحد !

قال طالب أعلمني أنه في السنة الثالثة يدرس العلوم السياسية.

- لقد أحسست بأنك كنت تحاضر لي وحدي، وأنك تعنيني أنا فقط، في كل كلمة كنت تقولها. لقد كانت محاضرة اليوم متميزة جداً. كانت مثيرة حقاً، ترغم السامع على أن يفكر... **وبعمق ... !**

قالت ألكسس وهي تسير إلى جانبي في طريقنا إلى مكتبي، بعد أن تفرق عنا الطلبة.

- وما الذي يجعلك تعتقدين بأن محاضرة اليوم هي فقط كانت تختلف عن المحاضرات الثلاث السابقة ؟! أنا دائماً هكذا، أضع عواطفي وأحاسيسي في أحاديثي ... !

- المحاضرات السابقة لم تكن بهذا الحماس... والقوة... وتدفق الأفكار.

- لأنها كانت تمهيداً للمساق، ولم تكن في صلبه. قلت وأنا أشعر بأنني أجانب الحقيقة.

- ربما ... ! قالت بإذعان وإن كان يبدو عليها عدم الاقتناع.

- على كل حال، فإنني وأنا أحاضر في طلبتي، أتصور نفسي أقف خاشعاً متعبداً في حضرة الوطن... و طني الجريح النازف... المسلوب... أنشد له قصائد الحب والوله ... فتشتعل جوانحي، وتتحول محاضرتي إلى نوع من المناجاة والنواح أحياناً... فأبكي ! نعم ، أبكي !!

- ألهذا الحد تحبه...؟! أنت غريب عجيب في حبك !

- وهل هناك من هو أغلى منه؟! إنه أنا وإنني هو... ! إنه حياتي وسرّ وجودي...!

لم تجب. .. و إنما صارت تتأملني من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، وكأنما لتقول لي "يا لك من متعصب معتوه ... كأنك الوحيد في هذا العالم الذي يحب وطنه !"

- متى تريدين أن نشاهد "كاسيتات الفيديو" لأبين لك الطريقة الصحيحة للاستفادة منها؟

- آخر محاضرة عندي اليوم تنتهي في الثالثة، فأي وقت تحدده بعد ذلك مناسب لي. قالت.

- أنا اليوم أنتهي من محاضراتي الساعة الرابعة. أظل عادة في المكتب أقرأ وأكتب وأصلح أوراق الطلبة حتى السادسة. أتوقعك إذن في السادسة.

- لا تنس أنك مدعو إلى العشاء الليلة.

- في الوطن الرجل هو الذي يدعو المرأة، وليس من اللائق ولا من الرجولة أن تدفع المرأة فاتورة الحساب.

- هنا لا فرق ! المرأة لها حقوق وعليها واجبات كالرجل تماماً، تُدعى وتدعو، ثم إنك دعوتني في الأسبوع الماضي. أنسيت؟!

- لا بأس! إذن سنأكل شيئاً بسيطاً في القرية.

- لا. أعرف مطعماً فاخراً في سانتا مونيكا طعامه لذيذ. أحب أن نذهب إليه.

- أنت طالبة، ومثل هذه المطاعم ترهق ميزانيتك.

- لا تقلق. أنا وحيدة والدي، وهما ميسورا الحال، بالإضافة إلى أن جدتي، أم والدي، قد أعطتني عقاراً مؤجراً وأسهماً، تدرّ على مبالغ جيدة، لا أحتاج حتى أن أعمل طيلة حياتي!

- ولهذا السبب اشتريت سيارة فاخرة؟

ضحكتْ ولم تعلق.

- والآن، لنعد إلى موضوع "الكاسيتات". أين تريدين أن نشاهد كاسيتات الفيديو؟

- كما تشاء، في بيتك، في بيتي، لا يهم. وإن كنت أفضل أن يكون في بيتك، إذ تشاركني السكن مؤقتاً طالبة أخرى من ولاية تكساس، حتى أجد مكاناً أستقل به.

- إذن في بيتي. قد تسبب أصوات الكاسيتات لشريكتك إزعاجا.

- شكراً جزيلاً. أنت كريم ومتفهم.

لا أدري كم مضى من الوقت، إذ كنت أبحث عن كتاب بين أكداس الكتب لأستعمله كمرجع لمحاضرة الغد، عندما رفعت بصري إلى أعلى، ونظرت إلى وجه محدثتي، فلاحظت أن في عينيها كلاماً تريد أن تقوله، ولكنها مترددة. هززت رأسي مستفسراً، وكأنما أطلب إليها أن تتكلم.

- أريد أن أسألك سؤلاً، ولكنني خجلة.

- قولي ولا تخجلي. ألم أقل لك إنه ليس في قاموسي اطلاقاً سؤال يخجل أو يغضب!

- إذا كنت تحب أن تحضر صديقتك معك، فأهلاً وسهلاً بها.

- لقد أذهلني كرم أخلاقك وصدقك. إنك كبرت في عيني كثيراً كثيراً. لقد أشعلت عواطفي حتى أكاد أبكي تأثراً. أنت رائعة يا آنسة ألكسس! إنني أعني ما أقول. صدقيني.

- أنا لم أقصد أن أحزنك. على العكس فإنني أريد أن أفرحك. على أية حال هي تظل صديقتك ولا شك أنها تحب أن تكون إلى جانبك، وقد تتضايق إن عرفت أنك تتناول العشاء مع فتاة أخرى!

- لقد أغرقتني حقاً يا آنسة ألكسس في بحر كرم أخلاقك ونبل مشاعرك.

ولما لاحظتْ أن دمعة نفرت من عيني قالت:

- لم أكن أعرف أنك عاطفي إلى هذه الدرجة !

- حذار! حذار! العاطفة عندي تأخذ مجريين! خيراً وشراً معاً! على كل حال أنا ليس لي صديقة الآن. لقد أنهينا علاقتنا... نهائياً... لا رجعة بها... الليلة الماضية...!

- صحيح؟! رائع! رائع!

قالت ذلك وقد أضاءت عيناها واحمرّ خداها، وبدأت تقفز من على الأرض وكأنما هي ترقص. وفجأة توقفت إذ لعلها قد أدركت أن تصرفها كان غير لائق ويجعلها رخيصة في عيني فقالت:

- أنا آسفة جداً جداً. إنني أكره نفسي لفعلتي هذه! أرجوك اعذرني! أنا أعني... أنا أعني... أنا أعني آمل أن لا يكون هذا بسببي!

- كيف تقولين هذا وأنا لم أقابلك إلاّ مرة واحدة؟!

- إذن، لماذا هذا الوقت بالذات؟!

قالت ذلك وهي تنظر بعيني بتحد، وكأنما لتقول لي "لا تكذب علي".

- مجرد صدفة... نعم، مجرد صدفة... صدقيني! أعدت ذلك مرتين، وكأنما لأقنع نفسي.

- وهل معنى ذلك إنه ليس لك صديقة الآن؟

- تستطيعين أن تقولي ذلك.

- وهل تعتقد أن عندي المؤهلات لأن أكون صديقتك؟ أعني أن تحب أن أكون "قيرل فرند" لك؟

- طبعاً لا! كيف تفكرين بمثل هذا؟!

عبست وجهي وضيّقت ما بين حاجبي وحدجتها بنظرة يتطاير منها الشرر، ثم صحت بها... نهرتها... مدعياً الغضب، وإن كنت أكاد أطير فرحاً، وأن كل خلجة في داخلي كانت ترقص طرباً.

احمر وجهها فجأة، واتسعت عيناها... ثم اصفر لونها، وأخذت تنظر إلي بعينين حزينتين مكسورتين!

- طبعاً تسألين لماذا؟! وأقول لك بكل صدق وصراحة، بأنه ليس عملاً أخلاقيا أن تكون هناك علاقة عاطفية بين أستاذ وتلميذته. نعم، إنه تصرف لا أخلاقي.

- ربما هذا في بلادكم، ولكن هنا شيء طبيعي ويحدث كل يوم.

- حتى ولو كانت أخلاقياتكم تجيزه، وأنكم تمارسونه كل يوم، ففي اعتقادي بأنه عمل لا أخلاقي.

- هذا إذا كان القصد من العلاقة هو مبادلة العلامة بالجنس. أما أنا فلست بحاجة إلى مساعدة بالعلامة، لأنني منذ أن دخلت مدرسة الحضانة حتى هذه اللحظة، وكل علاماتي ممتازة، وبشرف. ان اسمي دائماً الأول على قائمة المبدعين لدى مدير المدرسة !

كانت تتكلم بانفعال وغضب شديدين، ولما لم أقل شيئاً، أردفت تقول:

- أما إذا كان يريحك، فسأتحول إلى مستمعة ولا أحصل على علامة. فقط لأظل إلى جانبك.

- هناك سبب آخر، وهو أن عمرك ثمانية عشر عاماً فقط.

- ثمانية عشر عاماً ليست دون السن القانونية. أنا أملك جسدي وعواطفي وليس لأحد سلطان علي.

- أنا أعني أن عمرك ثمانية عشر، وأنا عمري ثمانية وعشرون عاماً، وهذا فرق كبير بين سنينا.

- هذا ليس بالكثير إذا كان هناك تفاهم بين الاثنين ! لقد سمعت ان الرجل في بلادكم يستطيع في الاربعين من عمره ان يتزوج من هي في مثل سني !قالت.
- على كل حال جوابي هو لا. سأنتظرك هنا في الساعة السادسة. إلى اللقاء.
نهضت ومددت لها يدي فتصافحنا، ثم خرجت... وحاولت أنا أن أعود إلى أوراقي وكتبي، ولكنني لم أستطع التركيز، لقد كان كل ما يسيطر على تفكيري، هو جسد ألكسس، وكيفية التعامل معه!

*****

جلست ألكسس على الكنبة، كانت تتكور في جلستها وترنو بأبصارها إلى كل شيء في البيت؛ الكتب... اللوحات... الرسوم والأعمال الفنية، وقطع التطريز التي وضعتها في إطارات من الخشب والزجاج.
قالت وهي تحمل بروازاً به صورة عائلية جماعية، للوالدة والأخ والأخوات، وجميعهم بملابسهم الوطنية.
- لا بد وأن تكون هذه والدتك. ما أجملها! إن جمالها طبيعي. إن الطيبة ترتسم على وجهها وتضج بها عيناها!
- أمي لا تقرأ ولا تكتب! إنها طيبة القلب وساذجة، لدرجة يخالها الذي لا يعرفها، غباء.
- وهؤلاء لا شك أنهن أخواتك! إنهن جميلات أيضاً... فقط الصغرى سمراء قليلاً. سمارها من النوع المحبب... اربعتهن يشبهنك كثيراً، إلا هي... حتى أخوك كثير الشبه بك...!
- هذه صورة قديمة نوعاً ما، أخذت في بيت العائلة. الأخ والأخوات كلهم متزوجون الآن، وعندهم عائلات... والدتي فقط تسكن مع أخي الذي ما زال يسكن في بيت العائلة... إنه يصر على أن تسكن معه، أولاده شغفون بها جداً! الوالدان في الوطن، على عكس الناس هنا، يحبان أن يسكنا مع أولادهما.
نهضت وأخذت تتفحص واحدة من المطرزات، وبعد أن أبدت إعجابها الشديد بها سألت:
- هل هو من صنع اليد؟ هززت رأسي موافقاً.
- بروفيسور! كم تحتاج المرأة في بلادكم لصنع هذا العمل الفني؟
- شهراً... شهرين... وربما أكثر.
- وكيف تملك الوقت الكافي؟!
- الحياة هناك مختلفة. المرأة التي تطرز تملك وقتاً كثيراً. إنها مبدعة... فنانة.. ولكن بطريقة بدائية!
- آه...إنه فن أصيل حقاً. كم هو جميل!
- إن المرأة تصرف سنة وربما أكثر من عمرها لتصنع ثوباً مطرزاً. والعروس الصغيرة تبدأ في صنع المطرزات لزواجها وهي في سن العاشرة، وربما قبل ذلك !
- كم هو رومانتيكي وساحر! قالت وكأنما هي تحلم.
أمسكت بيدها، وقلت:
- تعالي أريك الثوب المطرز.

سرنا سوية إلى غرفة نومي. كان على السرير غطاء مطرز من حوافه، أمسكت به، وأخذت تتفحص القطبة. فتحت الخزانة، جاءت وأخذت تنظر إلى الثياب المطرزة، اختارت واحداً مطرزاً بكثافة. استخرجته من الخزانة، وهمت أن تلبسه فوق فستانها. فقلت:

- لا. هذا فستان أيضاً. كيف ترتدين فستاناً فوق آخر؟

نظرت إلي، وهي تهم بأن تخلع فستانها. ولاحظت أنها تتردد في خلعه. سألت:

- ألا يجوز أن ألبسه فوق فستاني، إنه سميك ويبدو مثل روب فضفاض.

- لا، لا، اخلعي فستانك وجرّبي هذا، وأنا سأخرج. قلت وأنا أهم بمغادرة الغرفة.

- عفواً... لم أقصد، إذا كنت ستخرج من الغرفة أو لا. ليس هذا مهماً. وقبل أن أقول شيئاً، وبحركة آلية، خلعت فستانها الحريري، وألقت به فوق السرير!

نظرت إلى جسمها اللدن، كان جذعها العلوي عارياً تماماً، وبدا نهداها الصغيران كقمتي تينتين معشوشبتين متجاورتين، أما بطنها فقد بدا نحيلاً ممشوقاً. أحسست بأن لساني يلتصق بسقف حلقي، فلا أقوى على أن أقول شيئاً. هممت بأن أضمها بحركة آلية، ولكنني خفت أن تغضب، وتظن أنني قد نصبت لها فخاً. أخذت أساعدها في ارتداء الفستان، وعندما أكملت ذلك أخذت تمشي بخيلاء. سارت خطوات، وأخذت ترنو لنفسها طويلاً في المرآة، قالت ببراءة:

- ما أجمله! إنني الآن أشعر كأنني ملكة الشرق! الشرق الذي طالما حلمت بزيارته!

- هل أعجبك؟! تبدين به كحورية من جنات الخلد!

- مدهش! حقاً إنه رائع! رائع جداً !

- أرجو أن تعتبريه هدية مني لك .

قفزت ألكسس من الفرح.

- إنه لي؟! لي أنا؟! هذا كثير... كثير جداً...! شكراً... شكراً...! قالت بفرح صبياني وعاطفة متأججة !

- نعم، ما دمت مسرورة به، فإنني أهديه لك. بمناسبة لقائنا!

أخذت تسير في الصالة وهي تتثنى كعارضة أزياء محترفة، ثم استدارت وهي تذرع الصالة، وفجأة اقتربت مني وقبلتني على شفتي قبلة خاطفة، وقالت:

- لقد تصورته ثقيلاً. أظن أنني أستطيع أن أسير به في الشارع العام.

- طبعاً. وهل تظنين أن المرأة في بلادنا تستعمله كقميص نوم أو بيجاما؟

- لا. إنه أثقل كثيراً من قميص النوم. بل إنه ثوب احتفالي... ثوب خاص. هل هو ثوب سهرة؟!

- إنه ثوب العرس والاحتفالات.

- أهذا هو ثوب العروس؟! إنه ساحر!

- نعم. بالضبط. إنك الآن عروس! عروس مميزة...!

صمتت ألكسس. أخذت تفتح عينيها وتغمضهما. كانت تفكر بما ستقول. وللحظات بدا عليها الخوف والتردد، ولم تكن تعرف ماذا تقول. اقتربت مني خطوات، وقالت:

- بروفيسور! بالفعل أشعر بأنني وأنا أرتدي هذا الفستان وكأنني غير عادية... كأنما أحلق بين الغيوم...!

- شعور رائع! وأنا سعيد لسعادتك.
- أشعر بأنني أقرب إليك كثيراً من أي وقت مضى! قريبة جداً!
- هذا يسعدني. ولكنني أردت أن أهديك شيئاً جميلاً لمناسبة زيارتك لي لأول مرة.
- بروفيسور، أنا سعيدة بك... سعيدة... سعيدة... سعيدة...! الدنيا لا تتسع لسعادتي!
- وأنا أسعد... صدقيني! قلت وأنا أضمها برموش عيني.

اقتربت مني، ووضعت ذراعها تحت ذراعي، وسرنا باتجاه النافذة، وبدت لي قرية "وست وود"بأنوارها المتلألئة، كأنها عروس ليلة زفافها، تتمختر في ثوب عرسها !

- أريد أن أخلعه، وأطويه بعناية. لا، سأتركه في علاقته. يجب ألا أطويه... أريد أن أتأمله مدة أطول... حتى أشبع عينيّ منه ! أنا لم أر في حياتي ثوباً أجمل منه ! قالت .

وساعدتها في عملية خلعه عن جسدها، ثم أعدته إلى العلاّقة، وألقيته على الكرسي. لاحظت أنها لم ترتد فستانها، وصارت تنقل طرفها بيني وبين الفراش !

- هل تريدين أن أساعدك في ارتداء فستانك؟! قلت وأنا أعانقها بخيالي.

وصمتت ألكسس. .. وصمت وأنا أنظر إلى جسدها الوردي الذي كان بالفعل كالخيزرانة ! قالت:

- بروفيسور سهيل! هل تسمح لي أن أخاطبك باسمك المجرد؟
- نعم. يسعدني ذلك جداً ... ولكن هل تريدين أن أساعدك في ارتداء فستانك ؟!

سكتت من جديد ... وأخذت تمصمص شفتيها ... وأخرجت طرف لسانها. اقتربت مني، وألقت رأسها على كتفي... أحسست بجسدها يلتصق بالقميص، وشعرها يغطي رأسي وجذعي. وضممتها إلى فزادت بي التصاقاً، وانطلقت الذئاب المسعورة الجائعة في داخلي من عقالها، وصارت تعوي، ووجدتني أحملها بلطف لأضعها على السرير !

- ألكسس! أنت إلهة من إلهات الإغريق ...! أنت فينوس... أنت افروديات...! لم يخلق الله من هي أجمل منك... ! أنت الجمال كله ... ! دعيني أنسحق بك... أتلاشى بداخلك... !
- لا تقل شيئاً، أرجوك...فليس هذا وقت الكلام !

كان سريعاً ... مثل البرق الخاطف، أو أشبه بحلم ... ! وبالفعل، فقد غفوت بعد ذلك، ونمت نوماً عميقاً. .. إستيقظت قبيل منتصف الليل بقليل، نظرت حولي، كانت ألكسس تنام عند حافة السرير، عارية تماماً، ما أجملها... ! وقفت أتأمل جسدها بعمق وتمهل... بورع الناسك وخشوع العابد ... فأنا في حضرة إبداع من إبداعات الخالق... حقاً إنها لوحة زيتية مذهلة... عمل فني رائع ... أجاد الخالق الأعظم في خلقها وأبدع... سوّاها وتفنن...! غطيتها بالشرشف، ثم نهضت إلى الحمام واغتسلت. وفجأة اعترتني مسحة تصوفية، واستبدت بي عاطفة دينية، أحسست بعدها بأنني أكاد أتلاشى في العدم... ! ولست أدري لماذا خطرت ببالي في تلك اللحظة، صلاة الصبح، وانقطاعي الطويل عنها ... فتذكرت الوالدة، وكيف كنا ننهض عند أذان الفجر، فنتوضأ ونصلي الاثنين معاً في الليالي الثلجية... أما في الليالي الدافئة، فتصليه هي في البيت، وأصليه أنا في المسجد جماعة ... نعم جماعة ... ! كانوا أخوان الدين وهم ينظرون الي ، يهزون رؤسهم ويبتسمون !

عندما عدت من الحمام، كانت ألكسس تتململ في نومها. اقتربت منها وكانت قد استيقظت. سألتْ :

- كم هو الوقت الآن من فضلك ؟
- قبيل منتصف الليل.
- أوه... كأنني أحلم... حلم لذيذ... لذيذ... شكراً يا حبيبي... شكراً...!
- فعلاً هو كالحلم يا ألكسس. .. أنا لم أفكر في ذلك. صدقيني ! حصل كل شيء كالحلم ! حصل سريعاً...!
- بالفعل، لقد حصل ونحن في الغيبوبة... ما أجمل أن يعيش الإنسان في غيبوبة دائمة !
- هيا، إنهضي. الطقس جميل في الخارج. لقد خفّت درجة الحرارة ... ونسيم المحيط عليل، ويلطف الجو.
- يا الهي! أريد أن أستحم أولا. أريد أن أعانق الماء ! قالت ذلك وعانقت الفراغ.

ذهبت ألكسس إلى الحمام، وأخذت "دشاً "بارداً ... حملت العود وخرجت إلى الشرفة. بدأت أدوزن العود، وأدندن بنغمات شرقية... أعادني اللحن إلى ذكريات الوطن، ومعلمي أبو محمود. كأنني الآن أسمع صوته الأجش وهو يقول عندما عرف أنني سأسافر إلى أميركا "يا سهيل! يا ولدي! إن النساء عامة، وبنات العم سام خاصة، تحب الرجل المتميز ... وهل هناك تميز أكثر من المقدرة على العزف؟! الموسيقى غذاء الروح يا ولدي ... ! "

أخذت أعزف رقصة "أنا وحبيبي في جنينة" وهي معزوفة قديمة، كانت الأولى التي علمني إياها أبو محمود ... شعرت بأن عواطفي قد انسابت مع اللحن، وتفاعلت معه... جاء صوت ألكسس من داخل الحمام، كلحن شجي دافئ !

- سهيل... حبيبي... هذا رائع... لديك تسجيل رائع ... لا بد أنها من موسيقى بلادكم !
- هل انتهيتِ من الحمام ؟!
- نعم ...إنني قادمة ! جاء صوتها من الداخل، يضج أنوثة وسحراً، وسرعان ما عبرت إلى الصالة، وهتفت بي :
- أين أنت ؟!
- في الشرفة. تعالي. الجو هنا لطيف ومنعش.

كانت ترتدي روب الحمام الذي أستعملته انا، وكان صدرها ونهداها عاريين تماماً ! يا الله ! كم هي جميلة وساحرة، وكم هي مغرية وفاتنة ! فكرت أن أضع العود جانباً وأحملها إلى غرفة النوم ثانية ... ولكنني قلت بأن الليل ما زال وليداً، وأن هناك متسعاً من الوقت لوضعها في السرير مثنى وثلاث ورباع قبل أن ينتهي الليل... !

جلست إلى جواري على الأريكة، في الشرفة، وأخذت تتفحص العود بنظرات شرهة. سألت:

- سهيل! حبيبي... تعزف على القيثارة أيضاً ؟! أنت تعرف كل شيء ! ما أسعدني بك ...!
- قيثارة العرب ! العرب يا ألكسس ! "أمجاد يا عرب أمجاد ... !"

- هذا هو اسمها ؟!
- اسمها العود. العود. ألم تسمعي به.
- لا. لم أسمع به ولم أره. ولكن لدي الآن الفرصة لأراه وأسمعه. هل أنت عازف محترف؟
- على العود، نعم.
- وغيره؟!
- لا أحسن العزف إلا عليه. تعلمت العزف وأنا تلميذ صغير.
- وهل علمك والدك ؟
- لا. لقد مات والدي، وكنت ما زلت صغيراً جداً ... لقد تعلمت فيما بعد. وتمرنت على العزف بدافع غريب. .. كنت أشعر بان والدي لو عاش، فسيشجعني على التعلم، ولذلك تعلمت العزف على هذه الآلة بدافع قوي. دافع مبعثه تلبية وصيّة غامضة من والدي، رحمه الله !

هزت ألكسس رأسها بإعجاب. أخذت العود من يدي وبدأت تمرر أصابعها على الأوتار. خرجت أصوات متنافرة، ومع ذلك استمرت في المحاولة، وقالت :
- علمني العزف يا حبيبي. .. أرجوك !
- هذا ليس سهلاً. صدقيني !
- أريد أن أكون تلميذتك في الجامعة... في البيت... أريد أن أبقى معك أكثر وأكثر، كل الوقت ... ! هل ستعلمني العزف على العود؟ أنا سريعة التعلم... موهوبة... الكل يشهد لي بذلك.
- تعرفين أن الموسيقى لا يتعلمها إلا صاحب الهواية الخاصة.
- أنا أحبك... أعبدك... أحب كل شيء قد تعلمني إياه... أرجوك علمني.

صمت، وأخذت العود من يدها. أعدت الدوزان من جديد، وصرت أفكر بمعزوفة يمكن أن تتذوقها. وتذكرت أغنية "مصطفى يا مصطفى ، أنا بحبك يا مصطفى، من سبع سنين يا مصطفى، وأنا بحبك يا مصطفى" لقد سمعتها ورقصت على أنغامها لأول مرة في حياتي قبل عامين تقريباً، في نادٍ ليلي يملكه العرب المترفون في مدينة هوليوود الخالدة. كانت تغنيها مغنية هنغارية بصوت حنون... حنون... ذبت معه وبلكنة أجنبية مثيرة للرغبة والعواطف معاً. لقد رأيتهم في تلك الليلة، شباناً وشيباً، يرقصون ويتمايلون، سكارى الخمر والغرام ! كنت أصيح من أعماقي، بعد أن استبد بي الحنين إلى الوطن، وهزني الشوق إلى الأهل ... كنت أصيح وبأعلى صوتي الذي ضاع في الضجة وفي صخب جنون الآلات الموسيقية النحاسية التي كانت تزلزل بناية الملهى وتخترق جدرانه ... ! كنت أصرخ بكل طاقاتي ودموعي تنزل فوق خدّي مدراراً ..." وطني ! يا وطني المسحوق ! أنا صامد هنا... صامد... صامد... عقلي وعواطفي كلها معك ولك... أنا أحبك يا وطني ! إنني لم ولن أنساك يا حبي الكبير، ما زال في داخلي قلب ينبض، ونَفَس يخرج...!" لقد ضاع صوتي بالصخب، فلم يسمعني أحد ولم يُعرني أيُّهم اهتماماً ! حتى الفتاة اليونانية "ازبيلا" التي كنت أراقصها، فقد كانت تضحك هي الأخرى، لاعتقادها أنني كنت سكران، طرباً، وأنني كنت أعربد مع المعربدين، وأنني" أهيّص "معهم !

قلت إنه من الممكن أن تتذوق الصبية شيئاً كهذا. وبدأت أعزف وهي تقف قبالتي، تنقل طرفها بيني وبين العود ... استوعبت اللحن، وأخذت تتمايل برقصة تتناغم مع اللحن. وعندما بدأت أغني اندمجت هي مع اللحن، وأخذت ترقص بتناغم انسيابي مدهش، حيرني بل أذهلني... كانت تحرك جسمها ويديها، وتنقل قدميها كراقصة محترفة، ترقص مع اللحن وكأنما تفعل ذلك منذ سنوات طويلة، وليس للمرة الأولى !

- رائعة يا ألكسس ! رائعة ! أنت فنانة حقاً ! صحت من أعماقي وقد نسيت وقاري ونسيت الجيران المتحلقين على الشرفات وخلف الشبابيك... فقد ألهب عواطفي اهتزاز وتموجات جسمها، وسحرني انسياب وتناغم ردفيها، وهزتني سرعة وخفة تنقل خطوات قدميها...!

لاشك أن إظهار إعجابي الشديد للصبية برقصها، وإطرائي المثير وتشجيعي الحثيث لها، قد ألهب عواطفها وأجج دم الشباب الفائر في عروقها... بالإضافة إلى الارتكاسات النورانية التي تمر بها، وكذلك جو الليل الساحر، وألحان العود الشجية الحنونة، ونغمات الأغنية الراقصة، والحياة الرومانسية اللاهية التي تعيشها... كل هذه المسببات، حوّلت الفتاة إلى شعلة متقدة من الأحاسيس والمشاعر الانطلاقية، إذ صار جسمها يتحرك ويتمايل بطريقة عفوية... انسيابية... تموجية... فتنوعت حركاته وتعددت وثباته، وازدادت سرعة تنقل قدميها وتوزعت قفزاتهما... صرت أنقل ناظري بين اهتزازات جسمها الملتهب... الثائر... وحركة قدميها العاريتين الواثبتين، فلم أستطع ملاحقتهما للسرعة المذهلة التي كانت تهز بها الجسم وتنقل بها القدمين !

لا أدري كم من الوقت بقينا على تلك الحالة المحمومة، ولا كم عدد المرات التي أعدت فيها غناء كلمات الأغنية، ولا كم مرة عزفت موسيقاها ! لقد نسيت وجودي تماماً، وتهت في اللامجهول ... لقد أحسست وكأنما قد تحولت إلى شعلة متقدة من العواطف المسعورة الملتهبة... وأنني أحلق بين الغيوم ... فإن حماسي ربما فاق حماس الصبية وانفعالها ! لقد زاد في حماسي وتأجج مشاعري، ملاحظتي لبعض الجيران من الجنسين في العمارات المجاورة، يقفون في الشرفات أو يطلون من الشبابيك يشاهدون ويستمعون، حيث كانت أضواء شرفتي جميعها مضاءة، وكان من السهل مشاهدة كل ما يجري على الطبيعة ... !

لمحت بطرف عيني اليسرى جارتنا الإسبانية، تتحرك كالشبح، وتقف بالظلام خلف برداية غرفة نومها حتى لا أراها ! تعملقت في تلك اللحظة، وشعرت أنني ارتفعت حتى وصلت عنان السماء العلى ! وكنت وأنا أتصور عينيها المحدقتين بي، أنني أستطيع أن أهز الكون، وأحرك الأرض لعظم قوتي، وضخامة طاقاتي ! لقد صرت أسترجع بذاكرتي حادثة الأمس القريب معها !

كانت أصابعي تقفز فوق أوتار العود، ونظراتي تحدق مسحورة مبهورة، بساقي وقدمي ألكسس،وهي تحركهما وتنقلهما بسرعة يصعب على العينين متابعتها !

*****

الفصل الرابع

نزلت من سيارتي أمام العمارة بعد عودتي من الجامعة عصرا، وأغلقت بابها، عندما أوقفت جارتناسيارتها خلف سيارتي تماما !

سعدت جدا لرؤيتها، وصار قلبي يقفز من بين ضلوعي فرحا وطربا، حتى خلته بأنه يحاول الهرب من بين جنبي ! كنت كدرويش هزّه الشوق لخالقه فجأة، فاشتعلت في داخله حمى الحب والخشوع معاً، فصار يرقص طرباً وورعاً أيضا !

لطالما انتظرت مجيء هذه اللحظة بشوق ملتهب وصبر نافد، ولطالما بحثت عنها عيناي في غدواتي وروحاتي، بالشارع ومن فوق البلكونة، وأخيراً ها هي أمامي بدمها ولحمها !

كانت المرة الأولى التي أراها بها قبل حوالي الثلاثة شهور وكنت عائداً لتوي من الجامعة، وبينما كنت أهمّ بالخروج من سيارتي، حاملاً حقيبة يدي ومجموعة من الكتب، رأيتها تخرج من باب العمارة المقابلة لسكني، تسير بدلال وكبرياء وأنفة، تضرب الأرض بقدميها، وكأنما تتحدى الكون وتنبه سكان هذا العالم بوجودها! كانت طويلة القامة، نحيفة الجسم دقيقة الخصر ممشوقة القوام، حنطية الوجه سمراء الشعر تربطه فوق رأسها بشريط أخضر كأنما هو تاج ملكة تفاخر به ! كانت ترتدي تنورة قصيرة جداً، لارتباكي لم أتذكر لونها، وإن كنت أتذكر ساقيها الطويلتين الممشوقتين كأنها لاعبة تنس محترفة !

تجمدت عيناي فوقها، ووقفت مشدوهاً مرتبكاً، وأحسست بشوق مسعور لأن أحييها وأن أتحدث معها، ولكنني ترددت ولم أفعل، فقد وقفت أرقبها متأملاً مأخوذاً ! لعلها بغريزتها الأنثوية، وإحساسها بجمالها المثير، أدركت ما اعتراني، إذ إنها عندما عبرت بي في طريقها إلى سيارتها، منحتني ابتسامة وهزّة ترحيب من رأسها، ثم رائحة عطرها العبق، أتت على البقية الباقية من عقلي، فاشتعلت الحرائق بدمي !

عندما رُدّ إلي عقلي، صممت على أن أكلمها بأن أرحب بها كساكنة جديدة في حينا، ولكنني قبل أن أتحرك من مكاني كانت قد ركبت سيارتها واختفت !

منذ تلك اللحظة وسحر ابتسامتها، والدفء والحنان والأنوثة المنبعثة من عينيها تثير الأشواق في داخلي؛ ومنذ تلك الأمسية، وأنا أحاول أن أراها، لأنني قد عزمت بيني وبين نفسي على أن أكلمها، وأن أعبّر لها عن أشواقي ومشاعري نحوها !

تقدمت منها، وفتحت لها الباب بيدي اليسرى، وباليد اليمنى فرشت لها سجادة ترحيب في الهواء، رافقتها بانحناءة قامتي قليلاً، وقلت لها بالعربية:

- فلتتفضل ملكة جمال بابل! حفيدة حمورابي، وأخت نازك ، وحبيبة بدر !

- ماذا تقول؟! سألت بالإنجليزية، وبلكنة دافئة... رقيقة... مثيرة للرغبة، وكأن كلماتها تقطر شهداً مصفى !

"عيناكِ غابتا نخيل ساعة السحر   عيناكِ حين تبسمين يبسم القمر"

عيناك حين تهللين يسجد البشر!

- نحن سعداء لقدومك لحينا، يا أخت نازك الملائكة، ويا حبيبة بدر شاكر السيّاب! قلت بالعربية.

- آسفة جداً. لم أفهم ما قلت! قالت بالإنجليزية أيضا.

- قلت، فلتتفضل ملكة جمال بابل بالنزول! يسعدنا قدومك لحينا. أعدت الجملة ثانية بالعربية، قلتها هذه المرة بتأنٍ، وبصوت واضح ولغة سليمة.

- ما زلت لا أفهمك! أعادتها بالإنجليزية.

عندها أدركت إنها ليست عربية، فقلت هذه المرة بالإنجليزية:

- كنت أظنك من العراق الحبيب ! بلد البطولات الأسطورية والتضحيات النادرة !

- وهل أنت عراقي؟! سألت بصوت أسكرني لرخامته وعذوبته. وكانت تسدد إلي عينين كأنهما بركتان رقراقتان، لم أر في حياتي كلها أكثر منهما سحراً وأشد وقعاً !

- أنا عراقي وسوري ولبناني وفلسطيني وأردني ومصري وسوداني ويمني و مغربي وتونسي وجزائري وليبي... أنا منها كلها... أنا عربي ... من الوطن العربي الكبير، الكبير ...!

انفجرت تضحك بسعادة وتلذذ. ضحكات كأنها زغاريد ووشوشات وهمسات رومانسية !

- ما أظرفك! وما أعذب حديثك! ولكن لماذا فكرت أنني عراقية؟!

- لأن جمالك المتوحش هذا، لا يتواجد إلا بماجدة عراقية ! قلت هذا وقد شجعتني بشاشتها وعذوبة حديثها.

- لم أكن أعرف هذا من قبل! قالت وقد اتسعت حدقتا عينيها سروراً وطرباً، مما زاد في سحرها وجاذبيتها.

- ثم بسبب لون وجهك الحنطي المشرب بحمرة النبيذ الفرنسي المعتق، والذي يضج بالصحة والسعادة... وكذلك شفتيك الناضجتين، النافرتين، المزمومتين والمشربتين بلون البن اليماني، واللتين تشبهان كأسي نبيذ إسباني، يقدمه مصارع الثيران إلى حبيبته المتيم بحبها...!

- أنت ولد شقي... جريء وخطر... خطر جداً! قالت وهي تكركر بتلذذ وحبور.

- أنتِ تظلمينني! أنا فقط ضعيف أمام الجمال المتميز، وجمالك متميز جداً... جداً !

- أنا إسبانية من إشبيلية! قالت بعد أن توقفت عن الضحك.

- لا شك أن فيك دماً عربياً نقياً! قلت بفرح عفوي.

جرى هذا الحوار وهي ما زالت جالسة في مقعد القيادة، وما زلت أنا ممسكاً بباب السيارة المفتوح، أنتظر خروجها. انحرفت إلى اليسار قليلاً حتى واجهتني، أخرجت رجلها اليسرى بأنوثة مغناجة، وببطء شديد، ووضعتها على أرض الشارع. لا شك أنه كان متعمداً، وأبقت الثانية في السيارة، فتراجعت تنورتها حتى وصلت إلى نهاية بطنها لقصرها، فبان لباسها الداخلي الأبيض الحريري... الذي انعكس على فخذين مرمريتين

عاجيتين، مما زاد في سحرهما وإثارتهما ! اشتعل الدم في عروقي، وبطريقة عفوية مصمصت شفتي ولعقتهما بلساني، وأنا أحملق مدهوشاً، مأخوذاً بما بين الفخذين...!

لا شك أن حواء الماكرة... اللعوب... قد أدركت بغريزتها الأنثوية، وبطبيعتها الإغوائية، معاناة المسكين آدم، وتحرقه المسعور إلى جسدها، وكذلك تصورت ما يدور بخلده ويحلم به، فأخرجت قدمها الثانية، ولكن هذه المرة بطريقة أكثر إغراء وأشد إثارة، ووضعتها إلى جانب الأخرى وهي ما زالت جالسة في مكانها، فظهر نصفها السفلي عارياً تماماً، إلا من قطعة الملابس الداخلية الصغيرة، والتي هي أصغر من حجم ورقة توت أمنا حواء، فظهر ما بين الفخذين أقوى جاذبية وأكثر سحراً وأشد إغراء !

غامت الدنيا أمام عيني، وتحولت إلى كتلة من الشهوة المسعورة، فنسيت نفسي وفقدت اتصالي بالواقع، وأصبح كل تفكيري ووجودي متمترساً بما بين الفخذين! وتصورت نفسي وإياها، وحيدين... عاشقين... مدنفين... وأنا أتقدم منها لأنزع عنها ملابسها ببطء وحنان... بتعبد وتصوف... وهي تضحك، وتمانع بدلال قبل أن تستسلم...!

- أنا كذلك من إشبيلية! فهل بي دم عربي أيضاً؟!

انقطع خيط أحلامي الوردية فجأة، وانتقلت من رومانسية الفراش الناعم الدافئ، إلى مصدر الصوت، فرأيت رجلاً في مثل سني، أطول قليلاً مني، حنطي اللون، أسود الشعر، ضخم الجسم، حاد النظرات، تقدح عيناه شرراً، يرتدي قميصاً ذا أكمام قصيرة مفتوحاً من الأمام، يظهر شعر صدره غزيراً كثيفاً، يتدلى من رقبته سلسال ضخم في آخره مدالية كبيرة من الفضة. لا شك أنها ترمز إلى شيء مهم، ربما نالها في سباق هام. كأنه واحد من هؤلاء الرجال الذين ينتشرون بكثرة في جنوب كاليفورنيا، يلبسون الملابس الجلدية، ويركبون الدراجات النارية الضخمة الفاخرة، والتي يصل ثمنها أحيانا إلى أكثر من سيارة جديدة، والتي تغص بهم مدينة لوس أنجلوس وجميع مدن الساحل.

وبسرعة كسرعة انقطاع خيط أحلامي، رأيت الجميلة وقد قفزت واقفة خارج السيارة، وقد فارقها بعض من إشراقة وجهها، والقلق ظاهر في عينيها!

- كيف حال الجار الكريم؟!هل تعرف أنني منذ أن رحلتم إلى هنا، وأنا أمني النفس بالتعرف عليكم. قلت صادقاً وبأعصاب باردة، وإن كنت بكل أحاسيسي وكياني ما زلت أتصور نفسي راقداً بين الفخذين، معانقاً ذلك الجسد الملتهب... الملهب !

- وهل لي أن أعرف السبب؟ ! قالها بغلظة ووقاحة متناهيتين.

- كنت أفكر أنك وزوجتك من العراق، وأحببت أن يحصل لي شرف التعرف عليكما، لأدعوكما إلى الغداء أو العشاء، أو إلى كأس من البيرة !

- نعم يا حبيبي! لقد فكر أنني من وطنه العراق، فجاء وكلمني. قالت حواء.

- والآن، وقد عرفت أننا لسنا من بلادك، فهل ما زلت تحب أن تتعرف علينا؟ قالها هذه المرة باشمئزاز ممزوج بالاحتقار، وبصوت عالٍ، كأنما يتشاجر معي أو يتحداني!

- طبعاً! طبعاً! نحن جيران، ونبينا ﷴ عليه الصلاة والسلام، أوصى بالجار كثيراً، حتى ظن السامعون بأن الجار له الحق أن يرث جاره! قلت بإخلاص وصدق وعفوية.

- وإن قلت لك بأننا لا نحب أن نتعرف عليك، ولا حتى أن نرى وجهك؟!

- هذا حقك! وأنا لا أستطيع أن أمنعك هذا الحق، وإن كنت أشعر في داخلي بحزن شديد!

لا شك أن كلامه قد أغضب الزوجة، إذ على الرغم من عدم معرفتي بالإسبانية، إلا أنني أدركت إنها تعاتبه عتاباً مراً، وتقرّعه تقريعاً عنيفاً، فقد رأيتها تتقدم منه، وقد اصفر وجهها، واحمرت عيناها، وصارت تحرك يديها وجسمها بطريقة غضبى، كما تقدم هو منها أيضا، وقد احمرّت عيناه، وانتفخت أوداجه، وصار هو يستعمل أيضاً يديه وجسمه ورجليه يحركهما في كل اتجاه! أدركت عندها أن الزوجين "يردحان" لبعضهما، فقلت محاولاً أن أخفف من حدة الموقف المتأزم، وأن أحاول أن أهدئ من غضب الزوجين:

- أنا آسف جداً جداً أن أكون السبب في سوء الفهم الذي حدث بينكما، ولكن عذري الوحيد هو أنني فكرت أنكما من بلادي، فأردت أن أرحب بكما، وأكرم وفادتكما ! على كل حال، الوداع ولطيفة معرفتكم !

قلت ذلك وابتعدت عنهما، وإن كان ما زال يصل إلى أذني صوتاهما وكلمة "أربي أربي" تتردد في كل جملة يقولأنها.

منذ تلك الحادثة، وقد مر عليها ما يقارب الثلاثة شهور، وأنا لم أقابل تلك المرأة، حتى ولو صدفة. إذ لا شك أنها تتجنب مقابلتي وحتى النظر إلى وجهي، مع أنني تواق جداً لرؤيتها والتحدث إليها. لقد حاولت جاهداً مرات ومرات، أن أقابلها وجهاً لوجه، وأن أتحدث إليها ولو كلمات قليلة، وأن ألقي التحية عليها؛ ولكن يبدو أن الزوج الغيور قد منع زوجته من مكالمتي، ولا شك أنها هي الأخرى خجلى من مقابلتي بعد أن تأكدت من معرفتي لتأنيب وتهديد زوجها لها.

وها أنا أراها الآن، في هذه اللحظة، والتي يصل بها صوت عزفي إلى آذان جميع الجيران، ها أنا أراها بطرف عيني اليسرى، وهي تقف كشبح في الظلمة، تستمع إلى صوتينا، العود وأنا، وتشاهد رقصات ألكسس المحمومة المسعورة !

لقد مرت بمخيلتي أحداث تلك الأمسية الجميلة المثيرة، كشريط سينمائي، وكانت عواطفي في تلك اللحظات تغلي في داخلي كماء المرجل، عندما صحت فجأة بصوت عال، ودون وعي مني:

- ألكسس! ماذا تفعلين بحق السماء؟! الجيران يتفرجون علينا! صرخت وقفزت واقفاً، ثم ألقيت بالعود جانباً، ورحت أعدو مذهولاً نحو الصبية !

لقد رأيت ألكسس وهي في حمى الرقص، تخلع روب الحمام، وترميه بعيداً عنها، وهي تواصل رقصها الهستيري عارية تماماً دون توقف.

هجمت عليها، وحملتها بين ذراعي إلى داخل الشقة، فأحسست كأنما أحمل تمثالاً من نار تتوقد !

- لم فعلت هذا! أجننت؟! ألم تلاحظي أن الكثيرين من الجيران يتفرجون علينا؟!

- لا يهمني الجيران ولا العالم كله! فليذهبوا جميعهم إلى الجحيم... وأعماق الجحيم...!

كانت تتكلم وكأنما هي سكرى. طوقت عنقي بذراعيها، وانهالت علي كوحش أنهكه الجوع، تأكل شفتي تارة، وتقبلهما تارات، بنهم... بعنف... بوحشية...! تقبلني على وجهي وعنقي وأذني، في كل مكان تقع عليه شفتاها... كانت كالمحمومة... كالمسعورة... وكأنها تريد أن تأكلني... تماماً كما تفعل أم ضاع ولدها الصغير ثم وجدته بعد أن يئست من لقائه؛ أو كرجل استبدت به الشهوة العارمة، فأفلت الزمام من يده، ولم يستطيع أن يكبح

جماح ثورته، ولم يقدر أن يسيطر على تصرفاته، فهجم على أنثاه يمزّق ملابسها، ويجرّح جسدها ليغتصبها اغتصاباً رغم عدم تمنعها...!

- حبيبي خذني إلى الفراش! ضاجعني... أرجوك... قبل أن أحترق... إنني أشتعل... أشتعل... نار تأكل كل جسمي... كل ذرة به... أرجوك... أرجوك...! موسيقاكم أثارت غرائزي وأشعلت النيران في جسمي... أرجوك... أسرع قبل أن أجن !

كانت شفتاها تتنقلان فوق أجزاء جسمي، وكانت يداها تفكان أزرار قميصي وسحّاب سروالي بسرعة ووحشية، مما أسعدني كثيراً، وأرضى فحولتي!

إنها لفكرة رائعة حقاً أن تقوم المرأة بوظيفة الرجل، فبدلاً من أن ينزع ملابس أنثاه ويعريها ليضاجعها، تقوم هي نفسها بنزع ملابسه وتعريته لتضاجعه هي! لقد انقلبت المفاهيم واختلت الموازين، فسبحان من قلب تلك الموازين وخلخلها !

أحسست في تلك اللحظة بأنني مستعد لهذه المعركة، وأن بي رغبة شديدة للمنازلة والطعان، لا تقل عن رغبة ألكسس واستعدادها. وبسرعة البرق الخاطف، أطفأت جميع أنوار الشقة، وحملتها إلى غرفة النوم، وبقيت ألكدها حتى أخمدت جميع النيران المشتعلة في داخلها! فخلدت هي في سبات عميق. لا شك أن المسكينة كانت مرهقة عاطفياً وجسدياً.

شيء واحد لا أنساه أبدا، وهو أنني وأنا أحتضن ألكسس والتحم بها في حب عميق... عميق... وسط الظلام، نظرت من خلال شباك غرفة نومي إلى حيث كانت تختفي جارتنا الإشبيلية، وعلى ضوء انعكاس أنوار الشارع، وجدتها ما زالت متجمدة في مكانها، فأحسست كأنما أحتضنها هي، وأمارس الحب معها هي في تلهف وانصهار شديدين، وليس مع ألكسس، مما جعلني أحس، بل أجزم، أن في شرايين هذه الإشبيلية دماً عربياً، وأن هذا الدم العربي يختلف كثيراً عن دماء بقية الأمم ! هذا ما يتضح أثناء المضاجعة؛ إذ أن التقاء المرأة العربية في الفراش، له ديمومة ونكهة وفيه متعة وسعادة، لا تجدها مع أية امرأة سواها من نساء العالم...!

*****

الفصل الخامس

- بروفيسور دهشان! ألم يخبرك طبيبك عن الحالة السيئة التي وصلتْ إليها أسنانك؟!

سألني طبيب الأسنان الدكتور وليم هاملتون في المركز الطبي التابع للجامعة، بعد أن أفرغ إبرة مخدر في لثتيّ، ليوقف الألم المبرح الذي هزّ كياني وأفقدني صوابي، حتى صرت أتخبط على غير هدى ! وبعد أن مرّ بآلة معدنية صغيرة فوق كل سن من أسناني وضرب عليه عدة ضربات، وهو يتفحصه من خلال مرآة صغيرة مكبرة، همس وهو يهزّ رأسه:

- يبدو أنك أهملتها زمنا طويلا، وأخشى أن يكون الوقت متأخرا لإنقاذها !

كانت كلمات الطبيب هاملتون كسكاكين ذات شفرات نارية، رفيعة حادة تغوص في أحشائي وتمزق قلبي، أو كأنما كانت صخرة كبيرة سقطت من علٍ فوق رأسي، فهشمته فتناثرت أجزاؤه !

نظرت إليه بعينين مشدوهتين جاحظتين وفم راجف مفتوح، فقد ألجمت الدهشة لساني، وتركتني المفاجأة مسلوب العقل والإرادة...! هممت أن أقول شيئا، أي شيء، ولكنني لم أستطع، فقد كان لساني قطعة لحم متصلبة أو حجراً صلداً ملقى في فمي، بسبب كثافة التخدير!

وضع ما بيده من أدوات على الطاولة الطبية أمامه، ثم نظر إلى وجهي نظرة تفحص وتأمل، فقد كان ينتظر مني أن أجيبه على سؤاله، ولكن هول الصدمة والمخدر معاً قد جمّدا لساني وأفقداه الحركة، فلم أستطع أن أتفوه بكلمة واحدة، بل لم أستطع حتى تحريكه! لعله أدرك ما حل بي فتابع حديثه:

- إنك تعرف أننا هنا في عيادة الأسنان بالجامعة لا نعالج ولا نقبل إلا حالات الإسعاف المستعجلة، وسأجري اللازم وأكتب لك بعض الأدوية حتى تستطيع أن ترى طبيب أسنانك.

وبعد أن عمل في أسناني حفراً وتدميراً لمدة نصف ساعة أو تزيد قليلا، توجه إلى طاولة قريبة منه والتقط ورقة وخط عليها بعض الكلمات، بينما أزالت الممرضة من أمامي الآلات التي استعملها في علاج أسناني.

كنت ما زلت مسمّرا متجمدا فوق الكرسي، لم أستطع تحريك جسمي ولا لساني، وشعرت بأنني مخدر الجسم، بالإضافة إلى أنني مخدر الفم واللسان، وقد أكون أيضا مخدر العقل، معطل التفكير، مجمد العواطف والمشاعر والأحاسيس...! هل كبرت؟! هل بلغت من الكبر عتيّا؟!

سأل الدكتور هاملتون وهو يناولني الوصفة الطبية وأنا ما زلت ملقى فوق الكرسي:

- متى زرت طبيب أسنانك آخر مرة ؟

ولما كان لساني مجمداً في فمي وفاقداً للحركة، فقد اكتفيت بهز كتفي علامة الجهل !

- هل تعني شهراً، شهرين، ثلاثة، سنة، أكثر، أقل؟! سأل بعصبية وهو شبه مستاء.

قلت وأنا أجاهد لكي أنطق:

- انك.. أنت... أو...ل... طبيـ...ـب يـ... يفحـ... ـص... أسـ...ـناني !

نطقتها بصعوبة بالغة وبطء شديد، وأنا ألوك لساني بفمي كالذي أثقله السكر، أو كالذي واتته سكرة الموت فألجمت لسانه !

- هل تعني أنني أول طبيب يفحص أسنانك منذ أتيت إلى أميركا ؟!

سأل وهو يتطلع إلى البطاقة التي ملأتها قبل أن أجلس على هذا الكرسي. ولما لم يسمع مني جواباً أضاف:

- إن البطاقة تقول بأنك بدأت التدريس بالجامعة قبل ما يقارب الثلاث سنوات. فهل تعني أنك لم تزر طبيب أسنان خلال كل هذه المدة الطويلة؟!

قال ذلك وقد تبدلت سحنته من الدهشة إلى ما يشبه القرف والاشمئزاز، إذ اتسعت حدقتا عينيه وتغيرت ملامح شكله، وبدأت تجاعيد وجهه تتعمق وتتضخم!.

- أعني منذ... منذ أن ولدت ! قلتها بأسرع ما يمكّنني النطق، فقد أحسست أن الحياة والحركة بدأتا تعودان إلى لساني وعقلي.

كنت وكأنما ألقيت قنبلة، أو كأنما أعلنت نهاية العالم وفناء البشرية، إذ إن جملتي هذه قد ألجمت لسانه، فاتسعتْ حدقتا عينيه، وقطّب حاجبيه!

- ما.. ما.. ماذا؟! لماذا؟ وكيف يمكن أن يحدث هذا؟ قالها كأنما أهانه أحدهم !

هززت رأسي ببطء عدة مرات إلى أسفل متجنباً نظراته، كأنما أقول له صدقني.لعلّ رغبتي الشديدة بالكلام، وقهري من عدم استطاعتي التحدث بطلاقة، أسرعتا في اضمحلال مادة المخدر من لثتي، أو هكذا بدا لي؛ فاستطعت أن أقول:

- إن الناس في بلادي، لا يذهبون لرؤية الطبيب... أي طبيب... إلا إذا شعروا بألم. وأسناني لم تؤلمني في حياتي أبداً حتى أذهب لزيارة طبيب ! إن الناس في بلادي لا يذهبون إلى الأطباء للوقاية أو لمجرد الاحتراس، كما يفعلون هنا وفي العالم الغربي! قلت ببطء ولكن بيسر واستمرارية.

- هذا مستحيل ! في القرن العشرين ! لا أصدق أذني !

قال ونبرات كلماته تصعد وتهبط كأنه ممثل على مسرح يؤدي دوراً درامياً !

- هذه هي الحقيقة يا سيدي. قلت باحترام وأدب شديدين.

لا شك أن تحرر لساني من المخدر شجعني على الاسترسال، فبلعت ريقي وازداد حماسي وصرت أستعرض في مخيلتي وأقارن كيف يعيش الناس هناك في الوطن، وكيف يعيشون هنا في أميركا... الهوة السحيقة والتباعد الزمني والحضاري بين العقليتين والمفهومين واسع... واسع جداً...!

- إن قسما كبيرا من الناس فقراء، وخصوصاً في البادية والقرى، وعندما تؤلمهم أسنانهم، يذهبون إلى الحلاق ليداويها لهم، لأنهم لا يستطيعون دفع أجرة طبيب الأسنان؛ أما القادرون على دفع أجرة الطبيب، فهم لم يصلوا بعد إلى الدرجة التي يذهبون بها لمجرد الاحتراس والحيطة. إن ممارسة الفحوص الوقائية لمّا تصل إلى بلادنا بعد...! قلت.

- ولماذا لم تذهب أنت إلى طبيب أسنان هنا في أميركا؟! قالها بلوم وعصبية.

- لأنني كما قلت لك، أسناني لم تؤلمني قبل البارحة!

قلتها بحدة ونفاد صبر، إذ بدأ غباؤه وعدم إدراكه لحقيقة حضارية، يضايقني ويثير حنقي !

- ألم يفحص الطبيب أسنانك عند تعيينك هنا بالجامعة ؟!
- نعم. ولقد أثني عليها ثناء عاطراً. إنني ما زلت أذكر كلماته حتى اليوم. فقد قال بأنه لم ير في حياته قط، أسناناً قوية وبصحة جيدة وناصعة البياض كأسناني. قلتها بصوت مرتفع وخشونة ممزوجة بالوقاحة !
- على كل حال، إنك بحاجة ماسة ومستعجلة لأن تزور طبيب أسنان، وأن تعمل طبقاً لتعاليمه وتوصياته. قال بحزم وكأنما أراد أن ينهي مناقشة عقيمة.
وابتعد عني قليلا ليفسح المكان للممرضة التي تقدمت مني ونزعت من حول رقبتي الفوطة الورقية، والتي أزاحت إلى اليمين الجزء الممتد كاللسان من الآلة الطبية الضخمة.
- إنني أشكرك على نصيحتك لي واهتمامك بي؛ فهل تتكرم وتوصي لي بطبيب أسنان أزوره؟
سألته وأنا أنهض، وإن كنت ما زلت أشعر بأنني نصف منوّم، وكأنني بين النوم واليقظة.
- طبعا! طبعا! اتبعني وسأطلب إلى السكرتيرة أن تقوم بذلك.
قال هذا وانحنى قليلاً، وخط بعض الكلمات على بطاقتي العلاجية، ثم توجه نحو الغرفة المجاورة، وأنا أسير خلفه كالذي يسير في نومه؛ من المخدر ومن الإحباط معاً...!
أغلقت باب العيادة خلفي وخرجت، وبيدي أحمل ورقة مكتوباً عليها بخط واضح جميل ومرتب، أسماء وعناوين لثلاثة أطباء أسنان، لأختار منهم من يقبل أن يتعهدني برعايته الطبية.
وقفت أمام العمارة العملاقة من عمارات العيادات الخارجية لمستشفى الجامعة للحظات، استنشق الهواء العليل، بعد أن قاسيت من الاختناق والإحباط وكتم الأنفاس لأكثر من ساعة، فتزاحمت على مخيلتي الذكريات من كل حدب وصوب، وتداعت أمام عينيّ صور الوطن الحبيب، المسحوق الممزق، الجريح النازف. ثم تذكرت بُعدي عنه وغربتي واغترابي وضياعي وتشردي...! أحسست بأوجاع تؤلمني... تسحقني... تحفر في أعماق عظامي، وتهز كياني... ذرفت عيناي دمعتين كبيرتين خلتهما جمرتين متوقدتين قرحتا جفني. وطني! يا وطني المحتل كم أحبك !
كنت منقبض الصدر مثقل القلب، مكسور الخاطر مهيض الجناح؛ واعتراني حنين جارف مدمر يسحق عظامي، ويمزق أحشائي ويفتت كبدي؛ واستولت علي غربة مخيفة ووحدة ماحقة ممزقة! لقد شعرت بشوق ملتهب مسعور لوالدتي وأخواتي وأخي، وتمنيت لو أستطيع أن ألقي برأسي على صدورهم، وبنفسي في أحضانهم، وأن أظل أبكي وأبكي حتى ينضب ما في مآقيّ من دموع، ويتلاشى ما في كياني من رعب وجزع وألم!. دموع الرجال غالية... ودموعي غالية... غالية... تبّاً للغربة، وتبّاً للحكام قساة القلوب الذين رموا بنا خارج الحدود وأرغمونا على الاغتراب ! لقد تراءت لي مدينة لوس أنجلوس، وحشاً هائلاً... فاغراً فاه... يريد أن يبتلعني، أو قبراً مظلماً موحشاً يريد أن يدفنني في جوفه !
كنت كالكلب الذي داست سيارة مؤخرته، فكان يمشي على يديه الأماميتين، ويجر خلفه رجليه المسحوقتين، ونصفه الممزق المهروس... كنت أجر نفسي جراً بين عيادة مستشفى الجامعة ومكتبي في دائرة الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا.

بعد زوال تأثير المخدر وكذلك تأثير الصدمة، صرت أسترجع ما قاله الدكتور ذو الشعر الأشيب، والعينين الغائرتين، فأتصور عظم المأساة وهولها ! كنت كلما استرسلت مع خواطري وتصوراتي، ازددت رعباً وجزعاً ويأساً ! أفقد أسناني، وأضع طقماً اصطناعياً، وأنا بعد لم أبلغ من العمر الثلاثين عاماً؟! وجسّم لي خيالي الجامح وعواطفي المتأججة، ورعبي الاغترابي؛ ضخامة المأساة وهول العاقبة، فخفت أن أفقد عقلي وأصبح معتوها، وأن تنتابني عاطفة هوجاء مدمرة تجعلني أجوب شوارع لوس أنجلوس كالكلب المسعور، ينهش كل من يمر به !

لا، لا، إن الدكتور هاملتون يهرف بما لا يعرف...! إن أسناني ممتازة ومعافاة كالشمس. إنها لم تؤلمني قبل هذه المرة أبدا أبدا... إنني أعتني بها منذ صغري عناية فائقة وأحافظ عليها حفاظاً شديداً، كأنها كنز أعتز به وأفخر. إنها موضع إعجابي وتفاخري! كنت أنظفها في اليوم مرتين، عند الاستيقاظ وقبل النوم، وأحيانا أكثر من ذلك في المناسبات الخاصة.

لقد سمعت أناسا كثيرين، هنا وفي الوطن، يثنون على جمال أسناني ونصاعة بياضها! لقد قالت لي فتاة ذات مرة، بأنها تتمنى جدا لو يكون لها أسنان جميلة وناصعة كأسناني، واستعدتْ أخرى بأن تدفع أي مبلغ يُطلب منها لو تحصل على أسنان مثل أسناني؛ فكان هذا يزيدني اهتماما وعناية بها.

وأذكر أنني مرة، سألت فتاة عن سر اهتمامها بي وحبها لي، وكان ذلك بعد فترة قصيرة من وصولي إلى كاليفورنيا؛ إذ كنت أتوقع أن تقول لي ثقافتك، رجولتك، فحولتك، كرم أخلاقك، لطفك، شهامتك، أناقتك، بناء جسمك، أو أي شيء من هذا القبيل، ولكن خاب ظني وازدادت دهشتي، عندما قالت:

- إن في جمال أسنانك جاذبية وسحراً تشد الواحدة منا إليك، كالمغناطيس ! إنك وأنت تسدد إلينا نظرات حالمة، وكأنك تنادينا وتدعونا إلى الفراش للاحتفال بوليمة دسمة تقيمها قبيلة من آكلي لحوم البشر، فتداعب أجسادنا بأسنانك وشفتيك !!

لقد فتحت الذكريات الطريق لنهر متدفق من الدموع الغزيرة المحرقة، تواصلت ولم تنقطع إلاّ بعد أن دخلت باب عمارة دارسات الشرق الأوسط. ناولت السيدة " آن ولسن "سكرتيرة القسم، قائمة الأسماء، ورجوتها أن تحصل لي على أقرب موعد؛ ودخلتْ على مكتبي بعد عشر دقائق وناولتني ورقة مروّسة باسم الجامعة والقسم، مكتوب عليها بخط يدها، اسم طبيب الأسنان وعنوانه وتاريخ الموعد وساعته؛ وبعد أن شكرتها تمنت لي حظاً سعيداً وشفاء عاجلاً.

*****

بعد فحوص عديدة ودقيقة، وبعد استفسارات وتساؤلات، وبعد أخذ مجموعة كبيرة من صور الأشعة للأسنان واللثة، وبعد تحليل للدم والبول والبراز، ثم بعد معاناة وترقب وقلق وتوتر أعصاب من جانبي؛ أعلمني طبيب الأسنان الدكتور بروس إليوت، سبب آلام أسناني والمرض الذي أصابها. لقد ذكر لي مصطلحات علمية لم أسمع بها من قبل ولم أفقه معناها؛ ولكنني فهمت منه وباختصار شديد، أن الأسباب تعود إلى عوامل عدة، منها سوء التغذية أيام الطفولة واليفاعة. ثم إقبالي المفرط على تناول الحلوى، بشتى أنواعها

وأشكالها منذ وصولي لأميركا قبل ثلاث سنوات؛ وكذلك انهماكي الزائد في ممارسة الجنس؛ فلقد كنت أمارسه مع كل أنثى تقبل ذلك دون أي اعتبار لسنها أو لجمالها...!

لقد مارسته مع نساء عجائز ومع شابات صغيرات... مع جميلات وقبيحات... لا فرق! لقد كان فقط لإشباع جوع ماحق وشهوة عارمة وحرمان طويل عانيت منها منذ أن وعيت على ذاتي ! ولقد فهمت أيضاً أن أربعة أضراس قد فات الأوان لإنقاذها، وأنه لا بد من قلعها والتخلص منها ! وكذلك أعلمني بأن قسما آخر من أسناني قد عاث السوس به، من كثرة أكل الحلوى، التي لم أتعود على أكلها من قبل، وتحتاج إلى الحفر والحشو؛ وبعض الأضراس بحاجة إلى قتل العصبْ. أما القسم المتبقي من أسناني، فيحتاج إلى عناية شديدة ودائمة مع مراقبة دقيقة ودورية حتى يقضى على المرض والتأكد من عدم عودته ثانيا؛ واختتم الدكتور محاضرته الطبية والإرشادية لي قائلا:

- ولهذا يجب أن أراك كل أسبوعين مرة خلال الثلاثة شهور الأولى، ثم تتباعد المدة بعد أن نطمئن على أن كل شيء قد انضبط؛ عندها أراك كل ستة شهور مرة.

ثم طلب إلى الممرضة التي كانت تساعده وتستمع لما يقول أن تحدد لي أول موعد وفي أبكر وقت ممكن، وأن تتبعه بمجموعة من المواعيد المتلاحقة.

أنا لم أخبر الدكتور بروس إليوت بأنني كنت في العام الأول لحضوري إلى أميركا أمارس الجنس ثلاث مرات في اليوم الواحد، وأحيانا أربع مرات، مع نساء مختلفات أو مع نفس المرأة! أنا لم أقل له ذلك أبدا، إذ ماذا يهمه أن يعرف عدد المرات أو عدد النساء، ولكنني أعلمته الحقيقة، وهو أنني كنت أمارس الجنس كثيراً... وكثيراً جدا...! نعم، لقد كنت أمارسه بإفراط ودون تعقل ...!

أنا لم أذكر له ذلك، على سبيل الفخر والمفاخرة، لا، أبداً، ولكنني ذكرته لعله يساعده في معرفة السبب الذي أوصل أسناني إلى هذا الوضع المحزن ...!

إنه القحط... إنه الحرمان... سحقاً لهذا الشرق اللعين... شرق الأحلام والجوع والتوهان... شرق الحلال والحرام... المسموح والممنوع... المباح والمحظور... شرق الجنة والنار...!

تبّاً لأقوام يُقيّمون أخلاقيات الإنسان ويحكمون على سلوكياته وفق تصرفاته الجنسية؛ وكأنما الأخلاق والشرف والمروءة والشهامة، تنبثق من فراش الرجل والمرأة، وتقررها حرارة اللقاء الجنسي، وممارسة الحب والوقاع...!

*****

- هذا هو موعدك الأول.

قالت الممرضة ذلك، وألقت أمامي بطاقة بيضاء اللون، بعد أن خربشت عليها اسمي ويوم الموعد وتاريخه وساعته؛ ودون أن تسألني، ولو مجاملة وطبقا لقواعد الإتكيت والتعامل مع المرضى، إن كان الموعد يناسبني! وقبل أن أمد يدي لأخذها، مددتها في جيب جاكيتي وأخرجت بطاقة وقوف السيارة ومددتها لها، فخطفتها من يدي دون أن تنظر إلي؛ ووضعتها فوق البطاقة الأولى وضربتها بالختم بقوة وعصبية، ثم دفعت البطاقتين بعيدا عنها وباتجاهي، كأنما هما قطعتان مقرفتان كريهتا الرائحة، وهي ما زالت تنظر أمامها، وتتجنب النظر إلى وجهي، كأنما أنا ظربان أو خنزير يبعث منظري على التقزز

والاشمئزاز؛ أو كأنما أنا شحاذ ملحاح قد أزعجتها وقاحته وإلحاحه، فرمت إليه وباحتقار وتذمر قطعة خبز لتتخلص منه وليختفي عن ناظريها.

كانت عابسة الوجه مقطبة الجبين، جافة الشفتين مضطربة اليدين، وقلما يخرج كلام من فمها، وإن خرج فكلمات مقتضبة مبتسرة. ولقد خيل إلي أنها كانت متوترة الأعصاب لدرجة التشنج؛ كما لاحظت أن نهديها المتوثبين، يتراقصان خلف فستانها، والتي ترتدي فوقه بزتها البيضاء؛ وكانت طيلة الوقت تنظر إلى دفتر المواعيد المفتوح أمامها، حتى عندما تفوهت بالكلمات القلائل !

نهضتْ من مقعدها فجأة، واتجهتْ نحو الباب وفتحته، وظلتْ ممسكة به وعيناها إلى الأرض؛ وكأنما هي تقول لي لا تطل وقفتي، فاخرج بسرعة قبل أن ينفد صبري فأنهرك وقد أطردك !

لقد ذكّرتني تصرفاتها بالمتزمتين، في الوطن، الذين لا ينظرون إلى امرأة، إذ يعتبرون النظر إليها نوعاً من الاشتهاء المحرم الذي هو فحشاء ومنكر...! بعد أن خرجت، صفقتْ الباب خلفي بعنف أحدث صوتا مزعجا حتى خلت كأنما صفعتني على خدي بعد أن بصقت في وجهي!

تركت العيادة منكسر الخاطر مجروح النفس نازف القلب، وفي النفس غمان؛ غم على ضياع أسناني، وغم على احتقار تلك المرأة لي، دونما ذنب اقترفته! لقد شعرت أن معاملتها غير الحضارية لي ، والخالية من كل ذوق وأدب، قد فاقت حزني على أسناني.

لم أذكر أنني قابلت هذه المرأة من قبل، ولا أذكر أنني تصرفت معها تصرفا يسيء إلى الإتكيت أو يخل بالأدب. لقد قرعت باب العيادة قبل أن أدخل، وتكلمت معها بصوت منخفض ملؤه الاحترام والتقدير، وحييتها باحترام على طريقة فرسان القرون الوسطى، بأن أحنيت لها رأسي قليلا وأنا أقدم لها بطاقة الموعد، وأعلمها باسمي.

لقد قيل لي مرات ومرات بأن تصرفي مع الجنس الآخر، كان دائماً وأبدا، بمنتهى الأدب والاحترام والرجولة؛ وكنت أعزو ذلك لنشأتي البيتية وتربيتي الدينية المحافظة، وأحيانا أعزوه لعدم السماح للجنسين بالاختلاط المنطلق الحر. إنه تصرف عفوي، لا مبالغة به ولا تصنع. هكذا أنا دائما منذ أن غادرت أرض الوطن الحبيب !

شيء واحد لن أنساه ما حييت، وهو أنني بعد أن وقفت أمامها، وأحنيت رأسي قليلا احتراما لها، وقدمت لها بطاقتي والتقت عيوننا، شعرت أن جسمها كله، من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، قد اهتز وارتجف كالطير الذبيح؛ أو كأنما صعقه تيار كهربائي؛ تماماً كما يفعل إنسان بعد أن تغرس سكيناً في أحشائه... أو كأنما يتقابل إنسان ولأول مرة وجها لوجه أمام قاتل أبيه وأمه! ما السبب ؟! لا أدر ؟ ! حقاً لا أدري !

*****

الفصل السادس

في الليلة التالية جاءت ألكسس إلى شقتي لتقضي الليلة كلها معي؛ فمارسنا الجنس مرتين متتاليتين، كانت في كل مرة ترقص تحتي رقصات متواصلة محمومة، كسمكة خرجت لتوها من الماء، وترتجف كطفلة هاجمها وحش في ليل مظلم ! كانت تقول من بين تأوهاتها وتنهداتها؛ بأنه لم يمر عليها فحل شبق أوصلها إلى ذروة السعادة الجنسية كما أوصلتها أنا ! لقد أسعدني جدا إطراؤها لي، فألهب فحولتي ودغدغ أحاسيسي ومشاعري، خصوصا وهي تصفني بالشمبانزي لطيلة ديمومة فترة المضاجعة وعنفها وحرارتها!

كنت أنوي أخذها إلى الفراش للمرة الثالثة، ولكن بعد أن ننام قليلا لنرتاح، وكان هذا بناء على طلبها؛ لكن الغبية أفسدت المتعة على كلينا، فأغضبتني وشعرت بإهانة بالغة لا يمكن أن أسامحها أو أنساها لها؛ وإن كنت واثقاً جداً، بأن ما عنته كان مدحاً وتدللاً وغنجاً، وأنها قالت ما قالته من فرط السعادة واللذة والانسجام، وبروح طيبة بريئة!

- إنك شمبانزي، ولا بد أن أباك وأمك من سلالة الشمبانزي !

قالتها بمتعة وتلذذ وفرح صبياني؛ إذ لا شك بأنها كانت تظن أنني سأطرب لمديحها فأشكرها!

احمرّ وجهي، وغلا الدم في عروقي، وبدأت أرتجف غضباً، وفقدت الرغبة بممارسة الجنس معها. نهضت ثم صفعتها صفعة قوية على وجهها، أخذت المسكينة ترتجف من هول المفاجأة. أشرت بإصبعي لها باتجاه الباب.

- أخرجي أيتها الوقحة الساقطة! إنك لا تعرفين مع من تتكلمين! إن والديّ إنسانان مسلمان تقيان ورعان، يصليان جميع الأوقات، وكذلك التهجد؛ ويؤديان كل فروض دينهما ويخافان الله كثيراً.

- أنا لا أعني أن أهين والديك! أنا أقصد أن أمتدحهما! أن أشكرهما لأنهما أنجباك وأرسلاك لي هدية رائعة! قالت من بين دموعها، وفي حمأة ارتجافها.

- إن والدي يعتبران أن مجرد نظرة رجل إلى امرأة من غير محارمه لخطيئة عظمى، لأن في النظرة اشتهاء؛ وإن مضاجعة رجل لامرأة غير زوجته تدخله نار جهنم ويظل فيها مخلداً.

- أنا لا شأن لي بما يعتقد والداك ولا حتى بما تعتقد أنت! هذا شأن شخصي، وأنا أحترم رأي كل إنسان !

- ولكنك أهنتهم إهانة بالغة وأنت تصفينهما بالشمبانزي وإنهما من سلالته! قلت ذلك وفتحت الباب ودفعتها خارجه بعد أن أعلمتها بأنني لا أريد أن أرى وجهها ثانية! سمعتها وهي تبكي خلف الباب وتقول:

- كنت أفكر بأننا سنكون صديقين دائمين وأنني لن أخرج مع رجل سواك.

لم أجبها وعدت إلى فراشي، وإن كنت قد شعرت بشيء من تأنيب الضمير...! لا شك أنني تسرعت بالحكم عليها، ولا شك أنني ظلمتها.

عند ظهر اليوم التالي، وبعد انتهاء محاضرتها معي، جاءت ألكسس إلى مكتبي، لتعتذر لي بحرارة وصدق عن وصفها لي بأنني شمبانزي. كانت تضم كتبها إلى صدرها، وتدخل على استحياء! وقفت وقالت وهي تذوب خجلاً، وترسم ابتسامة اعتذار كبيرة:

- ممكن أجلس؟ ! جئت أعتذر. أنا حزينة جداً! أتمزق من الحزن.

نظرت إليها نظرة عدم اكتراث، وأشرت لها بيدي أن تجلس.

- أنا آسفة عما بدر مني ليلة أمس. أقسم بأنني لم أقصد الإساءة، بل على العكس تماماً، أنا عنيت الثناء! لقد كنت في منتهى السعادة والسرور! أنا لم أشعر في حياتي كلها كما شعرت ليلة أمس ! كنت أتصور نفسي في الجنة !

لم أفتح فمي وبقيت صامتاً فأضافت ؛

- إن جدتي تملك بيتاً في الصحراء، إنه صغير؛ غرفتا نوم وتوابعهما، ولكنه جميل جداً وفاخر، ويقع في منتجع شتوي متميز. إنها تقضي معظم أيام فصل الشتاء هناك؛ والدي ووالدتي وأنا نذهب إلى هناك لنقضي عطلة نهاية الأسبوع وبعض العطل الأخرى معها. قالت بأنها كتبت في وصيتها بأن يكون لي بعد وفاتها! لقد نسيت أن أخبرك. لي حصان جميل؛ اسمه "روكي"، هو هدية من أمي وأبي بمناسبة بلوغي الثامنة عشرة وتخرجي من الثانوية العامة. إنه موجود الآن في أحد الاصطبلات القريبة من مدينتنا. أنا أحب ركوب الخيل، إنها هوايتي المفضلة. ركوب الخيل ممتع جداً ! لقد تعلمت ركوبها منذ أن بلغت الثانية عشرة من عمري!

وفجأة ، قهقهت ألكسس طويلاً، حتى ظننت أنها لن تكف عن الضحك! نظرت إلى عينيها الزرقاوين الخبيثتين وخلتها لا تضحك على قصتيّ اللتين قصصتهما فحسب، بل تضحك باستهزاء وسخرية على قيمنا ومعتقداتنا وعاداتنا وتراثنا، وكذلك تضحك على نسقنا الحضاري الذي نعيش، سواء كان مقبولاً أو مرفوضاً، منطقياً أو تافهاً متخلفاً...!

أحسست بالإهانة البالغة، فهممت أن أنهرها وأعلمها بأنني عرفت سبب ضحكها؛ ولكنها قالت بعد أن مسحت دموعها بأطراف أصابعها:

- قصة غريبة حقاً وممتعة جداً! أحب كثيراً أن أسمع قصصاً من هذا النوع!

عندها أدركت أنني كنت مخطئاً حينما أسأت الظن بها!

ضحكت بجذل حتى بدت أسنانها البيضاء كنصوع الثلج البكر، فاهتز جسمها وتراقص نهداها خلف فستانها الشفاف، فبدت مغرية كفاكهة ناضجة لإنسان جائع ومحروم، فحركت شهوتي وأثارت غرائزي فاشتعلت النيران في داخلي، وصارت تراودني شتى الخواطر والانفعالات المحرقة !

لا شك أن الخبيثة أدركت ما يجول بخاطري، فصارت تمصمص شفتيها وتنقل طرفها بيني وبين الباب والكنبة، وتتلمس بيدها اليسرى رقبة بلوزتها! خطرت ببالي فكرة أن أنهض وأغلق علينا باب المكتب وأمارس الجنس معها، وكلي يقين وثقة بأنها لن تمانع، بل ستحبذ ذلك كثيرا؛ ولكنني استعذت بالله وعدلت عن فكرتي ، احتراما لحرمة الجامعة وتقديساً لفضل العلم !

نهضت ألكسس من مكانها قبالتي، فجاءت ووقفت إلى جانبي، ثم لفت ذراعها اليسرى حول كتفي، وبيدها اليمنى أدخلت أصابعها في شعر رأسي فصارت تمشطه ! أسعدني عملها جداً، فقد أعاد لي حناناً واهتماماً أنثويين، قد افتقدتهما من مدة طويلة؛ أيام وجودي بالوطن الحبيب بين أمي وأخواتي؛ ولكنني أبعدت يديها الاثنتين معاً عني بلطف وأدب، وطلبت إليها أن تعود إلى مكانها، ثم أضفت شبه غاضب:

- لو أن أحدهم فتح الباب ورآنا بهذا الوضع فماذا ترينه يظن بنا ويقول للآخرين عنا؟

- ليظن ما يشاء وليقل ما يريد لمن يرغب ! قالت وقد هزّت كتفيها علامة اللامبالاة.
- أنثى تداعب رجلها وعاشقة تلعب بشعر حبيبها ! قالتها بدلال وغنج وقد انحنت إلى الأمام قليلا حتى قفز نهداها من فتحة الفستان !
- ولكنك لست حبيبتي ولا حتى صديقتي! قلت متصنعاً الغلظة والجفاوة، وإن كنت في أعماقي سعيداً بفعلتها هذه، فقد كان حديثها يصل إلى أعماقي كموسيقى ناعمة حالمة!
لا شك أن قسوة كلماتي، وخشونة تصرفي، وعدم احترامي قد فاجأتها للمرة الثانية، فجرحت مشاعرها وأحزنتها، خصوصاً بعد حديثي المسهب معها والقصص التي سردتها على مسامعها، فاصفّر وجهها بادئ ذي بدء، ثم ازرقّ بعد ذلك...!
لن أنسى ما حييت التغييرات والتفاعلات التي توالت متلاحقة فوق وجهها، وتعبيرات ألم قاس تتراقص فوق شفتيها. فأحسست أنها على وشك أن تبكي لولا أنها كبحتْ جماح عواطفها، إذ كانت كالفرس التي تحمحم عند رؤية فلوها أو عند فقده.
كانت شفتاها تتحركان ولكن لم يخرج منهما كلام؛ رأيت صدرها يعلو ويهبط، ونهديها يتراقصان كرمانتين حمراوين تقطران شهداً، أو كالكير الذي يستعمله الحداد لزيادة اشتعال النار حتى يسنّ الفؤوس أو قطع السلاح...!
قلت وقد تملكتني حماقة وجهالة بني قومي، واستبدت بي نفختهم الجوفاء :
- يبدو أنك لم تأخذيني مأخذ الجد، أو أنك لا تفهمين عقليتنا نحن في الشرق.
لم تفتح ألكسس فمهما بكلمة؛ كانت تراقبني وتصغي لما أقول، وإن كنت قد لاحظت أن صدرها قد ازداد ارتفاعه وانخفاضه، مما يعني لي بأن الثورة في داخلها تحمى وتشتد.
- لقد قلت لك بأننا نحن العرب والمسلمين لا نغفر إساءة من يهين كرامتنا أو يحاول أن يطعننا بكبريائنا. نحن قوم قد نتسامح مع من يأخذ ممتلكاتنا الدنيوية، أو حتى يغتصب بلادنا ويطردنا من بيوتنا؛ أما أن يهين كبرياءنا الشخصي أو القومي أو الديني فهذا ما لا نتسامح به ولا نتهاون، وأنت أسأت إلى شرفنا وكبريائنا وكرامتنا إساءة بالغة !
ليتني لم أفتح فمي، وليتني ما نطقت حرفاً، فقد سارت ألكسس بضع خطوات حتى واجهتني ووقفت قبالتي، وهي تشتعل غضباً وعيناها تقدحان شرراً، وقالت:
- لقد أمضيت يومين كاملين أستمع إلى هرائك وسخافاتك وترهاتك، وأنت تتحدث عن الكرامة والشرف والكبرياء و... و... إلى آخر هذه القائمة من الأكاذيب والسفسطات، فصدعت رأسي بها، وأنا صابرة أتحمل ما تقول، احتراما لك كأستاذي وكحبيب. ولكنني الآن وقد قطعت الأمل منك، وبعد أن وجدتك عقيماً أجوف سخيفاً، فإنني أريدك أن تسمع رأيي فيك وفي هذا الذي تسميه العرب والمسلمين ! أريدك أن تسمعني جيداً، وفكّرْ فيما سأقوله لك! إنكم أمة عفنة... نتنة... خاوية... تافهة... وحقيرة ! أنتم أمة من الفقاقيع ... مفلسة أخلاقيا وخلقياً، ذوو عقلية متخلفة ومنحطة ! تتكلمون عن الشرف والكرامة والكبرياء والأمانة والصدق والأخلاق، وأمتكم تنقصها كل هذه؛ حتى رجال دينكم باعوا الدين والعقيدة والضمير، ليس ببعيد؛ مقابل حفنة من الدولارات، فأفتوا بذبح أطفال آشور وبابل وكل أهله ودمروا كل ما عنده من إنجازات حضارية ! إنكم أمة عاهرة داعرة دونية، تعيشون بلا أخلاق ولا قيم ! أنتم أمة تعيش خواء حضارياً وفكرياً ودينياً وأخلاقيا ! لقد احتقركم العالم واستهان بكم فأسقطكم من حساباته ! إنكم كالسوائم وكالسلع تباعون

وتشترون بالنقود من الحاكم حتى الكناس ! إن الحفائظ الورقية التي أستعملها أثناء فترة الطمث، لهي أكثر طهارة من أفضل مخلوق فيكم !

أخرجت كلماتها كاللهب، وكأن جوفها بركان يخرج حممه، ويقذفها بسعار ووحشية؛ ثم فجأة بصقت في الهواء، بكل قوتها وطاقاتها، مما أجفلني، فاهتززت في مقعدي، وبطريقة عفوية، وضعت يدي على خدي، كأنما لأتجنب بصقتها وصفعتها معاً...!

تصورت الطالبة ألكسس وليامز، وكأنها تبصق في وجه كل عربي ومسلم عنده ذرة من شرف أو إحساس بالكرامة ! وبكل ما عندها من قوة وما في داخلها من غضب، فتحت الباب وطرقته خلفها بشدة، حتى خلت أن الإطار الخارجي قد تحطم... وبعد ثوان فتحتْ الباب ثانية وقالت :

- اطمئن! المساق الذي آخذه معك سألغيه. ثم صفقت الباب بعدها.

كنت طيلة فترة كلامها متسمراً في مقعدي مذهولاً مصعوقا كالمنوم لجرأتها وصراحتها وبلاغتها وقوة حجتها، ولم يعد إلي كامل وعيي إلا بعد فترة ليست بالقصيرة ... ومع هذا فقد نهضت مسرعاً وجريت خلفها أنادي كرامتنا النازفة وشرفنا المطعون، وكبرياءنا الممرغ بالوحل، علني أجدها لأؤدبها وأعلمها درساً، ولأثأر لتحقيرها لبني قومي ولمعتقداتنا وقيمنا؛ ولكنني لم أعثر عليها، رغم أنني أمضيت وقتاً طويلاً في الساحة العامة وبين العمارات أتصفح وجوه الطالبات اللواتي يقابلنني !!

عدت وألقيت بنفسي فوق مقعدي أفكر وأتأمل ما قالت؛ ثم سألت نفسي بعد أن هدأت قليلا ؛ هل حقاً نحن أمة مفلسة تعيش خواء حضارياً وفكرياً ودينياً وأخلاقيا؟! وهل صحيح أننا أمة دونية منحلة ومنحطة، تباع وتشترى من شيخ القبيلة إلى راعي غنمها...؟ هل... وهل... وهل...؟! أسئلة كثيرة دارت في مخيلتي !

مرّ علي أسبوعان وأنا محبط حزين لما حصل من ألكسس، فقد كنت أشعر بإهانة وإذلال ماحقين! كانت الأفكار تتناوبني: إن كل كلمة قالتها هذه الصبية عنا كانت حقيقة، ولكن ما كان يجب أن تتفوه بها، حتى لو كانت متأكدة من صحتها! العالم مملوء بالحقائق المؤلمة، بل المفجعة، ولكن الناس يتظاهرون بعدم معرفتها، بل وحتى بعدم وجودها !

أخذت أستذكر ملامح جسدها البلاستيكي الذي يتثنى كسمكة أخرجت لتوها من الماء؛ ولون شفتيها القرمزيتين دون روج، وشعرها الذي يشبه شعر الخيل الأصيلة، وصدرها العامر! وفوق كل ذلك رائحة عطرها... وحضورها. آه يا ألكسس! يا قطعة من نار! ياباقة ورد ! لماذا صنعت كل هذه الزوبعة يا سهيل؟ لأنها وقحة! ولكنها اعتذرت لك وأقسمت، وأوضحت لك بأنها كانت تمتدحك ولا تذمك، وأنت تعرف أنها صادقة.

كانت الأفكار تراودني طيلة الأوقات، وأنا في البيت، وفي الجامعة، وفي قاعة المحاضرات، وأنا أرى مقعدها الفارغ، وأتصوره حزيناً لتركها له، وكذلك وأنا بين الأصدقاء! أفكاري تطاردني! إنني لا أكاد أستقر على شيء! إنني أحس بأن رأسي يكاد ينفجر! كنت أعيش في دوامة! أشعر بفراغ قاتل! ليس لي صبر ولا رغبة أن أفعل شيئاً ! أشعر بالإحباط... بالقهر... بالضياع... بالتوهان !

*****

الفصل السابع

وجاءت عطلة عيد الميلاد، فحملت أمتعتي وأسرعت أختفي عن الناس كلهم، وعن عيني ألكسس وأسافر إلى منتجع "كرميل" في شمال كاليفورنيا. أريد أن أهرب... أهرب... بعيداً!

في الطريق إلى المنتجع لم تفارقني عينا ألكسس الزرقاوان، والوجه الوردي الذي يشع جمالاً وحلاوة دون مساحيق ! كان وجهها يرتسم إلى جانبي على زجاج مقدمة السيارة، وأنا أرنو لما أمامي. كان وجهها قريباً جداً مني، لا يبعد سوى سنتمترات قليلة، وعندما أتوقف لأستريح، وألقي برأسي على المقود، أشعر وكان خدي يلتصق بخدها! أحسست بالمشاعر الجياشة التي كانت تعتريني وأنا أستقبل ألكسس في شقتي نتحدث... نأكل... نتناقش... ونمارس الحب... وفجأة قفزت لذاكرتي إهانتها لنا، فبصقت على صورتها المرتسمة على زجاج السيارة، فانعكس جزء من رذاذ البصاق على وجهي، فمسحته !

وضعت أمتعتي داخل غرفتي بالفندق ، بعد أن أغلقت الباب، وأخذت أتأمل الغرفة الجملية الأنيقة. أسرعت إلى نهايتها الغربية التي تطل على المحيط الهادي. جلست على كرسي مريح، واسترخيت وأنا سعيد بالجو الهادئ البعيد عن التوترات... عن ألكسس وعن كل الناس الآخرين! سعيد برفقة أمواج البحر التي تأتي من بعيد، وتتوقف عند الشاطئ على بعد عشرات الأمتار مني، وسعيد برؤية الأشجار الكثيفة في الغابة المترامية الأطراف.

أحسست فجأة بشوق مسعور إلى ألكسس... إلى حديثها... إلى معانقتها... ولكنني سرعان ما طردت الفكرة من مخيلتي، شعرت بعدها بالهدوء. أخذت أحاور نفسي؛ أنا كعربي، شرقي مسلم، أشعر بأن شرفي قد ثلم، وكرامتي قد استبيحت ! لقد أذلنا الأعداء. هذا صحيح، حتى فيروز تذكرنا بذلك كل صباح: يا بلادي زمناً طويلاً أذلك الغاصبون. صحيح، لكننا مع ذلك عائدون... منتصرون... متحررون... نعم عائدون، سنرد لهم الصاع صاعين، ونطردهم عن آخرهم كما طردنا التتار والصليبيين. ولكنني الآن ذليل؛ حتى ألكسس أذلتني لا... لا... لم يذلني أحد، وألكسس صبية رعناء متحاملة. لن أستسلم للفكرة... للوهم، كرامتي مصانة... المهم أن أكون في سلام مع نفس !. رفعت رأسي إلى فوق... فوق... لأبرهن لنفسي أنني لست ذليلاً !

نهضت، ومشيت في الغرفة خطوات، ثم وقفت أمام المرآة، ورأيت وجهي العابس القسمات. خلعت ملابسي وألقيتها على السرير. لاحظت وسادة الشعر الكثيف على صدري تطل من فتحة الفانيلا، خلعت الفانيلا، واجهتني الوسادة السوداء السميكة. لطالما عبثت ألكسس بهذا الشعر... لطالما مرغت وجهها وشفتيها على الشعر الفاحم الأسود، وعلى ندبة البز...! أحسست بانفراج... ضحكت... واقتنعت بأن ماء وجهي محفوظ، وأن كرامتي مصانة...! ثم فجأة انقبض قلبي، شعرت بأنني أخدع نفسي مثلما خدع ذلك البدوي نفسه !

فقد تذكرت اليوم قصة كان خالي رحمه الله قد قصّها علينا، أنا وإخوتي في إحدى ليالي الشتاء الطويلة الباردة، وقد كنا متحلقين حول الموقدة نتدفأ على نار وقودها من حطب السنديان... وكان يتندر بها على الزعماء العرب والمسلمين، الذين أقسموا بشرفهم وشرف آبائهم وأجدادهم، وعرض نسائهم وعفة بناتهم، أن يحرروا المغتصب من فلسطين من قبضة اليهود، ويعيدونا إلى بيوتنا التي طردنا منها، ولكنهم بدلاً من ذلك سلموا لهم القسم المتبقي، فانضمت إلينا قطعانٌ أخرى من المشردين الهائمين على وجوههم...!

لعلّ ما حلّ ببطلها البدوي يشبه إلى حد كبير ما يحلّ بنا اليوم، نحن أبناء الأمتين، العربية والإسلامية؛ فكل منا ثُلم عرضه واستبيحتْ كرامته وذلّ إذلالاً عظيماً؛ ولكن كلاً منا يحاول كاذباً أن يحفظ ماء وجهه ويتظاهر بأن شرفه لم يمس وكرامته مصانة؛ وإن كان يحس في أعماق وجدانه بأنه قد ألقى به وبكل قيمه ومعتقداته وبجميع أمانيه وأحلامه؛ في حاويات القمامة ومجاري المياه العادمة...!

لقد كان هذا البدوي الشاب يفيض رجولة وقوة، وكانت الحياة والمستقبل يبدوان أمامه واضحين، كلهما إشراق وسعادة! لقد كان عائداً عصراً مع زوجته من المدينة إلى مضارب عشيرته، بعد أن أمضيا يوما ممتعا يتجولان في أسواق العاصمة ويكحلان عيونهما بحوانيتها التي تعج بكل ما لذ وطاب من أكل وحلوى، وبكل ما هو جميل ومبهج من أقمشة وألبسة. كان الخُرج ، فوق ظهر الفرس ، معبأ بما اشترياه من ملابس لهما الاثنين ولأمه الأرملة التي تسكن معهما وتنتظر عودتهما بشوق ولهفة. كانا عائدين يتسامران ويتضاحكان ويتغازلان أحيانا أخرى، حيث كانا حديثي عهد بالزواج. ورحلة اليوم إلى المدينة والتي استغرقت يوماً بأكمله، كانت تعني بالنسبة لهما الشيء الكثير؛ إنها رحلة شهر العسل، خصوصاً وهما ومنذ زواجهما في الصيف الماضي لم يغادرا مضاربهما ! كانت الزوجة تركب الحمار وكان هو يسوق بها تارة ويمشي إلى جانب الحمار تارة أخرى. كانت الزوجة تتحدث عن مشاهداتها في المدينة بسعادة واستمتاع وبهجة، وكان الزوج يؤكد لها بأنهما سيقومان بزيارة المدينة كل عام على الأقل مرة؛ عندما لحق بهما أربعة من البدو ثلاثة منهم يركبون خيلاً ورابعهم كان راجلاً، ولكنهم كانوا من قبيلة غير قبيلتهم ! كانوا جميعهم عزاباً، وكان الواحد منهم لا يوجد في مخيلته ولا يشغل باله ويستبد بتفكيره إلا ما بين فخذي بدوية جميلة مثلها !

هناك بعض النسوة في عيونهن شبق غريزي، ولهفة دائمة مستعرة لكل ذكر تقابله؛ وعندما تنظر إلى الرجل تجعله يعتقد، ولو أنها تنظر إليه لأول مرة، بأنها تعشقه وتريده، وأنها متيمة بهواه !

إنها عندما تنظر إلى الرجل تُشعل الحرائق في دمه، فتصير كل خلجة في جسمه تتقد وتتأجج، وقد تحول كيانه إلى كتلة نارية ملتهبة يكاد أوارها يصل عنان السماء! إنه يشعر وكأنما عيناها تناديه وتقول له بأن فحولته قد استبدت بكيانها... بأحاسيسها... بعواطفها... فليأتِ... ليقبلها... ليعانقها... ليطارحها الغرام... ليطفئ شهاب الشهوة المستعرة في جسمها !

كانت المرأة تبتسم وهي تتبادل النظرات مع كل واحد منهم، حتى اعتقد كل واحد منهم، بأنها تتمنى لو أنها تضاجعه، مما ألهب مشاعرهم الجنسية، خصوصاً والمرأة شابة صغيرة وعلى قدر كبير من جمال الوجه والعينين !

تبادل أربعتهم النظرات ودون أن ينطقوا بحرف واحد، هجم ثلاثة منهم على الزوج فأمسكوا به بينما أنزل الرابع المرأة عن الحمار وقادها باتجاه بعض صخور كبيرة كانت مزروعة إلى جانب الطريق. لقد أمر كبيرهم الزوج ، إهانة له وإذلالاً ، أن يضع يده مفتوحة تحت قضيب الرجل وفرج المرأة أثناء عملية المضاجعة !

كان إذلالاً لا يوصف، ومعاناة قاسية، والزوج يرى الفحول الأربعة يتناوبون على زوجته وهي ترقص تحتهم استمتاعاً وحبوراً، ويده اليمنى مفتوحة تحتضن السائل المنوي الذي ينزل من عضوي المخلوقين الملتحمين...!

قال الزوج لزوجته بمباهاة وفخر واعتداد، بعد أن غادرهما الرجال الأربعة :

- لقد رأيت يا عزيزتي كيف هجمت علي شيخهم كالأسد الهائج وضربته على أنفه فنزل دمه ! لو لم يمسكني رفاقه لكنت قضيت عليه، ولكنه إنسان محظوظ ! لو أنهم كانوا اثنين فقط؛ لكنت قضيت عليهما في مثل لمح البصر ولما كان في مقدورهم أن يؤذونا، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة. أنا رجل مشهود لي بالشرف والشجاعة والشهامة؛ وكذلك عندي كبرياء ! إن أي إنسان يحاول أن يعتدي عليّ أو يمسّ شرفي فالويل له... نعم الويل له ...! سأذبحه كما أذبح الشاة !

قال ذلك ومر بأصابع يده اليمنى مفتوحة ومسنودة إلى أعلى فوق أصابع يده اليسرى، وصار يمر فوقها عدة مرات، ليقلد عملية الذبح ! لم تفتح الزوجة فمها ولم تنطق بكلمة، كانت محدقة بوجه زوجها وهو يتحدث، وكان يظن بأنها تستمع إلى ما يقول، ولكنها في الحقيقة كانت تفكر بالفحول الأربعة الذين واقعوها، وما زالت مخدرة من عنف المتعة وروعة المضاجعة وتتمنى في أعماقها لو يحدث ما حدث لها هذا اليوم دائماً وفي كل يوم !

- لا تظني يا حليلتي أني غاضب منك، أنت لم يكن باستطاعتك عمل شيء، أنا أعلم أنك تألمت وغضبت أكثر مني بكثير؛ وأنك حزينة لهذا الفعل الشنيع. ليس عندي أدنى شك من أنك تغضبين جدا إن لامسك أحد سواي. أنا حزين جداً لأنني لم أستطع ذبحهم الأربعة ! لو كان معي بندقية لكان أربعتهم الآن قد فارقوا الحياة؛ ولكانوا ماتوا كما تموت الكلاب الجرباء!

ثم ضحك ضحكة سمجة واقترب من زوجته كأنما ليطلعها على سر خطير، وقد تكلم بصوت منخفض.

- لاتظني يا عزيزتي أنهم تغلبوا عليّ ! خسئوا ؛ أنا أهزم قبيلتهم بكاملها. عندما أقسم عقيدهم بأن أضع يدي مفتوحة تحتك، طيلة الوقت الذي كانوا يعملون فعلتهم السوداء معك ، كانت يدي غير موضوعة تحتك! أنا لم أهتم بقسمه وقلت في نفسي ليفعل ما يريد، وإذا لم يعجبه ما أفعل يشرب ماء البحر !

ثم اختتم حديثه:

- الله يلعنهم ويلعن آباءهم وأجدادهم. جماعة لا يخجلون، ما عندهم شرف ولا مروءة ولا شهامة... حمير...!

نظرت المرأة نظرة عميقة وطويلة إلى وجه زوجها وهو يتحدث بحماس وكبرياء وإسهاب عن بطولاته الوهمية "الدونكيشوتية" فأحزنها أول الأمر منظره الذليل الكئيب، فرثت لحاله وهو يحاول أن يحتفظ بكرامته وينقذ ماء وجهه، وهو يؤكد لها بأن شرفه

وكبرياءه لم يمسّا... ولكنها سرعان ما بدّلت رأيها، فقالت دون أن تصل الكلمات إلى لسانها؛ يا لك من نذل حقير تافه، ويا لي من تعيسة وسيئة الحظ! أهذا هو المخلوق الذي أحببته، وسلمته مصيري، والذي سيكون أبا لأولادي! كم أكرهك واحتقرك وألعنك !

شعرتْ الزوجة بأن من واجبها أن تقول شيئاً لزوجها... أي شيء ؛ ربما لتريح ضميرها...!

- يعني أنت لست غاضباً مني يا مصلح؟

- ولماذا أغضب منك؟! لا شك أنك تألمت وتعذبت أكثر مني! إنه على العكس من هذا. والله إن حبي لك الآن قد ازداد كثيراً عن السابق. والله؛ والله على ما أقول وكيل!

- أصدقك، والله أصدقك! أنت حليل ابن أصل. فقط أريد أن أقول لك كلمة وأبرئ نفسي أمام ضميري وأمام الله. أنا ما شعرت بالسرور والانشراح منذ يوم زواجنا مثلما شعرت به اليوم...! شعرت وكأنما أنا في الجنة !!!

لم يصدق الزوج أذنيه أول الأمر، ولكن عندما استفسر من زوجته عما قالتْ، أجابت بغنج ودلال وقد تحركتْ ذات اليمين وذات الشمال، حتى خاف أن تسقط من على ظهر الدابة.

- أنا دائماً أشعر بالسعادة والسرور معك بالفراش يا حليلي، لكن سرور اليوم يختلف كثيراً كثيراً عن المرات الماضية ! أنا أحسست كأني طائشة على وجه الماء، أو كأنني طائرة في السماء مثل طير البراري !

تظاهر بأنه لم يسمع ما قالتْ زوجته وإن أحس بداخله بإذلال يسحق كيانه ويدمرّ وجوده، فقال وهو يتظاهر بأنه لم يفهم ما قالته زوجته ليحفظ ماء وجهه، ولينقذ كرامته المهدورة وشرفه المذبوح !

- إحرصي تخبري أحداً من مضاربنا يا فضة، ولا حتى أمي، وإلا نصير غداً معياراً لكل الناس.

فأجابتْ وقد أحسّت بقشعريرة تهزّ كيانها:

- وهل من المعقول أن أبوح بهذا السرّ؟! إن ما حدث هذا اليوم لا يمكن أن نتحدث عنه أبداً. إنه يسيء إلى سمعتك وسمعتي؛ ثم إنه عار علينا نحن والعشيرة !

- صحيح..! والله إنك صادقة يا فضة. كل عمرك فهيمة وبتعلّمي على الناس.

وألقى بوجهه إلى الأرض وقد اخضلّت عيناه بالدموع، وشعر كأنما قد تحوّل إلى ديّوث له قرنان كبيران... أحس كأنهما جبلان كبيران... وسار خلف الحمار يبكي بحرقة ومذلة، دموعا التهب لقسوتها محجرا عينيه؛ ولكن بصمت !

*****

مرّت قصة البدوي أمام ذاكرتي كشريط سريع، أفقدتني الثقة بالنفس، وزادت في أوجاع قلبي وهمومه. نهضت من جلستي أمام المرآة، وارتديت ملابسي بسرعة. كنت أريد أن أهرب... أود أن أفعل أي شيء، أنزل إلى المدينة، أتلهى بأي شيء. خرجت من الغرفة، ونزلت إلى "اللوبي"، أخذت أتصفح وجوه الناس. كنت أخشى بأن أي واحد منهم سيقترب مني ويسألني إذا كنت عربياً مسلماً، شرقياً، فيأخذ بالسخرية مني والتندر على، ويذكرني بالمخازي والعار الذي ارتكبناه، وما زلنا نرتكبه في كل يوم بحق فلسطين وأجزاء أخرى من الوطن العربي الكبير، وبقية بلاد المسلمين. كنت أشعر أنني مطارد !

أخذت أسير نحو الباب، كانت هناك فتاة تدخل إلى الفندق من الباب الرئيسي، وعندما وقعت نظراتي عليها اتسعت حدقتا عيناي، وشهقت لهول المفاجأة! إنها ألكسس! أخذت أحملق بها مشدوهاً، ولدهشتي نظرت إلي وابتسمت ثم حيتني باحترام. عندما وقفت أمامي، وهي تحمل حقيبتين ثقيلتين أمعنت النظر فيها. لا، إنها ليست ألكسس، سبحان الخالق، كأنها نسخة عنها! الوجه والشعر والعينان والأنف الجميل وحتى طريقة الابتسام والحديث !

- كيف أنت يا بروفيسور دهشان؟

صعقت عندما سمعتها تلفظ اسمي، قلت وأنا أغالب الشعور بالدهشة:

- بخير. أنت تعرفين اسمي؟!

- هذا طبيعي. الطلبة يعرفون الأستاذ، والأستاذ لا يمكن أن يحفظ أسماء طلاب الجامعة كلها.

- أنت تدرسين في إحدى المساقات التي أحاضر فيها؟

- للأسف! كنت أود ذلك. لكنني طالبة فلسفة.

- نعم، نعم. لكن يا للمفاجأة! كنت أظنك تلميذة من طالباتي.

ضحكت وهي تقول:

- تعني ألكسس؟ الكل يقول ذلك !

- وهل هي صديقتك؟

- تستطيع أن تقول هذا. تقابلنا صدفة بالحرم الجامعي في بداية العام الدراسي، أي قبل حوالي أربعة شهور، وصارت كل واحدة منا تحملق بالأخرى دهشة لشدة الشبه، تحادثنا قليلاً، ثم أصبحنا بعد ذلك صديقتين! هي كما تعرف، سنة أولى، أما أنا فسنة ثالثة.

- قلت بأنك طالبة فلسفة. بالمناسبة أنا لا أحب طالبات الفلسفة!

- ولم تقول ذلك؟! سألت باستغراب وقد فاجأها قولي.

- لأن طالبات الفلسفة يعتقدن أنهن يعرفن كل شيء، وعندهن الحل لكل مشكلة، ولذلك يعقّدن محبيهن وأصدقائهن بآرائهن ونظرياتهن وحذلقاتهن البيزنطية العقيمة.

- وهل تعني أننا معقّدات؟ سألت وهي تبتسم، وتسدد إلي نظرات إغراء مغناجة.

- أنا لم أقل ذلك. أنا أقول بأنهن يعقّدن، ولم أقل بأنهن معقدات.

- وهل صادف وكان لك صديقة طالبة فلسفة؟

- لا سمح الله. وهل تظنين أني مجنون؟! قلت متظاهراً بالهلع!

- وطلاب الفلسفة؟ ما رأيك بهم؟

- أنا لا أزعج نفسي بالتفكير بهم، ولا حتى بالحديث عنهم.

- لا أفهم ما تقول!

- أنا رجل ، فماذا تهمني معرفة الرجال! إنما يهمني معرفة المرأة، لأن علاقتي بها هي فقط.

- بروفيسور دهشان! أنت جريء وصريح... صريح جداً !

- هل تريدين أن تقولي بأنني وقح وعنيد؟

- حاشا لله. أقول أنت جريء وصريح. وأنا أعبد هاتين الخصلتين في الرجل.

- وهل أفهم أنني نلت رضاك؟

- هذا يعتمد! وصارت تضحك ورافقتها في الضحك.
أمسكت بإحدى الحقيبتين الثقيلتين، وقلت:
- دعيني أساعدك. الرجال هم الذين يقومون على خدمة النساء. إنها متعة هائلة !
- هذا فضل منك، أنت لطيف جداً.
- شكراً. ما اسمك؟
- مارينا هارتمان.
- لابدّ وأن تكوني ألمانية الأصل؟
- وكذلك ألكسس.
سرت وإياها باتجاه "الكاونتر"، أخذت تملأ بطاقة الفندق، وسرعان ما أخذت مفتاح غرفتها. حملت حقيبتها، وسارت باتجاه المصعد. حملتُ الحقيبة الأخرى الكبيرة لأساعدها حتى تصل باب المصعد، قالت:
- أنت وحدك؟
- للأسف. هذه أول مرة أسافر بها دون رفيق.
- وأنا كذلك. أنا حزينة جداً. حيث أقضي عطلة عيد الميلاد بعيدة عن الأهل والأصدقاء، وهرباً من الجو المحزن في "سانتا مونيكا."
- ماذا تقولين؟
- قصة طويلة.
ثم لم تستطع أن تتمالك نفسها، فأجهشت بالبكاء. انفتح باب المصعد، هممت بأن أودعها. قالت:
- أرجوك! لا تتركني وحدي، تعال معي لنتحدث معاً. إنني جد حزينة، فقد أجد السلوى بوجودك. قالت ذلك وهي تكفكف دموعها بظهر يديها.
دخلنا المصعد ونحن نحمل الحقيبتين، وسرعان ما صعد بنا. قالت وهي تحاول أن تسّري عن نفسها:
- صدفة جميلة. قد يؤنس أحدنا الآخر.
- شكراً. نعم، هذا صحيح! قلت وقد انفتحت شهيتي للمغامرة.
- أنك جئت تقضي عطلة العيد هرباً من وضع مزعج؛ أستطيع أن أقرأه في عينيك.
- نعم، للأسف.
- تباً لهذه الحياة القذرة! كلها كذب وخداع ونفاق.
- إنكِ على حق! قلت أطيب خاطرها.
انفتح باب المصعد، وسرنا سوية معاً إلى باب غرفتها. أخذت المفتاح منها وفتحت الباب، قلت متردداً:
- أشكرك على دعوتك. مع ذلك إذا كنت تريدين أن ترتاحي، تغيري ملابسك، أو تخلي بنفسك، فمن الممكن أن أنتظرك في اللوبي.
- أرجوك أدخل. لا تدعني وحيدة! إنني على وشك الجنون إذا وجدت نفسي وحدي، فإن همومي ستطغى علي، وسوف يصيبني اكتئاب شديد.
جلسنا صامتين على كنبتين متقابلتين، أخذت أحملق فيها، يا إلهي! إنها نسخة طبق الأصل من ألكسس. ماذا لو أنك لم ترتكب تلك الحماقة مع ألكسس يا سهيل، وأتيت بها إلى

هنا تقضي معها إجازة عيد الميلاد؟ لا... تباً لها! لقد أهانتني، وأهانت أهلي وشعبي وأمتي... لا... لا... في البداية لم تكن إهانة كانت مدحاً، وأنت تعرف ذلك. أهانتك بعد أن اكتشفت سطحيتك، وتفاهتك، وقصر نظرك!

أخرجت مارينا علبة السجائر من حقيبة يدها وقدمت لي سيجارة، فشكرتها بحجة أني لا أدخن، وأعلمتها بأنني لا أتضايق إطلاقا إن هي فعلت. أخذت الولاعة من يدها، ثم نهضت وانحنيت وأشعلت سيجارتها، ثم ذهبت إلى "الميني بار"، ففتحته، وأحضرت علبتين من البيرة، وكأسين، وحبتين من الشكولاته، ثم قلت لأشجعها على الكلام، فقد لاحظت بأن دموعها تنسكب على خديها بغزارة، وإن كانت تبكي صامته.

- إذا كان الحديث عما في داخلك ليس سراً، فأرجو أن تحدثيني به ؛ فأنا واثق بأن الحديث عنه إراحة لأعصابك، وتسرية لهمومك. قلت وأنا أناولها منديلاً ورقياً تكفكف به دموعها.

- إنني أحب من كل قلبي أن أحدثك عما يؤلمني، ولكنني أخشى مضايقتك!

- على العكس من ذلك تماماً، فإن ذلك يسعدني أن تضعي ثقتك بي، وتحدثيني عما يضايقك، علني أستطيع مساعدتك، وإن كنت في نفس الوقت حزيناً جداً لألمك.

أخذت جرعة من كأسها وقالت:

- كان وغداً... خنزيراً أحمق... متوحشاً... فجاً... وتافهاً!!

- هذا شيء فظيع! لا شك أنه مخلوق بلا قلب إذ يستطيع أن يجعل واحدة مثلك بهذا الجمال وهذه الرقة تبكي. يا له من مجرم ونذل!

- اسمه رافيق.

- رفيق! شرقي.

- نعم، نعم. رافيق من بلادكم.

" إنك لست النذل الوحيد يا سهيل! يبدو أن كل أبناء ملتك على شاكلتك !".

- وهل أساء إليك؟

- كثيراً. لقد حطم قلبي. لقد دمّر أحلامي! عليه اللعنة!

- خففي عن نفسك، قولي، فأنا كلي آذان لأسمعك.

- تعرفت عليه قبل أربعة شهور، كان قد جاء للتو من المشرق. التقيت به صدفة. وأصبحنا أصدقاء، كان بحاجة لمن يساعده في الحصول على سكن، والتعّرف على الجامعة. خدمته بصورة رائعة، واقترحت عليه أن يسكن معي في شقتي حتى يجد سكناً مناسباً. ثم توطدت علاقتنا، واستقر الرأي على أن نعيش معاً، وقتاً ما، حتى يقتنع أحدنا بالآخر، ومن الممكن أن نعيش باستمرار؛ يعني أن نتزوج.

- شيء رائع أن يؤدي الحب إلى الزواج ! قلت .

- هذا إذا كان كل من الطرفين ملتزم بعملية الحب. قالتها بلهجة إنسان مقهور.

- الالتزام صعب على بعض الناس!

هزّت رأسها عدة مرات علامة الموافقة، ثم استرسلت:

- كان يجلس معي في الأمسيات؛ أساعده في اللغة، وأطبخ له ما يحب من الطعام وأطعمه بيدي، وكان يقول لي بأنني أشبه أفروديت. وأخذ يحدثني عن إعجابه بي؛ ويترجم لي بعض الشعر العربي. قال لي إنه شاعر. ثم بدأ يحدثني عن المستقبل الجميل. وكنا

نخرج في نزهات خلوية إلى الجبال وشاطئ البحر، وأحيانا إلى الصحراء، قال إنه يحب الطبيعة. وكان يجمع بعض النباتات البرية، ويضعها في ألبوم. وبدأ يحدثني عن حلمه بأن نرتبط مع بعضنا البعض برباط دائم، وأخذت أحلم بمستقبل وردي.

- إنها حقاً قصة رومانسية! قلت.

- كان يريد كل شيء على الفور. يفكر كطفل صغير. يريد أن يشرب ما في الكأس ويكسره، يريد أن يأكلني كما يفعل الغول. وكنت أنا أحاول أن أتفهمه بهدوء. قبل يومين ذهبت لزيارة أمي في مدينة " سانتا باربرا "، وبقي هو في الشقة، وقد اتفقنا على أن نسافر إلى هنا لقضاء إجازة عيد الميلاد. وعندما عدت... يا للهول!

- هه...! ماذا؟

- وجدته في سريري، مع إحدى الخادمات المكسيكيات اللاتي ينظفن الشقق ! كانا عاريين يتطارحان الغرام ! صمتت... وبدا عليها وكأنها على وشك أن تبكي.

شعرت بأنني أمام موقف يصعب الدفاع عنه، بل يصعب فهمه، ولم أستطيع أن أتفوه بكلمة واحدة. نهضتْ، وضربت الجدار بقبضة يدها وهي تقول كأنها تحدث نفسها: الوغد، الخنزير الأسود، أخذت أضربه بيدي، وأرفسه بقدمي، وأرمي عليه كل ما تصل يدي إليه. وضربتها هي الساقطة، الفاجرة، حتى ازرق جسدها. ضربتهما وبصقت في وجهيهما حتى ذهبا إلى الجحيم.

نهضتُ، دون أن أدري ما أفعل. ألجمتني المفاجأة. أخذت هي تبكي وتشتم:

- هذا الرافيق من طينة حقيرة... من شعب تافه... نتن... عفن... قذر لا يستحق كلمة احترام.

لا شك أن ما سمعته من اتهامات مهينة جارحة، وشتائم مفرطة في الإقذاع، لي ولبني قومي، من ألكسس قبل مدة ليست بعيدة، ومن صوفيا قبلها، قد أوجدت في نفسي حساسية مفرطة وتحفزاً لاهباً، لكل ما يقال عنا ظلماً وزوراً، فلم أع نفسي إلا وأنا أصرخ في وجهها بغضب محموم متفجر:

- كفى! هل جئت بي إلى غرفتك لتمارسي توبيخي وتأنيبي؟ هل جئت بي لتوجيه الإهانات لي ولشعبي؟! ماذا فعلنا للعالم حتى ينظر إلينا هذه النظرة الدونية، وماذا أسأنا إليه حتى يصبّ علينا كل هذا الحقد وكل هذه الكراهية؟! ألم نعلمه الحرف وننير له ظلمة العقل ، ونشرّع له القوانين ، ونعلمه قيادة الشراع ؟!

لعلها تنبهت لغلطتها، إذ شعرت الصبية بأنها قد أخطأت بحقي. توقفت عن البكاء، ومسحت دموعها، ثم قالت بأدب ولهجة اعتذار واضحة:

- آسفة جداً جداً يا بروفيسور. لم أقصد ذلك. صدقني.

- إذن ماذا قصدتِ؟

- قصدت ذلك الوغد رافيق.

- ألم تقولي بأنه من شعب تافه؟ ألا تعلمين إنه ابن شعبي؟ لا يا آنسة... نحن شعب محترم عندنا أخلاق. إن رفيق وأمثاله من المستهترين، هم الذين يشوهون صورة أمتهم ويدمرون سمعتها.

- آسفة يا بروفيسور. أرجوك أن تتقبل عذري، أرجوك. لم أقصد الإساءة. لقد فقدت أعصابي بسبب نذالة رافيق، ولكنني أقسم بأنني أحترمك وأحترم كل الناس، أعترف

بخطئي، أرجوك أن تفهمني، وتقدر حالتي الصعبة. سرت نحو الباب. قلت لها وأنا أهم بالخروج، وقد خفت حدة غضبي:

- اغسلي وجهك. وتعلمي كيف تتصرفين بطريقة لا تؤذي مشاعر الغير ، ولا تصبي اللوم على الناس كلهم بغير وجه حق!

نظرت الصبية إليّ بتحدٍ، وقالت:

- قلت لك إنني أعتذر!

- حسناً. إهدأي. وسأنتظرك في المطعم في الطابق الأرضي بعد نصف ساعة، إذ أحس بجوع شديد يلتهم أحشائي. أنا لم أتناول طعاماً طيلة اليوم، باستثناء حبة الشوكولاتة وعلبة البيرة !

- لا تتخلَّ عني في محنتي. أنت رجل شهم، فاضل!

- حسناً، لا تتأخري.

- أرجوك، لا أريد أن أقابل الناس. سأطلب الطعام إلى هنا إذا لم يكن عندك مانع؟

- حسناً. سآتي بعد ساعة. دعيني أولا أتحلل من ملابسي وأغتسل.

- وأنا سأفعل ذلك أيضا. ولكن قل لي، هل لك خيار في الأكل؟

- أنا أترك الخيار لك. أنا آكل أي شيء وكل شيء.

- حسناً. سأنتظرك. أرجوك أن لا تتأخر.

وعندما فتحت الباب لأخرج، نظرت إليها، فوجدتها تتهاوى على الكنبة وتبكي.

*****

- ما هذا يا آنسة هاريمان؟ ولم كل هذا؟ إن هذا كثير... كثير جداً! صحت لا شعورياً، حالما فتحت لي الباب، وألقيت نظرة على الطاولة المنتصبة في وسط الغرفة، المكدسة بما لذ وطاب !

- شموع! ونبيذ أيضاً! أنا لا أصدق عينيّ.

- هل أعجبك؟! أنا سعيدة جداً أن أدخل السرور إلى قلبك كما أدخلته إلى قلبي!

- ولكنني لم أفعل شيئاً لا يفعله أي إنسان عادي!

- نعم. لقد فعلت الكثير، ومعروفك معي لن أنساه مدى الحياة. لقد كنت في حالة إحباط ويأس شديدين، ولولا وجودك معي لربما فقدت عقلي... لقد كنت على حافة الجنون... كنت أتألم كثيراً.

- من أجل إنسان تقولين عنه تافهاً؟

- إنك لا تتصور كم كنت أحبه، وكم كنت أثق به، وأبني آمالاً وأحلاما على علاقتي به.

- لقد نسيت حقيقة هامة يا آنسة هاريمان، وهو أنك ساعدتني بقدر مساعدتي لك، إن لم يكن أكثر! لقد كنت أحس بالاختناق قبل لقائك بدقائق. وصدقيني لو لم ألقك لكنت الآن، وتحت هذا المطر الوابل، والبرد القارس، أجوب الشوارع ككلب ضال...!

- ولكنني لم ألحظ كل هذا على وجهك... عفواً، أعني لقد لاحظت أنك كنت حزيناً، ولكن لم أكن أتصور أنك تتألم إلى هذا الحد !

- لا تنسي أننا نحن الرجال ، نستطيع أن نتحمل الألم والقهر والإحباط أكثر منكن أنتن النساء؛ وأننا أيضا نستطيع أن نخفي معاناتنا عن الآخرين؛ تحت ذريعة أننا رجال، ويجب أن لا نضعف !

- كم أنا سعيدة أن أسمع أنني كنت عوناً لك ! إنك لا تتصور كم أنا شاكرة ومدينة لك بأنك أنقذتني من انهيار محقق... كنت أرى الحياة قاتمة... قاتمة !

- إذن دعينا نحتفل بذكرى لقائنا، وليحاول كل منا أن ينسى آلامه وما حدث له، ولو إلى حين! قلت ذلك وأتبعتها بضحكة باهتة تقطر مرارة.

- نعم، دعنا نفعل ذلك، وإن كانت الجراح تحتاج إلى وقت طويل لتبرأ.

- هذا إذا قدر لها أن تبرأ، ولم تبق العمر كله تحفر في أعماقنا!

- صدقت! تفضل واجلس هنا، وافتح لنا من فضلك قارورة النبيذ. خذ هذه هي الفتاحة.

كانت الطاولة منسقة بطريقة فنية رائعة، وكانت تعج بشتى أنواع المأكولات الشهية، تتوسطها قارورة نبيذ فرنسي أحمر اللون من النوع الفاخر، وفي الوسط تقف شمعة كبيرة مضيئة متعملقة وكأنها عروس ليلة جلوتها! كان الجو رومانتيكياً عابقاً، ولم تكن مثل هذه الطاولة تُعدّ إلا لحبيبين يقضيان أول ليلة من شهر العسل !

كانت مارينا ترتدي بيجاما حريرية ذات لونين متقاربين، أعجبني لون القسم العلوي منها، والذي أضفى رواء خاصاً على بشرتها الوردية، وكان وجهها متألقاً مضيئاً، وإن كان المشاهد لا بدّ وأن يلاحظ مسحة من الكآبة ترتسم فوقه، فتعطي جمالها دفئاً وعمقاً.

كانت الظلمة في الخارج تلف الكون برداء أسود قاتم، إذ اكفهرت الدنيا وقت الغروب، وصار قصف الرعد ووميض البرق وصوت المطر الغزير المنهمر يختلط ببعضها البعض! شكرت الله أنني وصلت إلى فندقي قبل أن تبدأ العاصفة، وإلا لكنت قد اضطررت للالتجاء إلى أحد الفنادق الصغيرة المتناثرة على طول الطريق بين الجبال الشامخة، بين هنا وبين مدينة "سلينص"، تلك المدينة التي خلدها الروائي الأميركي " شتاينبك " لكثرة ما كتب عنها.

كنت جائعاً جداً، فأكلت بشهية وتلذذ ، وإن كنت بين الفينة والفينة ، أتذكر ألكسس ومداعباتها وابتساماتها، فأحسّ كأن ناراً تشتعل في قلبي، وأتمنى لو أنها الآن هنا معي، تجلس إلى جانبي، فأرشف ثغرها بعد كل جرعة نبيذ، كما كنا نفعل في كثير من الليالي ! ولكن حماقتي وجهالتي جعلتاني أتصرف كمعتوه أحمق...!

لم تأكل مارينا كثيراً، ولكنها شربت القسم الأعظم من القارورة ! كنت أحاول جهدي أن أستبدل الجو المشحون بالمعاناة والألم لكلينا، بجو مرح باسم، فقصصت عليها نكاتاً من الوطن، وخصوصاً عن ريفه وسذاجة أهله وطيبة قلوبهم، فكانت تضحك، ولكنني أحس بأنها لم تكن ضحكات إنسان خلي القلب. وفي إحدى المرات، وبعد نكتة ساذجة بلهاء، بدأت تضحك، ولكن هذه المرة بصوت عالٍ، سرعان ما تحول هذا الصوت الضاحك العالي إلى بكاء هستيري مما حيرني وأربكني وزاد في أحزاني !

- لقد اتفقنا على أن ينسى كل منا آلامه ولو مؤقتاً، وأن يستمتع كل منا بصحبة الآخر في هذه الليلة الخالدة، وأن يتعمق بمعرفته. قلت معاتباً ومؤنباً معاً.

- لقد افتقدت رافيق كثيراً، وأتساءل أين يكون المسكين الآن في هذا الليل القارس؟ ليس معه نقود ليذهب إلى الفندق أو يستأجر شقة.

انخرطتْ في البكاء من جديد، وكأنما تصورها له يتسكع متشرداً في شوارع سانتا مونيكا في هذا الجو الماطر البارد، قد ألهب عواطفها نحوه، وأشعل النيران في قلبها!

ضحكت طويلاً، وبالغت في الضحك، ثم قلت:

- أمن أجل هذه القضية أنت حزينة؟ صدقيني أن قلقك عليه من هذه الناحية بالذات هو في غير محله.

- ولم؟ وكيف؟! قل لي أرجوك!

- أنسيت أن رفيق عربي، وأن العادات العربية تفرض علينا أن نتخلى عن فراشنا من أجل الضيف، ولا شك أن رفيق يعرف كثيراً من الطلاب والعائلات العربية، والكثيرون الكثيرون سيكونون سعداء أن يدعوه للعيش معهم حتى يجد مكاناً. ما أكثر ما تنازلت عن فراشي بعد أن رحلنا إلى العاصمة، إلى ضيف قادم من مدينتنا... السلط... !

- هذا صحيح. ما أغباني! كيف لم أفكر بذلك؟ إن رافيق يعرف كثيراً من الطلاب العرب، وقد دُعينا مرات كثيرة إلى العشاء... ومرة دعانا بعض الشباب الذين يسكنون في مدينة "رفرصايد" ويدرسون في جامعتها، أن نقضي الليلة عندهم وأن لا نسوق في الليل بسبب بعد المسافة!

وفجأة أضاء وجهها وانفردت أساريرها.

- شكراً لك يا بروفيسور دهشان! شكراً . لست أدري ماذا كان سيحل بي لو لم أقابلك هنا.

- بل ماذا كان سيحل بي أنا لو لم أقابلك؟ واختلطت ضحكاتنا ببعض.

اتصلتْ هاتفياً بقسم الخدمات في الفندق، فجاء النادل وأفرغ الطاولة من كل ما عليها، ثم طلبت منه أن يحضر لنا إبريقا من القهوة، فجلست على الكنبة، وجلست هي إلى جانبي كقطة مسكينة، فأحزنني منظرها، ونقمت على هذا المخلوق الذي اسمه رفيق، كيف يعذب مخلوقة رقيقة مثل هذه ! ولكنني تذكرت نفسي، إذ لا شك أن ألكسس الآن تعاني كما تعاني هذه المخلوقة المسكينة وربما أكثر، إذ أن الآنسة مارينا هارتمان وجدتني لأسري عنها وأسليها في وحدتها، فمن تجد ألكسس ليقوم بذلك؟ فكرة أن تجد ألكسس رجلاً يسليها أزعجتني كثيراً !

مرت فترة، ثم ران الصمت على الجلسة، وعدت أحمد الله لأنها تواصل الصمت. لاحظت أنها كانت متوترة. ثم رأيت الدموع تنزل من عينيها بصمت. نهضت بكل كياسة وأحضرت مناديل الورق، وأخذت أمسح دموعها التي تحدّرت على خدّيها. ثم أمسكت بيدها، فنهضت وسرت بها لنقف أمام فرندة الغرفة . أخذت أتلهى بمنظر المطر دون أن أعلق بأي شيء، كانت ترتجف، تركتها تجلس على حافة السرير وجلست إلى جوارها، ووضعت رأسها على كتفي، ثم مالت بجسدها، فتركتها تتمدد على السرير! اتكأت بجسدي إلى جوارها، ووضعت ذراعي تحت رأسها، وأخذت أضمها برفق كأب حانٍ يطيب خاطرها ! لم أقل شيئاً، ولم أفعل أي شيء، وجدتها تقترب مني، وهي تواصل التنهد الذي يعيدها إلى حالتها الطبيعية ! شعرت بأن نهديها يلتصقان "بالجارزة"،كانا طريين، وكانت أنفاسها تتلاحق. قالت:

- بروفيسور دهشان... أنت إنسان عظيم !

زجرتها عن الكلام، وأفهمتها بأنها بحاجة للهدوء. أرحت جسمي إلى جوارها، وتخلصت من حذائي، وضممتها إلى صدري بحنان أبوي، وكان رأسي قد استراح على الوسادة إلى جانب رأسها، ووضعت ذراعي الأخرى فوق خصرها ! كنت أقمع كل أحاسيسي، وأبذل ما في وسعي لأن أدفعها للسكون التام والهدوء... حتى نامت... ثم بدأت أتأمل وجهها... خديها... شفتيها... عنقها... انفها... جبينها... شعرها... يا سبحان الخالق... ما أعظم الشبه بينها وبين ألكسس، كأنهما توأمان...!

أرخى الليل سدوله، وكنت قد أطفأت كل الأنوار في الغرفة، ولم يكن هناك سوى خيوط من النور القادمة من الفرندة الزجاجية، ولم يكن هناك من صوت يسمع سوى صوت قطرات المطر المتساقطة على نوافذ الفرندة .

كانت مارينا قد استغرقت في نوم هادئ مريح ، أخذت أدثرها بالأغطية. تململت في نومها، ثم بدا عليها وكأنها قد استغرقت في نوم عميق متواصل ! وقفت أحرسها وأغطيها كلما تحرّك الغطاء عن جسدها اللدن. جلست على الكنبة غير بعيد عنها وأنا أشعر بالراحة، وجدت نفسي مرتاحة هنيئة.

أخذت أتسلىّ بتناول الشكولاتة من الميني بار، والتمشي في الغرفة. وبين فترة وأخرى كنت أشرب رشفات قليلة من زجاجة "النبيذ". آخذ الجرعات من فوهة الزجاجة، حرصت على أن لا أصل لحالة من السكر. كنت فقط أريح نفسي من عناء الانتظار، وأتسلى بقراءة صفحات من الكتاب المقدس، والمتواجد في كل غرفة من معظم الفنادق و"الموتيلات" في أميركا ! نظرت إلى ساعتي، كان الوقت يقترب من منتصف الليل، حاولت أن أنام، فلم أفلح ! تخففت من ارتداء"الجارزة"، وخلعت الجرابات. وقفت أنظر لنفسي في المرآة، كان القميص المرقط بألوان جميلة يكشف جزءاً من الشعر الأسود الفاحم عند قمة صدري.

كانت الساعة قد تعدّت الثانية بعد منتصف الليل، عندما استيقظت مارينا، دفعت الأغطية عن جسدها؛ ومدت ذراعها لتشعل المصباح الجانبي. نظرت إلي فوجدتني واقفاً بالقرب من التلفاز الذي كان يبث صوراً صامتة. رفعت جذعها وجلست على السرير، ونظرت في كل أرجاء الغرفة، ثم نهضت وسارت إلى حيث أقف. اقتربت مني وأمسكت بيدي، ونظرت في عيني، ثم قالت بحرارة:

- بروفيسور دهشان. أشكرك، أشكرك من أعماق قلبي.
- لا... لا شيء. أنا لم أعمل إلا الواجب !
- لن أنسى فضلك، لقد أخرجتني من وضعي الصعب.
- لا تعودي للحديث عن أي شيء يكدر خاطرك. أرجوكِ! أنتِ الآن أمانة في عنقي.
- جميلك لن أنساه ما زلت أعيش!
- لا. لا تقولي ذلك مرة ثانية، أرجوك. أنا لم أعمل إلا الواجب... صدقيني !
- لا يوجد إنسان على هذه الأرض من عنده مثل شهامتك !
- أنت تبالغين ! أنا إنسان عادي... عادي جداً .
- وتواضعك... إن تواضعك وطيبة قلبك لا يمكن أن يتصف بهما إنسان على هذه الأرض... ما أسعد التي تحبها! ستعيش معك كأنها ف الجنة !

سرت إلى السرير، وتناولت جارزتي لأرتديها. جاءت إلي وأمسكت "بالجارزة" وقالت برجاء وانكسار:

- أرجوك لا تتخلى عني. لقد فعلت شيئاً عظيماً. لا تتركني.

- يجب أن أذهب إلى غرفتي.

- أرجوك. لن أزعجك بأي شيء، ولن أقول شيئاً. سأحرص على ألا أسيء لمشاعرك. لقد نقلتني من الانهيار إلى الهدوء. انتهى الآن كل شيء، ولم أعد غاضبة من رافيق. نسيته، شطبته من ذاكرتي. فقط إبق معي وساعدني على أن أبقى هادئة حتى تندمل جروحي وتشفى.

لم أرد بشيء. فقط تركت "الجارزة" تسقط على طرف السرير، فيما سارت هي إلى الهاتف قالت:

- إنني جائعة. أريد أن أطلب شيئاً خفيفاً، هل أنت جائع؟

- لا، شكراً! لقد أكلت كثيراً. أنت التي لم تتعش.

طلبت مارينا بعض الفطائر، ثم عادت تقودني لنجلس إلى طرف السرير، كان وجهها دافئاً ناعماً، اقتربت مني، ووضعت رأسها على صدري. تركتها تستريح، لكنها لم تقل شيئاً. وأنا وعدت نفسي بألا أبدأ الكلام.

كان الوقت فجراً، أخذت تبحث في محطات الكوابل عن فيلم أو أي شيء مسلّ. كنت لحظتها في قمة الإعياء والنعاس، قالت:

- لن أدعك تنام حتى تقول لي لماذا هربت إلى هذا المكان.

- مشكلة شبيهة.

- قل لي أرجوك!

- إنها ألكسس!

- ما بها؟ أنا أعرف أنكما صديقان. لطالما رأيتها تدخل إلى مكتبك في الجامعة، ورأيتكما الأحد الماضي تتمشيان وسط البلد، وتتسوّقان، فأدركت أن لا بد وأن تكون بينكما علاقة عاطفية حميمة.

قلت بحزم:

- آنسة مارينا! يا حبذا لو أنك لا تعودين لذكر الماضي، لأن ذكراه تشدّ أعصابي وتذكرني باللحظات الحزينة!

- خذ الأمور ببساطة يا بروفيسور، عندما تتحدث تخفف عن نفسك صدقني.

- إنك على حق فيما تقولين، ولكنني نعسان ومتعب وبحاجة ماسة إلى الراحة. لقد تصرفت معك بكل الشهامة والإباء. تصرفت كما يتصرف شعبي، الذين لا تعرفون أنتم الأمريكان كم هو نبيل وطيب. فهلا تلطفت بأن تدعيني أستريح لحظات؟! إنني لا أستطيع أن أحتفظ بعيني مفتوحتين!

ابتسمتْ، ونظرت إلي باحترام وإعجاب، بينما ألقيت بنفسي على السرير، دثرتني بالغطاء، وسرعان ما رحت في نوم عميق... عميق...! لقد صار لي ليالٍ طويلة لا يزور النوم عيني إلا لماماً.

دخلت أشعة الشمس إلى الغرفة بعد انحسار الغيوم، كان صباحاً رائعاً، ككل صباح في هذه البلدة الساحرة!

إن مدينة "كارميل جنب البحر" كما يسمونها، هي قطعة فنية رائعة ساحرة من الطبيعة. إنها منتجع في غابة كبيرة مترامية الأطراف، لقد أتيتها عدة مرات وكانت صوفيا بصحبتي، ومرتين أتيت أنا وألكسس، ومرات أتيت مع غيرهن! إنها مكان آتي إليه لأتعبد الله في إبداعاته ومعجزاته. إنها معبد للتهجد للذين يعبدون الله فيما خلق من جمال الطبيعة!

إنني أستيقظ عادة مبكراً، فأجلس في البلكونة أرقب الشمس وهي تشرق، وأجلس عند المساء على شاطئ البحر، فأرقب الشمس وهي تغيب ، فأتصورها دائماً حبيبة عاشقة، طالت غيبتها، واشتدت لواعج شوقها، فتلقي بنفسها في أحضان حبيبها... ليس في هذه البلدة إشارات ضوئية، وليس بها أماكن ليلية للصخب والفجور. إنها مكان هادئ للذين يعشقون الطبيعة ويحنون الى الاسترخاء والتامل، وينامون ويستيقظون مبكرين!

كنت أتململ في السرير، ولكن النعاس يغالبني فأعود لأستسلم للنوم من جديد، غمرت رأسي بالحرامات، وانكفأت على وجهي، فيما تناهت إلى مسامعي أصوات الدوش في الحمام، كانت مارينا تستحم وتردد أغنية شعبية ألمانية قديمة كما أعلمتني فيما بعد. على الرغم من أنني لا أفهم كلمات الأغنية، إلا أن نغماتها هيجت مشاعري. خرجت مارينا تلف جسدها بمنشفة حمام زرقاء، فكت قطعة القماش عن شعرها، وأصلحت شكله. وبدأت تنثر ذرات عطر فاغم على عنقها، وحوالي نهديها. ارتدت بلوزة خفيفة بدون كمين، وبنطالاً من الحرير الأحمر. عبقت الغرفة برائحة عطر أنثوي غامر، زكم أنفي ! كنت أستند برأسي على عارضة السرير، فيما جاءت مارينا تجلس على حافة السرير. كانت في غاية السرور والانشراح. أومأت برأسها بالتحية، فيما كانت رائحة عطرها تملأ أحاسيسي. قالت:

- نمت جيداً؟
- لقد نمت كما لم أنم من قبل. لقد كنت مرهقاً.
- رائع! أنا ممنونة لشهامتك العربية الأصيلة.

لمست الكلمات أحاسيسي ! لكسس !آه! أين أنت الآن أيتها الحبيبة؟ كم أنا مشتاق إليك! شعرت بأن الغرفة تدور. يا لك من مكابر! ها هي ألكسس التي افتقدتها... التي أضعتها بحماقتك وكبريائك الكاذبة. لكسس لم تخطئ، أنت الذي تركت الشيطان ينفخ في أنفك، فأهنتها وطردتها لتخسرها. أنت مغرور أحمق. إنك كبني قومك، تتصرف بعقلية الجاهلية الأولى، العقلية القبلية.

- آنسة مارينا. كان نوماً هادئاً.
- وليلة أكثر هدوءاً يا بروفيسور....
- شكراً. الكلمة الصادقة تسعد القلب وتنعش الروح. إنها تداوي جراح النفس المكلومة.

أخذت أتأمل تلك الحورية التي تجلس أمامي. كانت صورة مكررة من لكسس

- ما أجمل أن يعيش الإنسان بعيداً عن الإثارة... يعيش ليتأمل ويحلم.
- بعيداً عن الذين يثيرون الأعصاب. شكراً لله. لقد شفيت من الصدمة، نسيته... نسيته للأبد. شكراً لله إذ تخلصت من ذلك الإنسان المزيف.
- نعم. إنسان مزيف، وليس إنسانا من أمة زائفة ونتنة وعفنة.

ارتعدت في مكانها، واحمر وجهها خجلاً.

- عفواً بروفيسور، ألم تغفر لي بعد زلة لساني؟ قلت لك لم أقصد.

لم أشأ أن أجيب على السؤال. نهضت، وذهبت إلى الحمام، فاغتسلت، وأصلحت ثيابي، ثم عدت لأشرب القهوة مع مارينا. وقفت إلى جوارها أنظر إلى بعيد. أخذت تنظر لملامحي الجادة القاسية، ثم اقتربت، كنت أرنو للبحر، فيما كانت تلتصق بي، وضعت يدها على رقبتي، وأخذت تتحسس وسادة الشعر عند عنقي، والتي برزت من فتحة القميص. أخذت تفك أزرار القميص واحداً واحداً. وضعت راحة يدها على الفانيلا تتحسس الوسادة، كانت يدها ترتعش، ثم أدخلت يدها تحت الفانيلا وأخذت تعبث بالشعر الأسود الكثيف. قالت:

- بروفيسور، كنت معي لطيفاً وشهماً. أرجو أن تكون دائماً كذلك. أنا بحاجة شديدة إليك لتؤنس وحشتي وتخفف من وحدتي...! لقد كنت قبل أن ألقاك أحسّ بالضياع.

- مارينا اغفري لرفيق. هناك الملايين من شعبه العربي المسلم، من هم أكثر مني لطفاً وشهامة. صدقيني ، نحن شعب طيب، نكرم الضيف، ونغيث الملهوف، ونبعث الفرحة والأمل في نفوس اليائسين، ونوفر الأمن والأمان للخائفين والمعذبين ! صدّقيني !

- بروفيسور دهشان. لماذا تتجاهل طلبي؟ إنك تعرف ما أريد...

- ورفيق يا مارينا، وحبك له؟

- فليذهب إلى الجحيم، لم أعد أحبه... لقد أخلصت له فخانني... أنا الآن حرة... قالت ذلك والتصقت بي، كانت أنفاسها المتلاحقة تعبر عن الثقة والامتنان.

- ستندمين وتحزنين... أحذرك...!

- سأندم وأحزن إذا عدنا إلى سانتا مونيكا دون أن تطارحني الغرام !

قالت ذلك وبدأت تخلع ملابسها وتلقي بها فوق الكنبة، بينما جسمها يرتقص كالمحموم شبقاً وشهوة.

أربعة أيام بلياليها قضيتها، ومارينا في منتجع كرميل، شهر عسل دافئ وليس ما نعمله سوى أن نأكل اللحم البقري المشوي، ونشرب النبيذ الفرنسي المعتق، ونتفرج على أماكن التحف التي قلما يخلو منها محل، بيوتاً ودكاكين ومعارض للرسوم الزيتية والصور الفوتوغرافية .

وفي اليوم الخامس، الليلة التي تسبق عيد الميلاد، ركب كل واحد منا سيارته وتوجه إلى غايته... مارينا إلى مدينة "سانتياجو "، على حدود المكسيك لتحضر احتفال عيد الميلاد مع أمها المطلقة وأخيها الصغير، وأنا إلى بيت صديقي الدكتور فاروق لآخذه بسيارتي، حيث إننا مدعوان منذ أكثر من شهر إلى أن نقضي ليلة عيد الميلاد في بيت زوجين أرمنيين صديقين لكلينا كانا يسكنان في لبنان ! يدير الزوج تجارة واسعة، ولكنه بسبب الحرب الأهلية فيها هاجر هو وزوجته وابنته الوحيدة إلى أميركا وهما الآن يسكنان في مدينة "بيفرلي هيلز " الباذخة ! لقد تعرفت إليهما بواسطة ابنتهما روزانا التي كانت طالبة في إحدى المساقات التي أحاضر فيها، وقد دعتني والدكتور فاروق في ذلك الوقت، لحضور حفلة عيد ميلادها. ودعونا ثانية لنقضي ليلة عيد الميلاد في بيتهم ولننام ... !

*****

الفصــل الثامــن

كنت على وشك أن أخرج من مكتبي عائداً إلى شقتي، بعد يوم كامل من العمل المتواصل الجاد. تركت كل كتبي وأوراقي في المكتب، وخرجت أبحث عن علبة عصير في إحدى الثلاجات المزروعة في كل زاوية، أروي بها ظمأي. عند الباب فاجأتني مارينا، هششت لها، قالت:

- يؤسفني أنك خارج، هل عندك محاضرة؟
- لا... إني ذاهب إلى البيت.
- جئت أحدثك بموضوع يهمني ويهمك!
- وما هو؟
- لن أقول ما أحمله عند الباب.
- ماذا تفضلين؟ نجلس في المكتب أم في الشقة؟
- كما تريد.
- لنذهب للبيت إذن، دعيني أدعوك للعشاء... عشاء بسيطاً... لا تتوقعي طعاماً فاخراً!
- فكرة جيده! أي طعام تطبخه يداك هو عندي لذيذ ورائع! هل عندك نبيذ في البيت؟
- نعم... ومن أجود الأنواع، اشتريته خصيصاً لك... قلت لا بد وأن تمري علي يوماً! أنا أعرف أنك مغرمة بالأنبذة الفرنسية !
- شكراً. أنت رجل نادر الوجود. صدقني، إنني منذ أن قابلتك لا أشعر بالهدوء والسلام والأمان أيضاً، إلا إذا كنت معك!

- لو تعرفين الحقيقة لهربت الآن قبل غدٍ !
- أعرفها جيداً، ولكنني لن أهرب ! أنت دائماً تحطّ من قدر نفسك !
- "ذنبك على جنبك" هكذا يقولون بأمثالنا العربية.

ضحكت مارينا بجذل، فبانت أسنانها البيضاء، ونظرت إلي نظرة تضجّ بالأنوثة، وتفيض بالحنان والرقة... نظرة أنثى تدعو رجلها ليعانقها ويقبلها، ثم يأخذها إلى الفراش، ولكنني تغابيت وواصلت سيري.

نزلنا الدرجات، ثم سرنا إلى سيارتي. لم أكن أتوقع أن تكون ألكسس واقفة على مسافة قريبة من السيارة. قفز قلبي وتسارعت دقاته... ما زلت أحب تلك الشقية! صدمني وجودها! نظرت إلى وجهها فوجدته يمور بعلامات الحياد، كأنها لم ترني في يوم ما، وكأنها لم تعرفني ولم تتحدث إلي، ولم تقم لياليي بطولها في شقتي! تجاهلتها، ورسمت تكشيرة كبيرة على وجهي، فتحت باب السيارة لتدخل مارينا التي لم تلحظ ألكسس، ثم استدرت لأفتح باب السائق. أدرت المحرك وتحركت بعصبية. رفعت رجلي فجأة عن "الكلتش"، عنفصت السيارة وهي تنطلق. رأيت ألكسس ترتعد فرقاً من الحركة، عرفت ذلك من إشارة يدها وقلب شفتيها، ولم أعلق بشيء على وجودها، أردت أن أتجاهلها تماماً.

أخذت أحدث مارينا عن تجربتي مع السيدة روبنسون، الممرضة بعيادة الدكتور إليوت.شرحت لها معاناتي معها من الألف إلى الياء. استغرق ذلك مني الوقت الذي أخذته الرحلة إلى البيت، وحتى بعد ذلك بدقائق عندما كنا قد دخلنا الشقة، وبدأنا نعد شيئاً نشربه. حاولت مارينا أن تجعلني أفهم بأنني أبالغ في تقدير الأمر، رفضت التفسير، وتحدثت لمارينا التي تمددت على الكنبة، واسترخت عليها وهي تتابع كلماتي باهتمام، قلت:

- إننا نحن الأجانب، الغرباء، حساسون بسبب أجنبيتنا، مكسورو الخاطر بسبب اغترابنا؛ وأية كلمة نابية أو معاملة غير مؤدبة، نأخذها على أنها احتقار وازدراء لنا، وإهانة متعمدة لإيذائنا وجرح أحاسيسنا، والحط من كرامتنا؛ خصوصا نحن أبناء دول العالم الثالث!

- إن معرفتنا بتأخرنا العلمي والتكنولوجي والحضاري، ثم فقرنا وتخلفنا وإذلال حكامنا لنا، وتجريدهم لنا من كبريائنا، والدوس بنعالهم على رؤوسنا ورقابنا؛ وتعاملهم معنا كأننا سقط المتاع أو أحط؛ ثم استهانتهم واستخفافهم بنا، وكذلك صلف وغطرسة أميركا والغرب على حكوماتنا وشعوبنا معا، تكوّن عندنا عقدة الشعور بتأخرنا وانحطاطنا وتفاهتنا...!

هذه المفارقات جعلت البعض منا يحقد ويثور على أنفسنا وأمتنا وحكوماتنا؛ وكثيراً ما نثور أيضاً على عاداتنا وتقاليدنا وديننا وقيمنا وحضارتنا، بل وعلى وجودنا نفسه؛ ثم نشعر بالخزي والعار من واقعنا. إنها معاناة مستمرة!اللعنة ! اللعنة !

- يا إلهي! إن عندك خيالاً خصباً جامحاً. من أين تأتي بهذه الأفكار الغريبة والعجيبة؟! قالت ذلك ونهضت من استرخائها على الكنبة، وصارت تحملق بي بعينين مشدوهتين. تجاهلت تعليقها واستطردت:

- لقد سألت نفسي عشرات الأسئلة لعلي أحصل على جواب شاف ولكن عبثا. هل كان السبب لأنني أجنبي؟ لقد سمعت قصصا كثيرة، مقرفة ومثيرة، بأن كثيرا من

الأمريكيين الذين ينحدرون من جذور أوروبية، يكرهون كل إنسان لا ينحدر من نفس السلالة... أم هل الممرضة يهودية صهيونية متعصبة لدينها وقوميتها، وعرفت من اسمي وجنسيتي، وربما من سكرتيرة القسم في الجامعة عند أخذ الموعد من أكون؛ فعاملتني هذه المعاملة السيئة المذلة، المملوءة بالاحتقار والكراهية!

- بروفيسور دهشان! لقد قلت لي في أول لقاء لنا في منتجع كرميل، بأنك لا تحب طالبات الفلسفة لأنهن يعقدن من حولهن بتنظيراتهن البيزنطية الجوفاء! ألا تعتقد بأن فلسفتك هذه وتساؤلاتك وتحليلاتك وتخيلاتك تعقد كل طالبات الفلسفة مجتمعات؟ صدقني إنك عقدتني وحيرتني! أرجوك لا تجعل هذه الوساوس والترهات تعكر عليك صفو حياتك! أرجوك! من أجل خاطري !

تابعت كلامي دون أن أعير مقولتها أيّ اهتمام، فقد كانت هذه المشكلة تعذبني وتقلقني!

- أنا أسأل: لم لا يكون حزني الشديد على أسناني، والشعور بالإحباط والضياع والغربة التي تسحق عظامي، ثم الخوف والقلق ومأساة الوطن وأهله الذين يذبحون بأيدي إخوانهم بإيعاز من حكامنا؛ هي التي صورت لي كل هذه التخيلات والتخبطات وكل هذه الحيرة والإرباك؛ وأن القصة هي من اختراع مخيلتي ومن نسيج خيالي؟!

- هو ذاك! أنت تضع إصبعك على الجرح. أنت تعرف الحقيقة. لماذا لا ترفع نفسك من هذا الركام الوهمي الذي تغوص فيه! صدقاً، إن أفكارك هذه تحزنني وتقلقني عليك !

ابتسمت مارينا. لم يعجبني توقيت الابتسامة، مع ذلك أصغيت لردها على محاضرتي. ثم واصلتْ الحديث:

- بروفيسور دهشان! أنت لا شك واهم. لماذا تتخيل أن الناس لا يحبونك، وأنهم يزدرونك؟! أنت رجل محترم... شهم... كريم... مثقف وخدوم. الطلبة يثنون عليك. يتكلمون بحماس وفخر عنك... أنت شخص معطاء، وفوق كل ذلك...

ثم ضحكت بدلال، وأضافت:

- لديك سحر خاص... عليك أن تنظر لجسدك في المرآة، وأنت عار تماماً كما ولدتك أمك! هذا الشعر الأسود الفاحم الذي يتوج رأسك... وهذه الوسادة الجميلة التي تمتد من عنقك حتى سرتك، وهذا الجذع الضخم، والعينان النافذتان. أنا لا أريد أن أقول لك بأنك ملك من ملوك الجمال، أنت ملك من ملوك السحر والجاذبية والدفء والعطاء ! أنت إنسان نادر، صدقني! قالتها بصدق وحماس لمحتهما على وجهها.

- شكراً يا مارينا. أنت تبالغين، ومع ذلك كلامك يسعدني.

- أنا لا أجامل. هل تصدق أنني فكرت في الانتحار، وأنا أقود سيارتي للمنتجع الذي التقينا فيه؟

- لا تكوني مجنونة، أفكارك ترعبني.

- أشكرك لأنك أنقذتني من حافة الجنون.

- اسمعي يا مارينا! لا يوجد سبب كاف في هذه الدنيا، لأن ينتحر الإنسان من أجله ! الحياة أقدس من أن نبتذلها ! تنتحرين من أجل رفيق التافه، الذي لم يقدر حبك وتضحياتك له! ليذهب إلى الجحيم.

- أنا الآن أقول ذلك بعد أن ساعدتني على الشفاء من الصدمة التي وقعت فيها. كنت رجلاً رائعاً، تصرفت معي مثل أب حنون. جعلتني أستعيد ذكريات الطفولة، واهتمام الأهل بي، يوم كانت أمي تجنّ... تفقد عقلها إذا مرضت... أقسم إنك تصرفت أفضل من طبيب نفسي ! أنت أعدت لي ثقتي بالرجال !

- تصرفت كعربي مسلم، شرقي، مثل ذلك الإنسان الذي يحب كل الناس الطيبين ويحترمهم، ويضحي بكل شيء من أجل إسعادهم ! إنها تعاليم ديننا الحنيف يا مارينا ؛ الدين الذي شوهه أئمّتنا والمتزمتون منا ودجّنوه، فأصبحنا غثاء كغثاء السيل!

- عاجزة عن شكرك، ولا توجد كلمات كافية تفيك حقك!

- أنا أقدر كل كلمة تقولينها يا مارينا. أنت فتاة واعية... مثقفة. أنا أحترم رأيك.

- أرجوك اسمعني! دعني أحدثك الآن عما جئت من أجله. اسمح لي أن أحدثك عن ألكسس.

- ماذا؟ ما بها؟ ماذا تريد؟! أنا لا أحب أن يذكر اسمها أمامي. قلت متصنعاً الانفعال.

- إنها تريد أن تزورك في المكتب. تريد أن تعتذر لك، أن تعود إليك... إنها تحبك كثيراً، لقد قالت لي ذلك، وأنت تحبها أيضا! أنا أعرف ذلك، بل واثقة منه، فلا تحاول أن تقنعني بغير ذلك. دعني أصارحك الحقيقة وقد أندم على قولها فيما بعد... وهي أنني لولا تأكدي من حبك الشديد لها لحاولت أن أكون صديقتك !

- وما الذي أعطاك هذا الانطباع؟ ثم إنك صديقتي... أنا فخور بصداقتك. أنا أقدرك وأحترمك، وصداقتك تسعدني جداً جداً! صدقيني!

- أعني أن أكون لك حبيبة، وليس مجرد صديقة!

ضحكتْ واحمرّ وجهها، ثم ألقت بعينيها إلى الأرض.

- تأكدت من ذلك ونحن في الفراش نمارس الحب في منتجع كرميل! كنت أشعر أن جسمك فقط هو الذي كان يعانق جسمي، وإنما عواطفك وأحاسيسك وعقلك كانت في عالم آخر... أنا امرأة وأعرف عندما يكون الرجل الذي معي في الفراش هو لي وحدي، أو أن امرأة أخرى تشاركني به... لقد أدركت عندها مدى حبك لألكسس... ما أسعدها! إنني أحسدها!

- أنت واهمة! أنت لا تعرفين الحقيقة. قلت غير صادق.

ملأني الزهو، إذ تقول مارينا ذلك. ولكني عبست وأظهرت استغراباً شديداً عبر ملامح وجهي. ولم أعقب بشيء، تركت الأمر عائماً وكأنني أقول لمارينا: دعيني أفكر.

عندما غادرت مارينا هارتمان شقتي حوالي منتصف الليل، عادت وأكدت لي من جديد بأن جميع أفكاري بخصوص ممرضة طبيب الأسنان هي تصورات فقط، وليست حقائق، فأعلمتها بأنني أسأل الله أن يكون ما تقوله صحيحاً؛ ولكن الحقيقة المرة عادت وصدمتني وخيبت آمالي من جديد، إذ تبين لي بأن تخيلاتي كانت حقاً في مكانها، وليست كما قالت مارينا هارتمان؛ عندما رن جرس الهاتف في شقتي عصر اليوم الذي يسبق موعدي:

- هذه السيدة روبنسون، الممرضة في عيادة طبيب الأسنان الدكتور إليوت أريد أن...

قلت بصوت متحشرج يرتجف مقاطعا إياها:

- كم لطيفا منك أن تكلفي نفسك عناء مكالمتي لتذكيري بموعدي! لقد تحسنت أسناني كثيرا، وأستطيع أن أقول بكل صراحة وصدق، إنني لم أعد أشعر بالألم إطلاقا وهذا بفضلكما أنت و...

- لقد هاتفتك لأذكرك بأن اسمك على قائمة مواعيد الدكتور إليوت غدا الساعة الحادية عشرة صباحاً.

قالت مقاطعة إياي، ثم أغلقت الهاتف حتى بدون كلمة مع السلامة!

كنت وأنا أتكلم معها، كأنما ركبني عفريت وأن كوابح لساني قد أفلت زمامها، بسرعة وبفرح زائدين، كإنسان تحققت فجأة جميع أحلامه وتبخرت مشاكله، ولكن فعلتها هذه أعادتني إلى دوامة القلق والشكوك من جديد، وشعرت وكأنما هي جددت الإهانة وأعادت اللطمة...!

مضت فترة طويلة وأنا ما زلت ممسكا بسماعة الهاتف كالمصعوق، متجمدا في وقفتي وقد أصابني ذهول وإحباط شديدين! أعدت السماعة إلى مكانها وألقيت بنفسي فوق الكنبة أحدق بالسقف وعقلي يشرّق ويغرّب، أضرب أخماسا بأسداس، ودمعتان كبيرتان حارتان تجولان كحجري صوان في مآقي، أحركهما يمنة ويسرة، إلى أعلى والى أسفل، وأحاول أن أتخلص منهما، ولكنهما ترفضان النزول !

وفجأة خطرت ببالي فكرة، ألهبت مشاعري لم أتوان في تنفيذها. نهضت واقفاً وخرجت من الشقة كالسهم المارق !

كنت وأنا أهبط الدرج أحس كأنما شرر مستعر يتطاير من ضربات حذائي، وكانت مشاعري تغلي وتتأجج، فأحسست لجموح غضبي وعنف إصراري، أنني أكاد أطير، بل طرت حقا لأصل إلى حيث أريد...! لا بد من أن أمسك بتلابيبها وأهزّ كل كيانها وأسألها سبب كراهيتها الماحقة واحتقارها المحموم غير المبرر لي! يجب أن أؤدبها وأعلّمها كيف تكون إنسانة حضارية، ولأخبرها بصراحة وبجرأة، بأنني لن أسمح لامرأة أن تحتقرني وتذلني، مهما كانت ومهما كان مركزها؛ وحتى ولو كنت غريبا في بلادها...!

كان الغضب في داخلي وغليان عواطفي أشد عنفا وأكثر التهاباً من محرك السيارة التي أقودها؛ وكنت كلما قصرت المسافة بين موقع شقتي وبين موقع العيادة، ازداد تأجج الغليان في داخلي، واشتد غضبي واستعر، حتى أحسست كأنما عيناي تحاولان أن تخرجا من محجريهما وتطيرا كصقرين ! لقد سيطرت عليّ عقليتي القبلية واستبدّ بي غضبي الجاهلي، فكنت كالثور الجريح الهائج! أريد أن أحرقها، أن أسحقها، أن أمزق ملابسها... أعريها... أن أضاجعها، أن أركب فوقها، وليكن ما يكون. هذه اليهودية القذرة تحتقرني وتهينني، تستهزئ بي وتسخر مني، وأنا لم أفعل شيئا يغضبها أو يجرح كرامتها أو مشاعرها، سوى أن بين قومينا عداءً مزمناً، وتريد أن تذلني وتركّعني ! خسأت هذه الصهيونية الحقيرة، وخسئ كل بني قومها. كنت أتشاجر مع ذاتي وفي صراع معها...!

لم آخذ المصعد الكهربائي فركوبه يتطلب التمهل والوقوف أحيانا، وبداخلي نار عارمة تتأجج، بل بركان يقذف حممه، فيلهب كل ما حوله، فإن توقف جسمي عن الحركة بأن حاولت إيقاف هذا المدد المستعر سأنفجر وتتطاير أشلائي...!

صعدت السلم قفزاً وأحسست بأن الدرجات تئنّ تحت خبطات قدمي المتلاحقة، فكنت كلما صعدت درجة ازداد تأجج مشاعري بالغضب، حتى أحسست وأنا أضغط على جرس

باب العيادة، كأن نار غضبي ودمي الفوّار اللذين يغليان في داخلي، قد انتقلا إلى صوت الجرس الذي يعوي وينوح في الداخل تحت ضغط وضربات أصابعي فوقه. يجب أن أخبرها أنها حقيرة وغير حضارية؛ ويجب أن أعلمها أيضا، أن تشطب اسمي من قائمة مرضى الدكتور إليوت، وأنني سأبحث عن طبيب آخر. لا رابطة تربطني بهذا الدكتور ولا بهذه الممرضة الوقحة ! سأعلمهم أنني ذاهب إلى عيادة أخرى وسيكون أهلها بلا أدنى شك أكثر أدبا وأكثر تحضراً من هذه الصهيونية العنصرية الحاقدة!!.

مضت مدة خلتها أسبوعا ولم يفتح الباب، وأعدت الضغط من جديد، وعاد صوت الجرس المتحشرج الأبح المخنوق يصل إلى أذني، وكأنما هو يستغيث ويتوجع. ولكن الباب ما زال جامداً.رفعت عيني إلى أعلى صدفة، فقرأت اللافتة الملصقة على الباب فوق رأسي، فوجدت أن العيادة تغلق أبوابها في الساعة الخامسة، ثم نظرت إلى ساعتي فإذا هي الخامسة والنصف وثلاث دقائق.

لم يكن تصرفي حضاريا. لا شك أن في شراييني دماً يجري ورثته عن أجدادي الأوائل في العصر الجاهلي، ولا شك أن بي بداوة متأصلة، وروحاً بدائية وثّابة. إن عادات الحمق والنزق والثأر ما زالت تسيطر على كياني وتشدني إلى طبيعتي الصحراوية؛ وإلا لما تصرفت هذا التصرف الأهوج الأحمق واللامسؤول. ثم ما شأني إن هي عاملتني باحتقار أو باحترام، بنعومة أو بخشونة، برقة أو بغلظة، بحب أو بكراهية، كأوروبي أو كشرقي، كواحد من أبناء نوح أو من أبناء سام، ما زالت هي تؤدي واجبها نحوي كمريض على الوجه الأكمل، ولا تقصّر به؟! وهل أنا صديقها، حبيبها، أخوها، زوجها، قريبها، عشيقها، جارها؟! أنا مجرد مريض بحاجة للمعالجة من قبل طبيب الأسنان، الذي تصادف وأنها تعمل في عيادته، ثم إنها ستتعامل معي لفترة وجيزة محددة، وبعدها أذهب في حال سبيلي، وقد لا يرى أحدنا الآخر، مدى الحياة. ثم من يدريني أن هذا ما يريده مستخدمها الدكتور إليوت؟ أو ربما أن زوجها من النوع الغيور المتعصب، فتعودتْ على أن لا تكون بشوشة أو رقيقة مع أحد. بل ربما هي تكره الجنس الآخر وتكره التعامل معه أو خدمته؟ ولكنني رأيتها تعامل المريض الآخر بمنتهى الرقة واللطف والأدب. ربما تعرفه من قبل، وربما يكون قريبها، جارها، أخوها، صديق زوجها. ولم لا أكون أنا واهماً كما قالت مارينا هارتمان، اذ لعل حزني الشديد على أسناني، أو حياة الحيرة والارتباك والإحباط والقلق والتمزق والضياع والوحدة والرعب التي أعيشها، هي التي صورت هذا الوهم، وأن قصة كراهيتها واحتقارها لي هي من اختراع مخيلتي الغارقة في محيطات الهموم والأحزان...!

دار كل هذا بخاطري وأنا أقود سيارتي في طريق عودتي إلى بيتي، فانشرحت أساريري لبعض الوقت، ولكن سرعان ما راودتني أفكار متناقضة؛ وإن كان هناك أوجاع عملاقة ومستحكمة تسكن في وجداني... في أعماقي... في كل كياني... مختلطة بدمي، ممزوجة بالهواء الذي أتنفسه !

*****

كنت أجلس في غرفة الانتظار، بعيادة طبيب الأسنان، وكنت بحورا من الخوف والترقب ومحيطات من القلق والتوتر...! كانت أعصابي المتشنجة المشدودة كوتر الربابة

لا تحتاج إلا لشدة خفيفة واحدة، فينقطع وترها، ويفلت الزمام، ويرقص كل شيء على غير إيقاع وفي غير اتزان، فيختلط الحابل بالنابل والعاقل بالمجنون...!

لقد تبين لي أن امرأة كانت تجلس في إحدى زوايا الغرفة، لعلها في الثلاثين من عمرها، تقرأ أو تحاول أن تقرأ، في كتاب لا أعرف لغته، وإن كنت أخمن أنها من إحدى الدول الاسكندنافية.

الحقيقة أنني بعد دخولي الغرفة بقليل، وبعد أن بدأت أتمالك نفسي، وأسيطر على أعصابي، عدت إلى تفكيري الواعي، ثم شيئا فشيئا استأنف عقلي عمله، وعندها صرت أشعر بما حولي ومن حولي، فلاحظت وجود هذه المرأة. إنني لا أستطيع أن أجزم إن كانت هذه الحسناء متواجدة في الغرفة عندما دخلتها، أم أنها وصلت إليها بعد دخولي إياها !

لقد عزمت أن أكون في غرفة الانتظار قبل أربعين دقيقة، على الأقل، من موعدي مع طبيب الأسنان؛ إذ أحتاج لمثل هذا الوقت حتى أتمالك نفسي وأستعيد السيطرة على أعصابي وتفكيري. لقد أدركت فيما بعد، ربما في مساء نفس اليوم، أو في اليوم التالي، لا أدري بالضبط، أنني لا بد وأنني كنت أحملق لا شعورياً بالمرأة الجالسة قبالتي، وأن عيني الجامدتين كانتا في حالة غيبوبة وذهول... ذهول تام...!

كنت أحدق فيما أمامي دون أن أتبينه، بسبب الحالة النفسية التي كنت بها. ولقد أدركت، منذ أن تبينت أنه يوجد إنسان آخر بالغرفة، أن نظراتي لم تنفكّا تحملقان بالمرأة، وإن كنت أنا غير واع لفعلتي ولا مدركاً لتصرفي !

لا شك أن المرأة بطبيعتها الأنثوية الرقيقة قد استظرفت، بل أسعدها تأملي لها، والتركيز على جميع مفاتن جسمها، فقد كانت لا شك تعرف أنها جميلة وجذابة، وربما اقتنعت بسبب حملقتي بها، بأن جمالها قد بهرني واستولى علي، بل استبدّ بعقلي وحواسي ! عندما استيقظت من شرودي، كانت تتظاهر بالقراءة، وإن كانت عيناها تختلسان النظر لهذا المتيم الولهان، الذي لم يرفع عينيه عنها طيلة تواجدهما بالغرفة معاً؛ فكانت كلما التقت العيون، ترسل لي نظراتها الدافئة الحنونة، وتمنحني ابتساماتها العذبة الحلوة...! ولا شك أنها استغربت عدم استجابتي لابتساماتها بابتسامات مثلها، وأنني أحملق بها بعينين مفتوحتين جامدتين، كأنما هما متواجدتان في صورة فوتوغرافية، أو في وجه صنم حجري وليس بوجه إنسان حي...!

عندما أكمل العقل دورة الغيبوبة واللاوعي، وبدأ عودة الاستيقاظ والوعي، وصل إلى مسامعي شيء تقوله هذه المرأة الفاتنة ذات العيون التي لم أفهم لغتها؛ ولكن يبدو أن عقلي لمّا يدخل كاملا منطقة الوعي بعد ! أثناء هذه اللحظة فقط، فتحت فمي، إذ أدركت فيما بعد أيضا، بأنني وأنا أحدق بها طيلة كل هذا الوقت، كنت مغلق الفم، متجهم الوجه، وربما لاشعوريا عنيت أن أقابل ابتسامتها بابتسامة مثلها أو أحسن منها، ولكن يبدو أنها لم تكن أكثر من فتح الفم وقلب الشفتين الجافتين الباهتتين، ثم إغلاق الفم من جديد...!

- تبدو في غاية القلق والتوتر! فهل مشكلة أسنانك خطيرة إلى هذا الحد؟! سألت المرأة بصوت هادئ حالم وقد ركزت على كلمة غاية.

هززت رأسي عدة مرات بطريقة لولبية دون أن أعرف أنا نفسي ما عنيت، وإن كنت أعني الإثبات بأن عندي مشكلة خطيرة... خطيرة جداً...!

قالت بصوت حنون مغناج، وكأنه موسيقى حالمة تأتي من وراء الأفق؛ وبلكنة زادت في عذوبة صوتها ورخامته؛ فأحسست كأنما تلفني بأكداس من عطفها وحنانها!

- لا تخف! لقد قلعت كل أسنان العقل عندي ولم أشعر بألم قط. إن شاباً مثلك، قوي البنية، مفتول العضلات، في عنفوان رجولته، لا يمكن أن يخيفه اقتلاع سن أو خلع طاحونة.

كانت تتكلم بفخر وغبطة، تصورتها وكأنما تناجي حبيباً أو تناغي معجباً!

لقد أشعرتني كلماتها الحلوة الرشيقة، برحابة الموقف، وبراحة نفسيه تصوفية أعجز عن وصفها، فأحسست بقصور ضبابية، مخملية، فارهة من الأمان والاطمئنان، وبسعادة غامرة لم أحس بمثلها، على الرغم من أني قابلت الكثير من النساء، كبيرات في السن وصغيرات؛ جميلات وقبيحات؛ متعلمات ومثقفات تعليما عاليا أو أشباه متعلمات؛ منذ أن غادرت عيناي رؤية الأهل والأحباب في الوطن...! إنني ولأول مرة أشعر بمثل هذا الشعور الرائع الجميل الآسر، إذ أحسست حقا، بأن هناك إنسانا يحمل قلبا حنونا كبيرا وعواطف دافئة حانية، ومشاعر جميلة رقيقة؛ فيمنحني بعضاً منها أو كلها...!

لعل ضراوة التمزق، وهول الضياع وعنف الاغتراب، والخوف من المستقبل، والقلق على مصير الوطن وأهله، كل هذا المزيج من المشاعر والأحاسيس المتصارعة، ولّدت في نفسي هذا الانطباع ! لعلي قد وجدت جزيرة صغيرة نائية، آوي إليها هرباً من الرعب، والتمزق... والترقب!

ما أقل عقل الرجل وما أضعفه وأضيعه وأسخفه...! كلمة واحدة رقيقة، مواسية، تخرج من بين شفتي امرأة جميلة، ناعمة مغناج، تمنحه صوراً ومشاعر هلامية عديدة، في بلاد الغربة والتمزق والضياع !

- أسناني جزء من المشكلة وليست المشكلة كلها. قلت بقلب مجروح، وخاطر مكسور، وعواطف محتدمة؛ وكنت على وشك أن أبكي تأثراً من حنانها ورقتها، غير أنني تابعت:

- المشكلة العظمى هي فقدان الهوية، واغتيال الشخصية الوطنية، وكذلك اندثار الروح العقائدية... أو الدينية إذا أحببت. ثم يأتي بعد ذلك انتزاعنا من أحضان من نحب، وحرماننا من عطفهم وحنانهم واهتمامهم، ثم خوفنا عليهم وقلقنا على مصيرهم!

- كلنا نفقد هويتنا عندما نأتي إلى أميركا، إن أميركا تمنحنا هوية مزيفة لنستبدل بها هويتنا الأصلية الأصيلة ! قالت المرأة بصوت عذب رخيم وكأنما تعزف على كمان حنون في ليلة حزينة !

- إن الأحلام المخملية الوردية التي تداعب أفكار الناس للمجيء إلى أميركا، لجمع ثروة ضخمة والعيش بسعادة ورفاهية، هي لعنة تسلط سيفها على رقابهم، حتى إذا جاؤوا تبين لمعظمهم أن أميركا ليست إلا سراباً مضللاً، حيث ينتظرهم العذاب والمعاناة والتمزق ! قلت متفلسفاً منظراً !

- لقد أتينا قبل عامين، زوجي وأنا، إلى كاليفورنيا من بلجيكا، نحمل طموحات عريضة وتطلعات واسعة. كلانا خريج جامعة، وكلانا عملنا بوظائف إدارية بالدولة. لم نكن أغنياء ولكننا كنا ميسوري الحال مرتاحين. والآن وبعد مضي عامين، فإن زوجي ما زال أجيرا في مضخة للبنزين يتقاضى أدنى الأجور، وما زلت أنا أجمع ما يتركه الزبائن

على طاولات الأكل بعد تناول وجباتهم، من صحون وبقايا طعام إلى المطبخ ! إنني لم أترق بعد إلى وظيفة نادلة مسؤولة ! قالت بصوت حزين أثار شجوني وأصاب مكانا حساسا في قلبي.

- لقد أتيتما إلى أميركا بمحض إرادتكما، تنشدان الثروة والجاه والسؤدد؛ أما أنا والكثيرون من بني وطني، فقد جئنا إلى أميركا هرباً من القمع والسحق والمطاردة ! أنتما كنتما تحلمان بالقصور والمجد والرفاهية، أما نحن فكنا نحلم بالنور والانعتاق والحرية...!

- لم أفهم! ماذا تعني؟! سألتْ.

لم أرغب أن أدخل معها في إيضاحات ومناقشات سياسية، قد لا تفهمها، لذلك قلت:

- أعني أن الكثيرين من القادمين يمضون سنوات طويلة متنقلين من وظيفة جرسون إلى عامل في مضخة بنزين، إلى أجير في بقالة. هذا عمل لا بأس به لطالب يكسب رزقه حتى ينهي دراسته ويعود إلى وطنه، أما أن تكون مهنة الحياة، ففي رأيي إنه من الخير للإنسان أن يعود من حيث أتى. إنه يوفر على نفسه عناء الاغتراب.

- صدقني، قالتها كأنما تستعطف التصديق، إنني طلبت إلى زوجي أن نعود إلى الوطن؛ ولكنه يقول كيف نواجه أهلنا والناس؟! ثم بعد توقفٍ قليل، أضافت:

- أتينا إلى أميركا لنعود إلى بلجيكا بعد بضع سنوات نحمل مالا كثيراً يمكننا من بدء مشروع يدرّ علينا دخلا ييسر لنا حياة مريحة، ولكن...!

- إن مصيبة الناس من بعضهم بعضا، نحن نعيش أحيانا كما يريد الناس لنا، لا كما نريد نحن. قلت مقاطعاً بعد الاعتذار عن المقاطعة.

مضت دقيقة وربما اثنتان وهي تنظر إلي إذ لعلها كانت تتفحصني وتقرأ أفكاري! ولابد من أن أكون صادقا مع نفسي فأقول؛ إنني تمنيت في تلك اللحظة، لو أن يكون لي أنثى مثل هذه، فأعاهد الله ونفسي بأن لا أعاشر وأن لا أنشغل بامرأة سواها ! انك تحس وهي تنظر إليك، كأنما تمنحك الحب كله، والحنان كله، والجنس كله؛ وتشعر وهي تتكلم إليك، كأنما تغرف من بحر من العسل المصفى والموسيقى الحالمة والخمر المعتق، ثلاثتهم معا؛ فأنت تسمو بروحك، وأنت تحلق بخيالك، وأنت تعبّ من نهر الخلود، وأنت تطرب بأعطافك ووجدانك وكل كيانك وكينونتك...!

- من أيّ البلاد أنت؟! قالت كأنما تتهجد!

فاجأني سؤالها، ولما ترددت قليلا بالإجابة، استرسلتْ:

- لا شك أنك من إحدى بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط... من إسبانيا... من اليونان... ربما من تركيا...!

لا أدري لماذا هيّج سؤالها عواطفي وألهب أفكاري، وكذلك أثار كوامن قهري وغضبي معاً، فقد شعرت بأنه أصاب موضعاً حساساً في نفسي. أهو وضعنا العربي البائس المتردي، أم هو قلقي وتوتر أعصابي من تلك الممرضة الحقودة، فقلت بعصبية وانفعال:

- لا من هذه ولا من تلك. أنا من بلاد حلّت عليها لعنة الخالق وسخطه ونقمته، وباءت بغضبه وإذلاله؛ فيسر لها أعداء من أسفل وأنجس وأحقر ما خلق، ومن أحط وأرذل ما أوجد ! أقوام متعصبين متطرفين متعالين متغطرسين، غلاظ القلوب والعقول، قتلة مجرمين أفاكين متشردين، خرجوا من الرحم التوراتي، متعطشين لسفك الدماء

وتدمير الحضارات، تفيض قلوبهم حقدا وكراهية واحتقارا، لكل ما سواهم ولكل ما هو من غير دينهم؛ لا يؤمنون إلا بالقتل والتدمير والإفناء وسفك الدماء !

- اللهم لطفك وعفوك! إن هذا شيء فظيع! فظيع جداً! كيف يحدث هذا وأين؟! قالت بهلع وحزن شديدين وقد اكفهر وجهها.

- وقد سخر الله لهم؛ قادة أميركا وحكامها وزعماءها، فتحوا لهم خزائن دولاراتهم، وأغدقوا عليهم خيرات بلادهم؛ ووضعوا تحت تصرفهم كل ما عندهم من جند وأسلحة دمار ! لقد أمدوهم بقنابل الغاز المدمرة للأعصاب، فألقوها على شعبنا أحياء، فقتلتْ أطفالنا وشيوخنا، وأجهضتْ حواملنا ورملتْ نساءنا ! لقد دفنتْ أبطالنا وأطفالنا ومناضلي شعبنا، وكسّرتْ عظامهم، وتركتهم يموتون جوعا وعطشا تحت زمهرير البرد القارس والشمس المحرقة؛ وشرّدتْ من بقي منهم حيّاً، بعد أن دمرتْ بيوتهم وقراهم ومدنهم ! ما كانوا يستطيعون أن يفعلوا بنا ذلك، لولا أميركا التي جلبتْ لنا وللعالم المصائب والدمار والفقر والإذلال، وقضتْ على طموحات الإنسان وأحلامه وآماله وتطلعاته نحو السلام والأمان والحرية والديمقراطية والاستقلال والعيش الكريم، ! لقد نهبتْ خيرات بلادنا وأذلتْ شعوبنا ومزقتْ وحدتها، وتركتها فرقاً وأشياعا...!

لقد كنت أتكلم، وكأنما أقرأ من ورقة مكتوبة... كانت الحسناء تستمع إلى خطبتي الثورية باهتمام شديد، لاحظته من تغيرات وجهها، وتقلصات وارتخاء عضلاتها، ثم نظراتها وفتحة عينيها وإغلاقهما...!

همت المرأة بفتح فمها لتقول شيئا، ولكن الباب الداخلي فتح، وعبرتْ منه الممرضة إياها، تسبق رجلاً لعله في مثل سني، فتحت له الباب وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة، وودعته متمنية له يوما سعيدا؛ ثم أغلقت الباب خلفه. ولما استدارت باتجاهي ووقعت عيناها علي، تغيرتْ ملامح وجهها فجأة، فاعتراها مزيج من التوتر والقرف معاً! لم تحيني، بل حتى لم تذكر اسمي، وإنما أشارت إلي بإصبعها بطريقة استعلاء وعجرفة! تبعتها كارهاً محبطاً إلى الداخل، ككلب جائع رأى سيدته أو سيده يحمل وعاء، فتبعه إلى حيث يضع له طعامه !!!

جلست على الكرسي الطبي حيث أشارت، ووضعتْ بقرف ودون اهتمام، حول رقبتي فوطة ورقية، ورمتْ بكأس من الكرتون إلى جانب حنفية الماء المثبتة في حاملة بجانب المقعد، ثم ضغطتْ على الحنفية حتى امتلأ الكأس!

كنت أراقبها بعناية واهتمام، فلاحظت أن صدرها يعلو ويهبط، وكأنما تتنفس بمشقة، وخيل إلي أنني أسمع ضربات قلبها عالية متلاحقة، كما لاحظت أن وجهها يتغير ويتحول بسرعة من الاصفرار إلى الاخضرار، ثم إلى الاحمرار وإلى الازرقاق تارة؛ لا يستقر على حال! لا شك أنها تعيش صراعاً نفسياً عنيفاً! هممت أن أنبهها إلى حقيقة هامة؛ وهي أن كراهيتها الماحقة، وحقدها الأسود، وتعصبها الأعمى، وعنصريتها الخسيسة، لا تؤذيني بل ولا حتى تزعجني، وإنما تنغّص عليها حياتها، وتدمّر جسمها وروحها، ولا تجلب لها إلا التعاسة والشقاء والمعاناة؛ ولكنني بدلا من ذلك وجدتني أقول، بطريقة رقيقة ومؤدبة:

- إن عيادتكم تطل على مناظر جميلة، توحي للناظر بأرق المشاعر وأحلى الأحاسيس!

ولما لم تقل شيئا استرسلت كاذباً:
- إنني وأنا أجلس فوق هذا المقعد يعتريني إحساس رائع بالسعادة والمتعة والسلام !

- بروفيسور دهشان ! هذه عيادة طبيب أسنان، وليست قاعة محاضرات تتحدث فيها إلى طلبتك عن القيم الجمالية والنظريات الفلسفية! قالت وهي ترتجف غضبا !
شعرت بأن إهانتها أصابتني في صميم وجداني، فهزتْ كياني هزا موجعا، فتلمست خدي الأيمن بيدي اليمنى، ومسحت خدي الأيسر باليد الأخرى، وكأنما أحدهم قد بال عليّ أو بصق في وجهي بعد أن صفعني كفّاً نارياً! على الرغم من إذلالي وتوجعي، فإنني لم أنس أن ألاحظ التعبيرات الجميلة التي استعملتها "القيم الجمالية والنظريات الفلسفية" لا شك أن اللئيمة الوقحة، امرأة واعية ومثقفة !
- آسف جدا! معك كل الحق يا سيدتي. وبعد لحظة تفكير أضفت:
- لقد نسيت أنني أتعامل مع أناس حضاريين مثقفين، يحترمون ملاحظات الآخرين. قلت متصنعا الهدوء والرقة والأدب، وإن كان داخلي مرتعا لصراعات وانفعالات بركانية عنيفة !
لن أنسى ما حييت، منظر وجهها المتشنج والتغيرات والتفاعلات المتلاحقة فوقه، ولا منظر تعبيرات المعاناة الشرسة، والألم القاسي تتراقص فوق شفتيها! لقد رأيتها تزمّ شفتيها وتشدهما بقسوة إلى بعض، تماما كما تفعل الفرس التي تحمحم بألم عند غياب فلوها! لقد أحسست أنها على وشك أن تنهار بالبكاء أمامي، لولا أن تمالكت وكبحتْ جماح عواطفها، فغادرتْ الغرفة مسرعة قبل أن يفلت زمام أمرها!
أقبل الطبيب، وبعد أن حياني سألني كيف أشعر، فشكرت الله وأثنيت على مهارته، فأبدى ارتياحه لما سمع، وطمأنني بعد أن ألقى نظرة على أسناني، بأن كل شيء يسير على ما يرام؛ وقبل أن ينتهي من كلامه، كانت الممرضة قد انضمت إلينا، فكان وقوفها في مكان لم أستطع منه رؤية وجهها...!
- اليوم نخلع ضرسين، وفي الموعد القادم نخلع الاثنين الباقيين؛ ثم نبدأ بعدها عملية الحفر والحشو وسحب العصب والتنظيف، كل حسب حاجته. ثم توجه إلى المغسلة وسمعته يقول للممرضة أثناء عملية غسل اليدين:
- أعطه يا شيلا إبرة مخدر في فكه الأيمن، الأسفل.
لاحظت أن الإبرة في يدها المرتجفة كأنما ترقص رقصة الموت، حتى خفت أن تنكسر في لثتي! وفكرت أن أسألها عن سر كراهيتها ونقمتها علي، حتى تصل إلى هذه الدرجة المروعة، ولكنني فتحت فمي وأغلقت عيني ولم أقل شيئاً، ووصل إلى أنفي عبير عطرها الفاغم، ممزوجا بأنفاسها اللاهثة، كما لاحظت ثورة صدرها الذي كان يرتفع وينخفض ! هل أستطيع أن أدعي بأن ضربات قلبها العالية المتلاحقة، قد وصلتْ إلى أذني واضحة ومميزة، كدقات ساعة زنزانة محكوم على صاحبها بالإعدام وينتظر تنفيذ الحكم ! نعم، لقد سمعتها عالية ومتلاحقة، بأذني هاتين . تناولت البطاقتين ومشيت خلفها باتجاه المخرج، فتحتْ لي الباب فخرجت، دون أن تنظر إلي، سمعته يصفق بشدة، وشعرت كأنما ألقي بي خارج المحيط البشري... في التيه... في الربع الخالي... في تخوم حفر الباطن...!

غلى الدم في عروقي... تملكني غضب مجنون... صرت أرتجف، تشنجتْ أطرافي وجحظتْ عيناي... ابتلعت إهانتي... استسلمت لاحتقارها، رضيت بالسكوت وقبلت قدري!

ركبت سيارتي وفتحت المذياع، كانت موسيقى ناعمة، وأغنية رومانسية حالمة، حنونة، دافئة، ألهبت عواطفي، وأثارت ذكريات الماضي في وجداني، على الرغم من أنني لم أفهم إلا القليل من كلماتها، فوجدت دمعي يسبح فوق خدي بغزارة... بحرقة. ..بحنين وألم! لم تتوقف دموعي عن النزول إلا بعد أن غادرت سيارتي وتركتها واقفة في موقف سيارات الجامعة، ولأدخل قاعة المحاضرة التي ستبدأ خلال أربع دقائق بالضبط !

*****

كانت ساعة الجامعة تعلن الخامسة مساءً، وكنت قد انتهيت لتوي من تصليح آخر ورقة لبحث قصير كنت قد سألت طلبتي أن يكتبوه. كنت أسائل نفسي فيما إذا كان من الأحسن لي أن أمر بالقرية وأتناول فيها عشاء مهما تيسر، وأن أذهب بعدها إلى شقتي أشتغل على رواية كنت قد بدأتها قبل عدة شهور، ثم أهملتها بسبب مشاغل التدريس، وافتقاد الرغبة بالكتابة بسبب ما يحدث بالوطن وللوطن من آلام ومآسٍ. أو أن أتوجه رأساً إلى شقتي وأسخن ما تبقى من أكلة "المقلوبة" التي طبختها الليلة قبل الماضية، تلك الأكلة العربية التي أحبها كثيراً، والتي كانت تطبخها لي والدتي بيديها الحنونتين كلما أرادت أن تعبر لي عن حبها الشديد لي . لقد سمعت قرعات خفيفة خجلى ومترددة على الباب. قبل أن آذن للطارق، وجدتها تدخل... شهقت فرحاً، وكدت أهجم عليها أعانقها وأبكي فوق صدرها، وأعاتبها على تأخرها بالعودة لي، وأن أقول لها من بين دموعي، بأنني قد افتقدتها كثيراً، وأنني أحبها حباً جماً! إنها ألكسس الصغيرة الشقية، والتي تشعل الحرائق بدمي كلما نظرت إلي وأطالت النظر ! انني و بدلاً من ذلك، فردت تكشيرة مبالغ بها فوق وجهي، وكأن رؤيتها قد سببت لي قرفاً واشمئزازاً !

كانت قد صبغت شعرها، فأصبح بلون الكوبيا أو القهوة المحروقة. كان ضارباً للحمرة، وكذلك للسواد في آن واحد. وارتدت بلوزة صوفية دافئة مائلة إلى الأخضر. لقد كان الجو بارداً بدرجة كبيرة، وقد غطت البلوزة قسماً من البنطال الأسود المخملي الذي وصل إلى ما دون الركبتين بقليل، بحيث بدا منسجماً مع لون ساقين بضتين وشقراوين، وفوق البلوزة الخضراء وضعت جاكيتاً خفيفاً مخرماً ذا ثقوب متناسقة.

ظلت واقفة كأنها تنتظر حكماً من القاضي! أخذت تسترق النظر إلى عيني بطريقة أحسست معها بحزن شديد عليها، وتمنيت لو أنني أستطيع أن أكاشفها بالحقيقة، وهي أنني المذنب وليست هي !

- لماذا لا تجلسين يا آنسة؟ فهل من طلب فألبّيه لك؟

شعرت بأنني أتكلم معها، وكأنني لم أرها من قبل في حياتي!

- جئت أتحدث معك. قالت بتردد وانكسار.

- قلت لك اجلسي. تحدثي ما تشائين، فأنا مصغ لك تماماً!

- لا أريد أن أقول كثيراً. جئت لاعتذر ثانية، وكلي رجاء أن تقبل اعتذاري، ولأن مارينا هارتمان قد شجعتني على زيارتك.

- أهلا وسهلاً. نحن العرب شعب مضياف، نقدم ما عندنا من طعام للضيف، ولو كان هو كل ما عندنا من أكل، وحاتم الطائي ذبح فرسه الحبيبة ليطعم ضيوفه. إن أي مسافر يقدم له الطعام في بلادنا لمدة ثلاثة أيام وثلث النهار، قبل أن يسأل عن اسمه ووجهة سفره، كما نقدم له المنامة وكل وسائل الراحة، ليشعر كأنما هو في بيته .

- أليس من الأسهل عليكم أن تقبلوا اعتذار شخص لم يسئ إليكم ؟! قالت بيأس ومذلة مزقا قلبي !

لم أقل شيئاً، وبقيت صامتاً لفترة، أفكر بما يجب أن أقوله رداً على سؤالها. وأخيرا فتح الله عليّ فقلت:

- أريد أن أسلحك بسلاح جديد. هل تعلمين أن من ضمن عاداتنا وتقاليدنا العربية في وطننا الحبيب أن كل شخص يدخل البيت، أو حتى مكان العمل، ويربط كوفية الشخص الذي يدخل عليه تصبح تلبية طلبه أمرا ملزماً أدبيا وأخلاقيا.

انفجرت ألكسس ضاحكة وقد انفردت أسارير وجهها وهي تقول:

- ولكنك لا تلبس كوفية، ولا أملك نسخة من مفتاح شقتك لأذهب وأحضرها لك وأضعها فوق رأسك، ثم أربطها، وأجثو عند قدميك، أنتظر عفو مولاي!

قهقهت بسعادة، وقبل أن أفيق على ما قالت من مداعبة ظريفة، كانت ألكسس قد ألقت بكتبها على الطاولة، واستدارت نحوي، فأمسكت بربطة عنقي، ووضعت عقدة كبيرة في أسفلها، ثم جلست على يد الكرسي، فانحسرت البلوزة عن بطنها، وأخذت تتحسس صدري فوق القميص. إن الشقية تعرف تأثير سحرها عليّ.

نهضت محتجاً، ونهضت هي فزعة. فقلت متصنعاً الغضب:

- تكررين نفس الخطأ السابق! لقد آن الآوان أن تأخذي الأمور بجدية ومسؤولية.

- لم أقصد. ما زلت أطمع في أن تقبل اعتذاري. إن مارينا قد رسمت لي صورة رائعة مشرقة عنك. حدثتني طويلاً عن دماثة أخلاقك، ورقة مشاعرك وتفهمك لأحاسيس ومشاكل الآخرين.

- أنا تصرفت معها كما يتصرف الرجل الحضاري مع امرأة بحاجة للمساعدة.

- قالت لي إنك كنت شهماً ونبيلاً معها. كنت أفضل من طبيب نفسي داوى روحها الكئيبة، وضمد جراح قلبها، وأخرجها من العذاب النفسي الممزق، ومن اليأس والقلق. مسكينة مارينا! كانت على حافة الانهيار! ولكن ألا ترى يا حبيبي أنني الآن، ومنذ أن التقينا المرة الأخيرة أنني أنا أيضا على الحافة؟ ألا ترى شحوب وجهي وهزال جسمي؟! لقد نقص وزني خمسة باوندات منذ غادرتك.

- لا تقولي ذلك، أنت مشرقة تماماً. هل تريدين الحقيقة؟ ألاحظ أنك ازددت جمالاً! ما هذا الزي الجميل؟ الأسود على الأخضر الفاتح! ثم نظرت إلى ساقيها الورديتين دون أن أقول شيئاً.

- هل يعجبك ما ألبس يا داشو؟ لقد اشتريته خصيصاً لألبسه لك يا حبيبي! قالت ذلك وصارت تدور حول نفسها كعارضة أزياء محترفة، فشعرت كأنما كانت ترقص!

- إنه جميل حقاً، يناسب بشرتك تماماً؛ ولكن لماذا تقولين إنك على الحافة؟ أنا لا أصدق ذلك! إنك تبدين رائعة، كما كنت دائماً! قلت بلهجة لينة متعاطفة.

- "داشو"! يا حبيبي! نفسي هي التي على الحافة. أتريدني أن آتيك باكية، وأنا أرتدي ملابس المطبخ ؟!
- أنا لم أقل ذلك. فقط أريدك أن تعرفي بأنني أنا نفسي قد تألمت أيضا للذي حدث. يحسن بنا نحن الاثنين أن لا نكرر موقفينا. إذا فعلنا ذلك فإننا سوف نغضب، وأنا لا أريد أن أكرر الصدمة التي حصلت لكلينا. لا أريدك أن تعودي إليها، ولا أن أعود أنا كذلك.
- وهل سامحتني وصفحت عني يا حبيبي؟ لو تعرف كم تعذبت لبعدك عني، وهجرانك لي! صدقني أنني في الأيام الأولى فكرت أنني لن أنهض من سقطتي ! لقد افتقدتك بشكل لا تستطيع أن تتصوره. كنت أحس أحيانا بالاختناق؛ وأنا أتصور نفسي محرومة من قبلاتك ولمساتك وعناقك!
- أصدقك، لأنني أنا عانيت من مثل هذا الإحساس، ولولا ذهابي إلى " كارميل " لكنت جننت قهراً !
- إذن لماذا نُغضب بعضنا بعضاًً من أجل تفاهات؟ ولماذا نضيع أحلى لحظات العمر وأسعدها بالعتا ب؟!
- على كل حال، إنسي ما حدث ولنبدأ صفحة جديدة. قلت.
- نعم. دعنا نفعل وإلى الأبد...!
قالت ذلك وهجمت عليّ تقبلني كالمحمومة، في كل مكان تقع عليه شفتاها... على وجهي... رقبتي... شعري... عنقي... ! أبعدتها عني بلطف مخافة أن يفتح أحدهم الباب ويرانا بهذا الوضع المخجل.
لا شك أن فرحتي وسعادتي لعودتنا لبعض، لا تقل عن فرحة وسعادة ألكسس، فقد قالت:
- "داشو"! لقد اكتشفت أن الحياة بعيدة عنك قاسية... قاسية لا تطاق... صدقني إنها كجهنم! أنا لا أقوى على الابتعاد عنك بعد اليوم. قل لي ما تريدني أن أفعل وأنا رهن إشارتك؟!
- أنا أريدك أن تتصرفي على سجيتك... كما خلقك الله. أنا لا أحبك أن تغيري عادة من عاداتك، ولا تصرفاً من تصرفاتك، لا من أجلي ولا من أجل غيري. هذا هو الذي يجذبني إليك أكثر... أريدك أن تكوني دائماً كأول يوم عرفتك به، تتكلمين ببراءة وعفوية وبساطة... أريدك أن تكوني ألكسس لا امرأة أخرى !
- إنني أحب رجولتك وتفهمك ، وكذلك شهامتك ، قوة شخصيتك وإصرارك. البعد عنك عذاب لا يطاق! لا تطلب إلي أن أبتعد عنك. أرجوك! قالت برجاء حار وتوسل صادق.
- لم تكن الحياة سهلة عليّ أنا. صدقيني.
- ولكن قسوتها عليك لم تكن كقسوتها عليّ. لا شك أنك كنت تخرج مع بعض الفتيات، أما أنا فلم أكن أطيق رجلاً يكلمني أو حتى ينظر إلي.
- هذه التجربة قد علّمت كل واحد منا مقدار حبه للآخر وحاجته إليه! قلت بعفوية.
- لقد فكرت أن أعود إلى الجنوب إذا لم نعد لبعض. لقد تكلمت مع والدتي بالأمر، فنصحتني بالتريث. لم تعد كاليفورنيا جميلة بعيني، كما كانت وأنا إلى جانبك !

لقد كنت أحلق بخيالي مع موسيقى صوتها، فلم اعلق على كلامها، وإنما كنت أسرح ناظري بشفتيها... عينيها... وجهها... عنقها... صدرها، وكل المفاتن التي حرمت منها بسبب جهالتي وحماقتي وقصر نظري !

- أشعر فجأة بجوع شديد. لم يدخل معدتي منذ الصباح إلا السوائل. هذه حالتي في معظم الأيام منذ تفارقنا. قالت بدلال ممزوج بالحزن.

- فلنذهب إلى القرية ونتعشى هناك. قلت بإصرار وحزم ممزوج بالفرح.

- لا. عندي اقتراح وآمل أن لا ترفضه. هل تذكر المطعم الذي ذهبنا إليه آخر مرة في سانتا مونيكا؟ أحب أن أدعوك إليه لنحتفل الليلة بعودتنا إلى بعض. لطالما حننت إلى جلسة أخرى به، ونحن نشرب النبيذ وأنت تقص عليّ طرفاً من حياتك بالوطن. قالت بفرح، وكأنما هي ترقص.

- اقتراح رائع! ولكن أنا الذي أدعوك، وأصر على ذلك! قلت.

- آه...! حبيبي "داشو"! لقد نسيت أن أقول لك، لقد تحدثت مع والدتي قبل ليلتين، فأعلمتني بأن المحاسب الذي يتولى شؤوني المالية قد أعلمها بأن مجموع دخلي هذا العام من أرباح السندات وإيجار ما يخصني من العقارات، كان بحدود الستين ألف دولار. هذا بالإضافة إلى راتبي الشهري الذي يرسله إليّ والدي، وهو ثلاثة آلاف دولار. ألا ترى أنني أستطيع أن أدفع ثمن عشاء في مطعم فاخر لكلينا ؟!

- حتى لو كان دخلك مائة ألف دولار، فالجواب ما زال هو... هو... لا يتغير ؛ ثمن العشاء الليلة عليّ أنا. ألست أنا الرجل؟!

- لا بأس! ولكن مصاريف قضاء عطلة نهاية الأسبوع في منتجع " لقونا بيش" هذا الأسبوع أنا أتكلف بها، أم أنك لا تفكر بالذهاب إلى هناك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع؟

- طبعاً أفكر. لقد صار لي عدة أسابيع لم أذهب إلى هناك. لقد افتقدتها كثيراً، وافتقدت الفندق والشاطئ ونكات وأحاديث الخواجه أندرياس! إنه هو الآخر وحشني!

- ولماذا لم تذهب كل هذا الوقت؟ سألت وهي تضحك وكأنما تعرف الجواب مقدماً.

- لأنك لست معي ! أنا لا أستمتع بالمدينة بدونك بعد أن أخذتك وقدمتك إليها !

- آه يا "داشو" كم أحبك! صدقني إنك أغلى من عيوني! قالت وهي تنظر إلي بوله ومسكنة.

- وأنا أحبك كثيراً يا ألكسس. الفراش بارد وأنت بعيدة عنه!

- سأعود الليلة إليه يا حبيبي، وأدفئه لك. فقد اشتقت إليه كثيراً. قالت ذلك ونهضت ثم مدت إلي يدها وقادتني كطفل صغير علامة الخروج.

- كيف حال لكسس الجميلة؟ سالتها وأنا أدير المفتاح بباب المكتب.

- افتقدتك هي الأخرى كصاحبتها. افتقدت ركوبك بها وقيادتك لها!

- وأنا افتقدت قيادتها وركوبها، وخصوصاً عندما تجلس صاحبتها إلى جانبي؛ فأشعر كأنما امتلكت العالم!

- صحيح يا "داشو"؟ ما أسعدني أن اسمع هذا الكلام يخرج من بين شفتيك! الشكر لمارينا فهي التي شجعتني لأن آتي إليك. لقد خفت أن لا تقبل مصالحتي. لكنها أكدت لي بأن رجلاً بهذه الأخلاق السامية، لا يمكن أن يرفض اعتذار امرأة...!

- بالمناسبة، ما هي أخبار مارينا؟ الا تزال غاضبة من رفيق؟ وهل ما زالا مفترقين؟

- على ما أعتقد. لا أظن أنها ستسامحه...! إنها متأثرة من فعلته معها!

- غريب. أعتقد أنها تمارس السادية بحق هذا الشاب المسكين. قبل أيام صادفته في الجامعة، كان بحالة مزرية متعباً ومفلساً، أعطيته بعض النقود. كان يبحث عن طالب عربي يسكن معه إلى حين يتدبر أمره. إنك تستطيعين المساعدة.

- ماذا تظن أن بمقدوري أن أفعل؟

- أنا أعرف أن لديك تأثيراً على صاحبتك، وسيكون من اللطيف جداً منك أن تساعدي رفيق ومارينا على إعادة لحمة التفاهم.

- سأفعل كل ما بوسعي، ولكن هل تعتقد أن رفيق أهل للثقة؟

- لا أظن ذلك. إنه ما زال غرّاً وقليل التجربة! ولكن حاولي...! أرجوك أن تعتبري أن رفيق أخ لي. أخ لم تلده أمي. لا تنسي أنه عربي مثلي، ويهمني أمره.

- رفيق شاب غير ناضج، وغير ملتزم. أخبرتني مارينا أنه يتصرف أحيانا كطفل صغير.

- كلنا هكذا يا ألكسس في فترة ما. كلنا هكذا، صدقيني. جميعنا الذين أتينا من بلدان الفقر العاطفي... بلدان التزمت... بلدان المحرمات... "التابوهات" !

- ماذا تعني يا "داشو"؟ أنت تتكلم بالألغاز.

قلت مغيراً الموضوع:

- أنت يا ألكسس مثل الريشة السحرية في الحكاية الشعبية.

- ريشة سحرية...! ما هذه؟

- الريشة التي يجدها البطل في طريقه، إذا حملها فإنه يلاقي الصعوبات، وإن لم يحملها فإنه يلاقي الصعوبات أيضا. إنه في كلتا الحالتين حائر ومعذب!

- صعوبات؟ تأكد بأنني لن أزعجك، ولن أغضبك بعد اليوم. فقط سألتصق بك وأسمع أنفاسك وكلماتك. سأكون خادمتك المطيعة... سر إلهامك. هل ستكتب عني في إحدى رواياتك؟ كم أتمنى ذلك ! 1

- قد أفعل ذلك يوماً! وأعدك إن فعلت، لن أقول عنك إلا الحقيقة...!

- قل لقرائك بأنني أحببتك حباًً لم يحببه إنسان لمخلوق مثله... لقد أحببتك أكثر من حياتي، بل أكثر من عيوني، وإنه لا مطمح لي في الحياة إلا أن أكون إلى جانبك... وأقوم على خدمتك ... وقل لهم أيضاً أنني كنت أقضي ساعات طويلة من الليل أبكي ولا أتوقف عن البكاء حتي تدركني رحمةالسماء فأروح في سبات عميق ...! قالت ذلك وانخرطت في بكاء مرير.

- سأفعل ذلك يا ألكسس. أعدك. ولكن الذي لا أستطيع أن أعدك به، هو الوفاء... نعم الوفاء يا ألكسس... إن هجير حفر الباطن قد سبب جفافاً في عواطفي، وترك تمزقاً وشروخاً في قلبي، وجعل من المستحيل عليّ الاحتفاظ بالحب والوفاء لمن أحب... إنها لعنة يا ألكسس... لعنة منذ أن هجرتني سميحة !

- "داشو"! حبيبي! أنا لا أفهم ما تقول. لقد عدت تتكلم ألغازا !

- إنه من الصعب عليك أن تفهمي ما أقول؛ وحتى إنه من الصعب عليّ أنا نفسي أن أفهم نفسي! صدقيني ! إنها لعنة يا ألكسس ! لعنة !

- "داشو" يا حبيب القلب! أية رواية ستكتب؟ إنك لم تقل لي. أريد أن أقرأ ما تكتبه عني، وعن غيري أيضاً. أريد أن أقرأ كل حرف تكتبه! ماذا ستقول عني؟ أرجوك، قل لي يا حبيبي.

- سأقول إنك كنت بالنسبة للبروفيسور سهيل دهشان كأمنا حواء بالنسبة لأبينا آدم، فعندما تكون معه يطلب إلى الخالق أن يأخذها عنه لأنها أتعبته، وعندما لا تكون معه، يقول للخالق! يا رب أرجعها إلي، فإنني لا أستطيع أن أعيش بدونها... وبعد أن يعيدها الخالق له يقول؛ يا رب، أرجوك خذها، ثم يطلب إعادتها له. ثم يسأل الخالق عن حيرته... إذ إنه لا يستطيع أن يعيش معها، ولا يستطيع أن يعيش بدونها !

ضحكت ألكسس طويلاً وضحكت لضحكها، فقالت:

- إذن، يعيش معها ويتحمل لحظات إزعاجها...!

- هذا ما سأفعله !

- وهل أنا حقاً مزعجة إلى هذا الحد ؟

- أنت تسعدينني إلى أقصى الحدود. أنا لا أستطيع أن أعيش بدونك، ولا أستطيع النوم إلا إذا وضعت ذراعي وسادة لك، واتخذت من نهديك الصغيرين المكورين مخدة، أضع رأسي المتعب فوقهما...!

- أوه حبيبي داشو... أحبك... أحبك... حتى الجنون !

ثم هجمت عليّ تعانقني في موقف السيارات ؛ فقد كانت العتمة تلف الكون، عندها لم أستطع كبح جماح عواطفي المحمومة، فأدخلتها السيارة، وانهلت عليها عناقاً وتقبيلاً وكأنما آكلها... ولم أتوقف إلا بعد أن هدأت الذئاب الجائعة في داخلي وداخلها...!

- والآن وماذا ستقول لقرائك عني أيضاً؟! سألتْ بعد أن سوّت ملابسها وهي تلتصق بي من جديد.

- سأقول لهم بأنني كلما كنت أنظر في عيني ألكسس تشتعل الحرائق بدمي وأصبح كالوعل الهائج لا يوقف هياجه إلا رؤية أنثاه التي يلقي بنفسه في أحضانها؛ إنني كلما كنت أضمها إلى صدري أشعر وكأنما أضم باقة من الورود والأقحوان مضمخة بعطر النرجس والياسمين!

ضحكت بمتعة وتلذذ وازدادت التصاقاً بي حتى خُيّل إليّ وكأنما أصبح جسمانا جسداً واحداً!

- ما أسعدني بهذا الحب... شكراً لك يا حبيبي! ثم ماذا ستقول لهم أيضاً؟!

- سأقول لهم بأن الشاب الذي يبلغ العشرين من عمره ولم يعرف المرأة، فإنه سيظل يعاني من سغب جنسي وقحط عاطفي، وحتى لو تزوج جميع نساء العالم وتجاوز التسعين من عمره، أو التزم بجميع الشرائع السماوية والقوانين الأرضية !

- حبيب القلب! لقد كنت تتكلم ألغازاً ولكنك الآن تتكلم فلسفة لا أفهمها!

- صدقيني ياألكسس، إنه لمن نعم الخالق على الإنسان أحياناً أن يصاب بداء البلاهةوالغباء! قلت.

*****

رن جرس الهاتف في شقتي، عصر اليوم الذي يسبق موعدي الثالث، رفعت السماعة، وقبل أن انتهي من كلمة "ألو" قال الصوت الذي على الطرف الآخر:
- هذه سيدة روبنسون من عيادة طبيب الأسنان الدكتور إليوت، أريد أن أذكرك بأن اسمك على قائمة المواعيد الساعة الحادية عشرة غدا صباحاً.
قالت جملتها بسرعة وباستمرارية، وكأنها تقرأ نشرة أخبار من ورقة مكتوبة ! كان صوتها باردا كالثلج، متشنجاً، متحشرجا يرتجف؛ مما يدل أن صاحبته في أقصى حالات القلق والتوتر ! كانتْ كاللص الفزع الذي يريد أن ينتهي من عملية السرقة أو التخلص مما سرق، أو كالعازم على القتل يريد أن ينفذ العملية وينتهي منها بأسرع ما يمكن!
- شكرا لتذكيري. قلتها ببرود وحزم، ثم أغلقت السماعة.
عندما تلفنتْ في المرة التالية، كنت مستعدا لها، إذ حالما ميّزت صوتها وسمعتها تقول هذه السيدة روبنسون من عيادة... قاطعتها بغلظة ووقاحة وصوت عال قائلا:
- أعرف ذلك! إنني أتذكر موعدي جيدا وسأكون هناك غدا في تمام الساعة الحادية عشرة. شكراً لك على أية حال.
بصقت الكلمات وأغلقت السماعة بحدة. حزنت بعدها وتألمت، لأن هذه ليست أخلاقياتي؛ وليست الطريقة التي ربتني عليها والدتي. بقيت مواظبا على فعلتي هذه، أقاطعها فلا أدعها تكمل جملتها كلما أسمع صوتها، حتى انتهى الدكتور إليوت من عمل كل ما كنت بحاجة إليه. والتي استغرقت حوالي ثلاثة شهور ونيف؛ وفي آخر مرة زرته بها، وبعد أن شددت على يديه مبديا عظيم شكري وامتناني قال الرجل بلهجة المداعب الجاد:
- نستطيع أن نقول أن أسنانك الآن في وضع جيد فحافظ عليها، حتى لا نعيد التجربة مرة أخرى. من الضروري أن أراك كل ستة شهور مرة، حتى يكون كل شيء تحت المراقبة. نحن هنا في أميركا نزور طبيب الأسنان كل ستة شهور مرة للتنظيف والفحص الوقائي.
لقد عرفت مغزى ضحكة الدكتور إليوت، إذ لا شك أنه تذكر ما كنت قد قلته له يوم زرته لأول مرة، من أننا بالوطن، لا نذهب لزيارة طبيب الأسنان ولا أي طبيب آخر، إلا عندما نشعر بالألم، وأن هذه الفحوص الوقائية لمّا تصلنا بعد!
كنت أحب أن أودع السيدة روبنسون، وأشكرها قبل مغادرتي، ولكنها اختفت فجأة فلم أرها، وخجلت أن أسأل عنها فتحرجني برفض مصافحتي، بل ربما حتى ترفض المجيء لرؤيتي، فخرجت وقد أغلقت الباب خلفي، بعد أن تجولت عيناي بأسى وحسرة، في كل ما حولي.
غادرت العيادة منقبض الصدر حزين القلب، منهار المعنويات، أشعر بالضيق والوحدة، وأحس بفراغ مخيف...! تساءلت عن السبب، وحاولت أن أجد تعليلاً له، ولكنني لم أستطع! كان يجب أن أفرح لأن الله وقّر علي إذلالي واحتقاري وإهانتي، ولأنه أوقف معاناتي وتشنجاتي وانفعالاتي؛ كما إنه أنقذني من حقد وكراهية ونظرات هذه الصهيونية العنصرية، وكفاني شر وقاحتها وغطرستها واستعلائها!
كان يجب أن أفرح لأن الله قد ردّ إلي أسناني بعد أن كنت أخشى أن أستبدلها بأسنان اصطناعية! نعم! كان يجب أن أفرح لأكثر من سبب، ولكني حزين، حزين جدا! حزين

حتى نخاع العظم! كنت أشعر بالألم والأسى وأنا أتذكر كراهية واحتقار السيدة روبنسون لي، فأتمنى لو أنها لم تكن من هذا النوع من الناس الذي يحمل بطيات صدره وحنايا ضلوعه، كل هذه الشرور والسموم، ولكنني، وبكل صدق أقول، أنني كنت أحزن وأتألم أكثر، عندما أتذكر معاملتي القاسية لها على الهاتف !

إن احتقارها وكراهيتها لي، لم يولد في قلبي مثلهما، وإن كنت أبدو هكذا لحظتها، وإنما ولّدتا بي نوعا من الرثاء والشفقة عليها، خصوصاً بعد أن تولد في نفسي إحساس عميق بأنها تفعل ما تفعل بقوة خارجة عن إرادتها، وطالما تمنيت لو أنها كانتْ غير ما هي عليه! ! لقد كان يعذبني الندم وتأنيب الضمير بعد كل إجابة وقحة وإنهاء كل مكالمة، وكانت تمر ساعات وساعات قبل أن أتخلص من هذا الندم وذلك العذاب !

لقد كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن العين بالعين والسن بالسن وأن البادئ أظلم، ولكن جذوري الشرقية كانتْ دائما تشدني؛ الرجل الشجاع لا يظهر شجاعته على المرأة؛ وكنت أحاول أن أقنع نفسي بأن امرأة أميركا غير امرأة الوطن، وأن المرأة في أميركا لها حقوق الرجل وعليها واجباته؛ وأنها تشعر بالذل والمهانة والاحتقار إن عوملتْ غير هذا.

إنني لم أفهم لم تصرفت معها بهذه الطريقة اللاحضارية واللارجولية، والتي هي مغايرة تماماً لشخصيتي وطبيعتي وأخلاقياتي؛ وكذلك هي مغايرة للتربية التي تربيت عليها في الوطن... التربية الدينية التي ربتني عليها والدتي !

لا شك أنني كنت أعيش بطبيعتين غريبتين متناقضتين، شخصيتي الموروثة والشخصية التي اكتسبتها هنا، في العالم الجديد؛ وللأسف لقد تعاملت معها بالطريقة المكتسبة وليس بالطريقة الموروثة.

لقد مارست دائماً عقيدة أن الحياة أثمن وأجمل من أن نضيعها بالحقد والحسد والكراهية، وأن الله منحنا إياها لنزينها بالحب والتمتع بالجمال وعمل الخير ومساعدة إخوتنا في الإنسانية. إن كثرة قراءاتي الرومانسية، وتعمقي في أدب التصوف، والساعات الطويلة من التفكير والتأمل، قد زرعت في نفسي وإحساسي هذا الشعور وهذه الفلسفة؟ ثم لا شك أن حبي المبكر لسميحة هو من أهم الأسباب لاعتناقي هذه الفلسفة!

*****

الفصل التاسع

كنت مدعواً على العشاء في الليلة السابقة عند صديقي جورج مونتكيو، وكان عشاء فاخرا حقا، وأستطيع أن أسميه عشاءً خاصاً أيضا ! لقد كانت المرة الأولى منذ أن تعرفت عليه قبل عدة شهور التي يقدم بها هذا النوع المميز من اللحم البقري! إن هذه هي أول مرة يقدم لي بها صديقي جورج "نيويورك استيك" مع البطاطا الحمراء المشوية، وقد سبقتها مقبلات غالية وفاخرة هي أيضا؛ فقد كانت عبارة عن فطر بالصلصة الحارة، فتحت شهية الواحد منا فأكل ضعف ما كان من المفروض أن يأكل ! ولقد شربنا قارورة كبيرة من النبيذ الإيطالي الفاخر المعتق، فأتينا على آخرها؛ ولو كانت هناك قارورة ثانية لأتبعناها لها !

- ما هذا الكرم والتبذير المفاجئ وغير المعقول يا جورج؟ قلت وأنا أمضغ بتلذذ فائق قطعة اللحم المضمخة بالبهارات والتوابل !

ضحك حتى بدت نواجذ طقم أسنانه الاصطناعي وقال:

- أريد أن أبرهن لك أنني لست بخيلا ورخيصا كما تعتقد، وأنني عندما أرغب فإنني أستطيع أن أقدم أغلى المأكولات والمشروبات لضيوفي. قالها بتفاخر وقد رفع رأسه إلى أعلى وحملق بوجهي.

كانت الأصناف التي يقدمها جورج للعشاء تنحصر عادة بالمعكرونة و "الهامبيرقر" الرخيص، والبطاطا الشعبية المسلوقة أو المشوية والأرز والفاصولياء؛ وعندما يبالغ بالكرم، كان يشتري أرخص أنواع اللحوم البقري التي تغصّ بالشحوم والتي ربما لا تختلف كثيرا عن لحم الجمل في الوطن الحبيب.

كانت هذه أول مرة أجتمع بها مع صديقي جورج، منذ أول يوم تقابلنا به، ولم نتجادل بالسياسة، ولم نتحدث عن الوطن وقضاياه؛ فقد قضينا عصر اليوم وطيلة الأمسية ونحن نتحدث في الأدب ونتناقش في مشاكله وقضاياه. ولأول مرة أيضاً، أتحدث إلى جورج فأشعر بالراحة والهدوء والاسترخاء؛ وليس بالتوتر والتشنج والانقباض، كما كان يحدث في كل لقاء.

لقد كانت أحاديثنا دائما نقاشات وحوارات ومعارك كلامية محتدمة وصاخبة، إذ كنت أحيانا أفقد السيطرة على أعصابي والتحكم بمشاعري، فأثور وأصمم على أن هذه آخر مرة أقابل بها جورج وأدخل شقته؛ ولكن سرعان ما أعدل عن تصميمي عندما يتبين لي أن ما يقوله عن الوطن هو حقيقة ناصعة، وأن نقده اللاذع المرّ للوطن وكل من به وما به، هو بسبب حبه له وغيرته عليه، وليس حبا بالهدم ومن باب التشفي والتدمير.

لقد امتد بنا الحديث في الأدب والفن والمرأة والحياة إلى ساعة متأخرة من الليل، مما حدا بصديقي جورج أن يطلب إلي أن أقضي هذه الليلة في شقته. لم تكن هذه المرة الأولى التي يطلب إلي بها جورج مثل هذا الطلب، ولكنها كانت المرة الأولى التي يطلب مثلها في وسط الأسبوع؛ إذ أن جميع الليالي التي نمتها في شقته، كانت ليالي نهاية الأسبوع. لقد نمت في شقته معظم ليالي نهاية الأسبوع؛ منذ تعارفنا، ليلتين معا، مساء

الجمعة ومساء السبت، ومساء الأحد مبكرا أعود إلى شقتي. أما أن أنام في ليالي وسط الأسبوع فهذا ما لم يحدث قبل هذه الليلة !

إن شقة جورج لا تبعد كثيراً عن مكان سكني، فجورج يسكن في مدينة" سانتا مونيكا "

وأنا أسكن قرب الجامعة في" قرية وست وود "، والمسافة بالسيارة بين السكنين تستغرق حوالي العشرين دقيقة؛ لكن المشكلة الكبرى التي كانت تواجهني هي أن محاضراتي تبدأ أحيانا في تمام الساعة الثامنة صباحا، وطرق أمريكا السريعة، وخصوصا كاليفورنيا، في مثل هذا الوقت المبكر من النهار، تغص بعشرات الآلاف من السيارات؛ إذ يبدأ الزحام المحموم من السادسة صباحا حتى التاسعة منه، تكون كل سيارة كأنما هي تدفعها أخرى من شدة الزحام، إذ أن هذا هو وقت ذهاب الناس إلى أعمالهم.

كان الأمر المتعارف عليه بيننا، هو أن الذي يتعشى أو يسهر في شقة الآخر، خلال الأسبوع، بأن لا يفكر بالنوم أيضاً، بل يضع في اعتباره بأن ينام في شقته حتى يتجنب عذابات الصباح؛ أما إذا كانت الدعوة تتم في عطلة نهاية الأسبوع، فمن المتعارف عليه، أن الداعي يتوقع أن المدعو سوف ينام عنده ليلتين. أما هذه الليلة فقد اقترح جورج أول الأمر أن أنام عنده وأن لا أعود إلى شقتي؛ ولما اعتذرت على الطريقة العربية وأعلمته أنه من الأحسن أن أعود إلى شقتي، صاح بي وقد شعرت أنه غاضب حقا:

- وهل أنت واثق بأنك ستصل الليلة إلى قرية وست وود سالماً، وأنك لن تموت على طريق سانتا مونيكا السريع؟ إنك لا تستطيع حتى أن تجلس على الكنبة دون أن تضطجع من كثرة ما شربت ومن شدة السكر؛ فكيف تستطيع أن تجلس خلف المقود وتسيطر على السيارة بين مئات السيارات المجنونة؟! ولما لم أقل شيئا أضاف:

- يحق لك أن تكون مريضا وتغيب عن المحاضرات يوما في العام !

كان جورج يشير إلى مقولة أخبرتها له في أول تعارفنا، وهي مقولة حقيقية، إنه ومنذ تعييني في الجامعة وحتى الساعة، لا أذكر أنني غبت يوماً واحداً عن المحاضرات، لا بسبب المرض ولا لأية حجة أخرى.

ما كدت أخلع ملابسي وألقي بنفسي فوق السرير، حتى شعرت بألم شديد ممزق ينساب في كل ذرة من ذرات أسناني! ألم ماحق مدمر لا أستطيع وصفه ولا أقدر على احتماله. لقد أحسست كأنما مستوطناً صهيونياً شرسا حاقداً، موتوراً، قد خرج لتوّه من رحم التلمود، يحمل مهدّة من تلك الأحجام الضخمة التي يكسرون بها الصخور العملاقة، وهو يضرب بكل حقده وعنصريته، ضربات عنيفة متواصلة ومتسارعة، فوق كل ضرس وعلى كل سن، ضربات بلا رحمة ولا هوادة ولا تردد ! لقد أحسست بأنني أفقد عقلي وأن زمام الأمور قد أفلتت من يدي، وإنه يجب علي أن ألقي بنفسي من نافذة الشقة وأموت لأرتاح من هذا الألم المتأجج!

كنت أجري في جنبات الشقة وأدور في كل زاوية من زواياها، كالكلب المسعور أو الجرذ المرعوب، أكزُ بوحشية على أسناني وأضرب بالجدار جبيني... أمزق بأصابع يدي شعر رأسي... ألقي بنفسي بقوة وعنف فوق السرير وعلى الكنبة وسجادة الأرض... أدفن رأسي بالمخدة... أضعه تحت حنفية الماء... أبتلع عشرات الحبوب قاتلة الألم... والوجع متواصل لا يتوقف ولا يخف، بل يزداد وحشية واستعارا وضراوة!

ومن خلال آلامي ومعاناتي وعذاباتي وتمزقي، لاحظت توجع وقلق صديقي جورج. وبعد أكثر من ساعة خلتها قرنا كاملاً، قبلت إلحاح صديقي بأخذي إلى أقرب مستشفى ! ما كاد كل منا يرتدي ملابسه ونستعد للمغادرة، حتى توقف الألم فجأة وكاملا، وحتى ظننت أن ما مررت به كان كابوساً مرعباً وليس حقيقة، فأيقنت أنني عدت من الآخرة وأن الله قد أحيا عظامي وهي رميم ! لقد لاحظت كأنما جبال ولسون التي يناطح علوها السماء، وتحتضن ضخامتها وامتداد مساحتها عشرات المدن المحيطة بها في جنوب كاليفورنيا، قد انزاحت عن كاهل المسكين جورج!

في تمام الساعة السادسة والنصف صباحا، ولكي أتجنب بعضاً من ازدحام السيارات، كنت أركب سيارتي في طريقي عائداً إلى بيتي، لأستعد وأكون في قاعة المحاضرات في تمام الثامنة.

كان من عادتي أن أخصص بضع دقائق من بداية كل محاضرة أتحدث بها إلى طلبتي، عن أديب أو شاعر أو فيلسوف أو مفكر عربي أو إسلامي، معاصرٍ أو قديمٍ، فأترجم شيئا من أقواله وأشرح بعضا من أفكاره؛ مما ولّد ولعا شديدا، ورغبة صادقة لدى طلبتي في حب المساق والمدرس والشرق الأوسط بصفة عامة.

كنت في منتصف المحاضرة، وكان الطلاب الاثنان والثلاثون يستمعون بانتباه شديد وشوق عميق لما أقول؛ فقد قرأت لهم بيتين اثنين فقط من قصيدة لعمر الخيام بالعربية، الذي طالما سألوني عنه، والذي ادعى بعضهم المعرفة بشيء من آرائه وشعره، وقرأ بيتاً أو شطراً يحفظه من شعره بالإنجليزية؛ وكنت أشرحها لهم بإسهاب وتعمق، كما فهمتها واستوعبتها. فسمعت طالبة تقول لجارتها بصوت عال، لم يخامرني أدنى شك بأنها تعمدت أن أسمع ما تقول، بسبب معرفتي بشقاوتها، وإدراكها لإعجابي الشديد الصامت بها!

- لا شك أن البروفيسور دهشان في شرحه لمعاني القصيدة وإبراز جمالها وعمق معانيها، قد فاق أصل القصيدة !

لقد شجعني قولها هذا على الاسترسال والإطناب في الشرح والتفسير وبيان جمالياتها، وكذلك التحليق مع الخيال في ملكوت السماوات العلى. لقد استبد بي وسرى في عروقي ودمي وعواطفي غرور الفحل العربي الذي توصل إلى قناعة تامة، من خلال تلميحاتها وتصريحاتها، بأن أنثاه المسحور بأنوثتها ورشاقة قوامها، المجنون بسحر حديثها ورخامة صوتها،والذي يلقي بناظريه إلى الأرض هرباً من سحر عينيها كلما نظرت إليه؛ المتلهف والمسعور لعناق جسدها؛ تتمنى لو يمارس معها فحولته ويخضعها لرجولته\ .

شجعني مدحها لي، على الاسترسال والتوسع في الشرح، والانطلاق مع أفكاري وخيالاتي، إذ أحسست منذ صباح اليوم الباكر، ولعله بسبب معاناة الليلة الماضية، أن لا قوة ترتفع بنا إلى عنان السماء سوى ألم عظيم ماحق؛ وأن لا شيء يجعلنا نتحد مع الخالق ونصبح واحداً، إلا إذا انصهرنا في بوتقة الألم وتحللت أرواحنا معها! فنشعر بنوع من التصوف العميق المتألق والشفافية الناصعة المرهفة؛ إذ إنني أنا نفسي لم أكن أعرف كيف كانت مثل هذه الكلمات تخرج من فمي، ولا كيف كانت الأفكار تتزاحم في مخيلتي، ولا كيف استطعت وفكرت وفسرت مثل هذا التفكير والتفسير...! لعلها ساعة وحي... ساعة إلهام... ساعة لقاء الخالق وجهاً لوجه !

"إلهي! قل لي من خلا من خطيئةٍ؟ وكيف ترى عاش البريء من الذنبِ؟

إذا كنت تجزي الذنب مني بمثله فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي؟!"

- إنني أيها الطلبة الأعزاء، أتصور عمر الخيام، هذا العبقري العملاق، وهو يمسك بقبضتي يديه الهزيلتين النحيفتين، والقويتين المتمردتين، قضبان حديد شبابيك السماء، والتي تقف في وجهه سداً منيعاً، وتحول بينه وبين الوصول إلى السماوات العلى ! انه يهزها بعنف ووحشية وشراسة، ويصرخ من أعماق قلبه وغور وجدانه، وبكل ما أوتي من طاقة وشجاعة وتحد، وهو يحدق بالسماوات العلى بعينين هزيلتين ذابلتين، ولكنهما شبقتان زائغتان، فيجأر إلى الخالق، جلّ شأنه وعظم مقامه ولا أله غيره ! أنت، أنت أيها العظيم المستوي على عرشك، المطل علينا من عليائك، والمتواجد بيننا مع كل ذرة أثير، القابض على مقاليد الكون، صغيرها وكبيرها، وتعرف أين مكان كل نملة وماذا تفعل كل هائمة ! أجبني وأرحني، أرجوك، أرجوك، كيف يعيش الإنسان الضعيف الضعيف مثلي، بذنوبه وخطاياه وعيوبه، والذي لا يتساوى مع أصغر شيء في هذا الكون، مع ذرة الرمل، وقد وضعت به كل هذا الضعف والرغبة والشبق والجوع والنهم للذات الحياة، ومتعها وعربدتها، وغرست في كيانه جنونه بالخمرة؛ هذا البحر المتلاطم والسيل العرم الجارف من الرغبات والشهوات! قل لي وحقك وجلالك وعظمتك، أستحلفك بحق كل من خلقت وما خلقت وله شأن عندك، كيف تتوقع مني، بل كيف تطلب إلي أن آنف بنفسي عن هذا وأترفع عن ذاك؟ أنت... أنت أيها الإله العظيم، يا خالق الأكوان والأرضين، والذي تتسع رحمته السماوات والأرض، ويحيط علمه بكل شيء، أرجوك، أرجوك! أرجوك! ارحمني يا إلهي ولا تحاسبني على خطاياي وذنوبي! أرجوك يا من جلّ شأنك تجاه هذا العبد الحقير! ثم أرجوك أن تخبرني، إذا كنت أنت بكل عظمتك وجبروتك وتدبيرك العظيم وإدراكك الذي أحاط بكل شيء، كيف تتنزّل من علياء عظمتك، وتحاسب مخلوقا مثلي، مخلوقا تافهاً... تافهاً! مخلوقاً هو حزمة من النقائض والضعف، حزمة من السلبيات والعقد، البسيط الحقير؛ إذا كنت ستفعل هذا معي؛ فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي؟ أرجوك... أرجوك... أجبني!

كنت قد انتهيت لتوي من قول آخر كلمة تفوهت بها، عندما أحسست بأن البركان صار يتململ، وأن الزلزال بدأ يقترب؛ فقد هبّ الألم بأسناني وأضراسي كلها معاً، كأعنف ما يكون وأشرس ما يتصور ! لقد شعرت بأن طبلتي أذني كأنهما كور نفخ يتمدد ويتقلص، يتقارب ويتباعد، استعدادا للانفجار وتطاير الشظايا، وشعرت معها أيضاً، بأن جمجمة رأسي قد صارت تكبر وتصغر، في عملية تحجيم وتكبير! إنه ألم قاتل... ترى هل وجع أسناني نذير شؤم دائماً، نذير شؤم بأحداث مفجعة قادمة؟

انطلقت من قاعة المحاضرات كالزوبعة، وحتى دون أن أنطق بكلمة عذر لطلبتي، ودون أن أجمع أوراقي وكتبي المبعثرة على الطاولة! لقد حشوت منديلي القماشي في فمي، وضغطت عليه بقوة ماحقة، كأنما أرجوه أن يوقف هذا الألم المحموم! لقد شعرت أن ألم اليوم أشد عنفا واشتعالا من الليلة الماضية، وأن مجرد التفكير بأن أمر بتجربة البارحة ترعبني وتهز كياني وتوقف شعر رأسي ! عدوت باتجاه مكتب السيدة " آن ولسن "، والتي كنت قد أعلمتها صباح هذا اليوم بقصة البارحة، حيث ذكرت لها رغبتي بزيارة

طبيب أسنان في عيادة الجامعة! ما كادت المرأة تراني مقبلا عليها، ممسكا فكي الأسفل بيدي، حتى ناولتني ورقة صغيرة كانت مركونة إلى يسار آلة الحاسوب، مكتوب عليها اسم الطبيب وساعة الموعد والدور الذي به عيادته ورقم الغرفة. لحق بي صوتها وهي تقول:

- إنه صديق العائلة. لقد رجوته أن يعتني بك عناية خاصة، لا تنتظر في الخارج! أدخل عليه حال وصولك. وأسرعت خارج العمارة، أسابق الريح، دون أن أنطق حتى بكلمة شكر !

*****

الفصل العاشـــــر

كان ذلك بعد بد ء العام الدراسي بأسابيع قليلة، عندما حضر إلى مكتبي في الجامعة طالب من الوطن اسمه رضوان الحوراني. لقد أعلمني هذا الطالب بأنه سمع عني الشيء الكثير؛ الذي يجعل الإنسان العربي والمسلم فخوراً بانتمائه ! أنه جاء ليتعرّف علي، وليهنئني على هذه السمعة الطيبة التي أتمتع بها بين طلبتي ومعارفي، وليشكرني على العطاء والتضحيات الجبارة، والنشاط المتوقد الدؤوب، لشرح وجهات نظرنا، نحن العرب، في قضايا الوطن ومشاكله السياسية والاقتصاديةوالحضارية ! وكذلك الصورة المشرقة الواعدة والمتفائلة التي أظهره بها أمام الأميركان! كما أعلمني أيضاً، بأن الطالبة سالي إركسون إحدى تلميذاتي في مادة "الشرق الأوسط في العصر الحديث" هي صديقة حميمة له ! لقد أخبرته هذه الطالبة، بأنني وأنا ألقي محاضراتي عن الوطن،كأنما أنا عاشق متيم، حرقني الشوق وأضناني الوجد ولوعني الفراق... أنني وأنا أتحدث عنه كأنما أتعبد في محراب حبه وأناجي طيفه، وأعيش مع عذاباته وأفراحه !

- لا شك أن الطالبة سالي من أذكى وأعمق الطلبة الذين درستهم طوال حياتي التعليمية. إن لديها طاقات جبارة من النشاط والحركة، وتتمتع بجرأة أدبية فائقة. إنني لم أقابل مثلها قط، ممن عنده قوة الشخصية والشجاعة الأدبية، حتى بين الرجال ! قلت وغرور الرجل وفحولته أمام إعجاب امرأة جميلة، فاتنة وذكية يدغدغ أحاسيسي !

- إنها فنانة... مرهفة الإحساس، رقيقة المشاعر، ناضجة التفكير، تفرض احترامها على كل من حولها، وحتى أساتذتها. ولكنني أعتقد أنها تبالغ جدا بالفكرة الرومانسية التي نسجتها حولي.

- قالت لي "بأن محاضراتك قصائد غزل... مناجاة.. .صلوات ابتهال في محراب معبودة هجرتك وتركتك وحدك تناطح الزمن، وتصارع الأيام. وأنك دوما تستحلفها بعشق الوطن وقدسيته أن تعود إليك، لأن برد الوحدة وصقيع الغربة، وزمهرير الضياع قد نخر جسمك حتى العظم" !

وبعد أن تمهل قليلا أردف :

- إنني أنقل إليك كلماتها حرفيا، وقد حفظتها عن ظهر قلب لكثرة ما سمعتها منها !

- كان من الممكن أن تكون سالي صديقتي أنا يا رضوان، لولا هذه اللعنة التي تطاردني منذ أن ولدت؛ وهي لعنة عشق الوطن والتغني بحبه ! لا شك أنك إنسان محظوظ، حتى خصك الله بسالي من دوني ! إن حب النساء يا أخي رضوان، ترف عاطفي ونهم جسدي ! ان قانون عشق الوطن لا يسمح لنا، نحن الذين ابتلانا الله بحمل همومه وأحزانه، والخوف عليه وعلى مستقبله، والتمزق أسى وقهراً على ما يحل به، أن ننعم بحب غير حبه وحب حريته، وأن نعاني صبابة غير صبابته !

نظر إلي رضوان نظرة حيرى، وكأنما يقول لي لم أفهم ما تعني. فأضفت:

- إن وطننا يا أستاذ رضوان يرزح تحت كابوس القهر والعبودية والتمزق، وفي كل يوم يتلقى أوجع الضربات وأقسى الهزات، وفي كل يوم يظهر طاغية جديد وعميل محترف، ، هذا بالإضافة إلى أن جزءاً منه يرزح تحت نير الاحتلال !

- إن سالي عازمة، وبسببك، على أن تأخذ الفصل القادم مساق اللغة العربية للمبتدئين ! إنها تحب أن تتزوج من عربي وتعيش في بلاد العرب، إذا كان كل رجال العرب يعاملون نساءهم، كما تعامل أنت طالباتك !

- وهل قالت لك كيف أعامل طالباتي؟ سألت وبي مزيج من الغرور والسعادة وحب المعرفة معاً. !

- بكل اللطف والاحترام والرقة ! إنك وأنت تتكلم مع الواحدة منهن، تشعرها بأنها أرق وأجمل بنات حواء، وإنها هي الأنثى الوحيدة على هذه الأرض التي تفكر بها. وأنك تحبها وحدها وتعيش من أجلها هي فقط !

انفجرت أضحك بحرارة وصدق، حتى استلقيت على ظهري، فقلت من بين ضحكاتي:

- الله الله! لا تقل هذا يا أخ رضوان، إذ أخشى أن أصدق ما تقوله صاحبتك فيصيبني الغرور، وأعتقد أنني هدية الله إلى نساء هذا الكوكب !

وبعد أن مسحت دموعي بمنديلي استرسلت:

- إن سالي تتمتع بشخصية قوية وجذابة، لها عقل واسع متفهم وقلب كبير صاف، إنها إنسانة رائعة.

اعتدل رضوان على كرسيه وتنحنح ليجلو حلقه. ثم خلع عويناته وأخذ يمسحهما بطرف قميصه.

- وبسبب ما شاهدتْه ولمستْه من معاملتك الفريدة لها ولبقية الطالبات أصبحت صديقتي، وكلي أمل أن نتزوج بعد التخرج من الجامعة، ونعود لنعيش في الوطن !

- يا لها من كارثة ! أية حماقة فعلت وأية جريمة ارتكبت !؟ آمل أن لا تعتقد طالباتي بأن كل رجال الوطن يعاملون نساءهم كما أفعل أنا ! قلتها بصوت عال ولكن بعفوية.

فقال رضوان وهو يبتسم:

- هذا شيء يفخر الإنسان به يا أستاذ. لأنها تبدل الصورة المشوهة التي رسمها الغرب لنا. هذه دعاية حسنة لرجال الوطن حيث تعتقد المرأة الأميركية أن الزوج العربي أكثر حضارة وأكثر احتراما لها من رجال قومها !

- هذا تضليل وتزييف للحقيقة. إنك تعرف أن معظم رجالنا يعاملون نساءهم كأنهن كمّ مهمل، ويعتبرونهن مجرد أوعية لتفريغ لبيدهم المحتبس؛ عدا عن أنهن مزارع لتفريخ الأطفال ! قلت بحماس واندفاع شديدين.

- إن ما تعلمته منك هو عكس ذلك تماما. إن الانطباع الذي كونته سالي، هو أن الرجل العربي يعيش مع فتاته قصة عشق متواصل لا يفتر، ومرور الأيام يزيده قوة واستمرارية ! هكذا بدت لها الأمور!

- ربما كان هذا حال من سبقونا من الآباء والأجداد. .. ولكننا نحن رجال اليوم نملّ المرأة بعد الوصال، ونهرب منها بعد وصالنا بها مرات قليلة ! قلت بحزن وحسرة.

لعل رضوان لم يسمع ما قلت، وربما تظاهر بعدم سماعه، أو لعله يريد أن يقول لي كلاما جاء من أجله ولا يريد سماع آراء فلسفية عقيمة تخرجه عن موضوعه.

- لقد أصبحت تعشق كل ما له صلة بالعرب والمسلمين، وتهتم بكل ما كتب ويكتب عنهم! إنها تقرأ كثيرا عن تاريخنا وحضارتنا وعاداتنا وتقاليدنا، وقرأت كتبا كثيرة عن الدين الإسلامي.

ثم نظر حوله، وخفّض صوته كأنما يريد أن يبوح بسر خطير يخشى أن يسمعه أحد في الغرفة سوانا. فهمس:

- إنها ستعتنق الدين الإسلامي، وسوف تتحجب وتصلي وتصوم !

- ليتها لم تفعل، ولم ترتكب مثل هذه الحماقة؟ قلت بانفعال وقد انقلبت سعادتي حزنا وفرحي غما !

- لم تقول هذا يا أستاذ؟! سألني بلهجة عتاب ممزوجة بالخيبة والألم والمرارة وانكسار الخاطر.

- أنا لا أحب الناس أن يغيروا دياناتهم السماوية، خصوصا إذا كان هذا التحول بسبب عشق آدمي. إن جميع الأديان، حتى غير السماوية منها، جميلة تدعو إلى الخير والمحبة والمساواة والإخاء والفضيلة، وتنهى عن العنصرية والبغضاء والشر والحقد

والكراهية والظلم والرذيلة. وإن عبث أهل التوراة بتوراتهم ووضعوا تلموداً لهم يدعو إلى البغضاء والاحتقار والقضاء على كل ما هو غير يهود ي ... !

وفتح فاه ليتكلم ولكنني سبقته:

- لقد تأثرت سالي بالتصرف الحضاري المؤدب الذي تعاملت به معها ومع بنات جنسها، بعشقي للوطن وهيامي به؛ وبحديثي عنه بطريقة رومانسية حالمة. إنها لا تعرف عن الوطن إلا ما رأته منك ومني، وما وجدته فيك وفي؛ ثم ما قرأته في الكتب ذات الأسلوب الجذاب المنمق، ولهذا فهي واقعة تحت تأثير رومانتيكية وسحر جميلين...! إنها تمر ولأول مرة في حياتها، بتجربة عاطفية لذيذة؛ ولكن الويل لي ولك عندما تستيقظ سالي من أحلامها، وتنقشع عن عينيها غمامة الأحلام والرومانتيكية، فيظهر لها وجهنا الحقيقي القذر والبشع !

- ألا تعتقد بأن الدين الإسلامي هو دين عظيم، يلبي متطلبات الإنسان في الدنيا والآخرة؟!

- ليس عندي ذرة من الشك. فلو كنت بلا دين وأبحث عن دين أعتنقه لما اخترت غير الإسلام ديناً. إن سالي لو ذهبتْ إلى الوطن لتعيش هناك، فإنها قطعاً ستصاب بخيبة أمل وصدمة مدمرة. قلت صادقاً وبحماس.

- ولم تقول هذا يا أستاذ؟!

- لأنها سترى التعصب الديني والتمييز الجنسي والعرقي، وسترى الجهل والجهالة وهما يتحكمان بمصائر الناس وتوجيه أقدارهم؛ وستشاهد أنّ بعضا من رجال الدين الذين بدل أن يخدموا رسالة السماء، يخدموا سلطة الحاكم؛ وبدلا من أن يدعوا إلى حب الله وطاعته والعمل وفق منهاجه، فإنهم يدعون إلى حب السلطان الجائر المستبد وطاعته! إنها سوف ترى كيف أن بعض رجال الدين قد وصلوا إلى درجة من المهانة والتذلل والتزلف للنظام ولمؤسساته القمعية التي استباحت كل مقدس، وداست على كل المبادئ والمثل العليا والقيم !

ماذا يكون جوابك لسالي إذا ذهبت إلى الوطن وشاهدت الإرهاب الفكري والقمع الجسدي؟!

- إذن ما الحل؟! هل تعتقد أنه يجب عليّ أن أتركها؟ سأل رضوان بقلق ولهفة.

قلت بإنكار وحماس شديدين !

- لا... لا... أبداً. دع سالي سادرة مع أحلامها، مستمتعة برومانسيتها، منطلقة مع خيالاتها وتهويماتها، تعيش فترات خدر فكرية وعاطفية؛ أحبها أكثر، زد عظماً في عينيها، إرقَ بها، اسمُ وحلق معها وفي سمائها، زد في احترامها، عاملها كما يعامل الإنسان الحضاري أنثاه، لا كما يفكر راعي الجمال! دعها تعش حلمها الجميل، وأفكارها العذبة وتخيلاتها الحلوة، ولكن إياك أن تأخذها إلى الوطن، إياك إياك أن تجعلها تمر بالتجربة ! إن المسيحي الصادق يدعو الله دائما أن يجنبه محك الاختبار المسلكي، مخافة أن يفشل في امتحان الله الأخير!

- إنك تقول أفكاراً خطيرة يا أستاذ ! إن سماع سالي لهذا الكلام سيسبب لها صدمة قاسية وخيبة أمل شديدة !

- ولهذا السبب أنا أنصحك ! لقد لاحظت من مراقبتي الشديدة لسالي واهتمامي بها، أنها تتمتع بحساسية مرهفة، وبخيال جامح، وعواطف نبيلة صادقة ... فإن خيبة الأمل ستقضي عليها، وستجعلها تكفر بكل ما عندهم من قيم وعندنا معاً !

لعل رضوان كان سارحاً مع أفكاره، حائراً محتاراً فيما قلته له. فقد لاحظت أن عينيه تدوران بقلق وتيقظ وأنهما تتبعان شيئا بداخله، لعلهما كانتا تطاردان أفكاره التي كانت تدور منفلتة في داخله، تتصارع حائرة، قلقة، ضائعة !

- ولمَ لمْ تأت صديقتك معك؟! سألته محاولاً أن أنتشله من حيرته، كما لاحظت أن موجة من الخجل قد كست وجهه وعلا جبينه بعض من قطرات عرق خفيفة.

- لقد ذهبت إلى المكتبة بعد أن أوصلتني إلى باب مكتبك، وتأكدت من وجودك بالداخل. ثم أحنى رأسه إلى الأمام ورمى بنظراته إلى الأرض متجنبا نظراتي وقال:

- هي خجلى من زيارتك. لقد أخبرتني بأنها حاولت كثيرا أن تجلب انتباهك لها وتثير اهتمامك بها، فشجعتك بالتلميح تارة والتصريح أخرى أن تكلمها أو تراها خارج المحاضرة؛ ولكنك...

- ألم أقل لك إن سالي جريئة وصريحة مع نفسها ومع الآخرين؟! قاطعته بحماس.

- نعم هي صريحة وجريئة جداً. إنها تجاهر بمعتقداتها وتصرفاتها ولا تخاف من أحد ! إنها تقول لي كل شيء وبمنتهى الصدق والصراحة ؛ فلقد قالت لي بأنك كنت دائما تتجنبها وتهرب من مقابلتها !

كدت أصيح به بكل طاقاتي، وقد بدأت ذكرياتي مع سالي تهزني بعنف كاد يبكيني "إن هذا ظلم وافتراء ورب الكعبة، وأن الذي حدث هو العكس تماما! لقد كان شوقي للقائها والجلوس معها والتحدث إليها خارج قاعة المحاضرات، أمنية عزيزة على قلبي وحلما جميلا طالما راود خاطري، ولكن..." وبدلا من أن أقول له هذا، وجدت نفسي أسترسل:

- هذا هو الفرق بين بناتنا في الوطن والبنات في الغرب، إذ أن الأولى تخجل من إظهار عواطفها وتعتبرها عاراً وسلوكاً محرما، تراها تعيش متناقضة مع نفسها، غير أمينة مع ذاتها ومخادعة مضللة لمن حولها ! بينما الثانية تبوح بعواطفها وتتحدث عن مشاعرها وأحاسيسها، وتعتبرها كنزاً جميلاً مقدساً، وكذلك حقاً من حقوقها !

ثم رطّبت شفتي بلساني وأردفت :

- أهنئك على هذا الاختيار العظيم والموفق ! إن سالي فتاة رائعة وذكية وعلى خلق عظيم ! إنها ذات شخصية قوية جداً، ومع ذلك لا تدع شخصيتها تلغي أنوثتها، كما يحدث لكثير من أمثالها !

- أنا لم أخترها، هي التي اختارتني! قال رضوان بغرور الفحل العربي الذي تطارده أنثاه !

- إياك أن تذكر هذا أمام الأهل في الوطن حتى لا يتهموا فتاتك بسوء الخلق والابتذال وانعدام الكرامة. إن مجتمعاتنا لا تسمح بأن تختار المرأة رجلها!

- لكن سيدتنا خديجة هي التي اختارت سيدنا محمداً ليكون زوجا لها ! قال ذلك معاتباً ومتهماً إياي بالجهل.

قلت بحماس شديد وقد هزت وجداني وكل كياني ذكريات رقيقة حلوة:

- هذا صحيح يا أخ رضوان. المسلمون قبل أربعة عشر قرنا، كانوا يفهمون الدين، وكانوا أنضج عقلا وأعمق وعيا منا نحن اليوم. كانت مكة والمدينة، وبعدهما بغداد ودمشق ومدنًا غيرها كثيرة، منابر ومنارات لنشر العقيدة ! كانت مشاعل وأسرجة لشرح المعاني والفتاوى والتفسيرات الدينية. كان جلّ همّ المسلمين في ذلك الوقت هو بلورة مبادئ الدين الإسلامي؛ وخلق الإنسان المسلم الحقيقي الواعي المتفاني في سبيل العقيدة ونشرها! كان هم الجميع هو إيجاد مجتمع إسلامي صادق ! لقد خرج الإسلام من الصحراء وانطلق مارداً جباراً أنار ظلمة العالم بأسره، فأدخل السعادة إلى قلب كل معتنق له، وبعث الأمل والرجاء في نفوس الذين استبد اليأس بنفوسهم، وسيطر الجهل والظلام على حياتهم ! ولكنهم اليوم قيدوه وكبلوه بالأغلال، وألقوا به في صحراء الربع الخالي ومتاهات تهامة وحفر الباطن ! لقد أعادوا نشر أفكار العصر الجاهلي؛ ومارسوا أفعال أهله...! لقد حكموا علينا بالتخلف والتردي، وسلبونا ديننا وحتى ماء وجوهنا! إن الفتاوى اليوم تخرج في معظمها عن جهلة مشعوذين يعيشون في عمق الصحراء، ويفكرون بعقلية العصر الجاهلي، ويمارسون علينا القمع الفكري والجسدي، ويحكمون على عقولنا بالتخلف والتردي !

هز رضوان رأسه إلى أسفل عدة مرات علامة الموافقة ، ولكنه لم يقل شيئاً ! ثم قال مغيراً الحديث بعد أن اعتدل في جلسته وتنحنح ليجلو حلقه:

- كنا حوالي عشرة من شباب الوطن، نجلس في مقهى الجامعة، نتناقش كالعادة في قضايا الأمة ومشاكلها، وكل يدافع عن انتماءاته العقائدية. كان بيننا الشيوعي والاشتراكي والرأسمالي والقومي والإقليمي وحتى القبلي، عندما تقدمت منا فتاة أميركية، ذهبية الشعر مرسلته على أكتافها كأنما هو شلال من ذهب، طويلة القامة بارزة الصدر جريئة الخطوات يضج جسمها بالأنوثة؛ واعتذرت لمقاطعتنا وقالت بصوت دافئ :

- لا بد وأن تكونوا طلاباً عرباً؟!

توقفنا جميعاً عن الكلام، ونهضنا واقفين ! حاول كل واحد منا أن يحظى باهتمامها وينال رضاها ويجذبها إليه، كل بطريقته الخاصة، إما بالحذلقة أو بادعاء العلم والمعرفة، أو بالأناقة أو الرزانة ! ونسينا مواضيع مناقشاتنا وحماسنا وانتماءاتنا أمام هذا البحر الزاخر من الأنوثة والجمال وقوة الشخصية ! وبعد أن سحبت كرسيا خاليا من الطاولة المجاورة وجلست ، صرنا نتسابق في سؤالها عما تشرب، وإذا كانت تريد قطعة من الحلوى مع شرابها؟ ولكنها اعتذرت بعدم رغبتها في تناول أي شيء، إذ إنها تريد منا شيئاً واحداً فقط، وهو أن نستمر بحديثنا، حيث إنها تحب أن تستمع لما نقول، وإن لم تفهمه!

- يا له من تصرف غريب وجريء أيضا! قلت.

- حقاً إنه تصرف عجيب وشجاع! قالها رضوان بحماس مما أوحى لي بأنه قالها افتخاراً بفتاته.

- وضعتْ كتبها أمامها على الطاولة ولم تقل شيئا، وأخذت تنقل طرفها بيننا وكأنها تبحث عن وجه مألوف افتقدته؛ فصار كل واحد منا يتحدث بالعربية تارة وبالإنجليزية تارة أخرى. بالإنجليزية عندما يريد أن يبلغها رسالة بأنه فيلسوف زمانه وعبقري عصره، وأنها يجب أن تكون صديقة له هو، ليريها طريقته الدنجوانية في الحب والغرام، ثم ليقدم

لها الكثير مما تحب وتهوى. ويتكلم بالعربية عندما لا يريدها أن تفهم ما يقول...! لقد كان بعضنا يضجّ بالضحك لنكتة غير محتشمة ألقاها أحدنا، حيث كان بعض الأخوة يتصرفون تصرف الذين لم يروا أنثى في حياتهم ! لقد كانوا يتمنون أمنيات بذيئة، ويطلقون تعبيرات نابية، تعبيرات تجعلك تتقزز وتقرف، فكلها تجرح الإحساس وتؤذي المشاعر !

- إن مجتمعاتنا تمنع اختلاط الشاب بالفتاة، وبعضها تحرّمه كما تعلم، فإذا حرم الشاب في صغره من إشباع عاطفته بالاختلاط بالفتيات وبالتحدث إليهن ومجالستهن، فإنه يظل متشوقا إلى المرأة، حتى لو تزوج عشرة منهن، وحتى لو تجاوز عمره المائة، ولم يكن باستطاعته ممارسة أي نوع من أنواع الحب معها ! قلت !

قلت بعد أن سرقت نظرة إلى ساعة معصمي. أما رضوان فاسترسل قائلاً:

- لم تفتح الفتاة فاها، ولم تتفوه بكلمة وكأنما انقلبت إلى خرساء فجأة، إذ كانت طيلة الوقت تنقّل طرفها بيننا، تتبع بعينيها الذي يتحدث تارة والصامت تارة أخرى ! في الحقيقة، إنني لم أفتح فمي بكلمة واحدة، وإنما جلست صامتا. كنت أسترق النظرات إلى وجهها. وبعد حوالي عشر دقائق نهضتْ ومدتْ يدها إلي، كأم تمدّ يدها لابنها الصغير ليمسك بها لأنها تنوي الرحيل. فقالت بصوت منخفض هادئ يضج بالأنوثة والعذوبة والرقة! وهي تخاطب الجميع:

- المعذرة يا سادة! أريد أن أتعرف على هذا الشاب الملتحي. يعجبني صمته وهدوءه !

وعلى طاولة في الجانب الآخر من المقهى جلسنا، وصارت تحدثني عنك بطريقة أذهلتني وحيرتني وأثارت في نفسي بعض الحسد والغيرة ! ولما سألتها عن عدم بوحها لك بما في صدرها قالت: بأنها فعلت كثيراً، ولكنك تجاهلتها، مما آلمها وأحزنها جداً. ولقد سألتها فيما إذا كانتْ تريدني أن أتوسط لها عندك، فأجابتْ بجدية وشبه غاضبة، بأنك قد انتهيت من حياتها كصديق، وإنها تفكر بك الآن كأستاذ لها فقط.

- لم أقابلك في العام الدراسي الماضي في حفل التعارف الذي أقامته منظمة الطلبة العرب في الجامعة! لا شك أنك طالب جديد هنا!

- نعم. لقد كنت السنة الماضية في جامعة "لونق بيش"، وقد حصلت على شهادة البكالوريوس في إدارة الأعمال منها. ونصحني الكثيرون بأن أتابع دراستي للماجستير والدكتوراه في هذه الجامعة.

- لا شك أنه اختيار موفق! بالمناسبة، فهل زرت الوطن منذ حضورك إلى أميركا؟

هزّ رأسه علامة النفي، وقد لاحظت فجأة سحائب الحزن والألم تغطي وجهه!

- إنني أحترق شوقا وأذوب حنيناً للأهل وللأصدقاء والناس هناك. أنا في شوق دائم وحنين آسر لا ينقطع لكل من في الوطن وحتى لترابه وأرضه وسمائه وأزقته الطينية...!

- إذن كيف ستتزوج سالي، وتأخذها وتعود بها إلى الوطن، وأنت ما زلت مطلوبا للنظام؟

- سنعود عندما ينتهون ويأتي غيرهم! إنهم ليسوا مخلدين. لا أحد مخلد على وجه الأرض! قال رضوان وكأنما ليريح ضميره ويقنع نفسه.

لاحظت أن رضوان قد ازداد انقباض صدره وتبدلت أساريره، إذ ربما يكون قد أساء تفسير ما عنيت، فجرحت شعوره عن غير قصد مني، فأحسست بندم شديد !

- إن خدمة الوطن والدفاع عن حياضه لهما أقدس واجب وأشرفه، وأنا لم أهرب من خدمة الوطن، ولكنني هربت من خدمة الحاكم! هناك فرق شاسع بين الخدمتين!

فتحت فمي لأعتذر له ولأعلمه بأنني أتحدث عن فكرة الهروب من خدمة الوطن كفكرة عامة ولست أعنيه في ذلك، ولكنه تابع كلامه دون أن يعطيني الفرصة للدفاع عن نفسي!

"آه يارضوان ، إنك تثير حنقي وشفقتي معاً! لقد صار لك أربع سنوات في أميركا ومفاهيمك للشرف والفضيلة والصدق والاستقامة والأخلاق، هي هي لم تتغير! ماذا تظن ابنة الغرب التي تتألق جمالاً، وتتوقد أنوثة، وتفيض شباباً وحيوية، ومعها رجل في مثل سنها يلازمها شهرا كاملا، معظم وقتها، وكلاهما عازب وغير ملتزم، وهو لم يقبلها، ولم يلمس يدها، وربما لم يقل لها كلمة رقيقة! أنا معك أن الناس في الوطن يقيّمون الرجل الشريف النبيل ويحكمون عليه بضبطه لأعضائه الجنسية ولتصرفاته من خلالها، ولكن الشرف هنا في العالم الغربي، يختلف اختلافا كاملا! من يدرينا أن سالي قد بدأ الشك يساورها بأن هناك خللاً في رجولتك؟! ومن يدرينا أيضا بأنها قد توصلت إلى نتيجة، بأنها تصادق فتاة مثلها، وأن من تصادقه هو فتاة بهيئة وملابس رجل!"

- وهل تخشى أن تفسد وضوءك إن لامستها؟ سألت رضوان مازحا وقد تصنعت الضحك.

- الذي يرى هؤلاء النسوة وتبرجهن لا يستطيع أن يحتفظ بوضوء من وقت صلاة لأخرى. أنا لا أؤدي فرض الصلاة إلا إذا كان المكان خاليا من النساء. إنني أدخل غرفتي فأغلق الباب فأتوضأ وأصلي. وإذا خرجت خارج الغرفة فأعتبر أن وضوئي قد بطل، لأن مبطلات الوضوء تجدها هنا في كل ما يحيط بك !

- معك حق. إنه لمن الصعب جداً على المسلم الملتزم أن يحافظ على متطلبات إسلامه في هذا البلد. قلت مجاملا.

- وهل تصلي يا أستاذ سهيل؟

في الحقيقة أن سؤاله فاجأني وأربكني معاً! كنت كمن أمسك صديقه في فراش زوجته!

- نعم، كنت أصلي! قلتها بغضب وتحد.

"نعم يا رضوان! كنت أصلي جميع الأوقات حاضراً، وفي المسجد ، ومنذ أن بلغت العاشرة من عمري ، حتى صلاة الفجر كنت أصليها هناك، بل أكون أمام باب المسجد قبل أن يفتح الشيخ عطا، خادم المسجد، عليه رحمة الله، باب المسجد للمصلين ! كنت أساعده بإغلاق باب المسجد بعد الانتهاء من صلاة العشاء، وكنا نحن الاثنين آخر من يغادر المسجد! نعم يا رضوان؛ كنت أصلي في اليوم ما ينوف عن مائة ركعة. وربّ مكة التي فقدت ثقلها وتألقها بسبب ضعف المسلمين وتخاذلهم! كنت أرتل القرآن كل يوم لساعات، وكنت أتعبد الله آناء الليل وأطراف النهار! أما اليوم يا رضوان، فنحن نصلي صلاة من نوع آخر، صلاة كان يصليها أجدادنا زمن الجاهلية وقبل الإسلام ! إننا نصلي اليوم ونتعبد بين سيقان الحسناوات وفوق صدورهن. إنها صلاة غير التي علمنا إياها آباؤنا وأمهاتنا، صلاة علمنا إياها عبدة الرب الجديد. صلاة تقطف ثمارها وتنعم بلذاتها

وأنت هنا، على الأرض، وليست بك حاجة لأن تنتظر حتى يوم الحشر لتحصل على الأجر والمكافأة ؟!"

- ولم انقطعت عن الصلاة هنا في أمريكا ما دمت أنك كنت تصلي هناك في الوطن؟! وقبل أن يسمع جوابي أضاف:

- كثيرون يكونون متدينين ويصلون في الوطن، ولكن بعد أن يصلوا إلى الغرب يتركون الصلاة وينسون الدين وكل ما تربوّا عليه من قيم وأخلاق وتقوى؛ إذ تبهرهم حضارة الغرب ويسحر ألبابهم جمال بناته وإغراؤهن، فينسون كل قيمهم الإسلامية، وينغمسون في شرب الخمر وطلب المتعة، واتباع الشهوات ومطاردة النساء !

ونظر إلى وجهي نظرة جادة كأنما يريد أن يقرأ ملامحي، إذ لعله خشي أن يجرح مشاعري ويسيء إلى معتقداتي، فأضاف مستدركا، وقد خفّت حدة لهجته:

- آسف يا أستاذ دهشان! أنا واثق، من الطريقة التي تحدثت بها سالي عنك، أنك لست واحدا من هؤلاء الذين ذكرت. إن سبب هذا التصرف هو الجهل وعدم النضج. أنت إنسان حكيم وعاقل وناضج.

شعرت فجأة بأنني قد تحولت إلى قطعة متأججة من العواطف الموارة، فقد أثار حديثه في نفسي شجونا وآلاما كانت مختبئة في أعماقي منذ سنين طويلة.

- صدقني يا أخي رضوان وأقسم لك ؛ إن عقيدتي الدينية اليوم، هي أقوى وأعمق بكثير مما كانت عليه في الوطن ! إنها أكثر وعيا وإدراكا لما كنت عليه قبل سنوات. إنه بسبب هذه الحرب الضروس التي يشنها علينا أعداء الله وأعداء الإنسان وأعداء كل الأديان السماوية. إنهم أعداء لكل ما في هذا الكون من قيم وأخلاق! إن لانقطاعي عن أداء فروض الصلاة قصة طويلة، قد أقصها عليك يوما !

وهنا رن جرس الهاتف، فاعتذرت من محدثي، ورفعت السماعة:

- لا. أنا لم أنس ذلك يا سيدة ولسن، صدقيني أنا مهتم جداً بتحقيق رغبتك! لقد وعدتني زوجة صديق عربي أن تعيرني ما عندها، وسأمر ببيتهم اليوم أو غدا لأحضر لك طلبك.

قلت لجليسي بعد أن أغلقت السماعة :

- إنها سكرتيرة القسم، أعطاها زميل لزوجها قبل عامين، وكان عائدا لتوه من لبنان، شريطاً عليه بعض الأغاني لفيروز، ومنذ ذلك اليوم وهي مصابة بنوع من الهوس، إذ لا ترى واحداً من الوطن، أو من هو ذاهب إليه، أو عائداً منه، إلا وتسأله عن أشرطة لفيروز ! حتى إنه يتواجد عندها أحيانا، عدة أشرطة لأغنية واحدة ! إن أجمل هدية يقدمها لها إنسان هي شريط عليه أغاني لفيروز ! لقد أهديتها أنا نفسي عدداً منها.

- أعتقد أن طلبها عندي.

- صحيح؟! سألت بفرح لاهب.

- نعم، صحيح! هل تعرف يا أستاذ دهشان، إن لفيروز عشاقاً كثيرين في أميركا وأوروبا... وبلاداً أخرى خارج الوطن العربي؟! إنهم يستمعون إليها كنوع من التعبد... التصوف ... ! التهجّد... !

- نعم. لقد قامت فيروز وغيرها من الفنانين العرب، بدعاية رائعة للوطن، أكثر بكثير مما قدمته جميع وزارات الإعلام والسفارات العربية مجتمعة ! لقد كانت أحد

الأسباب التي جعلت الكثيرين من الأجانب يهتمون بقضايانا ومشاكلنا القومية والمصيرية. يحبون بلادنا ويعشقون حياتها ورومانسيتها. في حين كرّهت أفعال الكثيرين تصرفاتهم الساقطة المشينة، العالم بنا، فجعلته يحتقرنا ويمقتنا ويلعننا !

- في الجامعة التي أتيت منها تعرفت على أستاذ لغة إنجليزية اسمه جورج مونتكيو. إن هذا الرجل يهيم تدلها بصوت فيروز، وعنده تقريبا كل أغانيها، بالإضافة إلى أنه يحب لبنان كثيرا فيبكي أحيانا من شدة غيظه وقهره على ما يحل به من قتل وتدمير وحرق! لم أقابل عربيا، حتى اللبنانيين أنفسهم، من يتوجع للبنان كما يتوجع هذا الرجل ! إن هذا الأستاذ الفذ النادر، أمضى أكثر من عشرين عاما يعمل في دول الخليج ولبنان؛ كما زار جميع بلدان المشرق العربي. لقد قابل الكثيرين من زعماء الوطن، وأقام صلات مع العديد منهم ! إنه مثقف عميق، وواع وجريء، ملم إلماما واسعاً بقضايا الوطن ومشاكله السياسية منها والاجتماعية والدينية. إنك ستسعد جدا بمعرفته وستتعلم منه الشيء الكثير. إنه بحر زاخر من المعرفة في جميع الميادين، ومحدث شيق جداً.

- هل خطبت سالي من نفسها؟ أعني هل وافقت على الزواج منك، وقبلت أن تذهب وتعيش معك في الوطن بعد الزواج؟ أعني هل عندها استعداد أن تعيش في إحدى دول العالم الثالث؟

- حتى الآن لم أفاتحها بالزواج، ولم نتحدث في هذا الموضوع، لا من قريب ولا من بعيد!

- ومن الذي أوحى إليك... أعني من الذي أعطاك الفكرة بأنها ستقبل الزواج منك، والقبول بالذهاب إلى الوطن والعيش به؟ لقد نسيت أنك لست بالوطن، وأنك تتعامل مع فتاة غربية وليست عربية!

لا شك أن سؤالي حيره، وربما فاجأه أيضاً!

- لا أحد! لقد اختارتني أن أكون صديقاً لها، فليس من المعقول أن ترفض الزواج مني! قالها باستغراب واستنكار معاً.

- لا تأخذ الأشياء كأمر مسلم به يا صديقي. أنا أعرف فتيات يعاشرن شباباً لسنوات عديدة، ويعيشون كزوج وزوجة؛ وعندما يطلبوهن للزواج يرفضن!

هزّ رضوان رأسه، وكأنما يقول لي، معك حق فيما تقول!

نظرت إلى ساعتي فإذا هي دقيقتان بعد الواحدة، فنهضت كالملدوغ؛ وقلت لرضوان وأنا ألتقط بعض الكتب وملف المحاضرات من على طاولتي:

- لقد سرقنا الوقت يا أخ رضوان... الحديث ممتع وذو شجون... لقد بدأت محاضراتي قبل دقيقتين، وأنا دائما في قاعة المحاضرات قبل الوقت بدقائق. ومددت يدي لوداعه وأنا أقول:

- تعال لزيارتي كلما سمحت لك الظروف، وأحضر سالي معك.

- ألا تريد رقم هاتف السيد جورج مونتكيو؟ سألني وهو يمد يده استجابة ليدي الممدودة.

وسحبت يدي ومددتها إلى جيب جاكيتي الداخلية وأخرجت قلماً:

- اكتبه على غلاف هذا الكتاب.

وأسرعت الخطى نحو قاعة المحاضرات، وما زال في ذهني حديث هذا الشاب الواعي المثقف... حديث المشرد عن وطنه وأهله. إنه نموذج للشباب العربي المغترب المقموع المطرود من وطنه لغير سبب، سوى إنه يعبد الله ويؤدي شعائر دينه، ويعشق الوطن وترابه، ويحاول أن يحميه من أعدائه في الداخل والطامعين به من الخارج!

كنت أشعر، ورضوان الحوراني ينقل إلي ما قالته عني طالبتي سالي إركسون، بأن كل ذرة في جسدي، وكل خلجة من خلجات نفسي، تضجّ بالسعادة وتمور بالفرح! لقد وصلت أحاسيسي إلى قمة السعادة والطرب والانسجام، وعانقت روحي سماء الفخر والاعتزاز ! إن ما تقوله سالي عن شخصيتي وتفكيري وتصرفاتي، وما تعتقده بمحاضراتي وأسلوبي، وما فعلته وما ستفعله بسبب ما سمعته مني، وما عكسته أفعالي عليها، جعلني أحسّ بالدفء والخدر اللذيذين ! لقد تعملقت فحولتي وتألقت رجولتي، وأنا أستمع لوصف ما تقوله عني أنثى... ساحرة... دافئة... جريئة... ذكية... ومثقفة ! لقد أشبع غروري، وفي ذات الوقت أجج شبقي وزاد في سعار شهيتي للمرأة ولجسدها...! ألست شرقيا جائعا محروماً شرهاً، خرج لتوه من قمقم المعاناة والحرمان والقحط الجنسي والعاطفي، وترك خلفه، هناك في الوطن، بحاراً بل محيطات من الصقيع والزمهرير والبرد، وصحارى شاسعة من السراب واليباب والهجير؟! ثم عدّل الخالق من خطة قدري فأجاد عليّ وتكرّم بخيراته ونعمه بعد أن نقلني إلى جنة خلده... جنة أميركا، فسربلني بفاكهتها المحللة والمحرمة معاً...؟!

لقد رتعت في موائد الأجساد الناعمة الغضة، وعببت من رحيق الشفاه المزمومة الثائرة، ونهلت من عبير الأنفاس العطرة، وتهت بين أحضان الحسان الدافئة، وعانقت الصدور المملوءة النافرة، وغصت بين السيقان اللدنة العاجية...! على الرغم من كل ما وهبني الخالق من جزيل عطائه، إلا أنني أحسست بالغيرة الشرسة الموجعة، ورضوان يحدثني عن طالبتي السابقة، سالي إركسون، فمزق قلبي ندم جارح وأسى قاتل، على حماقتي وجبني وترددي، فثرت على قدري واحتقرت تخاذلي !

لقد تعلمنا ورسخ في عقولنا ومنذ أن ولدنا، بأن نفوّض أمورنا إلى الله، ونسلّم له في كل شأن من شؤون حياتنا، وطبقاً لما تربيت عليه، فقد تركت للقدر حرية التصرف بدفة سفينتي، ورضيت عن قناعة وغبطة معاً، بأن يكون ربانها ومسيرها ! لقد تمددت على ظهري واسترخيت، ثم رحت أغط في سبات عميق وأحلام وردية، إذ أيقنت بأنه سيختار لي الأحسن والأنسب، وهو أن أعيش حياة طهر ونقاء وعفة ... ولكنه جلّ شأنه، ولسبب لا أدرك كنهه، اختار لي غير ما كنت أرجو، ومنحني غير ما كنت أبتغي وأنشد، وألهمني أن أسير في غير الطريق الذي ظننت به سعادتي وراحتي وهنائي...! فله الحمد على قضائه وله الرضى بحكمه وأقداره .. .!

لقد أضعت بغبائي وجهلي وتفاهتي، فرصة من فرص العمر التي لا تعوض، والتي لن يجود الزمان بمثلها أبدا ! لقد كان من الممكن جدا، بل كان من المؤكد حقا، أن تكون سالي إركسون فتاة سهيل دهشان، وليست صديقة رضوان الحوراني، لولا عقم معتقداتي ورعونة تصرفاتي...!

كان من المفروض أن نكون، سالي وأنا، صديقين حبيبين بل عاشقين حميمين متيمين ببعض، نعبّ من نهر الحب المتدفق، فنسكر من خمره المقدس، وننعم بلذاته

وسعاداته، ونتفيأ ظلال خمائله..! نعم، كان من المفروض أن نكون في هذه اللحظة عاشقين، ملتصقين متلاحمين؛ ولكن الواقع الآن هو العكس تماماً، فهل من الممكن والمعقول أن يتكرم الخالق ويجود علينا بأن يعيدنا إلى بعض ثانية، وأن نصبح عشاقاً، كما كان من المفروض أن نكون؟! من يدري! نعم من يدري؟! إنه على كل شيء قدير!

*****

الفصل الحادي عشر

كان أول يوم لبدء الفصل الدراسي، وكانت أول محاضرة عندي لمساق " الشرق الأوسط في العصر الحديث" ! كنت كعادتي منذ أن بدأت التدريس، قد قدمت نفسي لطلابي: اسمي وجنسيتي، وتحصيلي العلمي، وأين درست ودرّست، ووضعي الاجتماعي، وكل ما أعتقد أن الطلاب يجب أن يعرفوه عني أو يحبون معرفته، حتى تتوحد لغة التخاطب بيننا، وحتى لا يكون هناك حيرة وتساؤل في الخلفية والسيرة الذاتية ! بعدها أعلم الطلاب أنني على استعداد للإجابة على أسئلتهم فيما يتعلق بشخصيتي !

عندما أجيب على كل ما يوجه لي من أسئلة، أنتقل عندها فأحدثهم عن طبيعة المساق، وما الذي سندرسه خلال الفصل الدراسي والذي هو أربعة أشهر ونصف. البحوث التي أتوقع منهم القيام بها، وكذلك الامتحانات والكتاب أو الكتب المقررة والمراجع التي من الممكن أن يستعينوا بها و... و... إلخ، ثم أجيب عن ما يلقى علي من أسئلة بهذا الخصوص. بعدها أعلم الطلاب بأن أول محاضرة ستبدأ اللقاء القادم ! إنني أقصد من ذلك حتى يستطيع الدارس أن يقرر بينه وبين نفسه، إن كان يريد أن يستمر بهذا المساق، وإنه يرضي مطلبه، أو أن يتركه إلى مساق آخر يجد به ما ينشده.

ولست أدري إن كان لسوء حظي أو لحسنه، أو إن كنت يجب أن أفرح أو أغضب، فقد كنت دائماً أستقبل في اللقاء الثاني طلابا جدداً بدلاً من أن أفقد بعض الذين حضروا في المرة الأولى. ومرة أخرى، لست أدري إن كان هذا يدعو للفخر، فإن صفوفي دائما تكون مزدحمة، ونادرا ما سجل دارس لمساق أدرسّه فغيّر رأيه والتحق بمساق آخر ! ولا بد من

أن أسجل هنا حقيقة واضحة، بأنني كثيرا ما كنت أضطر تحت إلحاح الدارسين، أن أطلب من قسم التسجيل أن يرفع عدد طلاب المساق المقرر إلى أكثر مما هو مخصص له !

كان أول لقاء لي مع الدارسين، وكنت قد وضّحت لهم كل شيء عن المساق، وأجبت عن أسئلتهم، وسمحت لهم بالانصراف.كانت أغلبيتهم قد غادرت القاعة وتلكأ البعض منهم والتفوا حولي، يمطرونني بأسئلتهم، يستوضحون عن أمور شتى !

لقد لاحظت، وأنا أجيب على أسئلة الدارسين المحيطين بي، أن الطالبة التي كانت تجلس على المقعد والموجودة أمام المسند الذي أتكئ عليه أ ثناء المحاضرة، لم تبرح مقعدها! لقد كانت تراقبنا صامتة تستمع لما نقول وتنقل نظراتها بين المتكلمين، فيتجهم وجهها أحيانا، وفي بعض الأحايين تتسع حدقتا عينيها، طبقا لتأثرها وانفعالها لما تسمعه منا عن وصف لحالات الوطن ومعاناته !

كنت في المرات التي نظرت بها إلى وجهها لاحظت بأنها كانت عادية الجمال، بسيطة الأناقة والجاذبية، ولكن حالما انسحب جميع الطلاب من حولي وبقينا وحيدين، وانزاح عن كاهلي ضغط الأسئلة المتلاحقة وأحسست ببعض الاسترخاء والهدوء، ثم بعد أن نهضت هي من مقعدها، أدركت أنها تحفة فنية أبدع الخالق تكوينها...!

لقد لاحظت أنها تتمتع برشاقة فائقة، وقسمات وجه متناسقة صافية، وسحر في العينين عظيم. وكذلك أدركت بأن رشاقتها تفوق رشاقة الغزال البري، خصوصا عندما تتلفت ذات اليمين وذات الشمال ! لم تكن رشاقتها من النوع الذي تستطيع أن تعبّر عنه بالقلم أو باللسان، وإنما تحسه وتعيه وتستوعبه بمشاعرك وعواطفك وعقلك أيضاً !

إنني كإنسان رأى وعلى الطبيعة، أجسام نساء من شتى المحاسن والأعمار، وكرجل يعرف مواقع الجمال والمفاتن في مخلوقات الله، وشاهد معارض عديدة للرسم والنحت والتصوير، وقرأ الكتب العديدة النقدية، فإنني عندما وقفتْ سالي إركسون أمامي بقامتها المديدة الرشيقة، وابتسامتها الرقيقة الناعمة، أدركت أنني أمام صرح شامخ من الجمال والأنوثة !

لا أدري لماذا لم أستطع تفسير هذه الظاهرة، وهي أنني عندما نظرت إلى هذه الحسناء لم أنظر إليها كما اعتدت أن أنظر إلى كل فتاة جميلة أقابلها أو أتحدث إليها؛ كانت دائماً نظرات كلها نهم وشوق، أعريها بمخيلتي ثم ألبسها ثم أعريها وألبسها ثانية.. . أما هذه الفاتنة فقد نظرت إليها كما ينظر فنان محترف إلى موديل استحوذ على تفكيره وأحاسيسه معاً، فعزم على رسمه أو نحته أو تصويره ! لقد أحسست أن صورتها أشبعت عواطفي وأحاسيسي، وروت ظمأي وجوعي معا !

نهضت من مكانها وخطرت نحوي بخفة ورشاقة وحيوية، يسبقها سحر وأنوثة وعطر أخاذ، فأحسست أنني أحيا في عالم من الترف والفتنة والجمال...! وبعد أن حيتني قالت وهي تمد يدها لمصافحتي وابتسامة حيية ومؤدبة تعلو شفتيها الرقيقتين القرمزيتين.

- اسمي سالي إركسون، من مدينة "سياتل" عاصمة ولاية "واشنطن"، طالبة ماجستير علوم سياسية. هذا أول أسبوع لي في كاليفورنيا، وهذه أول محاضرة لي في هذه الجامعة، وأنت أول أستاذ أحضر محاضرته.

رحبت بها ويدي اليمنى تعانق يدها الممدودة لي، بينما ربت بيدي اليسرى بلطف ورقة على ظهر يدها عدة مرات، مبالغة في الحفاوة والتكريم، واحتراما للجمال وللشخصية معا، وقلت:

- آمل أن تجدي في هذا المساق ما تنشدين، وأن تكون طريقتنا في المحاضرات والبحوث لا تختلف عما تعودت عليه في السابق. وكذلك أرجو أن تعجبك كاليفورنيا وتسعدي بها. ثم ابتسمتُ وأضفت:

- أما نحن فنأمل أن ننال رضاك ونحظى باهتمامك!

أشرق وجهها وتألقت عيناها وابتسمت ابتسامة أحسست بعدها كأنما أعطيت إبرة مخدر نقلتني إلى عالم مخملي وردي !

- أظن أنني سأفعل. قالتها بحماس وثقة مصاحبة بهزة من رأسها ثم أردفت:

- إن طموحاتي هي أن ألتحق بوزارة الخارجية وأخدم في إحدى سفاراتنا في الشرق الأوسط.

- أتمنى لك النجاح والتوفيق. أعتقد أنها طموحات عظيمة ومتواضعة أيضا وليست صعبة التحقيق. قلت صادقاً وعيناي تتأملان العنق الطويل والصدر الأتلع.

- إن الذي حيرني وأثار استغرابي، أنك وأنت تتكلم عن وطنك، تتحدث عنه وكأنما العالم بأسره يعمل على تدميره وتمزيقه واستلابه وطردكم منه! قالت بصوت حنون هادئ رزين، وفيه أيضاً نغمة حزن وألم!

- هذه هي الحقيقة يا آنسة سالي. منذ أن وجد الغرب وهو يستعمر وطننا وينهب خيراته وثرواته، فيعتبرنا ويتعامل معنا كأننا حيوانات أو حشرات، يستعبدنا ويحاول بجميع الوسائل، وبكل ما يملك من طاقات أن يمنع عنا العلم والمعرفة، ويبقينا في غياهب الجهل والتخلف، مع أننا نحن الذين علمنا الإنسان الحرف ... ونحن الذين أنرنا عقله، وشرحنا له معاني الفلسفة والحكمة ... وفتحنا قلبه على المحبة والإخاء والمساواة، وعلمناه معاني الحرية والديموقراطية، ومفهومهما التطبيقي وليس النظري ... ! اننا كذلك علمناه أصول التشريع ومبادئ الشرائع وحتى قيادة الشراع، وعلمناه أيضا كيف يزرع الأرض ! قلت بحماس وتأكيد وعفوية.

ولما لاحظت أنها تصغي بانتباه وتفكير عميقين، تشجعت واستطردت:

- ولما حاولنا إيقافه عن غيه وإقناعه بأن يتعامل معنا معاملة الند للند، بدأ بتمزيق وطننا، فأعطى لواء الاسكندرونة لتركيا، وأعطى فلسطين والجولان وجنوب لبنان للإسرائيليين. إنهم في كل يوم يقضمون جزءا منا، فنصغر ونصغر ونصغر ! أخشى أن يأتي اليوم الذي لا يجدون به ما يقضمون، ونكون نحن قد التحقنا بالبلدان التي تتقاسمنا فنصبح جزءا منها وعبيدا لها !

وهنا التفتت سالي حولنا، ونظرت أنا إلى حيث تطلعت،فوجدت أن المقاعد في القاعة قد احتلت ولم يبق منها فارغا إلا واحد أو اثنان، وأن جميع الطلبة يحملقون بنا ويستمعون إلى مناقشاتنا بصمت واهتمام شديدين، ثم لاشك بأنهم ينتظرون مني أن أبدأ المحاضرة.

- أنا آسفة جدا يا بروفيسور دهشان. قالت بصوت خجول وهي تنظر إلى ساعتها!

- لقد تجاوزت العاشرة بثمانية دقائق، وأرى أنه قد تكامل عدد طلاب فصلك الثاني. أرجوك اعذرني! إلى اللقاء في المحاضرة القادمة.

لاحظت أن حمرة شديدة قد علت وجنتيها، وأن تورد خديها قد خالطه بعض من زرقة الخجل، فقلت بحماس وصوت مرتفع لأنقذ الموقف:
- إلى اللقاء. سنكمل حديثنا عندما أراك بعد غد. وأضفت بعفوية وبالعربية (إن شاء الله).
أدارت ظهرها، فشعرت كأنما غزال كان يتثنى ويتبختر فجفل. غابت خلف الباب بكل أنوثتها وسحرها وعطرها أيضا، فتمنيت لو أنها لم تذهب فتبقى لتحضر المحاضرة التالية !
كنت قد ذكرت للطلبة أن عندي هنا وفي هذه القاعة نفسها محاضرتين متتاليتين، وإنه في إمكان أي طالب إذا اضطر، ولأسباب خارجة عن إرادته، أن يحضر المحاضرة الأخرى شريطة أن يتوفر المقعد، وأن لا يجعل هذا حقا مشروعا له، وكذلك أن لا يتجاوز المرتين أو الثلاث مرات خلال الفصل كله.
*****
في اللقاء الثاني، ازداد عدد طلاب فصل سالي اثنين، طالب وطالبة. لقد أعلمتني الطالبة الجديدة، بأن صديقها "دنيس "، الواقف إلى جانبها الآن والمتشابكة يداهما معاً، قد أخبرها بأنها ستخسر الكثير الكثير إذا لم تنضم إلى مساق البروفيسور دهشان ! والآن، وقد استمعت للمحاضرة الأولى، فقد وجدت أنه كان مصيبا جداً، ففي محاضرة واحدة فقط، تعلمتْ ما لم تتعلمه في شهور، وإنها في غاية السعادة أن ألغت مساقا آخر لتأخذ هذا المساق، على الرغم من أنها تأخذه اختياراً ولا تحتاجه للتخرج، فهي تدرس تربية لتكون مدرسة للأطفال !
على الرغم من أن هذا المديح قد أسعدني، إلا أنني تساءلت، إن كان هذا الصديق مؤمن حقاً بما يقول، أم أنه زين لها ذلك لتكون إلى جانبه ثلاث ساعات أخرى في الأسبوع !
- وكيف قال هذا، وهو يأخذ المساق معي لأول مرة؟ سألت بحيرة !
- لأنه سمع العديد من طلبتك يمتدحونك كثيراً. ثم ابتسمتْ بخبث وأضافت:
- الذين امتدحوك هم جيرانكم وأولاد عمومتكم طلبة من إسرائيل!
- وماذا يطمح إنسان عربي أو مسلم من دنياه، في هذه الأيام، حاكماً أو حتى مفكراً، أكثر من أن ينال رضى يهودي فيمدحه ! إنه وسام يعتز به ويفخر ! باللعار !
- ماذا قلت يا بروفيسور؟ سألتْ الفتاة.
- لا شيء يا آنسة ! أنا أكلم نفسي، ولكن بصوت عالٍ !
لم ينضم طالب جديد إلى محاضرة الساعة العاشرة، لأن الفصل كان مغلقا وعدد طلابه مكتملاً، باستثناء حالة واحدة فريدة. لقد جاء بالأمس إلى مكتبي طالب أدركت من مظهره وجسمه الهزيل المتهدم، ووجهه الشاحب الذي يحدثك عن همومه وآلامه . وكذلك من ملابسه المهلهلة والرائحة الكريهة التي تنبعث من تحت إبطيه، و من لكنته ولغته المكسرة، بأنه واحد من المعذبين المسحوقين المشردين التائهين من دول العالم الثالث ! لقد عرفته من الطريقة التي رجاني بها، ومن إلحاحه وإصراره الشديدين المتواصلين رغم اعتذاري المتكرر.

لقد فهمت منه أنه ذهب إلى مكتب التسجيل الذي أعلمه بأن المساق مغلق، ولكنه لم يترك واحداً في المكتب إلا ورجاه وألحّ عليه في الرجاء. ولكي يتخلصوا منه، أعلموه بأنه من الممكن إضافة اسمه إذا كان أستاذ المادة يوافق على قبوله. ولقد أعلمني أيضا بأن هذا المساق متطلب لموضوع اختصاصه، فهو يدرس علوماً سياسية، وسيتخرج في نهاية هذا الفصل ! لم أجد بدّاً من الموافقة، فرحبت به وتمنيت له حظاً سعيداً !

بقيت سالي جالسة في مقعدها بعد انتهاء المحاضرة والطلاب ملتفين حولي يسألون ويعلقون، فحاولت أن أجيبهم إجابات مقتضبة مبتورة، وأن لا أشجعهم لكي ينصرفوا!

لقد كنت وأنا ألقي المحاضرة، بين الفينة والفينة، أختلس النظر إليها لأتأمل ما خلق الله وأبدع! كنت كأنما أدفع عقارب الزمن لتسرع في سيرها فتنتهي المحاضرة لأستمع إلى موسيقى صوتها العذب، ولأنهل في شغف من حسنها وأنوثتها الرائعتين ! حالما أدار آخر الطلاب لي ظهره، حتى قفزتْ من مقعدها، فشعرت أنها كانت حقاً أكثر خفة من الغزال وأكثر رقة من النسيم، وتبينتْ لي لفتات ومحاسن وصفات لم أكن قد لاحظتها أول أمس !

ابتسمتْ وهي تحييني وتقترب مني، فشعرت كأن عينيها بحيرتان رقراقتان هادئتان من الحب والصفاء والبراءة، وأن كلماتها تفيض بالحنان والعذوبة والرقة !

- لقد كانت محاضرتك اليوم رائعة جداً يا بروفيسور دهشان. لقد أسعدتني كثيراً !

اقتربت مني أكثر، ووصل إلى أنفي رائحة عطرها الفاغم يتسرب إلى عظامي وكل خلجة في جسمي، فشعرت بنشوة عارمة وبخدر لذيذ... لذيذ ! ثم أضافتْ:

- كانت عميقة وممتعة ومملوءة بالمعلومات الجديدة والمفيدة لنا نحن الطلاب الأميركان.

- شكرا للثناء وشكراً للانتظار! كنت أخشى أن تنصرفي مع بقية الطلاب ولا أسمع رأيك في محاضرتي!

- قلت بصوت مرتجف وشبه مضطرب من شدة الفرح !

- وماذا كنت ستفعل لو انصرفت ولم أتوقف عندك؟ سألتْ وعيناها تحدقان في وجهي كأنما تريدان أن تخترقا جدار رأسي لتتبينا صدق قولي.

- كنت ركضت خلفك ورجوتك أن تبقي... ! قلت بحماس وصوت مرتجف.

- وإن رفضت ؟! وأتبعتها بضحكة دلال مغناجة كأنثى تريد أن تتأكد من تعلق عاشقها بها !

- لكنت ألححت بالرجاء !

- وهل رأيي مهم جدا عندك ؟! سألتْ وهي تتأملني من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي.

- جداً... جداً. .. ! قلت، وما زال التوتر والاضطراب لما يفارقاني بعد.

- أكثر أهمية من آراء طلبة الفصل جميعهم ؟!

- أكثر أهمية من آراء طلبة الجامعة كلهم !

- ما أسعدني...! قالت بشقاوة وهي تبتسم وتهز رأسها وجسمها وكأنما ترقص!

- أنا أسعد. قلت صادقا وقد شعرت أن غرائزي بدأت تستيقظ.

- لقد فكرت بك كثيرا طيلة اليومين الماضيين. قلت وقد تفتحت شهيتي للصيد.

- وما نوع هذا التفكير؟! سألتْ وهي تضحك ضحكة فاتنة.

- كما يفكر الرجل بالمرأة! رددت وقد شعرت بأن خوفي واضطرابي وترددي قد بدأ يغادرني، فأحسست بجرأة غير متوقعة، وأن هذه الجرأة قد لاقت قبولاً عندها.

- وهل لك أن تخبرني كيف يفكر الرجل بالمرأة؟!

كانت الكلمات تخرج من فمها بتمهل ومتعة وحبور، وإن كانت عذوبة صوتها ورقة أعطافها وتضوع عطرها، قد جعلني أشعر أنا الآخر بسعادة غامرة تسيطر على نفسي، وثمالة مفرحة منعشة في روحي !

- إن هذا يحتاج إلى ساعات بل أيام...! يحتاج إلى كتابة كتب، بل مجلدات...! قلت وقد أحسست أنني ازددت لهفة وشوقاً، وخدراً أيضاً ! ثم أضفت مستدركاً:

- أعني إن الرجل يمضي الساعات الطوال يوميا، معتكفا يتعبد في محراب حبها... يستمد إلهامه ووحيه من سحر عينيها... يشرب حتى الثمالة من خمر شفتيها ورحيق رضابها. يلقي بنفسه بين أحضان جنتها ونعيم لذاتها... يطوف حدائق كاليفورنيا ليقطف لها الأزهار التي تحب، ويمر على مصانع أمريكا ليبتاع لها الشوكولاته التي تشتهي، ثم بعد كل هذا يجوب مصانع الخمور في كل من فرنسا وإيطاليا ليختار لها أطيب الأنبذة وأشهاها...! وفي أول الليل يسجد عند قدميها يتعبد في محراب حبها، ثم يرجوها أن تحبه بحرارة وصدق! أما في آخر الليل فيسمعها تسابيح العشق وابتهالاته:

"زيديني عشقاً زيديني، يا أحلى نوبات جنوني! يا أحلى امرأة بين نساء الكون، أحبيني! يا من أحببتك حتى احترق الحب، أحبيني! أشعر بالخوف من المجهول فآويني...!"

هل كنت أنا حقاً الذي يقول هذا، أم أن قوة إلهية خارقة كانت توحي إلي بما أنطق؟! لا شك أن لساني قد أفلت زمامه، فلم أعد أسيطر عليه!

- ما أجمل وأروع ما قلت! لم أسمع في حياتي كلها، بل لم أقرأ كلاماً عذباً ساحراً مثل هذا! لقد لخبطت تفكيري، وقلبت موازيني، وزلزلت كياني! بروفيسور دهشان! أنت لا تدرك ماذا يفعل كلام مثل هذا بنا نحن النساء؟! قالتها بجذل وطرب فائقين. ولعلها ندمت على سرعة استجابتها، فأضافتْ مستدركة:

- لم أكن أعرف أنك فنان وشاعر إلى جانب أنك أستاذ علوم سياسية !

أحسست أنها هي الأخرى قد أفلت زمام لسانها منها ولم تعدْ تسيطر على نفسها أو تتحكم بعواطفها ؛ وإن كنت قد شعرت بأنها ازدادتْ عذوبة وأنوثة... واشتعلت سحراً ورقة...!

- صدقيني، لقد بدأت أنظم الشعر وأكتب القصة القصيرة، يوم كنت ابن أربعة عشر عامًا ! كانت أشعاراً وقصصاً تخرج من أعماق الوجدان، وتولد من خلجات الضمير... ! كان بعضها تصوفاً... تعبداً... تهجداً في حب الخالق وطلب مغفرته ؛ أما البعض الآخر فكانت تسهب في وصف الطهر والعفة، وتمجد النقاوة والعذرية ! وكذلك توجداً على فراق سميحة وبعدها، وهجرها! قلت بغبطة ولذة كفرح طفل صغير، كما أحسست بأن كلماتي لها كانت تخرج من أعماق روحي !

- هذا شيء رائع! يجب أن تفتخر به ! ولكن من هي سميحة هذه؟!

تجاهلت سؤالها، وتابعت كلامي:

- ولما اقتلعني القدر من أحضان بلدتي الهادئة الحالمة، وألقى بي في دروب الضياع ومتاهات التشرد، فقدت الطهارة والبراءة، وضاع مني الأمن والأمان، فتركت النظم لأنشغل بقضايا الوطن ومآسيه! قلت ذلك، ثم لاحظت تبدلا على وجهها، إذ حلت غمامة قاتمة من الحزن والكآبة بدلا من الإشراقة المتوهجة والابتسامة الحالمة !

- كانت تلك خسارة فادحة ! قالت بألم وحزن باديين. وصمتت للحظة ثم تابعت:

- كم أتمنى لو تتكرم علي وتقرأ لي بعضا من أشعارك، ولو أنك نظمتها وأنت صغير!

- "إن شاء الله" قلتها بالعربية دون أن أدرك أنها لا تفقهها.

- سأفعل ذلك إن أحببتِ. قلتها هذه المرة بالإنجليزية.

- أتمنى ذلك جداً. وتوقفتْ قليلا ثم أضافت:

- أنتظر ذلك بشوق ولهفة. لا بد وأن تكون ممتعة!

- هذا وعد مني لك أقطعه على نفسي. قلتها بفرح صبياني ثم أردفت:

- وسيكون ذلك قريباً... قريباً جداً.

وكما حدث قبل الأمس، فقد نظرت سالي إلى ساعتها عندما لاحظت أن المقاعد جميعها مملوءة بالطلبة المنتظرين، فقالت بصوت عال، لعلها تعمدت أن يسمعه جميع الحضور:

- آسفة جدا يا بروفيسور دهشان، لقد كانت أسئلتي عديدة وطويلة! وأوسعت في الخروج خطاها! لقد خيّل إليّ انها لم تكن تمشي وإنما كانت ترقص!

أما أنا فقد كنت أعيش لحظات تهويم وضبابية وفي شبه غيبوبة، فقد كانت تلفني فرحة غامرة لا أستطيع وصفها، واعتراني إحساس غريب لذيذ، فلم أشعر ولم أدرك ما كان يجري حولي! لقد جعلتني عذوبة صوتها، ورقة شمائلها، وطلاوة حديثها، أحلق بالسماوات العلى، فأحسّ بخدر في جسمي وثمالة في روحي...! لقد أحسست أن روح القدس قد حلّت بي كما يقول إخواننا المسيحيون...!

في المرة الثالثة - وأذكر أنه كان يوم جمعة - لم تبق سالي جالسة في مقعدها كالمرتين السابقتين، ولم تنتظر الطلاب المحيطين بي حتى ينصرفوا، بل كانت أول المتقدمين نحوي، عندما أعلنت انتهاء المحاضرة.

- يعجبني الذين لا تفقدهم الغربة ولا الاغتراب هويتهم وحبهم لوطنهم، بل إنهم على العكس من ذلك، يزدادون به تعلقاً، وبقضاياه التصاقاً بل التحاماً! وكلما ذبحهم البعاد بسكاكينه الحادة، وهزّهم الشوق فألهب مشاعرهم وأحرق أكبادهم، ازدادوا هياما وشغفاً به ! قالت بحماسٍ وتأنٍ وكأنها تقرأ من ورقة أو تلقي خطبة أعدتها مسبقاً! وقد ظهرتْ أسنانها كصفٍ من اللؤلؤ ناصع البياض.

لقد عرفت أنها كانت تشير إلى الطريقة الملتاعة التي كنت أتحدث بها أثناء المحاضرة، عما يحدثه البعد والاغتراب بعاشق وطنه فقلت:

- إن حب الوطن لعنة تطارد المحب، وسياط تمزق جسده، خصوصا عندما يعرف أن وطنه مكبل بالقيود

سددتْ إليّ سالي نظرات حائرة متسائلة، وقالت:

- هذا شيء فظيع ومفزع...! فظيع جداً! علّقت سالي بأسى.

- صدقيني إنه لا يغمض لي جفن ولا أحسّ بطعم الراحة في كثير من الليالي. إنني أحيانا، عندما ينتابني الحزن، ويتنازعني الألم ويستبد بي القلق، أشعر أنني على وشك أن أفقد عقلي، وأنني سأجن أو أنفجر قهراً ! أركب سيارتي وأسوق لمسافات طويلة دون هدف، وأحيانا أسير على قدمي في الشوارع لساعات لأخفف من أحزاني ولأبدّد بعضاً من ثورتي وإحباطي ! غالي يا وطن غالي... والله غالي ! إن الوطن هو هاجسي؛ وما يعاني أهله، من القمع والإذلال والقهر، ماثل أمامي لا يبرح مخيلتي ليل نهار، حتى، والله، وأنا ألقي محاضراتي أو أتحدث مع طلبتي ! إنني أفكر بآلامه، وأتعذب لأوجاعه، حتى في أحلامي...!

- كنت أظنك خالي البال لا هموم عندك ولا مشاكل ! قالت .

- إنه من البطولة أن يخفي الإنسان عذاباته وأوجاعه وهمومه عن الآخرين.

- ولكن إبقاءها أحيانا داخل الواحد منا، واجترارها، وعدم التحدث عنها للأصدقاء والمقربين، قد يؤذي النفس ويخنق الأمل، ويزيد في المعاناة !

- زميلتي التي تسكن الشقة المقابلة لشقتي وقد تعشينا معاً الليلة الماضية - طلبت مني أن أرافقها الليلة وصديقها إلى السينما، فاعتذرت لأنني أتوقع دعوة هامة هذا المساء.

قالت سالي مغيّرة مجرى الحديث، وقد حوّلت نظراتها إلى الأرض، بعد أن كانت تنظر إلي طيلة الوقت، وكأنها نطقتْ شيئاً معيباً يخدش الحياء ! كما لاحظت أنها نطقت الكلمتين الأخيرتين بصوت منخفض، وإن كانت قد أطالت الوقوف قليلاً فوق كلمة دعوة. ثم تورّدت وجنتاها وبدأ العرق يتصبب على وجهها!

في تلك اللحظة أدركت ماذا تعني سالي من كلامها. إذ إنها تقول لي بملء فيها، وبعبارات واضحة لا لبس فيها ولا غموض؛ افتح فمك أيها البدوي المغفل! أدْعُني إلى الخروج معك، فقد طال انتظاري لهذه الدعوة !

فتحت فمي لأقول شيئاً، ولكن صوتي لم يخرج، فاستطردت تقول:

- ولكنني قلت لها بأنني سأكون مشغولة الليلة وطيلة عطلة نهاية الأسبوع.

ومرة أخرى فتحت فمي لأقول شيئاً، ولكن صوتي لم يخرج، حيث استطردتْ هي ثانية:

- إنه لم يدعني بعد، ولكنني أتوقع دعوته في أية لحظة لأنني أدركت أنه يكن لي عاطفة محبة كما أحمل له!

مرّت لحظات لم يقل أحدنا شيئاً! كان عدد طلبة الصف قد تكامل، وكان موعد المحاضرة قد تجاوز البضع دقائق، فأدارت ظهرها وقالت بذلة وانكسار مزقا قلبي...

- يجب عليّ الآن أن أذهب. عطلة نهاية أسبوع سعيدة. إلى اللقاء!

أقسم بالله الواحد الأحد، وأقسم بالوطن العربي الكبير، وبالوطن السليب، والوطن المحتل أيضاً، وأقسم بأرواح أطفال آشور وبابل اللذين ذبحهم إخوتهم في الدين والعقيدة، وأحرقوهم بصواريخهم وقنابلهم العنقودية؛ وأقسم بأرواح شهداء أطفال الحجارة ودمائهم الطاهرة الزكية، التي يقدمونها بكرم وسخاء للدفاع عن أرض العرب والمسلمين، ليعطوا شرفا وكرامة وكبرياء لنا، ! إنني كنت في كل مرة أفتح بها فمي، أسمع صوتي في داخلي، مندفعاً قوياً عالياً، طالبا من سالي أن تسمح لي بأن أقابلها بعد ساعات المحاضرات، وخارج القاعة لنكمل أحاديثنا، ولأن في نفسي الكثير الكثير الذي أريد أن

أحدثها عنه، وأن في قلبي أشواقا وأشواقا أريد أن أبثها لها. أقسم... وأقسم... وأقسم أنه كانت هناك قوة جبارة خفية، تخيّط شفتي، وتقبض على لساني، وتسد فمي، فيضيع صوتي في وهاد الفناء ووديان العدم ! كان صوتي يتبدد قبل أن يصل إلى شفتي!

شهر كامل... أربعة أسابيع لا تنقص يوماً... اثنا عشر لقاء مع سالي إركسون ونحن نتحدث عن أي شيء وكل شيء، ثم عندما أهمّ بدعوتها، أو أطلب لقائها، يعقد الله لساني، يكبله بقيود وسلاسل من حديد، فلا تخرج منه نأمة، ولا أستطيع أن أنبس ببنت شفة! لقد كان صوتي يضيع بين لساني وشفتي!

*****

كانت محاضراتي وسبحاتي... وشطحاتي وتهويماتي... تروي عطش سالي الروحي والوجداني، وتشبع نهمها العلمي والفكري، فذهبت تبحث عن فارس فحل يروي ظمأها العاطفي ويشبع جوعها الجسدي! هكذا حدثت نفسي! لا شك أن سالي يئست من حيرتي وترددي، وأغضبتها انهزاميتي وجبني. فمن يدري؟ ربما تكون في داخلها قد كرهتني، بل واحتقرتني، وربما تكون قد تشكّكتْ في شجاعتي ورجولتي...!

كانت بعد انتهاء كل محاضرة، تتقدم إلي حيث أقف، ونتجاذب أطراف الحديث ونطرق مختلف المواضيع، ونخوض في شتى المناقشات، ونعلق على ما يجري في الكون من أحداث مع طلاب آخرين، أو نحن الاثنين فقط ! كنت بعد انصرافها، وفي كل مرة، أؤكد لنفسي وأقسم أمامها بأنني سأحطم في المرة القادمة تلك القوة الخفية التي تطبق على فمي وتمنعني من الكلام ! مرّت أربعة أسابيع كاملة وأنا أتحدث في كل شيء إلا في طلب موعد لرؤيتها خارج قاعة المحاضرات !

وفجأة توقفت سالي عن التأخر بعد المحاضرات. إذ حالما أعلن انتهاء المحاضرة، تلملم أوراقها وتكون أول الخارجين. لقد عرفت الآن أن مغادرة سالي دون أن تتوقفْ لتقول لي شيئا كعادتها، هو لأنها كانت في عجلة لمقابلة رضوان الحوراني، والذي ربما كان ينتظرها هو الآخر بفارغ الصبر وعظيم الشوق...؟! لقد يئست مني ووجدت فيه الأمل. لقد تركتني والتقتْ به...

إن المرأة يثير قرفها الرجل المتردد المتخاذل، وينال إعجابها الفارس المقدام المغامر. لا شك أن رضوان كان من الصنف الثاني، وكنت أنا ممن أثاروا اشمئزازها واحتقارها... هكذا طافت بي الظنون !

لماذا نشعر أحيانا بالفرح والنشوة، وتغمرنا السعادة والمتعة، ويملأ نفوسنا الحبور والانتعاش، وتتسرب إلى عواطفنا ومشاعرنا وأحاسيسنا لذة غير مبررة، تجعلنا نحلق في ملكوت الله فتأخذنا إلى جنة الخلد على أجنحة من أثير، ونحن نمعن التأمل والتفكر في رسمة زيتية أو حديقة غناء من الزهور ! أو تشنف أسماعنا معزوفة موسيقية، أو نستمع إلى صوت جميل يشدو لحنا حنونا يحمله النسيم إلينا؛ فيهز أوتار قلوبنا ويثير أعماق وجداننا؟ !

لقد كنت أحس بكل هذا، بل وأكثر منه، وسالي تقف أمامي شامخة متألقة، وأنا أتأمل جسمها الأهيف النحيل ذو القوام الممشوق والصدر المملوء النافر المتحدي ! ثم وأنا أنظر في عينيها العسليتين الصافيتين العميقتين، كبحيرة هادئة رقراقة، ذات الأهداب

الطويلة، فأشعر أنها أغرقتني في بحور من الدفء والحنان والفرح ! كانت وهي تنظر إليّ، أحس كأنما هي تعانقني وتحتضنني وتضمني بأهداب عينيها الوطفاوين، فتدخلني جنة حبها، وتغرقني في بحور من عبق أنفاسها، وأريج أعطافها... ورضاب شفتيها...!

كانت عندما تصوب إلي عينيها الجميلتين المعبرتين، تشعلان في قلبي الهوى، وتؤججان في دمي النيران والحرائق. كنت وأنا أقف أمامها أحس بعظمة الخالق؛ هذه العظمة التي تتمثل في هذا الإبداع الرائع والتكوين الفني الساحر... إنها هذا المخلوق الجميل... الجميل... أليست هي من إبداعه وخلقه، وقطعة من تكوينه وتفننه...؟!

كنت أتمنّى لو أن الحياة تكف عن الحركة، وأن الأرض تقف عن الدوران حتى لا تنقطع هذه البهجة الإلهية، ولأظل وحدي أنعم بهذا الترف العاطفي... وأغرف من هذا الهناء الرباني...!

كنت أتمنى لو أنني أستطيع امتلاكها واحتكارها لنفسي فقط، وإنه لو يكون بمقدوري أن لا أدع أحدا يلامسها أو يكلمها، بل حتى أن ينظر إليها... فتكون لي وحدي... بكل شيء لها وعندها... نعم... لي وحدي فقط !

لقد كان هذا ممكناً جداً، لو أن القدر خفف من صرامته وحدّ من قسوة أحكامه، وعدّل في قوانينه وشرائعه وبدّل... ولكن عندما راجع الموكل الدائم بتدوين أفعال مخلوقات الله، والمسؤول عن ملفاتهم، وفتش في قيوده ودفاتره، ودقق في مستنداته وأوراقه، ، وجد أن اسم سالي إركسون، الأميركية الدم واللحم والجنسية، لم يرتبط باسم سهيل دهشان، يعربي القومية والجذور! فتح يديه استغرابا واندهاشاً، وعلت وجهه علامات التساؤل والحيرة، وهزّ كتفيه ثم مطّ بعدها شفتيه، فقد أخبرته دفاتره بأن اسمها ملتصق باسم رضوان الحوراني، وأن جسدها الطاهر لن تدنسه شهوات سهيل دهشان العابرة والمتهتكة... ! هكذا تقول السجلات حتى هذه اللحظة ! أما إذا حدث تبديل فيما بعد، فإن الأمر بيد الله عالم الغيب !

لقد اتضح لهذا الموكل وبكل تأكيد، أن سالي إركسون فتاة تقية السريرة، طاهرة الروح والجسد، تحب الناس وتحب الخير لهم، كريمة معطاءة، عاطفياً ومادياً، تبحث عن زوج ملتزم وعلى خلق عظيم، تسعده ويسعدها، تحبه وتخدمه وتتفانى في حبه وخدمته، وتنجب له أطفالا صالحين تقر بهم عينه وعينها ! ولقد تبيّن للقدر أيضا بأن سالي قد تنضم يوماً إلى مجموعة المؤمنين الموحدين الذين يسبحون الله ويصلون له ويعبدونه، وإن أصبحوا في هذا الزمن الرديء قلة... قلة... قلة!

إنها ليست على شاكلة سهيل دهشان القادم من صحارى الجوع والقحط والحرمان، وإن كل همه هو أن يشبع نهمه وجوعه من كل من يقابلها، حتى إذا فرغ منها بحث عن أخرى ! إن القدر لا يريد لسالي أن تكون مجرد رقم عند سهيل دهشان ، لعله يريدها أن تنجب أطفالا صالحين أتقياء أنقياء بررة، يسبحونه ويمجدونه ويخدمونه، في زمن نسي العباد به خالقهم، ووجدوا لهم خالقاً جديداً يصلون من أجله ويسجدون !

كنت في الوطن - فليرحمه الله وأهله المستضعفين المسحوقين، ويرحم تلك الأيام الخوالي - أنتمي إلى مدارس العذريين والصوفيين والروحيين ومن على شاكلتهم ! تلك المدارس التي كان ينتمي إليها المهابيل من العشاق والانهزاميين الذين يقدّسون المعشوقة ويوحدونها، وينظرون إليها من بعيد فلا يلمسونها ! أمثال قيس بن الملوح، وابن ذريح،

وجميل بن معمر، وجميل بثينه وكثيّر عزة وغيرهم، وغيرهم الكثيرون من الذين اتخذوا من الحب العذري ذريعة يواسون بها فشلهم، ومعذرة يختبئون خلفها ! لقد كان قانون العشيرة يهدر دمهم إن ضاجعوا حبيباتهم وكبرت بطونهن، وإن كانوا في أعماق قلوبهم، النساء منهم قبل الرجال، يرغبون الوصال الجسدي، ويعانون من الصدود والهجران...! لقد صنعوا لحبيباتهم في مخيلاتهم تماثيل مقدسة يحذر الاقتراب منها أو لمسها، وبنوا لهن صوامع ومعابد يطوفون حولها ولا يدخلونها، فسمحوا لأنفسهم بالتشبب بهن والتغني بحبهن من بعيد... بعيد... بعيد !

نعم، لقد كنت أنتمي إلى تلك المدارس، وكنت من أتباعها المتعصبين المغالين في عقيدتهم وإيمانهم لها ! مدارس القحط والجوع والحرمان ... مدارس السخف والهراء والسفسطائيين... مدارس الحالمين والولهى والهائمين في أودية العشق ووهاده وسهوله ... أودية الأحلام والتهويم والسراب...!

كنا نمضي الليالي الطوال، سهّدا هجّداً، نناجي طيف المحبوبة، ونحلم برؤيتها والتجلي بطلعتها البهية، ونقضي الأيام والليالي نتلظى بنار صدّها وهجرها لنا ؛ لأن المجتمع وتقاليد العشيرة لا تسمح لنا بمقابلتها والتحدث إليها !

كنت من عبّاد الروح المتشددين المتزمتين، الروح التي لا يستطاع عناقها ولا تلمّسها أو رؤيتها ! ولست أدري الآن أكان عن قناعة مني وعقيدة وإيمان... وكفلسفة تصوفية دينية، أم أنه كان عن اقتناع وقبول بالأمر الواقع ورضا بعدم التوفر؟ إنني أتساءل الآن أيضاً، هل كان اقتناعنا كاقتناع الفقير المعدم الجائع، بأن فقره في الدنيا سيعوّض عليه غنى في الآخرة...!؟ وأن جوعه وآلامه وعذاباته سيكافأ عنها بقصور وجنات وأعناب ونخيل...؟! لست أدري... نعم، لست أدري...! ألم يقل لنا الشيخ عبد الحليم زيد الكيلاني ، أستاذ الدين في مدرسة السلط الثانوية يوماً ، بأن من أحب امرأة ولم يشتهيها، زوّجه الله إياها أو زوّجه خيراً منها...! لقد كررها علينا مرات ومرات، وأنا أحببت سميحة من أعماق قلبي وبكل طاقاتي حبّاً عذرياً طاهراً شريفاً، وليشهد الله ما اشتهيتها يوماً، وما فكرت بها قط كامرأة من لحم ودم ! كانت شعلة مضيئة من نور... قبساً متألقاً من روح... فيضاً من طهارة... سحابة عذرية... كومة من غمام... تهويمة... تعويذة...!

لقد تحدث صديقي شاهر عن مفاتن جسدها يوماً ليغيظني، فغضبت وثرت فأُحسست بالقرف والتقزز الشديدين، وبالإهانة أيضا...! كنت أفكر بها روحاً تُعبد، وقديسة يُصلى في محراب طهرها وعذريتها ! لقد تعذبت كثيراً في هذا الحب، وكنت أقضي الليالي الطوال... والله والله والله ، هائماً، مدنفاً، ولهاً ! أبكي وأنتحب بحرقة، ولوعة وورع، كما يبكي العابد المدنف المتصوف، بشوق ووله وتهجد؛ قصورَه وتقاعسَه نحو خالقه !

لقد صدق الشيخ عبد الحليم زيد الكيلاني ، أستاذي لدرس الدين ، في مدرس السلط الثانوية ، فيما قال. إن الله لم يزوجني بسميحة، وما أظنني سأقبل لو فعل الله ذلك ؛ لأنني كنت أحب روحها وأعيش مع طيفها...! إن الله قد زوّجني بالعشرات الفاتنات الساحرات المغناجات، ممن هن أرقّ من سميحة وأنعم، وممن هن أجمل وأدفأ وأكثر علما ومعرفة... فسبحانه، وله الحمد والشكر على نعمه !

لقد هجرت الآن تلك المدارس ، بل لقد كفرت بها واحتقرت تلامذتها ومريديها، بعد أن وطأت قدماي أول بلد أوروبي، فتحولت إلى الهيام بالأجساد والافتنان بها...! أنا اليوم عابد لأجساد الحسان، معتكف في محرابهن! الله أكبر! فسبحان الذي يغير ولا يتغير!

أنا أؤمن الآن بأن لا متعة للرجل في الدنيا تعادل متعة إلقاء نفسه بين أحضان امرأة حسناء، تحبه ويحبها، تهيم به ويهيم بها، فتحتضنه وتلف ذراعيها حول خصره وعنقه، يلتقيان ويتحدان ويذوبان في واحد... متعة لا يعادلها ذهب العالم وكنوز الأرض ! فسبحان الذي جعل أغلى أماني الرجل يرقد ما بين فخذي امرأة...! وسبحان الذي أخرج الحياة وامتداداتها، وأضاء نور العلم والمعرفة من المكان نفسه...! سبحانه... سبحانه!

*****

كانت سالي واسعة الصدر بارزة النهدين، ذات شفتين مملوءتين، تحسّ وأنت تنظر إليهما، أنك ترى ما بداخلهما لشفافيتهما وصفائهما وطراوتهما ! كانتا كحبتي كرز ناضجتين مكورتين !كنت أحس أحيانا أن في عينيها إصراراً وعناداً وتحدياً، وأن بهما شراسة وقسوة، ولكن في قسوتهما وعنادهما حناناً ودفئاً وصبابة، وفيهما شوق ووله وتدله...!

كنت أقف مذهولا، مشدوها، حائرا أمام هيبة جمالها وقوة شخصيتها وصرامة نظراتها، سارحا بخيالاتي مع عذوبة صوتها وسحر نغماتها، دون أن أقتلع عيني من التنقل والتجوال بين مفاتن جسدها وفتحة فستانها وما يختبئ خلفه من كنوز ودرر...!

كانت دائما تتكلم بحرارة وحماس، وتناقش بذكاء وهدوء ووعي واتزان !كان في صوتها أحيانا ضحكات فرح وجذل، وطرب وانطلاق معربد مستهتر ؛ وتارة فيه كآبة وألم وحزن ! كانت وهي تتكلم وأنت تسمع صوتها تلاحظ أنه ينضح رقة وفتنة وسحراً، وأن فيه بحة الرغبة العارمة ! كان كلامها أحيانا كأنما هو أغنية فراق ملتاعة كئيبة جريحة، تأتي من أعماق الليل ومن خدر الزمن !

كنت، وهي تنظر إلي، أحس بغليان المشاعر واصطخاب العواطف وتأجج الشهوة العارمة نحوها. وكانت نظراتها الفاتنة حيناً والحائرة أحيانا، تحرك فيّ ثورة الشوق العاتية، وتجلدني بسياط الشهوة التي لا تهدأ أو ترحم...! إن نهديها الصغيرين المتحديين كأنهما تينة ديفور في صباح يوم كثيف الضباب، غزير الندى، نضجا قبل الأوان وحان قطافهما ! إن مجرد النظر إلى فستانها وهو يحتضن نهديها المتوثبين ويحنو عليهما حنو الأم الرؤوم على وحيدها يثير شهيتي ، ويجعلني أتحول إلى قطعة متأججة مستعرة من الشهوة العارمة الصارخة. فيصور لي خيالي المضطرب المحموم، بأن أنقض عليها وأمارس الجنس معها أمام الحضور، وفي قاعة المحاضرات، وأمام خارطة العالم المعلقة على الحائط الذي غُطي معظمه بها ! كان وكأنه يشهد الكون على وجعي ومعاناتي وفحولتي ! كنت دائماً أريد أن أدفن نفسي كلها في رحمها... في داخلها، حتى أستحوذ على كل جزء منها ليكون لي وحدي...! أريدها كلها هي وما تتمتع به من جمال ورقة وسحر وحنان !

أنا بدوي متصحر، يرقد في أعماقي جوع ماحق وظمأ قاتل منذ آلاف السنين. وقد وصلت لتوي من هناك... من صحراء تهامة، ومتاهات الربع الخالي، ومن صحراء نجد وحفر الباطن...!

كانت نظرات سالي التائهة الحائرة، تشعل النيران في دمي، وضحكاتها الجذلى الخالية من الألم ومن العقد، تكسّرني وتطحن عظامي ! لقد كنت أحس برعشة جنسية عنيفة، تهز كل جزء في كياني هزاً مزلزلاً، وتشعل به نيراناً مسعورة...! كنت أريد أن أشبع هذا الجوع المتوحش المدمر، الضاربة جذوره في عمق الزمن، والذي حملته معي وأتيت به من هناك، من بلد قيس بن الملوح وكثيّر عزّة وعمر بن أبي ربيعة !

لقد تنازعني تجاه سالي هاجسان: الأول ينعم ويطرب ثم يسعد بمناقشات سالي، الفتاة الذكية المثقفة، ذات العقل المتوقد المتميز، واسعة الاطلاع، صاحبة الشخصية القوية الجذابة المحببة، ذات الشعر المتخندق فوق رأسها يحرسها من الطفيليين، كأنما هو إكليل من الغار، وكرقيب يحرسها من النظرات الشرهة، المتلصصة، المتطاولة ! كنا نتحاور ونتناقش ونتداول، تستمع إليّ وأصغي إليها. عقول وآراء وأفكار وأيديولوجيات تتناظر وتتحاور !

أما الهاجس الثاني: فقد كان مختبئا يرقد في أعماقي، لا يفكر بالعقل، ولا يعنيه شيء منه...! كان يفكر بشيء آخر يختلف اختلافاً كاملاً ومتغايراً عنه. كان يفكر بسالي كأنثى، كامرأة، كصدر ونهدين، وفخذين وما بينهما، تماماً كما يفكر أبن الصحراء المحروم بالمرأة...!

كانت عيوني الشرهة الشبقة، تجوس خلال مفاتن جسدها البض الناعم. وكانت يداي تعريان نهديها وصدرها من تحت الملابس، وتداعبانهما بلطف وحنان ورقة، ولكن بنهم وفحولة وجسارة. ثم تخلعان ملابسها قطعة قطعة، فتعريانها ! كانت الحمم الهادرة المشتعلة الثائرة، تتراقص في داخلي مسعورة... لكنني كنت في أحايين كثيرة إنسانا آخر لا يصدق من يراني بأنني أنا نفسي ذلك الإنسان الشرير المتوحش...!

كنت أستمع إلى الصوت الحنون العذب، وكنت أتأمل الابتسامة الخلابة المفرحة المنعشة التي تدغدغ الحواس، وتداعب المشاعر ! كانت وهي تتكلم كأنما تغني أغنية دافئة حالمة، أو تهدهد طفلا حبيباً لا يرغب النوم! كان جمالها الأنيق المترف، وعنقها الطويل الممشوق، يثيران في قلبي وعواطفي ومشاعري، محيطات من الفرح واللذة والمتعة والسعادة مجتمعة ! كانت رواسب الماضي وحواجز المحرمات، وقوانين الأهل والعشيرة، والحرمان العاطفي والخيال الجامح، قد تركت فوق صدري جبالا رملية، عملت جاهدا لأتخلص من هذه اللعنة المزروعة في أعماق أحشائي. ولأشفي هذه المسغبة، وهذا الظمأ وهذا الحرمان، الذي تصحّر وتصخّر في جسدي، وفي روحي وقلبي ووجداني، بل وفي كل كياني ! منذ أيام سكني الصحراء... صحراء تهامة والربع الخالي وحفر الباطن... صحراء التيه !

الآن... الآن وقد حرمت منها، وألقت بي خارج جنة حبها، بسبب غبائي وحماقتي وتفكيري العقيم، ومعتقداتي الفجّة ! حب عذري... حب أفلاطوني... حب شريف ونظيف ! يا للفجاجة والسخافة! نعم الآن أدركت خطأي الفادح وغلطتي القاتلة، فندمت ندم أبينا آدم عندما طرد من الجنة ! فلم لا أبوح بكل ما يحرقني ويختزن في داخلي، لأخفف من النيران التي تشتعل في أحشائي. ولأطفئ من أُوار الندم الذي يقضّ مضجعي، وينغص عليّ أيامي...؟! لم؟! نعم ... لم ؟!

كنت أحس وهي تقف أمامي، بأن في أعماق نفسي المدمرة، المسحوقة، المأزومة بالقهر والحرمان والمذلة، شهوة رعناء، عارمة جريئة لعناقها، ومطارحتها الغرام لكي أطفئ النيران التي تسكن قلبي الجبان، وكياني المهزوز، وحياتي المدمرة منذ أن ولدت... ولطالما تمنيت، وصوتها يعزف سيمفونية اللقاء والوصال، لو أستطيع تعريتها لأقف متأملا ومتهجداً أمام هذا الإبداع الفني الرائع! ولطالما عشت مع أحلامي هذه، في تهويمة خدر لذيذ ... لذيذ ... فوق صدرها وراقدا بين نهديها، متوسدا زنديها، تداعب يداي شعرها الذي ربطته فوق رأسها ككنز تفاخر به أترابها، أو تاج ملكة تلبسه يوم تتويجها !

كنت في الوطن، عندما أقابل أنثى، تنظر عيناي دائما إلى مقدمة حذائي، ويعتريني خوف وخجل شديدين. أما هنا في أميركا، فإن أول مكان تقع عليه عيناي في جسم المرأة الجميلة، هو التقاء فتحتي الفستان تحت العنق حيث يظهر أعلى النهدين. نهدان ثائران متحديان، يطلان تارة ثم يختبئان أخرى. يداعبانك ويلاعبانك، يغازلانك فيثيرانك، ثم يختبئان ولا يعودان ثانية شيطنة وخبثاً، وكأنما يدعوانك للمطاردة أو يستحثانك للقاء غرامي حميم...!

إنني، رغم مضي الزمن، ما زلت أحسّ بسحر نظراتها مطبوعاً في قلبي، كامناً في أعماقي. وإنني ما زلت أحس بحرارة قبلاتها، وحلاوتها فوق شفتي، على الرغم من أن شفاهنا لم تلتق أبدا ًً! وإنني ما زلت أحس بنعومة يديها وطراوتهما بين يدي. لقد كانت نظراتها تؤجج في قلبي عواطف حب دونها النار المستعرة في أغوار قلبي العطشى، وتهز بترفها واستعلائها المتأنقة، أعماق وجداني المرتعش المسحوق. كان عبق عطرها وحرارة أنفاسها، تحولان كل مساحة من جسدي، وكل خلجة في روحي، إلى بحيرة صاخبة، تزخر بدغدغات سحرية، ورعشات جميلة مخملية، فأشعر بخدر لذيذ... لذيذ... كأنما أنا مستلق في حوض مرمري مملوء بالعطر السماوي، وسعادة غامرة أتمنى لو لم تنته...

أنا لا يشبع نهمي البدوي، ولا يروي عطشي الصحراوي رشف رضاب فتاة جميلة واحدة ومطارحتها الغرام، ولا فتاتين ولا ثلاثا ولا عشرا ولا حتى مائة، ، بل وكل جميلات " وست وود فيلج... " أنا شمبانزي انحدرت من سلالة الشمبانزيات، أستطيع أن أحب جميع بنات العالم الجميلات وآخذهن إلى الفراش ! ألم تنادني ألكسس يوماً بهذا الاسم فغضبت ! وبسبب تفكيري القبلي المتعفن، وضيق أفقي، خسرت صداقة حميمة دافئة !

كاليفورنيا... آه يا كاليفورنيا... ما أشهاك وما أعذبك وما أجملك. إنك تشبهين في شواطئك وسحرك وأرستقراطيتك شواطئ بلادي فلسطين ...! شواطئ يافا وحيفا وعكا، وكل مدن الشاطيء ... مدن البرتقال والليمون والموز والزهور، مدن التألق والحب والجمال ! مدن البطولات والتضحيات والنضال... كانت مدناً عذراء طاهرة متألقة، قبل أن يدنسها المغتصبون الجدد الذين قدموا من جميع أطراف المعمورة... لقد دنسوا بعفونتهم وقذارتهم، وما يحملون من أمراض وعهر وانحطاط طهارتكن وعذريتكن ! وهل تعتقدن أنني أنساكن يا قطعاً مني، حتى ولو نسيكن الكثيرون... وأقسم بقدسيتكن أنني ما نسيتكن لحظة واحدة، ولا حتى في هنيهات انسجامي وطربي وإيناسي ! إن حبكنّ يجري في عروقي ومع دمي...! فلينسني الله إن نسيتكن يا أغلى الغاليات !!!

*****

عندما أجلس في غرفتي، وأغلق الباب من دوني، أفكر بسالي ساعات وساعات، يستبد بي الشوق ويهزني الحنين، فأصير أبكي وأبكي، فأحس بخدر لذيذ... لذيذ... طفولي وصوفي... إن في بكائي سعادة لم يتذوقها إلا الذين مروا بنفس التجربة ، وعانوا وتعذبوا وبكوا كما عانيت وتعذبت وبكيت...!

البكاء في الغربة تصوّف وتعبد في حب الوطن... والدموع صلوات ابتهال وتسبيح في محرابه... أنا لا أخجل من بكائي أبداً... أبداً...! فأنا أبكي دموعاً متأججة محرقة كالجمرات ! إنني عندما أبكي فأنا أنظم رائعة أدبية... أكتب قصة... أرسم لوحة...! إن دموعي هي كلمات قصيدة.. أفكار قصة... فرشاة وألوان... وقطعة قماش... إنها لوحة زيتية...!

لعلّ سالي لم تبالغ بوصفها إياي أمام رضوان، أنني أعامل طالباتي بالاحترام والرومانسية، وأنني وأنا ألقي محاضراتي كأنما أقرأ لهن قصائد الحب والغزل والتدله والمناجاة !

*****

كنت ساجداً ويداي مبسوطتان إلى جانب أذني على الأرض، أصلي بحرارة وحمى وورع، وقد بللت دموعي الغزيرة الحصيرة البالية لكثرة تعرضها لحرارة الشمس الملتهبة ! مضت برهة ثم شعرت فجأة بأن جبلا صخرياً قد هبط فوق يدي اليمنى فسحقها؛ وجبلاً آخر قد ضربني في منتصفي وعلى خاصر ؛ فأخرجت لا إراديا صوتاً تردد صداه في كل جنبات المسجد...فتدحرجت وتطاير جسمي بين جموع المصلين الواقفين والراكعين والساجدين! بعد أن لملمت ذاتي المبعثرة وآدميتي الممزقة، وبعد أن حملت كرامتي المداسة، تبيّن لي أن أحد حرس الحاكم ضخم الجسم، عريض البسطار، قد داس بقدمه فوق يدي، ورفسني بالقدم الأخرى من وسطي ليزيحني من طريق الحاكم وصحبه...!

لا أذكر ما حدث بعد ذلك بالضبط، ولكنني تنبهت إلى أنني كنت أجري خارج المسجد باتجاه بيتنا، حافي القدمين، أحمل حذائي بيدي، وسيل متفجر من الدموع الحارة المحرقة ينحدر فوق وجنتيّ، فبللتْ خديّ وعنقي ووصلت إلى قميصي؛ وخلت أن إمداداته تسقط فوق أرض الشارع ! كنت أجري بكل ما في جسمي من طاقة، وبكل ما في نفسي من كبرياء ممزقة مسحوقة، وبكل ما في داخلي من غضب وغل وحقد ونقمة، وبكل ما في جوانحي من عدوانية ونزق وشراسة...! لقد كنت أركض كأرنب مذعور، ويداي مطبقتان كالكلابتين على حذائي الذي كنت أضمه إلى صدري كطفل جريح... نازف...!

بعد فترة من الجري المتوحش، تنبهت إلى أن المارة كانوا يحملقون بي ويشيرون إليّ. كانت أنفاسي متلاحقة، صاعدة هابطة، وضربات قلبي أحسّها تدق قوية فوق طبلتي أذني، وقد تخيلتها كور جارنا" ناصر الحداد" ، في مدينتنا ، السلط ، الصابرة الصامدة، الذي طالما كنت أرقبه طفلا ويافعاً، يملأ بطنه ويفرغه، فيخرج من جوفه نفساً جباراً ليشعل به الفحم الحجري الذي يصهر فوقه قطع الحديد الضخمة، التي تستعمل في حرث الأرض وقطع الأشجار والصخور. منذ ذلك اليوم لم اصلي ولا ركعة واحدة ولم اتوجه الى مكة ! قلت هذا لسالي ورضوان !

قلته وكنا نجلس ثلاثتنا في أحد أرقى مطاعم مدينة" سانتامونيكا" الأرستقراطية، والمتخصصة في تقديم اللحم البقري المشوي "الستيك" الفاخر ! لقد دعوتهما إلى العشاء بمناسبة استلام رضوان وظيفته الجديدة في السوبر ماركت، والتي صادفت أيضا عيد ميلاده! وكنت أنا قد طلبت بعض الويسكي بينما طلبا هما بعض عصير البرتقال. كنت قد أتيت على الكأس الثانية المزدوجة من المشروب الأسكتلندي وأهمّ بطلب الثالثة، بينما كانا هما ما زالا يرشفان الكأس الأولى قبل أن نطلب العشاء !

- كان إيمانك هشاً، وصلاتك رياء واحتفالات دينية تظاهرية؛ وكان تعبدك نزعة مراهقة فجّة، وإلا لما جعلت حادثاً عرضيا تافها كهذا يقلب موازين تفكيرك ومعتقداتك ويدمر إيمانك ...!! صدقني؛ لو كان إيمانك راسخاً، ومعتقدك صلداً لما انهار أمام أول هزّة بسيطة تتعرض لها !

قالت سالي بلهجة صدق وحماس. وبهدوء واتزان ظاهرين !

- إنني عندما أقتنع بفكرة وأؤمن بها والتزم بمضمونها، فلو اجتمع سكان أهل الأرض من البشر، وحاولوا تبديل عقيدتي لما استطاعوا زحزحتي قيد أنملة ! قالت واتبعت ذلك بأن أشارت برأس إبهام يدها اليمنى إلى رأس سبابتها.

نظرت إلى وجه رضوان فوجدته ممتقعا تعلوه صفرة داكنة، يدير لسانه بفمه محاولاً أن يقول شيئا، لكن الكلمات لم تخرج من فمه ! ولست أدري، أكان السبب أنه لم يعرف ما يقول، أم أن جرأة سالي هي التي جمدت الكلمات فوق لسانه؟! لقد كان ينقل طرفه بين سالي وبيني، وعلائم القلق والحيرة تتنازعه !

إن رضوان رجل شرقي، وتفكيره ما زال محافظاً، ولو أنه عاش في الغرب ردحاً من الزمن، فإنه سيظل يعتبر أنثاه مهما حصلت على درجات علمية رفيعة، ومهما كانت واسعة الثقافة وعميقة التفكير، فإنها تظل أنثى... والرجل هو سيدها ! وأخيرا تجرأ، أو لعل الله فتح عليه فقال:

- إن سالي... إن سالي... إن سالي يا أستاذ دهشان لم تقصد... أعني لم تقصد أنك ضعيف الإيمان، وأن صلاتك...

- لا تدافع عني يا رضوان ! أنا لست طفلة صغيرة ! أنا امرأة ناضجة وملتزمة بما أقول! قاطعته سالي شبه غاضبة، وبصوت أعلى من السابق قليلاً؛ وقد احمرّ وجهها، وتورد خداها فزادها جمالاً وسحراً وجاذبية !

- أنا أعرف ما أقول، وأعني ما قلت؛ إذ لو كان البروفيسور دهشان آنذاك، ناضجا دينياً، وواعيا فكرياً، كما هو عليه الآن، ومقتنعا عن إيمان وعقيدة راسختين، لما أزعجه، إطلاقا، تصرفات حاكم مستهتر وغير مسؤول، ولما تحول هذا التحول الدراميكي ! وشددت على كلمة إطلاقا وتوقفت عليها.

- الله... الله يا آنسة سالي ! لو كان عندنا في الوطن الكثيرات من أمثالك... من أمهات وزوجات وأخوات، لأرضعن صغارهن مع الحليب عشق الوطن وحب الحرية والديمقراطية والمساواة، ولما كن سمحن للمتصلطين علينا أن يدوسونا بأقدامهم، ويهرسوا أجسامنا كالصراصية...!

قلت وقد شعرت فجأة بعاطفة متوقدة، وحماس ملتهب، متذكراً المناظرات ومطارحات الغرام، التي كنا نقوم بها، سالي وأنا، بعد انتهاء كل محاضرة !

- أنا واثقة أن عندكم، كما عند جميع شعوب العالم من هن أحسن مني كثيراً؛ ولكن أنانية الرجال عندكم، ومركب النقص الذي تقاسون منه، يحول بينهن وبين إظهار مواهبهن وتقديم عطائهن. .. قالت بإصرار وحزم وتحدٍّ !

- عندنا نساء مثقفات وواعيات، ومناضلات أيضاً، وهن كثيرات جداً، يدافعن عن الوطن، في جميع الميادين، وينجبن أبطالا عظاماً؛ ولكن الأنظمة الرجعية تكمم أفواههن وتقيد حريتهن، وتلقي بهن كالقتلة والمجرمين في أعماق الزنزانات !

قال رضوان بحماس، وهو يمسح بمنديله الورقي حبات عرق كانت متناثرة فوق جبينه؛ ويغسل بلسانه شفتيه الجافتين، فشعرت انه بدأ يتخلص من عقدته... من آثار غلطته... ويسترد ثقته بنفسه...!

وكما أصابت حمى الانفعال صديقي رضوان الحوراني، فقد انتقلت إلي بحماس أشد، فتصورت نفسي بين طلابي القي بهم خطبة طويلة ولاهبة !

يبدو أن كؤوس الويسكي التي احتسيتها، وجو الجلسة الشاعري الرومانسي الحالم، ومياه المحيط الممتدة أمامنا، الهادرة الثائرة، والتي تصفع الصخور العملاقة تارة، وتعانقها تارة أخرى؛ قد أعاددت لي ذكرياتي النائمة ...!! ان تألق جمال سالي، ورقة حديثها ودفء أنوثتها، والشوق العارم الممزق الذي يغلي ويصطخب في كل ذرة من كياني، أشعلت الحرائق بدمي ... خصوصاً كلما سدّدتْ نظراتها إلي ورمتني بسحر عينيها، فأغوص في بحرهما، والشوق المستعر في داخلي والذي يغلي ويصطخب في كل ذرة من كياني، وفي كل نقطة دم في شراييني !

وفجأة تذكرت الوطن، فصرت أغوص في أحشاء الذكريات السحيقة الغابرة... لعل توقد الخمرة المشتعل في دماغي وجوفي، بالإضافة إلى كل هذه الصور والتصورات قد أيقظت في داخلي لعنة حب الوطن، فأوحت إليّ بأن أتسلق الصخرة الكبيرة العملاقة، المنتصبة غير بعيد عنا، وأن أقف فوقها وأصيح بأعلى صوتي وبكل طاقاتي ومن أعماق وجداني أنادي:

"أيها الوطن الجريح النازف، المذل المهان، المستباح المداس، المسلوب بعض أجزائك، والتي أخاف على بعضها من الاستلاب ! أنا والله لم أنسك أبدا، وأقسم بترابك أنك لم تغب عن خاطري لحظة واحدة، أفكر بك وأتألم من أجلك حتى وأنا في لحظات الاسترخاء والانسجام !

"إيه يا وطني الحبيب! إنني أجلس الساعات الطوال على أعتابك المقدسة، أنشد أناشيد غرامي المستعر المدنف بك، وأغنيّ أغنيات شوقي وتلهفي عليك ! أنظم قصائد خوفي وتمزقي من أجلك، وأردد أهازيج شموخك وبطولاتك وتألقك ! أبكي تارة لبُعدي عنك، وأبكي تارات لتحكّم الأعداء بك واستعبادهم لشعبك ! إنني دائماً أتهجد في محراب حبك، ودائماً أمسك بشبابيكك المغلقة دوني، وأنوح من أعماق وجداني نواح الأم الثكلى والأب المكلوم...! إيه يا وطني الحبيب ! متى تشرّع أبوابك وتسمح لعيني المقرّحتين بمعانقة ترابك واستنشاق عبير أنفاسك؟! متى أيها الحبيب الغالي؟! متى؟! متى؟!"

"كليّ ملك لك يا وطني، وكل قطرة من دمي فداك أيها الحبيب... الحبيب... حتى وإن كنت عاجزاً عن أن أعمل لك أقل من القليل ...فلينسني الخالق وليسخطني الرب إن نسيتك يا وطني ! لتُشلّ يداي وتعمى عيناي، إن غبت لحظة واحدة عن ذاكرتي ! أنا لا

أفكّر إلا بك، ولا أتألم إلا من أجلك، ولا أشتاق لأحد إلا لك أنت وحدك ...! أنت قلبي... أنت روحي... أنت وجودي... أنت أنا، وأنا أنت يا وطني...!"

عندما حاولت النهوض لألقي بنفسي في ماء المحيط، ولأتسلق تلك الصخرة الجاثمة امامنا كالجبل ، وجدت أنني لا أقوى حتى على الوقوف ...! قلت وعيناي المنهكتان الحزينتان تتأملان وجه سالي الذي يلتف حوله منديل مبرقع غطى شعرها كاملاً، باستثناء خصلة متحدية تقف منتصبة بشموخ وكبرياء، وتغطي نصف عينها اليمنى، مما زاد في جمال الوجه وتوهجه !

- إن المرأة المثقفة في الوطن اليوم، تقوم بنفس البطولات ونفس التضحيات التي يقوم بها الرجل؛ بل إنهن في بعض الأحايين، يتفوقن عليه بالتفاني والفداء ! قلت .

- حقاً، إن نساءنا اليوم لسن كنسائنا بالأمس ! إنهن اليوم ينجبن الرجال العظام ! قال رضوان بفخر واعتزاز.

- إنهن يصنعن الانتفاضة، وينجبن أطفالاً يدافعون عنا، نحن أبناء الوطن العربي الكبير، بعناد وشراسة وإصرار ! لقد ارتقوا، الأمهات وأطفالهن، بصمودهم وببسالاتهم وتضحياتهم، ثم بتصديهم وتحديهم الأسطوري لأعتى قوة شر باغية غاشمة على وجه الأرض، مما يجعل منا أمامهم أقزاماً ! لقد بددوا ووأدوا أحلام الصهيونية، وأوقفوا ابتلاع الأرض ! لقد أخرجونا من سراديب الظلمة واليأس وقيعان الوحل، وحررونا من كوابيس التيه والقهر والخوف! لقد أخرجونا من إحباطاتنا وتمزقنا وحيرتنا، وأناروا لنا فوانيس الأمل ! إن هؤلاء الأطفال وتلك النسوة، هم الذين يدافعون اليوم عن المائتي مليون متخاذل، وهم أنفسهم الذين يرفعون رأس مليار ونصف المليار منهزم ! إنهم هم، نساء وأطفال الحجارة، الذين يحمون بوابات الوطن العربي الكبير، من الهجمة البربرية العنصرية القمعية ! إنهم يحموننا من أن نداس ببساطير جنود وقتلة الأنبياء، وأعداء الإنسانية ومحاربي السلام ! لقد ردوا إلينا هويتنا التي سلبت منا، وحررونا من الاستلاب والمذلة التي عانينا منهما لسنين طويلة، وأخرجونا من قيودنا وحطموا أغلالنا ! لقد عملقونا بعد أن تقزمنا، وأخرجونا من سراديب المهانة والمذلة والعبودية بعد أن استنـزفنا ! إننا لا نساعدهم ولا نتبرع لهم، بل إننا نتمنى الفشل لانتفاضتهم ... لأننا نخاف منهم على عروشنا الكرتونية وأنظمتنا الهشة !

وهنا توقفت تماماً، إذ لم أستطع النطق بكلمة واحدة أخرى، فاكتفيت بالتحديق في وجهي سالي ورضوان، اللذين كانا يجلسان متجاورين، متلاصقين ... قبالتي على الطرف الثاني للطاولة ... واللذين تصورتهما وكأنما هما زوج وزوجة ! لقد أحسست بفيض من الدموع المحرقة تقف في مآقي صلدة كالحصى ... وضغطت جفوني عليها بقوة لتسكبها ... ثم تأوهت من شدة الألم والقهر والأحباط والضياع معاً ... رحماك يا رب رحماك ! اني أحترق... اني اتمزّق ... إ ني أموت ... !

إنني أصرخ في أحشاء الظلمة، وأبكي في جوف الليل ! انني أستغيث من زخم الحزن ومن قساوة القدر، وأقاسي من وجع الوحدة، وعظم المعاناة وألم الجراح... ! في عواطفي حماس المجانين، وفي قلبي جرأة الحمقى، وفي روحي عناد الجبابرة ! لك الله يا وطني... كم كنت وحدي...! آه يا وحدي...! آه يا ضيعتي...!

- هل لك يا رضوان أن تذهب مع البروفيسور دهشان إلى دورة المياه ليغسل وجهه لينتعش قليلاً ؟ قالت سالي، وقبل أن تنهي جملتها نهض رضوان بسرعة وخفة وشهامة، لينفّذ طلبها، ولكنني رجوته أن يجلس، فسأذهب لوحدي !

نهضت ببطء شديد وتوجهت إلى حيث المغاسل، وهناك استفرغت كل ما كان في جوفي، عندها نزلت الدمعتان المتحجرتان في مآقي، دون عناء مني، وإن كنت قد شعرت أنهما بحجم جبال مدينة القدس...! تلك المدينة المستباحة بسبب تخاذل حكّام العرب والمسلمين ، وخيانة بعضهم !

بعد أن غسلت وجهي وعدت إلى مكاني وجدت أن الطاولة قد أفرغت من كل ما كان فوقها، ورتبت ترتيباً جديداً. رأيت النادلة تمسك بالقلم ودفتر الطلبات، فتنحني لتدون ما نريد.

- وماذا تريد أن تشرب مع عشائك يا سيدي؟! سألتني النادلة وقد أزكم عطرها الفاغم أنفي.

- كأس عصير من برتقال يافا ... ! يافا التي شربتُ من عصير برتقالها حتى ارتويت ، ومشيت في شوارعها حتي حفيت ! قلت وأنا أرقب النهدين الصغيرين الذين أطلاّ من فتحة الفستان !

ودونت... وإن كنت واثقا بأن لا أحد من الثلاثة، بما فيهم رضوان نفسه، قد فهموا ما عنيت ! ثم أضفت في داخلي"يافا التي قدمت قوافل الشهداء الذين قارعوا الاستعمار البريطاني، وتصدوا للهجمة الصهيونية الشرسة... يافا التي اغتصبها اليهود وجعلوا من جوامعها وكنائسها ، أماكن للبغاء وممارسة الشذوذ الجنسي، ونوادي ليلية لشرب الخمر، وأماكن لتعاطي المخدرات، وارتكاب الموبقات ! يافا التي نسيها العرب والمسلمون، بل ونسيها حتى أهلها ! المسلمون الذين يقول عنّا القرآن الكريم "خير أمة أخرجت للناس" أحقاً نحن خير أمة أخرجت للناس، أم نحن...؟! اللهم عفوك وغفرانك...!"

إنني محبط تماماً من هذه الأمة المهزومة ! ترى أين هذا الخير؟! وأين هذه القيادة التي وعدنا بها للعالم ؟! نحن أمة قائدة شاهدة على الناس والعصر، ولكن ترى ما سبب دمارنا وفرقتنا وما نحن فيه ؟! وما سبب انحطاطنا الأخلاقي وتخلفنا الحضاري ؟! ولماذا هَمّ كل واحد فينا أن يسرق من الوطن، ويدوس عليه، وليس فينا واحدٌ قلبه مع الوطن، وتهمه رفعته وسؤدده؟! ثم لماذا أصبحنا من أذلة القوم وأضعفهم، بعد أن كنا من أسيادهم وأقواهم؟! واقع الأمر... لست أدري...؟!

عند الباب أمام المطعم، شكرتني سالي على العشاء اللذيذ والأمسية الممتعة، وكذلك فعل رضوان؛ وقبل أن ينطلق كل إلى سيارته، سألني رضوان إن كنت قد قابلت السيد مونتكيو أو هاتفته. أعلمته بأنني لما أقابله بعد، ولكنني تكلمت معه على الهاتف، وأخبرته من أكون وأنني مرسل من قبلك، وتواعدنا أن أزوره في شقته الساعة الخامسة عصر الغد.

- وماذا قال لك؟ أعني كيف كانت ردة فعله عندما كلمته؟ سأل رضوان باهتمام شديد وهو يحدق بي كأنما يخشى أن تكون ردة فعله سلبية.

- لقد رحب بي ترحيباً حاراً، وقال بأنه ينتظر لقائي بشوق. إنه يبلغك تحياته ومحبته، وفي نفس الوقت هو عاتب عليك كثيراً، لأنك لم تتصل به منذ مدة طويلة.

- في الواقع إنني قصرت معه، فأنا لم أتصل به منذ أكثر من أربعة أشهر. لقد ساعدني كثيراً... أكاديميا، حيث وجهني توجيهاً حكيماً... عاطفياً، أيام كنت أعاني من الغربة والحنين إلى الوطن... ثم مادياً بأن توسط لي للحصول على عمل في مكتبة الكلية المتوسطة، أيام كنت طالباً فيها. بلغه تحياتي واحتراماتي، وأعلمه بأنني سأزوره ، إن شاء الله. قال ذلك وتصافحنا ثم توجه بعدها نحو سيارة سالي، التي حضرا بها معاً، والواقفة غير بعيد عنا.

لاحظت أن سالي تباطأت بالمغادرة، مع أنها شكرتني وصافحتني قبل أن يودعني رضوان !

- الرجل الذي أريده وأقدره وأحترمه، لا أحبه إذا شرب أن يسرف في شربه ... ! في الحقيقة، أنا لا أحبه أن يشرب إطلاقاً ... الإسراف في تناول الكحول يفقد الإنسان - سواء كان رجلاً أم امرأة ، هيبته ووقاره واحترامه ! قالت سالي بعد أن ابتعد عنا رضوان بلهجة عتاب وتقريع مُرّة، وبكلمات كأنها حجارة من سجيل !

- وهل توقفتِ قليلا وسألت نفسكِ لماذا شربتُ بهذا الشكل القبيح والمهين؟ سألتُ وأنا أحدق بعينيها اللوزيتين.

- لا يهمني أن أعرف السبب ؛ ثم إنه لا يوجد هناك سبب في العالم يجعل رجلاً بثقافتك وشخصيتك ، يشرب بهذا الإسراف حتى يتساوى مع المتشردين والذين لا بيوت لهم ! قالت وقد ازدادت غضباً، فاحمرت عيناها واشتعل خداها، ثم أضافت:

- أنا أعتبر أن الذين يلجأون للخمرة لنسيان مشكلة ما، هم أناسٌ ضعاف العزيمة معدومو الإرادة، وأنا أعهدك غير ذلك ... !

- أنا أشرب لأنتقم من نفسي بسبب غبائي وقصر نظري... ! لقد كنت أملك جوهرة نادرة الوجود، ففقدتها بسبب حماقتي وسوء تفكيري !

لاحظت أن بعضاً من غضب سالي وشيئاً من توتر أعصابها قد فارقها، وافترت شفتاها عن ابتسامة خفيفة أضاءت وجهها !

- إن العالم مليء بالجواهر المميزة، وجوهرتك التي تقول عنها بأنها "نادرة الوجود" لـمّا تفقدها بعد وتستطيع استردادها إذا شئت ! قالت ذلك وابتعدت خطاها وتركتني متسمراً في مكاني أحدق بظهرها، بعقل مغيّب وعينين جامدتين !

لم أستيقظ من ذهولي ولم يرد إليّ عقلي إلا بعد أن ابتعدت السيارة وغابت عن ناظري، وكالحلم الباهت، أتذكر أن رضوان قد أشر إليّ وحياني بيده تحية الانصراف، وأنني رددت تحيته.

لقد أمضيت طيلة الطريق تلك الليلة وعدة أيام بعدها، وأنا أفكر بما قالت سالي، من أنني لم أفقد جوهرتي النادرة بعد، وأنني أستطيع استردادها إذا شئت، محاولاً أن أحلّ اللغز ولكنني لم أستطع ...!

*****

الفصل الثاني عشــــر

- لقد أعلمني رضوان بأنك عشت في البلاد العربية مدة طويلة ! قلت للسيد جورج مونتكيو حالما فتح لي الباب وتصافحنا.
- لقد كانت حقاً مدة طويلة جدا ! أطول مما يجب! تسعة عشر عاما وخمسة شهور وثلاثة وعشرين يوماً !
- كم أنت دقيق في أرقامك ! قلت وأنا أتبعه إلى غرفة الجلوس وعلى شفتي ابتسامة كبيرة.
- لا شك أنك كوّنت صداقات كثيرة ومتينة.
- فقط اثنتين. أجاب وقد استدار نحوي ورفع إصبعيْ يده اليمنى، السبابة والوسطى، ورقّصهما في الهواء بطريقة مسرحية، ثم استدرك:
- لي معارف كثيرون جدا؛ بالعشرات... مجرد معارف أو زملاء لا أكثر. أما أصدقاء بمفهومي للصداقة فهما اثنان فقط، واحد بالكويت والثاني بالسعودية !
- إذا كنت في عشرين عاما قد كونت صداقتين فقط، فمعنى ذلك أن لا أمل لي في صداقتك ! قلت وأنا أبتسم متصنعاً الأدب والاحتشام والرزانة.
- هذا يعتمد على أخلاقياتك ! قالها بحزم وإصرار وجرأة ودون مواربة؛ فشعرت بمزيج من الصدمة والمهانة وخيبة الأمل معاً، لوقاحة الرجل وجسارته !
- وما هي الصفات والمؤهلات التي تتطلبها من هذا الإنسان، حتى ينال شرف معرفتك، وتسمح له بأن ينال ثقتك وينضم إلى نادي أصدقائك؟! قلتها باستهزاء وقح وتحد متعمد.
- ليس شيئاً كثيراً ولا صعباً... الصدق... فقط الصدق ! ومط شفتيه وهز كتفيه.
- والوفاء...؟! سألت بسخرية !
- الوفاء ليس ضرورياً بالنسبة لي ! الصدق هو أساس كل أخلاقياتنا في هذا المجتمع ! وابتسم ابتسامة صفراء باهتة خالية من المضمون والمعنى.
- الصدق مع النفس والصدق مع الآخرين ... نحن لسنا عشاقاً لبعض حتى يتوقع الأول من الثاني أن لا يسلم جسده لثالث ليستمتع به، وإن فعل، ثارت الغيرة في نفسه واستبد به الغضب، واتهمه بالخيانة وعدم الوفاء ! قال ذلك وهو يومئ لي أن أجلس على كنبة، استطعت من فوقها أن أرى أنوار مدينة " سانتا مونيكا " تتلألأ من خلال النافذة، فبدت كأنها غارقة في بحر زاخر لجيّ من النور الهادر المتوقد !

لقد أدركت أنني أمام إنسان يتمتع بجرأة مذهلة، سليط اللسان، ضخم المفردات، واسع الاطلاع، غزير المعرفة، شرس في كثير من الأحايين في تفكيره وآرائه الجريئة. ولما لم أقل شيئا قال:

- لقد أنساني المتخلف الساقط أن أسألك ماذا تحب أن تشرب؟
وفجأة، شعرت في تلك اللحظة أن بي ظمأً قاتلاً، وكأنما أنا عطش منذ أجيال، إذ أحسست بشهية جامحة ورغبة عتيدة لأن أعب كاسات من الخمر المثلج...!
- أنا أشرب كل شيء ، وسكي... جن... فودكا أو نبيذاً ، وإذا كانت هذه غير متوفرة، فالبيرة تقوم بالمهمة !
- أنا لا أعني مسكرات ... أنا أعني مرطبات أو شيئاً ساخناً. قال وهو يبتسم ابتسامة خجلى ولكنها خبيثة.
- أريد شيئاً بارداً من فضلك. كأساً من الماء مع بعض من الثلج، إذ إنني أشعر بجفاف في حلقي. قلت بارتباك وخجل شديدين إذ بدأ العرق يتصبب من على جسمي!
- من إسمك عرفت أنك مسلم. فقلت لنفسي لا بد وأن تكون من الذين لا يتعاطون الكحول. قال وهو يناولني كأس الماء ويبتسم.
- لم أذق الخمرة قط إلا بعد أن غادرت الوطن العربي الكبير، وأتيت الى امريكا !
- هذه عادة سيئة شجعناك على تعلمها. قال وهو يتناول مني الكأس الفارغة.
- كنت قبل أن أذهب إلى العالم العربي أشرب بالمناسبات فقط، ولما ذهبت إليه صرت أشرب باستمرار وخصوصاً في لبنان ... مجاملة لمن نعاشرهم، فالمشروب واجب هناك. كل شيء يشجع عليه، جمال الطبيعة، رقة ودفء النساء، عمق كتّابهم ومفكريهم، المناقشات الفلسفية والأدبية، تطور الناس وتأثرهم بالغرب.
- وكم قضيت في سويسرا العرب؟! سألته، وكنت أتمنى من أعماق قلبي لو لم يرد اسم هذا البلد خلال حديثنا، فقد كنت أتمزق حزناً عليه، وأتألم لما آل إليه. لقد كنت ، أقضي كثيراً من الليالي ، واقسم برب الأكوان ، لا يغمض لي جفن !
- ثلاث سنوات وأربعة شهور وتسعة أيام ...! تلمّظ ومط شفتيه، وبلع ريقه بغصة، واتسعت حدقتا عينيه، ثم كوّر يده بعد أن رفعها في الهواء ورقّصها، وباعد بين أصابعه وأدارها بسرعة. ثم استطرد:
- أحلى ثلاث سنوات من عمري ! سأجتر ذكراها كل يوم ما دمت حيّاً !
- أعلمني رضوان بأنك أيضا من المتيمين بحب صوت فيروز.
- أنا أحب كل بقعة من أرض لبنان ... البحر والجبل والنهر. ولكن الإنسانين الوحيدين اللذين أحبهما أكثر، هما جبران وفيروز. إنهما اللذان فجّرا حب لبنان في كل ذرة من كياني، ومن أجلهما تدلهت بحب لبنان !
- لست أنت الوحيد الذي يحبه ! أنا أعبده وأتهجد في حبه ! قلت.
- إنني في كل بلد أذهب إليه أفتقد لبنان حتى النخاع1؛ حتى وأنا هنا في بلدي أميركا ! إنني أحمل جبران وفيروز معي في حقائبي حيثما أذهب، وأحمل حب كل ذرة من تراب لبنان في قلبي ومع أحاسيسي، بل وكل وجودي ! لقد أوقفت المسجلة حالما سمعتك تضرب جرس الباب لأستطيع أن أركز معك على الكلام، إذ عندما تكون فيروز تصدح، لا أستطيع إلا أن أعيش معها بكل ذرة في كياني...!
- لا بدّ وأنك تعرف العربية حتى تستطيع أن تتجاوب مع الأغنية!
- الفن لغة عالمية يفهمها كل محب للفن والجمال. أعرف كلمات فقط وبعض الجمل القصيرة.

- وهل تعلم أن إسرائيل تنشر إشاعات هنا في أميركا بأن فيروز إسرائيلية؟ !
ضحك بمرارة، وهز رأسه بأسى عدة مرات.

- إن إسرائيل تزيف الكتب السماوية المقدسة، وتزيف التاريخ والحضارات وكل القيم الإنسانية ... فهل تعجز عن تزييف قصة بسيطة بأن فيروز فنانة إسرائيلية؟ إنهم يزيفون كل ما يفيد قضيتهم. لقد نومت إسرائيل العالم تنويما مغناطيسيا، فشلّت إرادته وألغت تفكيره، وعاملته كمتسول مرتزق وعبد ذليل ! لقد استغلت طيبة قلب العالم، وكرمه وعطفه عليها، كما استغلت نفوذها وسيطرتها، وطاعته لها، فاستنـزفت طاقاته وموارده، ثم ألقت به وبكم معا في حاويات المهانة والذل والاحتقار ! إنها تكسر جماجم وأيادي وأرجل الأطفال الصغار وتفقأ عيونهم، وتقتل الأجنة في الأرحام، والعالم يتفرج ولا يعمل شيئا ! إنها تدمر بيوتكم وتمحو قراكم بلا شفقة ولا رحمة، وتدوس عليكم ببساطير جنودها وتسحقكم كالصراصير، وبكل ما في تاريخها من حقد تلمودي تهرسكم ! كل هذا بمساعدة بلادي وتحت سمع وبصر العالم أجمع ... العالم الذي يسمونه ، ظلماً وزوراً وبهتاناً... العالم الحر ... !!

وبعد أن أشعل سيجارة وسحب منها نفساً أضاف:

- والفضل كله يعود لكم أنتم العرب والمسلمين ... حكاماً ومحكومين !

ومرة ثانية حاولت تغيير حديث السياسة الذي يضاعف أوجاعي وأحزاني كلما خُضت فيه.

- والآن أخبرني يا سيد مونتكيو، ما الذي حببك بالعالم العربي، فتترك جمال كاليفورنيا ورغيد عيشها، حتى تذهب إليه وتعيش به عشرين عاما ونيّف؟!

- القصة طويلة جداً. لقد بدأ حبي لعالمكم عندما قرأ لنا أحد أساتذتي بالجامعة يوماً بعضاً مما قاله جبران في كتابه "النبي"، ثم صار يتحدث عنه بحماس وإعجاب ورومانسية، تماما كما يتحدث متصوف في سرحاته عن معبوده ! كنت وقتها طالب دراسات عليا، وكنا ندرس مساقا اسمه "من روائع الأدب العالمي" وكان هذا الكتاب أحد الكتب المقررة لهذا المساق، وبعد أن قرأت الكتاب وقصصاً أخرى له، ألهب تفكيري واهتز وجداني، فوقعت في حب أدب جبران وجمال وطنه ... حتى إنني تمنيت لو أن بإمكاني أن أغادر إليه للتوّ واللحظة !

- هل تعرف يا سيد مونتكيو أن هذه ظاهرة جميلة ولكنها خطرة في الوقت نفسه ! نحن أحيانا نعشق مكاناً أو مدينة أو بلاداً من أجل إنسان نحبه ولأنه من تلك البقعة... كما أننا وبنفس المعيار، قد نكره بقعة من الأرض للسبب نفسه. لقد أحببت في صغري قصاصاً نمساوياً، اسمه "إستيفانز فيق"، فكنت أحلم أن أذهب يوماً وأعيش في "فينا"!

- نعم، إنها ظاهرة خطرة جداً. إنني أسميها "التغريب" وهي تغريب العواطف والمشاعر والفكر عن بلد المولد والمنشأ. إذ تبدأ القصة بأن يحب إنسان شخصا ما، قد يكون كاتبا أو فيلسوفاً أو مفكراً في أي حقل من حقول المعرفة. أو أن يذهب ليدرس في ذلك البلد، فيحب تلك البلد حتى التدله، إلى حد أنه أحيانا يكره بلده وتراثها وحضارتها، وكل ما تؤمن به وتدافع عنه، لدرجة الاحتقار والازدراء ! يوجد عندنا هنا في أميركا أناس يكرهون العيش في أميركا وكل ما هو أميركي لدرجة لا تصدق ... فيحبون

بريطانيا أو فرنسا أو أي بلد آخر في العالم ! قد يكونون مثلي يحبون العالم العربي كله، أو قطراً منه.

وتوقف قليلا ليسحب نفساً من سيجارته وأردف:

- لقد قابلت الكثيرين في لبنان وبلاد عربية أخرى، ممن أعلموني بحبهم الشديد لأميركا. لقد فكرت بادئ ذي بدء بأنهم يقولون ذلك مجاملة لي كأميركي، ولكن تبين لي فيما بعد إنهم يعنون ما يقولون؛ إذ إن حبهم يعود لأسباب عديدة، دينية أو فكرية، اقتصادية أو اجتماعية، وإن كان معظمها بسبب القمع بشتى أنواعه !

- لا مانع عندي من أن يحب إنسان بلداً آخر إلى جانب حبه لبلده، أما أن تكون محبة ذلك البلد على حساب بلده، فهذا في رأيي منتهى الخيانة وعدم الانتماء ! أنا لا أستبدل العالم كله بحفنة من تراب وطني العربي الكبير ، حتى لو أعطاني ذلك البلد كل ما أحتاجه في هذه الدنيا ! قلت.

- حتى لو أن هذا الوطن رمى بك خارج حدوده؟ سأل السيد مونتكيو.

اضطربت... خفق قلبي، ثم بدأ الذهول على قسمات وجهي؛ إذ كيف عرف هذا الرجل الماكر بأنني ألقي بي خارج الحدود، وأنني أعيش هنا في أميركا كلاجئ أو متشرد؟!

- الوطن لا يرمي أبناءه يا سيدي... إنه يحتضنهم في رحمه ويحميهم بصدره، ويدافع عنهم بحبه. إنهم أحباؤه... هل تفهم؟! إنهم فلذات كبده الذي يموت من أجلهم، أو هكذا ينبغي أن يكون كما يقول المناطقة ! نهب السلطة، وبال على قدسية الوطن وكرامته. النظام، غير الشرعي، هو ليس ابن الوطن ولا ينتمي إليه. إنه دخيل، ابن حرام، لص تسلل في غياب الديمقراطية ...!

توقفت قليلاً لأسمع رأي مضيفي، ولكنه لم يعلق بشيء، وإنما لاحظت أنه ينظر إليّ بعي نين جامدتين محملقتين كأنما يريد أن يخترق جدار رأسي ليقرأ ما بداخله. ولكي أحوّل عينيه الجريئتين عن محاولة اختراق جمجمتي، سألته متجنبا النظر إلى وجهه:

- وماذا كنت تعمل في لبنان؟ في التدريس طبعا؟

وهنا غيّر مكان جلوسه من على الكرسي، فجلس على الكنبة المقابلة، ووضع فخذاً فوق الأخرى، والكأس الفارغة ما زالت بيده اليسرى، وقال:

- نعم، كنت أدرّس الإنجليزية في الجامعة الأمريكية؛ اللغة والأدب الإنجليزيين. ونقل الكأس من يد إلى أخرى وأضاف:

- أنا أحب التدريس لأنني مولع بمناقشة الأفكار، أنا أحب الكلام المفيد.

- إن للبنان فضلاً كبيراً على أبناء الأمتين العربية والإسلامية. إن أعدادا ضخمة من مفكري الوطن العربي الكبير ومثقفيه، قد تخرجوا من الجامعة الأمريكية في بيروت ! الكثيرون منهم أصحاب مدارس فكرية وسياسية، والكثيرون منهم تسلموا مناصب رفيعة جداً في بلدانهم.

- ولكنكم دمرتموه، عليكم اللعنة، أيها الخنازير والقتلة! قطّعتم أوصاله... مزقتموه...! لقد أحدث تهديمه شرخاً كبيراً في وجدان جميع الشرفاء والأحرار الذين يعشقون الطهر والنقاء ويحتقرون القهر والعهر! إنكم بتدميركم لبنان قد دمرتم الذات

النضالية... الذات القومية... الذات الدينية... وحتى الذات الحضارية...! لقد دمرتم الفكر الحر!! قالها بغضب واحتقار بالغين، حتى أحسست كأنما كلماته سهام أو سكاكين يغرسها بجسمي.

تظاهرت بأنني لم أسمع ما تفوه به مضيفي، إذ أخرجت منديلي القماشي من جيبي وتظاهرت كأنما أريد أن أنظف انفي. ولكنه استطرد بحدة وعصبية أكثر من السابق:

- لقد كان المبدعون الأحرار من العرب يهربون إلى لبنان ويحتمون به من جهنم قمع بعض الأنظمة العربية وبطشها بهم، ليمارسوا عمليات النضال والخلق والإبداع، فكان يفتح لهم ذراعيه... يلفهم بحضنه الدافئ؛ يمنحهم حبه وحنانه، ويعطيهم الأمن والأمان ...! صدقني أنكم بتدميركم للبنان، لم تغضبوا الذات الإلهية فقط، وإنما تعديتم على حدودها... تطاولتم عليها !

وتوقف عن الكلام. فلاحظت احمرار عينيه وشررا يتطاير منهما، وأحسست كأنما هو ثور هائج في حلبة المصارعة قد جرح بوحشية في رقبته، ورأى دمه ينزف، فأهاجه منظر الدم وألم الجراح !

- لقد قال الله في قرآنكم بأنكم خير أمة أخرجت للناس، فبرهنتم وأكدتم على أنكم العكس! ولقد قال نبيكم أيضاً تناسلوا فأني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة، ولا شك بأنه سيتوارى خجلاً وعاراً منكم يوم القيامة، لما ترتكبونه من تقتيل وتدمير وتشريد !

تلمست الكنبة التي أجلس عليها، لأتأكد من أن ما أسمعه حقيقة، وأنني لست في حلم، وبدأت مراجل الغضب تغلي في داخلي، فهممت أن أنهض وأغادر المكان، وأن أترك هذا المضيف الوقح، الذي يتهجم علينا وينعتنا بأحقر الصفات وأحطها. ولكن احمرار عينيه والزبد الذي يخرج من فمه أسكتني بل أرعبني حقاً، فترددت.

هممت بالوقوف ومغادرة المكان، حتى دون أن أعتذر من مضيفي، وقد لاحظ أنني أسندت قامتي علامة النهوض، فحدجني بنظرات شعرت أنها رصاصات استقرت في رأسي، فترددت وأرجأت النهوض! لم أستطع أن أصبر لحظة واحدة على الإهانات والتجريح، أكثر مما فعلت لقد كنت حزمة ملتهبة من الغضب والانفعال، وكانت كل ذرة في كياني ترتعد وترتجف مما قاله عنا هذا المضيف الوقح !

نهضت واقفا ومراجل الغضب تغلي في داخلي والشرر يتطاير من عيني، فسرت نحو الباب لأخرج، ولكن الرجل أمسك بي ودفعني بشدة حيث أعادني إلى مكاني ثانية، بعد أن تراقص جسمي لعدة مرات فوق الكنبة؛ تماماً كما يفعل أب نهض ابنه عن مائدة الطعام غاضباً، وقد أشبعه والده تقريعا وتأنيبا، ثم عاد إليها بعد أن أمره بالجلوس !

- هكذا أنتم دائماً، حمقى، تشدكم جذوركم القبلية، تغضبون من الحقيقة، لأنها تؤذي مشاعركم الرقيقة وتجرح كبرياءكم القومي؟! قال كلماته الأخيرة بمنتهى الاحتقار والسخرية، حتى كدت أن أتذوق طعمها تحت لساني !

- أما أعراضكم التي تستباح... وكرامتكم التي تتمرغ بالوحل... وشرفكم الذي استوطن المزابل... ثم تاريخكم الذي يزيف... وأرضكم التي تغتصب... وبيوتكم التي تهدم... وحضارتكم التي تجتث... والناس الذين يذبحون ويشردون... فهذا لا يعيبكم وأنتم راضون به !

فقط في تلك اللحظة، لمعت في خاطري ومضة فكر، وأدركت بكل قناعاتي ومنطقي وحججي، بأن السيد مونتكيو كان يقول ما يقوله عنا، ليس كراهية واحتقاراً لنا، وإنما من شدة غيرته علينا، ومعاناته وحرقته من أجلنا ! لقد تصورته واحداً من أبناء الوطن العربي الكبير، يجلس على رصيف أحد شوارع مدن الوطن ، يبكي حظه العاثر، ويندب قدره الملعون؛ يتمزق قهراً وحسرة على ما يحل بالوطن وأهله ! أن الفرق بين الأميركي جورج مونتكيو، وبين الإنسان العربي الذي هو أنا، أن الأول يستطيع أن يتكلم وأن ينفس عن ثورته وقهره وكربه، ويعبر عن غضبه ونقمته وهمومه دون خوف من مخابرات النظام، بينما الثاني مكمم الفم مقيد الرجلين واليدين...!

ألقيت بنفسي على الكنبة واستلقيت إلى الوراء، وتنفست الصعداء؛ ثم وضعت قدماً على الأخرى واسترخى جسمي المشدود، وارتاحت أعصابي المتشنجة ! لا أعرف كيف فسّر مضيفي تبدّل حالي المفاجئ هذا، من قمة الثورة المحرقة إلى السكون الكامل؛ وإن كنت لا أستغرب قط إن كان قد اعتقد بأن حالي لا يختلف عن حال الملايين من جماهير الوطن العربي الكبير، الذين شاهدهم في كل قرية ومدينة ذهب إليها، والتي تحرق الأرض غضباً عندما تحل بالوطن مصيبة، ثم ينسونها ولا يتذكرونها صباح اليوم التالي !

ابتسمت له ابتسامة باهتة مشروخة مبتورة، فبادلني إياها، دون أن يسألني السر!

- أنت تظلمنا يا سيد مونتكيو...! إننا شعوب مغلوبة على أمرها، مقهورة ومداس عليها من الغرب.

- إن الذين غلبوكم على أمركم وقهروكم هم قادتكم بسبب معاملتهم القمعية لكم!

ثم تحرك في جلسته وازداد حماسه وإن كان قد خف انفعاله.

- إن خالق هذا الكون يجود على كل أمة بين فترة وأخرى، بقائد عظيم مخلص ينقذها مما هي فيه من مأساة تعيشها أو مصيبة ألمت بها. لقد أرسل الله لكم محمداً أنقذكم بدينه من حمأة الجاهلية والجهالة والضياع، وبقيتم تستنيرون بنور الإسلام قروناً، حتى تجاوزتم بعلمكم وحضارتكم جميع أمم الأرض ... ! عدتم بعدها إلى جهلكم وجهالتكم فكرهتم النور والمعرفة، فاستغرقتم في سبات عميق ثانية، حتى جاء صلاح الدين الأيوبي فأيقظكم من سباتكم وطرد عنكم غبار التخلف والجهل، وأحيا فيكم روح الجماعة والاتحاد؛ ولكنكم عدتم إلى السبات من جديد ... وبقيتم غارقين في قبوركم حتى جاء جمال عبدالناصر وحاول إخراجكم من لحودكم ! لقد اقتفى خطى سلفه صلاح الدين، فصمم أن يكمل ما بدأه ذلك البطل العظيم ! كان يفكّر بأن يجمع أولاً شمل المسلمين وأن يحقق الوحدة العربية الكبرى؛ تلك الوحدة التي جاهد المخلصون لتحقيقها سنوات طويلة ... ومات الكثيرون الكثيرون في سبيلها والتي طالما انتظرتها الجماهير وتحرقت شوقاً إليها ! وكان ثانياً يريد أن يوقف نهب وسلب الثروات القومية من قبل الغرب ! وكان الأهم من هذا وذاك أن يعيد للإنسان العربي والمسلم عزته وكرامته، وكذلك حرمته التي سلبت منه والتي انحدرت إلى ما دون الحضيض...!انكم بجهلكم و جهالتكم قد دمرتم مشروعه القومي !

- الله...! الله ...! يا سيد مونتكيو! إنك والله تقول الحق. قلت بفرح غامر !

- أنتم الآن يا صديقي تنتظرون منقذاً جديداً، ولا يعلم إلا الله كم من الوقت تستغرق عودته! يجب عليكم أن تنتظروا مجيئه كما ينتظر المؤمنون مجيء المسيح

المنتظر ! أنتم العرب والمسلمين تنتظرون مجيء هذا المنقذ ليخلصكم من زعمائكم أولا، ثم من إسرائيل وأميركا ثانيا !

سحب نفساً من سيجارته، أتبعها بهزة من رأسه كأنما ليؤكد القول بالإشارة وقال:

إسرائيل تدفع عشرات المليارات من الدولارات، لتجمع أناسا لا تربطهم بفلسطين أية رابطة، اللهم إلا فكرة تعصبية صهيونية؛ وزعماؤكم يشتتونكم في بقاع الأرض ليتخلصوا منكم ! هل سمعت أو قرأت بالتاريخ قديمه وحديثه، عن أمة تقتل مفكريها؟ أنتم تقتلون مفكريكم ومثقفيكم ومتعلميكم كل يوم، وتشردون من لم تستطيعوا الإمساك به. ولهذا لم يبق عندكم إلا الجهلة والمتخلفون والخانعون الذين يقبلون الواقع كما هو !

ومصمص شفتيه على عجل وأضاف:

- ستقول لنفسك يوماً: لقد قال لي الحقير جورج مونتكيو هذه الحقائق !

هنا، ازداد يقيني بأن الرجل كان يتكلم من شدة ألمه وحزنه علينا، فشعرت بأن ثورتي قد هدأت وأن غضبي قد فارقني تماماً، فحاولت أن أغير هذا النوع من الحديث فقلت:

- أرجوك يا سيد مونتكيو! دعنا من حديث السياسة، فوالله إنني أكرهها بشدة، وإن الخوض فيها يسبب لي ألماً مبرحاً حتى وإن كنت أدرّسها! خصوصاً عندما تكون عن أحوال الوطن ... إنني أحس بالغثيان والاختناق، كلما أفكر في مآسي وطني الحبيب الممزق وشعبه المقموع !

- صدقني إنني مثلك أكره السياسة وأحتقر السياسيين. إن كلمة السياسة في هذه الأيام، تعني الكذب والنفاق والغش والخداع ! إن معظم السياسيين أناس كل همهم هو السلطة والنفوذ والمال !

- ما هذا الحظ العاثر الذي أوقعك بحب الشرق الأوسط وأهله؟ سألت وأنا أضحك.

- قصدك أن تقول ما الخطيئة المنكرة التي ارتكبتها بحق الإنسانية؛ حتى تحل علي هذه اللعنة، فأصاب بهذا الإدمان الذي لا شفاء لي منه، وهو حبي لبلادكم ومعاناتي لما يحل بها وبأهلها من تقتيل وتدمير؟! قال مضيفي.

- لقد عبرت خيراً مني. قلت محاولا أن أكون رقيقاً ومؤدباً.

- بعد حصولي على شهادة الماجستير في الأدب الإنجليزي، من جامعة كاليفورنيا في مدينة بيركلي، درّست اللغة الإنجليزية في الكلية المتوسطة في مدينة سان هوزيه، حيث نسكن، لمدة عامين، وهي الكلية التي تدرّس بها زوجتي الآن. هي أيضا مثلي تحمل الشهادة نفسها والاختصاص نفسه وتعرفنا على بعضنا هناك، ونحن ندرّس معا وتزوجنا.

- كم هو جميل أن يدْرس الزوجان نفس الموضوع ! أظن أن هذا يقربهما من بعض. قلت . كنت في ذلك الوقت قد قرأت كل ما كتبه جبران، وما كُتب عنه، فازداد ولعي بلبنان وتولد نفسي الاهتمام بالشرق الأوسط، فكانت معظم قراءاتي عنه، تاريخاً وحضارة واقتصاداً وسياسة ! كتبت رسالة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، أعرض عليهم خدماتي مبدياً ملاحظة مهمة ، بأن رغبتي بالتدريس في الشرق الأوسط، هي من أجل القيام ببعض الأبحاث وللتعرف على حضارته ! وأعلمتهم أيضا بأن المال ليس هو هدفي ولا مطمعي، إذ إنني أقبل أي راتب يقررونه لي! لا شك أن الفكرة أعجبتهم ؛ فكرة عدم اهتمامي بالنقود فشجعتهم على قبولي، فكتبوا إلي بالموافقة !

- كنت أفضّل إكمال دراستي العليا بالجامعة الأميركية في بيروت، بسبب شهرتها الأكاديمية الليبرالية، ولكن لأسباب مادية ذهبت إلى القاهرة. قلت.

- لقد أحببت لبنان وتدلهت بحبه بعد أن قرأت جبران، وبعد أن عشت به واستمتعت بصداقات أهله الحميمة، ثم بعد أن سمعت صوت فيروز، المغنية الوحيدة من بين مطربي العالم كله ، التي يهز صوتها كل خلجة في جسمي ! أنا لا أعرف إلا كلمات قليلة من العربية، ولكن عندما أسمع صوت فيروز، أشعر أنني أعرف اللغة العربية جيداً، وأعرف معنى كل كلمة تقولها الأغنية! إنني أحسّ كأنما أنا في حضرة الخالق أو ساجداً أصلي في معبد، فأقف خاشعاً متعبداً متهجداً...! - صدّقني أنني ما ذهبت إلى بلد خارج لبنان، إلا وأحسست بالحنين الجارف والشوق المستعر إلى لبنان؛ وما فارقته إلا وأعيش على أمل العودة إليه ! لم أفتقد كاليفورنيا في لبنان، ولكنني افتقدت لبنان في كاليفورنيا حتى النخاع ! لم أبكِ شوقاً لمدينتي سان هوزيه وأنا في بيروت، ولكنني بكيت شوقا لبيروت وأنا في سان هوزيه ! إن لبنان في رأيي هي جنة الله على الأرض، وبما أنكم لا تستأهلون جنة الله على أرضه، فقد حرمكم من جماله ونعيمه، فسلطكم عليه لتدمروه! لقد خرجتم من رحم الصحراء القاحلة، ولذلك لا تعشقون إلا هجيرها وزوابعها!

- وأين زوجتك؟ ألم تحضر من عملها بعد؟ قلت مغيراً الحديث.

- نحن مطلقان. قالها بأسى موجع وأسف ممزق، فاستغربت وحزنت معا، فقد أوجع قلبي منظر هذا النمرود المستأسد، وهو يتقلص أمامي، ويصغر ويتضاءل ليصبح إنسانا ضعيفاً عاجزاً قميئاً. الله! الله! سبحان خالق السموات والأرضين! هذا الإنسان الجبار الذي يمشي على الأرض خيلاء وغروراً، يصبح في رمشة عين إنسانا ذليلاً لا يقوى على التغلب على حشرة ! بعض أباطرة الوطن ودكتاتوريوه المتسلطون القمعيون متحجرو القلوب والعواطف، سيصبحون يوماً ما غباراً تذروهم الرياح... أي لا شيء... بل أقل من لا شيء... ! حدّثت نفسي.

- الأولاد الثلاثة عند أمهم ، بنتان وولد. البنت الكبرى متزوجة ولها بنت وولد، من رجل لم تتزوجه بعقد ! لا تسألني عن فلسفتها، فقد ورثت عني التحدي والعناد، وقوة الشخصية وجموح التفكير، والعاطفة المتوحشة! ولدت هي في بيروت، أحبت وأرادت أن تنجب أطفالاً، ولكنها لم تقبل أن توقع على وثيقة عبوديتها، إذ إنها تعتبر وثيقة الزواج صك بيع نفسها لسيد يستعبدها ! هي تعيش الآن "وزوجها" ، ولكنها رفضت حتى أن يحمل الأولاد اسمه! إنهم يحملون اسم عائلتنا "مونتكيو"، وهي تعمل الآن ممرضة في عيادة دكتور !

"تعطيه صكاً تتنازل بموجبه عن نفسها... عن جسدها... تمنحه عواطفها وأحاسيسها وكل كيانها... تقبل أن يضاجعها... يلكدها... يأكل شفتيها... يحرق نهديها... يمزق صدرها... يشعل الحرائق بدمها... ترقص تحته كسمكة خرجت لتوها من الماء... تستصرخ رب العباد من عنف الشهوة ولذة المضاجعة؛ تحمل قطعة منه بداخلها... في رحمها... كل هذا تقبل أن تعطيه له، راضية مرضية، وبشوق ولهفة... بإصرار وعناد، ولكنها ترفض أن توقع على ورقة تقول بأنه زوجها وأب أولادها ! إذ إنها تعتقد أن هذه

وثيقة عبوديتها...! سبحان الله في عقل المرأة...!" حدثت نفسي، وهززت رأسي عجباً وحيرة وأنا أتابع حديث مضيفي.

- البنت الثانية مخطوبة لشاب بالتبني. لقد قابلت خطيبها وهو إنسان رائع جداً، عبقري، طالب دكتوراه فلسفة في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. الصغير مايك ما زال طالباً في الثانوية، ولد هو وأخته الصغرى في الكويت. قضيت ثلاثة أعوام في بيروت وتركتها مضطراً، حيث أن المصروفات باهظة جداً والراتب ضئيل. .. في لبنان تحتاج إلى راتب ضخم لتعيش ... الحياة هناك تتطلب مصاريف كثيرة، وإن كان الإنسان يستطيع أن يعيش بمبلغ ضئيل إذا قنع ! ولكن لبنان بلد التبذير والبذخ والتبجح. في السنوات الثلاث التي عشتها في بيروت، وبسبب جنسيتي ومركزي، تعرفت على علية القوم وعاشرتهم... تعمقت في صداقتهم.

- وكيف فكرت بالذهاب إلى الكويت، ما زال عندك كل هذا الحب للبنان؟!

- أيام تدريسي في " سان هوزيه " تعرفت على طالب من الكويت اسمه أحمد الجاسم. لقد كان هذا الطالب رقيقاً دمثاً خلوقاً. لم أذكره أمام إنسان يعرفه، إلا وقد امتدحه وأشاد بأخلاقه. ومثلما استهوتني لبنان بسبب عشقي لجبران وفيروز، فقد استهواني الإسلام بسبب إعجابي وحبي لأحمد الجاسم. إنه في رأيي، المسلم الوحيد الذي قابلته في بلادكم الذي يطبق تعاليم الإسلام الحقيقية، بروح العصر وبوعي وتفهم !

- صدقني. يوجد مسلمون كثيرون جداً ملتزمون بتعاليم الدين الحنيف ويطبقونها بمحبة وتسامح وبروح العصر. قلت.

- إن صدقه الذي لا حدود له، هو الذي حبّب إلي الإسلام. إن معظم الذين قابلتهم في العالم العربي لهم أكثر من وجه، وعلى درجة متفاوتة من النفاق والكذب والتلون كما السلحفاة! فقط هذا الرجل له وجه واحد، هو الصدق والمحبة والتفاني في خدمة الآخرين ! إنه صادق مع الآخرين وصادق مع نفسه ؛ لقد تعلمت على يديه الكثير الكثير، إنه الآن وزير مرموق في دولة الكويت. وهو الذي طلب إليّ أن آتي إلى الكويت لأن الراتب فيه أفضل والمصروف أقل. إنه على الرغم من مضي زمن ليس بالقصير على عودتي من الكويت إلى كاليفورنيا ، فإنه ما زال يتمنى أن أعود إليها يوماً ! إن العرض ما زال قائماً، لقد قال لي في أي وقت أريد أن أعود إلى الكويت للعمل فأنا مرحب بي، ولكنني تعبت من الترحال وعدم الاستقرار ! أريد أن أعود إلى مدينتي نهائياً وأرتاح، نحن ما زلنا أصدقاء. لقد تعرفت عليه أيام كنت أستاذا في كلية سان هوزيه. كان أحد طلابي الذين يدرسون اللغة الإنجليزية. إنه ملتزم ويتحمل المسؤولية. !

- لا بد من سبب وجيه جعلك ترحل عن الكويت! قلت.

- نعم، الطمع! قاتل الله الطمع... إنه يجعلك تخسر كل شيء...! كنت وزوجتي وأولادي سعداء جدا بالكويت، إنها ليست بجمال لبنان، لبنان بلد انفتاح ومتعة للناس جميعاً، المتزوجين وغير المتزوجين. أما الكويت فهي بلد المتزوجين الذين ينشدون الهدوء والاستقرار والتمتع بالحياة بطريقة كلاسيكية، ثم جمع بعض المال. لبنان بلد الحب والمغامرة والمتعة. لم تركت جامعة الكويت؟ يمكن أن أقول لك إنه الذي تسمونه أنتم القضاء والقدر... الذي يجعل منك حجر شطرنج يحركك الخالق، ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ. أنا أؤمن بالقضاء والقدر؟! ما هذا السؤال السخيف يا أستاذ دهشان؟ كيف

تسألني مثل هذا السؤال؟ لا تقل لي إنك أنت تؤمن به! صحيح؟ كنت أظنك أذكى من ذلك! هذا في دمك؟! تؤمن به منذ ولادتك؟! تقول لي بأنك طالب فلسفة أيضا! نعم... نعم أنا أفهمك. ليس من الضروري أن تتعارض الفلسفة مع القدرية، ولكن غالبا ما يكون طلاب الفلسفة ينكرون القدرية. على كل حال لك الحق في أن تعتقد ما تشاء! إيماني بالقضاء والقدر يلغي فكري وعقلي. أنت تعارض هذا المعتقد بشدة!؟ على كل حال لكم دينكم ولي دين. أنا أُؤمن أنك أنت الذي تصنع قدرك هو ينصاع لك مرغماً!

فجأة، توقف السيد مونتكيو عن الكلام، واستغرق في ضحكة طويلة ولكن هادئة ومتأنية.

- صديقي أحمد الجاسم هذا، طلب مني أن أزوجه ابنتي الكبرى! استغربت جداً بل صدمت حقاً ! لأن الرجل متزوج من فتاة كويتية جميلة جداً ومثقفة، وعندهما ابنة حلوة عمرها عامان. ثم إن زوجته، صديقة لنا جميعاً، نحبها ونحترمها، يزوروننا ونزورهم. ولما ذكرته بأنه متزوج وعنده ابنة، وأن زوجته تحبه وهو يحبها قال، بأنه يريدها أن تكون له زوجة ثانية، فإن الدين سمح له بأربعة وهو ميسور الحال، ويستطيع أن يفتح لها بيتاً. سألته إن كان قد فاتح ابنتي بالأمر، فأجاب بأن العادة أن تخطب البنت من ولي أمرها، قلت له بأن هذا يحدث في دول العالم الثالث، أما في الدول المتقدمة، فتسأل صاحبة الشأن. عندما أعلمت ابنتي برغبة صديقي، غضبتْ غضباً شديداً، وأحست بإهانة بالغة، وكأنما اعتدى عليها ويريد اغتصابها!

- وما سبب غضبها الشديد هذا؟ ألأنه يريد أن يتزوجها على ضرة؟ أم لأنه أكبر منها؟ أو ربما لأنه عربي؟

- في الحقيقة لكل هذه الأسباب مجتمعة. أمضينا والدتها وأنا، شهراً كاملا نحاول إقناعها بأن تنسى الحادث وتعتبره مجرد ذكرى عابرة... ومزحة سمجة وسخيفة!

- أنا أفهم أن تغضب لأنه خطبها منك، ولم يصارحها هي برغبته. وأفهم أيضا لأنه يكبرها بالعمر عشرين سنة، وعنده زوجة، ولكن لماذا لأنه عربي؟ وهل أصبحنا من سقط المتاع؟ سألت وأنا أشعر بالإهانة.

- لأنها تعرف أن جميع أثرياء الخليج يحبون الشقراوات ذوات الشعر الذهبي، والعيون الزرقاء، ليناموا معهن فقط؛ وليس هياماً بهن، وليشاركنهم حياتهم؛ ولهذا اعتبرتْ كأنما هي عاهرة يريد أن يشبع شهواته منها، ثم يتركها !

- والسعودية؛ كيف فكرت بالذهاب إليها؟

- إن السعودية كانت في ذلك الوقت تبحث عن مخطط أمريكي، لينظم لها الخطوط الجوية السعودية. نعم أميركي وليس أوروبيا! إنهم لا يثقون إلا بالأميركان. الاثنان، الحكومة والشعب أيضاً. من السلطان حتى الفراش. هم لا يثقون ولا يحبون إلا الأميركان! هم يحبون كل ما هو أميركي، حتى النساء اللواتي يضاجعها يحبونها أن تكون أميركية، شقراء ذات عيون زرقاء إن أمكن، حتى ولو كانت مجموعة من البله والغباء المتحرك ! إنهم يريدون امرأة يركبونها ويستمتعون بجسدها...عقدة...مركب نقص! يعتقدون أننا شعب متحضر ومتفوق عليهم، وبنا يداوون نقصهم. هم يحبون كل ما هو أميركي، روث البهائم ولطع البقر لو قلت لهم أميركي لقبلوه ووضعوه على رؤوسهم قبل أن يأكلوه ! إنها عقدة الخواجا...! الأميركي عندهم مقدس، منزل من السماء حتى ولو كان مصاباً بالإيدز

أو السفلس. إنه يشعر بالسعادة والاعتزاز والرضا عن نفسه إذا كلمه أميركي، ويحس بالكبرياء والفخر والعظمة إذا كان له صديق أميركي؛ أما إذا قبلتْ ساقطة أميركية أن تضاجعه أو أن تتزوجه، فهو يؤمن بأنه حصل على كل ما يتمنى وولد بالتي تسمونها، أنتم المسلمين، ليلة القدر!!

- ألا تعتقد أنك تبالغ في ذمنا يا سيد مونتكيو؟! سألته بغضب ولكن بأدب.

نظر الرجل إليّ نظرة طويلة، ثم ابتسم ابتسامته الباهتة وتابع حديثه:

- المهم، كانوا يبحثون عن أميركي، يخطط لهم من أجل إنشاء الخطوط الجوية السعودية، وكان مدير التدريب في الخطوط السعودية اسمه حمزة الدباغ، صديق حميم لأحمد الجاسم أيام الدراسة في أميركا ! حيث إن الاثنين أرسلا في بعثة دراسية إلى أميركا. وكنت قد قابلته وعرفته معرفة عابرة في كاليفورنيا! تزوج من لبنانية فاضلة ومتدينة، عاشت دائما في بيروت ورزق منها بنتين، زارت السعودية مرتين فقط، مرة لتعتمر وأخرى لتحج. يقضي كل عطلة وكل إجازة في بيروت. يطير إليها في كل عطلة نهاية الأسبوع مجاناً. فرق كبير بينه وبين أحمد الجاسم، أحمد يخجل أن ينظر إلى وجه امرأة، أما إذا أحرج واضطر للمصافحة، فهو يخرج منديله من جيبه، أو يلف طرف جاكيته أو عباءته على يده ويسلم على المرأة حتى لا تفسد وضوءه ؟

ضحكت بطفولية وقلت ؛

- إنهم يفعلون ذلك عندنا بالقرى وبعض المدن إلى يومنا هذا !

- إنكم حقاً أمة غريبة التفكير والمعتقد! تفسرون الدين كما يحلو لكم، وحسب مصالحكم ! أن تنظر إلى المرأة وتعريها بخيالك، وتضاجعها بعواطفك، فهذا لا ينقض الوضوء؟! فقط لمس اليد ينقضها! يا لكم من منافقين !

- أنا متشوق لسماع قصتك فقط، ولا يهمني رأيك فينا لأنه الأسوأ. قلت بجفاء وغلظة.

- المهم، رشحني صديقي أحمد الجاسم لأقوم بهذه المهمة، بناء على إلحاح صديقه حمزة الدباغ. قلت لنفسي يا ولد يا جورج الآن حانت فرصتك لتبني نفسك، ثم تتقاعد في أميركا وتتفرغ للدرس والبحث. فقبلت وليتني لم أفعل، فإن ، " جويس " زوجتي ، لم تمكثْ معي إلا أسبوعاً ؛ لم تعجبها مدينة جدة ! كانت جدة قرية تجوب أزقتها وحواريها آلاف الكلاب، ومئات الحمير الضالة، كأية قرية بدوية ... كان الأميركان يبنونها ، وكانوا يسرقون ريالاتهم وبترولهم ويضحكون عليهم؛ الشيء الذي يكلف في أميركا دولاراً يسجلونه عليهم ألفا أو ألفين، وأحيانا يأخذون عشرات الآلاف دون أن يقدموا لهم أية خدمة ! الأميركان إذا لم تعرف بعد، هم أقذر شعب على وجه الأرض إذا تحكّموا بالآخرين ... كل ما يفعلونه ويقولونه مقبول عندهم ومسموح. يقولون لك هذا "بيزنس"؛ زوجته يضاجعها السعودي أمامه فيقول لك هذا "بيزنس"! ففي سبيل حصولهم على المال تستطيع أن تهينهم، تشتمهم، تبصق في وجوههم، تركلهم في قدميك، تمرّغ شرفهم وكرامتهم بالوحل، فيتقبلونه ويقولون لك هذا "بيزنس"، إنهم أمة "بيزنس" ... كم أحتقرهم ! إنهم من أقذر الأمم التي أوجدها الله على الأرض بعد اليهود للحصول على منافع مادية ... !

- إذن صديقك الثاني هو حمزة الدباغ ! سألت.

- لا... لا إنه إنسان آخر! أنا معجب به لدرجة لا يتصورها العقل! كانت وقتها لغته الإنجليزية مكسّرة، ولكنها كانت مفهومة مع بعض الجهد. طبعا تحسنت كثيراً بعد ذلك، وأصبحت لا تقل عن لغة الأميركان. إنه ذكي جداً، بل هو شعلة من الذكاء المتوقد. يكفيه فخراً إنه كان يواجه الأميركان الذين كانوا يسرقون، فيعلمهم بصراحة ووجهاً لوجه، كم هم وضعاء وحقراء...! كانوا يخشونه ويخافونه ويهربون من لقائه، فقد كان سليط اللسان جريئاً... تقول مثلي؟! أنا سليط اللسان؟ سامحك الله يا بروفيسور دهشان! ألأنني لا أماري ولا أجامل ولا أنافق؟ المهم... الدباغ ليس صديقي الثاني، إنه شخص آخر مختلف عنه تماما.

- يجب أن تؤلف كتاباً عن تجاربك في بلادنا ... لا شك أنها تجارب غنية ومثمرة ! قلت بحماس وصدق.

- كنت وحمزة الدبّاغ، وأمريكي قذر سيئ الطباع، نقابل بعض الشباب السعوديين لنختار مجموعة جيدة، لغايات تسجيلها في دورة لغة إنجليزية مكثفة لمدة ستة شهور في جدة، ثم نرسلهم بعدها إلى أميركا لإتقان اللغة ! يدخلون بعدها مدرسة طيران ليتعلموا فيها قيادة الطائرات، ثم ليكونوا بعد ذلك النواة الأولى للأسطول الجوي السعودي ... كنا نقابل كل واحد منهم ونسأله مجموعة من الأسئلة، وكان آخر سؤال نوجهه إليه: لماذا يريد أن ينضم إلى الخطوط الجوية السعودية؟ كانت أجوبتهم تكاد تكون واحدة لا تختلف، وهي أنهم يريدون أن يفعلوا ذلك ليخدموا مليكهم ودينهم ووطنهم ! كانوا كلهم يرددون هذه الجمل، حتى لاحظت أن مدير التدريب الدبّاغ، يخجل في بعض الأحيان أن يترجمها لنا فيقول، وكما قال زملاؤه من قبله، بأن الهدف هو خدمة المليك والدين والوطن.

- حتى دخل شاب أسمر أمرد طويل نحيف ... كان الذكاء يشع من عينيه، يمشي فوق الأرض بخفة وكأنما يرقص؛ واثقاً من نفسه يلبس ثوباً مكوياً نظيفاً ومنشّى ... وشعرت أن له عينين كعيني الصقر المتوثب للانقضاض على فريسته، يلبس فوق الثوب جاكيتة سوداء مكشوف الرأس ! عندما دخل ألقى علينا التحية، فرد الدبّاغ فقط. جلس على الكرسي دون أن نأذن له، فألقى عليه الدباغ أول سؤال يسأله عن اسمه، وكان باللغة العربية، ولكنه أجاب السؤال كما أجاب السؤال الثاني والثالث والرابع بالإنجليزية ! الدبّاغ، يسأله بالعربي وهو يجيب بالإنجليزية؛ إنجليزية تفهمهما ولكن فيها كثيراً من الأغلاط النحوية والنطقية. ولكن عندما سأله عن سبب دخوله الطيران وكان السؤال بالعربي طبعاً، أجابه بمزيج من اللغتين العربية والإنجليزية، إذ لا شك بأنه لم يستطع أن يعبر عن نفسه جيداً بالإنجليزية. كان جوابه بأنه يريد أن ينضم للخطوط السعودية للفوائد الجمة التي سوف يحصل عليها، والمغريات الكثيرة التي تقدمها ... فالراتب ممتاز إذ يستطيع أن يعيش حياة ممتعة مرفهة، ويستطيع كذلك أن يحسّن وضع والديه المعيشي وإخوانه وأخواته، فهو يحبذ الأكل الفاخر والملابس الغالية، ثم السفر ليرى العالم الخارجي الذي سيسعد لرؤيته ... كل هذه الرغبات والطموحات تحققها له الخطوط الجوية، إذا صار واحداً من طياريها. وعندما ترجم لنا الدباغ ذلك، وقفت وصحت بفرحة وسعادة؛ فرحة من يعيش كل حياته في كذبة كبرى، وفجأة يجد الصدق وتظهر له الحقيقة. قلت "لله درك ما أعظمك! إنك أنت الصادق الوحيد بين جميع أولاد الكلبة الكاذبين ! "

- ابتسم عن أسنان ناصعة بيضاء وهو يراني أرقص طربا، إذ لا شك أنه وبالكلمات الإنجليزية القليلة المتواضعة، التي يعرفها، فهم ما قلت أو بعض ما قلت. بعدها، رجوت الدباغ أن يسأله: وماذا عن خدمة مليكه ودينه ووطنه، فضحك الشيطان طويلاً، كأنما ألقيت عليه نكتة أعجبته، إذ كان جوابه وبكل صراحة، بأن للمليك وللدين وللوطن خداماً ومحبين كثيرين ... كثيرين ...! أما هو فيحب أن يخدم نفسه ويهتم بمصلحته وشؤون عائلته...!

- قمت وشددت على يده بحرارة ، وصار ينظر في وجهي ويبتسم ببرود وبله تارة، وبفرح صبياني تارة أخرى , .. . وأنا أردد على مسمعه ... بأن له مستقبلاً زاهراً؛ في الخطوط السعودية خاصة، والحياة بشكل عام ... ولكي أتأكد بأنه فهم تماماً ما ذكرت، طلبت إلى الدباغ أن يترجم له ما قلت، فوقف وصافحني وشكرني بحرارة !

- وهل أفهم أن هذا هو صديقك الوحيد في السعودية؟

- نعم. إنه الصديق الوحيد الذي صادقته في كل المملكة العربية السعودية ! إنه ما زال صديقي حتى الآن، وما زلنا نتبادل بطاقات المعايدة والتحيات في شتى المناسبات ! إنه اليوم أحد أعمدة الخطوط الجوية السعودية، وصاحب منصب رفيع جداً. إن اسمه الكابتن أحمد مطر، وهو نفسه الذي أعلمني بأن أعود إلى الخطوط في أية لحظة أشاء.

مرت فترة صمت، نظر مضيفي إلى ساعته، فقفز من على مقعده كأنما نخزه أحدهم بإبرة، فصاح:

- لقد سرقنا الوقت. لقد صار لنا نتكلم ما يقارب الثلاث ساعات، ولا شك بأنك تموت جوعا ! آسف جداً يا صديقي ، لقد تأخرت عليك بالعشاء، ولكن اطمئن كل شيء جاهز. سأضع قطع اللحم البقري على الشواية، والبازيلا المجمدة يستغرق طبخها ثلاث دقائق، والسلطة جاهزة. عشرة دقائق على أكثر تقدير ونكون قد بدأنا الأكل.

بعد العشاء ساعدت السيد مونتكيو في غسل أدوات الطبخ، إذ لا يوجد في شقته جلاية للصحون. وبعد أن وضع كل شيء في مكانه، وضع إبريق الماء على النار، وعندما صفّر أحضر فنجانين ملأهما بالماء المغلي ووضع في كل واحد منهما كيساً من الشاي، وملعقة من سائل بني سميك وحملهما وأجلسهما على طاولة صغيرة في غرفة الجلوس. سرت خلفه ثم قعد على إحدى الكنبايات وجلست قبالته.

- ما هذا الذي وضعته على الشاي؟ ثم كيف عرفت أنني أريد شاياً وليس قهوة؟ سألته وأنا أبتسم.

- إنه عسل، إذ إنني منذ نيف وثلاثين سنة لا أستعمل مع القهوة أو الشاي إلا عسلاً، ولو اضطررت لشربه غير محلى. لقد واجهت هذه المشكلة في أول قدومي إلى السعودية، فقد كنت لا أعثر على العسل إلا بشق الأنفس، مما جعل أي إنسان يريد أن يقدم لي هدية أو"رشوة"فلا بد من أن تكون مرطباناً من العسل،حتى صار مطبخي معرضا لأنواع عديدة منه! أما أنني عملت لك شاياً وليس قهوة، فهذه عادة تعلمتها هناك من أبناء عمومتك، إذ إن شربهم للقهوة الأمريكية قد بدأ مؤخراً، وإن كان الشاي هو المشروب القومي لهم ! أما إذا كنت تفضل القهوة على الشاي فسأبدل لك الفنجان في ثوان.

وهم لينهض، ولكنني أجلسته مخبراً إياه بأن لا داعي لذلك.

- شرب القهوة كشرب الخمر، تعلمتها في بلادكم ! قلت.

- إنني لا أستطيع أن أقول أن شربك للقهوة عادة سيئة، ولكنني أقول إن تعاطيك للخمر هي عادة آذيناك بها، خصوصاً ودينكم يحرّم شربها !

- صدقني، أنا لا أشرب الخمر عادة للاستمتاع، وإنما لأنسى همومي ومشاكل الوطن ! على كل حال، أريد أن أشكرك على دعوتي للعشاء. حقاً، إنه عشاء لذيذ جداً. وأقولها بصدق وليست مجاملة، بأنك طباخ ماهر؛ إن جودة طعامك ولذته ذكّراني بطبخ والدتي في الوطن.

" آه...! ما ألذّ طعامك وما أحلاه يا أمي... إنني أحنّ إلى خبز الطابون من بين يديك، سأعود إلى الوطن ، وسآكله ثانية من بين يديك يا أغلى إنسان في الوجود !"

مرت فترة صمت لم يقطعها سوى صوت ضرب الفناجين بصحونها، عندما قال السيد مونتكيو:

- كما لاحظت، فأنا طباخ ماهر... وكما لاحظت فأنا أحب الكلام كثيرا، وإن أمتع الحديث عندي هو التحدث عن مشاكل بلادكم وعن المعذبين فيها ! ان عندي لك دعوة أمفتوحة وهي أنك تستطيع أن تأتي في أي وقت تشاء إلى شقتي، سأحضر أنا أحيانا إلى شقتك، فنتعشى معاً ونتحدث.

- فكرة رائعة ! موافق بدون تحفظ ! قلت بفرح غامر.

- أنا أعرف أنكم أنتم العرب حساسون، وإن كنت أؤمن أن حساسيتكم هي على الأشياء التافهة ! تستطيع أن تحضر معك كلما رغبت شيئا مما نستعمله في الآكل ! هذا إذا كانت حريمك تسمح لك ؟!

- إنه ليسعدني كثيراً، أن أكون صديقاً لإنسان يعشق لبنان، ويتألم لما يحل بنا ! إنني أريدك أن تتأكد بأنني سآتي إليك كلما سنحت لي الفرصة، إذ إنني في الحقيقة أعاني بالفترة الأخيرة من إحباط شديد لما أسمعه عن الوطن والتمزق والتشرذم الذي وصل إليه ... بالإضافة إلى أنني أعاني من شوق ملتهب لوالدتي وإخوتي ! إنني أحيانا أشعر بالضياع والتمزق والاغتراب، فأحس بخوف قاتل وأشعر أن أناساً يطاردونني ...!

*****

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل عندما استأذنت لأنصرف؛ وكنت أتمنى لو أنها ما زالت الرابعة عصراً!

- أرجو أن لا تحمل في قلبك لي حقداً وكراهية. قال السيد مونتكيو، وهو يبتسم ويمد يده لي مودعاً.

- على العكس من ذلك تماماً يا سيد مونتكيو. إنني أتركك الآن وقلبي مفعم بحبك، واحترامك وتقديرك ! لو كان عندنا في الوطن العربي الكبير من هم في مثل علمك وخبرتك وجرأتك، لما كان حالنا على ما نحن عليه اليوم ... ! إن حالة الأمة العربية والإسلامية تؤلم الوجدان وتدمي القلوب، وتجعل الواحد منا يبكي دماً ! لقد وصلنا درجة من الذل والمهانة والضياع لم تصل مثلها أمة في التاريخ البشري، قديمه وحديثه ... ولا أظن أنها ستصل يوماً ! لقد تعمقت جراحنا، وزاد نزيفها وطال انتظارنا لمن يوقف النزيف ويداوي الجراح ! قلت صادقاً، وبحرارة يشتعل لها جسمي ... !

- أنتم بحاجة إلى من يستأصل المرض الخبيث، وليس إلى من يداوي الجراح ! صدقني إن عندكم الكثيرين ممّن هم يفوقونني درجات، ولكن زعماءكم كمّموا أفواههم

وقيدوهم بالأغلال، وألقوا بهم في غياهب السجون ... دائماً كن متفائلاً فإن زمن الظلمة لن يطول، وإشراقة النور قريبة وإن آخر الليل... النهار...!

- إن شاء الله. قلت بالعربية وأنا أهم بإغلاق الباب خلفي.

- إن الله لا يشاء، إلا إذا شاء الإنسان ! أود أن أسألك، وأين عقل الإنسان وتفكيره..؟!

قال السيد مونتيكو وهو يغلق الباب خلفي.

*****

الفصل الثالث عشـــــر

في الزيارة الثانية للسيد مونتكيو، وقبل أن أضغط على الجرس، وصل إلى مسامعي من تحت الباب صوت فيروز يأتي من داخل الشقة تغني أغنيتها المشهورة "بيروت !" وتخيلت فيروز وهي تقف على سطح إحدى العمارات الشاهقة في وسط مدينة بيروت الشامخة العملاقة ، وقد نثرت شعرها ولطّمت خديها ومزقت ثيابها والدم ينزف من كل جزء من أجزاء جسمها... تبكي تارة وتنوح أخرى... تشكو مرة وتستنجد أخرى... !

كانت فيروز تستغيث وتستنجد بأشاوس وأبطال الأمة العربية، من محيطها إلى خليجها ليهبوا لنجدتها ! كانت تصرخ بأعلى صوتها، ومن أعماق قلبها، ألما موجعاً مفجعاً ممزقاً، والمائتا مليون مرعوب، والمليار ونصف المليار مقموع، يرسلون لها الخطب النارية اللاهبة، ويدبّجون لها القصائد العصماء؛ يؤكدون لها الوفاء والمحبة والولاء، ويحثونها على الصمود والصبر والمصابرة، وإنهم لنجدتها لقادمون... قادمون... قادمون...!

فتح الباب، وصاح السيد مونتكيو عندما رآني بفرح يشبه فرح الأطفال المحرومين المشردين، وقد أعطوا ما يحلمون به، من طعام ومأوى وأمان...!

- كم أنا سعيد لرؤيتك ! منذ الساعة الواحدة وأنا أهاتفك في منزلك وفي مكتبك؛ ولقد أعلمتني سكرتيرة القسم بأنها رأتك تغادر الجامعة حوالي الثانية ظهراً.

- هذا صحيح. لم أعد إلى بيتي منذ أن غادرته هذا الصباح! لقد لبيت دعوة صديقك رضوان الحوراني وصديقته سالي للغداء في مطعم لبناني اكتشفاه حديثا في مدينة "سانتا مونيكا". إن طعامه لذيذ جداً. إنه ككل ما تنجبه وتنتجه لبنان، مميز... مميز جداً...! قلت وأنا أغلق الباب خلفي.

- وهل كان لذيذا حقا؟ سأل جورج وأنا أتبعه إلى غرفة الجلوس.

- نعم. أن أكله من ألذ الأطعمة التي تقدمها مطاعم كاليفورنيا. وأتمنى أن تقبل دعوتي للعشاء فيه غداً مساء، لتحكم له أو عليه بنفسك.

- أنا لا أحب أكل المطاعم إطلاقا؛ أستطيع أن أعدد لك المرات التي أكلت بها في مطاعم طيلة حياتي؛ فالطباخون غير نظيفين، يذهبون إلى الحمام ولا يغسلون أيديهم، وإن فعلوا فهم يقدمون خضروات السلطة غير معقمة ولا حتى مغسولة !

وبعد أن جلس، وجلست مقابلا له أضاف:

- ما عدا المطعم الذي كنت أديره أنا وأخي في مدينة سان هوزيه، بعد تخرجي من الثانوية العامة، فقد كنت آكل به كل يوم ثلاث وجبات لمدة عامين، والسبب هو أنني كنت أنا الطباخ !

- كنت في طريقي إلى بيتي ثم خطرت أنت على بالي... شعرت بشوق شديد للتحدث إليك والجلوس معك... إنني أحس بوحدة قاتلة وغربة مدمرة ! إنني أشعر بخوف شديد ترتعد منه فرائصي وتصطك لهوله ركبتاي !

- لم الخوف ؟! وممن تخاف ؟ وعلى من؟ سألني بحيرة وقلق.

- كيف لا أموت جزعا ولا أتمزق ألما، والوطن من محيطه إلى خليجه ينزف دما وتُقطع أوصاله، وتدمر حضارته وتحرق منجزاته ؟!
- وماذا يهمك منهم؟ فأنت لست من هؤلاء ولا من أولئك ! سأل جورج بدهشة ممزوجة بالغضب !
- لا يا صديقي. إن جميع هؤلاء وأولئك، وكل عربي في أية بقعة من بقاع الأرض هو أخي أو أختي... وكل شبر من أرض العرب هو بيتي وموطني! إن كل جرح في أجسامهم هو جرح في جسدي، وكل ذرة تراب تؤخذ هي اغتصاب لعرضي وشرفي ودوس على معتقداتي وقيمي ! وهكذا يجب أن يكون كل عربي ومسلم منتمياً لأمته ! قلت بجزع مشحون بالغضب.
- إن بينك وبينهم آلاف الأميال، فلم تقلق نفسك وتفكر بهم؟!
- كيف تقول هذا يا صديقي؟ إنهم قطعة مني، ومتواجدون في وجداني ودمي وبين جنبي... فهل ينسى الإنسان نفسه؟! قلت وأنا أحس بأن قلبي حقاً ينزف دماً !
مسحت دمعة حارة بخيالي سقطت في داخل وجداني الممزق، المقهور المحترق !
- لقد نسيت أن أسألك عن رضوان، فكيف دراسته وأحواله؟
- إنه يبلغك تحياته الحارة. لقد أعلمته بأنني أخيراً قابلتك، ووجدتك ممتعاً أكثر بكثير مما وصفك لي، فشكرته جداً لأنه عرفني بك ! لقد وعد بزيارتك قريباً !
- قد يأتي يوم تلعنه لأنه عرفك عليّ ! إنه شاب مؤدب. إنني أحبه كثيراً وأحترمه ولو أنني لا أهتم بالغلاة في الدين، أو أي معتقد آخر! قل لي، وهل الفرخة صديقته فتاة جيدة ؟ قل له أن يحضرها معه للعشاء، أريد أن أقابلها. قال وهو يضحك.
- صديقته فتاة رائعة عقلاً وجسماً وذات أخلاق عالية ! هي طالبة دراسات عليا، ومثقفة ثقافة واسعة، لا تملك عندما تقابلها إلا أن تحبها وتحترمها ! إنها من ولاية واشنطن، من العاصمة "سياتل."
- ولم تتكلم عنها بمثل هذا الشوق والحماس؟ وهل تفكر "بلطشها" منه؟ إنه ليس بغريب على أخلاقياتكم أنتم العرب والمسلمين !
- سامحك الله ! هذا هو رأيك بنا ؟ قلت لك هي فتاة ذات ثقافة واسعة، وأنا تستهويني المرأة المثقفة. أحس وأنا معها كأنما أنا في معبد للصلاة !
- وهل هما جادان في علاقتهما؟ وهل هي ممتعة في الفراش؟ وانفجر يضحك ويقهقه كأنما أعجبته النكتة !
- وكيف لي أن أعلم ! تستطيع أن تعرف منه عندما تقابله، فلا أظنه سيغضب منك إذا سألته... إنكما صديقان منذ مدة ! قلتها شبه غاضب ومستاء معاً !
- ألم تواعدها سراً وتأخذها إلى شقتك وتطارحها الغرام، أيها الأمير العربي الشبق؟ وتابع ضحكه وقهقهته. ولما رأى تجهم وجهي توقف عن الضحك، وقال:
- لولا هذه الدعابات والقفشات التي أنفّس بها عن صدري، لكنت قد تفجرت ولأصابني انهيار منذ أمدٍ بعيد، من هذا العالم الذي يسيطر عليه الشر والفساد والعهر... فإذا كنت يا صديقي ستغضب ويجرح إحساسك المرهف من كل كلمة صريحة أتفوه بها، فمن الخير لنا أن نفترق من الآن !
لم أعلق وتابعت كلامي كأن شيئا لم يحدث:

- رضوان شاب مثقف ومؤدب، أحببته كثيرا من أول لقاء لنا، واستمتعت بأحاديثه الشيقة وآرائه الناضجة. يبدو أنه من المسلمين الملتزمين، وأعتقد أن صديقته تفكر باعتناق الإسلام أيضا، أو هي على وشك أن تفعل؛ فقد صارت تتحدث عن الإسلام كثيراً وتتصرف كمسلمة.

- هه ! قال ببهجة وهو يصفق جذلا. لقد كسب الإسلام نصيراً !

- للإسلام الآن أتباع كثيرون، كثيرون... الكثيرون منهم للأسف الشديد، ضعاف النفوس، ميّتو الضمائر، يبيعون دينهم ويقتلون بعضهم من أجل إرضاء الأجنبي وحفنة من الدولارات ! قلت.

- للأسف ! هذه حقيقة مفجعة ! قال وقد زايله ابتهاجه وغادرته الابتسامة. وبعد توقف قليل استطرد:

- من يدري ! قد يكون الإنسان المعتنق الجديد للإسلام، خيراً من آلاف المولودين به... إنه إسلام الوراثة، وقد تخدم صديقة رضوان الإسلام وتلتزم به خيراً مما تفعل آلاف المسلمات...!

- من يدري؟ ربما ! قلت وقد رافقتها بهزة من رأسي.

مرّت بضع دقائق من الصمت، فقد كنت أفكر بما قاله صديقي الجديد عن سالي وعن الإسلام، ولعله كان هو أيضا يفكر بما كنت أفكر به، إذ قطعت حبل الصمت فقلت:

- كنت عازما أن أعود إلى البيت بعد أن ودعت رضوان وصاحبته ثم أهاتفك من هناك، ولكن بسبب الإحباط والقهر والتمزق الذي أعاني منه، صممت أن آتي إلى هنا رأسا.

وبعد أن رطبت شفتيّ الجافتين بطرفي لساني أضفت:

- أنا لا أذهب إلى أي مكان دون موعد مسبق مهما كانت متانة العلاقة التي تربطني بذلك الإنسان. ولكن عدم حصولي على هاتف في طريقي إلى هنا، وتأكيدك لي بأن آتي وقت ما أشاء - إذ إنك لا تحب الرسميات- شجعاني على ذلك.

- هذا صحيح. أنا أكره الرسميات، وسعيد أنك أتيت، إذ إن لي أكثر من ثلاث ساعات أحاول الوصول إليك؛ إني أريدك أن تقابل صديقاً لي ألمانياً يدرّس اللغة الألمانية في جامعتك.

- في " يو سي إل إي " ؟! سألت باندهاش.

- نعم. إنه أحد أساتذة اللغة الألمانية، حضر كأستاذ زائر من جامعة " هايدلبيرق " بألمانيا قبل أكثر من عشر سنوات، وأعجبته الحياة هنا، فطلب البقاء فوافقوا. ثم حصل على الجنسية الأميركية، وهو في مثل سني.

- ما أشطركم أيها الأميركان ! إنكم تمتصون كل أدمغة متعلمي العالم ومفكريه، وتغرونهم بالدولارات وجوازات السفر والمناصب، كرشوة لهم على البقاء !

- هنا يكمن سرّ عظمتنا ووجودنا كأقوى دولة على وجه الأرض، وسنظل هكذا دوماً. إننا نفتح حدودنا وخزائننا وجامعاتنا ومعاهدنا ومراكز أبحاثنا. وابتسم مضيفي وفتح ذراعيه على وسعيهما كأنما يريد أن يعانق إنسانا !

- وأذرعنا وقلوبنا، لكل إنسان عنده شيء ذو قيمة يفيد به أميركا ... فنشجعه بل ونطلب إليه البقاء والانضمام إلينا فيصبح منا... نكبر بهم ويكبرون بنا؛ ثم إننا أحيانا نرسلهم إلى بلادهم الأصلية، كخبراء أميركان؛ ليساعدوا نهوضها وازدهارها !
- وتحصلون على الثناء، وتضمنون الولاء، فيصبح ذلك البلد تابعًا لكم. وبهذه الطريقة استطعتم شراء معظم حكام شعوب العالم، فأصبح، الحكام، والشعوب معاً، عبيدا لكم وذيولاً.
- هذا صحيح مائة بالمائة! قالها بحماس وعفوية، ثم بدأ يقهقه وأضاف:
- لا تقل لي إنك واحد من تلك الأدمغة. لقد فتحنا لك أبوابنا وأعطيناك عملاً، وسمحنا لك بالبقاء؛ ولكن ليس بسبب عبقريتك وما نستفيده منك... أبداً. وإنما لأننا نشعر معكم، أنتم أبناء البلاد العربية.
- صحيح إنكم تشجعوننا على البقاء وتجدون لنا أعمالا. ولكن ليس حباً بنا، وإنما حبا بدولة داوود الديمقراطيا. إنك تعرف هذه الحقيقة أكثر مني، ولست بحاجة كي أؤكدها لك! إن دولة داوود الديمقراطية تريد أن تفرغ الوطن من أبنائه المتعلمين ليفسحوا المجال لإحضار داووديين مهاجرين جدد !
- وما ذنبنا إذا كان الناس يحبوننا، ويقدمون لنا خدماتهم دون أن نطلبها؟! قال وابتسامة ممزوجة بالسخرية تعلو شفتيه.
- نحن قلعة الحرية وواحة الديمقراطية... نحن مثال يحتذى! قال بفتور.
- لقد أسأتم إلى مفهوم الحرية ودنستم الديمقراطية، تبيحونهما لأنفسكم وتحرّمونهما على غيركم. قلت .
- لقد آزرنا جميع الثورات في العالم، وقدمنا المساعدات الإنسانية لكل محتاج لها...
- إنكم تفعلون ذلك للدعاية لأنفسكم ولأنظمتكم! إنها مزايدات فقط، تقصدون من ورائها أن يعتقد العالم بأنكم تدافعون عن حقوق الشعوب المستضعفة ضد طغيان حكامها؛ والحقيقة هي أنكم تؤازرون وتدعمون الدكتاتوريات ضد شعوبها...!! إنكم أنتم الذين اخترعتم وسائل سحق الأفكار التحررية... وأنتم الذين دربتم بوليس الأنظمة القمعية كيف يعذبون أحرارهم ويلغون وجودهم... إن أميركا هي سبب مصائب العالم وويلاته، ولو لم تكن أميركا وحليفتها إسرائيل، لكان العالم اليوم ينعم بالحب والإخاء والرفاهية ...! لقد أعطى الله أميركا إلى شعوب العالم كافة، لتكون لهم واحة حب ورفاهية، ولكن حكام أميركا جعلوا منها سيفاً مسلطاً على رقاب المستضعفين، ولعنة تجلب الشر والبلاء والتعاسة للإنسانية جمعاء!
- ما جريمتنا إذا كان الجشعون ضعاف النفوس منكم ، ينهبون ثروات الوطن التي يسرقونها من أقوات الجائعين والمسحوقين والأرامل واليتامى، ويبذرونها على موائد القمار ومواخير الدعارة، بينما أنتم تستجدون على موائد الغرب ليقتات فقراؤكم وجياعكم؟! أخبرني ما جريمتنا؟
- أنتم الذين شجعتموهم على أفعالهم الشنعاء هذه؛ ثم إنكم أنتم الذين تحمونهم من غضبة شعوبهم الثائرة، وتصفقون لهم في النهاية!
- نحن لا نحميهم حباً بهم. إنهم، كلهم، لا يساوون عندنا دولاراً واحداً. نحن نحميهم لأنهم يحافظون على مصالحنا. ..سمها مبادلة منافع.

قلت وقد نسيت نفسي في وسط حماسي، بينما لاحظت أن مضيفي يتكلم كنوع من المماحكة والمجادلة !

- لا تنس أن فقرنا صنعه الاستعمار البريطاني وكرسه الاستعمار الأمريكي الذي حل محله. إن كلا الاستعمارين، ولعشرات السنين، جرّعانا الذل والمهانة والقهر، وفرضا علينا الجهل والتخلف والتبعية. لقد تحملنا اضطهادهم وذلهم وهوانهم، وأذاقونا ألوانا من القهر والعبودية والإرهاب، حتى لم نعد نشعر للحياة مذاقا غير مذاق الخوف والقلق والتشرد ! لقد أسكنوا في قلوبنا الهزيمة لعشرات السنين، وزرعوا في نفوسنا الرعب والإحباط والشعور بالاغتراب! قلت .

كنت قد اتهمت الطالب رضوان الحوراني بالمبالغة الشديدة يوم أعلمني بأن السيد مونتكيو يعرف عن أحوال الوطن العربي الكبير ، أكثر بكثير مما يعرفه السياسيون والمهتمون بشؤونه من أبنائه، وأكثر بكثير أيضا حتى مما نعرفه نحن عن أنفسنا ! ولقد تساءلت مراراً من أين للسيد مونتكيو، هذا الشخص الغريب، كل هذه المعلومات والأسرار الدقيقة؛ وهو ليس واحداً من أبناء الوطن العربي الكبير، ولا حتى يتكلم لغته؟! حقاً لقد أذهلتني معرفته العميقة بأوجاعنا وعذاباتنا، وكلما تعمقنا بالحديث والبحث، تأكد لي بأنه لا بد وأن يكون وراء هذا الرجل سراً كبيراً ! فهل يأتي اليوم الذي سأعرفه؟!

- وأين صديقك الألماني؟ سألت لأغير موضوع النقاش الذي يحزنني الخوض به.

وبعد أن نظر مضيفي إلى ساعته أجاب:

- سيحضر بعد ساعة وخمس دقائق من الآن، أي في تمام السادسة. لقد دعوته للعشاء وحسبت حسابك. وقبل أن يتلقى إجابتي بالقبول أو الرفض نهض وقال وهو في طريقه إلى المطبخ:

- سأجهز فنجانين من الشاي.

نهضت ولحقت به. وبعد أن أضاف قليلا من الماء إلى الإبريق، وأشعل النار تحته، جلس إلى طاولة صغيرة محاطة بأربعة كراسي، وأشار إلي أن أجلس على الكرسي المقابل.

- إن عالمكم العربي زاخر بالخيرات والثروات، ويغص بالمفكرين وأصحاب العقول الكبيرة، وذوي الكفاءات والطموحات الجبارة؛ كما إن تعداد سكانكم يقارب تعداد سكان أميركا، وعندكم مثلما عندنا وأكثر. إنكم تستطيعون أن تكونوا من إحدى الدول العظمى! إننا في أميركا نستقبل كل قادم يمكن أن يفيد الوطن، ونستقبل حتى الذين يمكن أن يكونوا عالة علينا! إنهم أجناس وأديان وألوان متباعدة، ومع هذا نرحب بهم ونعطيهم عملا وجنسية ! ان دول النفط فاحشة الثراء، وأهلها تنقصهم الكفاءات والخبرة العملية والعلمية والأيدي العاملة، وفي بقية أقطار عالمكم العربي والإسلامي ما يعوض هذا النقص ! إن أهلها فقراء، ومن المفروض والواجب أن تفتح تلك الدول لهذه الكفاءات صدورها وترحب بهم، فتعطيهم عملاً وجواز سفر، فيذوبوا في مجتمعاتها ويصبحوا جزءاً منها، وخصوصاً والجميع منكم يرفعون شعارات الإسلام والوحدة العربية ويتغنون بها !

رشف رشفة شاي أتبعها بمجة من سيجارته. ومرت أكثر من دقيقة لم يُسمع بها صوت سوى رشف الشاي وصوت الفنجانين تضرب الصحون عندما قال:

- لقد غابت عن بالكم أيها العرب والمسلمون حقيقة ساطعة سطوع الشمس، وهي أن جميع رؤساء أميركا وأوروبا، إما من أبوين يهوديين أو أن أحدهما يهودي. أما إذا لم يكن يهودياً بالدم واللحم فهو يهودي صهيوني بالتعصب والعقيدة ! لذا، فإن دول الغرب لن تسمح لكم إطلاقا، ولا تحت أي ظرف من الظروف، أن تطلقوا رصاصة واحدة على إسرائيل حتى ولو كنتم تملكون التكنولوجيا الأكثر تقدما والأسلحة الأكثر تطوراً ! إن هؤلاء الرؤساء قد يسامحونكم إذا اعتديتم على بلدانهم، ولكنهم سيصابون بالجنون ويفقدون عقولهم أن أنتم اعتديتم على إسرائيل! إن الطريقة الوحيدة التي تزعزع إسرائيل وترعبها وتجبرها لأن تجلس معكم على طاولة المفاوضات والتنازل عن بعض أجزاء من الأراضي المحتلة هي الانتفاضة... الانتفاضة وحدها!! إن طفل الحجارة لأشد مراساً وأقوى شكيمة وعناداً، ولأكثر شجاعة ورجولة، ولأعظم إخلاصاً ووطنية، من معظم حكام العرب والمسلمين...!

فجأة بدل مضيفي لهجته العقلانية الهادئة السلسة إلى انفعال وتشنج وفظاظة:

- لقد هدم أطفال الحجارة حاجز الخوف عندكم، عرباً ومسلمين؛ ورفعوا سقف الكرامة والإقدام إلى أعلى مستوى له، وبنوا فيكم جبالا من الشموخ، وضخوا في دمكم محيطات من الكبرياء، وحموا حدودكم من الاجتياح والاغتصاب ...! ومع كل هذا، فأنتم تبخلون عليهم بلقيمات يسدون بها جوعهم ومعاناتهم... في حين يجب على كل عربي ومسلم، أن يأكل وجبة طعام واحدة ويرسل لهم وجبتين...!

لم أتفوه بحرف، فقد تأكدت الآن بأن مضيفي معبأ من أجلنا نحن، أبناء الأمتين العربية والإسلامية، وأنه مقهور ومحبط لحالتنا وما أصابنا. إنه عندما تشتعل مراجل غضبه يفقد السيطرة على تصرفاته فتتحول عيناه إلى شعلتين متأججتين من نار، ويتحول هو نفسه إلى بركان ثائر.

هب منتصبا من على كرسيه كأنما وخزه مخرز، وصار يروح ويجيء في أرض المطبخ، وكأنما النار المتأججة بداخله قد امتدت إلى الكرسي الذي تحته فلم يعد يطيق الجلوس.

- وهل سمعت بأناس حتى المتوحشين الذين يعيشون بالغاب، يقتلون مفكريهم؟ لقد قتلتم مفكريكم وتقتلونهم في كل يوم؛ قتلتم منهم الآلاف...!! لقد قتل اليونان مفكراً واحداً فقط، أفلاطون، قبل آلاف السنين. والعالم حتى اليوم ما زال يتحدث عن تلك الجريمة البشعة النكراء، فلم يسامح "أثينا" ولم يغفر لها فعلتها! ماذا تركتم لأولادكم وللأجيال القادمة؟ ماذا سيقولون عنكم؟ إنهم سيلعنونكم وسيمقتونكم! إنهم سيبصقون عليكم!!

كنت ومضيفي يرغي ويزبد ويزمجر، أبكي صامتا في داخلي، دموعا، قبس الجمر المتوقد أخفّ احتراقاً وتأججاً منها! كنت أبكي وطني الكبير... الجريح النازف الممزق . وأبكي على أهلي، كل أهلي، من المحيط إلي الخليج، ومن الفرات إلى النيل...! أهلي المضطهدين المقموعين المشردين، والذين يهيمون على وجوههم في تيه الضياع وصحارى العدم ! أهلي الذين تجمعت عليهم كل قوى الشر والطغيان والظلم من ذويهم ومن الغرباء، والذين ما زالوا ولعشرات السنين، ما يكاد يتركهم ظالم إلا ليسلمهم إلى من هو أعنف قمعا وأظلم... ولا يغيب عنهم وجه جزار إلاّ ليظهر بدلا منه جزار أكثر تفنناً وأكثر همجية وذبحاً، وكأنما هم موكلون بقضاء الله يذرعونه!!

كنت في داخلي أتمزق على أمتي التي انمحت من الوجود وصارت في عداد العدم! كيف لا أبكي وهذا الأمريكي الغريب عنا، حضارياً ودينياً وجغرافياً، يتمزق علينا ومن أجلنا، ونحن أنفسنا الذين نعذب أهلنا ونمزق وطننا ونبيعه في سوق النخاسة وعالم خرب الذمم! إن القلة من بني قومي غارقة في متع الحياة ولذات العفن، ناسين أو متناسين الوطن وهمومه وأوجاعه. والكثرة منا تعيش حياة الكلاب الضالة المطاردة في أزقة الوطن وشوارعه !

كنت سارحاً مع خيالاتي مغرقاً في تهويماتي، ومضيفي ينظر ويسب ويتهم... عند ما انقطع فجأة الاتصال السمعي والعقلي بينه وبيني، فاختفى وعيي في غيبوبة، وصارت كلماته تصل إلى طبلتي أذني وشاشة دماغي كنقرات متقطعة... متخشخشة... خرمشات وفقاعات لم أفهم منها شيئا، ولم أدرك كنهها! لم أعد أتابع ما يقول، فلقد حلقت في ارتكاسات نورانية وتلاشيت في تهويمات هلامية، مزيج من الصوفية والرومانسية العذرية... أتعبد في محراب الروح وأتهجد في أحضان الجسد...! لقد كنت أحدق بمضيفي بعينين جامدتين شبه ميتتين، وكانت تتراءى لي الجماهير الغاضبة الثائرة في طول الوطن وعرضه، كالأشباح الضبابية!

الوطن... آه... الوطن... آه ما أبعدك وما أقربك، ما أجملك في عيني وما أقبحك في عيونهم...! اللعنة... المرأة... الحبيبة المشردة ... الفلاحة السمراء على العين تحمل جرّة الماء، غزليات الغدير، مطاردات الحبيبة الأولى، الوطن، المرأة، سميحة، المرأة الوطن، المرأة هذا الوطن الصغير، فإن لم تعشق وطنك الصغير، لن تعشق وطنك الأكبر... الأكبر... الأكبر... تتداخل الأشياء... إني أصعد... إني أغرق... سميحة... سميحة... سميحة...!

ثم فجأة تشابكت زينب مع جودي، وبياتريس مع جنفيف، وهند مع مارلين، وأسماء مع جودي، وسميحة مع فتاة لا أعرف اسمها وأراها لأول مرة، وإن تبينت فيها الكبرياء والأنفة والأرستقراطية ! فتاة لم تدخل حياتي بعد، ولعلها في الطريق إليها ! لقد هزّتني من أعماق وجداني ! فتاة بدأت أتصورها، وأحلم بلقائها منذ أن بلغتُ التاسعة من عمري، وما زلت أحلم بها وإن لم أقابلها ! فتاة اخترعتها مخيلتي من حوريات الجنة في قصص القرآن الكريم، وأحاديث الشيخ عفيف والشيخ عبد الحليم زيد الكيلاني ، استاذي الدين ... وقصص ألف ليلة وليلة !

لقد شعرت للحظات أنها قلبت حياتي رأسا على عقب وغيرت مجراها تغييرا كاملا ... ! اللهم سترك وعفوك ! لقد تشابكن جميعا بالأيدي وتماسكن بالشعر، ودارت معركة أنثوية حامية، استُعملت فيها كل أنواع العطور، فاحتدم الصفع والركل وشد الشعر وتمزيق الملابس، فاختلط الحابل بالنابل، وزاغت عيناي للمرة الثانية، وللمرة الثانية فقدت اتصالي مع ما هو موجود أمامي، فشعرت كأنما شربت كل الخمور المعتقة في قبو سرّي !! فأحسست بنشوة خلودية عارمة ! وهل هناك سعادة أكثر متعة وجذلاً، وأعمق حبوراً وطرباً من أن تعب من خمر معتق حتى الارتواء...؟! وأن تغرق كل كيانك ووجودك فوق صدور ونهود الحسان وبين أحضانهن...؟

ثم فجأة، تحولت الكواعب الأترابُ جميعهن، إلى مزيج من الشعاع والنور وكل أنواع الزهور والورود، تسبح في ملكوت الخالق الأعلى ! الأعلى... الوطن العربي

الكبير... الأغلى... أنت الأغلى... أنت الأغلى... أقسم بالله العظيم، أنت الأغلى؛ ورب الكعبة والمسجدالأقصى ، إنك أنت الأغلى ! عليكم اللعنة...!كلكم عملاء للأجنبي... لأعداء الوطن... كلكم خونة... كلكم تتاجرون بالوطن... تبيعون به وتشترون ! الذكريات تلهب عواطفي ! الشوق يقتلني... يمزقني... يسحقني... يحرقني...! سميحة... آه سميحة... أين أنتِ ؟ عليك اللعنة أنتِ أيضاً...! إنكِ امرأة تافهة... تافهة... تافهة... ككل بنات جنسك... عقولكن مبرمجة بما بين أفخاذكن...! تزوجت وتركتني أعاني من اليتم مرتين... يتم وفاة الوالد... ويتم بعادك عني ... !!

قفزت من غيبوبتي فوق الكنبة مذعوراً، إثر نخزة بكتفي من مضيفي. هززت رأسي يمنة ويسرة، ولمرات عديدة، لأطرد آثار تهويمتي ولأسترد وجودي... ولما عاد إليّ بعض من وعيي، وصل إلى أذني صوت مضيفي كأنما هو قادم من وراء الأبدية، ضعيفاً هادئاً، بل لعله منهكاً.

- مالك؟ هل سهوت؟ هل ضايقك كلامي؟!
- لا... لا... قلت مدافعا بارتباك، كالذي قبض عليه متلبساً:
- كنت سارحا أفكر فيما تقول عنا !
- أنتم بحاجة إلى أن تفكروا... تستعملوا عقولكم وليس أدباركم !
- نعم هذا صحيح. نحن قلما نستعمل عقولنا، ولكننا نستعمل أدبارنا كثيراً... كثيراً جداً ! نحن أمة أدبار وإدبار ...!
- بعد ربع ساعة سيكون ابن الكلبة هنا ! إنه لا يأكل شرائح اللحم البقري المشوي إلا إذا وضع فوقه صلصة "اتش بي" الفاتحة للشهية، كأنما الوعل... الخنزير... بحاجة إلى فاتح للشهية !
- ألا يوجد عندك هذا النوع من الصلصة؟ سألت وأنا ما زلت سادراً في غيبوبتي.
- هذا ما أريد أن أطلبه منك. يوجد بقالة صغيرة عند تقاطع الشارع على الزاوية، إذا تلطّفت، فاشتر قارورة منها !

قبل أن أصفق الباب خلفي، ناداني من داخل المطبخ :

- لا تتأخر، لأن الخنزير الشره دقيق جداً بمواعيده، خصوصاً إذا كان مدعواً إلى الطعام ! سيكون هنا خلال عشر دقائق بالضبط. إنه يحب أن يأكل حال وصوله !

لا أدري لماذا ذكرتني كلمتا "دقيق بمواعيده" بصديقي شعاع الفاهوم في الوطن، يوم كنا نتواعد على اللقاء في بيته عصر كل يوم تقريبا؛ يا ما أحلى وأسعد اللقاء في بيته ! ودائما يكون اللقاء في الساعة السادسة. إن ضربي لجرس الباب يتزامن مع لحظة ضربات بندول ساعة بيتهم الكبيرة والمعلقة على الجدار، يعلن الوقت المحدد ! كنت وأنا أنتظر فتح الباب، أشعر في تلك اللحظات كأنما أنا أنتظر فتح باب جنة الخلد التي وعد الله بها عباده الصالحين...! لقد كنت أيامها واثقا من طهري وتقاي وصلاحي، وكنت أيضا واثقا من أنني في يوم ما، وبعد أن أموت، سأطرق باب جنة الخلد، وإنه لا محالة سيفتح لي ... ! أما الآن فقد غرقت بالرجس والخطيئة إلى ما فوق أذني، وأحس أن بيني وبين الخالق باباً صفيقاً... صفيقاً... صفيقاً ... لا تزيله حسنات أهل العالم ولا صلوات أهل الأرض...! لقد كنت وقتها أحس أن بيني وبين الخالق جداراً من شعاع ونور... أستطيع

أن أركبه وأصعد إلى أعلى... إلى الخالق... أستطيع أن أصل إليه وأدعوه فيستجيب دعائي ساعة أشاء ... ! !

أما اليوم فالحائط بيننا سميك سميك، أكثر سمكا من جبال "ولسن"، التي تحتضن كل مدينة "لوس انجلوس" ومعها عشرات المدن المحيطة بها ! فالبون بيننا شاسع... شاسع ! كنت في كل مرة أذهب لتلبية موعد صديقي شعاع ، أنتظر من رضوان، حارس الجنة أن يفتح لي بابها، وكان سيدنا رضوان، أكرمه الله ما أعظمه، يرسل من ينوب عنه فيفتح لي باب الجنة، وعندما تطل عمة صديقي الأرملة... الشابة... ابنة التاسعة والعشرين ربيعاً... التاسعة والعشرين قرنفلة... والتي تكبرني كثيرا... ذات العينين الزرقاوين الدافئتين، اللتين كنت أشعر وهي تنظر إليّ وتبتسم، كأنما - والله يشهد ، واقسم بالوطن بالوطن العربي الكبير - بأنها كانت تحتضنني بهما وتلفني رموشهما فأدخل، وبواسطتهما، جنة الخلد، وأتمدد على أريكة ممدودة ، خضر وإستبرق، وأنوثتها الدافئة حيناً، الهادئة أحيانا، والطاغية الجارفة المدمرة في أكثر الأحايين؛ وشبابها الصارخ المعربد، وصدرها النافر المتوثب، وجسمها الأهيف الممشوق، يستصرخ رب العباد أن رفقا بالعباد. فأجلس على باب الجنة، وأبكي بحرقة ، لرب الأكوان، أسترحمه وأستعطفه وأتوسل إليه أن لا يخرجني من جنته، وأن لا يحرمني من نعيمها، وأنا ساجد راكع، صامت أتعبد في محراب الشوق والتدله، أنظر ولا ألمس، وأتقد وأشتعل وأحترق ولا أنطفئ... أشتهي ولا أذوق... وأموت جوعاً وأبقى صائما ...! أليست النساء الجميلات جنات خلد لعابد الجمال ! ألسن هنّ جنة الرجل الصالح الذي وعده الله بها ؟ أليس الله جميلا يحب الجمال، فخلق الجمال لعباده الصالحين المتّقين، فيعبدون ما خلق حتى يصلّوا إليه هو... الخالق... رب الأكوان ... ؟!

كانت دائمة الترحاب بي، تسعد لرؤياي وتبتسم... آه ...! ما أحلى ابتسامتها...! ابتسامة حورية ورب الكعبة ! تفتح لي باب الجنة، وكانت دائماً ترحب بي؛ وكنت دائما أدخل المحراب طاهراً متوضئاً مستعداً للصلاة ... !

تساءلت وأنا أحث الخطى متوجها إلى البقالة الصغيرة، الواقعة على زاوية الشارع، لأشتري قارورة صلصة من ال "اتش بي" ليستعملها صديق مضيفي الذي لا يستسيغ أكل "الستيك" بدونها... والذي لم يذقه معظم أهلي بالوطن، بل ولم يسمعوا حتى باسمه !! نعم. تساءلت، يا ترى أين أنت الآن يا سمحة ؟ ! هل أنت الآن بالناصرة أم في برج البراجنة ؟ وهل أولادك الآن يا ترى، يتلقون بصدورهم العارية، ورؤوسهم المكشوفة رصاص وهراوات جنود الصهاينة، يدافعون عن أرض الوطن، ويحمون الأنظمة العربية الكرتونية المتداعية؛ أم أنهم الآن يقبعون في ملاجئ بيروتي ...؟! وبصقت بصقة شعرت بضراوتها وأنا أوجهها صوب خارطة الوطن العربي الكبير، المعلقة في الصالة الصغيرة في شقتي... ثم تخيلتها وكأنما أحرقت جميع سكان منطقة "لوس انجلوس" العشرين مليوناً. ثم أغلقت نافذة تفكيري، وتابعت سيري.

دفعت باب البقالة، ورقصَت حزمة النحلات الجرسية والمثبتة خلف الباب كمنبه تحذيري، وأرسلتْ الحسناء ذات العينين الزرقاوين والشعر الذهبي الطويل المرسل على كتفيها بطريقة تظاهرية تفاخرية، والجالسة خلف الآلة الحاسبة الكبيرة، ابتسامة ناعمة دافئة استقبلتني بها حالما فتح الباب ودلفت!

رددت تحيتها بابتسامة واسعة وأجلت النظر في البقالة. كانت بقالة صغيرة جذابة نظيفة ومرتبة. إن البرودة التي يرسلها مكيف الهواء المركزي تزيد في جمال المكان وجاذبيته بل وطلاوة من فيه، فترطّب الروح وتنعش القلب ! لم أجد مشقة بالتعرف على مكان طلبي، فقد كان موضوعا على الرف الذي على يميني، هو وأصناف عديدة من فصيلته. حملته ووضعته على الطاولة التي أمام الشقراء ودفعت إليها بالنقود. كنت لحظتها الوحيد الذي يقف أمام الأفعى الشقراء، بل كنت الزبون الوحيد في البقالة كلها!

بعد أن حيتني ثانية، كبستْ بإبهام يدها اليمنى الصغير الرقيق على الآلة التي انفتحتْ أتوماتيكيا. رفعتْ ضاغط النقود الورقية وأضافتْ ما أعطيتها إلى مثيلاته ثم أعادته إلى مكانه، بعدها التقطتْ بعض القطع الفضية ووضعتها أمامي على الطاولة وهي تشكرني. ثم استلتْ كيسا ورقيا وضعتْ به القارورة وقالتْ وهي تناولني الكيس:

- إنني أعرف جميع الذين يترددون على البقالة، قلة منهم بأسمائهم والأغلبية بوجوههم. إنها المرة الأولى التي أراك بها، إذ لا بد وأن تكون قد سكنت حينا حديثا !

وقبل أن أعلق بشيء أضافت:

- وبما أنك انضممت إلى عائلة بقالتنا السعيدة، فإننا زوجي وأنا، نرحب بك ترحيباً حاراً، ونهتم بملاحظاتك وانتقاداتك بصدر رحب! اننا نرجو أن لا تتردد بإبدائها حتى نعمل على تصويب الخطأ. فزوجي وأنا نعتبر البقالة ملكاً للحي وأهله، لأنه بسبب مؤازرتهم وتشجيعهم، وصلنا إلى ما وصلنا إليه من التوفيق.

- شكراً على هذا الترحيب الحار! إنني ولسوء حظي لست من سكان الحي، وإنما أنا في زيارة صديق لي يسكن غير بعيد من هنا، ولكنني سأتردد على البقالة كثيراً بعد اليوم! إن بقالتكم حقاً تشرح القلب!

- ما اسم صديقك؟ سألتْ بلهجة ناعمة مغناجة وعينين فرحتين، كأنما تحدد لك موعداً غرامياً !

- اسمه جورج مونتكيو. لا بد و أنك تعرفينه. شعره أبيض، يدرّس اللغة الإنجليزية في كلية "سانتامونيكا".

انفجرتْ تضحك وتقهقه، مما حيرني وأربكني وأخجلني أيضاً...! وبعد أن كفّتْ عن الضحك، وبصعوبة، قالتْ وهي تمسح دموعها بأصابعها الناعمة:

- أرجوك أن تعذرني ! إنه...

ولم تستطع أن تكمل جملتها وبدأت تضحك من جديد، مما زاد في حيرتي وخجلي بادئ ذي بدء، ثم وجدت نفسي أضحك معها، ولكن ليس بنفس الحماس والقوة !! مرت أكثر من دقيقة، ثم خف ضحكها، وأخيرا قالتْ:

- هو يناديني بالفرخة الناعمة ذات الشعر الذهبي المصبوغ.

ولمّا رأتني أحملق بشعرها، قالت برقة وأنوثة بالغتين:

- أنا لا أصبغ شعري، إنه لونه الطبيعي، لكن يلذ له أن يناديني هكذا !

- لعله أحد المعجبين بجمالك ! قلت، وندمت على جملتي إذ شعرت بتفاهتها.

- إنه يصر على مناداتي بهذا الاسم ولم أسمعه يناديني باسمي الحقيقي ولو مرة واحدة، على الرغم من أنه يعرف أن اسمي كاثرين، إذ إن زوجي يناديني أمامه باسمي دائماً.

ثم بدأت تضحك، ولكن هذه المرة كانت ضحكتها رقيقة وفيها شيء من الحياء.

- عندما جاء لأول مرة قبل حوالي سنتين، كنت أجلس في مكاني هذا، وكان زوجي يفتح بعض الكراتين ويضع محتوياتها على الرفوف، وبعد أن حياني سألني وعلى مسمع من زوجي إن كان ذلك الخنزير الذي يفتح الكراتين زوجي أو رئيسي! تظاهرت بأنني لم أسمع كلمة الخنزير، على مبدأ أننا يجب أن لا نغضب الزبون مهما أساء في تصرفه، وأجبته بأنه زوجي؛ فسألني كيف أتزوج هذا الوعل؟ إذ إنه من الضخامة والثقل بحيث سيهرسني تحته ونحن في الفراش، ثم انفجر يضحك وكأنما أعجبته هذه المقولة الوقحة غير عابئ بغضبي، فقد صحت به بأن يراقب ما يخرج من فمه ! ولدهشتي وجدت أن زوجي يشاركه الضحك مما زاد في غضبي! وهنا تقدم منه زوجي وتصافح الرجلان وقدم كل واحد نفسه للآخر فقال جورج لزوجي يبدو أن فرختك الرقيقة لا تحب مزاح الرجال في مثل سني، إذ لا شك أنها تحب مغازلة الشباب الصغار الجذابين. وانفجر يضحك من جديد، وشاركه زوجي الضحك أيضاً ! وازددت أنا غضباً، فقد أدركت أن الرجل مستمر بالإساءة إليّ، وبلغ غضبي أوجه عندما سألني إن كنت لا أمانع بأن يضع حذاءه تحت سريري - قالتها شبه خجلى وبصوت منخفض - ثم التفت إلى زوجي وقال هذا بعد إذنك يا أرمين، فأجابه زوجي بأنه لا يمانع ! وصار الرجلان يضحكان من جديد. إ ن زوجي أيضا يحب المزاح كثيرا، بينما كنت أنا أشتعل من الداخل، وإن كنت أكظم غيظي ! ولما عاتبت زوجي فيما بعد، قال: يا حبيبتي! لو كنت أعرف أن جورج جاد في كلامه لضربته على فمه، ولأسقطت أسنانه، ولكنني تبينت أنه مثلي لا يستطيع أن يعيش بدون مزاح وضحك !

- وهل يأتي كثيراً إلى هنا ؟

- تقريبا كل يوم ! إنه يبتاع كل ما يحتاجه من بقالتنا. وسكتتْ لحظة ثم أضافت:

- إنه حتى إذا كان لا ينوي شراء شيء، فهو يمر ليدردش مع من يكون متواجداً منا.

تباطأتُ بالمغادرة فقد سرّني حديث كاثرين، وأراحتْ نظراتها الحالمة أعصابي المتعبة المتوترة، وأسعدني وجهها الجميل وابتسامتها الحانية، وكذلك أنوثتها الدافئة...!

- هل تعرفين ياسيدة كاثرين ؟! لقد رأيت جميلات كثيرات، هنا في أمريكا وهناك في الوطن، ولكن مثل جمالك لم أرَ قط...!

- هل صحيح ما تقول يا بروفيسور؟! قالت ذلك واحمرّت وجنتاها، وحولت عينيها إلى الجهة الأخرى، حتى تتجنب لقاء عينيّ اللتين كانتا تعريانها وتلتحمان بها.

بقيتْ صامته ولم تقل شيئاً، وكأنما كانت تنتظر مني المزيد !

- لا أعرف كيف أصف جمالك، ولكنني أستطيع أن أقول بأنني عندما أنظر إلى وجهك أشعر بسعادة يعجز البلغاء عن وصفها... سعادة تغمر كل كياني... سعادة إلهية...!

- أنا لم أسمع ولم أقرأ أجمل من هذا الكلام في حياتي كلها !

- هل تعرفين يا أجمل الجميلات؟! لولا أنك متزوجة لكنت سجدت عند قدميك، ولابتهلت إليك أن تحبيني، ثم لتوسلت إليك أن تتزوجيني! قلت هذا بطريقة تمثيلية ثم أضفت:

- ولكنك متزوجة وسعيدة بزواجك، ولا شك بأنك تحبين زوجك، ولا شك أيضاً بأنه هو الآخر يحبك ويقدرك!

- شكرا لك يا بروفيسور ! إنك تتملقني، وقولك هذا يسعدني كثيراً ! حقاً إنك إنسان رائع !

- ما أسعد صديقي جورج أن يكون جاراً لك يراك كل يوم ! قلت صادقاً وقد قصدت ما قلت !

ابتسمت الأفعى وقالت:

- إن جورج يحبني كثيراً، ويقول بأنني أشبه كثيراً ابنته الكبرى! إنها في مثل سني، وتشبهني إلى حد كبير، ولكنها - كما يقول - أجمل وأذكى مني كثيراً! إن هذا هو الاسم الذي كان دائما يناديها به، " الفرخة الصغيرة، الكتكوتة الحلوة ! "، لأنه الاسم المحبب إليه! لقد ذكر لي مرة أنه يحبها لدرجة أنه كان يعتقد بأن الله لم يخلق على وجه الأرض رجلا يكون كفوءاً لها ليتزوجها !

- نعم. لقد ذكر لي ذلك، ولكنه أصيب بخيبة أمل مزلزلة، عندما حملت مرتين من رجل لا يستحق أن يكون خادما لها، وبدون حتى أن يتزوجها! أعني بدون أن يكتب كتابه عليها!

- إنه غريب الأطوار والتصرفات حقاً، ولا عجب أن يكون أولاده على شاكلته. على الأقل البنت الكبرى! علم الجينات يقول بأن الولد البكر يرث عن أبيه كل ما به، عبقريته أو جنونه!

- إنه يحب المزاح كثيراً، وسليط اللسان! إنه لا يذكر أحدا مهما عظم مركزه ودرجة القرابة إليه، حتى لو كان السيد المسيح وكذلك زوجته وأولاده، إلا وأعطاه صفة دونية؛ ولكنه موسوعة علمية ومحيط من المعرفة، لا تسأله عن شيء، في أي موضوع تحت الشمس إلا وتجد عنده الجواب ! قالت .

كنت وهي تتكلم، أسبح بخيالي الجامح مع تموجات صوتها الحالمة ومع نغماته الدافئة... وكانت عيناي لا تنفكان ترقبان النهدين الصغيرين البارزين والرابضين خلف فستانها الستان الشفاف، وهما يتراقصان كلما تحركت !

- زوجي يحبه كثيرا، ويقضيان أوقاتا طويلة وهما يتحدثان في السياسة وشؤون العالم. إنه يكره الحكومات الأميركية المتعاقبة، حيث إنه يعتقد أنها خانتْ مبادئ الثورة الأميركية، وخالفتْ وصية الخالق الذي منح أميركا كهدية للعالم من أجل إسعاده ورفاهيته! أشعر أمام سعة اطلاعه، أنني تلميذة صغيرة في الصف الأول الابتدائي !

وبعد أن أعادتْ بيدها اليمنى خصلة من شعرها سقطت فغطت جزءاً من وجهها، أضافتْ:

- إنه دائماً يتحدث عن أن أميركا هي إحدى هدايا الخالق إلى البشرية، مع أنني فهمت منه مرات عديدة بأنه لا يؤمن بوجود الخالق! فليسامحه الرب !

"كلنا بحاجة إلى مسامحة الخالق وطلب التوبة منه يا سيدة كاثرين! وكلنا نلجأ إليه يوماً ننشد العون والسداد... حتى الملحدون منا والمتشككون بوجوده ! يوم الحساب، يوم البعث والنشور، سنسكب آلامنا وعذاباتنا دموعاً محرقة بين يديه، وسيغفر لبعضنا، ولن تطال رحمته البعض الآخر! ولعلي أنا بحاجة إلى مسامحته وطلب المغفرة منه أكثر من غيري، لضخامة ما ارتكبت من خطايا وذنوب ! إن ديننا الحنيف يا كاثرين يقول، بأنه من نظر إلى امرأة فاشتهاها فكأنه زنا بها. وأنا منذ أن حضرت إلى أميركا ما رأيت فتاة

جميلة، وما أكثر ما رأيت وخصوصاً طالبات في الجامعة، إلا وتمنيت أن أمارس الجنس معها، وأغرق نفسي في عبق أنوثتها ودفئها ! إنني وحسب تعاليم ديننا الحنيف، أمارس عملية الزنا أكثر من عشرين مرة في اليوم الواحد ! إنني وحتى في هذه اللحظة التي أتكلم بها الآن معك، أمارس وإياك عملية الزنا، لأنني ومنذ دخلت بقالتكم، قد عريتك وأخذتك إلى الفراش في خيالي عشرات المرات ! "

- كدت أتشاجر معه وأغادر بيته في نصف الساعة الأولى التي تعرفت عليه بها، لولا أنني تبينت كبر قلبه وطيبته، ورجاحة عقله وتفهمه! إنه حقاً إنسان مميز! قلت.

ثم بعد أن مررت بلساني على شفتي الجافتين، أضفت:

- على كل حال، فهذه هي المرة الثانية التي أراه بها، وإن كان كل لقاء بيننا يستغرق ساعات عديدة !

- لقد عمل وراء البحار مدة طويلة. إنه يحب الفينيق وأهله كثيراً. يقول بأنه أجمل بلد في الدنيا... أجمل حتى من أمريكا! إنه يكره دول النفط، ويقول بأن أهلها وخصوصاً حكامها سيئون يعملون أعمالا شريرة .

وكأنما تنبهتْ لشيء فاضطربت واحمرتْ وجنتاها وأضافتْ بقلق:

- آسفة يا سيدي ! أنا لا أقصد الإساءة! قد تكون أنت من هناك ؟

- حتى ولو كنت من هناك يا سيدة كاثرين، فلم تأسفين ؟! إن الذي يقول ذلك هو السيد مونتكيو، ولست أنت! على كل اطمئني! أنا لست من هناك بمفهومك الجغرافي !

- لونك الحنطي ونصاعة بياض أسنانك تجلب انتباه الناظر إليك! ثم لا بدّ وأن تكون من الشرق الأوسط؛ فلكنتك وملامحك وتجعيدة شعرك تقولان ذلك! بالمناسبة، فهل تكوي شعرك يا سيدي ؟

- صدقيني لا...! كل الناس يسألونني هذا السؤال، إن طبيعة شعري هكذا جعدية !

وقطع حديثنا دخول امرأتين متتاليتين، واحدة أخذت رغيفا من الخبز، وضعت ثمنه أمام الأفعى الشقراء، وتناولت هي نفسها كيسا من الورق وصارت تضع الرغيف به وهي خارجة، ودون حتى أن ترد على شكر محدثتي. أما المرأة الثانية، فأخذت كرتونة حليب وقالباً من الزبدة، وتبادلت المرأتان كلمات مجاملة، ثم غادرت الزبونة.

- أتمنى لو يكون لي شعر أسود جعدي كشعرك! ولكن زوجي يحب الشعر الذهبي !

- لابد وأن لزوجك جذوراً في الصحراء! قلت. إنها قطعاً لم تفهم ما عنيت !

- وهل أنت طالب هنا ؟

عندما أعلمتها بأنني أستاذ في جامعة "كاليفورنيا"، وأنني أدرّس مادة العلوم السياسية، صاحت بفرح وقد قفزت من مقعدها وأضاء وجهها، مما زادها سحراً وعذوبة.

- إن زوجي سيسعد بلقائك ! إنه يحب الحديث في السياسة، وخصوصا عن ذلك الجزء من عالمكم ! إنه يحب صديقك كثيرا ويقضيان ساعات يتحدثان ويتجادلان في السياسة ! وكأنما تذكرتْ شيئا:

- سأعمل عشاء صغيراً، وسأدعوك وجورج إلى بيتنا يوماً... قريباً جداً... الأسبوع القادم إن وافقت !

- يسعدني ذلك جداً! وسأدعوكم أنا بدوري، ولكن لا بد أن يكون في مطعم لأنني طباخ فاشل !

- رجال كثيرون لا يحبون الطبخ ! إنه مزاج ! زوجي لا يحب الطبخ ولكنه غاسل صحون ماهر. أنا أطبخ وهو يغسل الصحون، ويغسل ملابسنا أيضاً ! تستطيع أن تقول أن طبخي جيد! والدتي علمتني الطبخ ! قالت بأن حب الرجل للمرأة يأتي خلال معدته! كانت دائماً تعيدها على مسامعي كلما طلبت إليّ مساعدتها !

- إنّكِ محظوظة أنه لم يولد في دولنا ، دول الجهل والتخلف، و إلاّ لكنتِ أنتِ غسلتِ الصحون والملابس أيضاً ... !

لا شك أنها لم تفهم ما عنيت، إذ إنها حملقتْ بي مستفسرة ولكنني سألتها:

- وأين زوجك الآن أيتها الطباخة الماهرة ؟ سألتها وأنا أتصنع الجد. ضحكت بسعادة، فبانت أسنانها ناصعة البياض كعقد من اللؤلؤ، وقالت:

- إنه في البيت، إذ لا شك أنه الآن يستعد للذهاب إلى الجامعة، فهو طالب في المساء وأنا طالبة في النهار. بيتنا قريب من هنا، خمس دقائق سيرا على الأقدام، ولكن بالجهة المعاكسة لبيت صديقك.

ولاحظت أن وجهها ازداد إشراقا وازدادتْ وجنتاها توردا، كما شعرت أنها تريد أن تقول شيئاً، إذ لعلها تحب أن تتكلم عن موضوع يسعدها التحدث به.

- لقد وضعنا، زوجي وأنا، لحياتنا برنامجاً دقيقاً نطبقه بحذافيره، ولا نحيد عنه إلا فيما ندر؛ ونحن الاثنان ملتزمان به! أرتب محاضراتي في كل فصل دراسي بأن تكون بين الثامنة صباحا والثانية عشرة ظهراً، أعود بعدها إلى البيت أتناول الغداء، وأعمل ما يجب عمله وأترك له السيارة، ثم في حوالي الثانية أحضر إلى البقالة؛ وبحدود الثانية والنصف يعود زوجي إلى البيت، فيأكل طعامه ثم يعمل واجباته الجامعية؛ وحوالي السادسة والنصف يركب السيارة ويغادر إلى الجامعة. الجامعة ربع ساعة عن بيتنا. تبدأ محاضراته في السابعة مساء وتنتهي في العاشرة، يذهب أربع ليال فقط. كل واحد منا يحمل اثنتي عشرة ساعة معتمدة كل فصل. بعد أن أغلق البقالة أذهب إلى البيت وأعمل واجباتي الجامعية، وعند العاشرة أكون قد انتهيت من دراستي وحضّرت العشاء، فنتعشى ونراقب التلفاز أو الفيديو أو نستمع إلى الموسيقى أو نتحدث! المهم أن نكون معاً ولا نجعل شيئا يفرق بيننا... كما إننا نذهب إلى الفراش غالباً عند منتصف الليل في الأيام التي لا نذهب بها إلى الجامعة. نحن نعمل في البقالة معا... أما أيام الآحاد فغالبا ما نذهب إلى أماكن خارج المدينة كالجبال أو البحر.

- لو كنت أعرف أنني سأعيش مثل هذه الحياة المنظمة، لبحثت لي عن فتاة تتزوجني منذ الليلة !

- أليست لك صديقة؟ سألتْ باستغراب واندهاش!

- كان لي صديقة في الوطن ولكننا افترقنا.

قلت كاذباً. ولم أرد أن أدخل معها في مناقشات من الصعب عليها كأميركية أن تفهمها؛ فأقول لها بأن الصداقة الحميمة... صداقة الفراش في الوطن بين رجل وامرأة محرمة، وتعتبر نوعاً من الزنا يستحق عليه الاثنان الرجم بالحجارة.

- ولكنني أبحث منذ مجيئي إلى أميركا عن فتاة بها بعض من مواصفاتك ومزاياك الحميدة!

وكأنما إطرائي هذا وما قلته سابقاً قد شجعاها على مواصلة الحديث فاستطردتْ:

- أنت رجل وسيم وساحر... وسيم جدا وكلامك عذب وشيق! أتمنى لو أن زوجي بوسامتك! إنك تصلح لأن تكون ممثل في السينما ! لا شك أن كثيراً من الفتيات يتمنين صداقتك، فمن الصعب على المرء أن يصدق أنه ليس لك صديقات... معجبات... كثيرات...! قالتها بصدق وعفوية وكأنما تناجي حبيباً !

- شكراً لك يا سيدة كاثرين ! أنت تبالغين في إطرائي ! أنتِ رقيقة وساحرة! كلك أنوثة وجاذبية ! هنيئاً للإنسان الذي تمنحينه حبك وحنانك ! لم أقابل امرأة أكثر منك نعومة وجاذبية ! المعجبات كثيرات يا سيدة كاثرين ! ولكنني أبحث عن واحدة بمواصفاتك أنت ! قلت متصنعاً الحزن.

- أرمين وأنا، نحب بعضنا كثيراً، سعيدان جدا ويحترم كل منا الآخر احتراماً عظيماً، ويحسب حساب مشاعره وعواطفه حساباً دقيقا ! نحن أصدقاء منذ خمس سنوات، ولكننا تزوجنا قبل ثلاثة أعوام فقط، وحبنا يزداد ويقوى باستمرار. منذ أول مرة خرجنا معا شعرنا أن الواحد منا خلق للآخر، وإنه سيموت لو فارقه الآخر! ومنذ أول خروج لنا صرنا أصدقاء، ونخرج باستمرار، لم أخرج مع رجل إلا معه، ولم يخرج مع امرأة سواي !

- وماذا تدرسان؟ قلت محاولاً أن أغيّر مجرى الحديث!

- زوجي يدرس العلوم السياسية، فهو يحب السياسة، أما أنا فأدرس إدارة أعمال. أنهي هذا العام الكلية المتوسطة وفي العام القادم أذهب إلى جامعة " سانتامونيكا ". زوجي ينهي هذا العام السنة الثالثة. بيننا عام تقريبا .

- شكرا جزيلاً لإعطائي وقتك. إنها قصة ممتعة! قلت صادقاً. ثم سألتُ:

- وماذا ستفعلان بعد التخرج ؟!

- سنطور البقالة وننميها، فهي تجارة مربحة جداً. صحيح إنها تحتاج إلى ساعات عمل طويلة من السابعة حتى السابعة، ولكن بيننا الاثنين مقبولة ومريحة.

ثم ابتسمتْ كما ابتسمتْ عيناها.

- لقد اتفقت وأرمين بأن أنجب حال تخرجي.

- آه! عظيم جدا! ومباركاتي الحارة. قلت بفرح عفوي.

وهنا دخلت البقالة امرأة ذات شعر شديد البياض ولكن شكلها يدل على أنها كانت تتمتع بجمال باهر، ومارست في شبابها سلطة ونفوذاً واسعين على عشاقها ومريديها! لقد خيل إليّ أنها كانت تتكلم مع نفسها قبل أن تدخل البقالة، فقد سمعتها تقول إلى الأفعى الجالسة خلف الآلة الحاسبة:

- وبعد جدال طويل انتصرت عليه وأقنعته بأن نذهب للعشاء مساء الغد وليس هذا المساء... ما دخلنا مرة في مناقشه أو جدال إلا وانتصرت عليه، وكان هو الخاسر... وأتيت الآن لأشتري لوازم العشاء.

- يجب أن تفرحي! إن "دان" يحبك جداً، وإلا لما دعاك للعشاء خارج البيت ! قالت صاحبة البقالة.

- أنا أعرف أنه يموت بي حبّاً. قال إنه يشعر بالضياع عندما لا أكون معه! ولكنني لا أشعر الليلة برغبة في الخروج للعشاء في مطعم. قالتْ ذات الجمال الآفل.

في هذه اللحظة تذكرت صديقي السيد مونتكيو، فنظرت إلى ساعتي فإذا هي الدقيقة الثامنة والعشرين بعد السادسة، وبسرعة كلب الصيد، أطلقت ساقيّ للريح حتى دون أن أعتذر لمحدثتي أو أشكرها، ووصل إلى أذني صوتها وأنا أهم بصفق الباب خلفي:

- كان الكلام معك ممتعاً. تعال ثانية. لا تنس دعوة العشاء الأسبوع القادم.

لمت في بادئ الأمر صاحبة البقالة التي أنستني قصصها وثرثرتها تقيدي بالموعد. ولمت نفسي أكثر لأنني بالغت في مجاملتها؛ إلا أنني في قرارة نفسي كنت سعيداً بهذا النسيان، إذ يجب أن أعترف بأن حديثها المغناج وملاطفتها ودلالها، بل وهمساتها الدافئة، التي دغدغت رجولتي وأثارت كوامن العشق في داخلي، قد منحتني فترة من الزمن سعدت بها كثيراً ! لقد نسيت هموم الوطن، أو لنقل لقد تناساها عقلي الباطن، ولو لحين !

وجدت باب شقة صديقي نصف مفتوحة، وحالما أغلقته خلفي نظرت إلى ساعتي فإذا هي قد تجاوزت دقيقة واحدة فقط بعد السادسة والنصف، وسمعت مضيفي يقول لصديقه:

- ها قد عاد هذا الشاب الأزعر ! مشكلة الذكر العربي، اعتقاده بأنه مميز على أخته الأنثى، وبأن أباه خير من أمه، ولهذا لا يستوعب، وعقله يرفض أن يقبل، كيف أن الفتاة هنا ترفض الذهاب معه إلى الفراش ! فابتسمت، وعندما اقتربت منه التفت نحوي قائلاً وابتسامة ماكرة تعلو شفتيه:

- أراهن أنك كنت تطارح الغرام تلك البلهاء ذات الشعر الذهبي المصبوغ، صاحبة البقالة، وهي تذبّل لك عينيها، وتكشف لك عن صدرها.... تتغنج لك وتتأوه كأنك تضاجعها !

صار السيد مونتكيو يستعمل يديه وجسمه، وهو يصف كيف كانت تتصرف السيدة كاثرين أثناء الحديث. ضحكتُ ولم أتفوه بكلمة، فقد اعتدت الآن على سلاطة لسانه وبذاءة تعابيره.

- وهل أخذت منها موعداً لتأخذها إلى العشاء بعد العمل، ثم إلى شقتك لتنام معها بعد ذلك ؟

أخجلتني كلماته، فاحمر وجهي وألقيت بعيني إلى الأرض.

- لا... لا... أيها المدلل "الدونجوان"، ليس كل بنات أميركا تستطيع مطارحتهن الغرام وتخليعهن سراويلهن وأخذهن إلى الفراش ! إن زوجها غيور وشرس، والويل لك إن شعر أن بينكما علاقة غرام أو حتى استلطاف ! إنه ضخم الجسم كالوعل، يستطيع أن يكسر عظامك !

- اطمئن ... لم أطارحها الغرام ولم أطلب منها موعداً ! قلت وأنا أقهقه عالياً.

- لقد أنقذت رقبتك ووفرت دمك ... قال وهو يضحك ضحكته المعتادة، وتداعب يده اليسرى شعرات ذقنه.وفجأة فارقني حيائي، إذ تذكرت سحرها ودلالها وعذوبة حديثها مما أيقظ مشاعري من جديد، فقلت جذلا طربا:

- وهل هناك من ميتة أكثر بطولة من أن تفقد حياتك في سبيل امرأة جميلة ؟! قلتها بتفاخر جاهلي.

ضحك طويلا، ضحكته الجوفاء المعهودة، وبعد أن توقف قال:

- مشكلتكم أيها العرب أنكم تبددون ثرواتكم من أجل ما بين فخذي المرأة؛ وتقضون أعماركم وأنتم تلهثون وراء القسم الدافئ فيهن ! وبعد أن تبادل نظرة مع ضيفه تحولّ إليّ وقال:
- وإن كان قسم كبير منكم لا يقدرون على مواطأة المرأة بعد الحصول عليها. إن حرمانكم من الاختلاط بأترابكم من الفتيات في الصغر جعلكم في مثل هذه الحالة من الهياج نحو المرأة ! إنكم شبقو التفكير وعِنينو الممارسة !
- وهل يوجد في الكون ما هو أمتع وأحلى، مما بين ساقي حسناء، حتى يصرف الواحد من أجله نقوده ويقضي سنوات عمره؟ لقد تكرم علينا الخالق فمنحنا المرأة لتنير دروبنا المظلمة... ولتروي ظمأ قلوبنا القاحلة... ولتوقظ فينا عواطفنا النائمة... ولتدفئ أحاسيسنا الباردة...! قلت متفلسفاً وبحماس وكأنما ألقي خطبة.
- على مهلك ...! أراك قد تحولت فجأة إلى شاعر يا شيخ البدو ! لا تقل لي بأن صاحبة الشعر المصبوغ هي التي جعلتك هكذا ! قال السيد مونتكيو وهو يحدق بي مدهوشاً مذهولاً.
- إنها المعاناة والألم يا صديقي ! لقد فلت زمام الأمر مني، فلم تعد لي السيطرة على تصرفاتي ! قلت.
لعل حديث كاثرين العذب الدافئ، وابتساماتها الرقيقة الخلابة، وهمساتها وغمزاتها، وغناجها وتغنجها، كلها مجتمعة أثارت في أعماقي رغبة ملحة لأن أسترسل في هذا الموضوع فقلت متفلسفاً وكأنما ألقي محاضرة:
- يقول أفلاطون في جمهوريته، بأن أسمى لذة وأمتعها هي اللذة الفكرية، لأنها تدوم أطول من أية لذة أخرى في العالم.... وأقول لك أنا، بأن أسمى وأمتع لذة في العالم هي أن يقضي الرجل عمره بين أحضان الجميلات الفاتنات يستمع إلى أحاديثهن، ويستمتع بأجسادهن !
قلت هذا وأخرجت القارورة من مخبأها، ووضعتها فوق طاولة الطعام، وكنت ما زلت أحمل الكيس الفارغ بين يدي، عندما قال مضيفي بلهجة ساخرة:
- لقد عشت في العالم العربي عشرين عاماً، ولم أسمع عن ثري عربي تبرع لبناء مستشفى أو مركزٍ للأبحاث، أو لطبع موسوعة علمية أو لبناء معهد علمي، أو مركز حضاري، أو تبرع لمنكوبي زلازل أو فيضانات، ولا علّم طالباً أو صرف على يتيم أو منكوب ! ولكنني أستطيع الآن، وفي هذه اللحظة، أن أسمّي لك أكثر من مئة ثري، مثر ثراءً فاحشاً، أعرفهم شخصياً أو سمعت عنهم، من هم يصرفون ويعيّشون داعرات هنا في أميركا وفي أوروبا، ولكنه يرفض أن يدفع دولاراً واحداً لأرملة أو يتيم ... !
كان السيد مونتكيو يتكلم طيلة الوقت وهو جالس على أحد الكراسي في غرفة الطعام، وكان يجلس على الكنبة المقابلة له صديقه الضيف مسندا بنفسه إلى الخلف وممدداً قدميه الضخمتين بحذائه العريض على طاولة الوسط أمامه ! كنت أنا طيلة هذا الوقت أقف أمامهما منقلاً عيني بينهما، منتظراً من صديقي أن يقدمني إلى ضيفه !
فجأة قفز السيد مونتيكو واقفاً، كأنما نخزه أحدهم بمخرز، والابتسامة الساخرة المعهودة تغطي وجهه المتقد حمرة، وصاح بطريقة مسرحية:

- آه... سامحاني ! لقد نسيت أن أقدمكما لبعض ! ثم نظر بسرعة إلى جليسه ومد يده المفتوحة إلى أعلى وقال:

- دكتور هانس هارنبيرق ! أقدم لك شيخ البدو، دونجوان العصر وهدية الله إلى بنات أمريكا، صديقي البروفيسور سهيل دهشان. قال ذلك وأتبعها بضحكته المعهودة الباهتة ... !

أحنيت قامتي احتراماً، ومددت يدي إلى الرجل الجالس أمامي، والذي حالما بدأ مضيفي يتكلم أدار جسمه ووجهه معاً إلى الجهة المعاكسة وأعطاني ظهره ! بقيتْ يدي ممدودة، وبقي الرجل متجاهلا إياها. فجأة لاحظت بأن وجه صديقي قد بدأ يتبدل من الاحمرار إلى الصفرة ثم إلى الزرقة، ثم بعدها ظهرت على جبينه حبات من العرق... وبدأ يرطب بلسانه شفتيه الجافتين وهو ينقل عينيه القلقتين الحائرتين بيننا ! شعرت وكأن إنسانا لطمني على وجهي، وأن نهراً متدفقاً من الإذلال والمهانة والاحتقار قد بدأ يتسلل إلى كياني !

- عفواً دكتور هارنبيرق ! قال مضيفي بلهجة تنمّ عن خجل وارتباك شديدين.

- هل لي أن أقدم لك صديقي البروفيسور دهشان ؟!

لا شك أن الله، عز شأنه، أراد أن ينقذ ماء وجه مضيفي من هذا الموقف المحرج، إذ إنه في هذه اللحظة وصل إلى آذاننا صوت رنين الهاتف من غرفة النوم، مما جعل مضيفي يطلق ساقيه للريح ملبياً صوت الهاتف ! وهنا أدار الرجل رأسه إلى الوراء قليلاً، ثم نظر إلي بازدراء وما زالت مقدمته تنظر في الجهة المعاكسة، ودون أن يمد يده أطلق عليّ كلماته النارية الوقحة:

- أنا أحتقر العرب والمسلمين وأمقتهم ... لأنهم رمز للقذارة والجبن والانحطاط ! وصرّ على أسنانه، ورقصتْ شفتاه لشدة انفعاله وغضبه، وأضاف :

- إنكم لستم إلاَّ أكواما من... الخراء... وأعادها ثلاث مرات...!

في هذه الأثناء، كان الغضب قد بلغ مني شأواً عظيماً، واستبدت بي العقلية القبلية، عقلية الجاهلية الأولى... قيّمت في مخيلتي الكرسي الذي كان يجلس عليه مضيفنا، فيما إذا كان بمقدوري حمله لضرب ذلك الحقير الموتور، وتكسيره على رأسه الكبير الأجوف... ولكنني في تلك اللحظة، وفجأة، تذكرت نصيحة كان قد نصحني إياها زميل من الوطن، سبق وأن دعاني إلى بيته أول أسبوع حضرت به إلى كاليفورنيا، وأكدتْ مقولته زوجته الأميركية المتعاطفة مع القضية العربية ... لقد أعلمني هذا الصديق، بأن بعض الصهاينة هنا وفي أوروبا، يلجأون إلى طريقة الإهانة والتحقير عند محادثتهم أو مناقشتهم لعربي، لجعله يغضب ويفقد أعصابه ويستعمل يديه وجسمه أو يستعمل الشتائم والكلام الفظ، ليبرهنوا للحضور من غير اليهود، بأن الشعب العربي شعب بدوي متخلف بدائي وغير حضاري !!

فجأة زاولني غضبي فقلت متصنعا البرود واللامبالاة، ماطاً شفتي وهازاً كتفي، على الرغم من أن ناراً متأججة من القهر والغضب والإذلال، كانت تنهش في جوفي وتغلي في داخلي فقلت:

- أنتم الألمان نازيون عنصريون ! لقد زرع هتلر برؤوسكم أنكم تحملون دماً أنقى من دم بقية شعوب الأرض، وأن عندكم عقولاً انفردتم بها، وأنكم أرقى من بقية الأمم ... ثم بللت بلساني شفتي الجافتين بغضب وسرعة وأردفت:

- انظر أين أوصلكم غروركم الصلف وعنصريتكم العمياء !؟

- لقد عدنا الآن أقوى كثيراً مما كنا. ولكن انظر أين وصلتم أنتم الآن ! لقد كنتم في يوم ما الأقوى. أقوى أمة، وأكثر حضارة وعلماً تحت الشمس... فانحدرتم إلى ما دون القاع ! إلى أن سقطتم في مجاري الصرف الصحي ! قال وهو يطلق كلماته كأنما هي رصاصات رشاش.

- سنعود إلى ما كنا عليه من القوة، والتقدم العلمي والحضاري، بعد أن نتخلص من أعدائنا في الداخل والخارج ! قلت بانكسار وحزن شديدين، وأنا أحاول جاهداً تحريك لساني الشديد الجفاف !

ضحك ضحكة صفراء باهتة، وأتبعها بكلمة "هه" ! رافقتها هزة من منتصف جسمه الأعلى، وتصورته وكأنما ليقول لي" اصبر يا حمار حتى يأتيك العليق ! "

- ومتى سيكون ذلك ؟! سأل بسخرية لاذعة.

لم أجب. إذ كأنما كنت نائماً فاستيقظت؛ ولعلي أعدت على نفسي السؤال إياه... حقا ! ومتى سيكون ذلك... ألف عام ! وربما بعد ثلاثة آلاف عامٍ !؟ إذ حتى لو استطعنا أن نتخلص من عدوتينا اللدودتين؛ أميركا ودولة داوود الديمقراطية، فكيف سنتخلص من الحيتان والهوامير،أعداء الداخل الجاثمين على صدورنا والكاتمين لأنفاسنا... المتحكمين بأقدارنا ومصائرنا...؟!

- مالك ساكت لا تجيب ؟ قالها هانس بوقاحة وعجرفة وتعالٍٍ... تمنيت لو أنني أستطيع أن أبكي... أن أصرخ من القهر والإذلال... ولكن ليس أمام هذا الوقح الجلف... وشعرت أن الدم بدأ ينزف من قلبي... من وجداني... لقد شردنا حكامنا في شتى بقاع الأرض وجعلوا منا متسولين على موائد الغرب، يركلوننا بأقدامهم ويبصقون علينا كلما قابلونا !

- لقد علككم الدهر وبصقكم، فأصبحتم مسامير لحمية في قدم الزمن، ترهقون كاهله وتعيقون تقدم حضارته ... قال وكأنما يلقي خطبة وأضاف:

- لقد أصبحتم عالة على المجتمعات المتقدمة ...تقتاتون من فتات موائدها وتؤخرون مسيرتها وازدهارها ... !

- لا عجب أن يكون تفكيرك عنصرياً إلى هذا المستوى المنحدر، فلقد صنّفنا زعيمكم هتلر في قاع القائمة البشرية يوماً.

- وهل تعتقد أنه جانب الحقيقة؟ سأل باحتقار وقد هز كتفيه.

- نعم. نحن خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر. .. وإن نبي الله مباه بنا الأمم يوم القيامة ! قلت بانفعال وجسمي يرتجف غضبا.

انفجر هانس يضحك بصوت كعصف الرعد تجاوز نوافذ الشقة، وكأنما ألقيت نكتة لاذعة أعجبته، مما زاد في غضبي وانفعالي.

- وهل تصدقون هذه الأسطورة ؟ لو كنتم كما تقول لما استطاعت مجموعة صغيرة من الناس جاءت من الشتات، تجمعوا في وطنكم ثم طردوكم كالكلاب خارج الحدود وأعادوا بناء أرضكم بعد هذا الاحتلال !

- إن ديننا دين محبة وتسامح ... نسامح أعداءنا، ونعفو عنهم ! قلت بلهجة واهنة غير مؤمن بما أقول.

- أيها المغفلون الجبناء ... ! قال الدكتور هانس، وقد شعرت أن جملتي أغاظته وزادت في غضبه.

- أيها المتخلفون الأغبياء المتخاذلون ! ما هذا الدين الذي يتسامح مع عدو يقتلعكم من جذروكم ويلقي بكم في الصحراء للموت والانقراض؟! إن تسامحكم هو ضعف وجبن ...! التسامح معناه أن تسامح إنسانا أنت أقوى منه وتستطيع سحقه إذا شئت، وليس مع إنسان أقوى منك وطردك من بيتك ! لقد كنتم تسامحون أعداءكم زمن الإسلام الأول ! تسامحونهم وكان باستطاعتكم سحقهم ! إنه تسامح قوة... عظمة... تألق...! إن ما تسميه الآن تسامحاً هو جبن وخوف وانهزام ...! لقد أدخلكم نبيكم بدينه الحنيف من أوسع بوابات التاريخ وخلقكم من العدم والضياع، بعد أن كنتم غارقين وتائهين في صحراء الظلام والجهالة والتخلف؛ حتى أصبحتم تقودون العالم علماً و حضارة و قوّة ... ولكنكم انسللتم ثانية وخرجتم من المسارب الخلفية والخفية للتاريخ، حيث تخرج الصراصير والديدان... من المياه العادمة ... !

أحسست بإهانة ماحقة وإذلال مذهل، وبلغ الغضب مني شأواً عظيماً، وغلى الدم في عروقي ولم أعد أرى أو أميز ما أمامي ولا أحس بما حولي ...فقلت وقد نسيت آداب السلوك وواجبات الضيافة وكل ما هو حضاري وانقلبت إلى وحش كاسر، مجروح ومثار.

- إنك مغرور صلف ... تجمع بين النازية وقذارتها، وبين الصهيونية ووحشيتها... إنكم الاثنين، قتلة مجرمون... أنتم أعداء الله... وأعداء القيم... وأعداء الإنسانية !

- وهل تعني أنني صهيوني؟

سأل وقد وقف منتصبا بجثته الضخمة وعينيه المتقدتين ... ثم باعد ما بين رجليه، وصار يحرك كل قدم كالرجل الآلي ... وألقى يديه إلى جنبيه، بعد أن فتح قبضتيهما وكورهما ...وقد جعل من أصابعه كلابات متعددة القبضات، وصار يتقدم مني بثبات وغضب ... ولكن ببطء شديد كأنما هو أعمى يتحسس طريقه فوق الأرض على استحياء ...!

اِنهلع قلبي واستولى الخوف عليّ، وإن حاولت أن أخفي كل هذا ولا أعترف به، حتى بيني وبين نفسي... ! إن الرجل بجثته الضخمة وطوله الذي قد يتجاوز المترين، وبهذه القوة الجبارة التي أشاهدها بأم عينيّ، باستطاعته أن يحملني ويلقي بي من نافذة الدور الثالث إلى الأرض ... تماماً كما يلقي بخرقة بالية !

- أعني إنك صهيوني ونازي... الاثنان معا. ولدت صهيونيا ثم نازياً ... إذ إن النازية هي بنت الصهيونية ! قلت ذلك متصنعاً الشجاعة واللامبالاة، وإن كنت في قرارة نفسي قد تمنيت لو أنني لم أفعل... ! لقد تبين لي أن الشجاعة في مثل هذا الموقف الخاسر، هي نوع من الحماقة والتهور وقصر النظر ... !

رفع الوعل الكلابتين وطوق عنقي بهما ورفعني إلى أعلى كالذبيحة وضغط على عنقي، فتأكد لي بأنه لا محالة قاتلي ... في هذه اللحظة، نعم في هذه اللحظة، أدركتني رحمة السماء، وفتح الله باب فرجه لي، فقد رأيت السيد مونتكيو مقبلا من بعيد يسابق الريح، مما جعلني أتشجع، وبكل ما عندي من قوة وحب للحياة، حللت يديه من حول عنقي، وكنت قد سقطت على الأرض واقفاً، فرفعت يدي اليمنى لأضربه على وجهه .. . مُتصرفاً تماما كما يفعل المغلوبون والجبناء، عندما يتكاثر عدد الحجّازين حولهم ! في تلك اللحظة كان مضيفنا قد وصل ووقف حائلا بيني وبينه، فدفع كلاًّ منا باتجاه معاكس وصاح بصوت مزلزل غاضب، وقد احمرّت عيناه !

- احترما حرمة البيت أيها الخنزيران... عليكما اللعنة ! وليجلس كل منكما فتتناقشا كحضاريين... !

لقد حمدت الله لمجيء السيد مونتكيو، فقد أنزل خصمي يديه وخف احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه، فعاد إلى مقعده ! جلست قبالته، مرتفع الرأس منفوخ الصدر، وإن كانت عيناي ما زالتا تحدقان بعينيه، على الطريقة العربية ... كما كنا نفعل يوم كنا صغاراً، لأقنع نفسي ولأعلمه بأنني كسرت شوكته، وأنني لم أخفه ولم يغلبني ... وأنني ما زلت على استعداد لمنازلته من جديد ... !

- إنكم أنتم العرب والمسلمين حثالة الشعوب وبقايا التخلف... لو أنكم...

- احترم نفسك وحسّن ألفاظك النابية ! قلت مقاطعاً. وقد بدأ الغضب يعاودني وأنا أهزّ له بالهواء سبابة يدي اليمنى. ولكنه تابع كلامه دون أن يعير مقاطعتي له أي انتباه متجاهلا حتى وجودي.

- لو أنكم جميعاً، المائتا مليون عربي والمليار ونصف المليار مسلم، بصقتم عليهم لأغرقتموهم في بحر من البصاق، وربما قضيتم عليهم تماماً... وحتى لو أنكم وقفتم جنبا إلى جنب وأعطيتم ظهوركم إلى بلاد كنعان، وصفّر كل واحد منكم إسته... لطيّرتم الخمسة ملايين داوودي ولكنتم ألقيتموهم في البحر، خارج بلاد كنعان !

انفجر السيد مونتكيو يضحك بصوت مجلجل، كأنما هو شخصية أسطورية في إحدى المسرحيات الهزلية ... ثم توقف لحظة، واستعاد قهقهته بأقوى من الأولى ...! كان كلما توقف لفترة عاد إلى قهقهة أقوى من السابقة ! لقد ضحك جورج حتى دمعت عيناه... كما أني لم أجد نفسي إلا وأنا غارق في الضحك أيضاً ... أقهقه وأكركر على الطريقة التي كان يضحك بها هو ! وما هي إلا لحظات حتى انضمّ إلينا الدكتور هارنبيرق، فصرنا نضحك ثلاثتنا بأصوات عالية، كل على حدة، وكأنما نشاهد مسرحية هزلية ساخرة، أو كالمعتوهين المتخلفين... !

- يا لك من عبقري يا هانس ! لم أكن أعرف أن عندك روحاً خفيفة إلى جانب بلادتك !

قال السيد مونتكيو وهو ما زال يضحك ثم نهض من على مقعده فضرب يديه ببعض ثم سقط فوق كرسيه.

- من أين أتيت بهذه الفكرة؟! وكيف تستطيع مخيلتك أن تبتدع مثل هذا ؟!

ثم استغرق بالضحك من جديد، ولكن هذه المرة أكثر حماساً من السابق، وكأنما يسمع النكتة لأول مرة.

- إن العرب يحبون بطونهم ويأكلون كثيراً؛ إنهم أمة آكلة لحوم، وإن الأكل هو إحدى خصوصياتهم المشهورين بها. الأكل يأتي عندهم أولا... لذلك يجب أن يقوموا بفعلتهم هذه، بعد أن يغرقوا أنفسهم بما لذّ وطاب من الطعام ! إنهم يأكلون أكثر من أية أمة على وجه الأرض، لذلك فهم جديرون بأن يقوموا بهذه المهمة خير قيام ... يطلقون مدافعاً من أدبارهم ويخرجون الخمسة ملايين داوودي من بلاد كنعان... ! قال ذلك وهو يتوقف أحيانا ليتابع ضحكه.

عندما توقف السيد مونتكيو عن الضحك، نهض وأحضر ثلاث تنكات من البيرة المثلجة ووزعها علينا !

- لم أعد أشعر بالجوع مع أنني كنت أموت جوعاً عند وصولي ! قال الدكتور هارنبيرق بعد أن كرع الجرعة الأولى من العلبة.

- وأنا تغديت متأخراً ولا أشعر بالجوع حقاً ! قلت.

- إذن نؤجل تقديم العشاء ساعة أخرى. قال المضيف.

وبدأنا نكرع البيرة المثلجة، وعندما ينهي أحدنا تنكته، يتوجه إلى الثلاجة ليحضر لنفسه علبة أخرى؛ بعدها تشعب بنا الحديث ... أعلمني الدكتور هارنبيرق أنه لم يعش بالشرق الأوسط وليس له فيه أصدقاء؛ وإن العرب الذين قابلهم وتحدث إليهم هم طلابه فقط، الذين يأخذون معه بعض المساقات في اللغة الألمانية لأسباب عديدة ومختلفة ! ولكنه كمثقف أوروبي، يؤمن بالحرية والعدالة والديمقراطية ، فلقد توصل إلى قناعة تامة بأن العالم الديمقراطي، الأوروبي والأمريكي، قد ألحق ضررا وإجحافا بالكنعانيين، وإنه عندما يتعامل مع القضايا العربية والتي يكون لدولة داوود الديمقراطية دور فيها ... يتخلى هذا العالم عن أخلاقياته وقيمه ومبادئه وديمقراطيته وانسانيته... وينحاز بالكامل إلى دولة داوود الديمقراطية، ويصبح كحيوانات الغاب المفترسة في دفاعه عنها ... !

وفجأة لاحظت أن عيني الدكتور هارنبيرق قد اتسعتا وصار يتكلم بحماس ممزوج بالألم:

- كنت قبل عدة ليال أراقب أطفال الحجارة على التلفاز. كنت أشاهدهم وهم يلقون من أيديهم الصغيرة الحصى على الجنود الداووديين المدججين بالهراوات والبنادق والمسدسات والرشاشات ويركبون المجنزرات، ويطاردون هؤلاء الصغار ويطلقون عليهم الرصاص الحقيقي والبلاستيكي ...! كما رأيت كيف أن طفلا لعله في العاشرة من عمره كان يركض مع بنت في مثل سنه، عندها كان جنديان داووديان مختبئين خلف زاوية إحدى البيوت، إذ لا شك أنهما أعدّا لهما كمينا؛ وعندما أمسك الجنديان بالطفل ضربه أحدهما بالبندقية ... وهنا، وبطريقة عفوية، وضع الدكتور هارنبيرق يده على رأسه كأنما ليتجنب الضربة، كما لاحظت أنه قد بدأ يرتجف كأنما أصابته حمى فاسترسل بانفعال:

- عندما ضربه الجندي بالبندقية على ظهره بكل قوته، كوّر الطفل يديه الاثنتين وبكل ما في كيانه من غضب وثورة، ضرب بهما الجندي على صدره ! استشاط الإسرائيلي غضباً فضربه بعقب البندقية ضربة ثانية أقوى من الأولى، فما كان من الصبي هذه المرة إلا أن أنشب أظافره بوجه عدوه حيث بدأ الدم ينزل منه بغزارة، عندها فقد الجندي أعصابه وصار يضربه بكل قوته بعقب البندقية على رأسه بطريقة وحشية حتى سقط فاقد الوعي...! في هذه الأثناء كانت البنت قد تقدمت من الجندي بجسمها الصغير

النحيف محاولة أن تحول بينه وبين الطفل، فما كان من الجندي الغاضب إلا أن ضربها في عقب البندقية على رأسها بكل قوته، فسقطت هي الأخرى فاقدة الوعي فوق الطفل ...! في تلك اللحظة اشتعل غضبي وفقدت السيطرة على عقلي فأصابني ما يشبه السعار، وتمنيت لو أنني كنت موجوداً معهما لما تركت الجندي إلاّ بعد أن مزقته بيديّ هاتين...! لقد نسيت أن أقول، إن جندياً داوودياً آخر قد انضم إلى زميله وصار هو بدوره يضرب الطفلين بعقب بندقيته ويرفسهما ببسطاره العسكري الضخم، ضربات شرسة متتالية بطريقة تجعل شعر رأس أي إنسان حضاري يقف منتصباً ... ! لم أدر ما حدث بعد ذلك فقد انتهت الصورة.

توقف الدكتور هارنبيرق عن الحديث وقد بدأ تأثره الخارجي تجاه هذا المشهد المريع في نظرات عينيه المتقدتين !

- الذين قلت عنهم يا دكتور، المائتي مليون جبان، والمليار ونصف المليار متخاذل، يجلسون أمام التلفاز ويراقبون ما رأيت وأسوأ مما رأيت، وهم يضحكون ويعتبرون ما يحدث هناك حدثاً عادياً... قد يتألمون له لبعض الوقت، وربما يعدونه كحدث مؤلم حصل في أي موقع آخر في العالم وليس لإخوانهم ... وهكذا تفعل أغلبية الكنعانيين الذين يعيشون حياة البذخ والترف في أوروبا وأمريكا والوطن العربي الكبير... ! قلت.

- صدقاني، إنه ومنذ تلك الساعة، وذلك المنظر الرهيب المفزع لم يفارق مخيلتي لحظة واحدة...! قال الدكتور هارنبيرق، ودلائل التأثر والألم تبدوان في صوته وعلى قسمات وجهه.

- حتى إنني أرى الطفل والطفلة في منامي كل ليلة، وهما يستنجدان بي لمساعدتهما؛ فأتصور نفسي كأنما أقدار هذا العالم قد وضعت بين يدي، ويجب أن أجد طريقة لإنقاذهما، ورفع الظلم عن هذا الشعب الذي يعذب بوحشية ودون رحمة وعون، حتى توصلت إلى الحل.

- هات حلّك يا أبا الحلول! قال السيد مونتكيو بطريقة هزلية ممزوجة بالجد .

- لقد صار لدولة داوود الديمقراطية الآن ما يقارب قرنا من الزمن وهي تشن عليكم حرب إبادة، فتقرحت عيونكم من كثرة النحيب والندب، وتورمت خدودكم من كثرة اللطم والتوجع...! لقد آن الأوان أن تنتقلوا من طور المذلة والشكاية والشعور بالشفقة على أنفسكم، إلى طور الفعل ! لا بد أنكم الآن قد توصلتم إلى قناعة تامة بأن ضمائر وأخلاقيات الأمم وصداقتها لا يمكن الاعتماد عليها، لأن هذه المعتقدات لم تفدكم بالماضي ولن تفيدكم بالمستقبل... فيجب أن تتعلموا التضحية والفداء والبطولة من أطفال الحجارة... أطفال الغضب والثأر والدفاع عن العرض المستباح والكرامة الممرغة بالوحل والقاذورات ! إني أرى دماءهم الطاهرة تغسل عاركم وتخاذلكم ... ! ان دولة داوود الديمقراطية مصممة ومخططة للاستيلاء على بلادكم من النيل إلى الفرات ، وعازمة على تشريدكم بل سحقكم وإبادتكم ! إنكم مستهدفون بحدودكم ووجودكم، فإذا لم تقضوا عليها أولاً قضت عليكم هي. إنها قضية بقاء أو فناء، وليست قضية حرب أو سلام ! أنتم مغفلون وسذج وبلهاء أيضاً، إن صدقتم أن دولة داوود الديمقراطية تريد السلام وتريد أن تعيش معكم في وئام، مهما أظهرت من حسن النوايا والكلام المعسول... ! إنهم يخدعونكم ويغررون بكم... إنها لن تكتفي بأرض كنعان... إنها تريد أرضكم... كل أرضكم... لتقيم

عليها إمبراطوريتها التوراتية... فإذا لم تقضوا عليها قضت عليكم ! إنها مثل مرض السرطان ، ومهما أعطيتموها من تنازلات فهي لا ترضى ولا تقنع ولا تسكت !

كان الدكتور هارنبيرق يتكلم بحماس وصدق وعفوية، وكأنما يلقي خطبة في مظاهرة بالوطن، بجمع حاشد من المتحمسين الغيورين الناقمين، بمناسبة أزمة قومية مصيرية ...!

- ماذا تفعل بإنسان يريد أن يشطب اسمك من قائمة الأحياء، وأن يلغي وجودك من الكون كله؟! هذا ما تريد أن تفعله دولة داوود الديمقراطية بكم ! إذن لا بد من أن تمنعوها قبل أن تقدم هي على القضاء عليكم ! إنهم يتربصون بكم وينتظرون اللحظة المناسبة ليجتثوكم من جذوركم ! لن يحل لكم أحد قضيتكم ولن يساعدكم إنسان، بل على العكس، فالدول التي تدعي صداقتكم وتطمعون بمساعدتها هي التي تقف ضدكم... هم أعداؤكم... أفيقوا...! استيقظوا أيها النائمون...!

للمرة الثانية في يوم واحد، أتصور الدكتور هارنبيرق، كما تصورت من قبله السيد مونتكيو، وهو يقف خطيباً بليغاً جريئاً أمام عشرات الملايين من أبناء الأمتين العربية والإسلامية، في طول البلاد وعرضها، يستثير هممهم ويناشد عزائمهم... الصبر والثبات. فيحثهم على التصدي لأعدائهم المصممين على سحقهم والاستيلاء على أرضهم ومقدراتهم ... !

- وما هو الحل الذي توصلت إليه أيها المفكر العظيم؟ سأل السيد مونتكيو بلهجة تبدو في غاية الجدية، وإن كنت لم أستطع أن أميّز الحقيقة، إن كان جاداً أم ساخراً، وذلك بسبب طبيعته الغامضة في كثير من الأحايين !

- المسألة في غاية البساطة ! المقاومة المسلحة... فرق الاغتيالات... القيام بعمليات انتحارية مكثفة ومتواصلة...! أكثر من عملية واحدة في اليوم... تماماً كما يفعلون في إيرلندا الشمالية، وكما فعل الفرنسيون معنا في الحرب العالمية الثانية أثناء احتلالنا لبلادهم ... وكذلك كما فعل الكوريون والفيتناميون والكمبوديون ... وكما يفعل أهل كل بلد محتل ...! قال الدكتور هارنبيرق بحماس لاهب وكأنما هو فعلا ينفذ إحدى العمليات بنفسه بعد أن خطط لها !

- خذ حذرك يا دكتور هانس ! إن أي إنسان ينتقد أعمالهم القذرة، يتهمونه بمعاداة السامية، فيؤلبون العالم عليه، حتى ولو كان هو مثلهم سامياً ... ! التهمة جاهزة يا صديقي لمن يريدون تدميره ...! إنهم وبمساعدة أمريكا يتحكمون بمقدرات العالم ! قلت.

لاحظت أن شفتي السيد مونتكيو قد تحركتا للكلام، ولكن صوت الدكتور هارنبيرق الهادر الغاضب، سبقهما إلى أذني متجاهلا تعليقي:

- الإسرائيليون التوراتيون... الصهيونيون، لا يميزون بين رضيع وطفل، ولا بين امرأة وشيخ في تقتيلهم للفلسطينيين خاصة، وللعرب عامة...! إنهم يقتلون حتى الأجنة في الأرحام ! أما أنتم فيجب أن لا تعتدوا إلاّ على القتلة والسفاحين... كونوا أكثر إنسانية وأعلى خلقاً منهم...!

- نعم، يجب أن تكونوا أكثر إنسانية وأعلى خلقا منهم؛ إذ إن دينكم الحنيف يحرم عليكم قتل الأطفال والنساء والأبرياء...! قال السيد مونتكيو.

- ولكن لا تنسَ يا جورج أن كل مولود من أتباع صهيون، ومنذ ساعة مولده، يعتبر مجندا في الجيش، لا فرق بين ذكر وأنثى! قال الدكتور هانس.
- والأحقر من ذلك أنهم يرضعونهم مع الحليب احتقار العرب وكراهيتهم، بل ويجب قتلهم أنى وجدوهم، وكلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ! قال السيد مونتكيو.
- على ذكر فرق الاغتيالات، فلقد قرأت بأن رئيس الحكومة الإسرائيلية أمر بتشكيل فرق اغتيالات حكومية، لتصفية جميع الرموز الفلسطينية وجميع الذين لا يؤيدون سياسة إسرائيل ! قلت.
- هذه الفرق موجودة وفاعلة منذ تأسيس الدولة العبرية بل قبل تأسيسها بزمن طويل! إنهم لا يعيشون إلاّ على القتل والتدمير! هكذا يوصيهم تلمودهم العتيد! قال الدكتور هانس.
- منذ أن قامت دولة داوود الديمقراطية، بل وقبل قيامها، وهي في كل يوم تذبح منكم أناسا، حتى بلغ ما قتلته منكم عشرات الآف ، ولم تحققوا أي هدف سوى أنكم تولدون وتتكاثرون ثم تتلاشون... فلم يشعر العالم بمجيئكم ولا بذهابكم ! لأنكم لم تثبتوا وجودكم ولم تقدموا للإنسانية ولا حتى لأنفسكم شيئاً ذا قيمة! فلماذا لا يجعل هؤلاء الذين يموتون معنى وهدفاً لموتهم، بأن يموتوا فيعطوا للحياة قيمة بدلا من أن تضيعوا بالتيه وبالسحق ...!
- قل لي بربك! كن صادقاً معي وصريحاً... لا تجاملني. قال الدكتور هارنبيرق بحماس أكثر من السابق وهو ينقل طرفه بين وجه السيد مونتكيو ووجهي، إذ لعله أراد أن يرى وقع كلامه علينا.
- ما الحل الذي يجب أن تلجأ إليه، إذا كان أمامك عدو شرس، بلا أخلاق ولا ضمير ... التعصب التوراتي التلمودي هو النهج المسيطر عليه، والعقلية الصهيونية هي المستبدة بتفكيره , ... يقول لك بلا خوف ولا خجل وبكل صدق وأمانة؛ بأنه مصمم على اقتلاعك من جذورك وإلقائك في صحراء التيه، ثم الاستيلاء على أرضك؟ فهل تقول له بأن يتفضل، أو تحاول أن تدافع عن وجودك بأن تقضي عليه أولاً، إن استطعت؟!
- ولكن قادتهم بداخل أرض كنعان أو خارجها، وكذلك قادة العرب والمسلمين، لن يسمحوا لهم بذلك، وسيقتلونهم قبل أن يتخطوا الحدود ! إنهم يساعدون دولة داوود الديمقراطية للقضاء على الانتفاضة وقتل أطفال الحجارة وقادته! قال السيد مونتكيو شبه محتد وبثقة وإيمان.
لم يعلق الدكتور هانس على ما قاله مضيفنا ولعله لم يسمعه، إذ لا شك أن أفكاره كانت مستبدة به ومن الصعب عليه التفكير فيما عداها. فلقد سمعته يواصل حديثه فيقول:
- يجب على هؤلاء الانتحاريين أن يمزقوا شهادات ميلادهم، وأن يؤمنوا إيمانا عميقاً بموتهم، وإنهم لن يعودوا إلى بيوتهم، وإنهم يموتون من أجل قضيتهم المقدسة، المصيرية أيضاً...!
- ومن الذي سيعيل من يتركهم بعده، أيها المخطط العظيم؟!
ومرة ثالثة لم أستطع أن أميز إن كان مضيفنا جاداً في سؤاله أم ساخراً.
- العمل الفدائي هو عمل تطوعي تضحوي. والمتطوعون المضحون هم جماعة يؤمنون بعقيدة مقدسة... فهل هناك جهاد أكثر قدسية من جهاد في سبيل حماية العرض

والأرض والوجود؟ وعندما قبلوا أن يموتوا في سبيل الوطن، فيجب أن يدفع لذويهم مبالغ توفر لهم حياة كريمة...!

وهنا قفز السيد مونتكيو عن مقعده وصاح كأنما ليقول، وجدتها... وجدتها يا "يوريكا " !

- المبالغ يدفعها أغنياء دول النفط ومدن الملح الذين يصرفون المليارات على موائد القمار في الغرب، وكذلك الكنعانيون الذين يعيشون بالخارج، والذين تاجروا بالقضية، وجمعوا ملايين الدولارات ... !

- هذا صحيح. إنكم تملكون من الثروات ما لا تملكه أوروبا مجتمعة؛ فأنا لا أفهم كيف أن خمسة ملايين يستطيعون أن يذلوكم ويشردوكم ويتغلبوا عليكم ؟! قالها بتأنٍ وتروٍ وكأنما هو قاضٍ يصدر حكماً بقضية معقدة !

- ولكنهم تغلبوا علينا بسبب مساعدة أوروبا وأمريكا لهم ! قلت بحماس.

- حتى لو كانت معهم كل قوى العالم، لما كان لكم عذر في ذلك! إن عندكم المليارات من الناس، والمليارات من أطنان الذهب، وثروات لا تأكلها النيران ! قال الدكتور هارنبيرق بغضب مقرون بالاحتقار أحسسته في نظراته !.

- إن مأساة العرب والمسلمين الكبرى هي أنهم دائما يجدون سببا يبررون به ضعفهم وتخاذلهم وفشلهم وانهزاميتهم! قال السيد مونتكيو بلهجة أكثر غضباً واحتقاراً من لهجة صديقه.

- لم أجد عربيا أو مسلماً واحداً من بين الآلاف الذين قابلتهم هنا وفي بلادهم، من يعترف لك بأنه مخطئ، حتى لو كان خطأ تافها... حتى على مستوى مخالفة مرور ! قال مضيفنا. وبعد أن عانقتْ يده اليمنى ذقنه عدة مرات، أشعل سيجارة بعد أن قطع آخرها وألقاه في منفضة السجائر أضاف:

- أعذرني يا سهيل إن قلت لك؛ بأنكم قد صرتم مجرد قضية تطرح في أروقة مجلس الأمن بين الحين والآخر دونما فائدة تذكر... ثم أصبحتم ظاهرة صوتية فقط، فتوقفتم منذ قرون عن المشاركة الجادة في البناء الحضاري ... وصرتم كالجمل تجترون مخزونكم الحضاري وتتباهون به وتتشدقون بما قدمه أجدادكم للعالم ! إنكم تعيشون على ذكرى عظماء غابرين في التاريخ لما قدموه للحضارة الإنسانية... إنكم الآن تعيشون على الذكرى وتتغنون بأمجاد بائدة...! تشترون حضارة الغرب وتقدمه التكنولوجي بأموالكم التي تحصلون عليها من البترول، وأنتم جالسون على قيعانكم ... ! لقد أصبحتم عالة علينا وشيوخا في التنظير والسفسطة والحذلقة اللفظية، فتأخذون ما يتقيأه العالم من معدته بعد أن يكون قد أخذ منه ما يفيده وألقى لكم بما لا يفيد ولا يهم !

- سامحك الله يا صديقي! إنك لا تدع مناسبة تمر، دون أن تجرّحنا... تستهزئ بنا... تحط من قدرنا، وكأنما نحن أعداء لك ! قلتها بغضب متعب.

لا شك أن عتابي إياه وتأنيبي له، قد أشعراه بالذنب، فقد لاحظت علامات الندم تغطي وجهه، فقال بلهجة تفيض بالندم، وكانت أصابع يده اليسرى تعبث بشعرات لحيته، بينما أصابع يده الثانية تداعب سيجارته !

- أنا آسف جداً يا سهيل! معك الحق... كل الحق! وفجأة كأنما تذكر شيئاً غاب عن باله فقال:

- إن أخشى ما أخشاه غداً، هو أن يفتي علماؤكم ورجال دينكم، فيقولون عن الذين يسميهم هانس انتحاريين، وتسميهم أنت استشهاديين، فيقولون بأنهم قتلة ومجرمون، وإرهابيون أيضاً !

- تعني كما أفتوا للأميركان ولبعض قادة من العرب والمسلمين بذبح أطفال آشور وبابل، بعد أن قبضوا ملايين الدولارات أثمان دمهم؟! قلت.

- لا يهم ماذا يُطلق عليهم ولا ماذا يسمونهم بعد موتهم؛ قتلة... مجرمين... انتحاريين... إرهابيين... المهم أنه يقتلون عدواً شرساً يحتل بلادهم...! قال الدكتور هانس.

لم أفتح فمي بعدها ولم أعلق بشيء، فقد كنت أستمع فقط، بقلب مثقل بهموم الوطن وأحزانه، لما يقوله الرجلان عنا ...! كنت بين الفينة والأخرى، أرفع بكسل وفقدان للرغبة علبة البيرة إلى فمي وألقي ببعض ما بها في جوفي. لقد كنت أنا على وشك الانتهاء من العلبة الثالثة، وكان الدكتور هارنبيرق يشرب من السادسة، أما مضيفنا فقد كان أقلنا حماساً للشرب، إذ كان أمامه علبة فارغة والثانية يشرب منها متمهلاً ! كان الواحد منا عندما ينتهي من تنكته يذهب إلى الثلاجة ويحضر غيرها، ولكنه يبقى محتفظا بالفارغة أمامه كأنما هي ميداليات أو أوسمة يبقيها شاخصة أمامه يتأملها ويغازلها ويفاخر بها !

عندما أفرغت آخر قطرة من العلبة الثالثة في جوفي، هممت بالوقوف لإحضار الرابعة، ولكنني وجدت أنني لا أستطيع النهوض من على مقعدي، ولما حاولت للمرة الثانية، لم أكد أنهض قليلا عن الكرسي حتى سقطت فوقه، فصممت على التوقف عن المحاولة لفترة!

يبدو أن مضيفنا قد لاحظ حالتي المترديّة، فنهض خفيفاً كالعفريت وتوجه إلى الثلاجة وأحضر واحدة وضعها أمامي بعد أن نزع غطاءها!

- هذه آخر واحدة تشربها الليلة ! قالها بهمس وهو يضعها أمامي، ويرميني بنظرة شزراء.

- هل لك يا جورج أن تسمعنا بعض أغاني صاحبتك اللبنانية؟ أنا أحب سماع صوتها وإن لم أفهم كلماتها، وأحسّ وهي تغني كأنما هي تبكي، فأتمنى لو أنني أستطيع مشاركتها بكاءها! قال الدكتور هارنبيرق بكلمات كسلى... رخوة... ثملى !

وقبل أن ينهي جملته، كان السيد مونتكيو قد ضغط على زر المسجلة فبدأت فيروز أغنية من نصفها، إذ لعل مضيفنا كان يستمع إليها قبل حضورنا ! فشكراً للبنان... وشكراً لفيروز... وشكراً لجبران... والشكر أيضا لأطفال الحجارة الذين جعلوا العالم يحسّ بوجودنا ويتعاطف مع قضيتنا!

إنني أحفظ عن ظهر قلب جميع أسماء أغاني فيروز ومعظم كلمات الأغاني، ولما لم أستطع أن أتبين اسم الأغنية، رغم متابعتي الجادة، تأكدت بأنني ثمل جداً... أكثر مما يجب. وتأكدت أيضا بأن الدكتور هانس ثمل بدرجة كبيرة هو الآخر، لأنه حاول النهوض ليذهب إلى الحمام فسقط في مقعده قبل أن يكمل رحلة الصعود!

- إن معظم أغاني فيروز هي نواح وبكاء على الوطن... الوطن السليب والوطن الذي يذبحه حكامه كل يوم أكثر من مرة ! لقد فرّط العرب والمسلمون بدينهم يوم فرطوا بالجزء الأول من بلاد الكنعانيين ... وتخلوا عن كل دينهم يوم تخلوا عن كل بلاد الكنعانيين ... ولهذا تخلى الله عنهم ! قال السيد مونتكيو وكأنما يحادث نفسه !

يبدو أن الدكتور هانس قد فقد السيطرة على نفسه لكثرة ما شرب، وأن المشروب نفسه قد أجّج عواطفه القومية، وألهب حواسه الوجدانية، فقد وقف فجأة وصار يصيح بأعلى صوته وبكلّ ما عنده من طاقة:

- تسقط الصهيونية المجرمة ...! تسقط الصهيونية المجرمة ...! رددها عدة مرات، وهو يحاول بصعوبة رفع يده اليمنى ليمدها أمامه كما يفعل النازيون عندما يرددون التحية القومية! ثم سقط على الكنبة، بينما كنت أحملق به بعينين جامدتين...!

أقبل السيد مونتكيو، وصار يقهقه جذلا بعد أن جلس على الكرسي. لاحظت أن الدكتور هانس كان يود الاستمرار بمظاهرته الكلامية، كما حاول النهوض من جديد، ولكنه لم يستطع فسقط مرة أخرى!

مرّت فترة صمت ليست بالقصيرة، كنت أحملق بتلك اللوحة الزيتية الغامضة المعلقة قبالتي وقد بهتت ألوانها... بينما كان السيد مونتكيو صامتاً يفكر. وفجأة قفز بخفة ونشاط، فلاحظت أن الرجل يتمتع بطاقات هائلة، إذ إنه في مثل لمح البصر، دخل المطبخ وعاد يحمل سلة القمامة، ووضع بها كل ما كان أمامنا على الطاولة من تنكات البيرة الفارغة والنصف مملوءة، وأخذها إلى المطبخ، ثم رجع يحمل بشكيرا مسح به شرشف الطاولة البلاستيكي... وقبل أن يعيد البشكير إلى المطبخ قال كأنما يصدر أمراً:

- لقد توقف الشرب الليلة يا أولاد الكلبة ! ثم نظر إلى ساعته وأضاف:

- بعد ساعة من الآن نكون جميعا مستعدين للعشاء. ثم اختفى داخل المطبخ.

لا أدري كم مضى من الوقت، فقد كنت أنا بين النوم واليقظة، إذ نهض الدكتور هانس من تمدده فوق الكنبة وتوجه إلى الحمام فاغتسل، وعندما عاد، جلس على مقعد قريب مني، ثم قال لي بصوت وادع وحنون:

- أرجو أن لا يكون كلامنا جورج وأنا قد آذى إحساسك. إننا لا نعني التشفي والإهانة، وإنما تألمنا لكم وتعاطفنا معكم، أنتم أبناء الشعوب العربية والإسلامية المسحوقة ! نحن نعرف أن دول الغرب ودولة داوود الديمقراطية وحكامكم قد تسلطوا عليكم وأذلوكم... أنا لم أكن أهتم بالسياسة قط قبل أن أتعرف على جورج، ولكن لكثرة ما سمعته يتحدث عن عالمكم، وكم به من ظلم وقهر وتسلط، صرت أتعاطف معكم ومع قضاياكم.

وكأنما رقة كلام الدكتور هارنبيرق، وعطفه قد شجعا دموعي على النزول، إذ سقطت دمعتان حارتان أحسست أنهما كانتا أغزر من مياه نهري دجلة والفرات، اللذين تستنزفهما تركيا لتحرمنا منهما، وإن كانت الدمعتان أشد اشتعالاً من بركان متفجر !

- جورج وأنا، نعلم أن الكثيرين من أبناء الأمتين، العربية والإسلامية، يحلمون بلقمة الخبز وشربة الماء غير الملوث، ويلتقون مع الشبع في الخيال وفي الأحلام، بينما بعض حكامكم وساستكم وزبانيتهم، يبددون ثروات الوطن وخيراته على مباذلهم وملذاتهم !

نهض الدكتور هانس، وألقى بنفسه فوق الكنبة، ودخل جورج المطبخ، أما أنا فقد سحبت كرسيا ووضعته أمام الشباك الكبير، بعيداً عن الدكتور هارنبيرق، أحدق بمدينة سانتامونيكا، والتي لكثرة أنوارها تبدو وكأن الشمس مشرقة وسط النهار! وما كدت أجلس حتى هاجمني شعور ممزق بالألم، فوجدتني بهدوء وصمت أنشج نشيج الأطفال، وأبكي بكاء الثواكل !

*****

عندما وضع كل منا نفسه في سيارته، الدكتور هارنبيرق وأنا، حوالي الواحدة صباحا ليتوجه كلٌّ إلى بيته، وبعد أن ودعنا مضيفنا؛ آمنت إيمانا مطلقا، بأن أقوى حب وأعمق صداقة تربط بين الناس هي التي تحدث بعد كراهية واحتقار شديدين، على مستوى الفكر والعقيدة ! لقد شعرت بأنني أحب وأحترم الرجلين بكل ما تحمل عواطفي ومشاعري من الحب والاحترام ! ولقد آمنت أيضا، إيمانا مطلقاً بأن هناك في أماكن كثيرة من العالم، أناسا كثيرين جداً وبالملايين، من غير العرب والمسلمين، من عندهم المحبة والاحترام والغيرة على المسلمين والعرب، أضعاف أضعاف ما عند الكثيرين من ملايين العرب والمسلمين على أنفسهم!

لقد توصلت إلى قناعة مطلقة أيضا، بأن بعضاً منا، نحن العرب والمسلمين، مجردون من القيم الإنسانية والحضارية؛ وأن الإسلام والعروبة بالنسبة لنا، ليسا إلا شعارات ويافطات نرفعها للارتزاق والنصب والاحتيال، وإنهما في كثير من الأحايين ليسا إلاّ أدوات تسلط وقمع وإرهاب !

لقد آمنت بوجود تناقض كبير في حياتنا، نحن أبناء الأمتين العربية والإسلامية ... تناقض بين الواقع الذي نعيش، والحضارة التي ننتمي إليها أصلاً ... تناقض بين النظرية والتطبيق... تناقض بين الانتماء الحقيقي للعقيدة والدين الإسلامي وبين الانتماء الهش... كم أتساءل، بيني وبين نفسي، هل هذه مؤشرات زوال حضارتنا، أم مؤشرات زوال حضارة هؤلاء؟! ربما هي نظرية نشوء وارتقاء الحضارات عند ابن خلدون... وما بعد الصعود إلاّ النزول... وربما هذا البحر الآسن الراكد الذي نغرق فيه، نحن اليوم ليس إلاّ مقدمات لثورة قادمة... مقدمات لصخب وضجيج... مقدمات هياج وعاصفة... ربما إنها العاصفة نفسها... لست أدري؟! واقع الأمر أني لست أدري ... !

كانت هذه الأفكار وغيرها تتصارع في داخل رأسي، وأنا أقود سيارتي على الطريق السريع بين شقة السيد جورج مونتكيو في مدينة سانتا مونيكا وبين شقتي في " وست وود فلج " !

كانت صفعات نسيم الليل البارد على وجهي تلهب نار مشاعري وتؤجج صخب عواطفي... لقد خفّ احتقان رأسي وتثاقل جفوني، ولكني مازلت أشعر بصداع لعين يأكل عظام جمجمة رأسي... إنه مؤلم مؤلم... تباً له وسحقاً...! سأتناول بعض أقراص قاتل الألم عندما أصل إلى شقتي... إن قُدر لي أن أصل !

أماه ! إني متعب... متعب... فأعطني صدرك الحنون أنام عليه، ولا تنسي أن تقرئي عليّ سورة الفاتحة والصمدية والمعوذتين ؛ كما كنت تفعلين أيام تواجدي في الوطن الحبيب ... !

الفصـــــــــل الرابع عشـــر

- إن جمهورية الفينيق بلد سياحي عريق، مملوء بالخيرات وبالمناظر الخلابة، ومن أكبر جاذب للسياحة ! لقد كانت جمهورية الفينيق القطر العربي الأوحد الذي يحتمي به العرب والشرفاء من المفكرين والمناضلين والأحرار، الهاربين من بطش أنظمتهم

القمعية ... فيفتح لهم ذراعيه وقلبه وحدوده ... ويوفر لهم الحماية والديمقراطية والحرية وكل ما يحتاجونه ليتابعوا نضالاتهم وإبداعاتهم ... ! وكان كذلك القطر العربي الأوحد الذي يأتيه السفلة والأوغاد والعهرة والساقطون . كانت جمهورية الفينيق تخبئ انحلالهم وشذوذهم وتخلفهم ، فلم يكن العالم الخارجي يعرف عن ا لعرب والمسلمين شيئا يشينهم ... كان يظنهم بشراً وحضاريين ... يتقيدون بتعاليم دينهم الحنيف، ويحافظون على شهامتهم العربية الأصيلة، ويتمسكون بالمروءة والأخلاق الحميدة ... ولما ذبح الصهاينة أهل جمهورية الفينيق و تدمير بلادهم، اضطرت هذه الوطاويط والخفافيش، للبحث عن جحور ومخابئ وزرائب جديدة يمارسون بها جميع أنواع الموبقات؛ خارج أوطانهم ... ! لم يجدوا مكاناً يرحب بهم إلا دول الغرب لتسلبهم ما معهم من أموال ... فذهبوا إليها يحملون معهم تخلفهم الحضاري والعقلي ... وهناك ظهروا على حقيقتهم وتبين للغرب كم يحتوي العالم العربي على قاذورات ودنس ومعاصي ... ! لقد صعقوا وهم يرون في شوارع لندن وباريس وفينا ومدريد، ولم يصدقوا عيونهم وهم يرون متخلفين تشرب الخمور وتسكب العطور على أجسامها... فصاروا يعتبرونهم نوعا متدنياً من البشر الموغل في التخلف ... ! قال لي صديقي جورج.

مرت فترة صمت طويلة كنت أثناءها أعيش لحظات مبعثرة شعرت خلالها كالمخدر ...

لا أدري كم طالت غيبوبتي عندما أيقظني من شرودي وسبحاتي، صوت أحد الكراسي يجرها السيد مونتكيو قريبا من الكنبة الطويلة الراقد فوقها ... إذ بعد أن استقر فوق الكرسي، دنا بجسمه مني وكأنما ليبوح لي بسر لا يريد أن يسمعه غيري، وكان على شفتيه ابتسامة خجلى ... !

- لقد هاتفتني زوجتي هذا اليوم حوالي الواحدة صباحاً، وأعلمتني بأنها توصلّت، هي والأولاد، إلى قرار هام، وهو الموافقة على طلبي بأن نعود إلى بعض !

قالها بسرعة وكأنما يلقي من على كاهله حملاً ثقيلاً أتعبه حمله، أو كاللص الذي يريد أن يرمي بعيدا بما سرق ليتخلص من آثار جريمته... ثم أنزل ناظريه إلى الأرض خجلا كأنما هو صبية قروية ساذجة مراهقة أطرى جمالها، وخدش أنوثتها عجوز متصابٍ ... !

- هل هذا صحيح يا جورج ؟!

سألته بلهفة وقد قفزت من تمددي فوق الكنبة؛ وقبل أن أسمع جوابه أضفت بحماس ممزوج بالغبطة :

- مبروك يا صديقي ! ألف مبروك ! إنني والله أكاد أطير فرحاً من أجلك !

ثم وقفت على قدمي واقتربت منه، فتعانقنا بفرح وسعادة، وربتُّ بيدي اليمنى على ظهره عدة مرات، ثم أبعدته عني ونظرت في وجهه معجباً فرحاً، وكأنما أراه لأول مرة، وعانقته ثانية وثالثة بحرارة ... !

بعد أن شكرني وكف كل منا عن عناق الآخر استرسل في حديثه :

- كان أول إنسان فكرت به حالما أغلقت السماعة معها هو أنت... أنا أعرف أنك ستفرح لي كثيراً ... ! كنت لحظتها أشعر بشوق عظيم للتحدث إليك ولأعلمك بأخباري

السارة، ولأزف إليك البشرى العظيمة. ..ولكنني عدلت عن رأيي لإحساسي بأنك كنت نائما في ذلك الوقت.

هممت أن أفتح فمي لأؤكد لهذا الرجل الطيب بأنني كنت في تلك الساعة ممدا فوق سريري، عيناي تحدقان بسقف الغرفة وجميع الأنوار في شقتي مضيئة، إذ إن الظلمة تزيد من خوفي وتضاعف في ألمي... !

- ولكنني هاتفت ابن الكلبة هانس، وطبعا فرح لي كثيرا، وإن تضايق أول الأمر... فقد أيقظته من نومه... طبعا كنت أعرف مقدما أنه سيكون نائما كالخنزير وأنه سيتضايق، ولكنني في تلك اللحظة لم أهتم لإزعاجه ... إذ كنت بحاجة مجنونة ورغبة عارمة لإنسان يشاطرني أفراحي ! على كل حال كان مؤدبا ولم يبد أية مضايقة أو تبرم، وتحدثنا حوالي ربع ساعة ثم أطلقت سراحه !

نظرت إلى وجه صديقي ولاحظت حمرة تعلوه، وغمازتا وجنتيه كأنهما شمعتان مضيئتان !

- لقد أعلمت الخنزير، بأننا سنحتفل هذه الليلة ثلاثتنا، احتفالا مميزاً، لم يحتفل أحد مثله قبلنا، وسنشرب كما لم يشرب أحد من قبل... ! لقد اشتريت مجموعة كبيرة من قوارير النبيذ والشمبانيا الفرنسية. سنشرب شمبانيا ونبيذاً فقط.. وأي ابن كلبة فيكما، يريد أن يشرب غير النبيذ والشمبانيا هذه الليلة فليؤجله، وإلا ألقيت به من النافذة... ! وضحك ضحكته الباهتة المعهودة وأضاف :

- الليلة ليلة شمبانيا ونبيذ فقط ... ! فالنبيذ رمز الحب والوفاء والعودة إلى الحبيب بعد غياب طال وامتد...! وأما الشمبانيا فهي رمز الفراش والليالي الحمراء... أو هكذا أراها...!

نهض بعدها وصار يرقص وسط أرض الصالة، بأن يدور حول نفسه، ويرفع رجلا وينزل أخرى، ثم يضع إحدى يديه فوق رأسه بينما يضع الأخرى خلفه ... كان يرقص وكأنه يرقص دبكة أهل الفينيق ... !!

- إذن ، أنت لم تذهب إلى الكلية اليوم ؟ قلت وقد بدأ يعاودني بعض النشاط.

- طبعا ذهبت وألقيت كل محاضراتي. .. وعلى الرغم من أنني لم يغمض لي جفن منذ الليلة قبل الماضية، فإنني أشعر الآن أن بي قوة تزعزع الجبال... طاقات جبارة...! إنه الحب يا صديقي... الالتقاء ثانية... العودة إلى الحبيب... !! وانفجر ضاحكاً كضحكاته التي أعهدها، والتي كثيرا من الأحيان، تكون باهتة لا روح فيها ولا معنى لها !

إن للسيد مونتكيو عادات نوم غريبة وعجيبة جداً ... فقد تأتي إليه في الثانية أو الثالثة أو حتى الرابعة صباحاً، فتجده مستيقظاً، إما يقرأ أو يكتب أو يستمع إلى الموسيقى أو يتأمل...! وقد تأتيه في العاشرة صباحا فتجده نائما، وإن كانت فترة نومه الواحدة تتراوح بين عشر دقائق وخمس وأربعين دقيقة، ونادرا ما تكون ساعة كاملة ... ! إنه لا يمكن أن ينام نوماً متواصلاً أكثر من ساعة ... فإنني إن أتيت ووجدته نائما فأنا واثق من أنه سيستيقظ بعد ساعة واحدة فقط على أكثر تقدير، ولو تأكد لي أنه أوى إلى فراشه قبل ثوان !

عادة غريبة أخرى اكتشفتها به، وهو أنه لا يقفل الباب من الداخل إطلاقاً ،إذا كان متواجداً داخل الشقة؛ لا ليلاً ولا نهاراً ، فإنه يتركه مردوداً ولا يقفله إلا في أثناء وجوده بالخارج !

إن التعليمات التي أعطيت لي، وأظنها أعطيت للدكتور هانس، وهو الشخص الوحيد الذي رأيته يتردد على منزله ... وهي أن لا نقرع جرس الباب الخارجي أبداً أبداً، وإنما ندفع الباب وندخل بصمت دون أن نحدث ضجيجاً ... إذ قد يكون السيد مونتكيو نائماً أو جالساً يكتب أو يقرأ أو مستغرقاً في تفكير عميق يطارد الخيالات والأفكار، على طريقة " اليوغا "... !

عندما نأتي لزيارته ، الدكتور هانس او أنا ، فإن علينا أن نتوجه إلى المطبخ ونشعر بالحرية الكاملة، فنفتح الثلاجة ونساعد أنفسنا لأي شيء فيها من طعام أو شراب ... أو لنضع إبريق الماء فوق النار، فنجهز لأنفسنا فنجانا من الشاي أو القهوة ... أو لنتمدد وننام فوق الكنبة الطويلة المتواجدة في غرفة الجلوس، حيث كنت راقداً قبل قليل !

استدرك صديقي في إحدى جلساتنا قائلا، وقد علت الكآبة وجهه !

- صدقني يا سهيل إنني وأنا في ذروة سعادتي وعمق فرحتي، كان هناك في أغوار وجداني، شيء يحد من سعادتي ويكبح جماح سروري ... هو تذكري معاناتك وإحباطاتك، وإدراكي لما يحدث للوطن الذي تتعذب له وللأهل الذين تتمزق من أجلهم ...!

هززت رأسي دون أن أنطق بكلمة، فقد كنت أفهم ما يعني وأدرك ما يقول، ولكنني قلت معزيا نفسي :

- سنرجع إليك يا وطني يوما مهما طال الزمن وقسا... ومهما عربدت دولة داوود الديمقراطية وقمعت، سنعود...! سنعود...! إنه منطق التاريخ وإرادة القد ر... !

ولما لم يعلق على ما قلت، سألته:

- إذن ومتى تأتي زوجتك ؟ قلتها وأنا أكاد أطير فرحا وقد تناسيت الأهل والوطن للحظات فقط !

- هي لا تأتي إلى هنا. سأذهب أنا إليها والى الأولاد. إنهم كما تعلم في مدينة "سان هوزيه، في شمال كاليفورنيا .

قالها برقة ودبلوماسية، كأنما كان يعلم مسبقا أن هذا الخبر سيخيب ظني ويفت في حماسي !

وكأنما إنسان قد بشرني بأن الوطن السليب، قديمه وحديثه، قد حرره أبطالنا ، ثم عاد وأكد لي بأن ما قاله كان مزاحاً ومداعبة، فسرعان ما شعرت بخيبة أمل مريرة ... إذ هربتْ مني الفرحة الطارئة وعاودني إحباطي ثانية ... !

لعل صديقي قد أدرك ما اعتراني، فقال مستدركا:

- بيتنا يبعد عن سان فرانسيسكو خمسة وأربعين ميلا فقط... في اتجاه لوس انجلوس.

فقلت بلهجة حزينة وخاطر مكسور وقد فقدت حماسي وأنا أكاد أبكي من الخيبة:

- إذن ستذهب إلى هناك وتتركنا ولا نرى بعضنا إلا في المناسبات... ؟ !

تصورت حياة اليتم والضياع والتشرد والوحدة والتمزق والمعاناة والإحباط... جميعها ، التي سأعيشها وليس فيها جورج، لآتي إليه حاملا همومي وأحزاني فيواسيني ويشجعني على الصمود والاستمرار... ويسمعني فيضاً من آرائه السديدة وحكمه الرائعة، ثم يفلسف لي المآسي ويجعلها تبدو وكأنما هي مضحكات... لا شيء... فتضاعف إحباطي واشتد تمزقي وتعاظم إحساسي بالغربة... فاعتراني هلع شديد لامس العظم مني، وفجأة شعرت كأنما يد قوية أطبقت على فمي تريد خنقي فصرت أتنفس بصعوبة ... !

- لا تقل هذا ! سنرى بعضاً كثيراً... ليس كما نفعل الآن، ولكن ما فيه الكفاية. قال وهو يبتسم ابتسامته المعهودة الباهتة، حيث انعكست على لحيته الأنيقة الصغيرة البيضاء، والتي كان يداعبها بيده اليسرى.

- على كل حال، ما زال أمامنا بعض الوقت! قالها بلهجة مطمئنة مؤكدة، بينما كنت أحملق بوجهه مشدوهاً ... !

- لا أترك مدينة سانتامونيكا قبل نهاية الفصل الدراسي ... ثم بعد ذلك نرتب الأمور بحيث تستطيع أن تقضي كل نهاية عطلة الأسبوع وجميع العطل الدراسية في بيتنا ! إنك ستحب وستعجب بزوجتي " جويس " كثيراً، فهي مثقفة ثقافة واسعة. إنها مرهفة الإحساس رقيقة المشاعر، تنظم الشعر وتكتب القصة القصيرة، ومتدينة جداً. .. ولما لم أعلق، أردف:

- أنا لا أعني نوع التدين التظاهري الذي يمارسه بعضكم في الوطن... إنها تتقيد بأخلاقيات الدين، بطهارته ونقاوته وأصوله وليس بقشوره وطقوسه... إنك ستحبها جدا وستحب الأولاد. ولا شك أنهم سيحبونك كثيرا ! إن جويس تقرأ كثيرا وقلما تراها جالسة إلا والكتاب بيديها. إنها لا تضيع ثانية واحدة من وقتها، إذ لا يمكن أن تجلس دون أن تكون منهمكة في عمل شيء ! لقد انتقلت هذه العدوى إلى الأولاد ... " مايكل " يريد أن يكون مخرجاً مسرحياً، فلقد قرأ كثيراً من روائع المسرح العالمي على الرغم من صغر سنّه !

حاولت هنا أن أقاطعه بأن ألقي عليه بعض الأسئلة، ولكنني وجدته مسترسلاً وباستمتاع شديد بالتحدث عن زوجته وأولاده، فصممت أن أكون مستمعاً فقط.

- جميع أولادي مثقفون يحبون الأدب ويقرأون كثيرا. جويس تحمل مثلي، شهادة ماجستير في الأدب الإنجليزي ومعها إجازة تدريس في كليات المجتمع. هي تحب الروائيين "فولكنر" و"اشتاينبيك" ، فهي تعتقد أنهما بارعان بالخوض في أعماق النفس البشرية ويعبران عن أوجاعها. أما أنا فأحب "مرسيل بروست" و"توماس مان". أما الشعراء فكلهم، فأنا لا أشتريهم بعشرة سنتات ...!

- جويس تدرّس إنجليزي في كلية" سان هوزيه ". ابنتي الكبرى مردث وزوجها وأولادها يعيشون قريبا من بيتنا. ابنتهما كريستينا عمرها الآن أربعة عشر عاماً، وهي تحفة فنيّة أبدع الخالق في صنعها. والصغير مارك شعلة متوقدة من الذكاء، وطبعا البنت مثله؛ إنهما يشبهان أمهما جمالا وذكاء !فجعت عندما أعلمتني مردث وأمها أنها سترحل لتسكن مع ابن الساقطة الذي لم يكمل حتى الكليّة المتوسطة، ولم يكن له وظيفة يعتاش منها، فكانت تعيله حتى وهي طالبة بالجامعة ... ! إن الذي جعلني أفقد وعيي وأبحث عنه لأقتله، أنه عندما حملت مردث بأبنتها، غضب المتخلف غضباً شديداً، ولامها، بل أهانها

لأنها رفضت أن تستعمل الواقي من الحمل، وكذلك فعل عندما حملت بالولد. لقد غضبت منه لإهانته لها، ولمتها أول الأمر لأنها حملت من إنسان لا يستحقها، ولكنني بعد ذلك سررت جداً أنها لم تفعل... فقد انضم إلى عائلة مونتكيو إنسانان من أجمل وأذكى ما خلق الله ! إنهما صورة طبق الأصل عن أمهما، جمالاً وذكاء ... يوم كانت في مثل سنيهما !

ضحك صديقي، وسبّل بيده على لحيته وتلاعبت أصابعه بشعراتها ، ثم أضاف:

- حاول قبل حوالي خمس سنوات أن يلحقهما باسم عائلته، فرفضنا كلنا بإصرار، ولم يتخل عن الفكرة إلاّ بعد أن رأى إصرارنا، وتهديدي له...! إنه يخافني جداً، ويعرف أنني إذا قلت شيئاً سأنفذه !

ومرة أخرى حاولت أن أقاطع صديقي مستفسراً عن بعض الخواطر التي ألمّت بي، ولكنني شعرت أنه ما زال به شوق قوي ورغبة جامحة للتحدث عن زوجته وأولاده وأحفاده !

- مردث وظيفتها كبيرة الممرضات والمسؤولة الأولى في مستشفى خاص في مدينة سان هوزيه، تأخذ راتباً ممتازاً فتوفر للبليد المتخلف الذي تعيش معه حياة سهلة ورافهة... البنت الثانية اسمها" سلفيا "، وهي طالبة في جامعة كاليفورنيا في مدينة بيركلي، تدرس علم الحاسوب حيث تعتقد بأنه صرعة العصر... ! هي الأخرى تعيش مع صديق لها ولكنني لا أظن أنها ستنجب أطفالا دون عقد زواج كأختها !

- وهل يوجد فندق قريب من بيتكم؟ وأخيرا استطعت أن أوقفه وأسأل.

- إنك لا تحتاج لأن تنزل في فندق، فنحن نملك بيتاً كبيراً ... وكلما تأتي لزيارتنا نعطيك غرفة البنتين لتنام بها فهي خالية ... ونعطي الخنزير هانس الكنبة الكبيرة لينام عليها، إنها تستعمل كسرير أيضا !

فتح المحتفى به زجاجة شمبانيا فاخرة، وصب كأساً للدكتور هانس أولا، ثم لي ثانية ثم لنفسه أخيرا. .. فنهض الدكتور هانس ورفع كأسه إلى أعلى أمامه ونظر فيها بإعجاب ووله، وقال:

- فلنشرب نخب سعادة العريس، الجديد القديم، البروفيسور العاشق الولهان جورج مونتكيو... !

قرّب كأسه من كأس جورج فطرقعهما معا، ونقلها إلى كأسي وأعاد الكرّة، ثم تجمعت الثلاثة كؤوس إلى أعلى بطريقة مراسمية احتفالية رشيقة، وكأنهن ثلاث حسان يؤدين رقصة شروق الشمس الفرعونية بتصوف وتألق ... بين تهويمات الغيوم وتمايل الزنابق... ونحن الثلاثة نردد مع صوت الأرغن العاشق في أحد معابد الغابات. "فلنشرب نخب العريس القديم الجديد"! وأتبعناها بصيحة سكرى جذلة... أيه...! ثم قرّب كل واحد منا كأسه إلى فمه وأفرغها في جوفه دفعة واحدة... بعدها ملأ "العريس" كؤوسنا من جديد بعد أن وضعناها أمامنا على الطاولة، بطريقة احتفالية مهيبة، حيث سُمع لها صوت تراقصي ... !

- ليت العروس تكون هنا معنا ... ! قال الدكتور هانس وهو يحملق بطريقة دونجوانية شبقة بصورة للزوجة مزروعة ومسندة فوق البوفيه غير البعيدة عنا، والتي أخذت للزوجة قبل سنواتٍ قليلة ... ٌكما أخبرنا الزوج.

- تبدو في الصورة وكأنها ابنة الثلاثين، وليست ابنة الثانية والخمسين ! قلت وقد انتهيت لتوي من إفراغ الكأس الثانية في جوفي دفعة واحدة ... لقد خيّل لي السُكر وكأنها تفتح لي ذراعيها وتناديني لأعانقها ... !

- سنحتفل ثلاثتنا في المرة القادمة مع جويس والأولاد في بيتنا في سان هوزيه ! قال السيد مونتكيو وتوهج ناري حاد ينبعث من عينيه المتقدتين... !

- لن نقبل احتفالاً واحداً، نريد أسبوعا كاملاً من الاحتفالات ... ! قال الدكتور هانس بجذل وصميمية.

أما أنا فقد عاودتني أحزاني من جديد وأنا أتصور حياتي بدون السيد مونتكيو ... إذ إن الصداقة التي بيني وبين الدكتور هانس لن تصل في يوم من الأيام، مهما تعمقت جذورها وامتدت أصولها وتقادم عهدها، لمثل الصداقة التي تربط بين قلبينا وروحينا وفكرينا، جورج وأنا !

- يا ترى...! هل تعرف "فينوس" في خدرها، بأننا نحن الفرسان الثلاثة، جالسين في هذه اللحظة السعيدة، نحتفل بشرب كؤوس الشمبانيا، نخب رجوعها إلى فارس أحلامها وعاشقها المتيم الولهان...؟! قال الدكتور هانس !

- أصبتها يا ابن الساقطة ! قال المحتفى به ذلك وهو يتمايل طرباً، وضرب كأسه إلى الطاولة بعد أن أفرغها في جوفه دفعة واحدة، ثم توجه إلى الهاتف وأدار رقماً... !

- هانس وسهيل وأنا نكرع الآن كؤوس الشمبانيا احتفالا بعودتنا لبعض !

سمعت السيد مونتكيو يقول للذي على الطرف الثاني من الخط، والذي عرفت فيما بعد أنها زوجته.

- طبعا... ! طبعاً ... ! عملت لهما عشاء فاخراً... "نيويورك استيك"... مع نبيذ فرنسي فاخر... ! هذه مناسبة عزيزة ونادرة لا مثيل لها في الحياة !! نعم... نعم... سآتي مساء يوم الجمعة القادمة لأقضي عطلة نهاية الأسبوع عندكم... لم أصمم بعد ... ولكنني أفضّل أن أسوق سيارتي بدلا من الباص ... ! لا، لا، الطيارة يجب أن أذهب إلى سان فرانسيسكو أو أوكلاند، وأحتاج لأحدكم ليقابلني بالمطار. طبعا لا ... ! وهل أنا مجنون حتى أحضر أولاد ألكلبة معي ؟! إنهم يحتسون الشمبانيا الآن كسمك البحر ... ! سأبلغهم تحياتك ... إنهما ليسا بحاجة إلى دعوة ... ! طيب مع السلامة، وإلى اللقاء أيتها الحبيبة الجميلة ... ! طبعا ! منذ زمن طويل لم تسمعي مثل هذه الكلمات، ولكنك ستسمعينها بعد اليوم كثيراً...! كثيراً جداً ... وأنا افتقدت قولها لك أيضاً ...! قبّلي الأولاد الصغار عني، وسلمي على الكبار ... إلى اللقاء بعد ثلاثة أيام ... !

هذا ما وصل إلى آذاننا ومضيفنا يتحدث على الهاتف.

- جويس تبلغكما تحياتها وتدعوكما لزيارتنا في سان هوزيه؛ وهي تواقة للقائكما والتعرف عليكم... ! إنها تشكركما كثيراً للاحتفال معي في هذه المناسبة السعيدة... !

- نحن الذين يجب أن نشكرك لهذا الكرم الباذخ ... ! قلت بسعادة منقوصة.

- إن متعة الاحتفال وروعته هو أن يكون معك وقتَ الاحتفال أصدقاؤك ومحبوك ... ! قال العاشق بجذل طفولي... !

- ومتى تقدم العشاء ؟! إنني أكاد أموت جوعاً، فقد تغديت اليوم مبكراً عامداً، وتواق لأن أغرق نفسي في "الستيك" والنبيذ والأصناف الأخرى ... ! سأل الدكتور هانس.

- الخنزير لا يفكر إلا بمعدته... ! قال مضيفنا، ثم التفت إليّ وأضاف:
- لست أدري كيف اتخذت مثل هذا الوعل الغبي صديقا لي... ! لا شك أن السبب هو أننا على طرفي نقيض! وضحك وأفرغ ما تبقى بكأسه في جوفه وفعلت أنا وكذلك الدكتور هانس ... صار بعدها السيد مونتكيو يجمع الكاسات الفارغة بين أصابعه، وباليد اليسرى حمل الثلاث زجاجات الفارغة وتوجه بها إلى المطبخ ... !
- وهل تريد منا مساعدة؟ لحق به صوت الدكتور هانس إلى المطبخ.
- نعم ... ! أغلق فمك الكبير! واتبعها بضحكة عالية وطويلة.
- دقائق قليلة ويكون كل شيء أمامكما على الطاولة، فنبدأ معركة "الستيك" والنبيذ ... !
- أسرع وإلا داهمت المطبخ واستحكمت به ...! قال الدكتور هانس وهو يقهقه !
- منذ أن تعرفت على جورج لم أره بهذا التألق والحيوية ! قلت.
- مع إنه لم يغمض له جفن منذ الأمس! إنه يتصرف وكأنه مراهق يقع في الحب لأول مرة ! لم أكن أعرف أن الرجال في هذه السن يتصرفون بمثل هذه الحماقة. آمل أن لا يأتي الوقت الذي يلعن به الساعة التي عاد بها إلى زوجته ! قال الدكتور هانس ذلك، وأتبعها بضحكة خالية جوفاء من الحرارة.
- أنا أخالفك الرأي. أنا أعتقد بإيمان عميق أن جورج صديق مخلص وزوج ملتزم وأب حنون ... يتحمل التزامات الصداقة، والزوجية والأبوة برجولة ومسؤولية ! قلت بحماس وعفوية.
- أعتقد أنك على حق ! ربما لو كنت في مكانه لفعلت أكثر مما يفعل ! قال الدكتور هانس متراجعاً.
ومرّت لحظات قبل أن يسترسل في حديثه:
- أتيت أنا وزوجتي وابني إلى أميركا قبل حوالي عشر سنوات لقضاء عام دراسي ُمعاراً من جامعتي كأستاذ زائر، فأحببت أميركا والحياة فيها، وفكرت بعدم العودة إلى ألمانيا ... وعندها، تقدمت بطلب للبقاء في أمريكا بصورة دائمة... ولكن بعد أن وافقت الجامعة على مواصلتي التدريس فيها، ووافقت دائرة الهجرة على منحي إقامة دائمة، أصرّت زوجتي على العودة إلى ألمانيا وإلا الموافقة على الطلاق ... لم أفكر أنها كانت جادة فيما تقول، إذ طلبت إليها أن تذهب إلى ألمانيا وتعطي نفسها بعض الوقت للتفكير، ثم تكتب إليّ برأيها وبعدها نتفق إما على البقاء هنا وإما على العودة إلى ألمانيا ... ولكن بدلاً من أن أستلم منها رأيها على اقتراحي، استلمت تبليغاً من المحكمة بالطلاق ... !
- أنا آسف وحزين جداً أن أسمع هذا ! قلت وقد شعرت حقاً بالاكتئاب والألم.
- انتهزت عطلة أعياد الميلاد وذهبت إلى ألمانيا لنسوي الأمور بأن أقنعها بالمجيء معي إلى أميركا، أو لتقنعني هي بالبقاء معها في ألمانيا... المهم أن نتفق على شيء ولا نفترق، إذ أنني أحب زوجتي وابني كثيراً ولا أتصور نفسي بدونهما ... ولكن لدهشتي وجدتها قد تزوجت من صديق لنا نعرفه منذ أيام الدراسة ... فرفضت حتى مقابلتي ! لقد كانت صدمة شديدة أول الأمر بالنسبة لي، وفكرت أنني لن أنهض منها ... أمضيت عاما كاملا كالمجنون أجوب شوارع قرية وست وود وسانتا مونيكا، وهزلت هزالا مخيفاً !

بعد مضي العام الأول بدأت أتقبل الفكرة، ولكن صدقني عندما يهزني الحنين إليها وتثور كوامن الشوق ولواعج الحب في قلبي، أحس كأنما أوشك على الجنون أو قتل نفسي ... فأفرغ في جوفي قارورة بأكملها من الوسكي فأغيب عن الوجود ... !

- لقد أحزنتني قصتك! لم أكن أتصور أن إنسانا بهذا الجسم الضخم والروح الساخرة يملك كل هذه الطاقات الهائلة من المشاعر والأحاسيس ...! قلت بصوت حزين مكسور.

لم يعلق على مقولتي، وإنما ابتسم... شعرت أن ابتسامته محملة بهموم الدنيا ومثقلة بأحزانها !

- ولم لا تتزوج ثانية من هنا ؟ سألت.

- ولم تحمل المسؤولية؟ لي صديقات كثيرات، أستطيع أن أدعو أية واحدة منهن لتسكن معي، ولكنني لا أريد أن أرتبط حتى دون عقد زواج ... ! أشعر أنني حر طليق ليس ما يربطني بأحد ... !

وتململ فوق كرسيه وأضاف:

- لا أريد أن أكرر المأساة. لو حدثت لي مرة أخرى، فأنني لن أنهض منها وستقضي عليّ.

- أعتقد أنك على حق ! قلت وأنا أهز رأسي وأقلب شفتي.

- لقد قرأت في إحدى المجلات الألمانية ما معناه، بأن الإنسان العربي رجلا كان أو امرأة، لا يعتبر نفسه قد حقق ذاته إلا إذا تزوج وأنجب ... !

- هذا صحيح ولكنه لا ينطبق عليّ ...! قلت. ونظر إليّ نظرة استفهام! فأردفت :

- بالنسبة لي فإنني أعتبر نفسي متزوجاً من الوطن بمشاكله ومآسيه ...!

- تستطيع أن تخدم قضايا وطنك متزوجاً خيراً منك عازباً !

وقبل أن أفتح فمي كان السيد مونتكيو قد أقبل من باب المطبخ يحمل زجاجة نبيذ وثلاثة أكواب يبدو على جدرانها شيءٌ كالثلج، ولعلها خرجت لتوها من الثلاجة ... هبّ الدكتور هانس واقفاً ليساعده بحملها، ولكن إشارة من عيني الأخير، وهزات عدة من رأسه أعادته إلى مقعده.

خلال لحظات كان كل ما نريد أكله وشربه واستعماله يرقد أمامنا على الطاولة، تفوح منها رائحة طيبة جذابة، تجعل حتى المعدة المملوءة تتشوق إلى الاستزادة ... ! كان كل واحد منا غارقاً فيما أمامه من نعم الخالق وخيراته، يأكل بشراهة ويشرب بجشع ... وكأنما هي المرة الأخيرة التي نودع بها الطعام والشراب قبل أن نفارق الدنيا ... !

مرّت دقائق لم يفتح أحد منا فمه، ولم يسمع إلا صوت رشف النبيذ من الكؤوس، وأصوات السكاكين تذبح شرائح اللحم البقري والبطاطا المشوية، وتزاحم حركة الشوك تلتقطها وترمي بها في المعد الشرهة المفجوعة ... !

إنني أشرب بشراهة لأنسى آلامي وأحزاني... لأنسى وجودي... لأنسى واقع أمتي المؤلم المحبط... كنت مع كل رشفة نبيذ، ومع كل لقمة أكل، أتصور بني جلدتي وقومي في جميع أرجاء الوطن العربي و الإسلامي، يذبحون وتكسّر عظامهم وأيديهم وأرجلهم ورؤوسهم، ويداس على أجسادهم بالبساطير ... وتغتصب نساؤهم على يد محترفي القتل والإجرام من سلالة شيلوك وتيمورلنك وهولاكو ... تحصدهم القنابل والصواريخ... !

كنت أزورّ مع كل لقمة، وأغصّ مع كل رشفة، وفي أعماقي صورة مرعبة، للذين يبادون ويشردون، بحرمانهم من لقمة خبز لهم ولعيالهم ... !

سامحك الله يا وطني الحبيب ... كم تغلغل حبك في وجداني وتجذّر ... إنني لا أستطيع نسيانك والتفكير بغيرك حتى ولو للحظة ... ! إن حبك في كل نبضة من نبضات قلبي، وفي كل قطرة دم تجري في شراييني ... ! إنني منذ اللحظة التي خرجت بها من رحم أمي، واكتحلت عيناي بنورك القدسي، ومنذ أن استنشقت عليل هوائك العذري، وتسربلت بثوب طهرك الأبدي ... قدّمت أوراق انتسابي لأن أكون عضوا فاعلاً ناشطاً متفانياً في هيكل عروبتك ومحراب إسلامك... !

وفجأة شعرت بضيق خانق في صدري، وبغربة ممزقة تستولي عليّ، فأحسست بألم قاتل موجع يهز كياني؛ واستولى علي شعور بالخوف وعدم الأمان... وتصورت نفسي وكأنني أعيش في غابة مظلمة مقفرة لا أحد يسكنها سواي، ثم تبدل الإحساس والرؤيا، فرأيت أنني أقف على حافة حفرة كبيرة عميقة ومظلمة، وأنني على وشك السقوط فيها ... ثم تفجّر بّداخلي بحر من مشاعر الحنين المكبوتة منذ زمن طويل ... فصرت أصرخ بأعلى صوتي وبهستيريا لاشك أنها أقلقت صديقي ... !

حاولت أن أنهض من على الكرسي ولكنني كنت معدوم القوة ... ومن بين ضباب دموعي تراءى لي بأن الدكتور هانس يهم بترك مقعده ليتقدم مني ويساعدني، غير أنني رأيت كالخيال يد السيد مونتكيو تشير إليه أن يبقى في مقعده ... ثم وصل إلى أذني صوته كأنما هو آت من وراء الأبدية وأعماق العدم يقول :

- دعه يا هانس يتخلص مما بداخله من قهر وإحباط ... ! أتركه ينفس عما في صدره من هموم وأوجاع ... ! إن هذا الشاب مصاب بلعنة... لعنة حب الوطن لدرجة الجنون...!

لا أدري كيف وصلت إلى مكاني هنا، ولا أدري كم مضى من الوقت وأنا ممدد على ظهري فوق الكنبة الكبيرة أحدق بالسقف ... ودموع غزيرة حارة تهطل من على جانبي صدغي حتى ملأت فتحتي أذني ... وطافت حتى بللت ارض الكنبة تحت رأسي...!!

- عندما يشرب بعض الناس الكحول، يتحللون من خجلهم وتحفظهم... ينطلق لسانهم فتثور كوامن ذكرياتهم، وتلتهب عواطفهم وأحاسيسهم، فيتشجعون على التحلل من خجلهم ... ويتذكرون الأحباب والأوطان، خصوصا عندما يكونون في بلاد غير بلادهم... ! لقد مررت أنا نفسي بمثل هذه التجربة... فكنت أشعر أحيانا بأنني لا أستطيع التنفس وكأنما إنسان مطبق بيده على فمي يريد كتم أنفاسي...! قال الدكتور هانس مخاطباً السيد مونتكيو.

- ولعلّ سهيلاً يمرّ الآن بمثل تلك التجربة. أضاف.

- أنا أعرف ما يؤلم سهيلاً ! التقتيل والتدمير اللذان يحدثان في وطنه !

قال جورج غاضباً قلقاً. ثم كأنما تذكر شيئاً فأضاف بغضب وقهر رقص لهما جسمه وارتجفت يداه :

- إن الذي يجعلني أفقد عقلي واتزاني، ويثير قرفي واشمئزازي، بل يجعلني أحيانا أكاد أستفرغ من شدة الألم والقهر معاً؛ هو معتقدات سهيل الغريبة العجيبة !

نهض من مقعده وسار بضع خطوات في أرض الصالة، وكأنما لينفس عن غضبه وقهره، ثم عاد ورمى بنفسه فوق الكرسي بقوة وعصبية، وأضاف :

- إن لعنة سهيل ومأساته أنه لا يعتبر نفسه ينتمي لقطر عربي أو إسلامي واحد ... بل ينتمي إليها جميعاً ! وكل قطر من الأقطار العربية والإسلامية، فيه نزيف وله أوجاع... جميعها ودون استثناء ,,, غنيها وفقيرها... فواحدة تعاني من القمع والدكتاتورية والفساد ... وثانية من التخلف والتجهيل ... وثالثة من الجوع والفقر ... ورابعة من التسيب والقحط ... وأخرى من الحروب الأهلية والتشريد ... وغيرها من التدمير والتقتيل. وهكذا... إضافة إلى مصائب النزاعات الحدودية ... كل واحدة في جسمها جروح كثيرة ونزيف هائل ... سهيل يعتقد أنه منها ولها، ويتألم لأجلها ويعاني بسببها ! لقد وصل من التحجّر والتصحّر درجة أنه لا يمكن أن يفهم أنه يعيش الآن في أميركا وأنه يجب عليه أن ينسى ، سكان العالمين العربي والإسلامي، وأن يدعهم يذهبون إلى الجحيم... إنني أقول له ذلك كل يوم، ولكنه عنيد حتى الحماقة وغبي كحمار ! إنه يفكر ويتصرف كأنما هو المسؤول عن هذه البلدان وعن أقدارها ومصائرها ... ! قال السيد مونتكيو !

- كل إنسان عنده انتماء وشعور قومي لا بد من أن يتألم لألم بلاده ويفرح لفرحها... ! إن ما يزيد من معاناة سهيل هو شعوره المرهف وحساسيته المفرطة ...! قال الدكتور هانس بطريقة تنظيرية.

أما أنا فلم أتفوه بكلمة واحدة، لأنه لم يكن باستطاعتي أن أفتح فمي أو حتى أحرك لساني من شدة السكر... !

*****

- ما حكاية الفرخة صاحبة الشعر المصبوغ ؟! سألني صديقي جورج مونتكيو ، عصر اليوم التالي ، حالما فتحت باب شقته ودخلت.

- ومن هي هذه الفرخة التي تتكلم عنها ؟! جميع النساء الشابات والجميلات عندك، كلهن "فرخات"!

- أعني صاحبة البقالة التي على الزاوية ... المرأة التي اشتريت منها قارورة ال " إتش بي " الأسبوع الماضي، هل نسيتها ؟!

- طبعا أذكرها ! وهل مثلها يمكن أن تنسى ؟! وما حكايتها ؟ لا أفهم ما تعني !

- ماذا قلت لها حتى جعلتها تتحدث عنك بهذه الطريقة المذهلة ؟!

في الحقيقة أنني انزعجت جدا وأسقط في يدي، فقد خفت أن تكون قد قالت له أو لزوجها، بأني غازلتها وتحرشت بها ... إن بعض النساء مريضات عقليا ويفعلن ذلك !

وبعد أن جلست على أول مقعد قابلته قلت :

- لا أذكر أنني قلت لها شيئاً ذا قيمة ... لقد كان حديثا عاديا ... تحدثنا عن الشرق الأوسط... وعنك، وعن زوجها، وعن البقالة، وعن الدراسة ! أحاديث عادية جداً !

- لقد قلت لها بأنك لو تجد فتاة بمثل جمالها ورقتها ونعومتها، ولطع البقر... وروث الحمير ... وإلى آخره ... لكنت تقدمت لخطبتها وطلبت إليها أن تتزوجك، وبدون تردد ... !

وهنا فارقني خوفي وقلقي، فقلت بعد أن تنفست الصعداء :

- هل قلت لها أنا ذلك حقا ؟! ربما ! لا أذكر بالضبط ! أن كنت قد فعلت، فأنا لم أعن ذلك. لاشك أنني قلت ذلك لأسرها. أنا أقول أشياء كثيرة إلى الفتيات الجميلات. أنا أعرف أن هذا النوع من الكلام بالإضافة إلى أنه يسعدهن، فإنه يزيد من ثقتهن بأنفسهن، وبأنهن جميلات حقاً ... ! قلت وأنا أبتسم.

- لكن هذا شيء خطير... خطير جد اً ! قال صديقي بعصبية.

- وما وجه الخطورة في ذلك إذا كان قصدك إدخال السرور إلى قلب إنسان ؟! قلت وأنا أضحك.

- لأنهنّ للأسف يصدقنه، وقد يترتب على ذلك عواقب سيئة !

- إنك تبالغ يا صديقي ! إنه مجرد كلا م يذهب أدراج الرياح !

- هذا ما تعتقد ! إنك تنسى وأنت تتكلم إليهن أنك تجعل كلامك يخرج من أعماق قلبك ومن صميم وجدانك !

- أنا أفعل ذلك ؟! وكيف عرفت ؟! أنت لم تكن موجودا معنا عندما كلمتها ! قلت متصنعا السذاجة.

- هكذا قالت لي. لقد قالت أيضا بأنك وأنت تتحدث معها تنظر إلى وجهها بتأمل وانبهار وكأنك عاشق متيم بهواها ... وأنها الوحيدة المهمة في حياتك على وجه الأرض... إلى آخر لطع البقر وشخاخ الجمال ؟! قال بعصبية.

- وهل أنا فعلت ذلك ؟! لاشك أنها ذهبت بعيدا مع تصورها !

- أنت تقول إلى الفرخات كلاما لا تعنيه، وتمثل عليهنّ دور العاشق الولهان ... ! إنهنّ يصدقن كلامك المنمّق... يسحرهن تمثيلك ! وكما قلت لك هذا شيء خطر... خطر جدا !

- صدقني يا جورج ... إنني لا أمثل عليهن، وإنني أعني ما أقول !

حملق الرجل للحظات بوجهي بعينين مشدوهتين، ثم أغلقهما وهز رأسه عدة مرات بسرعة ذات اليمين وذات الشمال، وكأنما يبعد عنه فكرة لا يقبلها عقله وقال :

- تعني أنك تقع في حبهن حالما تراهنّ ؟!

- نعم هذا ما عنيت ! إن مشكلتي يا صديقي هو أنني عندما تقع عيناي على فتاة جميلة حقاً، وخصوصا إذا كانت ناضجة فكريا، فإنني أشعر وكأنما أحبها من فترة طويلة ... وكأني عاشق لها ومتيم بهواها حقيقة ! أنظر إليها نظرات الولهان وأتكلم معها كلام المعذب المضني، وخصوصا إذا لمست منها اهتماما واستجابة لما أقول ! إنهن غالبا ما يفعلن ذلك ! إنني عندما أكلم الواحدة منهن وأنظر في عينيها وأتأمل وجهها وشعرها وشفتيها وصدرها ونهديها ... أشعر أن كل كلمة أقولها لها تخرج من قلبي ومن أعماق وجداني ...! هذه هي طبيعتي يا صديقي ... ! هكذا خلقني الله ... !

- ولكن هذا مرض ! مرض يصعب الشفاء منه !

- سمّه مرضا ... ! سمّه لعنة... ! سمّه قحطا مزمنا ... ! سمّه ما شئت ... ! إنها الحقيقة...!

- صاحبة الشعر المصبوغ تشاركك المرض ! إنها تتحدث بنفس الطريقة التي تتحدث بها أنت !

- وهل أستطيع أن أقول بأنني لست الوحيد في هذا العالم الذي يعاني من هذا المرض؟

تجاهل صديقي سؤالي ... حملق في وجهي بعد أن أغمض عينيه نصف إغماضة، وقال:

- مررت بالبقالة عصر أمس، وكانت المرة الأولى أدخلها بعد انقطاع عدة أيام، وحالما رأتني أدخل صاحت بي بفرح متقد عن سبب غيابي تلك المدة ... وسألتني عنك ولماذا لم أحضرك معي؛ فأعلمتها بأنك ستأتي إلى شقتي عصر اليوم للعشاء !

- وهل قالت لك لماذا تريدني ؟ سألت أنا الآخر بشوق لاهب وقد شعرت بسعادة عارمة أن تهتم بي حسناء !

- لقد قالت لي بأنك إنسان ممتع جداً ... وأنك وسيم وجذاب بل وساحر بشكل لا يصدق ... وأن لك حضوراً مميزا وفريدا ... ! وقالت أيضا بأنها ما قابلت في حياتها قط، إنسانا سحرها حديثه ووسامته مثلما فعلت أنت بها ... !

- آه ! يالي من إنسان محظوظ ! أنا لم أكن أعرف أنني مخلوق مميز إلى هذه الدرجة ! ما أسعدني أن تقول عني حسناء مثل هذا الكلام !

- قالت بأنها أرادتك كثيرا ... وتحب أن تراك وباستمرار ... وأن تستمتع بأحاديثك الشيقة والتي أسعدتها جداًّ جداً ... !

- لاشك أنك شعرت بالفخر والزهو والسعادة أيضا ، وأنت تستمع إلى أنثى ساحرة كالسيدة كاثرين ، تتحدث عن صديقك بهذه الطريقة النادرة ! وبعد أن ضحكت أضفت مازحا :

- أريدك أن تعرف يا سيد مونتكيو بأنني صديق من نوع مميز وفريد ... وأنه قد حصل لك الشرف والسرور معا، بمعرفتي وصداقتي ... !

- إنني على العكس من هذا تماما ... فمنذ أن أعلمتني بقصتها وأنا مصاب بالإحباط والقلق معا ! صحيح أنني فخور بصداقتك، ولكن تصرفك مع النساء يخيفني !

- لقد بدأت أنا أشعر بالقلق والحيرة أيضا؛ إذ يبدو أن هناك حقيقة أنا غير واع بها ولا مدرك لسرها ! فماذا تعني يا صديقي ! قلت باهتمام صادق !

- إنك وبكلامك هذا الذي تقول بأنك لم تعنه، فإن كاثرين قد صدقته وظنت أنك حقا مهتم بها وأنك تنشد محبتها ... ! إنك وبكلامك هذا الذي لا تعنيه تكون قد غرّبت... نفرت قلب المرأة عن حب زوجها ... وعندنا في القانون بأن الرجل الذي يستميل إليه قلب امرأة متزوجة، وينفر قلبها من حبها لزوجها، هو مذنب يجب ملاحقته قانونيا ! وفي هذه الحالة يحق للزوج أن يشكوه إلى المحكمة ويطلب تعويضا ماديا ! أي مبلغا من الدولارات !

قلت وقد شعرت باشمئزاز وقرف ممزوج بغضب لاهب :

- عليكم اللعنة ! إنكم أمّة كل تفكيرها نفعي وماديّ ... ! حتى مقدسات الحياة وجمالياتها ... من مشاعر وأحاسيس وعواطف ورباط مقدس... تسفهونها وتعهّرونها وتزندقونها، وتزنونها بميزان المادة... ميزان الربح والخسارة ... ! إنني أكاد أتقيأ ... !

- لأن المحكمة في هذه الحالة تعتبر أن تغريب قلب الزوجة عن زوجها قد يسبب الطلاق الذي بدوره يتسبب في تهدم حياة عائلة سعيدة وتشتت شملها ...! قال صديقي متجاهلاً ما قلت.

- ولكنني لم أحاول أن أغرّب قلب كاثرين عن زوجها ... ولم أحاول أن أجعلها تنفر من حبه ! إنني لم أذكر لها شيئا يوحي إليها أنني راغب فيها بأي شكل من الأشكال ... !

- لأنك لم تعنِ ما تقول، فقد نسيت ما قلت لها ذلك اليوم ! لقد سألتك هي بأنها لو كانت عزباء وغير ملتزمة فهل تتقدم لطلب يدها، فأجبتها بقوة وجرأة وبكل تأكيد ستفعل وفي تلك اللحظة !

- صحيح أنني ذكرت لها ذلك، ولكنني كما أخبرتك لم أعن ما قلت. لقد قلت ما قلت لأنني أعرف أنها متزوجة؛ إذ لو كنت أعرف أنها طليقة لما تحدثت إليها بكلام من هذا النوع !

- هي صدقت كلام لطع البقر هذا، وتمنت لو أنها غير متزوجة لتتزوج منك !

- هي قالت ذلك ؟! يا لها من حمقاء ! أنا غير جاد في مقولتي ! ثم لو أنها كانت سعيدة في زواجها، لما كانت أعارت كلامي هذا أقل انتباه ... !

- نعم، لقد كانت سعيدة جدا وقانعة قبل كلامك لطع البقر هذا !

- أنا آسف يا صديقي ! يبدو أن مزاحي هذه المرة قد تجاوز الحدود ! لاشك أنها الآن قد نسيت ما حدث ! قلت.

- هذا ما تظن ! وأقول لك بأنك جد مخطئ ! لقد صارحتني بأنها ومنذ وقت حديثكما لم تفارق صورتك مخيلتها... وأنه كلما دخل البقالة زبون تظنه بل وتتمنى لو يكون أنت ... ! إنها مشتاقة إليك وإلى أحاديثك ...! لاشك أنك أجدت تمثيل دورك عليها ... !

- لقد قالت بأنها تريد أن تدعونا - أنت وأنا - إلى العشاء، هذا الأسبوع ؛ ربما من الأنسب أن لا نقبل الدعوة ! قلت غير صادق وكلي أمل بأن يصر على القبول !

- طبعا لن نقبلها ! وهل تريد أن نصب على النار زيتا ؟!

اعترتني خيبة أمل كبيرة... وراودتني فكرة بأن أذهب للقائها دون علمه؛ ولكن صوته وصل إلى أذني هادرا ً ... !

- أريدك أن تعدني، بل أن تقسم لي بشرفك الأكاديمي ، بأن لا تذهب لرؤيتها ولا تحاول الاتصال بها ؛ وإذا حاولت هي الاتصال بك ، فإنني أريد منك أن تتهرب منها وترفض لقاءها !

لا أدري لماذا في تلك اللحظة، استولت عليّ قشعريرة هوجاء عصفت في كل بقعة من وجودي، وأصابت كل ذرة في كياني؛ فشعرت بحزن شديد شديد، وبألم عنيف عنيف، أحسسته وصل النخاع من عظامي...! لقد تراءى لي وكأنما كنت أنا وكاثرين عاشقين حميمين لسنوات طوال، ثم جاء من أخذها مني وتركني وحيدا ... !

اكتفيت بأن هززت رأسي لصديقي علامة الموافقة على طلبه، فاستأذنته ودخلت الحمام لأتخلص من دمعتين كبيرتين أحسستهما لكبرهما بحجم ناطحة سحاب !

أما صديقي فقد نهض وتوجه إلى المطبخ ليعد لنا فنجانين من الشاي بالعسل، كعادته، قبل أن نبدأ سوية بإعداد وجبة العشاء !

*****

الفصل الخامس عشـــر

كان في شقتي على العشاء هذه الليلة، السيد جورج مونتكيو، والدكتور هانس هارنبيرق. وكنا الدكتور هانس وأنا، نقوم بعملية غسل الصحون؛ حيث لم يكن في شقتي جلاية للصحون ... ! كان هانس يغسلها وأنا أجفف مباشرة ما يغسل وأعيده إلى مكانه على الرفوف وفي الأدراج. كنا نتبادل النكات همساً عن العجوز العاشق الولهان، وعن رومانسيته المتجددة لزوجته...!

إنه منذ أن وافقت زوجته على أن يعودا لبعضهما، وهو يمضي كل عطلة نهاية أسبوع عندها؛ يذهب إلى مدينة سان هوزيه عصر يوم الجمعة بعد انتهاء المحاضرات، ويعود في ساعات الصباح الأولى من يوم الاثنين. إنه لم يشذ عن هذه الطريقة مطلقاً؛ بل كان يذهب أيضاً في أي يوم فيه عطلة دراسية. كان تارة يسوق سيارته، وأخرى يذهب بالأتوبيس، كما ذهب مرة أو مرتين بالطائرة...

إنه سينضم إليها نهائياً خلال الثلاثة أسابيع القادمة، حيث إن الفصل الدراسي يوشك على الانتهاء، وهو عازم على أن يقدم استقالته في نهاية الصيف ليكسب رواتب العطلة الصيفية. كما إنه يأمل أن يجد عملاً في مدينة سان هوزيه أو في إحدى ضواحيها.

على الرغم من أن عودة السيد مونتكيو لزوجته وأولاده قد أفرحتنا جداً، الدكتور هانس وأنا، إلا أنها قد أحزنتنا وآلمتنا كثيراً. لا شك أن حبل الود المتين الذي كان يربطنا سينفرط، ولن نعود لنجتمع كما نفعل الآن في عطلة نهاية الأسبوع معاً في طبخ وشرب وحبور، وكذلك من مناقشات فكرية رائعة...!

إن صداقتي بالدكتور هانس، ليست متينة وعميقة كصداقتي بجورج. إن جورج صديق حميم لكل واحد منا... وكل واحد منا له دالة خاصة عليه. إن بيني وبين جورج صداقة فكرية وروحية متينة... صداقة متميزة قلما تكون بين إنسانين... صحيح أنني والدكتور هانس نجتمع ونرى بعضا في نهاية كل أسبوع تقريباً، إما عند جورج، أو في مطعم، أو نذهب أحيانا إلى ناد ليلي عندما لا يكون أحدنا مرتبطاً بدعوة. ولكن عدم تواجد جورج معنا سيجعل صداقتنا تفتر، وقد تنفرط... إنني أكاد أجزم بأن صداقتنا ستنتهي بعد أن يغادر جورج سانتا مونيكا، إذ إنه هو الذي يبقي على استمرارية هذه الصداقة ودفئها...! إنني أحس أن بيني وبين الدكتور هانس حاجزاً نفسياً صفيقاً ... !

لم يكن جورج يساعدنا في عملية غسل الصحون هذه، لأنه هو الذي طبخ العشاء، فهو الذي دائماً يقوم بعملية الطبخ. إنه طباخ ماهر... من الدرجة الأولى. هذه حقيقة لا تقبل الجدل ... ! إنه فنان في الطبخ وإعداد المائدة، وتقديم النبيذ ... هذا بالإضافة إلى أنه يرفض أن يأكل من طبخنا إذا ما عرض أحدنا أن يقوم بهذه المهمة، فهو يعتبرنا طباخين فاشلين ... ! لقد مازحناه كثيراً بأنه سيكون من الخير له والأربح أيضاً، لو يعتزل مهنة التدريس ويلتحق بأحد مطابخ الفنادق الراقية... وقد أكد لنا مراراً بأنه كثيراً ما فكر بذلك، وأنه سيفعلها يوماً عندما ترتفع عنده درجة القرف من التدريس وتصل أوجها ... !

كان جورج في غرفة الجلوس مستغرقاً في قراءة كتاب؛ وقد لاحظت من موقعي في المطبخ أنه يقرأ الصفحات الأخيرة منه، وأنه يقرأه باهتمام وشوق شديدين ! كنا ما نزال

نعلق همساً على رومانسية جورج المتجددة، وكان الدكتور هانس يقول وقد بدت على وجهه هذه المرة علامات الجدية، وكأنما هو يحاضر في طلابه في الجامعة:

- عندما يقع في الغرام من هم في مثل سن جورج، فإنهم يتحولون إلى مراهقين شبقين حمقى متهورين، مما يقودهم لارتكاب أعمال وتصرفات صبيانية سخيفة لا تليق بأعمارهم ... ! قالها همساً وأتبعها بضحكة.

- أليس العاشق الولهان خيراً منكما أيها الأحمقان؟! قال جورج من مكانه في غرفة الجلوس، ثم أتبعها بضحكة من ضحكاته الغريبة الباهتة، ثم أضاف:

- تظنانني لا أسمعكما؟! ما أغباكما إن اعتقدتما ذلك! لقد سمعت كل كلمة نطقتما بها! لقد نسيتما أن لي أذنين حادتي السمع كأذني الأخلند ... !

في الحقيقة إن حاسة السمع عند السيد مونتكيو حادة جداً، وكذلك بقية حواسه الأخرى. إنها ظاهرة خارقة نحن ندركها ونعيها جيداً ... ولكننا ظننا أنه لن يسمعنا هذه المرة بسبب استغراقه العميق بالقراءة وكذلك بسبب همسنا.

- أنت يا هانس كالخنزير الشره النتن، لا هم لك في الدنيا إلا أن تملأ معدتك الضخمة بالأكل والنبيذ... أما أنت يا شيخ البدو فإنك ترفض أن تقع في الحب، لأنك في فلسفتك السقيمة تشعر بأنها تلهي عن النضال من أجل الوطن ... الوطن الذي لا يحميك ولا يشعر حتى بوجودك ... !

مصمصت شفتي لأدخل معه في مناقشة فلسفية طويلة، ولأعلمه درساً بالانتماء وحب الوطن والتضحية والفداء ونكران الذات، ولكنه سبقني وقال:

- إن بعض حكام وطنك الذين تتهمهم بسرقة خيرات الوطن ونهب مقدراته لصرفها على مباذلهم وعهرهم، قد يكونون أكثر إخلاصا وأشد حباً له منك... إنني أراهنك على أنك ستكون أمهر منهم لصاً، وأكثر جشعاً لو وصلت إلى سدة الحكم وجلست فوق ذلك الكرسي السحري، وكحلت عينيك ببريقه ووهجه، ورأيت أرتالا من المنافقين... والمتسلقين... والانتهازيين بين يديك مقبلين مدبرين... مهرولين تارة... راكضين تارات... ينتظرون إشارة منك لينفذوا ما تطلب منهم، مهما كان حقيراً وساقطاً ! صدقني إنك ستنزل أعلامك، وستتهاوى حصونك وتسقط قلاعك، وتعلن استسلامك في أول مرة تخلع لك بها فتاة أميركية سروالها...!

لعله أعجب بما تفوه به، إذ لأول مرة أراه منذ أن بدأت المناقشة يرفع عينيه عن الكتاب، ويستغرق في ضحك عميق متواصل...! على الرغم من معرفتي الأكيدة بأن صديقي جورج كان يداعبني بقفشاته ونكاته اللوذعية، غير أنني شعرت بأنه قد أهانني في معتقداتي القومية، وحطّ من قدسية وسداد آرائي، كما إنه أهان وجرح إحساسي ...! لعله لاحظ وجومي والاكفهرار الذي خيم على وجهي، فقال وقد فرد مسحة من الوقار والجدية فوق وجهه:

- سامحني لتقليلي من قيمتك يا ابن الكلبة! إنك تحتاج إلى سروالي امرأتين لا سروال امرأة واحدة، حتى تعلن استسلامك وتنزيل أعلامك ... واحدة أميركية والثانية يهودية صهيونية...

واستغرق بالضحك من جديد، وانضم إليه الدكتور هانس... ثم تبعتهما أنا... وانخرطنا ثلاثتنا في حفلة ضحك صاخبة، دامت مدة ليست بالقصيرة...!

- متى تقدم لنا "الباين أبل" يا جورج؟ أنا أظل أشعر بالجوع ولا أحس بالقناعة والرضا ولو أكلت عجلاً كاملاً في وجبة واحدة، إلا إذا تناولت الحلوى بعد وجبة الطعام ؟!

- "الباين أبل" جاهز أيها الخنزير الضخم، وينتظر جلوسكما، وكذلك القهوة وحليب النوق المبرد لشيخ البدو ... ! أمهلاني دقيقتين فقط لأنهي الورقتين الأخيرتين من هذا الكتاب، ورمى بناظريه إلى الكتاب ثانية.

جلس الدكتور هانس على طرف الكنبة مقابل جورج، وجلست أنا على الطرف الآخر، نحلم بأكلة التفاح الراقدة بين طبقات "الباين أبل"، والمخلوطة مع أشياء أخرى مطبوخة، بالإضافة إلى بهارات كثيرة ومتنوعة ! وفوقه كمية ضخمة من "الآيس كريم الدسم" والذي يتناولونه عادة كحلوى، ويشربون معه القهوة الأمريكية؛ ولكنني أنا، وبدلاً من تناول القهوة، فأنني أستمتع بشرب كؤوس الحليب المثلج معه ! إنها عادة تعلمتها في أميركا، فقد كنت أشرب أحيانا في اليوم الواحد لترين من الحليب، بل أكثر من هذا إن حصلت على ذلك! لعل سبب ولعي الشديد بشرب كميات كبيرة من الحليب المبرد وأنا في مثل هذا السن، يعود لحرماني من الحصول عليه أيام الطفولة والصبا معاً ... !

- على الرغم من أنني قرأت هذا الكتاب قبل أكثر من عشر سنوات، إلا أنني أقرأه كأنما أفعل لأول مرة، إذ أشعر برعب يهز كياني وقشعريرة تستولي علي... ! قال جورج بعد أن وضع أمام كل واحد منا صحن الحلوى والقهوة والحليب على طاولة الوسط، وجلس:

- لم أكن أعرف أنك تهوى قصص الرعب والخيال العلمي...! قلت.

- وهل هي واحدة من قصص الرعب ذات الخيال الجامح، والتي يخرجها للسينما والتلفاز "الفرد هوتشكوك"؟ أنا أكره هذا النوع من القصص ! قال الدكتور هانس.

- نعم. إنها قصة مزلزلة من قصص الرعب الحقيقية... القصص التي تحدث كل يوم... قصة السرطان المستشري في الأرض، والذي اسمه الصهيونيّة العالمية !

- تعني أولاد عم البروفيسور سهيل؟ إن هدفهم الاستيلاء على كل بلاد أولاد عمهم، وجعلهم جميعاً عبيداً لهم وأرقاء... فما شأن بقية العالم بهم؟ سأل الدكتور هانس بسخرية !

- لا يا صديقي. الاستيلاء على كل بلاد العرب هي الوجبة الأولى ... أما الوجبات اللاحقة، فهي الاستيلاء على بقية العالم...! هكذا هم يفكرون ويخططون ... ! إنهم يعتقدون بأنهم شعب الله المختار. إنهم ينظرون إلى كل ما عداهم نظرة دونية ! قال جورج بجد وحماس.

- ما اسم هذا الكتاب؟! سأل الدكتور هانس.

- اسمه "طقوس الاغتيال اليهودية" وقد جمعه "أرنولد لتر" ونشر سنة 1938م، ويشتمل على كثير من القصص التي حدثت بالتاريخ للمسيحيين الذين ذبحهم اليهود، لتقديمهم قرابين لأربابهم ...!

- آه... أذكره جيداً! لقد قرأته قبل أكثر من عشرة أعوام ، وصدقني أنني بعد الانتهاء من قراءته، أصابني فزع شديد ونقمة عارمة !

- أراهنك أن الكثيرين شعروا كما شعرت، وفكروا كما فكرت. ولكن صدقني لو أقدم أحدهم على قتل واحد من هؤلاء، لاتهموه بمعاداة السامية، ولبقيت حكومته تعتذر للعالم

عشرات السنين، وتدفع مليارات الدولارات دون أن يقبل اعتذارها أحد، وألمانيا خير دليل على ذلك! قال السيد مونتكيو.

- ولكن دولة داوود الديمقراطية تقتل من أهل دهشان في كل يوم العشرات وتحت شعار العنصرية... يقولونها للعالم كله وعلانية... ولا يخجلون ولا يخافون لا من قولها ولا من فعلتها؛ ومع هذا لم يجرؤ واحد من العالم بأسره، الذي يطلق على نفسه العالم الديمقراطي، أن يفتح فمه بكلمة احتجاج أو عدم رضى ... ! إنني أتساءل ماذا حدث للعالم ؟! ماذا حدث للبشرية ؟! قال الدكتور هانس بغيظ وقهر !

- لقد خدرته الصهيونية العالمية ونوّمته، فضخوا في عقله ووجدانه بحوراً من لقاح "المورفين"، فقتلوا كل ما عند الإنسان من غيرة وحمية وشرف، واقتلعوا منه آدميته وأخلاقياته، ولم يعد يعي ما حوله... ! قال السيد مونتكيو.

- إنني أشعر بالخجل الشديد، أن أقول لكم بأنني لم أقرأ كتاباً واحداً من هذه الكتب التي تتحدثون عنها، مع أنه يبدو لي أنها تهم قضيتنا أكثر مما تهم الأمم الأخرى ... ! قلت بانكسار وخجل شديدين !

- مشكلتكم أيها العرب أنكم لا تقرأون ! ان بينكم وبين القراءة عداوة مستحكمة... عندكم حساسية شديدة ضد القراءة... ولهذا فأنتم أمة متأخرة بذهول ، علمياً وحضارياًً! قال الدكتور هانس.

- حتى لو فتح الله عليهم في المستقبل وصاروا يقرأون، فإنهم لن يتعلموا ويتعظوا ...! إنهم ضعاف الذاكرة ولا يطيلون النظر إلى أبعد من أقدامهم... إنهم يقعون في نفس الشرك عشرات المرات... بل مئات المرات... ومع هذا فهم دائماً يجدون المبررات والمعاذير ... ! قال السيد مونتكيو بغضب ممزوج بالمرارة.

بدأ السيد مونتكيو يقرأ:

"التشريع اليهودي يقول أن الله هو إله بني إسرائيل فقط... وأنهم هم فقط شعب الله المختار، وأنهم هم لوحدهم أبناء الله وأحباؤه ...! إنه لا يسمح بعبادته ولا يتقبلها إلا منهم" !

- يا له من اعتقاد غريب ومذهل! إذن بسبب هذا المعتقد يشردون الآلاف من الفلسطينيين دون خوف من عقاب ولا تأنيب من ضمير! قلت.

- إنهم يعتقدون أنهم فقط المؤمنون، لأن نفوسهم مخلوقة من الله، وأن عنصرهم من عنصره ... ؛ وقد منحهم الصورة البشرية أصلا تكريماً لهم ! لقد خلق غير اليهود من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة، ولم يمنحهم الصورة البشرية إلا محاكاة لليهود ... ! لقد فعل ذلك لكي يسهل التعامل بين الطائفتين إكراما لليهود ، إذ بغير التشابه الظاهري، مع اختلاف العنصرين لا يمكن التفاهم بين طائفة السادة المختارين وطائفة العبيد المحتقرين... ولذلك فاليهود أصل في الإنسانية، وأطهار تحكم عنصرهم المستمد من عنصر الله استمداد الأب من أبيه...! أما الآخرون فأنجاس حيوانات، وإن كانوا بشراً في الشكل... لأن عنصرهم الشيطاني أو الحيواني لا يمكن إلا أن يكون نجساً... !

- وهل حقاً يؤمنون بهذه المعتقدات الغريبة؟! سألت مذهولاً وأنا أحدق بهما.

- إيمانا مطلقاً؛ كإيمان المؤمن بالله...! أجاب الدكتور هانس مؤكداً، وقد رافقها بهزة من رأسه.

- اليهودي إنسان مبجل صالح وطيب. وبما أنه إنسان الله المختار، فهو وحده الذي يحترم كإنسان، وإن كل ما في العالم له، وجميع الأشياء يجب أن تكون في خدمته، وخصوصاً الحيوانات التي لها أشكال آدمية ... فيجب استعباد من سالمهم، وإبادة من عاداهم ...! إنه من العدل والواجب أن يقتل اليهودي بيده كل ما هو ليس بيهودي، لأنه كافر ... ولأن من يسفك دم الكافر يقدم قرباناً لله، فيكافأ بالخلود. ولكن من يقتل يهودياً فكأنه قتل العالم بأجمعه!

- ولهذا السبب إذن هم يقتلون منا كل يوم العشرات، ولا يشعرون بذرة ندم ! قلت.

- تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله، ولهذا فهي عزيزة عنده حبيبة إلى قلبه ... أما أرواح ما عدا اليهود فهي أرواح شيطانية شبيهة بأرواح الحيوانات، إذ لا يدخل الجنة إلا اليهود ! أما الجحيم فهو مأوى الكفار... كل ما غير اليهود... إن نار جهنم لا سلطان لها على بني إسرائيل ... !

- ولهذا خرج من بينهم قتلة عتاة، أمثال روبنشتاين وبيغن وشامير وشارون وروبين وبيرس وباراك ونتنياهو وكثيرون... كثيرون ! قلت .

- لو لم يخلق الله اليهود للعالم، لانعدمت البركة من الأرض، ولما نزلت الأمطار وطلعت الشمس، ولما عاشت باقي المخلوقات ...! إن الفرق بين اليهود وباقي شعوب الأرض، هو الفرق بين الإنسان والحيوان ! إن باقي الشعوب هي كلاب وحمير لا يستحقون الشفقة ولا الرأفة؛ وإن الناس كلهم حيوانات خلقها الله بأشكال بني آدم ولكنهم كفرة ! كان قصد الله من خلقها حتى تخدم اليهود وتسهر على راحتهم... وإن الناس يتناسلون كالبهائم ...أرواحهم نجسة ويذهبون بعد موتهم إلى الجحيم ... !

- يا إلهي! ماذا يحدث للبشرية لو استلم قيادتها أو تحكم بمصيرها أناس من هؤلاء القوم؟! لا شك أنه الفناء المحتم... ! قال الدكتور هانس هذه المرة.

- يجب على اليهودي أن لا يقطع عهداً مع أحد من الناس؛ وإن حدث وأعطى العهد، لأي سبب كان، فيجب أن لا يحفظه! ولهذا يرفض الإسرائيليون بإصرار وعناد، تطبيق الاتفاقيات التي عقدت بينهم وبين الفلسطينين ... ! ويجب طرد الناس من أوطانهم والاستيلاء على أرضهم وممتلكاتهم، ولكن ليس دفعة واحدة، وإنما على دفعات، لئلا تصير الأرض خربة ولا يجدون من يخدمهم ... ! تابع السيد مونتكيو.

- إنهم ومنذ أن قامت دولتهم وهم يطبقون هذه النظرية على الفلسطينين. لقد طردوا معظم سكان فلسطين من بلادهم، واستولوا على أراضيهم وبيوتهم، إنهم يستعبدون من بقي منهم ...! علّقت.

- يجب على اليهودي أن يخدع ويكذب ويغش ويزوّر... أن يحلف كذباً ويشهد زوراً... أن يسلب ويسرق كل ما تقع عليه يداه لغير اليهودي لأنها لا تعتبر سرقة، وإنما استرداد لمال اليهودي الذي يبيحه الدين اليهودي ويحلل سرقته وسلبه ... ! إن الله لا يغفر ذنب اليهودي الذي يردّ لأجنبي ماله المفقود؛ أما إذا أقرض غير اليهودي، فيجب أن يقرضه بالربا لأنه إن لم يفعل ذلك فقد ساعده، بينما الواجب يقضي عليه أن يدمره ... !

- حقاً ! إنها شرائع مرعبة مذهلة... يتجمد الدم في الشرايين، ويقف شعر الرأس من فظاعتها...!ألهذا السبب يتصرفون بدولة داوود الديمقراطية بهذه الوحشية والعنصرية

واللاأخلاقية؟! وهل يعرف الناس في الغرب هذه الأفكار؟ وكيف لا يعملون شيئاً لمحاربتها؟ سألت وقد أصابني ذهول وصدمة !

- قلت لك، الناس بالغرب مكبلون بقيود الصهيونية ومنقادون لها. قال السيد مونتكيو بعد أن أخذ رشفة من فنجانه.

- هذا جزء من الحقيقة ! انتظر حتى تسمع ما هو أفظع وأكثر رعباً ! قال الدكتور هانس، وقد نظر إلى السيد مونتكيو كأنما يقول له أكمل.

- يعتبر الغالبية العظمى من اليهود أن التلمود كتاب منزل من السماء، وأنه في مصاف التوراة ... ويعتقدون أن الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهاً. غير أن بعضهم يعتبر التلمود أسمى من التوراة، وأن اليهودي الذي يخالف تعاليم التوراة خطيئة قد تغتفر، أما من يخالف تعاليم التلمود فيعاقب صاحبها بالقتل... وهناك بعض اليهود الذين يعتقدون بأن التلمود هو ملحق أو ذيل للتوراة، وأنه احتفظ بسلطته ككتاب يشمل روايات عصر ما بعد التوراة، حين تمت صياغة جديدة للديانة اليهودية. إن التلمود مماثل لتاريخ اليهودية نفسها فكلاهما يعمل سراً ومن وراء حجاب !

- الحقيقة أن تاريخ واضعي التلمود هم الحاخامات ؛ إذ يعتقد بعض اليهود أن مخالفة الحاخامات هي مخالفة الله، وأن أقوالهم أفضل من أقوال الأنبياء، إذ لا يمكن نقض تعليمات الحاخامات ... إنهم هم الذين ينفذون سياستها !

قال الدكتور هانس مقاطعاً وبحماس:

- لقد فجر التلمود البغضاء الشديدة والكراهية الماحقة، وولد العنصرية المتغطرسة المتعالية، ونمّا روح الحقد المدمرة للعالم والبشرية ... ومن التلمود انبعثت فكرة الصهيونية التعصبية للعودة إلى أرض كنعان، أرض الميعاد... إنهم يحرّمون على اليهود السكن في غير البلاد المقدسة وهي أورشليم، ويعتبرون أن من يخالف ذلك هو كعابد الأصنام ... !

- يا لي من جاهل ! كيف لم أطلّع على هذه الأفكار قبل اليوم ؟! قلت غاضباً من نفسي.

- ألم يقل لك جورج بأنكم أمة لا تقرأ ؟! قال الدكتور هانس بلهجة خيّل إلي أنها تشفٍّ. أما السيد مونتكيو فتابع حديثه:

- كان اليهود يعتبرون أنفسهم قبل اغتصابهم لفلسطين عام 1948، وحسب عقائدهم التلمودية، أنهم في أسر وعبودية، وأن بدء إطلاقهم من الأسر ابتدأ من بدء إنشاء دولة داوود الديمقراطية، وأن الذين خارج الدولة ما زالوا يعيشون في الأسر، حتى لو أنهم بقوا في ذلك البلد بمحض إرادتهم ورضاهم، وينعمون بخيراته ويتصرفون بمقدراته ... ! إنه تطلع سياسي وديني لتأسيس دولة يهودية جغرافياً وسياسياً ودينياً !

- الكيان الصهيوني ظاهرة سرطانية خبيثة مستعصية ومدمرة، إذ تتجمع في الصهيونية عمق التعصب والوحشية والهمجية والغطرسة ... ! إنهم ينشرون الإباحية الجنسية ويشجعون انحطاط الأخلاق وتدهورها، وهدم القيم والمبادئ والمثل العليا.

- لقد قرأت بأن التي أوجدت فكرة أن ينام الشبان من الجنسين معاً دون عقد زواج هي امرأة يهودية ! قلت .

- هذا صحيح ، واسمها "جلوريا ستاينهيم." لقد وصل الانحلال الخلقي والتفسخ العائلي، بسبب فكرتها هذه درجة مرعبة ! قال الدكتور هانس.

- يعتبر اليهود التلمود كتاباً مقدساً يعينهم على مواصلة الحياة بالانغلاق والسيطرة على المجتمعات تمهيداً لإقامة إمبراطورية داوودية... وسلطة التلمود تعتبر سلطة إلهية ! لقد وضعوه لتحقيق رغباتهم وميولهم الشريرة الخبيثة ! إنه قانون القتل والتعذيب والتدمير والخداع والكذب والغش والتزوير والسلب والنهب ونكث العهود. قانون الاستغلال... حب الذات... الجشع... حب السيطرة... الاستبداد بالآخرين وإذلالهم... فالتلمود هو مصدر الشر الكامن باليهود باعتباره مصدر احتقار اليهود للديانات الأخرى ! يعتبر اليهودي كل ما عداه وثنياً كافراً، وإذا ضرب الوثني يهودياً يكون قد ضرب القدرة الإلهية نفسها. قال السيد مونتكيو.

- المسيحيون يقدسون العهد القديم، لأنهم يؤمنون بمعظم ما جاء به، ولكنهم غاضبون من التلمود باعتباره مصدر الشر الكامن باليهود. وبسبب تعاليم التلمود والنصوص المروعة به، تسعى الصهيونية ليس للسيطرة على البلاد والشعوب العربية فقط، بل وعلى العالم أجمع! إنه ينطوي على شر وتدمير للإنسانية، إنه تعصب ديني ماحق ضد المسيحية. قال الدكتور هانس.

- يا ترى! كيف ينظرون إلينا نحن المسلمين؟ سألت بسذاجة وعفوية.

- إنهم عندما يقولون "مسيحيون" فإنهم يعنون كل ما هو غير يهودي! قال الدكتور هانس بحزم، وقد بدأت النرفزة تبدو في لهجته!

- وهل يعني البوذي والهندوسي و... و... ؟ سألت.

- قلت لك جميع الأمم التي خلقها الله على وجه الأرض ... ! قال الدكتور هانس مغتاظاً لبلاهتي.

- يذهب المسيحيون إلى الجحيم بعد الموت مع أجساد الحيوانات لأنهم ملعونين، ويجب عندما نذكرهم أن نتحدث عنهم كحيوانات نفقت ... ويجب العمل على إفنائهم، وأن لا يوفر أية وسيلة ماكرة في مقاتلتهم ... وأن لا يحول دون حدوث الشر لهم ! إن اليهودي الذي يقتل مسيحياً لا يقترف إثماً، بل يقدم إلى الله أضحية مقبولة... قرباناً ! واليهودي الذي يقتل مسيحياً يحتل مكاناً مرموقاً في الجنة ... كما ويجب على اليهودي أن يمنع تزاوج المسيحيين، وأن يمنع تكاثرهم، كما ويجب على اليهودي أن يغش كل من هو غير يهودي، شريطة أن لا يكتشف ذلك ... !

- يا إلهي ! إنني لا أصدق ما تسمعه أذناي ! فهل أنا في حلم أم حقيقة ؟! إنه يكاد يغشى علي ... ! قلت بفزع وأنا أفرك يديّ ببعضهما ... !

- انتظر قليلاً لتسمع ما هو أكثر رعباً وفظاعة... إنك ستسمع العجب العجاب ! قال الدكتور هانس بتأن وصوت خفيض، وهو يهز رأسه !

- اسمع ما يقولون عن السيد المسيح وأمه مريم ؛ قال ذلك وبدأ يقرأ :

كنت وأنا استمع اليه مرعوبا أرتجف وقد وقف شعر رأسي وتجمد الدم في شراييني ... فصحت به لا شعوريا ؛

- توقف ... ! توقف... ! عليهم اللعنة ... !هكذا يقولون عن السيد المسيح داعية المحبة والسلام ... وعن أمه مريم العذراء البتول ...؟! أهكذا يقولون عن قائل "من كان

منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ... ! " حقا انهم هم الهراقطة ... ! يكفي... ! يكفي ...! إني سأفقد عقلي وأجن لو واصلت كلامك ... ! صحت بصديقي جورج بعصبية وغلظة ... !

*****

لقد تساءلت مرات ومرات، كيف يسمح عالم متحضر... عالم فتت الذرة ووصل إلى القمر،وصنع العجائب ... لأناس يحملون هذه الأفكار الشريرة للبشرية، بأن يعيشوا بينهم ويتعايشون معهم ... ؟! كيف يسمحون لحملة هذه المعتقدات الغريبة العجيبة، بممارسة معتقداتهم هذه ... ؟! لم لا يفعلون شيئاً لإيقافهم قبل أن يستفحل أمرهم،فيجلب الشقاء والتعاسة للبشرية ... هذا إن لم يكن أمرهم قد استشرى واستفحل بعد، وفات الأوان...؟!

لقد صرت أقارن في مخيلتي وأسترجع بين ما قرأه السيد مونتكيو، وبين ما طبقوه ويطبقونه في كل يوم على أهلنا في الأرض المحتلة ! ألم يتجاوزوا تعليمات التلمود في الممارسة والتنفيذ ؟! أليسوا هم أنفسهم الذين يقتلون الأجنة في الأرحام، ويجهضون الحوامل بالغازات السامة والضرب والتعذيب، ويكسرون عظام الأطفال ويدفنونهم أحياء...؟! أليسوا هم الذين يمحون القرى عن آخرها، ويدفنون أهلها تحت الأنقاض أحياء وفي مقابر جماعية...؟! ألم يتجاوزوا تعاليم تلمودهم، فيلقون بالناس في الصحارى، ويتركونهم يهيمون على وجوههم، فيموتون عطشاً وجوعاً وبرداً ... تأكلهم الوحوش والعقبان والأفاعي ...؟! أولم يسخّروا البشرية قاطبة ويستعبدونها لخدمتهم وتحقيق أطماعهم ومآربهم الذاتية ...؟!

شعرت بالغثيان لهول ما سمعت، وبدأ يغمى علي، وإنني على وشك أن أفقد توازني فأقع فوق الكنبة ... وكالحالم أو شبه المنوم، لاحظت أن السيد مونتكيو قد توقف عن الحديث، وأن الدكتور هانس يشير بيده صامتاً إلى الداخل... نحو غرفة النوم... فتنبهت إلى أن الهاتف يرن بإصرار مزعج ... !

توجهت إلى غرفة النوم بخطى متثاقلة، وأنا أحس بكابوس مرعب مجلجل لما سيحدث لو قدر لهؤلاء التلموديين الحاقدين أن يتحكموا ببلد ما؟! وأتصورهم وهم يذبحون كل بني قومي ذبح النعاج، ليقدموا دمنا إلى إلههم ... "يهوه" !

رفعت السماعة ببطء وتثاقل، ووصل إلى أذني صوت رجل قوي النبرات، واضح الألفاظ، سليم النطق والتعبير، يضج بالرجولة والجرأة، ولكنه يفيض أدباً ورقة واحتراماً :

- هل هذا هو البروفيسور سهيل دهشان؟

ولما أجبته بالإيجاب قال:

- آمل أن لا أكون قد أيقظتك من نومك، وآسف جداً إن فعلت ذلك؛ إذ لعل الوقت متأخر بالنسبة لك، فالساعة الآن تقترب من الحادية عشرة !

أكدت للمتكلم بأنني لمّا أذهب إلى الفراش بعد، وأن عندي بعض الأصدقاء على العشاء، وأننا لم نتناول الحلوى حتى الآن ... ! وكنت قد بدأت أستعيد بعض وعيي ويفارقني شيء من ذهولي وفزعي ... !

- اسمي جيمس روبنسون، زوج ممرضة طبيب الأسنان " إليوت "، فهل ما زلت تذكرها؟!

في الحقيقة إنها كانت مفاجأة لي، بل صدمة...! هممت أن أرحب به، ولكنني قلت "طبعاً... طبعاً... أذكرها ! وهل من الممكن أن أنساها ؟! كيف حالها ؟ " قلتها بارتباك وحيرة، وقد بصقت الكلمات كالببغاء ... وأحسست بقشعريرة وبردية معاً، هزتا مفاصلي وعظامي، وسرتا بكل خلجة في جسمي ... !

- إنها بخير. شكراً. لقد صار لي حوالي أسبوع أهاتفك في مكتبك بالجامعة، ولكن سوء حظي لم يسعدني بالحصول عليك...

- هذا لسوء حظي أنا... وآسف أن أسبب لك هذا الإزعاج. لقد ذكرت لي سكرتيرة القسم بأن رجلاً سأل عني هاتفياً عدة مرات، ولكنها قالت بأنه لم يقبل ترك اسمه أو رقم هاتفه ! قلتها وأنا أرتجف وفرائصي تسري بها خطوط أسلاك رفيعة من الخوف والقلق والتوتر معاً ... !

- هذا صحيح. كنت أحب أن أكلمك شخصياً، ولم أرد أن أترك خبراً. اليوم فقط فكرت أنه ربما من الأحسن أن أكلمك في البيت، ولكنني لم أجد اسمك في دليل الهاتف، مما اضطرني لطلبه من سكرتيرة القسم ! ولكنها رفضت أول الأمر إعطاءه لي لأسباب أمنية كما فهمت منها ... أمضيت بضع دقائق وأنا أتناقش معها حتى استطعتُ أن أقنعها بأنني صديق حميم لكْ، من أوروبا ، أتكلم من نيويورك -وليسامحني الله- وأنني لا بد أن أكلمك ، لأمر يهمك كثيراً ، قبل أن أعود إلى وطني في أوروبا ... !

- لو سألت السيدة روبنسون لأعلمتك رقم هاتفي، فهو مدون على بطاقتي عندها في العيادة ! قلت. ولكن الرجل لم يعلق.

- إن سبب مهاتفتي لك هو أنني منذ مدة ليست بالقصيرة، وأنا أهتم بقضايا الشرق الأوسط الاقتصادية والسياسية والحضارية ... وأثناء قراءاتي اعترضتني كثير من الاستفسارات، وبعض القضايا المبهمة المحيرة، ولم أستطع الحصول على إيضاحات لها... ولما سمعت زوجتي تتحدث عنك كثيراً، وأن اختصاصاتك هي هذا الميدان، فكرت أن أستعين بك ... هذا إذا كان وقتك يسمح ولا مانع عندك ... !

- بكل سرور... وهذا شرف لي ... قلتها تلقائياً وصادقاً ... إذ إن هذا هو فكري القومي ونهجي الأكاديمي ... وهو أن لا أتوانى عن مساعدة أي إنسان يرغب بالاستزادة من المعرفة، وخصوصاً القضايا التي لها علاقة بالوطن الحبيب... !

- ومتى أستطيع رؤيتك ؟! سأل الرجل بأدب جم وتواضع، وكأنما يتوسل !

- متى تشاء، أنا تحت تصرفك ...! قلت وأنا ما زلت تحت تأثير المفاجأة.

- ما رأيك ظهر الغد، ونتناول الغداء معاً ؟

- بكل سرور، في مطعم الجامعة، وأنت ضيفي. قلتها بعفوية.

- مطعم الجامعة ! لا بد وأن يكون مملوءاً بالأساتذة ... ثم إن جوّه رسمي، ومن الصعب التركيز... ! أنا أعرف مطعماً هادئاً في "وست وود فلج" ... وأكله لذيذ، وأتمنى لو تقبل دعوتي هناك ! قال بتوسل.

وافقته. ووصف لي مكان المطعم فعرفته، ولكنني تذكرت بأن آخر محاضرة عندي غداً تنتهي في الساعة الثانية إلا عشر دقائق، ولما أعلمته بذلك، وأن هذا الوقت قد يكون متأخراً له ليتناول الغداء، اقترحت عليه اليوم الذي يليه، إذ إن آخر محاضرة عندي تنتهي في الواحدة إلا عشر دقائق.

- على العكس، فالساعة الثانية والنصف وقت مناسب جداً لي... سأكون بانتظارك في المطعم في الثانية والربع، واحضر أنت وقتما تستطيع... تصبح على خير... وإلى اللقاء.

هممت أن أغلق السماعة بعد أن رددت تحيته، ولكنني تذكرت:

- ولكن كيف نميز بعضنا بعضاً؟ سألته.

ضحك بأدب وقال:

- سنميز بعضنا لا تخف ! على كل حال، أنا نحيف طويل... ستة أقدام... وجهي واسع... عيناي زرقاوان... وشعري ذهبي، وأرتدي بذلة زرقاء !

- أنا طويل نحيف الجسم، خمسة أقدام وعشرة إنشات، حنطي البشرة، أسود الشعر مجعده... أرتدي بذلة بنية اللون. قلت.

- لا تخف سأميزك ... ! تصبح على خير. قالها للمرة الثانية.

مرّ بعض من الوقت قبل أن أغلق سماعة الهاتف، وأنا ما زلت متسمراً في مكاني على حافة السرير؛ فلقد هزتني وقلبت دماغي المفاجأة ...! حاولت أن أفكر ولكنني لم أستطع، إذ تلقيت الليلة صدمة مذهلة، ومفاجأة محيرة خلال ساعتين فقط ... ! الأولى مرعبة ومقلقة... أوقفت شعر رأسي وهزت وجداني من الأعماق... والثانية غامضة ومربكة... لم أستطع أن أجد لها تحليلاً أو تفسيراً ... !

- احزرا من كان على الهاتف؟! قلت بعد أن استرددت بعضاً من أحاسيسي وتفكيري، وعيناي قلقتان مشدوهتان تبحلقان بالسيد مونتكيو والدكتور هانس.

- لا بد وأن تكون ملكة الأغراء والجنس "بروك شيلدز"! أجاب جورج في الحال، وكأنما كان جوابه محضراً.

- تريد أن تقضي ليلة غرام... خاصة... خاصة جداً... فلم تجد من هو أكثر رومانسية وصميمية من شيخ البدو البروفيسور دهشان ...! وأتبعها بضحكته المعهودة الباهتة والتي لا طعم لها ولا روح فيها !

- أنا جاد في سؤالي ! كل شيء عندك مزاح وسخرية ياجورج ! أجبته حانقاً وبلهجة جافة.

- وأنا أكثر منك جدية ! أجاب وقد تصنع الجد في كلامه وقسمات وجهه.

- لا؛ جورج ! قال الدكتور هانس، وقد قلب يده اليمنى نفياً.

- إن التي كانت على الهاتف هي طيبة الذكر العجوز المتصابية... مثلك !

وكأنما اكتشف أنه نطق نكتة لوذعية، فانفجر يضحك قبل أن يكمل جملته، ثم ضرب يديه ببعض، ورفع رجليه قليلاً عن الأرض ثم ضربهما بشدة حتى صار ضرب اليدين والرجلين حركة لولبية إيقاعية ... ! ولما هدأ قليلاً واستطاع الكلام، تابع حديثه، وهو يمسح دموعه بظهر يده اليسرى !

- إنها ملكة الأغراء سابقاً "إليزابيث تايلور" ملت عشرة زوجها الجديد، فقد وجدته بليداً، ثقيل الظل لا يحسن المنازلة في الفراش... وفتشت في دفاترها وبحثت في ذاكرتها، فوجدت بأنها جربت رومانسية جميع رجال الأرض قاطبة على اختلاف مذاهبهم وجنسياتهم وألوانهم، فوجدت أن أحدا من بدو الصحراء لما يضاجعها بعد، فقد قيل لها أن لمضاجعتهم نكهة خاصة... غريبة وفريدة... لا تنساها مدى الحياة كل أنثى ذاقتها، ففكرت

وفكرت... وأخيرا اهتدت إلى بروفيسور يحاضر في جامعة كاليفورنيا، فهاتفته تعرض عليه الزواج أو مطارحة الغرام...! وانفجرا يقهقهان ويتباريان بالضحك وخبط الأيدي والأرجل ... !

- إنكما عجوزان حشاشان وسفيهان ! قلت بالعربية.

طبعاً لم يفهما ما قلت، وإن كانا قد واصلا الضحك والكركرة، وضرب اليدين ببعضهما والأرجل بالأرض.

- إنه هو وليست هي... قلت بحدة واستياء وصوت عالٍ.

- إذن واحد من أحبابك الذين تقضي الساعات الطوال وأنت تحدثنا عن حبك لهم، وهيامك بهم، رئيس بلد واحة الديموقراطية والحرية والعدالة... إنه رئيس دولة داوود الديمقراطية !

- لا تذكرا ذاك الملعون أمامي! إنكما تعرفان أن ذكره يثير قرفي واشمئزازي، وأن اسمه يجعلني أرتجف رعباً وجزعاً لكثرة وفظاعة ما ارتكب بحق شعبي من تقتيل وتشريد وتعذيب وتجويع ... ولهول ما لاقى على يديه من ظلم وويلات ومصائب ودمار ... وما حصل له من قهر وقمع وإذلال وتركيع ... ! قلت وقد التهبت مشاعري حنقاً وغضباً، وغلى الدم في عروقي !

- آه ! لقد عرفته. قال جورج وقد توقف عن الضحك فجأة، وبدأ كأنما يتكلم باهتمام وجدية.

- لا بد وأن يكون أمير دولة الجهراء... ! لقد اكتشف فجأة أن الذي يطبق له الفرخة الأسبوعية ليضاجعها، رجل غير مصقول ولا مثقف، وأنه لا يليق بمكانته الاجتماعية ...! فكر ببديل يجمع بين الثقافتين العربية الإسلامية والأوروبية، عاش في مجتمعين شرقي وغربي، وعنده الكثير من دماثة الأخلاق واللطف والإتيكيت... وحتى تكون نكهة المضاجعة ألذ وأطعم، والجو أرقى وأفخم؛ وبعد بحث دقيق وطويل مع مستشاريه ورجال القصر، لم يجد أكثر كفاءة لشغل هذا المنصب الهام والحساس غير البروفيسور سهيل دهشان ... !

انفجرت أضحك لخصوبة وجموح خيال الرجلين، فقلت من بين ضحكاتي بحماس وعفوية:

- أتمنى لو تعرض عليّ مثل هذه الوظيفة؛ لكان بإمكاني نصحه للتخلّي عن هذه العادة اللاأخلاقية و اللادينيّة ... !

- وماذا تفعل به؟ سأل الدكتور هانس وهو يتفحصني من خلف نظارته السميكة.

- أتصور أنه سيقبل و يتوب إلى الله تعالى ! قال السيد مونتكيو.

- يا لك من إنسان بلا قلب يا جورج ! وتحطم قلوب اللواتي ينتظرن دورهن كل ليلة خميس! ويحلمن في ليلة رومانسية رائعة مع الأمير الساحر! حلو الأعطاف رقيق الشمائل شرقي السمات... ثم لتحرمهن من عيش رغيد رافه طيلة حياتهن بعد تلك الليلة الحمراء الخالدة... لا... لا يا جورج ! هذا ليس تفكيراً صائباً !

وكان السيد مونتكيو قد ذكر أمامنا بأن أمير دولة الجهراء يتزوج من عذراء كل ليلة خميس؛ كما أوضح للدكتور هانس بأن ليلة الخميس في العالمين العربي والأسلامي ، هي

ليلة عطلة نهاية الأسبوع.لاأعرف هل هي قصة حقيقية ام هي من اختراع مخيلة صديقي جورج المتغولة باختراع القصص ! حقاً ، لا ادري !

كنت سارحاً مع تهويماتي، أطارد أفكاري... عندما نبهني صوت الدكتور هانس يوقظني من سرحاني سائلاً:

- هاه ...! ألا تريد أن تخبرنا من كان على الهاتف؟!

هززت رأسي مرتجفاً وكأنما استيقظت من كابوس مرعب !

- إنه زوج ممرضة طبيب الأسنان التي حدثتكما عنها !

وكأنما ألقيت قنبلة ! فقد لاحظت أن الدهشة استولت على وجه كل واحد منهما، وأن عينيه اتسعتا وكأنما تحاولان الخروج من محجريهما ... ! صارا يحملقان بي وكأنما انقلبت فجأة إلى شيء من غير بني البشر ... !

كنت قد أخبرت السيد مونتكيو والدكتور هانس في حينه، قصة تلك الممرضة ومعاملتها الوقحة ، المذلة والمهينة لي. وكنا قد أجمعنا بعد بحث ومناقشات طويلة، وتحليل عميق، بأن سبب تصرفاتها هذه لا بد وأن يكون تعصبها العنيف لداووديتها وصهيونيتها، وكذلك كرهها واحتقارها الشديدان لي كعربي ... ! وأن ليس هناك من سبب آخر إطلاقا.

- لا بد وأنك تمزح ؟! قال الدكتور هانس، وكأنما يستحثني على سرعة الجواب.

- يبدو أن الرعب الذي استولى على عقلك بعد سماع قصص أولاد عمك قد أخذك بعيداً، فجعلك تتصور أن واحداً منهم بدأ يطاردك ويريد ذبحك ! قال السيد مونتكيو.

- ألم تسمع يا جورج قصة ذلك الروائي الألماني، اليهودي، "ستيفن زفيق" الذي كتب قصة مشهورة اسمها "الشفقة" والذي كان يتصور أن ضباط الجستابو النازيين يطاردونه من مكان إلى آخر ليقتلوه، فصار يهرب من بلد أوروبية إلى أخرى، ثم ذهب في النهاية إلى إحدى بلدان جنوب أميركا متخفياً، إلى أن عثر عليه ميتاً في غرفته ! القصة الآن تحولت إلى عربي يتصور أن أولاد عمه يطاردونه ليقتلوه ! قال الدكتور هانس متصنعاً الجد وهو يُنظّر!

- أنا لا أتصور... أنا واثق. لقد تكلم معي قبل دقائق ! ثم إنني لا أقول بأنه يريد قتلي، أنا أقول يريد الاجتماع بي ! صحت بهما غاضباً ومستاء أيضاً.

- كان لنا صديق عزيز علينا جداً... جداً جداً... اسمه سهيل دهشان. قدم إلينا من "هفر الباتن" تبرع بدمه قرباناً لإله أولاد عمه "يهوه" من أجل ما بين فخذي ممرضة داوودية مغناج ! قال السيد مونتكيو ساخراً، وإن كانت تبدو لهجته جدية.

- لو كان المسكين تذوق طعمه، لقلنا لا بأس فليرحمه الله ! لقد مات شهيداً في سبيل فرج امرأة ! ولكن المسكين لم يسعد حتى بمشاهدته أو لمسه !

قال الدكتور هانس متصنعاً الجد والرزانة، وقد لف يديه حول بعضهما كأنما يعانق إنسانا في لقاء رومانسي ... ! ثم انفجر يضحك ويقهقه بصوت عال مقلداً قصف الرعد بطريقة أثارت قرفي ... !

- إنكما والله عجوزان متصابيان قذران ! قلتها بالعربية،بلهجة غضب واشمئزاز؛ ولكنهما واصلا ضحكهما وقهقهتهما دون أن يعيرا ثورتي أقل اهتمام ... !

- أنا في منتهى الجدية ! قلت بحدة وعصبية، وما زالت كلماتهما المرعبة تسيطر على كل ذرة مني !
- وماذا يريد منك ؟ ألم يقل لك سبب مكالمته ؟ سأل السيد مونتكيو هذه المرة باحترام وأدب !
- يقول بأنه قرأ كثيراً من الكتب عن الشرق الأوسط، وإنه قد استعصت عليه بعض الأفكار، ويعتقد أنني أستطيع مساعدته والإجابة على أسئلته ومساعدته، بعد أن ذكرت له زوجته اسمي وعملي وموضوع تخصصي...!
- وهل ذكر لك بعض هذه الاستفسارات ؟ سأل الدكتور هانس باهتمام ظاهر على وجهه.
- كلا. قال بأنها أسئلة كثيرة متنوعة. سياسية... اجتماعية... دينية... اقتصادية... الخ.
- لا تقل لي بأنك صدقته، وأن حيلته قد انطلت عليك ... ! علق السيد مونتكيو بقلق.
- وهل وافقت على مقابلته؟ سأل الدكتور هانس بانزعاج واهتمام شديدين يبدوان في عينيه !

ترددت قليلاً قبل أن أجيب، وقد أحسست بأنني حقاً قد ارتكبت خطأً فادحاً.

- للأسف الشديد... نعم. وسأقابله غداً للغداء في أحد المطاعم.
- أيها المجنون المغفل ! كيف فعلت ذلك ؟ سأل السيد مونتكيو، وقد اتسعت عيناه وعلت الدهشة وجهه.
- ولم لم تطلب إليه أن تتقابلا في مطعم الجامعة ؟! إنه مكان أمين ويفي بالغرض! قال الدكتور هانس.
- لقد فعلت ذلك... ولكنه اعتذر بأنه من الصعب التركيز في مطعم الجامعة بسبب ازدحامه.
- من الصعب التركيز، أو من الصعب ذبح إنسان؟ لقد صدق ظني، يريد الاختلاء بك حتى لا يراه أحد. اليهود أذكياء، ومخططون بارعون لتنفيذ أعمالهم الخبيثة، ويخططون قبل الإقدام على عمل مثل هذا ! قال السيد مونتكيو، وقد لاحظت دلائل الحيرة والرعب على قسمات وجهه.
- يجب أن تأخذ جورج معك ! إياك أن تذهب لوحدك ! أحذرك... أحذرك...! إنه يعرف أنك هنا وحدك ولا أحد يسأل عنك ! قال الدكتور هانس مؤكداً ومشيراً بسبابة يده اليمنى !
- أتظن أنه يريد مقابلتي ليذبحني، ويقدم دمي قرباناً للآلهة "يهوه"؟

قلتها متظاهراً السخرية وعدم المبالاة، وإن كنت في أعماقي قد بدأت أشعر بقلق وخوف شديدين... كذلك استبد بعقلي ندم ممزوج بالحيرة والتساؤل لتسرعي بقبول الدعوة، وعدم إصراري على مطعم الجامعة !

- إلغ الموعد الآن ! نعم الآن ! قال السيد مونتكيو بحماس، وهو يشير إلى غرفة النوم حيث الهاتف.
- قل له بأنك تذكرت أن عندك موعداً هاماً مع مديرة دراسات الشرق الأوسط. قال الدكتور هانس.

- ولكنني لا أعرف رقم هاتفه ! قلت بلهجة المتردد الحائر والمرعوب أيضا.
- المسألة في غاية البساطة، أنظره في دليل الهاتف ! قال الدكتور هانس.
- لقد ذكر اسمه الأول، ولكنني لم أعره انتباهاً.
- إذن لا تذهب إلى الموعد ! وانس أنك استلمت المكالمة الهاتفية.
- نكث العهود والإخلال بالوعود هو ضد رجولتي وتربيتي! قلت بافتخار جاهلي وتبجح قبلي، وإن كان الخوف والقلق والتردد قد بدأت جميعها تسيطر على كياني وتستبد بأحاسيسي.
- ما أمهركم بالتنظير والمفاخرة الكاذبة! إنكم أمة تبّجح. قال السيد مونتكيو بقرف.
لقد كنت أتصور الزوج "روبنسون" ومعه مجموعة من بني قومه، ضخام الأجسام، غلاظ العقول عتاة القلوب، ينقضون عليّ فيقيدون يدي وقدمي بالحبال، ثم يذبحونني ذبح النعاج أو الدجاج... ولا يهب أحد لنجدتي في بلاد الغربة... بلاد الضياع ! لم لا تكون شيلا نفسها هي التي ستجهز عليّ بالسكين ؟!
بعد جدال حاد ولاهب، ونقاش طويل ومتشعب، أفهمت الرجلين بأنني لا بد وأن أذهب إلى موعدي، وأنني سأذهب وحدي ! ولما وجدا أنهما لم يستطيعا ثنيي عن الذهاب والحيلولة بيني وبين هذه الميتة الشنيعة التي سعيت إليها بنفسي كما يصفونها، قال جورج بحماس مملوء بالغضب:
- إذن... لا تقبل أن تدخل المطعم إلا إذا كان به بعض الزبائن، فربما يكون صاحبه داووديأ أيضاً ، قد اتفق معه على ارتكاب الجريمة معاً !
- حتى وإن كان في المطعم بعض الزبائن، فيجب أن لا تقبل الجلوس في مؤخرة المطعم، وقريباً من المطبخ أو المرافق العامة، وإنما أصر على الجلوس في أول المدخل وقرب الباب... حتى إذا شعرت بأية حركة غير طبيعية، تستطيع الهرب أو طلب النجدة من المتواجدين في الشارع ! قال الدكتور هانس بحماس، وهو يشير بيديه.
- آه ! كم أتمنى لو أنني أملك مسدساً لأعرته لك ! ولكنني رجل سلام لا أومن بالعنف. قال جورج بأسف.
- تستطيع أن تعطيه سكين الكشافة الموجودة في درج المطبخ، فيخفيها بجيب بنطاله ! قال الدكتور هانس بفرح غامر، وكأنه اكتشف حلاً للغز المحير.
- فكرة رائعة ! فالسكينة سهل إخفاؤها، ولا صعوبة في استعمالها ! قال السيد مونتكيو وقد علت وجهه فرحة مشرقة، ولكنه سرعان ما تغيرت تقاطيع وجهه !
- إن أتباع "يهوه" لن يعطوه الفرصة لفتح السكين، ثم إنه من الصعب الاحتفاظ بها مفتوحة ! على كل حال قد يكون في أخذها فائدة وليست هناك من أية مضرة !
- لا تقلقا علي، سأكون حريصاً. إذا لاحظت من أحد أية بادرة توحي بسوء نية، فإنني سأصرعه قبل أن يتمكن من إلحاق ضرر بي ! قلت مفاخراً غير مصدق ما أقول !
- ما أشجعكم أيها العرب بالبطولات " الدونكوشيتية " ! لا تتغابى ! فهل تعتقد أنه إذا أراد أحدهم بك سوءاً سيعطيك الفرصة حتى لتلمسه ! قال العجوز ذو اللحية البيضاء وهو يداعب شعراتها.
- أعتقد انك على حق... ستكون المؤامرة مدروسة بإتقان. قلت.

- إذا بلغت الساعة الرابعة ولم تتصل بي هاتفياً، فسأتصل بالشرطة. قال السيد مونتكيو بجدية وحماس.
- انتظر حتى الساعة الخامسة يا جورج، إذ ربما يطول الحديث ويتشعب ! قال الدكتور هانس، ثم وكأنما تذكر شيئاً، أضاف مستدركاً:
- هذا إن كان هناك حديث حقاً ! قالها بحزن ظاهر وكأنما يشاهد صديقاً حميماً يُنحر أمامه !
- توكلا على الله. لن يحدث إلا الخير إن شاء الله. قلت بحماس مصطنع مشجعاً نفسي.

لا بد وأن أكون صادقاً مع نفسي، وأن أعترف بأن حديث الرجلين قد أدخل الرعب إلى قلبي! لقد رأيت في تلك الليلة أحلاما مذهلة وكوابيس مرعبة... كلها تدور حول مسكهم لي ومحاولة ذبحي... وأنا أهرب منهم وأستنجد ببعض الجيران !

كنت أستيقظ على إثرها وأنا أرتعد وأرتجف. إنني وحتى صباح اليوم التالي، وأثناء إلقائي المحاضرات كنت مشوشاً قلقاً فزعاً... لم أعرف ما كنت أقول !

لقد توصلت إلى قناعة تامة بأن قبولي دعوة الزوج، في المكان الذي حدده هو كانت غلطة حمقاء، ورأياً أهوج وتصرفاً غير حكيم من جانبي ... ! ولكنني سلمت أمري إلى الله وتوكلت عليه، بعد أن أكدت على نفسي بأنني يجب أن أتقيد بالملاحظات التي ذكرها لي الدكتور هانس، وهو أن أجلس في مكان أستطيع الهرب منه بسهولة، وليس قرب مكان يستطيع أن يجرني إلى داخله، وأن لا أدخل المطعم إلا إذا كان به بعض الزبائن. وكذلك أن لا أشرب شيئاً أشك بأنه قد تكون وضعت به مادة المنوم أو المخدر !

*** **

الفصل الســـــادس عشــر

ما كدت أدفع الباب الزجاجي الكبير للمطعم، حتى استقبلتني نسمة باردة منعشة مشبعة بالبرودة التي تشرح النفس وتريح الأعصاب، تصل إليّ من المكيف المركزي؛ فتمنيت لو أن المكان آمن وأن هناك فراشاً أستطيع التمدد فوقه بعد أن أخلع ملابسي، فقد أحسست بمتعة رافهة بعد ليلة ويوم من القلق والتوتر والمعاناة ...! لقد كان الطقس حاراً في الخارج على الرغم من أننا ما زلنا في أوائل شهر أيار !

قابلتني ابتسامة حنونة دافئة لفتاة تسيل رقة وعذوبة وحلاوة... سمراء الشعر، يتموج شعرها على كتفيها كالشلال، يخيل إليك لتموجه ونعومته واسترساله بأن أمواج البحر تتراقص أمام عينيك يمنة ويسرة وفي كل اتجاه ...! لقد صدق الشاعر إذ قال "والشعر كشلال لكن أرأيتم شلالاً أسمر؟! أصبحت أراها في قلبي وعلى أوراقي في الدفتر... لو تطلب روحي أعطيها... أعطيها عمري بل أكثر ... !" كنت أحس وأنا أنظر إلى وجهها أنني أمام لوحة فنية، وأنني أكاد أرى العظام لشدة صفاء الوجه ونقاوته ...! كانت طويلة القوام، نحيفة يكاد جسمها لرقته وطلاوته وشفافيته أن يتكسر بين يدي لو حاولت أن أضغط عليه بقسوة وخشونة...! كانت عيناها تطلقان سهاماً تلهب القلب والعواطف معاً، ولكن برقة وحنان... وكانت شفتاها ترسلان رسائل فرح وشوق ومحبة...! لعلها لمّا تبلغ العشرين من عمرها بعد ؟!

على الرغم من أن قلبي كان يضرب ضربات عالية متلاحقة، وأن أعصابي كانت ثائرة متوترة ومتحفزة لشدة قلقي وخوفي، إلا أنني لاحظت كل هذا، بل أكثر منه ! ولقد خيل إلي أيضا أن هذه الحسناء لا بد وأن تكون يعربية ومن الفينيق بالذات. إذ إن هذا النوع الغريب والنادر من الجمال السماوي، قد خص الله به فقط حوض البحر الأبيض المتوسط، وخصوصاً بنات جمهورية الفينيق... ! أولئك الحسناوات اللواتي كنت أشاهدهن ، بتقديس وتعبد ، يتمخترن بدلال ورقة، في شوارع بيروت وعاليه وبحمدون وصوفر وضهور الشوير وبكفيا ومدن الشاطئ ... كأنهن حوريات السماء يرقصن بتبتل وتهجد وتصوف في حضرة الخالق الأعظم...! لقد كنت اشاهدهن بورع وتصوف !

لا شك أنها كانت تنتظرني إلى جانب الباب، إذ لاحظت وأنا مقبل، خلف الزجاج خيال امرأة واقفة ترقب الغادين والرائحين؛ ولا شك أنها رأتني من موقعها في الداخل وأنا مقبل أقطع الشارع من الرصيف الآخر.

لقد تفوهتْ بجملة من أربع كلمات لم أفهم إلا الكلمتين الأخيرتين منها... "أستاز دهشان" إن الكثيرين من العرب ينطقون الذال زين، ولما أجبتها بالإيجاب، قالت جملة أخرى لم أفهم منها ولا كلمة، فظننتها تتكلم الفرنسية، ولأنني أعرف جيداً أن اللبنانيين الأرستقراطيين غالباً ما تكون ثقافتهم فرنسية، وأنهم يتفاخرون بها، بل ويصرون في كثير من الأحايين على التكلم بها، وللأسف الشديد ، غير معطين أي اعتبار للكبرياء الوطني والاعتزاز القومي ... !

- آسف يا آنسة ! أنا لا أعرف الفرنسية. يا حبذا لو تتكلمين العربية أو الإنجليزية ! قلت بالعربية.

لا شك أن النادلة قد أدركت الآن فقط أنني لا أفهم اللغة التي تتكلم بها، فقد سمعتها تقول بإنجليزية ركيكة، ولكن بلكنة كطعم البوظة المخلوطة بالشمام العسلي الذي أكلتها في محلات "بكداش" في دمشق قبل مغادرتي الوطن الحبيب !

- أنا آسفة جداً جداً. كنت أظنكً إيرانياً مثلي !

قالت ذلك، وأرجعت إلى الوراء بيدها الصغيرة وأناملها الرقيقة، تلك اليد التي تشبه يد حورية من جنات الخلد، وأصابع ناعمة دقيقة تشبه أقلاما من شعاع القمر، خصلة من شعرها السابح في ملكوت الله كانت قد سقطت على وجهها فغطت عينيها الحالمتين المتوهجتين !

- عندما طلب إلي السيد روبنسون أن أكون في شرف استقبالك، قال بأنك من ذلك الجزء من عالمنا، فظننت أنك من إيران ! قالت حفيدة " قورش " !

- لم يحصل لي هذا الشرف ! أنا من الجزء الثاني من ذلك العالم. قلت بأدب جم، مأخوذاً بسحر أنوثتها ورقة كلماتها، ولم أذكر لها ما هو هذا الجزء الثاني؛ كما إنني لم أذكر لها أنني عربي، لمعرفتي أن إيران ومنذ زمن الإمبراطور قورش تنظر إلينا نحن العرب بتعال واحتقار شديدين، وتعتبرنا عنصراً منحطاً وذليلاً. كما إنهم يشعرون بالمهانة والإحباط بأننا نشاركهم نفس الدين والمعتقد... لأننا شعوب وضيعة متخلفة، تنقصها الحضارة والأخلاق. ثم جاءت الثورة الإسلامية، فألبستنا تهماً جديدة إضافة إلى سابقتها، وهو الكفر والزندقة... ثم الخيانة والعمالة لأميركا والغرب، وكذلك لدولة داوود الديمقراطية ... وأننا يستطاع شراؤنا بدريهمات قليلة ...! كما وأننا أمة من الذباب تجذبنا رائحة الدولار ونتساقط كالحشرات على المناصب والكراسي ... !

إنني وإن كنت أتفق معها وأؤيدها تأييداً مطلقاً في الصفتين الأخيرتين، بل إنني أضيف إليهما بأننا بدأنا رحلة الجزر والتراجع... رحلة الانحطاط الحضاري... الانتحار الأخلاقي... التقهقر الديني... الاندحار القومي... الانحدار والاندثار الوجودي... وأننا قد نكون في طريقنا إلى الانقراض والفناء... غير أنني أخالفها الرأي بأننا عنصر منحط وذليل، وإلا لما قال الله عنا بأننا خير أمة أخرجت للناس ! دارت كل هذه الأفكار برأسي خلال تلك اللحظات القصيرة... القصيرة ... !

- أرجوك أن تتفضل معي، فإن السيد روبنسون ينتظرك هناك.

قالت ذلك وأشارت إلى إحدى الطاولات الملاصقة لشباك زجاجي كبير، محاذياً للشارع، يسمح لمن في الداخل والخارج برؤية بعضهما، مما بدد مخاوفي وأزال قلقي، فشعرت ببعض الاطمئنان ... !

نظرتُ إلى حيث أشارت، فرأيت رجلاً واقفاً يرتدي بذلة فاخرة وربطة عنق أنيقة، ينظر مبتسماً باتجاهنا، ويؤشر بيديه إشارات ترحيب ومودة...! سرت نحوه بعد أن شكرت النادلة، ولما تقابلنا تصافحنا بحرارة وكأننا صديقان حميمان غابا عن بعضهما مدة طويلة !

- أشكرك من أعماق قلبي لتكرمك بالمجيء. هذا لطف وكرم أخلاق منك أن تجعلني أنال شرف مقابلتك والتعرف عليك. كانت فرحة جذلى تغطي كل وجهه... ثم أشار بيديه الاثنتين معاً، وبمنتهى التواضع والأدب والاحترام إلى المقعد المقابل ؛ وجلس بعد أن جلست.

- إنه ليشرفني ويسعدني أيضاً التعرف بك، وشكراً جزيلاً لدعوتي للغداء. أنا آسف إذ أتيت غير مرتد بذلة وربطة عنق بسبب حرارة الجو !

- اعذرني إن ارتديت أنا هكذا، فإن وظيفتي تتطلب مني أن أكون دائماً مرتدياً بذلة وربطة عنق. أنا مساعد لمدير البنك، وعملي طيلة النهار مقابلة الزبائن والتحدث إليهم. إنني أتمنى لو أستطيع التحرر من رسميات الملابس وخصوصاً في فصل الصيف. قال وهو يضحك ضحكة خجلى مؤدبة .

- قد تستغرب إن قلت لك بأنني لا أستطيع ممارسة عملية الكتابة الإبداعية إلا إذا كنت بكامل ملابسي مثلك الآن ! قلت محاولاً أن أتخلص من هذا القلق الجاثم على صدري والخوف الساكن في قلبي، وإن كنت بدأت أشعر ببعض الاطمئنان، وأتخلص من عملية الذبح وقرابين الإله "يهوه" هذه !

- إن زوجتي لا تستطيع أن تكتب رسالة إلى والديها أو إلى أي إنسان آخر، إلا وهي ترتدي ملابس النوم أو ملابس البحر ... ! وضحك بصوت أعلى من السابق، وأضاف:

- تدعي بأنها لا تحس بصميمة الكتابة، ولا يأتيها الإلهام، إلا وهي ترتدي هذين النوعين من الملابس، وإلا فإن رسائلها تكون عقيمة وخالية من الشعور والأحاسيس !

"وهل لا بد من ذكر تلك الصهيونية العنصرية الحاقدة ؟! ليتك لم تذكر اسمها البشع أمامي، إذ إن مجرد ذكرها يبعث في نفسي القرف، ويصيبني بصداع مصحوب بالاشمئزاز ... !"

- لقد قرأت بأن بعض الكتاب لا يستطيعون القيام بعملية الإبداع، إلا إذا كان الإنسان الذي يحبونه يجلس أمامهم، فينظرون في عينيه ويكتبون ! وكأنما يقومون بعملية نقل أو نسخ، ينظرون في العينين ينشدون الوحي والإلهام... ينظرون في العينين... ثم يدونون على الورق ما توحي لهم به عينا الحبيب ... ! أما في غياب من يحبون فلا يستطيعون الكتابة إطلاقا ! قلت بفرح طفولي لم أعرف سببه ... !

ضحك السيد روبنسون بهدوء ورزانة، ضحكة مؤدبة طويلة، وقال:

- هذا إغراق جداً في الرومانسية، أستبعد حدوثه هذه الأيام. ربما يكون مثل هذا قد حدث في زمن مضى، يوم كان الإنسان يحب واحداً فقط ولا يعرف أحداً سواه !

وهنا أقبلت النادلة؛ وقد أحسست كأن إيوان كسرى أنوشروان، وقبله عرش قورش وبعده محمد رضا بهلوي... جميعها تتقدم نحونا في إجلال وهيبة، وعظمة ووقار... و ,,بكل سحر وأبهة وفخامة بلاد فارس تحيط بها ,,,! وضعت قائمة الطعام أمام كل واحد منا، بعد أن فتحتها بأدب وحياء ورقة، كأنما تكشف عن لوحة زيتية لأول مرة لعرضها في معرض فني !

قال السيد روبنسون وهو يطوي الكرتونة الصقيلة الملونة الفاخرة:

- أنا أعرف ما أريد.

- وأنا أريد ما تريده ! جميع أصناف الأكل التي أكلتها هنا في أميركا، ودون استثناء، وعلى اختلاف بلاد المصدر، وجدتها لذيذة وأحببتها ! قلت وأنا أحذو حذوه بطي كرتونة قائمة الطعام.

- كالمعتاد يا آنسة بروانة ! ولكن هذه المرة صحنين. قال للنادلة وهو يناولها كرتونتي قائمة الطعام.

- السيد روبنسون يأخذ عادة قهوة مع غدائه، وماذا تشرب أنت يا سيدي؟ سألت حفيدة قورش.

"قوليها مرة ثانية بربك... أسألك بدينك... بحق الشاه أو الخميني... أيهما تعزينه وتقدرينه... وأيهما تقدمين له الولاء والطاعة والاحترام ! إن لي زمناً طويلاً... طويلاً جداً لم أسمع هذه الرخامة والعذوبة في الصوت، ولا هذه الحلاوة والطلاوة في النغمات ! والله ، إن للشرق المسحوق سحراً لا يتواجد بأي مكان في العالم سواه ... وإن لحسانه لذة ومتعة لن تحصل عليها مع امرأة غيرها في الدنيا...! إن أجسادهن الحنطية لها جمال أخاذ صاف له مذاق خمر لم تَجُد به دوالي عنب الكون ! لقد أيقظ صوتك وعطرك وعبير أنفاسك في كياني الحنين إلى الوطن وإلى مرتع الطفولة والصبا وكذلك الى لبنان الحبيب ... ! كم أتمنى لو تظلين تتكلمين وتتكلمين، أيتها الساحرة التي لم ألتقط اسمك... ساعات وساعات... أياما وشهوراً بل ودهوراً... أنتِ يا أنتِ ...؟!"

- ماذا تحب أن تشرب يا بروفيسور دهشان مع غدائك؟ سأل مضيفي عندما لاحظ سرحاني وتباطئي بالجواب !

استيقظت من سرحاني فزعاً... وكأنما قد أمسكت بجريمة مناجاتها، فقلت وأنا جد مرتبك:

- كأسا كبيرة من الحليب المثلج من فضلك !

"آه! كم أحب شرب الحليب من نهديك ! لا شك أنني سأخلد على هذه الأرض، في هذا الزمن الرديء... الرديء جداً... زمن العهرة والزناديق والمنافقين من بني أمتي!"

وخطّت على الورقة الكلمات وشكرتنا ثم انصرفت.

- قد تستغرب إن قلت لك بأنني أحب شرب الحليب المثلوج إلى درجة لا تصدق ! إنني أدخل أحيانا بعض البقالات عندما أكون عطشان، فبدلاً من أن أشرب ماء أو بعض المرطبات، أشتري لتراً من الحليب وأفرغه في جوفي دفعة واحدة ... ! إن له مذاقاً لذيذاً لا أستطيع له وصفاً. قلت لجليسي بحماس !

- لا ضير عليك في ذلك. إن لي صديقاً مثلك... يشرب حليباً كثيراً، ولكنه يصر على شربه ممزوجاً بالعسل. قال مضيفي بأدب جم وهو يهز رأسه مبتسماً.

وتذكرت صديقي جورج مونتكيو وقصة عسله ! لا شك أنه الآن قلق وخائف عليّ من أن يكون قد حدث لي مكروه.

- يبدو أنك تتردد على هذا المطعم كثيراً ؟ قلت مبالغاً في التأدب والاهتمام !

- نعم. زوجتي وأنا نأتي هنا كثيراً ! نحن زبونان شبه دائمين. وكذلك أدعو إليه بعض الزبائن أو الأصدقاء. فأكله لذيذ ونظيف جداً، وغير بعيد عن مكان عملي... ثم أرتاح عندما أكون به، وكذلك جوه هادئ ومنعش. قال بتواضع وصوت منخفض وهو يهز رأسه، وعيناه تتأملان وجهي وتنظر في عيني !

- هذا ما شعرت به منذ دخلته. قلت صادقاً.

- بروانة إيرانية ووحيدة والديها ! هرب ثلاثتهم عندما انهار حكم الشاه واستولى الخميني على السلطة. لقد كانت طالبة علوم سياسية في السنة الأولى في جامعة طهران، وكان والدها كما فهمت، من رجال الشاه المخلصين والمقربين، فكانت تعيش هي ووالديها حياة عزّ وترف. وخوفاً من القتل، فقد هرب ثلاثتهم بسيارة شحن من طهران إلى

اسطنبول... ومن هناك حضروا إلى كاليفورنيا. لقد كان لوالدها أصدقاء إيرانيون هنا، غير أنه توفي بعد ستة شهور من وصولهم حزناً على ما حدث ! والدتها الآن مشلولة، وبروانة تعمل لتعتاش المرأتان، إذ يبدو أنها شلت حزناً وقهراً على موت الأب ولما حل بهما في الوطن ! في الحقيقة أن للشابة اسماً آخر "بروين" وقد أخبرتنا بالقصة، زوجتي وأنا، عند أول تعارفنا بها. كانت الأم تحب اسم بروين، اسم لإحدى بطلات قصص ملحمة "الشاهنامة" المشهورة والتي تتحدث عن ملوك وأباطرة الفرس منذ البدء حتى الفتح الإسلامي، أحبها شاب لم يستطع الزواج بها، فجن وهام على وجهه في البراري ... هو أيضاً اسم ابنة الأمام الخميني ! أما الأب فسماها بروانة، تيمناً باسم والدته، وتعني بلغتهم الفراشة، فكبرت وهي تسمع الاسمين معاً. وإن كان اسمها في الوثائق الرسمية بروانة.

- إن قصة بروانة كالآلاف من مثيلاتها ! إن أوروبا وأميركا تغص بالإيرانيين الذين هربوا بعد سقوط نظام الشاه، حيث كان بعضهم مثرياً ثراء فاحشاً وذا نفوذ أسطوري، بل كان الكثيرون منهم من صناع القرار، يشتغلون الآن عمالاً أو أجراء في المطاعم ليسدوا رمقهم ... !

وهممت أن أقول له بأن بني قومك الصهيونيين والأميركيين هم سبب هذه المأساة المفجعة المدمرة ...! لقد زينوا للشاه الدكتاتورية والعجرفة والاستعلاء والبطش، حتى ظن أنه يستعيد مجد جده الإمبراطور"قورش" قبل أكثر من ألفين وخمسمائة سنة. سلطوه على شعبه فأذاقهم أمر وأقسى أنواع الظلم والقهر والقمع... وأمعن فيهم تقتيلاً وسحقاً وتشريداً... فنهب هو وزبانيته خيرات البلاد وثرواتها واستباحوا عرضها وشرفها، وداسوا على كبريائها وكرامتها ... ! لقد جعل بنو قومك من إيران غولاً استهلاكياً لبضائعهم وأسلحتهم كما فعلوا مع ممالك دول النفط والملح، فاستنزفوا كل ثرواتهم. ويوم استطاع الشعب الإيراني الانطلاق من قمقمه، ارتكبت قيادته التي كانت مطاردة ومشردة لسنوات من المظالم والمجازر، بحق أعوان الشاه، أكثر مما فعله نظام الشاه معهم ... ! وفي كلتا الحالتين، كان الذي يدفع الثمن هو الشعب الإيراني والبلاد الإيرانية، فكان الفريقان الأميركي والصهيوني يرقصان طرباً وحبوراً، ويتمايلان نشوة وسعادة ...!

كنت أتمنى لو أستطيع أن أقول له كل ذلك بل أكثر، ولكنني وجدت أنه ليس من الآداب، ولا من اللياقة أن أقول هذا أمام رجل أقابله لأول مرة ولا أعرف إن كان يتقبل الانتقاد، أو عنده حساسية ضده ... !

- يؤسفني أن أقول لك يا بروفيسور دهشان، أن دول العالم الثالث تدور في حلقة مفرغة، فكلما يذهب نظام يستبشر الناس خيراً بالنظام الجديد وأنه سيرفع عنهم الظلم، وينشر بينهم العدالة، ويعيد للمواطن إنسانيته وآدميته وكرامته... ولكن حالما يتمكن النظام الجديد من السلطة حتى يكون أشد ظلماً وأكثر قمعاً وأبرع في اختراع أساليب السحق والإذلال... وكذلك يرتفع عدد الهاربين والمشردين واللاجئين السياسيين ...! لقد صار الإنسان الغربي يتساءل بغضب ممزوج بالألم، إن كانت هذه الشعوب لا تستطيع أن تتعايش مع طريقة وأسلوب حياة أخرى جديدة حضارية ديمقراطية، للإنسان الحق فيها أن يمارس إنسانيته، وأن تصان كرامته وآدميته، وتحترم معتقداته وأفكاره، كما أرادها له خالقه... أم أن هذا هو النمط الوحيد للحياة التي ترتضيه وتسعد به ؟! نعم، إن الإنسان الغربي يتساءل ... !

وهنا أقبلت حفيدة قورش، ووضعت أمام كل واحد منا صحنه، ومنحت كل واحد منا ابتسامة حنونة تفيض حباً وصدقاً وعطاء ! شكرها كل منا بدوره وانصرفت.

- تفضل... أرجو أن يعجبك اختياري في الأكل. قال وهو يشير إلى الأكل أمامي ويبتسم بأدب جم.

- إن شرائح اللحم البقري، "الأستيك" والبطاطا المشوية، والسلطة هي إحدى أكلاتي المفضلة، وعندما أجهز طعامي بنفسي فهي تكاد تكون وجبتي التي قلما تتغير. قلت صادقاً. وأغرق كل واحد منا نفسه بما كتب له الخالق، يأكله بشهية وتلذذ، وإن كنت في أعماقي أشعر بأن انسجامي ناقص لمعرفتي أن صديقي جورج قلق عليّ الآن.

- لقد حدثتني زوجتي عنك كثيراً... كثيراً جداً ... ! صدقني ... حتى لكثرة مدحها لدماثة أخلاقك، وثنائها على علمك ومعرفتك وتواضعك، شوقتني للقائك والتعرف عليك والاستنارة بآرائك ... !

قال وهو يذبح قطعة اللحم البقري أمامه، دون أن ينظر إلي ! فاجأني جداً قوله، فتوقفت عن الأكل وحملقت به مشدوهاً بعفوية، وكأنما لأقول له، إياك أن تفكر ولو للحظة بأن أكاذيبك تنطلي عليّ !

- لقد أطنبت في إطرائك كثيراً، كانت تتكلم عنك بإسهاب وإعجاب !

استرسل قائلاً وقد وضع قطعة اللحم بفمه ثم أتبعها بغرزة من السلطة، تساءلت..؟! هل الرجل يستهبلني ويسخر مني؟! أم أن زوجته هي التي تستغفله وتخدعه؟! وهل هو يكذب عليّ؟ أم هي التي تكذب عليه؟ ومتى أعطتني الفرصة، أو عاملتني كإنسان حتى أتكلم معها وأتصرف، لتعرف أي نوع من الناس أنا ؟! ولكن المحير هو أن الرجل يتكلم بطريقة الصادق المخلص فيما يقول، الواثق من كلامه ... !

- قالت بأنني إذا حدث وقابلتك يوماً، فإنني لا أملك إلا أن أحبك وأحترمك وأعجب بك وبتصرفاتك ... وقالت لي أيضاً بأنك قليل الكلام تفضل الاستماع، وأن كلامك دائماً حكم وفلسفة !

لولا أنني ملكت زمام أمري، وتنبهت إلى السخرية التي سأجلبها لنفسي، لكنت انفجرت ضاحكا أقهقه حتى أستلقي على ظهري ... ! وفجأة شعرت بالإهانة والغفلة، ليس لاعتقادي بأن الصفات التي ينسبها إلي هذا الرجل هي غير صحيحة أو مبالغ بها، ولكن لأن زوجته لم تسمح لي فتمر بتجربة اختبار أخلاقي وتصرفاتي، حتى تعرف ما أتمتع به من صفات حسن أو سوء... ! هممت أن أطلب إلى الرجل أن يكف عن مبالغته وسخريته مني، ولكنه استرسل:

- والآن آمنت بما قالت... إذ إن ممارستي اليومية للتعامل مع الناس أكسبتني خبرة لا بأس بها لأن أفهم الناس وأقيمهم عند لقائي بهم والتحدث إليهم.

"مديح أنثى جميلة دافئة، تتفجر أنوثة وسحراً، لرجل يفتخر بشبابه ورجولته، تمنحه شهادة موقعة ومختومة ثم مصدقة من مقامات عليا، وملصق في أعلاها أشرطة حمراء بأنه يمارس فحولته على أحسن وجه وأكمل صورة ...! وشعرت فجأة كأنما وصل إلى أنفي عطر أنثوي مثير يملأ إحساسي، ويتسرب إلى كل ذرة في كياني فيدغدغها ويؤججه ... !!"

- إنك وزوجتك تجاملاني كثيراً... كثيراً جداً، فشكراً لكما.

قلت وأنا أشعر بعبق العطر وبخور الفراش بعد المضاجعة التي ما زالت تملأ أنفي... وحتى لا أنقص من قدر نفسي أمام نفسي... وحتى لا أقلل من شأن ما يقوله أمام نفسه، قلت:

- إن الاستماع لوجهات نظر الآخرين، والاستفادة من ملاحظاتهم وتجاربهم، هي غريزة أستمتع بها جداً وأسعد ... إذ إنني بعد الانتهاء من كل محاضرة، أسأل طلبتي وأشجعهم بل أحثهم فيما يحبون قوله والتعليق عليه، ثم ما يجول بخاطرهم من آراء وملاحظات حتى لو كانت خارج موضوع المحاضرة.

- في كل مرة كنت تزور العيادة، كانت تحدثني عنك بحماس واحترام شديدين، فتعلمني ما قلت، وعن ماذا تحدثت، ثم نوع المعالجة التي حصلت عليها في ذلك اليوم، ومتى يكون موعدك التالي !

"كفاك، كفاك أيها الرجل ... ! إنه وعلى الرغم من تأكدي بأن أحدكما يقول كذباً، فإنني والله قد بدأت الآن، وفي هذه اللحظة، أشعر بالحنين الجاذب إلى زوجتك، وإن كراهيتي لها قد أضحت تخف، وإن احتقاري لها قد صار يقل ...! صدقني ... .! صدقني ... !"

ثم حول الرجل نظره عني إلى اليسار... بالاتجاه المعاكس... فلاحظت احمرار وجنتيه كعذراء عربية قروية في الخامسة أو السادسة عشر من عمرها، أطرى أحدهم جمالها وأثنى على أنوثتها !

- أعذرني إن قلت لك إنني كنت أشعر أحيانا ببعض الغيرة منك... ثم أعود فألوم نفسي وأعنفها، حيث إنني أعرف جيداً حب زوجتي ووفاءها لي... !

ضحكت، واحمرت وجنتاي خجلاً أنا الآخر... واحترت بماذا أجيب، على الرغم من أن بداخلي إحساسا قوياً وحقيقة لا تقبل الشك بأن الرجل يسرح بي ويتملقني... وأنه هو نفسه لا يؤمن بما يقول، وأن ما يقوله هو كذب متعمد... فكدت أقول له بأن يحافظ على كرامته وكبريائه، وأن لا يحط من قدره ومقامه بهذا التملق الرخيص الكاذب، إذ إنني سأساعده وسأجيب على كل استفساراته، وجميع ما استعصى عليه دون اللجوء لهذا التزلف الرخيص ! إذ كيف أصدق كلمة واحدة مما يقول، وزوجته لم تكلمني إلا نادراً... ولم تستمع ولا مرة واحدة لما قلت... بل إنها احتقرتني وأذلتني وأمعنت في احتقاري وازدرائي والاستهانة بي، لدرجة تجعل أحط إنسان يثور لكرامته، ويدافع عن إذلاله واحتقاره، فيغضب منها! لقد تمادت في إذلالها لي وعدم إعطائي أدنى اعتبار، إذ لم تسألني حتى إن كان هذا الموعد أو ذلك يناسبني ... !

- إذن، هي التي اقترحت عليك دعوتي إلى الغداء، والتعرف علي؟! سألت بعفوية.

- لا... لا... ! قال الرجل بعصبية ظاهرة، وقد حملق بي مشدوهاً، وكأنما ضبط متلبساً، إذ توقف عن الأكل وألقى بالشوكة والسكين على حافة الصحن، ورفع يديه بالهواء علامة النفي الشديد، والاحتجاج الحار، كأنما ليدحض تهمة باطلة ومهينة ألصقت به !

- إن شيلا لا تعرف أنني أقابلك اليوم، فأنا لم أخبرها ! أنا لم أذكر أمامها حتى أنني أحب التعرف عليك !

- وهل سبب كتمانك الأمر عنها لاعتقادك بأنها لا تحبذ هذا اللقاء وأنها تعارضه؟ سألته بخبث وأنا أحاول أن أصطاد بالماء العكر.

- لا... لا... أبدا! أبدا! أنا واثق أنها ستفرح جداً ! لقد أدركت من كلامها عنك بأنها تحترمك ومعجبة بأفكارك ! قال وهو يفرد ابتسامة باهتة على شفتيه المتوترتين اللتين جفتا فجأة، محاولاً أن يبدو طبيعياً !

- ولكنني أريد أن أفاجأها ! نعم... ستكون مفاجأة مفرحة لها بلا شك...!

"بل ستكون صدمة تهزها من أعماقها ! ما أقل ما تعرف يا رجل! إن زوجتك الصهيونية الحاقدة، لا تكرهني وتزدريني فقط، ولكنها تحتقرني وتمقتني حتى العظم ! إنها لو عرفت أنك ستقابلني اليوم، لأصرت عليك أن لا تفعل، بل لعملت المستحيل من أجل منع هذا اللقاء ! إنها لا تستطيع حتى مجرد سماع اسمي أو رؤيتي... إذ لا شك أن مجرد ذلك يبعث في نفسها القرف والاشمئزاز ... !"

- هذا لطف وكرم أخلاق منكما. إنكما زوجان رائعان ! قلت بتهكم وسخرية لاذعين !

كنا قد انتهينا من تناول الطعام، فجاء صبي التنظيفات وأزال كل ما على الطاولة، وفرد شرشفاً جديداً، ثم أتى بإبريق من الماء، وبعض الملاعق والشوك والسكاكين. وما هي إلا لحظات حتى تقدمت منا حفيدة قورش وقالت موجهة الكلام إليّ:

- السيد روبنسون يتناول قهوة أيضاً مع فطائر الحلوى، فماذا تحب أن تشرب أنت معها يا سيدي ؟

نظرت إلى صدرها، وركزت عيني على نهديها النافرين المختبئين خلف المريول، وقلت:

- أريد كأساً أخرى من الحليب المثلج !

ابتسمت، وقد سددت إلي عينين نجلاوين لعوبتين، وقالت بخبث أنثوي:

- يبدو أنك تحب الحليب كثيراً.

- نعم... كثيراً جدا ً! وخصوصاً الحليب من "القفص الصدري".

كانت عيناي ما زالتا تحدقان بنهديها؛ وكان الكلام يدور طبعاً بالإنجليزية؛ وكانت الكلمة الوحيدة التي قلتها بالعربية هي "القفص الصدري" إذ كنت أعرف من قبل معنى هذه الكلمة بالفارسية، والتي تعني صدر الإنسان ! احمر خداها ووجنتاها، وارتجف جسمها، وارتبكت ثم نظرت إلى الأرض... وانسحبت !

لا شك أن الرجل لم يلحظ ما دار بيننا ولم يدرك كنْه ما عنيت، حيث قال:

- والآن وقد تقابلنا فأسعدنا لقاؤك... وأحببتنا وأحببناك... فزوجتي وأنا نحب أن نكون صديقيك، لننعم بهذه الصداقة ونسعد، ولنستفيد من اطلاعاتك وتجاربك، ولنستمتع بمعرفتك الواسعة، وعلمك الغزير ... !

كان وهو يتكلم قد رفع عينيه عن صحنه، وسددهما إلي، وكأنما ليعرف وقع مقولته علي !

- لا... لا... مستحيل ! أنا لا أستحق صداقتكما !

صحت لا شعورياً بصوت فزع، تجاوز الطاولتين المجاورتين، وقد تيقظت كل ذرة في جسمي وتوترت كل خلجة به، خوفاً وقلقاً... ثم أدركت في الحال، أنني تسرعت بتصرفي هذا وأنني ارتكبت حماقة وطيشاً، إذ لا شك أنه سيستغرب ويتساءل عن سبب رفضي الشديد لصداقتهما.

- أنتم جماعة المفكرين دائماً يجعلكم عمقكم الثقافي وسموكم الأخلاقي متواضعين؛ فتنفون عن أنفسكم غزارة المعرفة وعمق الاطلاع... وهذا شيء معروف ومألوف فيكم ! قال وهو يبتسم ابتسامة جذلى.

ارتحت جداً لما قاله الرجل الخلوق المؤدب، وتنفست الصعداء، وفارقني الخجل والارتباك، وشكرت الله أن الرجل فهم إنكاري واستغرابي لصداقتهما على أنه إنكار لعمق ثقافتي وغزارة معرفتي، وليس لشيء آخر كما كنت أتوهم وأخشى. فقلت بطبيعتي العربية المجاملة:

- هذا شرف لي. ويسعدني ذلك كثيراً !

- إذن... فزوجتي وأنا، ندعوك إلى تناول العشاء في بيتنا بعد غد مساء الجمعة! إن شيلا طباخة ماهرة بشهادة كل من تذوق طبخها، وستجرب ذلك بنفسك ! صدقني لن تندم !

" يا إله السماء! شيلا التي أذاقتني ألوانا وألوانا من الإذلال والمعاناة والقهر... شيلا التي تكرهني وتحتقرني حتى النخاع... طباخة ماهرة ! لا شك أنها ستطبخ لحمي لتقدمه قرباناً لآلهتها"يهوه" !

وكأنما استيقظت من حلم لذيذ، مثير مفرح، إلى واقع مرير مؤلم مفزع ! لقد جاءك الموت يا تارك الصلاة... ذهبت السكرة وجاءت الفكرة... كما يقول العامة، فقلت فزعاً مرعوباً:

- لا... لا... لا أستطيع ذلك أبدا... أبدا ! صدقني لا أستطيع ! نعم لا أستطيع... هذا غير ممكن... مستحيل ! كنت أتكلم كالذي يهلوس.

- لا تستطيع مساء الجمعة، إذن مساء السبت، ولن أقبل عذراً. قالها بهدوء ولكن بإصرار وثقة.

- قلت لك لا أستطيع... أنا عندي التزامات كثيرة... مهمة... كل ليلة !

- أرجوك ! أجّل التزام مساء السبت إلى ليلة أخرى ! قال باستعطاف أثار شفقتي !

- أنا لا أستطيع أن آكل في بيت أحد ! إن فعلت فسوف أموت... عندي حساسية شديدة... متناهية ... !

ضحك طويلا بقلب طيب وروح صافية، وقال:

- أه ... ! لقد عرفت السبب ! نحن مدركان لهذا، واعيان للحقيقة... إننا نعرف جيداً أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير، فإنه محرم عليهم، ولا يمكن أن تطبخه زوجتي لك... إطمئن ! قال وهو يكركر ويهز رأسه يمنة ويسرة، ربما من سذاجتي، طيبة قلبي. وأضاف:

- أستطيع أن أذكر لك عدد المرات التي أكلنا بها، زوجتي وأنا، لحم خنزير ! نحن لا نشتريه ولا نحبه، لأنه يسبب لنا جفافاً في الفم ونشرب لترات من الماء ولا نرتوي ! لقد كنا نتساءل دائماً بعد كل مرة نأكله بها، على الرغم من أن عدد المرات لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، كنا نتساءل ما الذي يجعل الناس يأكلون لحم الخنزير...؟!

"طبعاً لأنكما يهوديان ! فاليهود يحرم دينهم أكل لحم الخنزير مثلنا ! لقد عاشوا بالصحراء كما عشنا، ووجدوا كما فعلنا نحن، أن لحم الخنزير قد يقتل آكله لأنه سريع الفساد، وخصوصاً في الصحراء، وقبل اختراع التبريد !"

- إذن مساء بعد الغد... السبت... ولن أقبل عذراً أبدا... ننتظرك في الساعة السادسة !

وقبل أن أفتح فمي معتذراً أو محتجاً، أضاف وهو يدخل يده في جيب قميصه، ويخرج منها بطاقته الشخصية، مدبسة مع ورقة مرسوم عليها بخط اليد خارطة تبين موقع بيتهم.

- هذه الخارطة تقودك إلى بيتنا كأنما تسكن فيه ! قال ويده ممدودة إلي بالخارطة والبطاقة.

- لا... لا... أرجوك ! أعذرني من هذه الدعوة ! قلت وأنا أرفض أن أمد يدي لتناولهما.

قلتها بصوت متردد، واهن خافت، وقد شعرت كأنما أعطيت إبرة مخدر... ثم بدأت أفقد قوتي وإحساسي بوجودي والتحكم بإرادتي ! كان عقلي يفكر، ولكن بصورة بطيئة... بطيئة جداً... كأنما هو مقيد... إذ كيف أقبل دعوة امرأة مجرد ذكر اسمي يهز كيانها كرهاً واحتقاراً وقرفاً ؟! ثم ما يدريني بأنها ستضع لي السم في الأكل، أو تذبحني هي وزوجها، فيقدمان دمي قرباناً لألههم "يهوه" !؟

- إذن أنت ترفض صداقتنا ؟ نحن لسنا في مستواك الفكري والاجتماعي ! قالها الرجل شبه غاضب، بحزم وصراحة وقد عبس وجهه.

- لا...أبداً ... صدقني ...قلتها باستنكار وإن بدأ حماسي يشتد.

- إذن اقبل دعوتنا، ودعنا نكون أصدقاء ! إذا وجدتنا أهلا لصداقتك فاستمر بها، وإن لم تقتنع بها، فاتركنا... !

- وهل لا بد من الأكل لخلق **صداقة ؟! قلت بصوت منخفض وحجة واهنة !**

- ولم لا !؟ وما الخطأ في ذلك؟! قالها وهو يقلب يديه ويمط شفتيه استغراباً.

- يجتمع الناس ويتحدثون وهم يشربون القهوة أو الشاي أو أي مشروب آخر.أو وهم يتناولون وجبة من الطعام ! ثم توقف قليلاً، كأنما ليسمح لمنطقه أن يتعامل مع تفكيري، أو ليعطي نفسه فرصة التفكير.

- ندعوك إلى بيتنا وتدعونا إلى بيتك ! أو أنك لا تحب أن تدعو أحدا إلى بيتك ؟

"وهل سيأتي دوري لأدعوكما إلى بيتي قبل أن تذبحاني لتقدما دمي قرباناً لإلهكم "يهوه؟" مع من تتكلم يا رجل؟ وهل تظنني مغفلاً وأحمق إلى هذه الدرجة؟ ألست أنت نفسك الذي قلت بأنني واسع الاطلاع، غزير المعرفة، وأنني لا بد وان أكون قرأت بل درست أسرار ديانتكم العجيبة الغريبة، والتي تجعل من سكان الكون، في كل زمان ومكان، عبيداً لكم وخدماً ...؟"

- طبعاً ! طبعاً ! الناس يَدعون ويُدعون ! قلتها بحماس متكلف وأريحية مصطنعة.

- إذن اتفقنا ...!

قال وهو يرشف آخر قطرة في فنجان قهوته، ثم يمسح فمه ويديه بالفوطة القماشية التي ألقى بها أمامه على الطاولة ! ثم فتح محفظة نقوده وأخرج منها ورقة العشرين دولاراً وضعها كبخشيش مكان ورقة الحساب الرابضة فوقها على صينية صغيرة، كانت حفيدة الملك "يزدجرد" قد أحضرتها، مما حيرني بل أذهلني سخاؤه وكرمه، إذ لا شك بأن

ثمن كل ما أكلناه وشربناه لم يصل إلى هذا المبلغ... ثم حمل ورقة الحساب ونهض وهو يقول:

- سنكون زوجتي وأنا بانتظارك مساء السبت القادم في الساعة السادسة !

- إن شاء الله ! قلتها بالعربية وبطريقة عفوية وأنا أنهض.

لو كنت تعرف الحقيقة أيها الزوج المسكين الساذج، ربما الأبله المغفل، ما فعلته زوجتك معي، وكيف أنها لا تستطيع حتى أن ترى وجهي أو تنظر إليه، لما كنت قابلتني وتغدينا سوية ! إنها ستفقد عقلها وتجن... إنها ستلعنك وتكرهك وتحتقرك... وقد تترك البيت أو تطلب إليك أنت أن تفعل ! إنني لا أستطيع أن أفهم كيف أن إنسانا مثلك، يتمتع بهذه الشخصية القوية الرائعة الجذابة، وبكل هذا الكرم وهذه الدماثة والاطلاع الواسع والرجولة المتكاملة، يذوب لطفاً ورقة وأدباً، ثم يتزوج ويعيش مع مثل هذه الشريرة ذات القلب الأسود الحاقد ! كان الله في عونك وأراحك منها ومن حقدها وشرورها ! إنني أجزم، وبعد أن عرفتك، ولو لمدة أقل من ساعتين، بأنك مظلوم مع هذه الزوجة !

كنت أتمنى لو أن الجلسة تطول، فقد كان المكان مبرداً ومريحاً للنفس والأعصاب، وكان جو المطعم حالماً وفاخراً ! كنت أرسل بين الفينة والأخرى، نظرات شرهة شبقة إلى حسناء فارس إحدى آلهات "الزرادشتيين" فيبدو صدرها من خلف أستار المعبد، فيخيل إلي إنه مملوء بالعبدة والمتهجدين يؤدون طقوسهم العبادية الدينية، وقد تكتلوا في جماعات ترقص وتحوجل حول الآلهتين الصغيرتين المتخندقتين في صدرها، الرابضتين والمطلتين من حائط صدر المعبد "الزرادشتي" وهي تطامن بقامتها احتراماً وتأدباً، لتسأل ثم لتكتب ما يطلبه الزبائن؛ ثم تطامن ثانية وهي تقدم الطعام ...!

كنت أشاهد من بعيد أعلى نهديها يطلان من فتحة الفستان، فأتصور نفسي أدخل إلى محفل الباطنية والحشاشين، وأتمنى لو أبقى هناك وأن لا أخرج منه أبدا... أبدا !

أقبلت بروانة نحونا، فأحسست كأن جميع أكاسرة بلاد فارس وملوكها وملكاتها، وعظمائها، والآلهة والإلهات الذين عبدوها، ومعهم قورش ومعهم "يزدجرد" ومحمد رضا بهلوي؛ جميعهم يحيطون بها ويخفضون لها جناح الإجلال والاحترام والتقديس... جميعهم في حضرتها... بزيها الأبيض الملائكي ... !

- ترافقك السلامة يا سيد روبنسون. ثم التفتت إلي وقالت:

- شكراً لتشريفك لنا يا بروفيسور دهشان ! تعال ثانية. ومنحت كل واحد منا ابتسامة !

لقد أحسست عندما نطق لسانها باسمي، ومنحتني شفتاها تلك الابتسامة، وكأنما أعطيت حقنة بلسم ضخت في نفسي أنهارا من السعادة واللذة والانشراح، وكأنما أصبحت جميع الحسناوات في بلاد فارس كلها ملك يدي وتحت تصرفي... ثم كأنني عبرت الطريق إلى إحدى جناتهم الأرضية، تلك الجنة التي أوجدوها في فلسطين... في بلدي السليب ... حيفا !

- شكراً لك يا سيد روبنسون على الطعام اللذيذ والحديث الشيق ! حقاً ، لقد أسعدني لقاؤك ! قلت صادقاً وبعفوية، وأنا أمد له يدي لأصافحه.

- أنا الذي يجب أن أشكرك لقبولك دعوتي.

قالها بحماس وصدق وهو يشد على يدي، ويبتسم ابتسامة أحسست لا أدري لماذا، كأنها ابتسامة طفل صغير... ساذج... بريء، لصدقها وبراءتها وسحرها... وكذلك لعفويتها !

إحساس غريب عجيب، شعرت به وأنا أعبر الشارع في طريقي إلى موقف السيارات، بأنني أكن عاطفة عميقة وصادقة، ولكنها غريبة وغامضة، لم أفهم كنهها ولم أجربها من قبل، لذلك الرجل الذي اختفى خلف العمارة على الرصيف الآخر... وتمنيت من كل قلبي ومن أعماقي وبصدق، لو نعود ثانية ونستأنف جلستنا وحديثنا من جديد، حتى لو مع فنجان قهوة وكأسٍ من الحليب المثلج. إنني أحب هذا الرجل وأحترمه، وفي نفس الوقت أشفق عليه... من تلك الكلبة !

صممت على أن ألبي الدعوة، وليكن ما يكون ! ولعلي أذهب إلى أبعد من ذلك، فأقول حتى لو أن الرجل يريد أن يقدم دمي قرباناً لإلهه"يهوه"، فإنني لن أكون الأول، ولن أكون الأخير ... !

من أول هاتف عمومي وجدته اتصلت بصديقي جورج مونتكيو، لأطمئنه بأن شيئاً مما فكرنا به، وخفنا منه لم يحدث ! بل على العكس من ذلك، فقد أمضيت وقتاً ممتعاً جداً، ومررت بتجربة عاطفية، لذيذة وغريبة معاً !

- آه...! الحمد لله ! سمعت محدثي على الهاتف يقول وكأنما يتنفس الصعداء؛ إذ يبدو لي أنه كان قلقاً حقاً، ومتوتر الأعصاب.

- إذن، ما زلت عائشاً ولم يقدم دمك قرباناً ؟ سأهاتف هانس لأطمئنه. لا شك أنه الآن قلق عليك. قال وهو يضحك.

- يبدو أن دم المسلمين غير مقبول لتقديمه قرباناً، وأن المطلوب هو دم المسيحيين فقط ؟

قلت للسيد مونتكيو مازحاً، وإن كنت ما زلت واقعاً تحت سيطرة ذلك الشعور الغريب المبهم، تلك العاطفة العميقة لذلك الرجل؛ ولكن صديقي اضطرب وانزعج جداً عندما أعلمته عن الدعوة مساء السبت القادم.

- يبدو أن المطعم مكان غير مأمون للقيام بالمهمة، وأن البيت أضمن ! قال بأسى وحزن عميقين !

- سنتكلم في الأمر عندما أقابلك هذا المساء، فأنا مرهق الآن عاطفياً وجسدياً، وبحاجة شديدة للراحة والنوم... قد يكون حضوري إلى شقتك الليلة متأخراً... متأخراً جداً، ولكنني سأحضر، لأن بي رغبة شديدة لأن أحدثك عن تفاصيل ما حدث بعد ظهر هذا اليوم. قلت وأغلقت السماعة ... !

*****

الفصل السـابع عشــر

اتصل بي الطالب رضوان الحوراني هاتفياً مساء يوم الخميس في منزلي، وأعلمني بأنه يحب كثيراً أن يزورني هو وصديقته سالي، في أي مكان أو زمان أريد، ويسمح به وقتي.

أسعدتني الفكرة جداً، ورحبت بها بحماس، خصوصاً وقد أكد لي بأنها فكرة صديقته قبل أن تكون فكرته. قلت لرضوان:

- إنني منذ فترة طويلة وأنا أفكر بدعوتكما إلى الغداء أو العشاء، ولكنني كنت دائماً أؤجل التنفيذ بسبب كثرة مشاغلي، وأظن أن الوقت الآن مناسب جداً لتنفيذ هذه الرغبة.

- نحن لا نريد طعاماً يا أستاذ. نحن نريد زيارتك فقط للسلام عليك، وتناول فنجان شاي أو قهوة.

قال رضوان معتذراً على الطريقة العربية التقليدية.

- أنا لا أقبل الاعتذار، ولا بد من تناول وجبة معاً. الطعام يتيح لنا الفرصة للتعرف على بعض أكثر، ثم يوجد الكثير لنتحدث عنه، حياتك... دراستك... وأخبار الوطن الحبيب أيضا.

- على كل حال، أنا أتكلم من شقة سالي، وهي صاحبة الفكرة، وهي تقف إلى جانبي، فتفضل وتكلم معها.

فاجأني طلبه، وتمنيت لو أنه استشارني أولا، فقد أعتذر عن مكالمتها مختلقاً بعض الأعذار ! اعترتني رهبة ورعشة شديدتان، ووجدت من الصعب أن أركز أفكاري على ما سأقوله لها؛ كنت تماماً كفتى غِرّ مراهق، يجد نفسه لأول مرة وجهاً لوجه أمام فتاة يحبها منذ أمد بعيد وهي لا تشعر حتى بوجوده !

- إنني دائماً أفكر بك يا بروفيسور دهشان، ودائماً أتمنى رؤيتك، وكثيراً ما عزمت على زيارتك في مكتبك، ولكنني لم أجد الجرأة الكافية وتخونني شجاعتي عند آخر لحظة. قالت سالي بصراحة أسعدتني.

- أنت تعرفين يا آنسة سالي كم أحترمك وأقدرك، إذ إن لك مكانة خاصة في قلبي. ولو كنت شرفتني، بزيارتك لوحدك أو أنت والأخ رضوان، لكان في ذلك سعادة لي وشرف.

- والآن وقد شجعتني، فإنني لن أتردد بعد اليوم.

- كما قلت للأخ رضوان، فإنني أفكر بدعوتكما للغداء أو العشاء منذ مدة طويلة، ولكن كثرة التزاماتي كانت تحول دون ذلك. أظن أن الوقت الآن مناسب جداً. عندي يوم السبت القادم "سيمنار"، محاضرات مكثفة، لمدة أربع ساعات لطلبة خريجين من جامعات مختلفة من جنوب كاليفورنيا، تخصصاتهم جميعاً علوم سياسية، وهم مهتمون بالشرق الأوسط وبقضاياه ومشاكله، تنظمه دائرة دراسات الشرق الأوسط، عندنا في الجامعة . لقد اختارني القسم لأن أكون المحاضر هذه المرة.

- بروفيسور دهشان ! رائع ! رائع جداً ! أنا سعيدة بك ! أنا فخورة ! لا تستطيع أن تتصور مدى سعادتي وفخري واعتزازي بك وبآرائك وإنجازاتك ! صاحت سالي بعفوية وحماس أخجلاني وأسعداني معاً !

- شكراً... شكراً يا آنسة سالي لهذه المشاعر الطيبة، أنا واثق بصدق أحاسيسك نحوي !

- حقاً بروفيسور دهشان، هذا شيء مدهش أن تُختار لمثل هذه المهمة. لا عجب؛ لقد أصبحت مرجعاً في قضايا الشرق الأوسط. لم أقابل إنسانا من الذين عرفوك، إلا مدحك وأثنى على أخلاقك وعلمك.

لا شك أن مديح سالي بقدر ما أسعدني، فقد شجعني على أن أصارحها بحبي لها وإعجابي بها في المستقبل، إذا صادف وجاءت الظروف المواتية لذلك. أنا أعرف أنها مخطوبة لرضوان وأنهما سيتزوجان، ولكن لا بد من أن أبوح لها، بأنني أحببتها كثيراً عندما كانت طالبتي، وأنني مرات كثيرة كنت عازماً أن أخبرها عن حبي لها، وأن أدعوها للذهاب إلى أي مكان تحب لنتحدث، ولكن قوة قاهرة كانت تمنعني ! لا شك أن القدر هو الذي رتب ذلك لأنه لا يريد لسالي أن تقع في براثني فتتعذب وتتمزق، بل كان يريدها لرضوان لأنه سيسعدها وإنهما يستحقان بعضاً.

- إن ما أريد أن أقوله هو؛ إنه بسبب ارتباطي يوم السبت القادم، فإنني أحب جداً، وأقول لك من الآن، وحتى قبل أن أكمل فكرتي، بأنني لن أقبل كلمة اعتذار، وهو أنني أدعوك أنت ورضوان يوم الأحد القادم إلى غداء شواء على شاطئ البحر في مدينة "مالبو" . أنا أعرف بقعة هادئة وجميلة هناك !

- أوه ! بروفيسور دهشان ! هذا رائع جداً ! ومن قال بأننا سنعتذر؟! حفلة شواء وعلى شاطئ البحر أيضا ! إننا نتطلع بشوق لهذا الاجتماع. ماذا تريد أن نحضر معنا ؟

- لا شيء إطلاقا، سأجهز كل شيء. تعرفت قبل بضعة شهور على صاحب بقالة عربية من بيت لحم، من الذين طردتهم إسرائيل من بيوتهم بسبب مناكفته للاحتلال، يبيع جميع أنواع اللحوم والسمك والدجاج، أستطيع أن أعتمد عليه بأن يؤمن لي ما أريد ! إنه فنان مبدع بترتيب لحوم الشواء والمقبلات !

- واو ! أشعر بالجوع من الآن...! قالت سالي وصارت تضحك ضحكات كأنها عزف كمان !

- بالمناسبة، هل تفضلين صنفاً على آخر؟ السمك، الدجاج، اللحم البقري؟

- أبدا؛ أحبها كلها ورضوان مثلي.

- رائع ! إذن أحضر بعضاً من كل صنف ! أنتظركما في بيتي بحدود الساعة العاشرة والنصف، وسننطلق من هنا.

- سنكون عندك في الموعد المحدد، وشكراً جزيلاً مرة أخرى على الدعوة.

- إذن، إلى اللقاء، وشكراً للمكالمة. تصبحين على خير، وسلمي على رضوان. وأغلقت السماعة.

*****

- بروفيسور دهشان، كم أنا سعيدة لرؤيتك ! قل لي كيف حالك، وكيف حال طلبتك ؟ لقد مضى زمن طويل لم نر بعضنا بعضاً. لقد افتقدت محاضراتك وكلامك الشيق. قالت

سالي بحماس حالما نزلت من السيارة، فقد كان وجهها مشرقاً يطفح بالفرح، وابتسامة كبيرة تغطي شفتيها.

- إنه حقاً وقت طويل جداً يا آنسة سالي."لقد حرمت منك بسب غبائي وقصر نظري، وكذلك عُقدي الشرق أوسطية ." قلت لنفسي وأنا أمد يدي لمعانقة يدها الممدودة، وكياني كله يرقص طرباً، وقلبي يقفز بين جنبي من شدة الفرح.

- ولكن لا بد من أن أقول بأنك ازددت جمالاً وبهاء وإشراقة في الوجه !

- هل تعتقد ذلك ؟!

قالت ويدانا ما زالتا متعانقتين، وأنا أعب من محاسن تلك الحورية التي لم يسعفني الحظ في امتلاكها.

- إن جوّ كاليفورنيا يناسب صحتي جداً، أكثر من جو ولاية واشنطن.

- قد يعتني الرجال بنسائهم ويدللونهن هنا أكثر من هناك. قلت وأنا أبتسم، وعيناي ما زالتا تتأملان وجهها.

- بروفيسور دهشان ! الرجال يدللون نساءهم في كل زمان ومكان، هذا يعتمد على نوع الرجل وثقافته وتربيته ! ثم نظرت إلي نظرة ذات معنى.

- بعض الرجال يا آنسة سالي يصابون بالعمى... عمى القلب وعمى البصيرة معاً ! ولا يرون ما منحهم الخالق من نعم إلا بعد فوات الوقت، فيندمون ويحزنون... حيث لا ينفعهم ندم ولا حزن !

- الوقت لما يفت بعد ! ما زالت الفرصة سانحة لهم، إذا فكروا بتغيير آرائهم. قالت وقد احمرّت وجنتاها.

لم أفهم ما عنت، هممت أن أسالها، بل فتحت فمي لأفعل، اللعنة، ولكن رضوان كان قد اقترب منا في تلك اللحظة، ومد يده لمصافحتي. كانت يدانا كل هذه الفترة متعانقتين، كأنهما هما الأخريان تتعاتبان وتتشاكيان الوجد والبعاد ! سحبت يدي من يدها مكرهاً، ومددتها لأسلم عليه.

- أهلا وسهلاً يا أخ رضوان، كيف حالك، وما هي أخبار الوطن وخصوصاً الفينيق ؟

- إنها مفجعة تدمي القلب وتمزق الوجدان.

- حقاً إنه شيء مرعب! قلت وقلبي يتمزق ألما وحسرة...

- إنهم لم يتركوا طفلاً إلا ويتموه أو شوهوه، ولا زوجاً أو زوجة إلا ورملوهما، ولا إنسانا إلا وأثكلوه !

- هل تصدق يا أخ رضوان، بأنني ومنذ مدة صرت أخجل أن أذكر لأحد بأنني عربي مسلم، وأنني أخبر الذين يعرفون حقيقتي بأنني مزقت عباءة العروبة، ورميت بعيداً ثوب الإسلام لهول ما رأيت وما سمعت من مدعي العروبة والإسلام ! قلت بالعربية.

- ألا تريدان أن تشركاني بحديثكما؟ سألت سالي وهي تبتسم.

- نأسف يا آنسة سالي. إننا لا نعني أن نكون معك وقحين، لا أباليين... إننا نتكلم عن الوطن ومآسيه !

- هذا ما ظننت. إذ إن كل مكان نذهب إليه، رضوان وأنا وبه عرب، فإن كل أحاديثهم عما يجري في جمهورية الفينيق من هدم وقتل وتشريد. قالت سالي.

- على كل حال، دعونا نبدأ رحلتنا، وسنكمل حديثنا فيما بعد. قلت ذلك وانحنيت لأحمل إحدى الكراتين المعبأة بحاجيات الرحلة، وأضعها في صندوق السيارة. ... سيارتي الفوكس فاجن !

جاءت سالي ومعها رضوان بسيارتها، واقترحت بعد أن رأت صغر حجم سيارتي وضخامة منقل الشواء، وتعدد كراتين الطعام، أن نأخذ سيارتها بدلاً من سيارتي، بسبب كبر حجمها. شكرت لها هذه اللفتة الكريمة، ولكنني اقترحت أن أركب أنا في سيارتي، وأن يتبعاني هما في سيارتها، ولكنها رفضت الفكرة، وأصرت بقوة على أن أسوق أنا سيارتها، مما أربكني وأحرجني أمام صديقها رضوان. رفضت بشدة، وقلت بأنني سأركب في المقعد الخلفي وليقُد أحدهما السيارة، ويركب الأخر إلى جانبه، ولكن سالي أصرت على رأيها مما زاد في حيرتي وإحراجي !

- أرجوك يا أستاذ سهيل أن تقبل طلبها، لأنني أعرف أن ذلك يسعدها جداً، كما وإنه والله يسعدني أنا أيضا. إنها تريدك وتحترمك كثيراً. قالها بالعربية.

كلمات الشاب رضوان أراحتني كثيراً، وشعرت كأنما حللتني من قيودي الأدبية والحضارية. دخلت السيارة وجلست في مقعد القيادة. فدخلت هي وجلست إلى جانبي.

- كنت أحب أن يقود أحدكما السيارة، ويجلس الأخر إلى جانبه. قلت بالعربية.

- حتى لو أن سالي هي التي قادت السيارة، فهل من المعقول يا أستاذ سهيل أن أجلس أنا إلى جانبها وأتركك تجلس في المقعد الخلفي؟ أين الأخلاق والشهامة والمثل العربية؟ قال رضوان بحماس بالعربية أيضاً.

- لا شك أنكما تتحدثان عني، فهل هناك مشكلة؟ سألت سالي وهي ما زالت تبتسم.

- قلت لرضوان بأنه محظوظ جداً أن تكون له صديقة بمثل أخلاقك وتربيتك وثقافتك.

- أنا صديقة رضوان بمثل ما أنا صديقة لك. فلماذا رضوان المحظوظ فقط، ولست أنت أيضا ؟!

ثم ضحكت وأضافت:

- هذا إذا كانت حقاً صداقتي عظيمة إلى هذه الدرجة؟!

لم أعلق. جوابها حيرني، فلم أدر ما أقول...!

- أعتقد أن البروفيسور دهشان قال هذا لأنني أراك أكثر مما يفعل هو ! قال رضوان مبرراً.

- لا تنس أنني عرفت البروفيسور دهشان قبل أن أعرفك ! قالت سالي بلهجة خلتها قاسية، وكأنما تريد أن تبلغ أحدنا رسالة، وإن كنت أنا لم أفهم قصدها، ثم أضافت:

- لقد أتيت لأتعرف عليك بعد أن يئست من جلب انتباه البروفيسور دهشان ! قالت ذلك وأدارت رأسها إلى الخلف لتقابل عيناها عيني رضوان.

جرأة وصراحة وقوة شخصية الفتاة أذهلتني. كنت أعرف من السابق أن هذه الصفات الرائعة وغيرها، كلها متوفرة بها، ولكنني لم أكن أعرف أنها بكل هذه القوة وكل هذا العمق والصلابة !

- أنا شاكر للبروفيسور دهشان أنه وبسببه تعرفت عليّ. قال رضوان ضاحكاً وبروح رياضية، مما أراحني وأسعدني جداً. فقد خفت حقاً أن تكون كلماتها الجريئة والقاسية قد آذت مشاعره، وسببت له إحراجا.

- أنا سعيد جداً أن يتعرف الناس على بعضهم من خلالي، وخصوصاً إذا كانت هذه المعرفة تقود إلى صداقات وعلاقات حميمة، تؤدي بالنهاية إلى علاقة دائمة! قلت بعفوية.

نظرت سالي إلى الخلف، وتبادلت مع رضوان نظرة استفسار ودهشة. ولاحظت بالمرآة أمامي أن رضوان يقلب شفتيه ويهز كتفيه، ثم يفتح يديه بحيرة وتساؤل على الطريقة العربية، وكأنما ليقول لها بأنه لا يعرف ما عنيت !

- بروفيسور دهشان ! كيف اهتديت إلى هذه البقعة الجميلة ! إنها تخلب الألباب... إنها حقاً ساحرة... لقد حركت مشاعري ! قالت سالي وهي تنقل طرفها فيما حولنا، وقد رأيت الفرحة تقفز من عينيها الباسمتين المتألقتين.

- أنا سعيد جداً إنها أعجبتك. فقد كنت أخشى أن لا تحرك أحاسيسك، خصوصاً وأنا أعرف أن في ولاية واشنطن مناظر طبيعية تسبي القلوب وتسحر الألباب.

- لا تنس يا بروفيسور دهشان أن جمال المكان لوحده قد لا يكون هو العامل الوحيد الذي يحرك فينا المشاعر ويهز منا الوجدان... وإنما الناس الذين نحن معهم هم الذين يضفون جمالاً وروعة إلى سحر المكان وجاذبيته !

- معك كل الحق. والبركة في الأخ رضوان. قلت بصدق وحماس.

حدجتني بنظرة خلتها شزراء، إذ شعرت كأنما هي تقول لي بأنك لست ذكياً لتفهم أحاديث النساء !

- حقاً يا أستاذ سهيل ! إنها بقعة رائعة، تذكرني ببقعة في الوطن، كان والدي يأخذنا أنا ووالدتي وأخواتي وإخواني إليها كل يوم جمعة، لنقضي النهار هناك. قال رضوان بالعربية.

- ما أكثر ما في وطننا الحبيب من بقاع جميلة يفوق جمال أماكن أميركا. أجبته بالعربية أيضا.

- وهل تأتي إلى هنا كثيراً؟ سألت سالي.

- كلما سمح الوقت؛ آتي أحيانا وسط الأسبوع بعد انتهاء المحاضرات عصراً، فأتمشى على الشاطئ لفترة طويلة، ثم أجلس عند الغروب أرقب الشمس وهي تسقط في المحيط، كأنما هي عروس تلقي بنفسها بين أحضان حبيبها، حيث أظل محدقاً بها حتى بعد انتشار الظلام. انني كثيرا ماالتحم بالطبيعة فاصير ابكي كطفل صغير ! إنه نوع من عبادة الطبيعة؛ قد تسميه تصوفاً أو تهجداً... !

- أنت فنان يا بروفيسور دهشان. إنني كلما تعمقت بمعرفتك كلما ازددت بك إعجابا ! انك إنسان مدهش.

- ولكنني أتصرف بغباء مذهل في بعض الأحيان، فأصلب نفسي ندماً وحزناً.

- إن جلد الذات أحيانا سببه الحساسية المرهفة ! أنت مفرط الحساسية. قالت.

- كم أتمنى لو أنني عكس ذلك. إذ إن هذا يؤلمني ويعذبني كثيراً. لقد قرأت مرة مقولة لأحد الفلاسفة "بأن لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم".

- لاشك أنه صادق فيما يقول، على شرط أن لا يقضي علينا الألم. قالت سالي.

وافقتها بهزة من رأسي عدة مرات، دون أن أنبس ببنت شفة.
كنا ثلاثتنا نرتدي البنطلونات القصيرة "الشورت" وكان كل واحد منا يلبس لباس البحر تحتها، كانت سالي ترتدي لباس بحر محتشماً جداً، فقد كان قطعة واحدة يغطي الصدر والفخذين معاً، إذ كانت المرة الوحيدة طيلة حياتي في أميركا التي أرى بها لباس بحر بهذا الاحتشام. فعزوت ذلك إلى أنها مخطوبة إلى شاب مسلم، وقد تكون هذه رغبته ! ثم إنني لاحظت أيام كنت أتحدث معها وقبل أن تتعرف على رضوان، أن سالي فتاة محتشمة دائماً في كل ما تلبس، ومؤدبة الألفاظ في كل ما تقول.
نظرت إلى جسمها، فأذهلني تناسق أجزائه، وانسياب تلافيفه وتدويراته، وسلبت عقلي حيويته ونضارته. ما أمهر الخالق الأعظم في إبداعاته ! لقد كان جسمها قطعة من الأبنوس الناصع المصفى. نظرت إلى جسدها بشوق ولهفة، وصرت أعب بناظري من مفاتنها، أمسكت بي وأنا أنقل ناظري فوق أجزاء جسدها، فالتقت عيوننا... فشعرت كأنما مسّاً من الكهرباء قد سرى في كل ذرة من جسمي، فهز كياني هزّاً فغلى الدم في عروقي، وتسارعت دقات قلبي، أما هي فألقت بعينيها إلى الأرض، وقد احمر خداها !
ندمت على فعلتي ولمت نفسي، وطردت الفكرة من خاطري، مقنعاً ذاتي بأنني يجب أن لا أفكر بسالي، إذ إنها خطيبة صديق من الوطن الحبيب، وإنها الآن صارت محرمة عليّ.
- أقترح أن ننزل الآن في الماء ونسبح لفترة، ونعود بعدها لنتعامل مع قضايا الأكل والشرب والشواء. قلت.
- فكرة جيدة ! اقتراح ممتاز ! قالت سالي وقال رضوان يقاطعان بعضهما.
- أنا آسف ! لم أحضر معي مشروباً صلداً. أحضرت فقط كرتونتين من البيرة موضوعتين في الثلاجة المتنقلة، وقارورة من النبيذ الذي يشرب مع الأكل.
- أنا أشرب البيرة لأنها تروي ظمأي أيام الحر، وأتناول النبيذ مع الطعام فقط. أنا لا أذوق الأنواع الأخرى إطلاقا، ليس بسبب ديني، أنا لا أحبها. قالت سالي.
- أنا لا أتناول أي صنف، ولا يزعجني إذا فعل الآخرون ذلك ! قال رضوان وحركات يديه ترافق كلماته.
- هل تحبين بعض البيرة الآن يا آنسة سالي؟ سألت.
- لا... شكراً. أفضل أن أنتظر حتى بعد السباحة. أجابت بأدب وهي ترمقني.
نزلنا ثلاثتنا إلى الماء، وابتعدنا عن الشاطئ، وتوقفنا قرب بعض الصخور الكبيرة، ثم صرنا نسبح حولها... لقد أقنعت نفسي بأن سالي محرمة عليّ، وأنني يجب أن أعمل كل ما بوسعي، أن لا أفكر بها كامرأة ! وأنني يجب أن لا أنظر إلى جسدها حتى لا أشتهيها... !

سبحنا فترة ليست بالقصيرة في مساحات متقاربة، ثم صعدتُ إلى إحدى الصخرات التي طالما كنت أصعد إليها، وهي صخرة كبيرة ذات سطح واسع مستوٍ نوعاً ما ومفلطح أيضا. تذكرني كلما أراها، أو أتمدد فوقها ببيوت القرى والبلدات في الوطن. استلقيت على ظهري، وأغمضت عيني أنعم بدفء الشمس، وما هي إلا دقائق قليلة حتى انضم إلي رضوان وسالي، واستلقيا غير بعيد مني؛ ودار بيننا حديث عادي ومتقطع، ثم توقفنا ثلاثتنا عن الحديث فجأة، فقد غفوت أنا، ولا شك أنهما هما الآخران قد غفوا أيضا... !

- يا إلهي! الساعة تقترب من الثانية، وأنا لمّا أؤد فرض صلاة الظهر بعد! سامحني يا رب واغفر لي ! سمعت إلى جانبي رضوان يقول بالعربية وقد قفز واقفاً.
- وأين تؤدي فروض الصلاة عادة في مثل هذا الوضع؟ سألت رضوان باهتمام حقيقي.
- أختار عادة مكاناً منزوياً وبعيداً عن تجمعات السابحين. قال.
- السابحون بعيدون عنا، وقد أحضرت بالصدفة ماء كثيراً، تستطيع أن تستعمل بعضه لوضوئك، واستعمل أحد البشاكير التي أحضرتها كسجادة صلاة، فهي نظيفة لم تستعمل من قبل، وصلّ بجانب حاجياتنا. قلت.
- أحضرت سجادة الصلاة معي، فشكراً. قال هذا وانطلق.
وتبعناه سالي وأنا، ونزلنا ثلاثتنا من على الصخرة إلى البحر، وسبحنا باتجاه حاجياتنا. لبست سالي بنطالها القصير وقميصها فوق ملابس البحر حالما وصلنا مكاننا، وكذلك فعل رضوان، وأما أنا فبقيت في ملابس البحر.
- ما رأيك أن نبدأ سالي وأنا بإشعال الفحم حتى تنتهي أنت من الصلاة، ثم نبدأ الشواء.
- شكراً. فكرة ممتازة. قال هذا وبدأ يفرغ الماء من جالون كبير، ويضعه في إبريق الشاي استعداداً للوضوء، بينما كنا سالي وأنا، نرتب الأوضاع ونهيء حاجيات الطعام استعداداً للشواء.
- يعجبني من رضوان التزامه بمواعيد الصلاة. ما ذهبنا إلى مكان سواء كان في المدينة أو خارجها، وحان وقت الصلاة، إلا واستأذن مني ومن الآخرين، وذهب ليؤدي واجبه نحو ربه.! قالت سالي بإعجاب وفخر.
- إنه شاب رائع. وسيكون زوجاً وأباً عظيماً. قلت بإيمان عميق.
كنت ورضوان يقف ويقعد، يركع ويسجد، يلتحم بالخالق في زخم ديني وارتكاسة نورانية، ثم ينفصل عنه. أتذكر يوم كنت طفلاً صغيراً في الوطن الحبيب ، ألعب بالشارع الذي أمام بيتنا مع أقراني من أولاد الجيران الكرة القماشية، التي صنعتها لي أمي من قطع الشرائط البالية، فيرتفع صوت المؤذن من على المئذنة يدعو الناس للصلاة، فأنسل من بين أترابي، مستأذنا منهم، تاركاً إياهم يلعبون حتى أعود، مهرولاً نحو المسجد لكي ألحق بالمصلين قبل أن يقيم الشيخ عبد الحليم الصلاة، وحتى لا يفتقدني إخوة الإيمان الذين كانوا يثنون علي ويبتسمون...!

*****

- بروفيسور دهشان. إنك لا تستطيع أن تتصور كم سعدت هذا اليوم بقضائه معاً. صدقني أنني تمتعت وانسجمت بكل ثانية منه. فشكراً لك. قالت سالي وهي تودعني وتشد على يدي بحرارة وعرفان أمام باب شقتي.
- أنا سعيد جداً جداً أن أسمع منك هذا يا آنسة سالي، وآمل أن يكون هذا هو شعور الأخ رضوان !

- إن سالي تعبر عن شعوري أنا الآخر، فشكراً لك يا أستاذ سهيل على هذا اليوم الرائع !

- صدقاني إنني أنا أيضا استمتعت بكل ثانية من هذا اليوم بصحبتكما، ويجب أن نكرر مثل هذه الرحلة.

- إن شاء الله ! والمرة القادمة أنا الذي سأدعوكما، وإن كنت أعترف من الآن بأنني لن أستطيع أن أفعل شيئاً مثلما فعلت ! قال رضوان باستحياء وتواضع.

- وأنا سأحضر البيرة والنبيذ حتى لا يلحقك إثم ! قلت وأنا أبتسم بعفوية.

لم يقل رضوان شيئاً، وإنما اكتفى بضحكة خجلى شاركته بها سالي.

- ما رأيكما أن تدخلا الآن معي، ونأكل بعض ما عاد معنا من المشاوي، ونحتسي سالي وأنا بعض البيرة !

- أوه ! لا بد وأنك تمزح. إن الطعام يصل إلى حلقي، وقد أكلت اليوم كما لم آكل من قبل، وشربت أيضا أكثر مما يجب ! لقد كان الشواء لذيذاً جداً، والتوابل والبهارات عليه كانت رائعة ! بالإضافة إلى أن كل شيء كان كثيراً يكفي ثلاثة آخرين. قالت سالي وهي تضحك، وتضع يدها على بطنها علامة الامتلاء الزائد !

- إذن تصبحان على خير، استمتعا بأمسيتكما، والى اللقاء. قلت وأنا أمد يدي لمصافحتهما.

- أوه... يا إلهي! كدت أنسى. قالت سالي فجأة وبحماس وقد ضربت بيدها على جبينها، مما جعلنا نحن الاثنين رضوان وأنا، ننظر إليها مستفسرين.

- أنت تعرف ما سأقوله يا رضوان ! فقط البروفيسور دهشان لا يعرف، وهو أن أمي ستأتي لزيارتي من مدينة "سياتل" يوم الجمعة القادم، لتقضي أربعة أيام معي، وأريد أن أعمل عشاء لنا نحن الأربعة فقط.

- رائع ! رائع ! يا لها من مناسبة سعيدة، سأدعوكم للعشاء الليلة التالية، أي مساء السبت، وهذه الدعوة غير قابلة للرفض ولا للتأجيل. قلت بحماس وحزم، وفرح أيضا.

- شكراً يا بروفيسور. ستكون والدتي سعيدة جداً بلقائكما أنت ورضوان، فلقد حدثتها عنكما كثيراً في رسائلي، وعلى الهاتف أيضاً.

- ونحن سوف نكون أسعد، ويحصل لنا شرف لقاء والدتك. قلت صادقاً، بحماس وعفوية.

فتحت باب السيارة لسالي، فدخلت وركب رضوان إلى جانبها، واختفت بهما السيارة، وأنا ما زلت مسمراً في مكاني، أحملق بالسيارة وهي تختفي في منعطف الشارع، وقد هجمت على عيني موجة من الدموع الغزيرة !

"آه ...! كم أتمنى أن أخلو بسالي... أقابلها لوحدها، وبدون رضوان، فأقول لها كل ما يختلج بخاطري، وكل ما يضغط على وجداني... إنني أريد أن أعترف لها بأنني كنت غبياً وجباناً ومتردداً ... ! إنني أريد أن أجثو عند قدميها وأطلب منها أن تسامحني... تغفر لي بُلهي وحماقتي وجهلي... وأشرح لها حبي وشوقي ولهفتي... وأحدثها عن ليالي الشوق والعذاب والتمزق... إنني أريد أن أقول لها أمام كل الناس، بأنني أحبها... أهيم بها... وأتمنى لو توافق على أن أتزوجها... أريد أن أقول لها هذا بأعلى صوتي، ومن أعماق وجداني، وبكل الوضوح ...! ولكن يا حسرتاه ! لقد فات الوقت، وصحوت من غفوتي

متأخراً... متأخراً جداً...! اللعنة ! اللعنة ... إنني دائماً أبداً كل شيء في حياتي متأخراً وبعد فوات الأوان !

*****

الفصــل الثامـن عشـــــــر

استقبلتني السيدة إركسون عند الباب، بوجه مشرق وابتسامة جذابة وعينين ضاحكتين. واجهتني امرأة في حدود الخمسين من العمر،أنيقة، رشيقة، متناسقة الطول والقامة، تفيض جمالاً وتذوب نعومة ورقة. يا إلهي! إن سالي صورة طبق الأصل عن أمها تماماً، ولولا فارق السن لظن الناظر إليهما أنهما توأمان، أو لاختلط عليه الأمر، فلم يعد يميز بينهما ! كانت ترتدي طقماً محتشماً، يصل إلى ما دون الركبتين، وكان لونه الزهري ينسجم مع بشرتها الشقراء، وشعرها الأصفر الذي أحاط بوجه يفيض بالطيبة والحيوية. ابتسمت المرأة، وقالت:

- أنا السيدة إركسون، والدة سالي. أنا آسفة إن سالي متغيبة لعدة دقائق، ولم تكن بشرف استقبالك ... لقد تذكرت في آخر لحظة بأنها لم تحضر نبيذاً للعشاء، فذهبت لإحضاره من بقالة قريبة.

- أنا سهيل دهشان، أستاذ وصديق الآنسة سالي. قلت وعيناي لم تتحولا عن وجهها، فقد أحسست بسعادة لا توصف، وراحة نفسية هائلة، وأنا أسرح ناظري بهذا الوجه الذي لا يسمح لعينيك أن تفارقاه، وكأنما به مغنطيس هائل يجذب عينيك إليه، وتتوقفان فوقه لا تتحركان، كان وجهاً دافئاً متوهجاً.

- سيدة إركسون؛ أنتِ امرأة جميلة... جميلة جداً ! أنتِ امرأة فاتنة... تخلبين الألباب ! أنتِ امرأة ساحرة. صدقيني، إن وجهك يبعث في النفس البهجة، وفي القلب الفرح ! أنا لم أر أمّا في حياتي أكثر جمالاً، وأكثر سحراً منك، إلا أمي الحبيبة في الوطن ! إن جمالكما وسحركما مميز... مميز جداً !

قلت بحماس ثائر، وبعفوية صادقة، وأنا أتأمل وجهها الحنون الدافئ مأخوذاً بجمالها ! كانت الكلمات تخرج من فمي دون إرادة مني، وكنت أتكلم كطفل أضاع أمه فوجدها بعد عذاب ومعاناة شديدين... ! خجلت المرأة، وحولت عينيها عن النظر إلي، فأشرق وجهها وازدادت ابتسامتها اتساعاً ووضوحاً، وقالت:

- لا بد وأن تكون أمك جميلة جداً ! قالت ووجهها يطفح بالسعادة والألق.

- أمي تحفة فنية نادرة، أجمل منك قليلاً ! إنها في نظري أحلى امرأة في الوجود، لأنها أمي ! إنها الحب والحنان والوفاء والدفيء والتضحية مجسدة ! قلت بحماس وعفوية.

- شكراً لإطرائك... إنه يسعدني جداً... يفرح قلبي. وسيم... طويل... شعر جعدي... وجريء أيضا ! تماماً كما تصورتك من كثرة ما حدثتني سالي عنك شكلاً وسلوكاً...! قالت وقد تصورتها تضمني بين جفونها !

- وأنا أيضا أشكرك لهذا الإطراء... إنه يفرحني ويسعدني خاصة وأنا أسمعه من امرأة فاضلة ومثقفة مثلك؛ وإن كنت أظن أن الآنسة سالي تبالغ في تقييمها لي، فأنا لست كاملاً كما قد تظن.

- أوه ! يا مرحباً. تفضل، جئت في الموعد بالضبط. هكذا قالت لي عنك. ياما تحدثت عن دقتك في المواعيد... عن تواضعك... طيبة قلبك... كرمك... فضلاً عن دقتك العلمية وحسن أخلاقك ! أرجوك! تفضل يابني ...!

- هذه هدية متواضعة رمزية... ترحيباً بقدومك ! قلت وأنا أناولها علبة شوكولاتة فاخرة، ملفوفة بورق ملون ثمين، يمسكه شريط عريض متعدد الألوان !

- أوه ! شكراً... شكراً ! هذا كثير، ما كان يجب أن تزعج نفسك. إنك تغمرني بأدبك وكرم أخلاقك. قالت المرأة وقد اتسعت عيناها وكانت الفرحة تغطي وجهها.

- كنت أريد أن أحضر لك أيضاً باقة من الزهور، ولكنني ولسوء حظي، وجدت المحل الذي أتعامل معه مغلقاً ! قلت صادقاً.

- الحمد لله أنه كان مغلقاً، فقد أحضرت معي منه كمية كبيرة بمناسبة قدومك ! أرجوك ! تفضل أدخل.

دخلت إلى صالة جميلة، مفروشة بكنبات بسيطة، ولكنها تدل على ذوق رفيع، وقد انتصبت وسط المكان مزهرية كبيرة، أخذت تشع ألوان زهورها الطبيعية والطازجة، لتملأ العيون بهجة وجمالاً. وقد فاحت رائحتها العطرة المنعشة لتملأ المكان بشذى مميز ... وقفت وإياها عند الورد، أنقل طرفي بينهما، وأنا أفكر في المكان الذي أجلس فيه.

- لقد أحضرت هذا الورد معي من " سياتل "وهي مدينة مشهورة بالزهور... أتيت به هدية لسالي، ولمناسبة زيارتك لنا ... تكلمت معي سالي ليلة أمس، وتحدثت عنك كثيراً، وقالت إنك قادم لتناول العشاء معنا.

- شكراً يا سيدة إركسون. كنت أرغب كثيراً أن أكون مع الآنسة سالي بشرف استقبالك بالمطار لأهنئك على سلامة الوصول، ولكن تزامن وصولك ووقت محاضراتي، مما حرمني من متعة وشرف لقائك.

- شكراً يا بني ! لقد بلّغتني سالي اعتذارك. على كل حال هي لم تحضر وحدها، لقد كان معها السيد رضوان. لقد أحببته كثيراً. إنه شاب مؤدب وخلوق؛ وكما فهمت ملتزم جداً بأحكام دينه !

- آه ! لقد نسيت. كنت أريد أن أسأل؛ لماذا لم يذهب رضوان ويحضر النبيذ بدلاً من الآنسة سالي، ولكنني تذكرت أن رضوان لا يمكن أن يشتري النبيذ ولا أن يحمله بسبب اعتقاد ديني، لا شك أنه ذهب معها كرفيق طريق.

- سالي كذلك حدثتني عن صديقها رضوان ومعتقداته الدينية. على كل حال، هو لن يكون معنا هذا المساء، إذ عليه أن يعمل الليلة، فزميله الذي من المفروض أن يشتغل الورديّة الليلية، توفيت جدته في مدينة" سانتا روزا " في شمال كاليفورنيا، وسافر إلى هناك ليحضر جنازتها غداً. الحقيقة، تكلمت سالي مع مدير رضوان لتستأذن منه ليكون رضوان معنا الليلة، ولكن المدير أكد لها بأنه من الصعب جداً الاستغناء عنه.

لا شك أنني فرحت كثيراً لسماع هذا الخبر، إذ إن عدم وجود رضوان يتيح لي حرية التكلم مع المرأتين دون أن أبقى طيلة الوقت قلقاً من قول هذه الكلمة أو تلك الملاحظة، إذ ربما لا تعجب رضوان، أو أنها قد تؤذي إحساسه؛ على الرغم من اعتقادي الجازم بأن رضوان لا يمكن أن يكون منافساً لي، إذا عزمت أن أسترد سالي منه، وإن كانت فكرة استردادها منه، لم تخطر على بالي إطلاقا، لسبب بسيط جداً، وهو حبي واحترامي الشديدين لرضوان، وأنني سعيد جداً أن سالي قبلت أن تتزوجه، كما أعلمني في أول لقاء لنا قبل بضعة شهور. بالإضافة إلى أنه يوجع قلبي ويمزق وجداني أن أرى سالي، لو تزوجت مني، تتعذب من عقدي ومن جموح عواطفي، تعاني من ترسباتي وانفصام شخصيتي...!

- آسفة يا عزيزي ! لقد جعلتك تقف طويلاً وأنا أتحدث. اعذرني فقد أنستني فرحتي بك أصول الضيافة ! تفضل بالجلوس، أرجوك. وأشارت بيدها إلى كنبة في صدر الصالة.

- شكراً... قلت وأنا أجلس. وبعد أن جلست قليلاً، قلت:

- سيدة إركسون، شكراً على الورد والترحيب، وأرجو أن تعرف السيدة النبيلة التي أنجبت الآنسة سالي، بأن هذه فرصة عظيمة أن أراكِ عن قرب، وأن أتحدث إليك ! أحب أن أقول لك، وبكل الصدق، كم نحن، رضوان وأنا، سعيدان ومحظوظان أيضا بأن تكون لنا صديقة مهذبة... واعية... ذكية، مثل الآنسة سالي. إن أكثر ما يعجبني بها صدقها... وفاؤها... صراحتها المتناهية... وشجاعتها الأدبية !

- إن سالي هي خلفنا الوحيد، ولقد علمناها منذ الصغر، والدها وأنا، الصدق والصراحة، لأنهما وكما تعلم، أساسيات الإنسان في الحياة !

- ونعم ما علمتماها يا سيدة إركسون ! لقد أدبتماها فأحسنتما تأديبها ! قلت بحماس وسعادة.

- في البدء، أرجوك ألا تتعب نفسك بمخاطبتي السيدة إركسون. أريدك أن ترفع الكلفة بيننا. أنا اسمي نورما. يكفيني أن تناديني باسمي المجرد.

- شكراً ! إنه لشرف لي عظيم. وإذا تلطفت أنت أيضا، يمكنك أن تناديني سهيل.

جاءت سالي، فازداد خفقان قلبي وانتعاش روحي؛ ومن باب الصالة، أومأت برأسها بالتحية.

- لا شك أنكما تعرفتما على بعض. أنتما تعملان في التدريس العالي، وستجدان الكثير مما تقولانه ريثما أعد الطاولة ونبدأ العشاء. عن إذنكما. ثم توقفت قليلاً...

- بروفيسور دهشان! ماما قالت إنها جائعة، وأنت ؟ أعني هل نقدم الطعام ؟

- وأنا أكثر جوعاً. لم أتناول الغداء طمعاً في أن أجد هنا أكلة مميزة ! أكلة تطبخها ابنة أرق أم في أميركا ! قلت ضاحكاً، وكأنما أمزح، وإن كنت في الحقيقة قد عنيت ما قلت.

ضحكت الأم بغبطة وهي ترقب ابنتها، وكأنما تلفها بجفون عينيها، وتباهي بها الدنيا.

- هيا يا سالي، الرجل جائع. أرجو أن يكون طعامك مقبولا وشهياً ! قالت وهي تبتسم.

- نحن نقول في الشرق "كل الأطعمة شهية، إذا كنت جائعاً" وأنا أضيف كل الأطعمة شهية إذا كانت من يدي من نحب !

قهقهت السيدة نورما بسعادة، مما زاد في جمالها وسحرها وتألق عينيها.

- حسناً، لقد أنقذت طعام ابنتي من النقد. أنا أعرفها، لا تهتم بالطبخ كثيراً، إنها تأكل الطعام الجاهز، إنها وكما تعرف، متفرغة لدراستها ولأطروحتها الجامعية.

- المثل الذي ذكرته من الشرق، ذكرني بشيء مهم أحب أن أقوله لك، وكحقيقة ذكرته لسالي على الهاتف قبل مدة. قالت السيدة إركسون، بعد أن ذهبت ابنتها.

- هناك راهب في المؤسسة " الإكليركية" التي أنتمي إليها، زار الشرق الأوسط، والأراضي المقدسة تحديداً، وعمل في دير هناك لأكثر من خمس سنوات، وقد تعلم اللغة العربية، واختلط بالناس كثيراً، وجمع الأمثال والحكم والأغنيات الدارجة، وصوراً للملابس والبيوت القديمة، وهو الآن يعد كتاباً عن... عن... دعني أتذكر... ما اسمه يا بنت يا نورما؟ ما اسمه...؟ ما اسمه؟ آه... اسمه "فلكلور الأراضي المقدسة".

- عظيم. يسرني أن ألتقي به. إذ أنني أحب أن أقرأ ما كتب عن تراثنا.

- بالعكس، هو الذي سيسعد. إنه يبحث عن رجل مثقف مثلك. يريد إنسانا مطلعاً على تراث وحضارات الشرق الأوسط، يقرأ كتابه ويراجعه قبل أن يقدمه للطباعة.

- لي الشرف أن أكون ذلك الإنسان. كما يسعدني جداً أن أراجعه له.

- لو أخبره برغبتك، سيطير من الفرح، ويدعوك أن تكون ضيفه طيلة المدة التي يسمح لها وقتك ! المهم في الأمر، أنا قرأت النصوص الإنجليزية، فأعجبتني الأمثال والحكم الشرقية جداً. ولقد لفت انتباه الراهب، بل توصل إلى قناعة تامة، كما ذكر لي، إلى أن دراسة فولكلور الأراضي المقدسة، يعين كثيراً على فهم الكتاب المقدس نفسه !

- هذا صحيح تماماً. والموضوع جزء من تخصصي، دراسات الشرق الأوسط !

- أوه... خير من يدّرس هذا الفرع هو مثقف من تلك البلاد.

وهنا جاءت سالي تدعونا لتناول الطعام. دعوت السيدة إركسون لأن تتقدمني إلى الطاولة، بعد أن فرشت لها يدي في الهواء احتراماً، وأحنيت قامتي قليلاً.

- لا... لا يمكن أن أفعل ذلك. أنا قرأت في عادات منطقتكم، بأن المضيف لا يتقدم ضيفه، مهما كانت الأحوال.

- هذا صحيح. ولكنك أنت ضيفتنا الحبيبة والمبجلة، الآنسة سالي وأنا. قلت.

- لا... أرجوك ! أنت الأول. قالت بإصرار.

سرت أمامها، وأنا مأخوذ بقدرة تلك المرأة على تفهم التفاصيل الدقيقة لحياة الشرق. سألتها بعد أن جلسنا على الطاولة، حيث جلست أنا على رأس الطاولة، وكنت أشعر بفيض من الحفاوة والترحاب، وجلست الأم إلى يميني، بينما جلست الابنة إلى يساري.

- إنك تعطين انطباعا بقدرة غريبة على تفهم تقاليد الشرقيين وتراثهم، فهل قرأت شيئاً سوى كتاب ذلك الراهب ؟

- منذ سنوات وأنا أفكر بالسفر إلى الشرق، وأنا كمسيحية ملتزمة، أحب أن أزور الأراضي المقدسة، وبالطبع كان عليّ أن أدرس كتب الرحالة، وخاصة الذين زاروا تلك الأراضي، فقرأت الكثير منها. هذه الأيام، أنا أقرأ كتاب "ماري إلايزا روجرز" عن فلسطين.

توقفت عن الأكل، ونظرت إلى وجهها بتأمل، فأدركت أنني أمام امرأة واعية مثقفة، وأن الجلوس إليها متعة لا تعادلها متع الدنيا بأكملها...! الله! الله! إن مجالسة امرأة جميلة ومثقفة لهي نعمة من نعم الله تعالى !

- تقرأين " روجرز"؟ هذه المرأة جاءت لزيارة أخيها قنصل بريطانيا في حيفا، وكتبت كتاباً جميلاً عن تفاصيل حياة الناس وتفكيرهم في فلسطين. إنه دليل متكامل لزيارة بلد المسيح .

- بالضبط. إنني كلما تعمقت بالقراءة، كلما قوي الأمل عندي بالزيارة. أرجو أن تتاح لي الفرصة يوماً ليس بالبعيد، لأزور الناصرة والقدس وبيت لحم !

- ممكن جداً. عندما تصممين، فسأعطيك أسماء وعناوين الناس الذين سيرحبون بك، وينقلونك إلى جميع تلك الأماكن، وأماكن غيرها في فلسطين والبلاد المجاورة، ويعرفونك على ما تشائين.

- إنه حلم لو توفر المال والوقت ! علقت سالي.

- لم نعد في عصر الأحلام يا آنسة سالي. لو شئت أنت والماما، فإنني في نهاية الفصل الدراسي الحالي، أستضيفكما في رحلة إلى البلاد، لتريا تلك الأماكن وغيرها. وآخذكما لتعيشا نكهة حياة الشرق الأصلية، وعلى الطبيعة عند البدو، عند أصدقائي وأهلي.

- يبدو أننا سنفعلها! قالت السيدة إركسون وقد أضاءت عيناها.

- على الرحب والسعة؛ وآمل أن لا تغيرا رأييكما. قلت بحماس.

- ربما من الأحسن أن نفعلها في نهاية العام الدراسي، أي في الصيف، عندما تدافع سالي عن أطروحة الماجستير. سأجعل ذلك بمثابة هدية التخرج.

- الهدية عليّ أنا يا ماما نورما. إن الآنسة سالي عزيزة عليّ أيضاً، مثلما هي غالية عليك وعلى والدها. أنت لا تتصورين كم أحترم الآنسة سالي وأقدرها...! إنها إنسانة مميزة، قلما تجدين لها مثيلاً !

قلت وقد أحسست أن في داخلي طاقات جبارة تدفعني للكلام. لا شك أنها كؤوس النبيذ الإيطالي، التي تطلق اللسان من عقاله والتي قولتني كلاماً ما كنت لأقوله لولاها ! آه! أين أنت الآن يا أخ رضوان عن هذه الجلسة الصميمية ! إنني بقدر ما أنا حزين لغيابك، إلا أنني سعيد أنك لست معنا. فأنا منطلق أتكلم بحرية دون رقيب أو حسيب...!

- أوه... شكراً بروفيسور دهشان. شكراً جزيلاً. إن هذا كثير... كثير جداً. لقد أسعدتنا وغمرتنا بلطفك وكرمك...! قالت سالي وقد ازداد تورد وجنتيها، وتراقص نهداها.
- آه يا آنسة سالي ! كم أتمنى لو أن أمك تكون لي أماً ثانية في أميركا ! قلتها صادقاً و بحسرة، وقد أتبعتها تنهيدة !
تبادلت المرأتان نظرات ذات مغزى لفترة، ثم قالت الأم مخاطبة ابنتها، وابتسامة رقيقة تضيء وجهها.
- اختيارك لهذا النوع من النبيذ موفق... موفق جداً يا ابنتي ... ! أنا لم أره في ولاية واشنطن، يبدو أنه يباع فقط هنا في كاليفورنيا ! أما أنا فتابعت حديثي:
- وعندما تأتين إلى بلادنا، ستشعرين أن استضافة الناس لأصدقائهم هي أمر ليس بالكثير، إنها عادية جداً. الناس في بلادنا يرحبون بالضيوف، ويقدمون لهم الهدايا، ويغيثون الملهوف، وينجدون المظلوم. إذا جئتما إلى بلدنا فمن الممكن أن تحلي ضيفة علينا طوال مدة إقامتك في البلاد، تأكلين وتنامين وتتنزهين، مهما كانت تلك الإقامة طويلة، ومهما كان عدد من معك كثيراً !
- حتى لو مكثت سنة ؟! سألت السيدة إركسون باستغراب.
- حتى لو مكثت العمر كله ! إنه كلما طال بقاؤك بينهم، كلما ازداد الناس لك حباً ! قلت.
ضحكتْ الأم برقة وطيبة، ضحكات كأنها باقات ورد ورسل محبة وسلام، وتمنيت لو أستطيع أن ألقي برأسي على صدرها، فقد شعرت بحنين ضاغط وشوق جارف لصدر أمي...!

*****

بعد العشاء، صارت سالي تحدث أمها عن محاضراتي وأفكاري، وعن الطريقة التي سمعت بها عني من الطلاب، قبل أن تصبح إحدى طالباتي؛ وكيف أنها كانت تتأخر بعد كل محاضرة، ونتناقش في مواضيع شتى، وكيف أنها حاولت أن تلفت انتباهي بأنها مهتمة بي، وتنشد صداقتي ... ثم كيف غضبت مني بعد أن يئست من صداقتي، وذهبت لتقابل الطلاب العرب، وكيف تعرفت على رضوان... و... و... الخ... الخ...
كانت أمها تنقل طرفها بيننا وتبتسم، وتعلق تارة بكلمة، أو شبه جملة. وفي كثير من الأحايين، تظل صامتة ولا تقول شيئاً. ثم أخيرا، تكلمت مطولاً، فقالت:
- في كل يوم كانت تقابلك، كانت تتصل بي هاتفياً في المساء، وتشرح لي بالتفصيل المسهب ما جرى بينكما، فكنت أعلق أحيانا، وفي كثير من الأحايين أكون مستمعة فقط. ولقد لفتُّ انتباهها إلى أنك ربما تكون مرتبطاً هنا، أو في بلادك. ولهذا السبب، لم تستجب لاهتمامها بك، عندئذ نصحتها بأن تنساك ولا تفكر بك !
- ولقد عملتْ بنصيحتك، فذهبتْ وتعرفتْ على رضوان! قلت.
- رضوان شاب مؤدب وشهم، ولقد أعجبني التزامه الديني والأخلاقي. قالت الأم بحماس وعفوية.

- نحن نؤمن بالقضاء والقدر، وأن كل شيء مكتوب باللوح المحفوظ. يبدو أنه مكتوب أن الآنسة سالي إركسون من نصيب رضوان الحوراني، وليس من نصيب سهيل دهشان...! قلت بلهجة انكسار حزينة.

لاحظت أن المرأتين تبادلتا نظرة إنكار وتساؤل ممزوجة بالحيرة، لم أفهم سببها. فاستطردت:

- لا شك أن رضوان حزين الآن لعدم استطاعته أن يكون معنا هذه الأمسية ! لقد توقعته أن يهاتفنا ليطمئن على حبيبة قلبه ! قلت، ولكن واحدة من المرأتين لم تعلق بشيء.

- ما رأيكما أن نقدم الحلوى الآن؟ سألت سالي وهي تنقل نظراتها بين أمها وبيني.

تبادلت أنا والسيدة نورما نظرة تساؤل، وكأنما كل واحد منا يطلب إلى الآخر أن يقرر هو. ولما لم نقل شيئاً، نهضت سالي، ودخلت المطبخ، وعادت بعد قليل تحمل صينية كبيرة، عليها ثلاثة صحون في وسط كل واحد منها شريحة ضخمة من "الكيك" الفاخر، تعلوها قطعة كبيرة من "الآيس كريم" المميز. انهمك كل واحد منا يداعب ويعانق بتلذذ وحبور، ما قسم له الخالق وما حباه به من خيرات ونعم.

- قرأت في كتب الرحالة أن الناس في بلادكم يأكلون الفواكه كالتين والعنب والبطيخ والشمام وغيرها، كحلوى بعد الوجبة الرئيسية وهي الغداء. فماذا يأكلون بدلاً منها عندما لا تكون في موسمها؟ سألت السيدة إركسون، وقد وضعت صحنها الفارغ على الطربيزة أمامها.

- العادات الغربية دخلت كل بيت تقريباً في الشرق الأوسط. فالناس يأكلون في هذه الأيام كل أنواع الكيك والجاتوه والآيس كريم، ولكن عندنا أكلة حلوى شعبية ومشهورة، ومحبوبة كثيراً وهي الكنافة، تصنع من السميد والسمن والجبن أو القشطة والسكر. وتؤكل طازجة وساخنة !

- لا بد وأن تكون لذيذة. قالت سالي، وقد خيل إلي كأنها تلفني بيديها حول عنقي وتقبلني!

- نعم، إنها لذيذة جداً، وأسعارها معقولة أيضا. إنها أكلة شعبية محبوبة، يستطيع كل مواطن تقريباً أن يشتريها ! وسنقدمها لكما عندما تزوران بلادنا، أنت والماما إن شاء الله.

- وما هي أفضل طريقة في رأيك لزيارة الأماكن التي ولد وترعرع وعلّم فيها المسيح؟ سألت السيدة إركسون.

- مهلاً ماما ! سأحضر إلى البروفيسور دهشان أطلس الأراضي المقدسة.

قالت سالي ذلك ونهضت ثم توجهت إلى الطرف الآخر من الصالة، حيث رفوف مكدسة بالكتب، وأحضرت الأطلس. فتحت على صفحات الطبوغرافيا، وناولتني الأطلس، أخذت أشير للسيدة إركسون على المواقع التي ولد وتربى فيها السيد المسيح، وكذلك الأماكن التي علّم فيها حوارييه وجماهيره، وأعطيها لمحة عن كل موقع وكل مكان، وعن قيمته الدينية. ثم بدأت أبين لها طريق رحلته التي مشى فيها إلى القدس حيث استقبل استقبال الفاتحين، وكيف أنه مرّ من طبريا إلى أراضي حوران، مروراً بالسلط ومأدبا، ونزولاً إلى الغور، باتجاه القدس.

- أريد أن أسير في نفس الطريق، هذه أمنية غالية على قلبي. هل تظن أن هذا ممكن؟ سألت السيدة إركسون.

- ممكن جداً. سأنقلك أنا بنفسي وبسيارتي عبر كل مكان مرّ به سيدنا المسيح. قلت بحماس وصدق.

- تقول سيدنا ؟! أنا أعرف أنك مسلم ولست مسيحياً !

- نعم. نحن نقول كمسلمين، إنه سيدنا، ونقول أيضا ﷺ، تماماً كما نفعل عندما نتحدث عن نبينا محمد. إننا نحترمه ونجله، ونؤمن بكثير من تعاليمه ووصاياه!

- بالإضافة إلى نبيكم محمد؟! سألت باستغراب وعجب، وقد اتسعت حدقتا عينيها دهشة وحيرة !

- طبعاً. أنا شخصياً أعتقد أن سيدنا المسيح بطل شرقي. وهو جزء هام من ثقافتنا وتراثنا الثوري !

- تقصد تراثكم أنتم المسلمين؟ الذي سأل هذه المرة سالي وليست أمها.

- طبعاً. إن سكان جنوب بلاد الشام، هم عرب مسلمون؛ ومن بين ظهراني أجدادهم برز ذلك الرجل الثائر ضد إمبراطورية روما وظلمها، وعملائها من كهنة اليهود. ثار من أجل خلاص الناس... كل الناس لا فرق. ثار ضد ذلك التحالف غير المقدس بين الحاكم الروماني، والكاهن اليهودي. أعلن ثورته ضد القهر والظلم والطغيان، قبل أن تظهر مسيحيته، المسيحية ظهرت بعد صلب المسيح... إذن سيدنا المسيح ثار باسم كل الناس من سكان تلك البلاد، قبل أن تتحدد هويته واتجاه الدين الذي ظهر بعده. هزت السيدة إركسون رأسها بإعجاب.

- ألم أقل لك يا ماما إن البروفيسور دهشان محيط من العلم والمعرفة ! قالت سالي بفرح وهي تضمني بعينيها وتتأمل وجهي بشغف ضاغط، وكأنما تراني لأول مرة.

لقد أطربني ثناؤها وأسعدني، وهيجت نظراتها الحنونة الدافئة أحاسيسي، وكوامن ذكرياتي، فقلت:

- إنك يا آنسة سالي بعد أربع أو خمس سنوات من الآن، أي عندما تصبحين في مثل سني، فإنك لا شك ستكونين في ذلك الوقت قد وصلت إلى درجة من الاطلاع والمعرفة تفوق ما وصلت إليه أنا الآن. قلت مخلصاً.

- آسفة يا بروفيسور دهشان أن أخالفك الرأي ! قالت سالي وقد علت وجهها علامات جد ورزانة.

- إنني لن أصل إلى عمق اطلاعك، وسعة معرفتك حتى ولا بعد عشر سنوات، لسبب بسيط هو أنك عشت تجارب مميزة، ومررت بأزمات وإرهاصات حضارية، ليس من السهل عليّ أن أمر بها، كامرأة أولا، وكأميركية ثانياً !

- أنا أتفق في الرأي مع سالي يا بني، لأن المعرفة التي نحصل عليها من الكتب لوحدها تبقى محدودة، وتظل مجرد نظريات وأفكار ضبابية، لا تتعمق في نفوسنا وتتجذر في وجداننا، إلا إذا امتزجت بالتجربة الشخصية، فتتفاعل معها وتتعملق بها !

- قد تكونان على حق. أنا لم أفكر بهذا من قبل. ولكنني بدأت أتفهمه وأستوعبه. فشكراً لكما إذ أنكما فتحتما عيني على هذه الرؤيا الجديدة. قلت صادقاً وسعيداً.

- بروفيسور! إن أمي قارئة جيدة. هل لديك بعض تلك المراجع التي تتحدث عن المسيح بهذه النظرة ؟

- طبعاً؛ ولكتاب عرب وغربيين. ستعجب بها أمك، سأضعها تحت تصرفها، ومن الممكن أن أصور لها فقرات أو صفحات كاملة من كتب أخرى.

شكرتني المرأتان، ثم تفرع الحديث إلى مواضيع مختلفة استغرقت منا بعض الوقت. لاحظت بعدها أن السيدة إركسون قد بدأت تتثاءب، وقد ظهر الإرهاق على وجهها.

- أشكركما للعشاء اللذيذ، وللوقت الممتع. حقاً لقد قضيت أمسية رائعة، لن أنسى متعتها ما حييت ! أمسية أعادتني إلى أجواء ليالي الوطن الساحرة، محاطاً بمحبة الأهل ودفئهم. قلت ونهضت استعداداً للانصراف.

- إلى أين ؟ سألت سالي باندهاش، وقد اتسعت حدقتا عينيها، فبدت ساحرة ومغرية معاً.

- الساعة الآن قد تجاوزت العاشرة بقليل، والوالدة قطعت مئات الأميال هذا اليوم، ولا شك أنها مرهقة وبحاجة إلى الراحة.

- تستطيع الماما أن تستأذن منك، وتذهب إلى فراشها إذا شاءت. قالت سالي وعيناها ترجواني البقاء.

- من الأحسن أن أنصرف أنا، وأترككما تتحدثان، إذ لا شك أن عندكما الكثير لتقولانه لبعض. قلت.

- لقد تحدثنا كثيراً منذ وصولي. وأمامنا الأيام القادمة للاستزادة، إذا سمحتما لي، فإني أحب أن آوي إلى فراشي وتستطيعان مواصلة حديثكما. تصبحان على خير. قالت الأم ذلك، وتوجهت إلى غرفة النوم.

- سنلتقي مساء الغد على العشاء. قلت.

- شكراً يا بني. لقد أخبرتني سالي ذلك. قالت الأم، ثم أغلقت باب غرفة النوم خلفها.

*****

- بروفيسور دهشان! أشكرك من أعماق قلبي على هذه الحفاوة الرائعة، والاهتمام الشديد اللذين أوليتهما للماما ! لقد أسعدتها جداً جداً. وصدقني أنك أسعدتني أنا أكثر، إذ إنني أكاد أبكي من شدة التأثر ! قالت لي بأنها أحبتك كثيراً، وتتمنى لو يكون لها ابن مثلك !

- إن حب الأم لنا وحده لا يكفي... نحن نطمع بحب البنت أيضا ! قلت بطريقة هزلية، وبلغة الجمع وأنا أضحك.

ابتسمت سالي، واحمرت وجنتاها، وألقت برأسها إلى الأرض خجلاً، ولم تقل شيئاً.

- إذا كانت الماما حقاً تتمنى لو يكون لها ابن مثلي، فأنا أحب جداً أن أكون ابنها منذ هذه اللحظة !

انفجرت سالي تضحك من أعماق قلبها، ضحكاً متواصلاً حتى دمعت عيناها، فقالت من بين ضحكاتها، واهتزاز جسمها:

- بروفيسور دهشان، الذي يعجبني فيك أنك عندك دائماً الجواب لكل سؤال، والحل لكل مشكلة !

- لأن الحياة بسيطة جداً، ولكن نحن الذين نعقدها ! قلت وأنا أشاركها الضحك.

- لا شك أنها شارات الذكاء، وسعة الاطلاع والمعرفة !

- شهادة أفتخر بها وأعتز، يا آنسة سالي. ماذا يطمح رجل مثلي في حياته، أكثر من ثناء امرأة جميلة مثلك ؟! قلت وقد أحنيت رأسي احتراماً بطريقة تمثيلية.

- على كل حال، شكراً جزيلاً مرة أخرى يا بروفيسور دهشان لحفاوتك الزائدة بالوالدة. لا شك أن زيارتها هذه إلى كاليفورنيا، ستكون من الذكريات الجميلة الخالدة في نفسها، والتي ستتذكرها دوماً ! كل هذا بفضلك، فأنت الذي جعلتها عزيزة عليها، وبسببك هي سعيدة كثيراً.

- أتقصدين إحضاري لها صندوق الشوكولاتة المتواضع جداً جداً... إنه لا شيء. أم تعنين تزويدها بالمعلومات عن السيد المسيح ؟! أنت تعرفين أن واجبي كأستاذ هو أن أضع معرفتي في إمرة كل من يرغب بها، ولذلك أنا عملت فقط واجبي، لا أكثر...!

- طبعاً. أنا أشكرك على هذا كله. ولكن الذي أعنيه هو دعوتك الكريمة لنا لزيارة بلد المسيح، وإصرارك على استضافتنا...! إن والدتي، ومنذ سنوات طويلة، وهي تحلم بزيارة الأراضي المقدسة !

- كم أتمنى لو أنكما فعلاً تقبلان تلبية دعوتي هذه، لكنت سعيداً حقاً. إنه لشرف عظيم لي أن أكون مضيفكما في الوطن ! وصدقيني، لولا حذري من تأثر الأخ رضوان، وربما جرحي لمشاعره، وخشيتي من أن يتهمني بالتعدي على حقوقه، لما قبلت الاكتفاء بتوجيه الدعوة لكما، وانتظار الجواب في المستقبل؛ بل لكنت أصررت على تحديد موعد الزيارة من الليلة. هذه هي الطريقة العربية الصحيحة للدعوة... توجيه الدعوة... ثم قبولها أو رفضها... أما أن تبقى معلقة، ومتأرجحة بين الموافقة والرفض، فهذه ليست من أخلاقياتنا...!

- إنها عادات حميدة حقاً. إذ لا عجب أن تكون أنت نتاج تلك العادات ! وكذلك يسعدني أكثر كرمك الباذخ، وطيبة قلبك، وصفاء روحك، ورهافة أحاسيسك؛ ولكن ما دخل كل هذا برضوان ؟! لقد ذكرته كثيراً في أحاديثك الليلة، وفي الحفلة على البحر، وكذلك على الهاتف؛ وكأنما هو الوصي علي، وأنا ما زلت فتاة تحت السن القانونية !

- نحن في الوطن، وربما في دول غيرنا كثيرة، نعتبر أن للخطيب واجبات على الخطيبة، تقريباً كواجبات الزوجة، ولهذا أتردد كلما أريد أن أقول لك، أو أطلب منك شيئاً.

- صدقني أنني ما زلت لا أفهمك! إما أنك تتكلم ألغازاً، وإما أنني قد تحولت فجأة إلى غبية ! قالت شبه مستاءة وبنفاد صبر أيضا.

- إن كلامي واضح جداً جداً يا آنسة سالي. لأنك خطيبة ابن وطني رضوان، فيجب أن ألتزم بالأخلاق، وأن أتقيد بالأصول ! قلت بعصبية ونفاد صبر، وأنا أشد منها استياءً.

- آه... الآن فقط فهمت ما عنيت ! ولكن، من قال لك بأننا رضوان وأنا مخطوبان ؟! هل هو رضوان نفسه، أم أنت توصلت لوحدك إلى هذه النتيجة ؟ سألت وقد اتسعت حدقتا عينيها استغراباً وحيرة !

- ألستما خطيبين حقاً ؟ قولي لي الصدق بربك؟ سألت بصوت مرتعش وقلب خافق.

- طبعاً لا... ولا حتى صديقين تربطهما علاقة حميمة ! نحن أصدقاء تجمعنا رابطة الاحترام فقط.

- لقد ذكر لي هذا الأخ رضوان، يوم أرسلته أنت قبل شهور للتعرف علي! لقد أعلمني بأنك تفكرين جدياً باعتناق الدين الإسلامي، وأنكما ستتزوجان، وتذهبان لتعيشا في الوطن.

- أما عن اعتناقي للإسلام، فالفكرة ما زالت واردة عندي، بل إنها أقوى مما بدأت، ولكن ليس سببها رضوان إطلاقا. لقد ولدت في عقلي وقلبي ووجداني يوم كنت طالبة في السنة الثالثة بالجامعة، فقد أخذت مساقاً في الفلسفة اسمه "الأديان المقارنة" فأعجبني الدين الإسلامي، وصرت أقرأ عنه وأتعمق فيه. وكلما ازددت تعمقاً، كلما ازددت رسوخاً وإيمانا به وحباً له. ولهذا السبب انجذبت إليك، ونشدت صداقتك عندما علمت أنك مسلم. ولكنك... رفضتني... رفضت صداقتي...!

في تلك اللحظة، غطت كآبة قاتمة وجه سالي، وقفزت دمعتان كبيرتان من عينيها الباسمتين، حاولت بكبرياء وتألق أن تخفيهما، بأن نظرت إلى الجهة المعاكسة، ولكنني رأيتهما كبيرتين كحبتي الحمص المعافاة...!

- يا لي من مجرم نذل، ويا لي من جبان رعديد ! صحت لا شعورياً كالمفجوع، بصوت يقطر آلماً وحزناً.

نهضت من مقعدي قبالها، وجلست على الكنبة بجانبها... وضعت يدي على خدها لأواسيها، فتوتر جسدها، فحدجتني بغضب مكتوم، وقد اشتعلت أذناها، وتوردت وجنتاها، وأشارت بإبهام يدها اليمنى إلى حيث كنت جالساً؛ وقالت بلهجة حازمة، خشنة وقاسية:

- أرجوك بروفيسور دهشان ! أنت موضع احترامي وتقديري... يعزّ عليّ أن أجرح إحساسك ! من فضلك عد إلى مكانك ! وشكراً على التعاطف.

- إذن كيف ولدت فكرة الخطبة والزواج هذه ؟ وما الذي دعا الأخ رضوان أن يقول لي مثل هذا الكلام إذا كان غير صحيح؟! سألت وقد عدت إلى مكاني، محاولاً أن أتناسى صدها الحازم لي.

- في الأسبوعين الأولين من تعارفنا، أعلمني رضوان بأنه وجد بي جميع الصفات الحميدة التي يحلم أن تتوفر بزوجة المستقبل، ما عدا أنني لست مسلمة، فأعلمته بأنني مقتنعة بالدين الإسلامي منذ عدة سنوات، وأنني إذا اعتنقت هذا الدين يوماً، فلن يكون لأي سبب إلا قناعتي الشخصية، وليس بسببه هو !

- إنني ما زلت لا أفهم حتى هذه اللحظة، فهل طلب رضوان يدك؟ سألت وعيناي تتأملان ملكوتها.

- نعم. خطبني، ولكنني رفضت. قال بأنني إذا اعتنقت الدين الإسلامي، فإنه يحب كثيراً أن يتزوجني، ولكنني أعلمته بأن فكرة الزواج لما تدخل عقلي بعد، وإنه لكي أقبل الزواج من إنسان، يجب أن أحبه وأقتنع به، وهذا يأخذ مدة طويلة، وليست أسبوعين كحالنا في ذلك الوقت !

- ولكنكما تريان بعضكما دائماً، وتخرجان معاً كثيراً ! سألت بلهفة وفرح معاً.

- بروفيسور دهشان ! صدقني بأنني لا أشعر نحو رضوان بأية عاطفة رومانسية إطلاقا، وهو يعرف هذه الحقيقة، وأظن أن عنده نفس الشعور نحوي ... إن العاطفة التي بيننا هي الاحترام المتبادل. إن رضوان شاب بسيط... أبسط مما تتصور. إنه مسكين. أنا أساعده بأشياء كثيرة، هو بحاجة للمساعدة. تأكد يا بروفيسور دهشان لا رضوان ولا أي

مخلوق آخر، اقترب مني أكثر من اللازم. هل فهمت ! أنا أشعر بالسعادة وأنا أساعد رضوان في توضيح ما استعصى عليه باللغة؛ مساعدته في إيجاد عمل له، الحصول على بعض المراجع وطريقة استعمالها وأخذ المعلومات منها.

- آنسة سالي ! أرجو أن لا تعتبري كلامي تدخلاً في خصوصياتك، ولكنك ورضوان دائماً معاً، وقلما تفترقان، وهذه الحالة تنطبق فقط على صديقين حميمين... رجل وامرأة ! هل تفهمين ما أعني ؟!

- هذا صحيح. نحن نرى بعضاً كثيراً، ونذهب إلى أماكن عديدة معاً. أنا أرتاح جداً وأنا مع رضوان، وأشعر دائماً بالأمان معه في كل مكان أذهب إليه، ولكنني ما شعرت يوماً نحوه كما تشعر امرأة نحو رجل... أنا ما فكرت يوماً بالزواج من رضوان، وما تحدثنا يوماً حتى عن الإعجاب ! أحسّ كأنما أنا أخته الكبرى التي يهمها أمر أخيها، وقلقها على مستقبله، وأظن أنه يحمل لي نفس الشعور !

- وماذا عن مقولة ما خلا رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما ؟ أعني، ما أسعد رضوان ! كم أتمنى لو تكون لي أخت مثلك، عندها كل هذه الميزات الفريدة، تعتني بي ويهمها حالي، تغمرني بحنانها، وتبعث الدفء في حنايا نفسي المأزومة ! قلت، وقد فردت ابتسامة خجلى على وجهي، محاولاً أن ألطّف الجو المتوتر.

- إن مكانتك وشخصيتك تختلفان كثيراً عن وضع وشخصية رضوان. الفرق بينكما شاسع... شاسع جداً ! ليس هناك من وجه للمقارنة إطلاقا !

- إن حياة رضوان أبسط من حياتي كثيراً، توقعاته قليلة وطموحاته متواضعة، لذلك هو سعيد جداً وغير قلق.

- تستطيع أن تكون أكثر سعادة منه، واهدأ بالاً، ثم أنعم حالاً؛ هذا لو رسمت لك خطاً واضحاً، ونسيت أو تناسيت تحديك للزمن ومصارعتك مع القدر، وقنعت بما قسم الله لك في الدنيا ... !

- ماذا تعنين ؟! لا أفهم ما قلتِ ! سألتُ بحيرة، وقد حملقت بها مدهوشاً مذهولاً !

- بروفيسور دهشان ! أنت نفسك قلت لي بأنني صريحة ولا أعيش في دهاليز الظلمة ! كلامي بسيط وواضح، ولا يحتاج إلى شرح أو تفسير؛ اللهم إلا إذا كنت لا تريد أن تفهمه ! قالت بحزم.

في تلك اللحظة، أحسست فجأة بأنني قريب جداً من روحها. راودتني فكرة مصارحتها بحبي لها، فكرة قوية ضاغطة، وتمنيت لو أنني أجد الشجاعة الكافية لأقول لها ما يحتبس في خاطري، وما تجيش به نفسي، ولكنني خفت أن تصدني وتسمعني كلاماً قاسياً مقذعاً، فأصدم للمرة الثانية خلال ساعة واحدة، هذا إن صدّقت مقولتي ولم تسخر مني !

- إذن ما هو شعورك نحوي ؟

خرجت الكلمات من فمي، ونطق بها لساني، وسمعتها أذناي دون علمي ودون استشارتي، فوجدت نفسي أمام نفسي أبله... سخيفاً... تافهاً... مهلهلاً... وتمنيت من أعماقي لو أنني أستطيع أن أستعيد هذه الجملة، أو أن أمحوها من ذاكرتها ! لقد أحسست بندم ممزق !

- لأقل بوضوح ! إن شعوري نحوك مبعثه الاحترام والتقدير لك كأستاذ عربي مسلم، مطلع وناضج ؛ تملك الضوء الذي ينير هذه المتاهة التي أعيش فيها، خصوصاً وأنا أستعد للتحول إلى الإسلام.

- ما أعظمك وأجمل كلماتك ! هنيئاً لك بالإسلام، وهنيئاً للمسلمين بك ! قلت بفرح شديد، وحماس لاهب، وقد شعرت بارتياح وانتعاش معاً !

- لا أعتقد أن أستاذا غيرك في المدينة الجامعية، يمكن أن يجيب على تساؤلاتي وأفكاري مثلك ! أنا أشعر بأنك أفضل شخص يأخذ بيدي ! ولم أفكر بذلك إلا بسبب اقتناعي بآرائك وأفكارك ومعتقداتك القومية والأخلاقية، ثم إنني أتعاطف كثيراً مع شعبك وقضيته، وأتفهم آلامك ومعاناتك، وكذلك خوفك من أجله !

- ما هذا يا آنسة سالي ؟ إنك ترفعينني لمصاف الآلهة، وليس البشر! أخشى أن يصيبني الغرور فأصدق مقولتك !

- أنا لا أقول إلا ما أعتقد. أنا لا أحابي إنسانا ولا أخاف من أحد.

اقتربت منها وقلت بكل الفجاجة التي ورثتها عن بني قومي:

- إذا كان هذا شعورك نحوي، وتلك هي ثقتك بي، فدعيني أخبرك... ما أسعدني بمعتقدك هذا ! إنه لأمر مفرح جداً ! صدقيني يا آنسة سالي، إنني أشعر بالسعادة الغامرة والفخر الباذخ، وأنا أسمع كلماتك !

- ما رأيك في تناول بعض القهوة ؟ أريد أن أعمل لنفسي فنجاناً من القهوة الإيطالية. أم أنك تفضل القهوة الأميركية ؟ سألت وهي تنهض.

- اقتراح ممتاز ! أنا أحب القهوة الإيطالية كثيراً. فنجان من "الكابتشينو" ينشط التفكير! سأدخل معك لأراقبك تصنعينها، حتى عندما تزورانى، أنت ورضوان، أعرف طريقة صنعها لأقدمها لكما. قلت ذلك ونهضت.

توجهنا إلى المطبخ، وفي الطريق أمسكت بيدها، فسرت رعشة غريبة في جسدها. أفلتت يدها من يدي برقة، فلم أحاول إعادة الكرة. نظرت إلى وجهها، وتمتعت حتى البكاء بعذوبة صوت سالي ورقة أعطافها ! لقد حانت الفرصة الآن لأصارحها بحبي لها، ولأعتذر عن غباوتي وتجاهلها وهي تحاول أن تتقرب مني لنبدأ علاقة معاً.

إنني كلما هممت بفتح فمي لأحدثها في هذا الموضوع، تلعثمت وخفت أن تصدني، أو أن تجيبني بكلمات محرجة وقاسية، وهي الجريئة الصريحة ! لعلها لاحظت أن في عيني كلاماً أريد أن أقوله لها، كما لاحظت ترددي.

- بروفيسور دهشان ! هل هناك ما يزعجك ؟ أعني هل هناك من مشكلة ؟ سألت وقد ركزت عينيها على عيني وفوق وجهي، مما جعلني أتجنب مقابلة عينيها.

- لا مشكلة لدي. هل تشعرين بشيء من هذا ؟

- نعم أراك مرتبكاً، وكأنك تريد أن تقول شيئاً !

- هذا صحيح ! منذ زمن وأنا أحاول أن أنتهز الفرصة لأحدثك حديثاً، أعتقد أنه مهم؛ وأن أتحدث إليك في بحبوحة ! والآن اعتقدت أن الفرصة مواتية. ولكن...

- ولكن ماذا ؟ ما الذي يمنعك من الحديث ؟ قالت وهي تحدجني، وقد اتسعت حدقتا عينيها.

- المشكلة، هي أنني كلما أراك تهرب مني الكلمات ! قلتها بسرعة وكأنما يطاردني عفريت !
- وما السبب ؟! سألتْ؛ ولما لم أجب، قالت:
- علمت من مارينا هارتمان أنك لا تستقر على حال، وأن علاقتك مع ألكسس مضطربة.
- ألكسس ؟! وماذا قالت لك مارينا ؟! ليس بيني وبين ألكسس أية علاقة. كانت تتردد على مكتبي للاستفسار عن بعض المراجع لبحث تكتبه عن الشرق الأوسط ؛ ثم اقترحت عليّ أن تلقم الكمبيوتر صفحات رواية أكتبها. وقد اشتغلت على ذلك ساعات طويلة، أحيانا في مكتبي بالجامعة، ومرة أو مرتين في البيت.
صمتت سالي وهي تخفق الحليب بمسحوق القهوة في الخفاقة. نظرتْ إلي نظرة طويلة وعميقة، شعرت أنها تقول لي "أنت تكذب يا بروفيسور دهشان !".
- ما بك يا آنسة سالي ؟ ألا تصدقينني ؟ هل تريدين توضيحاً آخر؟ سألتها بانكسار وخجل.
- عفواً يا بروفيسور. لا شيء... لا شيء... ولكن حرصي عليك يجعلني أقول لك بأن مارينا وألكسس فتاتان يمكن أن تسيئا إلى سمعتك وتجلبا لك المتاعب.
صعقت للعبارة... وتصورت نفسي حديث أهل الجامعة، فقلت بقلق مشحون بالتوتر:
- أرجوك يا آنسة سالي، ماذا تعنين بالإساءة إلى سمعتي وجلب المتاعب لي ؟!
- ليس بالضبط. إن الذي أريد أن أقوله، هو أن سيرتهما في الجامعة من الممكن أن تمسّا صورتك الرائعة في أذهان طلابك، وأذهان زملائك في قسم دائرة الشرق الأوسط. أرجوك يا بروفيسور دهشان ! إن رجلاً عظيماً مثلك لا يجب أن يسمح لهاتين الفتاتين أن تثيرا أية ملاحظة عليه. إنهما غرتان وغير ناضجتين.
- ملاحظة ؟! مارينا هارتمان كانت على وشك الانهيار النفسي، وقمت بمساعدتها حتى تماثلت للشفاء التام. اعتبرت أن ذلك واجبي ! وألكسس تساعدني في طبع روايتي. وإن شئت فإنني أقول لك بأن ألكسس هي بمثابة الموديل الذي يستعمله الفنان لرسم صورة شخصية من شخصياته... لا أكثر ... !
ضحكت سالي، وقالت:
- لا تفهمني خطأ. إن الشك لا يمكن أن يرقى لنفسي بك بسبب هاتين الفتاتين. قلت لك فقط، أنا أتحدث عن الأمر بسبب حرصي عليك، وهذا كل ما في القضية. بروفيسور دهشان ! أنت فوق الشبهات، فلا تدع فتاة مثل ألكسس تنال من صورة الأستاذ العظيم الذي يحظى بثقة واحترام وحب الناس في المدينة الجامعية. أرجوك أن تأخذ كلماتي بحجمها الطبيعي.
لقد اكتشفت في سالي هذه الليلة أكثر من السابق، بأنها محدثة بارعة، وتتمتع بشخصية هادئة جذابة. وأنها سيدة رائعة تملك ذكاء حاداً متوقداً، وجرأة أدبية عجيبة نادرة !
مرت فترة صمت مفعمة بالتوتر والترقب، فقطعتها بقولي:

- سامحيني يا آنسة سالي إن قلت لك بأنني الآن أعيش حياة خاوية دون حب، وحين أعيش بدون حب أشعر بفراغ هائل مدمر يكاد يقضي عليّ، فأتقلص من الداخل حتى أفقد إحساسي بنفسي ووجودي !

- ولماذا تقول لي ذلك ؟! وما شأني أنا به ؟! سألت وهي تسدد إلي نظرات حيرى.

- حقاً. لماذا أقول لك ذلك ؟! وما شأنك أنت إن كنت أعيش خواء عاطفياً، أو حتى خواء فكرياً ؟ صدقيني إنني لا أدري! أنا آسف وأعتذر وأسحب كلامي.

- بروفيسور دهشان! اعذرني لصراحتي المتناهية، فهكذا أنا تربيت، ولا أستطيع الآن أن أغير ما تربيت عليه. إنك منذ أن ذهبت الماما إلى الفراش وأنت تحاول أن تقول لي شيئاً، وكلما كنت على وشك أن تتفوه به، تحولت إلى موضوع آخر. فلم لا تكون عندك الشجاعة والعزيمة وتقوله ؟!

- إنك على حق. لقد استطعت أن تقرئي أفكاري. إن سبب ترددي هو خشيتي من أن يُساء فهمي، ومن ثم يرفض طلبي ! قلت بخجل وتردد، وعيناي تحملقان بحذائي.

- وهل أنت مؤمن بمصداقية طلبك ؟! سألت بجرأة أذهلتني، وهي تحملق بعيني كأنما تتحداني !

- طبعاً ! مؤمن كل الإيمان ! قلت وأنا أحاول تجنب التقاء عيوننا.

- إذن قله ولا تتردد، وسواء أقبلته أنا أم رفضته، سواء رضيت أم غضبت، فيجب أن لا يزعجك هذا.

- إذن دعيني أرتب أفكاري، وأتمنى أن يكون جوابك، بعد أن أنتهي من قول كل ما أريد قوله.

- تفضل ! ولكن دعنا أولاً نأخذ قهوتنا ونعود إلى غرفة الجلوس، فتستطيع أن تتكلم وأنت جالس.

- في كل مرة كنا نتقابل بها بعد المحاضرة، أقول في كل مرة ودون استثناء، كنت أطلب منك أن تتكرمي وتقبلي دعوتي على العشاء، وأن نذهب بعدها لمشاهدة فيلم أو مسرحية، أو أن نعمل أي شيء تريدينه... المهم أن نتقابل خارج قاعة المحاضرات ونكون معاً، لأنني أريد أن أحدثك حديثاً طويلاً وهاماً... كنت والله أقولها بقلبي... بأحاسيسي... بكل كياني... أقولها بملء فمي... ولكن لساني كان يعيدها بعدي، يقولها لك بصوت ضعيف... ضعيف... لم تسمعه أذناك...! كنت أصرخ بعد ذهابك من أعماق قلبي، ومن قيعان وجداني، بصوت يمزق أوتار حلقي، ويزلزل عمارة المحاضرات الضخمة... كنت أصرخ وبكل توجع وتفجع وإحباط، أرجوك... أرجوك... عودي إلي، فأنا بحاجة مجنونة إلى عطفك... إلى حنانك... إلى حبك... سالي! عفواً ! آنسة سالي ! أنا والله لا أخترع هذا من مخيلتي، وأقسم لك بالوطن العربي الكبير، وبالوطن السليب، وبالوطن المحتل، وبقدسية وكرامة طفلة الحجر التي تدافع برأسها العاري وقدميها الحافيتين عن شرف الأمتين العربية والإسلامية، أنك عندما صرت تغادرين على عجل بعد انتهاء كل محاضرة، أدركت عندها بأن القدر لا يريد لنا أن نجتمع خارج قاعة المحاضرات، ويرفض بإصرار وعناد وشراسة أن نرتبط بأية علاقة غير علاقة الدرس والمحاضرة ... ويوم جاء رضوان إلى مكتبي في الجامعة، وأعلمني بأنكما أصدقاء، وأنكما ستتزوجان، فرحت لكما، ولكنني حزنت حزناً ممزقاً ضاغطاً، وأحسست وكأنما يداً

فولاذية ضخمة قد أطبقت على فمي ومنعتني من التنفس، فأحسست بأنني أختنق لشدة القهر والندم... القهر من غباوتي وتخاذلي، والندم على تياستي وترددي... وهذا المساء، وقد تبين لي أن لا علاقة عاطفية تربطك برضوان، وأن لا نية بينكما على الزواج، فإنني لا أريد أن أفقدك هذه المرة بعد أن وجدتك، وإنني أريد أن أتحدى بك القدر، حتى لا يلجم لساني فلا يصلك صوتي، وإنني أريد أن أعلمك بأنني أحبك... أحبك... أحبك... وأنني أتمنى وبكل كياني، لو توافقين على أن نقطع مشوار الحياة معاً... يعني أن تقبلي وتتزوجيني.

مرت فترة صمت رهيبة، مفعمة بالترقب والتساؤل والحيرة، خلتها أمدا سرمدياً... كانت ضربات قلبي تتزاحم فوق طبلتي أذني، فأحس كأنهما تكادان تنفجران وتتطاير أشلاؤهما ! كنت أتساءل: هل يمكن أن ترفض سالي طلبي وهي التي كانت تحاول بكل ما لديها من طاقات أن تبدأ بيننا علاقة حميمة، وأن نكون أصدقاء ؟ لا أظن ذلك... بل أنا واثق أنها ستقبل... أنها ستفرح...بل ستسعد... إن قلبها الآن يزغرد بين جنبيها... يرقص طرباً... إنها في أية لحظة الآن سترفع وجهها عن الأرض وتنظر في عيني، وتهجم عليّ وتعانقني وتقول "إنه لشرف عظيم لي أن أقبل بأن أقاسمك مشوار العمر". نعم! رفعت سالي وجهها عن الأرض، ونظرت في عيني... يا إلهي ! كانت عيناها حمراوين ككتلة متجلطة من الدم... وكان الدمع ينزل منهما بغزارة مذهلة !

- ولم هذا الدمع يا آنسة سالي ؟! ماذا قلت حتى جعلتك تبكين؟! كنت أعتقد بأنك ستفرحين وستهللين ؟!

سألتها بقلق واندهاش وحيرة، والشكوك تعصف بي من كل اتجاه ! قمت بعدها وجلست إلى جانبها، وطوقت بذراعي اليسرى عنقها، وقربت وجهها من وجهي، وحاولت أن أقبلها على شفتيها، ولكنها انتفضت بغضب وحالت بيني وبين تقبيلها، ثم ابتعدت وأبعدتني عنها، ولكن بلطف وأدب.

- لا... لا... أرجوك ! عد إلى مكانك ! قالت بتوسل وقد جعلت من كف يدها حاجزاً بين شفاهنا.

- ماذا حدث يا آنسة سالي...؟! ما هي الحكاية...؟! ولم هذا التبدل المفاجئ...؟! كنت أعتقد أنك تريدينني... تحبينني... فخورة بي... سعيدة بأن تكوني بقربي ومعي... كنت... كنت أعتقد أنك ستفرحين... ستسعدين جداً جداً... سترقصين... ستهجمين عليّ وتعانقينني وتقولين: قبلت الزواج بك، وبكل الحب والسعادة ! لا لأنني إنسان مميز، ولا لأنني إنسان نادر الوجود، ولا مثيل لي كما تقولين لي دائماً، ولا لأي سبب آخر سوى اعتقادي بأنك تحبينني... نعم تحبينني... إن كل تصرفاتك معي وأقوالك لي توحي بذلك، وبكل وضوح ودون مواربة... أما الآن فقد أدركت بأنها كانت أدوارا تمثيلية، تضحكين بها على عقلي، وتسخرين بها من ذكائي... ولأكن صريحاً معك يا آنسة سالي، فإنني أقول لك بأنك أجدت أدوارك، بل إنك قد أتقنتها إتقاناً بارعاً ومتميزاً ... !

قلت ذلك بعد أن عدت إلى مكاني. كنت أتكلم بصوت منفعل مرتفع، وكأنما أخطب في حشد ثائر من الناس في الوطن، يتظاهرون ويحتجون؛ أو ألقي محاضرة حماسية في طلابي، مما جعلني أعتقد فيما بعد، بأن والدتها لا شك قد سمعت كل كلمة تفوهت بها.

- على كل حال انسي ما قلت ! سأمر عليكم غداً مساء في تمام الساعة السادسة لنذهب للعشاء كما اتفقنا، وسأتكلم مع رضوان أن يكون هنا في ذلك الوقت !

قلت هذا وهممت أن أنهض لأنصرف، لولا أنني سمعت صوتها آتياً إلي من بين دموعها ونهنهاتها:

- بروفيسور دهشان ! صدقني، وأقسم لك بالله وبحبي للماما وللبابا، بأن كل ما قلته عني من أنني أريدك جداً، وأنني فخورة بك وسعيدة بصداقتك، وأنني أكنّ لك كل حب واحترام وتقدير، وأنني أتمنى أن أكون معك دائماً وقريبة منك، هو كلام أكيد وصادق. أما قولك بأنني كنت أمثل عليك وأنني لم أكن صادقة في مشاعري نحوك، فإنك والله قد ظلمتني بهذه التهمة وقسوت عليّ كثيراً ! إنني أعترف لك وبكل الصدق والصراحة، أنني كنت أطمع كثيراً... كثيراً جداً... في أول تعارفنا أن تحبني، وأن أكون صديقتك الحميمة، وحتى أن نتزوج بعدها إن وجدنا أننا متكافئان للزواج. ولطالما تصورت نفسي وإياك، نعيش معاً، إما هنا في كاليفورنيا أو في ولاية واشنطن، بعد أن أريك كل بقعة جميلة وتاريخية في بلادنا الواسعة، وأن تدللني وأدللك، نتناقش ونتحاور، نبني عش حبنا ونربي أطفالنا. ولأكن معك أكثر صراحة، لقد كنت في كل مرة أعود بها إلى شقتي هذه، بعد أن أستمع إلى محاضراتك الممتعة والمميزة، وحديثنا الرومانسي بعدها؛ وبعد أن أتكلم مع والدتي هاتفياً في المساء، عنك وعن صدودك لي، فإنني كنت أضع نفسي في الفراش وأبلل مخدتي بدموعي الغزيرة الحارة ... مستغربة عدم طلبك رؤيتي بعد المحاضرات، حتى اقتنعت بما قالته لي والدتي؛ من أنك لا بد وأن تكون مرتبطاً بإنسانة أخرى هنا أو في الوطن.

- الآن وقد عرفت الحقيقة، وما أكنه من شعور نحوك، فلم ترفضين الزواج بي ؟! وهل قابلت إنسانا استأثر باهتمامك وحبك ؟! كوني صريحة وجريئة كعادتك ! صدقيني إنني لن أغضب. هذه حياتك وأنت حرة بها.

هزّت رأسها عدة مرات يمنة ويسرة علامة النفي، ثم قالت:

- أرجوك حاول أن تفهمني ! أنا ما أحببت بعدك ولا قبلك ! الحب عندي عاطفة مقدسة... مقدسة جداً؛ منحنا إياه الخالق لنسعد به ونهنأ؛ والزواج رباط أكثر قدسية ! كلاهما يجب التعامل معه بمنتهى الصدق والأمانة والشفافية ! هكذا ربتني أمي، وهكذا علمونا في الكنيسة منذ أن كنا أطفالا.

- أنا لا أريد أن أسمع كلاماً معسولاً وخطباً منمقة. أنا أريد أن أعرف السبب الذي يجعلك ترفضين الزواج مني الآن، وقد كنت تطمعين به عند أول تعارفنا. أريدك أن تقوليه بمنتهى الصراحة والصدق.

- السبب هو الاختلاف الشاسع في عقليتينا الحضارية والسلوكية !

- ألم تكوني مدركة لهذا الفرق في أول تعارفنا ؟ ألم أقل لك وإلى الطلبة الآخرين منذ اليوم الأول، بأنني مسلم وعربي ومن الشرق الأوسط ؟ أي أنني من دول العالم الثالث !

- أنا لا أتكلم عن الديانة والعرق، ولا عن الموقع الجغرافي ! فعلى العكس من ذلك، إذ إن هذه الاختلافات وعشرات الأسباب الأخرى هي التي جذبتني إليك ! صدقني، لو كنت أميركيا مثلي، لربما ما انجذبت إليك واهتممت بك إلى هذا الحد ! أنا أتكلم عن

العقلية... التصرف... عن نمط الحياة التي تعيشها... الانطلاق الذي تمارسه ! قالت ذلك وهي ما زالت تحدق برأس حذائها !
- أنا لا أفهم ما تعنين ! أنت تتكلمين ألغازاً وغيبيات... أنا لست ذكياً كما تتصورين !
قلت غير صادق، فقد أدركت ما ترمي إليه الصبية، فأحسست كأنما طعنتني خنجراً. لقد شعرت بأنني بدأت أفقد سيطرتي على عواطفها وتفكيرها ! أحسست بأنها بدأت تعرّيني أمام نفسي، وأنني تعرّيت فعلاً أمامها هي أيضا ! لقد اعتراني خذلان لا يوصف من نفسي ومنها، واعترتني موجة من العرق اللزج البارد ... !
- قبل أن أدخل في التفاصيل، فإنني أرجوك بأن لا تدع ما أقوله من صريح العبارات يؤثر على صداقتنا. وصدقني أنني ما كنت سأقوله لولا أنك طلبت مني أن أتزوجك ، فإنك اتهمتني بالتمثيل وعدم الصدق، عندما اعتذرت أنا عن قبول هذا الزواج. أنا أحب جداً جداً أن نكون أصدقاء... صداقة قوية... كما نحن الآن، بل حتى أقوى مما نحن عليه الآن ! كصداقتي لرضوان مثلاً... صداقة مبنية على الاحترام والتقدير والإعجاب... صداقة لا تتدخل بالتصرفات الفردية، وليست صداقة رومانسية !
- أرجوكِ أدخلي بالموضوع، ولا حاجة للمقدمات ! قلت وقد بلغ التوتر والقلق مني شأواً عظيماً ... !
- كنت أعرف أنك شاب محبوب، وأنك جميل جذاب ومتعلم، وعندك سحر خاص وجاذبية مميزة، تجذبنا نحن النساء إليك، وأن عندك أيضاً احتراماً زائداً للجنس اللطيف؛ ومدركة أيضاً بأنك مطارد من قبل بعض الطالبات، كل هذا مقبول وممتاز، بل يسعدني ولا اعتراض لي عليه ... أما الذي أرفضه رفضاً قاطعاً ولا أقبل التهاون به، هو أن يكون الرجل الذي سأمنحه نفسي وحياتي، وكل كياني ووجودي، له علاقات عاطفية وحميمة مع نساء أخريات ! علاقات حميمة مع كل امرأة تقع في طريقه ! الوفاء يجب أن يكون متبادلاً من قبل الطرفين، الرجل والمرأة !
- آنسة سالي ! أنا ما زلت لا أفهمك ! أنت تتحدثين أفكارا مطلقة... عائمة... غيبيات عامة... ضبابية... تهويمات ! يا حبذا لو تكوني أكثر وضوحاً ! قلت متغابياً.
- بروفيسور دهشان ! أرجوك لا تستعمل هذا الأسلوب معي ! أنت تفهمني جيداً، وتفهم كل كلمة أقولها ! أنا واثقة أنك فهمت كل كلمة قلتها وعرفت ما عنيت ! لا تتظاهر بعدم الفهم ! أنا أعرف أنك ذكي جداً، وأنك حتى تقرأ أفكار الناس قبل أن يتفوهوا بها، فكيف وأنا قلت كل شيء بوضوح !؟
- أنا لست ذكياً كما تظنين. أنا في بعض الأحايين غبي جداً... هكذا قالت لي إحداهن، متهمة إياي بعدم فهمي لحقيقة عواطفها نحوي !
- أنا واثقة بأنها لم تعنِ ما قالت ! إنها طريقة غير مباشرة لتؤكد لك بأنها تحبك ومتيمة بهواك ! قالت وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة باهتة !
- أنتن النساء تفهمن لغة بعضكن ...! على كل حال، هل أفهم من ذلك أنك تتهمينني بأن لي علاقات عاطفية مع نساء كثيرات ؟ قلت بلهجة الخجل المخذول.
ضحكت طويلاً وبسخرية لاذعة، مما أغاظني وأثارني معاً !

- بروفيسور دهشان ! أنا لا أتهمك. أنا لست قاضياً ولا مسؤولة عن تصرفاتك ... لك الحق في أن تحب من تشاء وأن تكره من تريد... أن تكون لك علاقة حميمة مع هذه وتأخذ إلى الفراش تلك ... هذه ليست قضيتي ! قضيتي أنك طلبت أن تتزوجني، وكان جوابي عدم القبول، والسبب هو أنني لا يمكن أن أرتبط بإنسان له علاقة عاطفية مع امرأة واحدة سواي ، فما بالك إذا كان هذا الرجل له علاقات متعددة ومتجددة بنساء كثيرات... كثيرات جداً ؟!

- نعم. أنا أعرف نساء كثيرات جداً، ولكنها معرفة صداقة... صداقة فكرية بريئة، يعني مثلك أنت ورضوان... لا يوجد بيننا علاقات حميمة، ولا علاقات رومانسية !

- بروفيسور دهشان ! بالله عليك لا تدع صورتك الجميلة، الصادقة الشجاعة والجريئة تهتز في نظري ! أرجوك أن تفهمني. أنا لا شأن لي إطلاقا بحياتك الخاصة. أنا ذكرت لك ما ذكرت لأنك طلبت يدي للزواج، وأنا أبين لك سبب رفضي، وإلا لما ذكرت هذا إطلاقاً ! إنه ليس من شأني !

وهنا احتدت واحمرّ خداها، ولعل ذلك يعود إلى قناعتها وإنكاري، فقالت بحماس ممزوج بالغضب :

- بروفيسور دهشان ! إذا كنت تعتقد أن الطالبات أو النساء اللواتي لك معهن علاقة حميمة لا يتكلمن عن هذه العلاقة لصديقاتهن، فأنت لا تعرف الحقيقة ! إنه نوع من المباهاة... المفاخرة... جلب انتباه الأخريات... إعلامهن بأنهن لهن علاقات حميمة مع بروفيسور جامعة، وليس مع طالب ! إنهن يفاخرن بأن أستاذاً شاباً وجذاباً يجري خلفهن ويتلهف إلى أخذهن إلى الفراش ... ! أنت لا تعرف عقلية المرأة ولا كيف تفكر ... !

- أنا لم أجر خلف واحدة، ولم أتلهف لمطارحتها الغرام، إن الوحيدة التي أجري خلفها ترفضني، مع أنني أريد أن أقدم لها خاتماً وعقد زواج، وليس علاقة حميمة فقط. قلت بحدة وقد شعرت بالإهانة !

قالت وقد تجاهلت تعليقي عنها:

- هذا لا يهم وليس ضرورياً ؛ أنت الذي جريت خلفها أم هي التي طاردتك، المهم أنكما تطارحتما الغرام ... ثم تذهب هي بعد ذلك وتتحدث إلى صديقاتها عما جرى بينكما في غرفة النوم ! لا شك بأنها تؤلف قصصاً ومشاهد ومواقف لم تحدث... أعني إنها تزيد كثيراً عما حدث، لتؤكد لسامعاتها بأنها جميلة وجذابة ومحبوبة، لأنها وكما تعتقد، تكبر بعيونهن... تشعرهن بأهميتها وجري الرجال خلفها !

- وهل صدقت كل ما سمعت ؟ إياكِ أن تقولي لي بأنك فعلت ! سألت وقد أحسست حقاً بتفاهة سؤالي، فتمنيت لو لم أسأل !

- لأقول لك الصدق، بأنني بادئ ذي بدء لم أصدق، لأنني لم أرد أن اصدق... كنت أرفض بشدة... بإصرار وعناد وقوة ! ولكنني من كثرة ما سمعت، ومن الدلائل التي شاهدت، فقد تأكد لي بما لا يدع مجالاً للشك، بأن ما أسمعه هو الصدق !

- لا شك أنك تألمت وحزنت كثيراً، ولا شك بأنني خيّبت ظنك ! ومرة أخرى شعرت بأن مقولتي سخيفة وتافهة، بل شعرت أكثر من ذلك، بأنني صرت أحس بخواء في داخلي.

لم تعلق الصبية، وإنما لاحظت بأن حزمة من الدموع سقطت من عينيها، حاولت إخفائها عني !

- لو سمعت" مارينا " وهي تصف لي ما جري بينكما في مدينة كارميل ... أو لاحظت اتقاد عيني " تيرا " وهي تصف لي كيف استدرجتك إلى شقتها وقدمت لك كؤوس الخمر، ثم أخذتها إلى الفراش، وقضيت تلك الليلة في شقتها. أما ماري فقد أعلمتني إنها دعتك إلى مدينة "بالم سبرنق" الصحراوية، وقضيتما ليلتين معاً في الفندق تتطارحان الغرام. لقد وصفت لي كل شيء بالتفصيل الدقيق...ثم كيف دعتك "شاري" إلى حفلة عيد ميلادها، وكيف طلبت إليك البقاء حتى انصرف الجميع، وقضيت تلك الليلة في شقتها... !

- يا إلهي! لم يفعلن ذلك، وهن اللواتي طاردنني وأوقعنني في حبائلهن ؟! أنا لم أطلب منهن شيئاً ! ألا يشعرن بالخزي والعار؟ إنه لا يمكن لامرأة عندنا في الوطن أن تتحدث عن علاقاتها الغرامية مع الرجال، مع أن الرجل غالباً ما يكون هو صاحب الفكرة !

- أنت دائماً تنسى ! هنا لا فرق بين الرجل والمرأة ! إن الذي يريد شيئاً من الآخر هو الذي يسعى للحصول عليه ! لقد انقضى الزمن الذي تنتظر به المرأة الرجل حتى يتقدم منها؛ إنها إذا كانت هي تريده، فهي التي تطلب منه ما تريد ! إنها ترفض بإصرار وشدة أن يكون الرجل هو الذي يغوي المرأة ويأخذها إلى الفراش ... تشعر بالإهانة ... !

- إذن، لماذا لم تطلبي أنت مني في أول تعارفنا أن نتقابل بعد انتهاء المحاضرات، بدلاً من أن تظلي تنتظرين حتى أقوم أنا بالمهمة؛ أم أنك تختلفين عن الأخريات؟ قلت وأتبعتها بضحكة بلهاء !

- أنت تضحك، وقد تسخر؛ ولكنني أقول لك بإصرار وكبرياءٍ وعنادٍ أيضاً ؛ نعم أنا أختلف عن بقية النساء ! صدق أو لا تصدق ! أنا أفهمتك بطريقة غير مباشرة بأنني أريدك وأحب أن أخرج معك. هذا أبعد ما أستطيع الوصول إليه.

- ولهذا السبب أنا أحببتك وأريد أن أتزوجك... ! إنك تختلفين عن كل اللواتي قابلت ...!

- الوحيدة التي ترفض الكلام عن علاقتكما هي ألكسس، مع أنني أعرف أنها الأكثر بك التصاقاً ! صدقاً ! إنني أحترمها جداً لهذا السلوك الأرستقراطي ... !

قالت متجاهلة كلامي، وهي ما زالت تتجنب النظر إلى وجهي، وما زالت تحدق برأس حذائها !

- ولماذا بحق السماء تسألين عني، وتستمعين إلى تلك الترهات والإشاعات التي تطلقها تلك النسوة؟! قلت بغضب، وإن كان في أعماقي يتحرك غرور الفحل العربي بغزواته الرومانسية ... !

- ماذا قالت تلك المرأة عنك؟ إنك أحيانا غبي... وغبي جداً! ما زلت لا تعرف، فدعني أقول لك... لقد كنت اسأل طالباتك لأنني كنت أريد أن أعرف عنك كل شيء ! قالت بصوت حزين مكسور ومخنوق ... !

- ألم تسألي نفسكِ لم كنت أفعل هذا الشيء غير الطبيعي ؟! سألت وأنا أحملق بوجهها المحدق بالأرض.

- لا... لا لم أسأل، ولا يهمني أن أعرف... ولماذا أسأل؟ قالت وقد هزّت كتفيها علامة اللامبالاة !

- لأنك أنانية... وغبية... وتافهة أيضاً... ليس فقط تافهة، ولكن ضحلة بدرجة مذهلة ... ! كل ما يهمك هو نفسك... نفسك المسكينة... المسكينة سالي... سالي المظلومة ! سالي التي تحب رجلاً وهو ينام مع غيرها !
- بروفيسور دهشان ! لاحظ ما تقول من فضلك ! لولا أنك في بيتي وضيفي، لكنت تصرفت معك بأسلوب آخر ! قالت ذلك ونهضت واقفة من على الكنبة، وجسمها يرتجف غضباً، وقد حملقت بوجهي بتحد أذهلني ... !
قلت وقد وقفت أمامها متحدياً، وعيناي تحرقانها بنظراتي الغضبى:
- نعم... غبية... وتافهة... وأنانية... وضحلة أيضاً... وإلا لكنت سألت نفسك عن سر هذا التصرف الغريب للرجل الذي فكّرت أنه صديق لك، وقد يكون في يوم زوجك ! وما زلت لم تكلفي نفسك عناء السؤال، فأنا أقول لك السبب، وهو أن جميع اللواتي قابلتهن، وكلفت نفسك مشقة الاستماع إلى قصصهن وما جرى بيننا في غرف النوم ... كلهن كنّ سطحيات وتافهات، ولم أجد بينهن من تشبع عواطفي وأحاسيسي، وتملأ هذا الفراغ المخيف في قلبي ... ففكرت أنكِ أنتِ الوحيدة التي ستخلصني من هذا الضياع والتوهان والحيرة ، والتي ستنقذني من هذا العذاب والجري والتمزق ؛ ولكن للأسف الشديد، وجدتك أكثر منهن ضحالة وأعمق منهن غباءً !
وهنا أعطيتها ظهري، وتوجهت إلى الباب ففتحته وخرجت ثم صفقته بعدي، دون أن أقول كلمة وداع...!
غادرت شقة سالي وأنا أشتعل غضباً وسخطاً، وبي إحباط وتمزق تجاوزا حدود اليأس والضياع ! كنت حزمة من العواطف المكبوتة المسحوقة !

*****

الفصـل التاســع عشـــــر

عندما أوقفت سيارتي بالشارع أمام سكني، تفاجأت بوجود سيارة ألكسس تقف غير بعيدة مني. أطفأت أنوار السيارة، وأوقفت ماتورها، وتوقعت أن تهرع ألكسس نحوي، ولما لم تفعل، قلت لا بد وأن تكون جالسة أمام باب شقتي تنتظرني؛ ولكن عندما اقتربت من سيارتها في طريقي إلى شقتي، لاحظت على ضوء الشارع إنسانا ممدداً على مقعد

السيارة الخلفي، وعندما دققت النظر به، هالني وأحرق دمي ما رأيت... فقد وجدت ألكسس مكورة جسمها ونائمة فوقه ! حاولت فتح باب السيارة، ولكنه كان مغلقاً من الداخل ! صرت أطرق على زجاج النافذة طرقات متواصلة ، خفيفة أول الأمر، ثم شديدة بعد ذلك حتى استيقظت ... فركت عينيها بظهر يديها، وهي ما زالت تحت تأثير النعاس الشديد. وعندما رأتني قفزت جالسة، وبسرعة فائقة فتحت الباب، وألقت بنفسها على صدري فتعانقنا بشوق ولهفة عظيمين ! صارت تقبلني بحرارة ونهم على شفتي وخدي وأذني وجبيني وعنقي وشعري، وعلى كل مكان تصل إليه شفتاها... وكنت أنا أفعل الشيء نفسه، فقد أحسست نحوها بعاطفة ملتهبة محمومة ، لم أشعر مثلها من قبل الليلة... عاطفة عاشق متيم على وشك أن يفقد محبوبته إلى الأبد ! كنت أقبلها وأضمها إلى صدري بإحساس من يشعر بالوحدة والضياع والخوف... ثم انفجرت تبكي وهي ما زالت مستمرة في عناقي وتقبيلي.

- كم الساعة الآن ؟ سألت وهي بين النوم واليقظة.

- إنها الثانية عشرة وخمسين دقيقة ! قلت بعد أن نظرت إلى ساعتي.

- ياه ... ! لقد صار لي أكثر من ساعة نائمة ... لقد تأخرت عليّ كثيراً يا داشو ! انتظرت عودتك داخل السيارة، ولما لم تأت شعرت بنعاس شديد، فاستلقيت على الكرسي الخلفي، ويبدو أنني استغرقت في نوم عميق !

- ولكن لم تنامين في السيارة ؟! وما الذي يجبرك على فعل هذا؟! ألا تخافين أن يؤذيك أحدهم ؟ سألت بلهفة وقلق صادقين.

- منذ الساعة الثامنة وأنا أهاتفك، وحوالي العاشرة أتيت وانتظرت هنا في الشارع بعض الوقت؛ انصرفت ثم عدت ثانية في حدود الساعة الحادية عشرة، ولما لم أجدك، قلت لا بد وأن تكون في شقة مارينا هارتمان... فتشت في جميع الشوارع المحيطة بشقتها، فلم أعثر على سيارتك، فقلت لا بد وأنك تركتها في مكان بعيد حتى لا أراها ! سامحني يا حبيبي... صعدت إلى شقتها وادعيت بأنني جئت لأحدثها عن "رافيق"، فسخرت مني... قالت بأنها لن تسمح لذلك النتن أن يعود إليها ! غضبت منها وشتمتها، فردت هي شتيمتي ! قالت ألكسس بنغمة حزينة مزقت نياط قلبي، فشعرت كأنما اقترفت ذنوب العالم بحقها !

قلت وعاطفة محرقة تأكل داخلي:

- ولكن لم كل هذا الاستفزاز يا حبيبتي ؟! ولماذا تذهبين إلى شقتها في ساعة متأخرة من الليل ؟ وهل أنت مهتمة بأمر رفيق إلى هذا الحد ؟!

- في الحقيقة لا. ولكنني اتخذت من ذلك ذريعة ! لقد فكرت أنك ربما تكون عندها، ولما لم أجدك، أفرغت سموم غضبي عليها، لأنني رأيتها تركب معك بالسيارة وتأتي إلى شقتك أيام غضبك مني !

- أذكر تلك الحادثة جيداً ! إن مارينا لا تعني شيئاً بالنسبة لي. صدقيني. إنها مجرد فتاة أعرفها كغيرها من الفتيات الكثيرات... مجرد معرفة عابرة... أنا أحبك يا ألكسس ! أحبك أنت وحدك !

- صحيح يا داشو؟! إذن لماذا تذهب وحدك وتتركني أتعذب ؟! ومع من كنت الليلة ؟

- لو تعرفين أين كنت الليلة، ومع من، فهل تهدئين ؟

- نعم. أرجوك قل لي. أحب أن أعرف.

- ولكنك ستندمين على سؤالك!
- أرجوك، قل لي وأرح قلبي ! إن الغيرة تأكل أحشائي !
- كنت في مقر "المركز الإسلامي" في مدينة لوس أنجلوس. اليوم يصادف العيد في بلادنا... عيد الفطر... لهذا العيد طقوسه الدينية، نجتمع ونهنئ بعضنا بهذه المناسبة المهمة، ثم نأكل طعاماً خاصاً. إنه نوعاً ما مثل عيد ميلاد السيد المسيح عندكم "الكرسماس".

في الحقيقة إن منظرها آلمني وأحزنني، فقد أحسست بأنني أتمزق بل أحترق ندماً على تصرفاتي المشينة والخالية من الشرف والرجولة معها ! كنت أريد أن أطلق نفسي من بين ذراعيها، وأن أطامن بجسمي حتى يصل إلى الأرض، وعلى رصيف الشارع، أجثو عند قدميها وأطلب منها المسامحة والغفران، وأن لا أنهض حتى تمنحني عفوها ! كنت أريد أن أقول لها؛ بأنني لم أكن الليلة بالمركز الإسلامي كما ادعيت؛ وأنني كنت الليلة عند سالي إركسون، وأنني صرّحت لها بحبي، وطلبت إليها أن تتزوجني، ولكنها رفضت طلبي مدعية بأنني قد أكون مؤهلاً لأن أكون أي شيء... نعم أي شيء... عاشق... حبيب... أستاذ... صديق... مغامر... ولكن ليس زوجاً، لأن الزواج التزام ومسؤولية، وأنا أكره الالتزام والمسؤولية العاطفية...! أنا إنسان غير قادر على تحمل مسؤوليات الإخلاص والوفاء بالحب .اللعنة ... اللعنة ... !

- ولماذا لم تأخذني معك ؟ هل تخجل مني ؟ سألت بعتاب ولكن بخاطر مكسور.
- وهل من المعقول أن آخذك معي يا حبيبتي ؟! وكيف أقدمك لبني قومي؟! كطالبتي الصغيرة ؟ كحبيبتي ؟ ماذا ؟ سيكون الموقف محرجاً جداً لي، وأفقد هيبتي واحترامي أمامهم، وخصوصاً وأنا عضو فاعل في المركز !
- معك حق ! يا لي من سيئة الظن. كثيرة الشكوك ! ولكن لماذا لم تخبرني مسبقاً حتى لا أقلق ؟

شعرت بأنني نذل... أفّاق... كذاب... مخادع...! احتقرت نفسي، ولكنني قلت :

- في الحقيقة إنني نسيت ! كان يجب أن أخبرك ! سامحيني يا حبيبتي ! لن أفعلها مرة أخرى.
- لو تتصور كم قاسيت وتعذبت... كنت أتصورك بأحضان مارينا، فأحس أن نيراناً تشتعل في داخلي وتلتهم جوفي، فأصرخ من الألم والغيرة ... !
- كان يجب أن أعطيك مفتاح شقتي ! قلت هذه المرة صادقاً.
- يا حبذا ! هل حقاً ستفعل يا داشو ؟ سألت بفرح وهي تحاول أن تتخلص من الكآبة المستبدة بها !
- نعم سأفعل، ومنذ الآن ! قلت وناولتها حزمة المفاتيح.
- شكراً ! شكراً ! يا حبيبي. قالت ذلك وهجمت عليّ تعانقني من جديد.
- إنني كثيراً ما أتساءل يا ألكسس، إن كنت حقاً أستحقك... وأستحق هذا الحب العظيم الذي تمنحينني إياه ! قلت صادقاً وقد اغرورقت عيناي بالدموع.
- داشو! لا تقل ذلك يا حبيبي ! أنت تستحق أكثر من ذلك ! ألا تحبني مثلما أحبك ؟!

- طبعاً يا ألكسس ! طبعاً...! ولكنني أشعر أحيانا أن حبي لك يتضاءل بل يتلاشى أمام حبك الكبير العظيم، فأحس أنني لا أستحقك ! قلت ذلك، وأحنيت قامتي قليلاً، فحملتها بين يدي كطفلة صغيرة، ورفعتها عن الأرض، وسرت باتجاه مدخل العمارة !

- داشو حبيبي ! ماذا تعمل ؟ ولم تفعل ذلك ؟! سألت بعد أن لفّت ذراعيها حول رقبتي متعلقة بها، وقد انفجرت تضحك بحبور ومتعة.

- أريد أن أدخل الشقة وأنا أحملك بين يدي كطفلة صغيرة... أنت طفلتي الصغيرة المدللة... لا أريدك أن تمشي على الأرض... أريد أن أقضي عمري كله حاملاً إياك بين يدي... أنا أحبك يا ألكسس ! أحبكِ بجنون ... !

- داشو ! قل لي ما الذي حدث الليلة حتى تفجرت عواطفك نحوي على غير عادتك !

- لا شيء... لا شيء البتة... لم يحدث الليلة شيء... فقط افتقدتك بجنون... الليلة فقط أدركت كم أحبك، وكم أنا بحاجة إلى هذا الحب ! إننا أحيانا عمي الأبصار والبصائر يا ألكسس ! لا ندرك عظم النعمة التي نتمتع بها... أنت نعمة أرسلها الخالق لي...!

- كم أنا سعيدة يا حبيبي ! أريدك أن تحبني دائماً هكذا ! قالت ذلك وبدأت تعانقني وتقبل كل مكان في جسمي تقع عليه شفتاها ! شعري... وجهي... عنقي... صدري...!

- حزمة المفاتيح معك، إفتحي الباب. قلت ونحن نقف أمام باب العمارة.

- أنزلني على الأرض حتى أفعل ذلك ! قالت وهي ما زالت تضحك.

- قلت لك سأبقى حاملاً لك حتى تدخلي الشقة، ولن أدع قدميك الجميلتين تمسان الأرض !

- آه داشو ! أنا سعيدة جداً. إنني أطير من الفرح ! قالت وهي تدس المفتاح بدرباس الباب.

- أريد أن أكفّر عن خطاياي نحوك ! لقد أهملتك كثيراً يا ألكسس ! لقد كنت مصاباً بعمى البصيرة، فلم أكن مدركاً لضخامة الحب والحنان والتفاني التي تمنحينني إياها. قلت شبه صادق.

دخلنا باب العمارة، وبدأت أصعد الدرج وألكسس تقطع ضحكاتها لتغمرني بقبلاتها وعناقها !

- داشو ! إن ما تفعله معي، يفعله الزوج لزوجته في أول يوم يعودان به من شهر العسل؛ فهل يعني هذا عرضاً منك للزواج بي ؟ سألت بفرحة غامرة.

- ألكسس ! أنت تعرفين أن التحدث في هذا الموضوع يثير غضبي، لأنه سابق لأوانه، فلا تفسدي لحظات الانسجام التي نحن نستمتع بها. إنني فقط أشعر برغبة قوية أن أحملك وأن تجتازي عتبة الشقة محمولة على يدي كالعروس، إذ إنه يمنحني سعادة هائلة ! قلت بشيء من الحدة والعصبية.

- كما تشاء يا حبيبي ! آسفة جداً لا تغضب ! وهجمت عليّ من جديد تقبلني بشوق وحرارة أكثر من قبل!

وضعتها فوق الفراش، وألقيت بنفسي إلى جانبها... بكامل ملابسنا باستثناء الأحذية. أغمضت عيني قهراً وغماً، وصرت أفكر بما حدث الليلة مع سالي، وبردها الرافض والجارح الذي أعطته لي عندما عرضت عليها الزواج ! كانت ألكسس تداعب بيدها اليمنى

بحنان ورومانسية شعر رأسي، وكنت أحس بلذة غامرة وسعادة ربانية، على الرغم من أن عقلي كان هناك، مع سالي !

- إذا كنت قد افتقدتني حقاً، ومشتاقاً إلي، فلماذا تبقى بعيداً عني ولا تأتي لزيارتي ؟! أحب كثيراً أن تزورني. قالت ألكسس بعد مضي بعض الوقت.

قطع سؤالها الغريب عليّ حبل أفكاري. فقلت:

- عدم زيارتي لك في سكنك، هو أنك تستطيعين أن تأتي إلى شقتي في أي وقت تشائين !

- أنا أعني زيارتي هنا... الآن ! قالت ذلك وسحبتني من رأسي بلطف نحوها.

فتحت عيني، وعلى انعكاس ضوء الصالة، لاحظت أن ألكسس كانت عارية تماماً ! نهضت من جانبها، فألقيت بنفسي فوقها، وأنا ما زلت مرتدياً كامل ملابسي، ووضعت وجهي على صدرها ورأسي بين نهديها... لم تكن بي أدنى رغبة لممارسة الجنس معها ولا حتى لتقبيلها... أغمضت عيني من جديد، وهدأت على صدرها، فلم تحاول هي حتى على عمل شيء، واكتفت بأن صارت تملس على شعري بيديها الاثنتين.

انقضت فترة صمت ليست بالقصيرة، انتفضتْ فجأة، ورفعتْ رأسي بيدها اليسرى، وباليمنى صارت تتحسس مكان وجهي على صدرها وبين نهديها !

- داشو ! حبيبي ! ماذا تفعل؟ تبكي...! ما الذي حدث ؟ قل لي... ماذا يبكيك ؟! إن دموعك كقطع من الجمر المتقد قد أحرقت صدري ! أرجوك قل لي ! هناك شيء حدث الليلة... لا بد وأنك تخبئ عني شيئاً ! قلبي يقول ذلك ! كانت أسئلتها تخرج من فمها منفعلة... قلقة... متتالية. ولما لم أقل شيئاً، قالت:

- هل سمعت أخبارا سيئة من الوطن ؟ ماذا حدث ؟ هل حدث مكروه لوالدتك، لإخواتك، لأخواتك ؟ قل لي أرجوك لقد أقلقتني عليك ! أستطيع أن أساعدك، أسرّي عنك.

لا شك أن أسئلتها قد أثارت كوامن قلبي، وفجرّت العواطف المتراكمة والمكبوتة في داخلي، فصرت أصرخ بهستيريا أقلقت المسكينة وحيرتها.

- لا تبك يا حبيبي ! أنا هنا ! أنا معك ! أنا إلى جانبك ولن أتركك، لن أتخلى عنك أبدا ! حياتي كلها لك ! أنا كلي لك ! أرجوك لا تبك... أنا أحبك... أنا أعبدك... إنك تمزق قلبي...!

كانت ألكسس تتكلم كإنسان أصابته حمى شديدة، وقد بلغ التأثر والقلق والرعب منها شأواً عظيماً !

- داشو! حبيبي ! جبينك يشتعل كنار موقدة ! لا شك أن بك حمى شديدة !

- كلكن هكذا يا ألكسس؛ لا تفهمن ! تدعين المعرفة بكل شيء، ولغة العواطف والمشاعر تقسنها بقياس المنطق ... ماذا يجب وماذا لا يجب ! وكأنما العواطف تخضع للغة المنطق وما يجوز وما لا يجوز !

- داشو ! حبيبي ! لقد ذهبت بعيداً... بعيداً جداً ! يبدو أن الحمى أثرت على عقلك ! لسانك يهذي ! لقد أقلقتني عليك. قل لي ما بك ! سألت وهي ترتجف رعباً وقلقاً.

- لقد أحسست الليلة بشوق عنيف إلى الأهل، وحنين جارف إلى الوطن ! قلت من بين نهنهاتي وتشنجاتي.

- لم أكن أتصور أن مرض الحنين إلى الوطن، والشوق إلى الأهل، يمكن أن يسبب حمى وهذياناً لصاحبه ! قالت وقد بدأ يفارقها بعض من قلقها وخوفها.

وهنا نهضتْ... وبسرعة دخلتْ الحمام، فوصل إلى أذني صوت الماء الغزير المتدفق يسقط في "البانيو"؛ ثم عادت وأنهضتني من على الفراش... وصارت تساعدني في نزع ملابسي؛ بعدها قادتني ووضعتني في "البانيو"، تماماً كما تفعل أم مع صغيرها ! تمددتُ في الماء الدافئ، وصارت تملأ يديها، بعد أن عملت منهما كوزاً تغرف به الماء، وترشه فوقي؛ بعدها تناولت الليفة وصارت تفرك بها جسمي بعد أن أغرقتها بالسائل الصابوني. فعلتها أسعدتني كثيراً، وأزالت بعض الهموم عن نفسي، فقلت :

- تعالي يا ألكسس، واجلسي خلفي، ودعيني أضع رأسي المتعب على صدرك ! قلت وقد تقدمت بجسمي إلى الطرف الآخر من "البانيو" لأفسح لها مكاناً ! وقبل أن أكمل جملتي، كانت قد قفزت إلى "البانيو"، ولفت ساقيها حول وسطي، وأسندت رأسي على صدرها وبين نهديها، وصارت تلعب بشعري تارة، وتفرك جسمي تارة أخرى.

- ما أسعدني بك يا ألكسس ! أنت درة ثمينة منحها الخالق لي ! قلت وقد صرت أداعب خديها بيدي دون أن أنظر إليها. توقفت هي عن مداعبة شعري وفرك جسمي، ووضعت يديها على خدي وصارت تمرّ فوقهما، وتفعل تماماً كما كنت أفعل أنا لخديها.

- داشو ! لقد صار لي عدة أيام أفكر... لقد فكرت طويلاً... وأخيرا اهتديت إلى حل... يا حبذا لو توافقني عليه ! كانت ألكسس تتكلم ببطء، وبصوت هادئ منخفض، ويداها ما زالتا تداعبان وجهي وأذني؛ وكأنما كانت تحلم ! ولما لم أقل شيئاً، تابعت كلامها:

- لقد ذكرت أمامي مراراً، بأنك تفكر يوماً بأن تذهب إلى مدينة "كارميل " وتعيش فيها؛ لأنها مكان مميز ورائع للكتاب والفنانين. وقلت أيضا بأن عندك أفكاراً للعديد من الروايات، وأنك لكي تكتبها تحتاج إلى مكان هادئ، وتحب أن تتخذ من كارميل مكاناً لكتابة هذه الروايات.

- نعم. هذا صحيح ! إن هذه الأمنية الغالية ما زالت تداعب خيالي وتستبد بوجداني، وآمل أن أحققها يوماً ما ، إن شاء الله ! قلت بحماس صادق.

- وهل تحب أن تحقق هذه الأمنية الآن ؟ قالت وأصابعها ما زالت تداعب خدي.

- لا أفهم ماذا تعنين ؟ سألت وقد توقفت عن مداعبة خديها.

- أعني لو توفرت لك الإمكانيات المادية، فهل تنفذ هذه الفكرة في الحال ؟ سألت وقد توقفت عن مداعبة وجهي.

- ماذا تريدين أن تقولي بالضبط يا ألكسس؟ ! سألت باهتمام وشوق معاً.

- أريد أن أقول؛ لماذا لا تبدأ بتنفيذ فكرتك من الآن ؟ لماذا تنتظر إلى المستقبل ؟!

ضحكت طويلاً وقلت:

- ما أجملك يا ألكسس، وما أجرأ أفكارك ! كم أحبك ! تعالي واجلسي أمامي، واسندي ظهرك إلى صدري، ودعيني أقبل عنقك وأذنيك وشعرك ! وقبل أن أنهي جملتي كانت الشقية قد ألقت بجسمها في حضني... والتصقت بي حتى أحسست كأنما أصبحنا نحن الاثنين قطعة واحدة. وبعد أن لففت يدي حول خصرها قلت:

- تعرفين إن تحقيق هذه الفكرة يعني أن أستقيل من الجامعة. صحيح أنني أستطيع أن أعمل في معهد اللغات بمدينة" مونتري "المجاورة لكارميل، التابع للجيش الأميركي. وكما أخبرتك في حينها، فإن رئيس قسم اللغة العربية، والذي هو عراقي، قد عرض عليّ وظيفة أستاذ لغة عربية براتب ضعفي راتبي بالجامعة، ولكن إذا كان ولا بد من العمل، فالتدريس بالجامعة أفضل بكثير من العمل في مكان آخر.

- أنا لا أعني أن تعمل إطلاقا ! أريدك أن تتفرغ فقط للكتابة... تكتب طوال اليوم ولا تعمل شيئاً غير الكتابة ! ثم قفزت واقفة بعد أن خلصت نفسها من بين يدي وواجهتني:

- وتتفرغ لحبي أيضا ! قالت ذلك وأطبقت بشفتيها على شفتي كأنما تريد أكلهما !

- إذا تفرغت للكتابة ولم أعمل، فكيف أواجه مصاريف مدينة كارميل الباهظة الباذخة ؟ لكي أحصل على مبلغ شهري يكفي مصاريفنا، فلا بد من أن يكون عندي رواية جاهزة للنشر، وتعرفين أن المنافسة على النشر هنا شديدة، وأنا كاتب غير معروف بعد ! قلت وأنا أبعدها عني بلطف ورقة.

- لقد قلت لي، إنه لا يهمك النشر كثيراً، بقدر ما يهمك أن تكتب ما برأسك من أفكار ! إنك تكتب لأنك تشعر بالزهو، وإن الكتابة تعطيك إشباعا وسعادة... تمنحك الرضا عن نفسك...

- هذا صحيح يا حبيبتي ! ولكن مشكلة الحصول على المصروف الشهري ما زالت قائمة !

ترددت ألكسس في الإجابة، وحوّلت عينيها عن وجهي؛ إذ لعلها كانت خجلى أو خائفة مما تريد قوله، وصارت تنظر إلى صدري، وتعبث بيديها بشعراته السوداء الكثيفة.

- إن لي أرصدة كثيرة في البنك، وعندي دخل كبير كل شهر من عقارات ومستندات وأسهم؛ فما رأيك أن نذهب ونشتري بيتاً في تلال كارميل، وتتفرغ للكتابة ؟ أسجل البيت باسمينا أو باسمك وحدك إن أحببت !

كنت وهي تتكلم أحدق بوجهها وأتأمل التغييرات والانفعالات التي تعلوه، ثم أنقل طرفي وأتأمل العنق الأتلع والصدر الواسع، والنهدين اللذين يتراقصان فوقه، فأتذكر الخالق ونعمه عليّ، بأن منحني كل هذا الجمال، وكل طيبة القلب هذه، وكل هذه النعومة والرقة والحنان الأنثوي؛ وأسأل نفسي، هل حقاً أنا أستحق كل هذا ؟ نعم... قد تكون أدعية الوالدة التي لا تنقطع هي التي أرسلت لي ألكسس، فلم لا أقنع ؟ ولم هذا التوحش والتغول بالعواطف والمشاعر ؟! ولم هذا الجنون بالجنس وتحطيم القلوب ؟ اللعنة ! اللعنة ! اللعنة على الشرق وعلى أهله وعاداته ومعتقداته ! اللعنة على الشيخ عبد الحليم والشيخ عفيف ومعهم الشيخ نايف أيضا، وجميع الذين درسوني مادة علوم الدين، والذين زرعوا الخواء في قلوبنا وعواطفنا وأحاسيسنا ! حرام ! لقد دمروا تفكيرنا ومعتقداتنا، وحملونا وزر خطيئة أبينا آدم وأمنا حواء ! كل شيء حرام... النظرة إلى المرأة... الكلمة... الابتسامة... مجرد التفكير بالمرأة يرسل بصاحبه إلى جهنم ! عليكم اللعنة كلكم ! والله إن حمم جهنم وسعيرها لأرأف بنا من كلماتكم وأفكاركم ... ! أنتم يا حطباً لجهنم ويا وقوداً لها ! لقد عذبتمونا ودمرتم حياتنا فأتعستمونا؛وبقيت كلماتكم لعنات وسياط عذاب تجلد نفوسنا وتطاردنا، حتى ونحن في بلاد الغربة... فسحقاً لكم !!!

ولما لم أعلق استرسلت:

- سألقم أنا الكمبيوتر ما تكتب، إننا حتى لسنا بحاجة لأن نبحث عن ناشر ليقوم بنشرها. إن عندنا النقود الكافية لنشرها على حسابنا، أنت وأنا ! ما فائدة النقود بالبنوك مكدسة إذا لم تجلب السعادة لنا وللذين نحب ؟ وسأتفرغ لخدمتك والسهر على راحتك ! سأطبخ لك، وسأطعمك بيدي هاتين، وسأغسل وأكوي ملابسك... سأحممك وأضعك بالفراش كالطفل الصغير... سأعمل لك مساجاً وأقلم أظافر يديك وقدميك... سأمشط لك شعرك... سأشتري لك كل حاجياتك...سأكون رهن إشارتك وأنفذ كل طلباتك ... !

- ألكسس يا حبيبتي ! أنا والله متأكد مما تقولين، وواثق أنك ستفعلين كل ما قلت، بل وأكثر، عن حب وإخلاص وإيمان. ولكن صدقيني إنني لا أستحق كل هذا منك أولا، ولا أقبله ثانياً. قلت وقد هيّجت أقوالها أحاسيسي ومشاعري حتى كدت أن أبكي أمامها تأثراً.

- ولماذا ؟ ولمَ ؟ وكيف ؟ أعني كيف تقول بأنك لا تستحقه وأنك ترفضه ؟ قالت بانزعاج وخيبة شديدين، إذ لعلها لم تكن تتوقع مني الرفض، بل وربما كانت متأكدة من القبول.

- لأن تربيتي ورجولتي وكبريائي، ترفض أن تعيلني امرأة ! قلت بفخر جاهلي وتفاخر قبلي !

- عندنا لا فرق بين الرجل والمرأة... الذي معه يدفع ! أنا أحبك وسعيدة معك، وأريدك أن تحقق طموحاتك وأحلامك ... ومعي نقود كثيرة؛ فلم النقود إذا لم أصرفها على نفسي وعلى من أحب ؟!

- إن عاداتنا الشرقية تعيب علينا أن نعيش من نقود نسائنا ! نحن الذين يجب أن نعيشهن. إن هذا ضد رجولتنا... ضد كبريائنا... إهانة لكرامتنا...! لو كنت أنا صاحب النقود، وكنتِ أنتِ التي تريدين أن تتفرغي للكتابة، فإنه يسعدني أن أصرف نقودي عليك حتى تحققي طموحاتك وأحلامك، وتشبعي ميولك الأدبية ورغباتك الفنية ! قلت ببطء وتروٍ، وكأنما ألقي محاضرة أقنع بها طلابي، لأوصل معلومة إلى عقولهم .

- أنت في أميركا، فأنت أميركي؛ وتفكيرك يجب أن يكون أميركيا! ولا عيب في عمل ذلك في المجتمع الأميركي ! قالت وانتصبت واقفة، وقد تطّوح نهداها من شدة الانفعال.

- ولكن دمي وتفكيري ومعتقداتي كلها عربية، وستظل هكذا ولو عشت العمر كله في أميركا !

- اعتبرها إذن ديناً عليك، وستسددها لي بعد أن تبيع رواياتك ؟ قالت بقهر.

- قد لا تلقى رواياتي رواجاً، عندها لا أستطيع تسديد ديونك. فكيف أعيش مع ضميري ؟!

- أنا أحبك... إن ما عندي هو لك. أنا منحتك عقلي وقلبي وعواطفي وكل أحاسيسي، وكياني وكل وجودي، ومنحتك جسدي أيضاً... فقبلتها كلها... أليست هذه أثمن من النقود ؟ !

- إنها أثمن كثيراً... ولكن لا أدري لماذا يقبل عقلي أخذ أولئك ويرفض قبول هؤلاء ! لعله التفكير القبلي المتجذر في اعماقي ؟! اللعنة !

- إنه تفكير غريب ! تفكير عقيم! أعذرني إن قلت إنه تفكير متخلف ! إنني أعتبر أن حبي وقلبي وأحاسيسي وجسمي كلها مقدسة ! إنها قدس الأقداس عندي... هل تفهم ! لقد

منحتها كلها لك عن طيبة خاطر، ولكنك ترفض ما أعتبره أنا تافهاً لا قيمة له. ثم فجأة برقت عيناها كأنما تذكرت شيئاً.

- إذا كانت فكرة توقيع عقد زواج مني تزعجك، ولا تحب أن تلزم نفسك بها، فسنعيش معاً كأصدقاء، وأحللك من أي التزام نحوي مهما كان نوعه ! أنا لا أريد منك شيئاً ! هل تفهم ؟! لا أريد شيئاً إطلاقا...! أريد فقط أن أكون قريبة منك وأحبك. أنت حياتي يا داشو ! أرجوك صدقني ! أنا لا أستطيع أن أعيش بدونك وبدون حبك !

- وأنا أحبك أيضا يا ألكسس ! ولكنني لا يمكن أن آخذ منك دولاراً واحداً ! لذلك لا تجادلي في هذا الموضوع، وأرى أن لا نتكلم عنه بعد اليوم.

- إذن، دعني أرحل وأسكن معك ! أريد أن أظل قريبة منك ! سأظل في غاية القلق حتى أنتقل إلى هنا ! حبيبي داشو ! قل لي نعم. أريد أن أحضر ملابسي وكتبي وكل حاجياتي وأستقر هنا... عندها تهدأ أعصابي وأشعر بالأمان، وأستطيع أن أركز على دراستي وخدمتك.

- ألكسس ! طلبك مستحيل يا حبيبتي ! أنت تلميذتي، وطالبة صغيرة. كيف تسكنين في شقتي ؟! ستكون فضيحة... كيف أواجه زملائي والمسؤولين في الجامعة ؟

انفجرت تبكي بصوت عال وبحرقة موجعة، مزقت قلبي وأدمت ضميري، ومن بين نشيجها وتشنجاتها صارت تصرخ بهستيريا مفزعة مقلقة وتردد:

- سأترك الجامعة. أنا لا أريد أن أكون طالبة إذا كان ذلك يسبب لك الحرج. سأقلع عن فكرة مواصلة تعليمي إلى الأبد. لا أريد أن أتعلم... أريدك أنت... هل تفهمني ؟! أريدك أنت... أنا لا أستطيع أن أعيش بدونك! أرجوك أفهمني. سأجن... سأنتحر... أنت حياتي...!

- دعيني أفكر بحل... بطريقة ألبي بها طلبك، دون المساس بسمعتي كأستاذ يعيش مع طالبته الصغيرة...

قلت هذا ونهضت وتناولت منشفة كبيرة كانت معلقة غير بعيدة عنا، ولففتها بها، ونشفت لها شعرها وكل جسمها، ثم جففت نفسي، ودخلنا غرفة النوم، فلاحظت أن الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً بقليل؛ فرفعت الغطاء وأرقدتها ورقدت إلى جانبها، بعد أن وسدتها ذراعي اليسرى، ولففت يدي اليمنى حول وسطها وشددتها إلى جسمي، فأحسست بأنفاسها اللاهثة تخترق مسامات صدري، والتصقت هي بي كقطة تنشد الدفء في الليالي الثلجية العاتية ...!

*****

لم تكن هناك مشكلة بإقناع ألكسس بالخروج دون اصطحابها معي، فلقد أعلمتها بأن احتفالاتنا بالعيد تدوم ثلاث ليال متتالية، وإن كانت الليلتان الأخيرتان تنتهيان مبكرتين، أي حوالي الساعة العاشرة مساء. لقد فكرت بأن غيبتي لن تستغرق أكثر من أربع ساعات، وأنني لا بد وأن أكون قد عدت إلى شقتي في الساعة العاشرة.

- إذن، سأقتل وقت بُعدك عني بدراسة ما فاتني من محاضرات، وعندما تعود سنخرج ونسهر في أي مكان تريد. قالت وهي تتعلق برقبتي وتقبلني على جبيني.

- ممتاز ! سأهاتفك حالما أعود من أداء الواجب، وسيكون بحدود العاشرة. سأستأذن إن تأخر القوم بالانصراف، فأنا غير ملزم أن أبقى حتى ينصرف آخر المدعوين، قلت بأدب ورقة مبالغ بهما.

- حاول أن لا تتأخر عليّ يا داشو. أشعر بالضياع بعيدة عنك. سأظل أرقب الساعة حتى أسمع صوتك على الهاتف. قالت الصبية بلهجة حزينة ، أحرقت دمي ... !

- وأنا كذلك يا حبيبتي. لو استطعت أن أستأذن الساعة الثامنة لفعلت.

قلت هذه المرة وقد شعرت أنني أقولها صادقاً؛ بل حقاً تمنيت لو أنني غير ملتزم بالذهاب ! بل أكثر من ذلك، تمنيت لو أنني أستطيع أن أعتذر !

- هل يوجد بنات عربيات في الاحتفال ؟ وهل هنّ جميلات ؟

- طبعاً يا حبيبتي. يوجد فتيات وشباب وعجائز أيضاً. وطبعاً فيهن جميلات، ولكنهن لسن بجمالك. أنت في نظري أجمل وأرق وأدفأ فتاة في الوجود، وأنا لا أرى أنثى إلا أنت، وليست هناك حواء تشبع عواطفي وتملأ علي حياتي إلا أنت يا ألكسس، يا بنت إستفني، ويا حفيدة إليانور.

وبعد أن كركرت طويلاً، وقد أضاء وجهها واحمرّت وجنتاها، قالت:

- وهل يأتين ويتكلمن معك، ويدعونك لتخرج معهن ؟ قل لي يا داشو الصدق.

- لمّا يفعلن ذلك بعد. وحتى إن فعلن، فلن أقبل دعوتهن لأن قلبي مملوء بحب فتاة اسمها ألكسس. قلت ذلك وحملتها ورفعتها إلى فوق، ثم قبلتها وأنزلتها إلى الأرض، بينما هي تكركر، وتتراقص بساقيها بين يدي.

- شكراً يا داشو ! أنت أوفى حبيب في الدنيا. ما أسعدني بحبك ! أنا لا شك كنت إنسانة محظوظة عندما فكرت أن أترك بلدتي "سفيرفل" في ولاية تنسي وآتي إلى كاليفورنيا.

- كاليفورنيا وأنا محظوظان لأنك أتيت إلينا، وكان يجب أن نذهب نحن الاثنين نفتش عنك حتى نجدك، وندعوك، بل نرجوك ونلح في الرجاء حتى تقبلي وتوافقي على الحضور.

وفجأة صاحت ألكسس بلهجة صدق وعواطف مندلعة، وقد هجمت عليّ من جديد تعانقني وتقبلني بطريقة إنسان فقد السيطرة على عواطفه وتصرفاته، وهي تقول:

- داشو ! حبيبي ! أنا سعيدة... سعيدة... سعيدة ! أنا لا أستطيع أن أتعايش مع كل هذه السعادة !

- انتظري حتى أتفرغ لحبك، وعندها ستجدين أن سعادتك الحالية هي قطرة من غيث، مقارنة مع السعادة التي تنتظرك. قلت ذلك وقبلتها على شفتيها قبلة خاطفة.

- لا شك أن الضيوف والمهنئين بالعيد ينتظرونني الآن ! إلى اللقاء يا حبيبتي حتى لا أتأخر عن موعدي.

- مع السلامة يا داشو. لا تتأخر عليّ. وقبلت رؤوس أصابعها قبلة طوحت بها في الهواء.

خرجنا وأغلقنا باب الشقة خلفنا، نزلنا الدرج، وتوجه كل إلى سيارته.

*****

الفصـــل العشـــرون

كنت أقف خلف باب شقة سالي، في تمام الساعة السادسة، وكنت متردداً هيّاباً وجلاً لأن أضرب جرس الباب. كنت أخشى أن ترفض استقبالي، بعد إهانتي لها الليلة الماضية، وكنت أتوقع أن التي ستفتح الباب هي أمها، وربما يكون رضوان. بل لقد ذهب بي التفكير أبعد من ذلك، بأنها لن ترافقنا إلى المطعم، متعللة بأي عذر تختلقه. ولكن لشدة دهشتي فإن سالي هي التي فتحت الباب، وكان وجهها يطفح سعادة وحبوراً، بل لقد أحسست أن كل جسمها يرقص طرباً. كانت ترتدي فستاناً جديداً وجذاباً، مفتوحاً من الجنب، يغطي جسمها حتى القدمين، واسع فتحة الصدر يكشف عن أعلى النهدين وذو أكمام قصيرة.

- أهلا وسهلاً يا بروفيسور دهشان. تشرفنا. كيف كان يومك؟ الماما ورضوان يجلسان على الفرندة، نحن بانتظارك. قالت وهي تغلق الباب خلفنا.

- متى تنوون المغادرة ؟ سألت بلهجة رسمية وأنا أضع تكشيرة كبيرة وصارمة فوق وجهي.

- أهلا وسهلاً يا بني. هل تحب أن تتناول فنجاناً من القهوة أو الشاي قبل أن نترك، أم تريدنا أن نغادر الآن ؟ سمعت السيدة نورما ترحب بي ووجهها هي الأخرى يطفح حبوراً، وهي مقبلة نحوي من الطرف الآخر من الصالة.

- نقول في الوطن "الضيف أسير المعزّب" وأنا رهن إشارتك. سأشرب ما تقدمين لي. وقبل أن أسمع جواباً، واصلت حديثي مع رضوان بالعربية:

- مرحباً يا أستاذ رضوان. كيف حالك ؟ أنا حزنت كثيراً لعدم استطاعتك حضور العشاء الليلة الماضية.

- كم أحب أمثالكم القومية ! إنها جميلة تعبّر عن شعور شعب طيب مضياف. قبل حضورك كان السيد رضوان يترجم لي بعض الأقوال المأثورة عندكم. قالت السيدة نورما وهي تبتسم ابتسامة دافئة.

- لقد أعلمتني السيدة إركسون وسالي أنك كنت متأثراً لغيابي عن العشاء، كما علمت أنه كان عشاء لذيذاً وأنكم أمضيتم وقتاً ممتعاً. ولكن صدقني إنني حاولت كثيراً أن أكون معكم، غير أنني لم أستطع. على كل حال ها أنا معكم الليلة، وسنكون غداً معاً أيضا، إن شاء الله. قال رضوان بالعربية.

- ارتح قليلاً وسأعمل لك فنجان شاي يا بروفيسور دهشان. قالت سالي بكلمات رقيقة دافئة مغناجة.

- شكراً ! قلت بلهجة رسمية والتكشيرة ما زالت مرتسمة على وجهي، ثم تحولت مخاطباً السيدة نورما:

- أرجو أن تكوني قد ارتحت في نومك الليلة الماضية بعد رحلتك الشاقة.

- شكراً يا بني. إنني ما كدت أضع رأسي على المخدة حتى استغرقت في نوم عميق. أنا آسفة جداً أنني لم أستطع البقاء معكما مدة أطول، فقد كنت حقاً متعبة. يبدو أنني كبرت في السن ولم أستطع تحمل مشاق السفر كالسابق. قالت ذلك وأتبعتها بضحكة هادئة حنونة تفيض بالرقة والاحترام.

- قلت للسيدة نورما بأن الذي يرى سالي وأمها معاً يظنهما أختين، وليس أماً وابنتها. قال رضوان بالإنجليزية وهو يبتسم ابتسامة كبيرة وينقل طرفه بيني وبين الأم.

ضحكتُ طويلاً، وأدركت أن رضوان ماهر في مغازلة النساء على الطريقة العربية، الساذجة الخجلى غير المصقولة، ولكنني تساءلت لماذا لم يستطع بعد استمالة قلب سالي إليه.

- شكراً يا بني. إنك لطيف جداً. لقد جعلتني أحس بقوة الشباب من جديد. كم أنا سعيدة وشاكرة أن يكون لسالي صديقين صدوقين كريمين وشهمين مثلكما. قالت السيدة نورما وضحكة كبيرة تغطي وجهها.

- لقد اكتشفت بأن شباب العرب يجيدون مغازلة النساء، وماهرون في استمالة قلوبهن، ولهذا السبب فإن كثيراً من الفتيات الأميركانيات يتهافتن عليهم، وإن بعضهن يلقين بأنفسهن تحت أقدامهم. قالت سالي وعيناها تتفحصاني، بينما تضع فنجان الشاي على الطربيزة أمامي.

لم أستطع أن أتبين إن كانت سالي جادة أو هازلة في قولها.

- العرب صادقون في عواطفهم وأحاسيسهم، ولا أظن إلا أنهم يقولون ما يشعرون. قلت بتحد وحماس معاً.

لاحظت أن السيدة نورما ورضوان قد تبادلا نظرات ذات معنى، وقد علت ابتسامة كبيرة وجه كل منهما.

- لقد اقترحت سالي أن نذهب إلى هوليوود لنتناول العشاء الليلة في المطعم العربي، فهي تعتقد أن أمها ستحب كثيراً "الشوش كباب" والكبة والتبولة والمحشي وورق الدوالي، وبقية الأكلات العربية. قال رضوان بصوت هادئ رزين، وقد أدركت أنه يريد أن يلطف

جوّ النقاش الحاد والمتحدي بين سالي وبيني، فشكرت له فعلته، وأعجبت بحكمته وذكائه وحسن تصرفه.

- الآنسة سالي دائماً أفكارها حصيفة، وبذكائها المتوقد تستطيع أن تميز الغث من السمين. قلت بلهجة ساخرة لاذعة، لم يبق عندي شك بأن السيدة نورما ورضوان، وحتى سالي نفسها، قد أدركوا حقيقة ما عنيت.

- شكراً يا بروفيسور دهشان لهذه الثقة. شهادة أعتز بها وأفخر من أستاذي الكبير. قالتها وهي تتصنع الابتسام، وإن كنت قد أحسست أن في أعماقها بعض المرارة والألم، كما أدركت أنها قالتها لتنقذ ماء وجهها الذي تعمدت إراقته. ولقد أردت أن أبلغها رسالة بأنني حتى وإن كنت متيماً بهواها، فإنني سأظل صاحب القرار.

- فرحت لاقتراح سالي، وقلت هذه إحدى الطرق لنتعرف على طعام بلاد أصدقائنا الجدد. قالت الأم.

- هذا شرف وفخر لنا يا سيدة إركسون، ونتمنى أن تتعرفي على أشياء أكثر أهمية من الطعام، كالوفاء الإخلاص، المحبة، التضحية، الصدق والالتزام. قلت بنبرة المفاخر الواثق مما يقول والمعتد بنفسه.

- حتى الآن أعجبني وأسعدني كل ما رأيته منك ومن السيد رضوان. قالت الأم بحماس.

تفرع الحديث بعدها عن أشياء عادية ليست بذات قيمة.

*****

على الطريق السريع إلى هوليوود، وكنت أسوق سيارة سالي، وكانت هي تجلس إلى جانبي، وكانت أمها ورضوان يجلسان في المقعد الخلفي، حيث كانا مستغرقين في حديث لاحظت أنه عميق وممتع، فقد كان مستحوذاً على انتباهيهما. همست سالي بصوت ناعم وكأنه وشوشات قبل !

- أما آن الأوان لأن تتخلص من هذه التكشيرة التي ترابط فوق وجهك ؟! قالت وهي تتعمد تحريك رأسها ذات اليمين وذات الشمال، لتنبعث من شعرها رائحة عطر زكية، توقظ الغرائز وتلهب الأحاسيس.

- ولماذا يزعجك وجودها ؟ أجبتها دون أن أنظر إليها.

- لأنها ضد شخصيتك، ولا تتناسب مع طبيعة تصرفاتك.

- وكيف هي شخصيتي وتصرفاتي ؟ سألت بسخرية مبالغ فيها.

- طبيعتك دائماً بشوشة، وتصرفاتك دائماً مرحة، فالعبوس والخشونة والصلف والإساءة إلى الآخرين وإيذاء مشاعرهم،كلها تصرفات غريبة عليك، ولا تستطيع حتى أن تتظاهر بأنها طباع فيك !

- أنا لم أكن أعرف هذه الحقيقة من قبل. شكراً لجلب انتباهي. قلت بلهجة أكثر سخرية من سابقتها.

- والآن قل لي، هل ما زلت غاضباً مني ؟ وهل ما زلت تعتقد أنني أسأت إليك وآذيت إحساسك ؟ قالت وقد طوحت بشعرها باتجاهي، فانبعثت منه رائحة عطرية

استولت على ما تبقى من زمام عواطفي وأحاسيسي؛ وإن لم تخالجني ذرة من شك، بأن تصرفها هذا كان عمداً مع سبق الإصرار.

- طبعاً لا. أنا ما غضبت في السابق، ولم أغضب الآن؛ إذ بأي حق أغضب منك ؟! أجبت بفجاجة وغلظة.

- بحق إنك تحبني، وإن بيننا احتراماً عظيماً ! قالت وقد رمتني بنظرة أنثوية ذات مضمون جنسي، وقد تعمدت أن تكون ذات تأثير شديد على مناعتي وصمودي.

- أنا لا أغضب من الفتيات التافهات الجاهلات ذوات العقول الجوفاء ... قلتها وأنا أصر على مخارج الكلمات.

- وهل معنى ذلك أنني تافهة وجاهلة وجوفاء ؟ لم يكن هذا رأيك بي قبل أقل من أسبوع. قالت وهي ما زالت تبتسم.

- لقد سمعت رأيي فيك الليلة الماضية، ولا حاجة للإعادة.

- لقد قلت عني الليلة الماضية بأنني إنسانة ضحلة، فهل ما زال هذا هو رأيك بي ؟!

- وما المستجدات التي حدثت حتى أغير رأيي ؟ قلت وأنا أتجنب النظر إلى وجهها.

- سامحك الله ! لقد ظلمتني وكنت قاسياًٍ عليّ. على كل حال أنا سامحتك.

- كلنا يجب أن نطلب السماح من الخالق، لأنه وحده الذي...

وهنا قاطعني صوت رضوان يصل إلي من المقعد الخلفي قائلاً:

- أستاذ سهيل، لقد سألتني السيدة نورما سؤالاً مهماً وحساساً جداً، وأقول بكل تواضع بأنني عجزت عن الإجابة عليه، وأظن أن عندك الجواب الصحيح والمقنع.

- أخ رضوان، أنت تمتدحني كثيراً، وتعتقد أن عندي الجواب لكل سؤال، وأخشى أن يصيبني الغرور فأصدق أنني أعرف جواب كل سؤال. على كلٍّ تفضل وآمل أن أكون عند حسن ظنكما.

- رضوان أجابني على سؤالي، ولكنني أحب المزيد من المعلومات، لتكتمل قناعتي. قالت السيدة نورما.

- تفضلي واسألي، وكما قلت أرجو أن يكون عندي الجواب المقنع.

- هناك اعتقاد في الغرب، بأن المرأة المسلمة تُعامل من قبل الرجل وكأنها كمّ مهمل، فهل هذا صحيح ؟!

- يبدو أن الأم تريد أن تطمئن على مستقبل ابنتها، فيما إذا حدث وتقدم لخطبتها رجل من ذلك الجزء من العالم ! قال رضوان بالعربية، وهو يحاول أن يكتم ضحكته.

- إنه اعتقاد خاطئ جداً. نعم، كانت المرأة كمّاً مهملاً قبل ظهور الإسلام. ففي زمن اليونان مثلاً، تلك الدولة التي أوجدت الديمقراطية، كانت المرأة تابعة لأبيها وهي بنت، وكانت مملوكة لزوجها، وتحت وصاية ابنها إذا كانت أرملة، وله الحق أن يهبها لمن يشاء، وإذا أراد باعها في السوق، كما يباع أي حيوان. كما إنها لم يكن لها حرية اختيار زوجها، ومحرومة من الميراث أيضا. أما في زمن الرومان، فقد كانوا يعتقدون أن المرأة مسكونة بروح شيطانية، وأنها يجب أن تكرس كل حياتها لخدمة زوجها وتحقيق رغباته. أما اليهود فقد اعتبروا المرأة خادمة مطيعة للرجل، وأنها لعنة الخالق إليه، لأنها أخرجت أبانا آدم من الجنة، كما إنها أساس الخطيئة ومصدر الشر والإثم. حتى العرب قبل الإسلام، عاملوها كسقط المتاع. ولكن عندما جاء الإسلام فقد ساواها مع الرجل، وأعاد

إليها كرامتها وإنسانيتها، وجعلها تحس بمركزها وأهميتها؛ فالقرآن والأحاديث النبوية كلها تحث على حب المرأة واحترامها. حتى أن الرسول قال بأن والد البنات المحب لهن، يدخله الله الجنة؛ وأن من كانت له ابنة، ولم يعاملها بسوء، ولم يفضل ابنه الذكر عليها أدخله الله الجنة؛ وقيل أيضاً أن الجنة تحت أقدام الأمهات. فهل هناك تعظيم للمرأة أكثر من هذا ؟!

- شكراً لك يا بني. لقد أثلجت صدري حقاً. قالت الأم.

- أنا أتجرأ أن أقول لك يا بروفيسور دهشان، بكل الفخر والاعتزاز بأن عندك الجواب المقنع لكل سؤال. قالت سالي ورنة السعادة والفرح ممزوجة بالفخر تظهر في نغمة صوتها.

مديح سالي أسعدني وأطربني، وقوى اعتزازي بقوميتي وجذوري ... قوميتي العربية ... وزاد من ثقتي بنفسي وبرجولتي؛ ولكنني مع كل هذا، حافظت على عبوسي وجديتي، وتظاهرت بأن مقولتها لم تحرك شيئاً من أحاسيسي، وأوحيت إليها بأنني لم أسمع حتى ما قالت !

*****

- حقاً إن الطعام العربي لذيذ جداً. له نكهة بالفم من الصعب وصفها ! قالت السيدة إركسون وهي تقطع جزءاً من حبة كوسا محشوة بالأرز واللحم، وتمضغها بتلذذ وشهية.

- ألم أقل لك يا ماما، إنك ستظلين تتذكرين لذة هذه الوجبة لمدة طويلة ؟

- شكراً يا بني على الدعوة، وعلى هذا الاختيار الموفق أيضاً ! قالت الأم موجهة الكلام إلي.

- شكراً لصديقي رضوان، لأنه هو الذي اختار المطعم. لأقول لك الصدق يا ماما نورما، بأنني كنت محتاراً إلى أي مطعم نذهب. استغربت من نفسي فيما بعد، كيف لم يخطر ببالي هذا المطعم. قلت وأنا آخذ جرعة كبيرة من كأس النبيذ المترعة أمامي، والتي كان رقمها ثلاثة.

- التي اختارت المطعم هي سالي وليس أنا. يجب أن يوجه الشكر لها. قال رضوان وهو يبتسم ببراءة، وينقل طرفه بين سالي وبيني.

- شكراً يا آنسة سالي، يا أجمل الجميلات. قلت هذا وطوقت عنقها بذراعي اليمنى.

انفجرت السيدة نورما ومعها رضوان في ضحكة طويلة خجلى ومؤدبة، لهذا التحول المفاجئ في سلوكي.

- الآن عدت إلى طبيعتك الحقيقية. شكراً للنبيذ الفرنسي الذي أنساك غضبك عليّ. قالت سالي وقد أزاحت ذراعي من حول عنقها بلطف وأدب شديدين.

لاحظت أن السيدة نورما قد حدجت ابنتها بنظرة عتاب، وكأنما تلومها على تصرفها لأزاحتها ذراعي من حول عنقها، وابتعادها إلى الطرف الثاني من الكنبة.

- لن أغضب منك بعد اليوم مهما فعلت ومهما قلت. لن أضيع بعد اليوم ثانية واحدة بعيداً عنك. ما أغباني أن أهدر الوقت الثمين بالعتاب والتفاهات. قلت وأنا أنظر إلى وجهها، وخصوصاً عينيها، بشغف وتدله مبالغ فيه.

احمرّت وجنتا سالي وأذناها، وحاولت أن تنأى بنفسها عني، ولكنني سحلت فوق الكنبة الجلدية نحوها، حتى صرت ملاصقاً تماماً لها، وصارت هي ملاصقة للجدران، مما زاد في خجلها وارتباكها. وهنا تكلم رضوان بالعربية، وبأسلوب هادئ متزن، فقال دون أن يذكر اسم أي من المرأتين، وإنما كان يشير إليهما مستعملاً ضمير المؤنث الثالث:

- لقد أسرت لي أمها بأنك عرضت عليها الزواج، ولكنها رفضتك. تقول الأم بأن رفضها هو دلع وتدلل، وإنها تريدك كثيراً، وتتمنى أن تتزوجك، ولكن يجب أن تعطيها الوقت وأن لا تتسرع في طلب الجواب منها.

- ماذا تقولان، وهل تتكلمان عنا بالعربي؟ سألت سالي وهي تنقل طرفها بين رضوان وبيني.

- يقول رضوان بأنك أجمل وأنعم فتاة رآها في حياته، وقد وافقته على ذلك. قلت.

- أنا جادة. ماذا تقولان؟! أعادت سالي السؤال وهي تضحك.

- ولم السؤال يا عزيزتي؟! ربما يقولان شيئاً شخصياً لبعضهما. قالت الأم.

- ويقول أيضا بأن السيدة نورما أرق أم رآها في حياته، ووافقته على ذلك أيضاً.

- شكراً يا بني. وأنت شاب لطيف مهذب. تمنيت لو كان لسالي أخ مثلك.

- نحن أخوان يا ماما. إنه مثل أخي وإن لم تلديه. قالت سالي وهي تتأمل رضوان بإعجاب.

- وهل تأتون إلى هنا كثيراً؟ سألت الأم.

- دعاني رضوان إلى هنا ثلاث مرات. ودعوته أنا مرة واحدة فقط. قالت سالي.

- إنها كل المرات التي أتيت بها إلى هذا المطعم. فقط معك. قال رضوان.

- أنا آتي مرتين بالشهر تقريباً. لقد تعرفت عليه قبل أكثر من عام، عندما دعاني إلى العشاء صديق تركي. قلت.

- ولكنك لم تدعني إلى هنا ولا مرة واحدة. قالت سالي بطريقة مغناجة وقد هزت كتفيها دلعا وتدللاً !

- لأنني كنت غبياً وأعمى. سأدعوك من الآن فصاعداً كثيراً... كثيراً جداً... يا أغلى من في الوجود ! قلت وأنا أسرّح طرفي بوجهها وصدرها من جديد.

- سنطلب نبيذاً فرنسياً كلما دعوتني إلى مطعم.

- ليس النبيذ الفرنسي الذي أنطقني للتغني بمحاسنك؛ إنهما عيناك الأخاذتان ! قلت.

- كل شيء في هذا المطعم كامل. ينقصه شيء واحد فقط ! قالت السيدة نورما.

- أظن أنني أعرف ما عنيت يا سيدة نورما. إن كل ما يقدمه هذا المطعم هو عربي ما عدا النبيذ.

- برافو بروفيسور دهشان ! حقاً إنك ذكي جداً، وقوي الملاحظة. قالت الأم بحماس وفرح شديدين. حتى تحرك المقعد من تحتها واهتزت الطاولة أمامها.

- أولا، نحن اتفقنا أن ننادي بعضنا بعضاً بالاسم الأول المجرد. ثانياً، السبب أنهم لا يقدمون الأنبذة العربية، لأن صناعتها في الوطن العربي بدائية مقارنة مع الدول الأوروبية والأميركية، ولهذا لا يستوردونه، بالإضافة إلى بعد المسافة وارتفاع التكاليف وقلة الطلب.

- ولكن العرق اللبناني لا يضاهيه مشروب في الدنيا، كما سمعت. قال رضوان.

- هذا صحيح يا أخ رضوان، ولكن الكثيرين من الناس لا يشربون الكحول القوية، كالعرق والوسكي والكونياك. ومع أن للعرق اللبناني عشاقاً كثيرين، إلا أنني أنا شخصياً لا أستسيغ شربه.

- وهل جربته؟ سألت سالي.

- المرة الوحيدة التي تذوقت طعمه، كانت في الوطن. دعانا أحدهم إلى مدينة زحلة اللبنانية، لنتغدى على نهر البردوني، وكنا مجموعة من الشباب، فكلهم شربوا منه كثيراً. كانوا يشربونه وهم يأكلون الكبة بجميع أنواعها والشوش كباب والتبولة والسلطات. أما أنا، فقد شربت منه رشفة واحدة، قفزت على أثرها واقفاً على قدمي، إذ أحسست بعدها أن حلقي احترق، وأن رأسي قد تفجر، وبقيت أسبوعا وحلقي متورم. لقد كانت المرة الأولى والأخيرة.

- كل المأكولات التي ذكرتها هي الآن أمامنا على هذه الطاولة ما عدا العرق. قال رضوان.

- هل تحبان أن أطلب لكما قارورة منه؟ سألتُ السيدة نورما وابنتها.

وكنت قد رأيت النادلة عند دخولنا، تدفع عربة فوقها قارورة عرق لبنانية وكثير من صحون المقبلات.

- تقول بأنه مشروب قوي؛ ونحن لا نشرب إلاّ النبيذ والبيرة. قالت المرأتان معاً.

- حقاً، هو أقوى من الويسكي بكثير. بعض الناس يشربون الويسكي دون أن يستعملوا معه سائلاً آخر ليخففوا من قوته، أما العرق فلا يستطيع الإنسان أن يشربه إلا وهو ممزوج بالماء.

- قطعاً لا نريده. قالت الأم.

- إنه شراب مخيف. قالت سالي.

- كنت أفكر أن أدعوكم مساء الغد إلى مطعم صيني أو مطعم "إستيك "، وما دُمت يا سيدة نورما قد أعجبك الطعام العربي كثيراً، فما رأيك أن نتعشى هنا ثانية ؟ سأل رضوان وهو ينقل طرفه بيننا.

تبادلت المرأتان النظرات، إذ لعل الفكرة فاجأتهما كما فاجأتني. وبعد فترة صمت قصيرة، قالت الأم:

- أنا لا مانع عندي، إذا كان سهيل وسالي يوافقان.

- المطاعم الأخرى متوفرة في كل مدينة، ولكن ليست كل مدينة بها مطعم عربي. قالت سالي.

- إذن، نتعشى هنا غداً أيضا؛ إن شاء الله. قلت الجملة الأخيرة بالعربي.

- إن شاء الله. قالتها سالي بالعربي أيضاً بلكنة محببة وهي تبتسم.

وفهمت أنها حفظتها من كثرة ما كررها رضوان أمامها. لقد شرحت لأمها كيف أن العرب، حتى المسيحيين منهم، يستعملون هذا التعبير دلالة الموافقة.

*****

غادرنا المطعم بعد الثامنة والنصف بقليل، وكان الترتيب هو أن نفرّج السيدة نورما على هوليوود وبفرلي هيلز، إذ إنهما في الليل أكثر سحراً منهما وقت النهار. خفت أن نتأخر، وأن لا أكون في شقتي في العاشرة، لذلك استأذنت من ضيوفي، واتصلت بألكسس، ففرحت المسكينة كثيراً، إذ فكرت أنني عدت مبكراً وأنني أتكلم من شقتي، ولما أعلمتها بأنني أهاتفها لأنني لا أريدها أن تقلق إن تأخرت قليلاً، لأنني ألاحظ من مجريات الأمور أنني ربما أتأخر، ولكن حتى نوفر الوقت، فإنني سآتي إلى شقتها رأساً. أعجبها الاقتراح الثاني،وأزعجتها فكرة التأخير.

سرّت السيدة نورما بما رأت من أماكن ومناظر، وتعاظم سرورها وهي ترقبنا سالي وأنا وقد ازددنا التصاقاً ببعض، وصرنا أكثر تفاهماً، إذ لاحظت أنا سعادتها العظيمة من تصرفاتها وأقوالها وتعبيرات وجهها. شيء واحد كنت أخشاه وأتهيبه، وهو خوفي من أن يكون ابن قوميتي وديني، صديقي رضوان، غير سعيد للعلاقة الحميمة التي شبّت بيني وبين سالي؛ ولكنني سرعان ما اكتشفت خطأي، عندما قال لي رضوان بالعربي، وقد انتهز فرصة اندماج المرأتين في حديث عميق:

- كم أنا سعيد يا أستاذ سهيل أنكما أنت وسالي متفاهمان، وأنكما تحبان بعضاً، وأرجو أن يتكلل حبكما بالزواج. لقد تمنيت في يوم ما، لو أستطيع الزواج من سالي، ولكن عندما أكدت لي بأن هذا لن يحصل لأنها تحبني وتحترمني كأخ، وإنها لم تتصورني يوماً حبيباً ولا زوجاً، حزنت أول الأمر، ولكنني كإنسان مؤمن قلت هذه مشيئة الله ورغبته. بعدها تمنيت أن تتزوج شاباً عربياً ومسلماً، وأعتقد اعتقاداً جازماً، بأنك أنت الإنسان المناسب لها وهي أكثر فتاة ملائمة لك. إنني أحب جداً أن تعتنق سالي الإسلام، وأنا واثق من أنها ستكون امرأة مسلمة ملتزمة، وأن اعتناقها الدين الإسلامي سيؤثر على الكثيرين ممن حولها ليصبحوا مؤمنين ملتزمين مثلها.

ابتسمت، ولا أدري لماذا حضر لمخيلتي بيت شعر كنت قد حفظته وأنا صغير لم أذكر قائله "ما زاد حنون في الإسلام خردلة، ولا النصارى لهم شغل بحنونِ". لم أعلق بشيء وإن أفرحتني فكرة عدم غيرته مني.

لقد تصورت سالي زوجة لرضوان، وهما يعيشان في إحدى مدن الوطن العربي الكبير، وهي ترتدي الخمار، وحولهما مجموعة من البنين والبنات، ترقب لحيته الشقراء وحديثه المسهب عن الغيبيات، وقد تحولت إلى امرأة شرقية مثالية، تساعد رضوان على خلع حذائه عندما يعود إلى البيت، وتغسل له قدميه، وتقدم له الطعام الشرقي، ويصليان العشاء جماعة كل ليلة، قبل أن يذهبا إلى الفراش. وعندما يغيب رضوان عن البيت في مهمة عمل لليلة أو ليلتين، وتحس سالي بالزهق والضجر تقول له وهي تستقبله "والله الحياة قاسية بدونك يا رضوان. الله يجعل يومي قبل يومك !" فيفرح رضوان وتفتر شفتاه عن ابتسامة جذلى، كالفحل العربي الذي تأكد بأن أنثاه لا تستطيع بُعده عنها حتى لليلة أو بعض ليلة !

*****

لم أتأخر طويلاً عن موعدي مع ألكسس، فقط ربع ساعة وربما أقل بعد العاشرة؛ على الرغم من إلحاح الثلاثة علي، الأم والابنة ورضوان، بأن أدخل لنكمل سهرتنا وأحاديثنا في شقة سالي، إلا أنني أصررت على عدم البقاء، بحجة أنني يجب أن أكتب الليلة رسالة طويلة إلى الأهل في الوطن تتعلق بقضايا عائلية مهمة. ولكن الحقيقة هي أنني منذ أن تكلمت الليلة مع ألكسس، وأنا أشعر بشوق مزلزل لأن أكون معها، وأن أضمها إلى صدري، وأستمع إلى حديثها عن حبها لي وعذاباتها وأنا بعيد عنها. وكذلك فقد شعرت بتأنيب ضمير ممزق عندما كذبت عليها وقلت بأنني قد أتأخر في المركز الإسلامي، مع أنني كنت في مكان آخر ومع امرأة سواها !فليسامحني الخالق !

لقد أحسست الليلة بشوق حارق لأن أطير إليها، وأجثو عند قدميها الطاهرتين، وأمام قلبهاالمحب الصادق الوفي، وأخبرها الحقيقة وأين كنت ولأطلب منها الصفح، ولأطلب من رب العباد الغفران ... ! آه ! أيها الإسلام العظيم ! كم من موبقات وخطايا وأكاذيب يرتكبها أناس من أمثالي، أفاكون أفاقون، دجالون منافقون... باسمك ! اللعنة ! اللعنة ! سامحني يارب ... !

لقد ألقت ألكسس بنفسها في أحضاني، حالما فتحت الباب ورأتني، وانفجرت في بكاء هستيري آلمني وأقلقني ... !

- مالك يا ألكسس ؟! ماذا حدث ؟ ! صحت بها مرعوباً ...!
- جدتي يا داشو ... جدتي يا حبيبي ... قالت بصوت مزق نياط قلبي.
- مالها جدتك يا ألكسس؟! ما الذي حدث لها؟! لقد أقلقتني عليها.
- إنها في غيبوبة بالمستشفى.
- ماذا ؟! وكيف عرفت ذلك !؟
- هاتفتني والدتي بعد أن أغلقت أنت السماعة بدقائق. قالت من بين دموعها وشهقاتها.

أبعدتها قليلاً عن صدري، ونظرت إلى وجهها وعينيها، فكانتا حمراوين متورمتي الجفون.

- آسف يا حبيبتي. آسف جداً. إن الحزن والله يمزقني. ما كان يجب أن أتركك الليلة، ولكن أنىّ لي أن أعرف ! هل قالت لك أمك شيئاً عن حالتها ؟

- نعم، لقد أعلمها الأطباء بأن لا أمل من استيقاظها من غيبوبتها. تقول الماما بأنه خير لجدتي ولجميع من يعنيهم أمرها أن تصعد روحها إلى السماء ؛ إن هذا ما قاله الأطباء. وانفجرت من جديد تبكي وتنشج، ولكن هذه المرة بصوت أعلى وعواطف أشد، فقد صارت ترتجف وكأنما بها حمى .

- لا أستطيع أن أتصور نفسي بدونها. أنا أحبها كثيراً يا داشو! لقد كانت كل شيء لي، قبل أن أقابلك ! هي التي ربتني. أنا عشت كل حياتي في بيتها... معها. كانت تشتري لي أغلى الملابس وأجودها. كانت تطبخ لي بيديها أشهى الأطعمة وأحسنها. هي التي تركت لي كل هذه الثروة.

وتذكرت جدتي فلحى، وكيف كانت هي الأخرى وأنا طفل صغير، تشتري لي ما تعجز والدتي عن شرائه من الملابس، بسبب اليتم والفقر، وكانت تخبئ لي الزبيب والقطين والملبن حتى أعود من المدرسة. وكيف كنت أنام معظم الليالي في بيتها، وأقضي

جلّ وقتي فيه؛ وكيف كانت ترشو ابن جارنا جريس، ليساعدني في مادة اللغة الإنجليزية. إن جدتي لم تورثني العقارات والأسهم والمستندات، كما فعلت جدة ألكسس، بسبب فقرها، ولكنها تركت لي كنزاً ثميناً ، جداً جداً ، من الذكرى العطرة والحب العظيم. تغمدها الله برحمته وأدخلها واسع جنانه.

- سأقف إلى جانبك، وسأحاول أن أساعدك لتجتازي هذه المحنة. قلت صادقاًوبحماس !

- كلما أتذكر أنك تحبني، وأنك معي تخف مصيبتي. وتوقفت عن البكاء، وأضافت:

- لو لم أكن أعرفك لفقدت عقلي. أشكر الله الذي أرسلك لي. وهجمت عليّ تعانقني، وقد بللت دموعها وجهي وملابسي. وترجمت لها مثلنا العربي "إن الله لا يكسر حتى يجبر ! "

- حقاً يا داشو ! إن الله يمنحنا نعمة العزاء والسلوان عندما تصيبنا مصيبة . وصارت تبكي من جديد.

قدتها إلى الحمام، وغسلت لها وجهها، وبعد أن جففته، ناولتها قميص نومها ثم وضعتها في الفراش. وخلال دقائق كنت أرقد إلى جانبها. كانت تبكي تارة، وتنشج تارات بحرقة مزقت قلبي، حتى أنني أنا نفسي لم أشعر إلا ودموعي تسفح فوق المخدة ! هل كنت أبكي ألكسس أم جدتها ؟ أم أنني كنت أبكي لأنني تذكرت جدتي فلحى ؟!

- سنكلم أمك في الصباح، لعلّ جدتك تكون قد فاقت من غيبوبتها. قلت.

- لا أمل يا حبيبي. يجب أن أطير غداً إلى ولاية تنسي !

- ماذا ؟!

- نعم يا داشو، يجب أن أطير غداً لأرى جدتي قبل أن تفارق الدنيا.

ألا لعنة الله على الشيطان الرجيم ! هل يوجد حقاً شيطان رجيم، أم أن الإنسان نفسه هو الشيطان الرجيم ؟! لقد اعتراني إحساس غريب عجيب، إذ شعرت بفرحة غامرة وسرور لا يوصف، إذ أستطيع أن أرى سالي وأسهر معها حتى الصباح، دون أن أشعر بالقلق من أن تعرف الواحدة عن الأخرى !

- ليتني أستطيع مرافقتك ! قلت غير صادق.

- طبعاً تستطيع مرافقتي. ستكون والدتي سعيدة جداً، وكذلك والدي. لقد أعلمتني أمي مراراً بأنها تحب جداً أن تراك، وطلبت مني مرات كثيرة أن نذهب لأقدمك لها ولجدتي ووالدي.

- ليس في مثل هذا الوضع. سأذهب لمقابلتهم في المرة القادمة.

واستغرقت في صمت عميق، وأنا ما زلت أسمع صوت بكائها ونشيجها.

*****

- لا تتأخري عليّ يا ألكسس، فإنني أشعر بالاختناق والضياع بعيداً عنك. قلت لألكسس ونحن في قاعة المسافرين بمطار لوس أنجلوس، بعد أن اشترت التذكرة وأعطوها بطاقة الإقلاع.

- أرجوك أن تقبل السفر معي ! إن أهلي وأصدقائي سيكونون سعداء لرؤيتك. وأنت لن تندم لمرافقتي ، بل على العكس ستسر كثيراً.
- أعرف ذلك يا حبيبتي، ويكفي أن أكون معك لأن أكون سعيداً، ولكن فات الوقت الآن، إذ ليس بإمكاني العودة إلى البيت وإحضار ما أحتاجه من الملابس وغيرها.
- أنت لست بحاجة لإحضار شيء. فقط وافق وأنا أتدبر كل شيء من بيتنا، وعلى الهاتف . أستطيع أن أطلب لك كل ما تحتاجه من الملابس وغيرها، عندنا متاجر لبيع الملابس تضاهي المحلات التي هنا.
- إنه ليس مناسباً أن أذهب معك هذه المرة بسبب الوضع الحالي، ولكنني سأذهب معك في مرة أخرى. أعدك. إنني مشتاق أن أقابل أفراد عائلتك وأصدقاءك ومعارفك، وأرى مدرستك ومدينتك !
- أريدك أن تكون معي، لتشد أزري، خصوصاً إن حدث مكروه لجدتي. أنا لا أقوى على مواجهة الخطب وحدي. أشعر بخوف شديد من المجهول.
- قلبي وعقلي وكل مشاعري معك يا روحي ! جدتك ستكون بخير، ستعودين بعد أن تطمئني على صحتها.
- آمل أن يكون ذلك. إنني قلقة وخائفة... خائفة جداً يا داشو !
- ليكن عندك ثقة بالله. أنت تقولين لي دائماً بأنك فتاة مؤمنة، وأنك كنت تذهبين إلى الكنيسة في كل يوم أحد، وفي المناسبات الدينية. نحن نحتاج إلى الإيمان القوي لمثل هذه الساعة.

هزت رأسها وجففت دموعها، وحملت حقيبتها وتوجهنا نحو نقطة الدخول، لأننا سمعنا صوتاً أنثوياً ينادي من خلال المايكرفون على المسافرين على طائرتها أن يتوجهوا في الحال إلى بوابة رقم 9، لأن طائرتهم ستقلع عما قريب.

لم يكن ما دار بيننا من حديث بخصوص مرافقتي لها في رحلتها، في قاعة المسافرين بالمطار يجري لأول مرة، فإنه حديث مكرر يجري للمرة العشرين وربما أكثر. إنها كلما فتحت باباً إلا وقدمت لها سبباً لإغلاقه. إنها لم تقتنع بالمعاذير التي قدمتها لها بعدم السفر معها، ولم تيأس حتى قبل دقائق من أقلاع طائرتها.

كان وداعاً حاراً ومحزناً معاً، فقد انفجرت ألكسس تبكي من جديد بهستيريا وبصوت عال، على الرغم من أنها ومنذ أن استيقظت في الصباح الباكر وهي تبكي باستمرار ودون توقف، مما زاد في حزني وضاعف في آلامي.

*****

ليس من عادتي أن أذهب لزيارة أي إنسان، مهما كانت علاقتي به وطيدة، إلا إذا أخبرته مقدماً. إنني أتضايق جداً إذا زارني أحدهم دون موعد، ولهذا أحرص كثيراً على أن يعرف من أزوره مسبقاً، طامعاً، بل متوقعاً أن يعاملني بنفس المنهج؛ وإن كان الكثيرون ممن عرفت يتجاهلون هذه الرغبة.

ما كادت ألكسس تتجاوز نقطة التفتيش الأمني، وتختفي عن الأنظار، حتى أطلقت ساقي للريح، أهرول حيث تقف سيارتي، فأركبها وأتوجه مسرعاً إلى حيث تسكن سالي ...! إنه لشدة فرحتي نسيت واجبات وأصول الزيارة، إذ لم يخطر ببالي قط أن أهاتفها

لأسألها إن كانت ظروفها تسمح لي بزيارتها. لقد كان كل ما أريده هو أن أصل إليها بأقصى سرعة وأقل وقت ! لقد شعرت في تلك اللحظة، بأنني أكاد أجن شوقاً إليها!

كانت الساعة لم تبلغ التاسعة صباحاً بعد، عندما قرعت جرس الشقة، وعندما فتحت سالي الباب كانت ما تزال في قميص نومها؛ وعلى الرغم من أنها كانت ترتدي فوقه روباً، إلا أن مفاتن جسدها كانت ظاهرة للعيان، وبشكل مثير ومؤثر.

وقفت أمامها مدهوشاً، مأخوذاً، أحملق بها بعينين شرهتين... زائغتين لفترة، دون أن أستطيع التفوه بكلمة. لا شك أن الصبية لاحظت ما اعتراني، فقالت وهي تتمادى في دلالها وإظهار أنوثتها:

- أوه... ! بروفيسور دهشان ! كم لطيفاً أن يستيقظ الإنسان من نومه صباحاً، فيكون أول مخلوق تقع عليه عيناه أنت ! قالت وهي تتضاحك وتتثنى.

- ما شاء الله ! ما شاء الله ! شكراً للخالق الذي منحنا كل هذا الجمال. أنت حورية من حوريات الجنة ! ما أسعد الرجل الذي يستيقظ كل صباح فيكون أول إنسان تكتحل به عيناه هو أنت يا آنسة سالي ! قلت بعد أن ردّ إلي عقلي، واستطعت السيطرة على حواسي. وبقوة لم أستطع كبح جماحها، اقتربت منها وطوقتها بين يدي، ولكنها تخلصت مني قبل أن أحاول تقبيلها. قالت شبه غاضبة، وقد احمرت وجنتاها:

- بروفيسور دهشان ! ألم أقل لك أن تلزم حدودك، وأن لا تحاول إمساكي، لأن ذلك يغضبني !

- أنت أنانية يا آنسة سالي. أنت تفكرين فقط بنفسك وبمشاعرك، وبأنك ستغضبين إن لمستك، ولكنك لا تفكرين بالإنسان الذي يعشقك والمتلهف لعناقك.

- أرجوك ! أنا لا أريد أن أعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى. أنت تعرف رأيي في هذه القضية.

- وهو أنك لا تسمحين لرجل أن يلامس جسمك، إلا إذا كنت مقتنعة به وتحبينه، وأن يكون زوجاً لك. أنا أعرف أنك تحبينني، وأنا أريد أن أتزوجك.

- هذا طلب سابق لأوانه. قالت بإصرار وحزم، وكأنما تنهي نقاشاً عقيماً.

- أنت لا تعرفين كم أحبك، وكم أعاني من تجاهلك وعدم استجابتك لهذا الحب. لم أستطع الصبر حتى الساعة السادسة مساء، موعدنا للعشاء، فأراك. كنت أتمنى لو كان بإمكاني المجيء قبل أن يطلع النهار. لقد أحسست كأنما لك شهر كامل بعيدة عني. قلت متصنعاً الغضب وبصوت عال.

- لو أتيت لما كنا فتحنا لك الباب، ولكنت عدت من حيث أتيت. لقد تأخرنا ثلاثتنا بالسهر طويلاً. كنت أفكر بمكالمتك، ولكنني خفت أن أقطع عليك حبل أفكارك وأنت تكتب تلك الرسالة الطويلة والمهمة. بالمناسبة... هل انتهيت من كتابتها ؟ قالت وهي تضحك هذه المرة، وتتثنى بدلال.

- أية رسالة ؟ أنا لا أفهم ما تعنين ! قلت وقد حملقت بها استغراباً، وقطبت ما بين حاجبي متسائلاً.

- ألم تعتذر عن البقاء معنا لأنك يجب أن تكتب رسالة مهمة وطويلة لعائلتك في الوطن ؟

لقد أحسست بأن قلبي قد سقط إلى قدمي. حقاً إن حبل الكذب قصير. قلت بارتباك:

- آه ! لقد جمح بي الخيال بعيداً. لقد ظننتك تعنين أطروحة، وليست رسالة عائلية. طبعاً كتبتها. لقد بقيت إلى ساعة متأخرة من الليل أكتبها. ولقد أسقطتها في صندوق البريد في طريقي إليكما الآن.

- أهلا يا سهيل يا بني ! صباح الخير. تفضل وانضم إلينا، نحن نشرب القهوة في البلكونة. سمعت صوت الأم يأتي إلي من الداخل، وكأنه تغريد عندليب.

- صباح الخير يا ماما نورما ! في الوطن إذا كان لأحد الناس حاجة عند إنسان آخر، ويرفض تحقيقها له، يطلب الأول من قريب أو صديق للإنسان الآخر أن يتوسط له.

- وعند من تريدني أن أتوسط لك يا بني ؟ قالت المرأة بصوت مفعم بالحنان والمحبة.

- عند قلب الآنسة سالي ليتلطف بنا ويرحم.

وكأنما قلت نكتة لوذعية، إذ انفجرت المرأتان تضحكان وتكركران لفترة طويلة، وعندما كفتا عن الضحك، ومسحتا دموع عيونهما بظهري يديهما، قالت الأم:

- هناك بعض القضايا التي لا تنفع بها الوساطة، خصوصاً القضايا التي لها علاقة بالقلب والعواطف. إنها قناعات قبل أن تكون شيئاً آخر. وبعد أن توقفت قليلاً، أضافت:

- لا أظن أنك بحاجة إلى من يتوسط لك عندها. المسألة تحتاج إلى مزيد من الوقت حتى تتم القناعة. لا تتسرع يا بني، فقضية مثل هذه تحتاج إلى تمهل ودراسة.

لم تعلق سالي على مقولتنا، وإنما سألتني إن كنت أريد بعض الخبز المحمص والمربى مع قهوتي بالحليب.

- في الواقع لم يدخل إلى معدتي منذ عشاء الليلة الماضية سوى كأس من عصير البرتقال، ولكن ما رأيكما أن آخذكما فنفطر "بان كيك"؟ أو أدعوكما إلى الغداء في أحد المطاعم القريبة ؟

- نحن أفطرنا، ولا نريد أن نتغدى. فقط سنتناول بعض الشوربة عند الظهر. أريد أن أكون جائعة جداً عندما نذهب إلى ذلك المطعم العربي، لأستمتع بالطعام اللذيذ. قالت السيدة نورما بحماس.

- أنا سعيد جداً أن أسمع هذا. سأطلب إلى بعض العرب أن يفتحوا مطعماً عربياً في مدينة سياتل، خصوصاً من أجل عيون الماما نورما. قلت ذلك وانخرطنا ثلاثتنا في حفلة ضحك صاخبة.

*****

الفصـل الواحد والعشــرون

عدت وسالي من مطار لوس أنجلوس بعد أن ودعنا والدتها، إذ كان موعد أقلاع طائرتها بعد التاسعة والنصف ليلاً بدقائق من مساء يوم الأحد. لقد اختارت الأم هذا الوقت بالذات، كما أعلمتني سالي، لكي تبقى أطول مدة ممكنة معها؛ وكذلك لكي تكون على رأس عملها صباح يوم الاثنين التالي. لقد غادرنا إلى المطار مبكرين لأن السيدة إركسون دعتنا لتناول العشاء في مطعم المطار، على الرغم من اعتذاري الشديد والمناقشات المستفيضة لقبول الدعوة.

كنت أقود سيارة سالي، وكانت هي تجلس إلى جانبي، وكان عطرها العبق يتسلل إلى داخلي فيصل إلى كل مسامة في جسمي، فيسكرني ويخدرني وينقلني إلى عالم سحري لذيذ. كانت هي، طيلة الطريق، تحدثني عن شغفها الشديد وتعلقها الزائد بأمها، وعن حبها الكبير واحترامها اللامحدود لوالدها، "ذلك الرجل العصامي الذي أوجد نفسه من العدم"! كانت تروي لي طرفاً عن طفولتها، وتقص عليّ بعض الحكايات والنوادر التي حدثت لها مع والديها. كانت تتحدث عنهما بطريقة أذهلتني، حيث كانت تذكرهما وكأنهما قديسان، أو ملاكان يتمتعان بكل صفات الكمال والتنزه عن الخطأ ! ولعمري إنه حب غير مألوف في المجتمع الأميركي.

كانت تصف لي هيام والديها ببعضهما البعض، وكيف أنهما يجلسان أحيانا، وحتى وهما بهذه السن، يتناجيان ويتناغيان، وكيف يصف كل واحد منهما شوقه للآخر، وعندما يكونان بعيدين عن بعض، وكأنهما شابان مراهقان. كانت منذ صغرها تحلم بأن تجد الإنسان الذي تحبه ويحبها كما هما والداها، وتفعل مع زوجها كما يفعلان هما معاً.

كنت صامتاً لا أتفوه بكلمة، مصغياً إليها بكل حواسي وجوارحي. كنت فقط أستمع إلى صوتها الحنون الدافئ، وكأنما أستمع إلى إحدى السمفونيات الخالدة، فأشعر بفيض من السعادة والطمأنينة والسلام.

لقد تمنيت لو أن الطريق تمتد وتمتد حتى ساعة طلوع النهار، وأن يظل صوت سالي يشنّف أذني بموسيقاه الإلهية حتى يوم الحشر؛ ولكن للأسف الشديد، إذ سرعان ما وصلنا على الرغم من سيرنا البطيء والمتمهل على الطريق السريع. كان الوقت الذي تستغرقه الرحلة بين المطار وشقتها حوالي النصف ساعة، ولكنني شعرت بأن المسافة كأنما كانت نصف دقيقة، مع أن سالي حدثتني كثيراً عن ذكريات طفولتها ويفاعتها معاً، حديثاً مسهباً وعميقاً.

- لقد لاحظت بأنك لم تحب الطعام الذي تناولته بمطعم المطار، فقد تركت معظمه في صحونه، ولكن لا بأس، فالثلاجة عندي تزخر بشتى أنواع المأكولات، وسأجهز لك

عشاء لذيذاً، ستشكرني بعد الانتهاء من تناوله. قالت سالي وهي تضحك بعد أن أوقفتُ سيارتها أمام شقتها.

- في الحقيقة إنني لا أحب الأكل الذي تقدمه مطاعم المطارات، لأنه غالباً عديم النكهة، يطبخ كيفما اتفق، ولا أثق بنظافته. ولولا إصرار والدتك وخوفي من تأذيها لما قبلت دعوتها.

- إن والدتي تحبك وتحترمك كثيراً، وأرادت أن تعبرّ لك عن مشاعرها نحوك، ولو بشيء بسيط، مثل دعوتنا للعشاء. لقد عزّ عليها أن نوصلها إلى المطار ونعود دون عشاء.

- أنا واثق من ذلك، وأقدر لها مشاعرها النبيلة، ثم إنها ليست بحاجة للقيام بأي عمل لتثبت لي سمو أخلاقها ونبل محتدها؛ فالبرهان الساطع ها هو أمامي؛ أنت يا آنسة سالي، بشموخك وأخلاقك وسمو تفكيرك، وأيضاً بتألقك.

قلت ذلك وقفزت من خلف المقود، ودرت حول السيارة إلى الباب الآخر وفتحته لها بعد أن أحنيت لها قامتي، وفرشت لها يدي في الهواء، احتراماً بطريقة تمثيلية مبالغ فيها.

لطالما أسعد تصرفي هذا سالي وجميع الفتيات اللواتي كنت بصحبتهن، فكن دائماً يشكرنني ويشدن بشهامتي وفروسيتي؛ إذ لاحظت بأن ندرة من الشباب يفتحون أبواب السيارات لمن بصحبتهم من النساء، وإن فعلوا، فيكون ذلك في بدء التعارف فقط.

- أنت تمتدحني كثيراً، وأخشى أن يصيبني الغرور فأصدق أنني حقاً جميلة وذكية ! قالت وهي تضحك.

- وماذا تفعلين إن حدث لك هذا يوماً، واقتنعت بأنك حقاً جميلة وذكية، وذات شموخ أيضاً ؟! سألت وأنا أشاركها الضحك، وأتأمل العنق الطويل والصدر الأتلع.

- هذا سر لن أبوح به لأحد ! على كل حال تفضل إلى الداخل، فسنتابع حديثنا وأنا أجهز لك بعض الطعام، فقد تضيف صفة جديدة إلى فضائلي السابقة، وهو أنني أيضا طباخة ماهرة. قالت ذلك وأشارت بيدها بأن أتفضل.

- صدقيني إنني أتمنى ذلك من أعماق قلبي، ولكن الوقت الآن متأخر، وعليّ البحث في بعض المراجع من أجل محاضرة صباح الغد قبل أن آوي إلى فراشي. قلت ذلك وأنا حقاً حزين لأنني حرمت نفسي من متعتين اثنتين، متعة الحديث مع سالي، والتمتع برؤيتها ومجالستها؛ ومتعة التلذذ بما تطبخ يداها الحبيبتان، حيث إنني جائع حقاً. وفجأة، لاحظت أن وجهها قد ازداد إشراقا، وأن عينيها قد اتسعتا وازدادتا توهجاً، فقالت وهي تشير بيديها بطريقة مسرحية هزلية، مبالغ بها أيضا:

- نقبل عذركم يا بروفيسور دهشان هذه المرة، ولكن في المرات القادمة سنصرّ على دخولكم البيت والتمتع بطعامنا الشهي. قالت فجأة بلهجة تمثيلية مازحة أثارت دهشتي !

- ونحن سنمتثل لأوامركم وتنفيذ تعليماتكم يا سمو الأميرة ! قلت مقلداً لهجتها وإشارة يديها وتعبيرات وجهها.

- إذن تصبحين سموك على خير. قلت ذلك واقتربت منها لأقبلها قبلة المغادرة، فقدمت لي خدها، ولكنني بدلاً من ذلك، غافلتها وقبلتها على شفتيها، فابتعدت عني قائلة بلهجة قاسية وهي تتصنع الغضب والجدية معاً:

- أنت ولد مشاكس وشقي. لا تفعلها مرة ثانية ! نحن نسامحكم هذه المرة.

- حاضر يا صاحبة السمو ! إن عذري هو أنني لا أستطيع مقاومة إغراء شفتيك الساحرتين ! قلت ذلك وانفجرت أضحك وكذلك فعلت هي، وتفارقنا وكلانا يضحك ويقهقه بقلب خلي ونفس صافية.

*****

في صباح يوم الثلاثاء كنت أدخل مكتبي بهمة ونشاط فائقين، كنت أشعر بسعادة غامرة لا أعرف سببها. لم تكن لدي محاضرات حتى الساعة العاشرة، فانتهزت الفرصة لأذهب إلى المكتبة وأجمع بعض المراجع الضرورية، ولأطلع على ما ورد إليها من كتب وصلت من الوطن ... حيث أن مكتبة الجامعة متعاقدة مع الحكومة المصرية لأن ترسل لها عدداً محدداً من كل ما يطبع في القطر المصري من كتب وجرائد ومجلات ونشرات.

ذهبت إلى الطابق الذي يضم أعمال الاستشراق، وسألت سميرة كنعان، الفلسطينية الأصل، والمولودة في كاليفورنيا،خريجة هذه الجامعة، وإحدى المسؤولات عن تصنيف الكتب العربية، بأن تساعدني بالحصول على بعض المراجع، وأن تزودني أيضاً بقائمة الكتب الجديدة التي وصلت حديثاً من الوطن الحبيب. جلست إلى إحدى الطاولات بانتظار أن تصلني أسماء المراجع التي طلبتها، وكذلك القائمة.

تقدم مني شاب في مثل سني، ولكنه مربوع القامة، عريض المنكبين، له عينان حادتان كعيني الصقر، حدست أنه عربي، وسرعان ما حسمت تخميناتي عندما طرح عليّ السلام، وقال بالعربية:

- أستاذ دهشان ! أنا مجدي كسّاب، من "جمعية النجدة" ومركزها في ولاية نيويورك، جئت هنا للقاء الطلبة العرب. لقد قمت خلال عطلة الأسبوع بعدة زيارات واجتماعات، ونصحوني أن التقي بك باعتبارك أستاذا عربياً نشطاً بالدفاع عن قضايا الوطن، وتدرّس مادة العلوم السياسية، وعلى صلة بعدد كبير من الطلبة العرب.

- أهلا وسهلاً ومرحباً بك. كيف يمكن أن أساعدك ؟ لقد سمعت الكثير عن نشاطات جمعيتكم، ويسعدني الالتقاء بأحد أفرادها. قلت بعد أن وقفت وتصافحنا، ثم طلبت إليه أن يجلس.

- هناك إعداد لمظاهرة كبرى تجري في واشنطن العاصمة، أمام البيت الأبيض، كشكل من أشكال التضامن مع الانتفاضة الفلسطينية !

- رائع ! رائع ! ومتى يكون موعدها ؟ سألت بفرح غامر.

- بعد حوالي الشهرين، أي بعد الانتهاء من الامتحانات. نريد أن ندعو أصدقاءنا الأميركان؛ أساتذة الجامعات والمثقفين، للسفر إلى هناك والمشاركة في المظاهرة. بالتحديد نحن نبحث عن أمريكيين لهم رغبة وإمكانية في نقل صورة مشرقة عن الانتفاضة، وعن قضيتنا للشعب الأمريكي. حبذا لو حصلنا على أساتذة جامعيين ورجال إعلام، ورجال دين بشكل خاص.

- فكرة جميلة ! ما رأيك أن تأتي إلى مكتبي في عمارة دراسات الشرق الأوسط في الساعة الثانية ؟ أريد أن أدعوك إلى الغداء، ثم نتحدث بالتفاصيل.

- أعرف موقع مكتبك، فلقد ذهبت أولا إلى هناك، ولكن سكرتيرة القسم أخبرتني بأنك هنا في المكتبة. أما عن الغداء فأعتذر عن قبوله حيث إن عندي موعداً مع أستاذ عربي من جامعة جنوب كاليفورنيا بهذا الخصوص.

- إذن نتقابل للعشاء ! سأكون في مكتبي في الساعة الخامسة، واحضر أنت وقت ما تستطيع.

وبعد العشاء، وبعد نقاش طويل، اتفقت مع السيد مجدي أن أدعو له بعض الأصدقاء والزملاء الأميركيين ليتحدث إليهم عن المهمة المنوط بها، وأن يكون ذلك في بيتي مساء بعد غد، الخميس في الساعة الثامنة، ثم استخرجت ورقة وكتبت له العنوان.

عدت إلى البيت منهكاً بعد عناء يوم كامل. كان يوماً مليئاً بالجهد كما كان يوم أمس، فقد قمت بإلقاء محاضراتي المقررة، وفي أوقات الفراغ، وكذلك طيلة ليلة أمس ... قمت بزيارة العديد من الأصدقاء أو الاتصال بهم، لحضور جلسة المساء في بيتي، التي يمكن أن يتحدث فيها مندوب "جمعية النجدة". لم أترك أحداً من أصدقائي أو معارفي، أو حتى الذين أسمع عنهم، وأعرف أنهم من الممكن أن يشاركوا، إلا وطرقت بابه أو هاتفته. وأصبحت لدي قائمة لا بأس بها، وعلى رأسها سالي والسيد جورج مونتكيو والدكتور هانس هارنبيرق.

ومن حسن الحظ، فإنه في مساء يوم الخميس، وقبل الموعد المحدد بحوالي الساعة، جاءت سالي مبكرة، كانت تفيض نشاطاً وحيوية، وكانت ترتدي فستاناً جميلاً، وتحمل بيدها باقة ضخمة من الورد. رحبت بها وشكرتها لما قامت هي به من جهد بالاتصال أو حتى بزيارة بعض الناس. زيّنت الصالة بالورد الذي أخذت تنسقه وتضعه في " فازة "كبيرة. شكرتها ثانية على ما فعلت وتفعل، وأنا أحس بسعادة غامرة لوجودها معي ولوقوفها إلى جانبي، ولإسداء النصح وإبداء المشورة فيما يجب أن نفعله ومع من نتصل.

- ندعو الله أن يستجيب الزوار للفكرة. قلت وقلق ثقيل يستبد بي.

- لا تقلق. كلهم سيحضرون. لقد وعدوا بالمجيء. قالت بثقة وعفوية.

وبالفعل، وخلال وقت قصير، كان الضيوف قد بدءوا بالتوافد. أخذنا نستقبلهم سالي وأنا عند مدخل الصالة، ونحن نقف إلى جوار بعض كزوجين عاشقين، ما زالا في شهر العسل. وكلما دخل بعضهم صافحناهم ورحبنا بهم.

نظرت إلى سالي، فوجدتها في منتهى الأناقة والكياسة واللطف. قلت لنفسي "لماذا لا تكون هذه المرأة الرائعة زوجتي، تقف معي دائماً لاستقبال ضيوفي؟! لماذا لا يكون هذا العقل الكبير والذكاء المتوقد والشخصية القوية، رفقائي في رحلة العمر؟! إن رجلاً تقف خلفه امرأة مثل سالي يستطيع أن يتحدى الكون ويحارب أهل الأرض" !

لا شك أن سالي لاحظت شرودي وقلقي، فقد قالت بلطف:

- بروفيسور دهشان ! ما بك ؟ هل لديك صداع ؟

- لا، لا شيء. فقط أفكر الآن فيما إذا كانت مهمتنا ستنجح الليلة أو لا.

- طبعاً ستنجح ! قضيتكم رابحة. شعب ينتفض للحصول على حقوقه الطبيعية ولرفع الظلم عنه. أطفال يحاربون جيش احتلال عرمرم بحجارة. الكل معهم وسيؤيدهم. قالت بثقة وإيمان.

كان وجه سالي يطفح بالبشر والتفاؤل، وقد ارتخت خصلات من شعرها الذهبي على صدرها فوق فتحة الفستان عند الصدر، مما زاد في جمالها وإغرائها. كانت أشبه بالمانيكان التي تقف بكل خيلاء وكبرياء، وقد فاحت رائحة عطرها الأنثوي الهادئ .

جاء جورج مونتكيو، فصافحني بحرارة، ثم سلّم على سالي ونظر إلى وجهها بتأمل عميق وقال:

- وأخيرا تقابلنا ! إذن هذه هي الفرخة التي حدثتني عنها، والتي استولت على قلبك وعواطفك ! ذوقك لا بأس به. إنها فرخة تستحق الاهتمام.

ضحكت سالي واحمرّ خداها وتوردت وجنتاها، ونظرت إلى الأرض بارتباك.

- لقد سمعت عنك الشيء الكثير. إنني متشوقة جداً للقائك. يقولون إنك محيط من المعرفة ! قالت سالي وهي تهز يد السيد مونتكيو.

- وماذا قال لك عني ابن الكلبة؟ لا تصدقي كلمة واحدة مما يقوله لك عني.

- إن ما قاله عنك البروفيسور دهشان كله مديح لك، إنه يحبك ويحترمك كثيراً. إنه يتحدث عنك بإجلال وتعظيم ! قالت سالي.

- أنا أعرف أنه مديح، ولهذا أقول لك لا تصدقيه. قال ذلك وضحك ضحكته الباهتة والخالية من المعنى.

أسعدني ما قاله جورج، وأسعدتني أكثر ردة فعل سالي.

- الوقت ليس وقت مزاح يا صديقي ! نحن الآن في مهمة مقدسة، خطيرة وحساسة.

- اطمئن، أنا مدرك لهذا، ومع هذا فأنا لا أمزح، عندك ذوق في اختيار الحسان، وصاحبتك هذه لا بأس بجمالها. يبدو لي أن عندها شخصية قوية وجذابة أيضا. ثم التفت إلى سالي وقال:

- شيخ البدو هذا لا يؤتمن جانبه ؛ إنه يستبدل حريمه كما تستبدلين أنت فساتينك ! إنه زير نساء، مخادع ومراوغ، فخذي حذرك منه. إياك أن يغرر بكِ أو يخدعك ! قال وهو يضحك ضحكته الباهتة الجوفاء المعهودة .

- سامحك الله يا صديقي. أهكذا رأيك بي؟ شكراً على كل حال. قلت ذلك وأنا أتصنع المزاح، وإن كنت أغلي في داخلي وأعتقد جازماً أن صديقي جورج يعني ما يقول.

- شكراً للنصيحة. سأفعل ! قالت سالي وهي تضحك وتنظر إلى الأرض. ثم التفتت إليّ وأضافت همساً :

- حقاً ! لم أقابل في حياتي من هو في مثل جرأة وصراحة السيد مونتكيو !

- أهنئك على تبنّيك الدعوة. فكرة مبدعة. أطفال الحجارة بحاجة إلى تأييد الرأي العام الأميركي، ولو أني لا أثق بأولاد القحبة من السياسيين. إنهم عبيد للصهيونية العالمية. شكرته وأيّدت ما قال.

- علينا أن نثبت الآن نحن الاميركان تعاطفنا الصادق مع الفلسطينيين، بدعمنا الانتفاضة، أليس كذلك يا سيد مونتكيو؟ قالت سالي وهي ما زالت مطرقة بالأرض.

- أكيد. أكيد. قال وهو يرسم ملامح الجد على محياه ويتوجه إلى الداخل.

لم تتح لي فرصة مرافقته إلى الصالة، وقامت سالي نيابة عني، إذ فجأة تدفق الضيوف بكثرة. عادت سالي تقف إلى جانبي، شعرت بالزهو لوقفتها، وشعرت بأن صنوبرة ، من بلاد الأرز الذي أعشق ، تسير إلى جانبي حيثما تحركت.

جاء مندوب "جمعية النجدة" يجري معتذراً بسبب كثرة ارتباطاته، وقدمته إلى سالي، وعندما دخلنا لنجلس مع الجميع، كانت هي تجلس إلى جانبي مما أعطاني إ حساساً بالأهمية والمسؤولية معاً، ثم نهضتْ وقدمتْ الشراب والحلوى للضيوف. أحسست وهي تطوف بضيوفي، بكبرياء وفخر واعتزاز لم أشعر بها في حياتي، وأن لديّ سيدة عظيمة، ذكية، مثقفة، ذات شخصية قوية، تملأ البيت دفئاً وحناناً وجمالاً، وتمنح الفرحة والسكينة لجميع المحيطين بها.

تحدث مندوب " جمعية النجدة " عن الهدف من المظاهرة والتجمع أمام البيت الأبيض، وذكر بأن الكثيرين الكثيرين من الأميركان لم يعرفوا بأن هناك أطفالا صغاراً ينتفضون من أجل حريتهم، وأنهم يواجهون بصدورهم العارية وأقدامهم الحافية، أعتى قوة شر وبغي على الأرض منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، وأن هؤلاء الأطفال العراة الحفاة يواجهون بالحجر الدبابة والطائرة والمدفع، وأحدث ما أنتجته آلة الحرب في الغرب !

ونهض بعده السيد مونتكيو وتحدث عن دور انتفاضة الحجر في طرد الإسرائيليين من الأراضي المحتلة، وأخذ يتحدث عن الفرصة الثمينة التي لاحت حتى يقبل أتباع "يهوه" بالتفاوض. قال:

- هذا ضغط مؤثر ومقنع. هذا سيأتي بهم إلى طاولة المفاوضات والتخلي عن بعض غطرستهم وتصلبهم.

ولكنني كنت شارد الذهن، كنت أحلم باليوم الذي تكون سالي معي إلى الأبد. اليوم وكل يوم. عندما يكون لدي ضيوف وعندما أكون وحدي، تكون معي عندما أغفو وعندما أصحو؛ عندما أذهب للجامعة وعندما أعود منها؛ عندما أجلس لأقرأ أو لأكتب؛ لأستمد إلهامي من ابتسامة شفتيها ونظرة عينيها، ولكن سرعان ما انفضت الجلسة، وذهب الناس.

- سهيل بحاجة إلى امرأة مثلك، ذكية ومثقفة وقوية الشخصية، تروضه وتشفيه من ترسباته المستعصية. إنه يعاني من عقدة "التابوهات" التي جاء بها من وطنه ! قال السيد مونتكيو وهو يشد على يد سالي ويودعنا مغادراً.

غضبت أول الأمر، ولكن سرعان ما فارقني غضبي عندما رأيت سالي تضحك وهي تقول:

- وهل تعتقد أن باستطاعتي أن أفعل؟

- بكل تأكيد. قد تجدين صعوبات أول الأمر، ولكن مع الصبر والمثابرة ستصلين... صدقيني !

- جورج ! قلت لك نحن نتحدث عن أمور في غاية الأهمية والجدية... قضايا مصيرية... مستقبل أمة... وأنت تهزل وتسخر ! قلت متصنعاً الوقار والمسؤولية.

- وأنا أتكلم بمنتهى الجدية والصدق... والصراحة أيضاً ! قال ذلك وتمنى لنا ليلة سعيدة وانصرف.

بعد أن ودعنا آخر الحضور، وكان السيد مجدي والطالب العربي المرافق له، والذي ينقله إلى الأماكن التي يذهب إليها، سألت سالي عن رأيها فيما قاله السيد مونتكيو، فلم تجب على سؤالي، وإنما قالت :

- إن السيد مونتكيو موسوعة، وحديثه جذاب ومقنع. إن أمثاله قليلون. أنت محظوظ أن يكون لك صديق مثله !

- للأسف سيرحل نهائياً إلى سان هوزيه لينضم إلى زوجته وأولاده، بعد انتهاء الامتحانات بأسبوع أو أسبوعين.

- لا شك بأنك ستخسر صديقاً مهماً ! قالت سالي بأسى.

- نعم هذا صحيح. لقد أصابني اكتئاب عندما أعلمني خبر رحيله، ولكن وأنت معي الآن فالمصيبة أخف.

- ما زال رحيله خسارة فادحة لك.

وكنت قد حدثت سالي عن السيد مونتكيو قبل عدة ليالي، ومدى التصاقي وشغفي به، فطلبت إلي أن نذهب لزيارته للتعرف عليه، ولكننا لم نفعل بعد بسبب قصر المدة، وانشغالنا بالإعداد للاجتماع الليلة.

جاء الوقت الذي ستنصرف به سالي. جلست وإياها في اللحظات الأخيرة وشكرتها على حسن تصرفها ومساعدتها، وأعلمتها بأنه لولا جهودها الجبارة، ومساهماتها العظيمة، لما كان الاجتماع ناجحاً إلى هذا الحد.

- بروفيسور دهشان. أنا أتصرف بوحي من قناعتي تجاهك وتجاه شعبك.

- ما رأيك أن نأخذ السيدة الوالدة معنا. هل تظنين أنها ستقبل؟

- سيسعدها ذلك كثيراً. أعتقد أنها فكرة رائعة. سأتصل بها الليلة لأخبرها. على كل حال عليّ أن أذهب الآن، فكلانا بحاجة إلى الراحة. قالت وهي تنهض وتتوجه إلى العلاقة لتأخذ منها حقيبة يدها.

اكفهر وجهي، وشعرت بالضيق؛ حاولت أن أستبقيها، ولكنني لم أفلح. نزلت معها الدرجات وأوصلتها إلى سيارتها. أخذت منها مفتاح السيارة وفتحت لها الباب فدخلت وأنزلت شباكها وهي تكلمني. اقتربت من وجهها وحاولت أن أقبلها على شفتيها، ولكنها أبعدتهما عني فجاءت القبلة على خدها. لم أقل شيئاً وبقيت واقفاً حتى اختفت السيارة عن ناظري.

*****

عدت في المساء متأخراً إلى البيت. كان يوماً مليئاً بالمحاضرات، وبجهد متواصل للتحضير للرحلة إلى العاصمة الأميركية. كنت أواصل اتصالاتي مع الهيئات والأفراد، أحثهم على المشاركة في المظاهرة، كانت استجابة جيدة.

أخذت حماماً ساخناً، وجلست أقرأ بعد أن أعددت فنجاناً من الشاي بالليمون. كان لدي شعور بأن سالي ستأتي لزيارتي الليلة، أو على الأقل ستتصل بي لتخبرني ماذا حدث معها من تقدم، وفيما إذا كان هناك أشخاص يجب أن أتصل بهم، وكذلك لتزودني بما عندها من أسماء المشاركين لأقوم بالتنسيق مع مندوب "جمعية النجدة".

نهضت، وسرت إلى الشرفة، وكأنني أترقب قدوم سيارة سالي، كان الطقس تلك الليلة معتدلاً، وكانت تصل إلى وجهي نسمات باردة ولذيذة ومنعشة. جلست في الشرفة على أمل أن أرى سالي هذه الليلة. "سنسهر معاً، وسنتصل بوالدتها لأهنئها على سلامة

الوصول، ولأسألها عن رحلتها وانطباعها عن كاليفورنيا، إنني مشتاق لسماع صوتها الدافئ الحنون. أما إذا شاءت سالي خرجنا في جولة بالسيارة، وقد نذهب ونتناول بعض المرطبات أو أي شيء آخر، أو حتى نجلس في شقتي ونتسامر! " وضحكت من نفسي " يا إلهي ! لماذا توهم نفسك بأن هناك موعداً ؟ على الأقل ستتصل لتعطيني الأسماء، وإن لم تتصل ؟! سأتصل أنا بها. أنت تتصل ؟ ولم لا ؟ هناك سبب وجيه... الأسماء... الحاجة إلى بلورة ما حدث ! "

نهضت، وأخذت أتمشى داخل الصالة. كنت أنقل نظراتي بين الهاتف والشرفة. ولكن الهاتف لم يرن،والسيارة، سيارة سالي لم تظهر من الشرفة. نظرت إلى الساعة، فوجدتها تقارب التاسعة، ومع ذلك لم يرن الهاتف ! أصغيت السمع فلم أشعر بصوت ما في الحي. وأخيرا قررت أن أتصل بها. وبدأت بأحلى الكلمات، ولكن لا؛ سأتكلم كما لو كنت مهتماً بمسألة الانتفاضة ليس إلا. إذن، لا داعي لتنميق الكلام، فهي تفهمني جيداً، بالعكس سوف تقدر اهتمامي بفكرة الرحلة، وتثمن نشاطي السياسي ودعوتي للتضامن مع أطفال الحجارة. أنا واثق من ذلك. لقد وعيت وتأكد لي أن هذه هي طبيعتها. طبيعة الإنسان الملتزم !

جاء صوتها على الطرف الآخر من الخط. لم أتميزه أول الأمر؛ كان صوتاً ضعيفاً مرهقاً، وكأنها في غاية المرض، تتحدث من على سرير الشفاء.

- ما بك يا آنسة سالي ؟! خير إن شاء الله ! قلت بلهفة صادقة وقلق عظيم.

أخذت تشرح لي ما أصابها من وعكة صحية، وتسرد لي تفاصيل ما فعلته من مراجعة الطبيب، وشراء الدواء، وإجراء معالجة طبيعية، وما شربته من مشروبات، أذابت فيها بعض الأعشاب الطبية، وعملت المساج اللازم بالماكنة. قلت لنفسي " إذن هذه فرصتك لتذهب إليها، وتسهر بالقرب من سريرها. وربما تسلّيها حتى الهزيع الأخير من الليل؛ فتفرح هي وتسعد أنت ! " وفجأة قلت لها:

- حسناً! أنا قادم إليك لأطمئن على صحتك.

قلت ذلك وأغلقت السماعة، دون أن أعطيها فرصة للكلام، وبدأت بارتداء ملابسي استعداداً للخروج.

*****

جلست على كرسي جوار سريرها، كانت تتدثر بشرشف أبيض خفيف، وقد تركت ذراعيها داخل الغطاء، وكانت تسند رأسها إلى مسندة السرير.

- يا إلهي ! كيف أصابتك نزلة البرد ؟ قلت وأنا أتأمل الوجه الشاحب والعينين الذابلتين.

أخذت سالي تشرح لي بأنها تعاني من إرهاق شديد، فقد قامت طوال اليوم بالطواف على الأسماء التي وعدت بالاتصال بها، وأمّنت كل ما يلزم المشاركين من إجراءات ضرورية، وأنها لم تعد للبيت إلا قبل ساعة من الزمن. شكرتها على جهدها الموصول من أجل أولئك الناس المساكين الذين يذودون عن وطنهم بصدورهم العارية وحجارتهم، وقلت لها لو أن الناس في الوطن العربي الكبير وبلاد المسلمين عندهم نفس الاهتمام بقضايا الأمة ومصيرها، وما تعانيه من ظلم وقهر واستبداد؛ لما كنا وصلنا إلى ما نحن به من

تمزق وتشرذم وضياع ... ولكنهم سامحهم الله وهداهم يعيشون حياة السفه واللاأبالية، وكأن الذين يقتلون وتُجتث جذورهم من كوكب آخر، وليسو إخوة لهم في الدين والقومية...!

- دعنا نفعل ما بوسعنا، أنا واثقة من أننا نستطيع عمل الكثير. قالت الشابة بحماس.

- تستحقين كل الشكر يا آنسة سالي. أنت امرأة عظيمة، وهنيئاً للرجل الذي تقبلين أن تكوني شريكة له ! قلتها وأنا أتأمل إبداعات الخالق الأعظم الجمالية، وقاصد أن تفهم ما أعني.

ابتسمت ولم تعلق على مقولتي، وإنما قالت:

- أنا فرحة لهذه الرحلة، وآمل أن تحقق أهدافها.

- وماذا عن الماما ؟

- تكلمت معها الليلة الماضية، ورحبّت بالفكرة وستكون معنا.

- أنا سعيد جداً بقبولها مرافقتنا. إنها ستشد من أزرنا وترفع من معنوياتنا. إنها فرصة جيدة أن أراها ثانية، وأن نعرف بعضنا أكثر. أنا أحبها وأحترمها كثيراً. إنها امرأة مثالية.

- شكراً. وهي تحترمك وتحبك وتعتقد أنك إنسان رائع. قالت سالي بصوت ضعيف مما زاد في سحر حديثها.

- أنا أريد الابنة أيضا أن تعتقد هذا ! قلت وأنا أرقب الكلمات تخرج من شفتيها الهزيلتين.

لم تعلق واكتفت بابتسامة خجلى، ثم تحاملت على نفسها فنهضت وهي تقول:

- دعني أحضر لك شيئاً تشربه. قالت ذلك وأزاحت الغطاء عن جسمها، وبصورة عفوية مددت يدي لأحول بينها وبين النهوض، فلم أفلح. تمنيت لو أنها تسمح لي بأن أحضر أنا لها شيئاً تشربه، ولكنها أصرت على أن تقوم هي بذلك. كانت تلبس قميص نوم قصير جذاب، ارتدت فوقه روباً أطول منه قليلاً، وتوجهتْ إلى المطبخ. تمنيت لو أنها في بيتي وعلى فراشي، أقدم لها شيئاً كحبيبة أو كزوجة. بدأت أحلم باليوم الذي ستتحرك به على هذه الشاكلة في بيتي. "إنه وقت مناسب أن أسألها ثانية فيما إذا غيّرت رأيها ووافقت على الزواج مني. اليوم مناسب. إنها في حالة المرض وبحاجة إلى من يتعاطف معها. ستقتنع بأنك تريدها للزواج، وليس لممارسة الجنس فقط. أن تخاطبها وهي في أدنى حالاتها المعنوية، بل إنها في وضع أقل من العادي. ستتأكد بأنك حقاً جاد ومحب لها، وأنك إنسان شهم، ونبيل وذو أخلاق عالية... و... و... الخ ".

عادت سالي تحمل القهوة. أسرعت آخذها من يدها، فيما عادت تجلس هي على حافة السرير. قلت:

- ستكونين بخير. وعكة بسيطة وتمر. أريد أن أدعوك ووالدتك بعد انتهاء المظاهرة لقضاء عدة أيام في نيويورك وما حولها، ثم نذهب أيضاً لرؤية شلالات "نياقارا".

ضحكت بسعادة، وأخذت عيناها تمطرانني بإشارات ودية، ثم جلست صامتة لا تقول شيئاً. لقد لاحظت أنها كانت ما تزال تحت تأثير الصداع، ولكنها كانت تشعر بأنها في غاية السعادة على زيارتي المفاجئة لها. قلت مستغلاً تلك الظروف المواتية :

- آنسة سالي. أنا أريد أن أعيد عليك سؤالاً كنت قد سألته لك قبل مدة وجيزة. ربما من المحرج أن أقوله في مكان آخر. اليوم أشعر بأنني ضيفك، وأنني أستطيع أن أتبسط بالأمر، وأقول ما لا يمكن أن أقوله بغير هذا المكان.

- لا حاجة لأن تقول شيئاً. أنا أعرف ما تريد قوله !

- عظيم جداً. إذن ما هو رأيك ؟ قلت بفرح.

- أرجوك أن تقبل دعوتي إلى العشاء. هل تعشيت ؟ قالت مغيرة موضوع الحديث.

- تريدين الصدق ! لا. لم أتعش، ولكنني لست جائعاً. أريد أن أسمع رأيك في طلبي يدك.

- تعال إذن نذهب للمطبخ، فنعدّ ما نأكله. قالت ذلك ونهضت وأشارت لي بيدها أن تفضل ورافقني.

سعدت بالدعوة، وأخذت أتخيل كيف أنني سأعيش مع هذه الإنسانة الوادعة الرقيقة، سأعيش بالتأكيد مع صديقة وحبيبة، وزوجة ومعجبة وتلميذة. لا أدري كيف قفزت لمخيلتي صورة سالي، وأنا أتصورها وهي تأتي إلى شقتي، وتأخذ بالطواف داخل الشقة. تتشبث بي، تقبلني. تثير رجولتي في كل حركة وضحكة وكلمة. ولا تنفك تستثيرني حتى أحملها إلى الفراش. بعدها نهدأ ونفكر بشيء آخر، كأن نأكل أو نسمع الموسيقى أو نقرأ، أو حتى أن يقوم كل منا بعمل واجباته الأكاديمية المعتادة. أنا أحضر محاضراتي، أشتغل على رواياتي، أكتب رسائل للأهل، وهي تستعد لدروس الغد. حقاً إن سالي امرأة من نوع آخر، نوع فريد !

وعندما جلسنا نأكل الشطائر، ونشرب معا عصير البرتقال على طاولة المطبخ، كانت سالي في منتهى الرزانة والهدوء. كنت أعتقد بأنها ستجيب على سؤالي بخصوص طلبي الزواج منها ونحن نتناول الطعام في المطبخ، ولما لم تفعل لم أسألها ثانية، فلقد أدركت أنها ربما تريد مزيداً من الوقت للتفكير. بعد الانتهاء من الطعام عبرّت لها عن رغبتي في الانصراف لأعطيها الفرصة لتستريح، ولكنها قالت:

- إذا كنت ستذهب لأنك مشغول، فلن أعترض؛ أما إذا كنت ستذهب لأنني لا أستريح إلا بذهابك فلا. أرجوك إذا كان لديك الوقت فامكث معي، وجودك أنساني المرض، وبعث السكينة والهدوء في نفسي. إنك لا تتصور كم وجودك معي يسعدني ويريحني. أنا أشعر الآن بقوة جبارة في كياني وعافية ضخمة في نفسي. أشعر كأنما كنت واهمة بأنني مريضة. شكراً لك زيارتك ردّت إلي عافيتي.

"إذن، لماذا لا تقبلين الزواج بي، إذا كنت أعني كل هذا بالنسبة لك؟ أم أنك تمثلين، وأنتن تجدن هذه المهنة!" دار هذا السؤال بخاطري!

- يسعدني أن أبقى معك. وأنا مسرور جداً جداً لأنك تتجاوزين حالة المرض.

- إذن لا تذهب. سأضع بعض الموسيقى الهادئة، وأحضر لك شيئاً تشربه.

- ليس في معدتي مكان للزيادة. أرجوك، اجلسي لنتحدث فقط. سماع صوتك يسعدني.

- أعتقد أن الذي سأحضره، ستجد له مكاناً في معدتك. قالت ذلك ونهضت ثم فتحت أحد الأدراج وأخرجت منه كيساً ووضعت بعضاً مما بداخله في صحن، ثم حملته وقدمته إلي.

- وكيف عثرت على هذه المكسرات. بزر القرع والكوسا والبطيخ، وكذلك الفستق واللوز المحمص ؟ ! هذا رائع ! حقاً إنها مفاجأة، ودائماً لها مكان في معدتي مهما كانت مملوءة ! قلت بفرح غامر.

- اشتريتها من متجر عربي في لوس أنجلوس. كنت أعرف أنك ستفرح عندما أقدمها لك. إنها مفاجأة بسيطة. أعرف بأن العرب يشتاقون لجو بلادهم، ومثل هذه الأمور تنقل ذلك الجو إلى هنا.

ضحكتْ بسعادة، وأخذت بعض الفستق ثم شربت جرعة من كأس البيرة بعد أن قرعت كأسها.

- ما رأيك أن نقضي عطلة نهاية الأسبوع في مدينة" لقونا بيش " ؟ سألتها.

- وهل نسيت المهمة المقدسة التي نحن نناضل من أجلها ؟! سألتْ بلهجة عتاب.

- حاشا لله ! ولكن فرحتي بك جعلتني أفكر بهذا !

- إذا جاءت نهاية الأسبوع، وكنا قد فرغنا مما نعد له، ذهبنا لقضاء العطلة في " لقونا بيش ". قالت.

- فكرة جيدة ! أرجوك اعذريني. أنا إنسان عاطفي، أطير مع عواطفي، وأحلق مع أحلامي ؛ أما أنتِ فلا تجعلين عواطفك تتحكم بتصرفاتك ! دائماً تستعملين العقل.

- صدقني إن عواطفي تجمح بي وتستبد في كثير من الأحيان، ولكنني أكبحها وأحكم العقل ! قالت.

- هذا هو الفرق بيني وبينك؛ وإن كنت أعتبر أن الواحد منا مكمّل للآخر ! قلت .

ولما لم تقل شيئاً استرسلت:

- آنسة سالي. أنا سعيد بك، لا أريد أن أخسرك، أقصد أريد أن أشعر دائماً بأنك إلى جانبي. هل تفهمين ؟ أرجوك، فأنا عندما أصطدم بنظرات عينيك، لا أحسن التعبير وتخونني الكلمات !

ضحكت بعمق ومتعة وقالت:

- أنت تخونك الكلمات، ولا تجيد التعبير؟! لم يمرّ عليّ إنسان يستطيع أن يعبر عن مشاعره أجرأ منك. أنت تقنع الشجر، وتلين قلب الحجر ! ثم لماذا تخونك الكلمات ؟ قل ما تود أن تعبر عنه بأبسط الكلمات وأقصرها وأوضحها. كلي آذان صاغية إليك.

وجدت نفسي في الزاوية، كما وجدت أن فرصتي قد لاحت الآن لأسمع رأيها الأخير بالموافقة على الزواج أو الرفض. فرشت ابتسامة كبيرة، ونظرت إلى وجهها بعينين ولهتين مدنفتين.

- آسف أن أكرر نفسي. آنسة سالي. أنا لا أريد أن أخسرك، لا أريد أن أفقدك، أريد أن تظلي معي. أنا أحبك، وبحاجة إليك، إذ أشعر بالأمن والأمان وأنت إلى جانبي؛ وأريد أن أتزوجك.

ضحكت بسعادة، فأشرق وجهها واحمرت وجنتاها وقالت:

- ولكنك لا تحتاج لمثل هذا البلاغ المبسط. إن مشاعرك تصلني دون تقريرية. الواحدة منا يا بروفيسور تدرك بغريزتها الأنثوية ما يريده الرجل منها، وإذا كان جاداً أو هازلاً.

- إذن، لماذا تتركينني أتعذب في نار الشك والحيرة ؟!

- سمّها شقاوة بنات، يسعدهن تلهف محبيهن !
- تقبلينني زوجاً يا آنسة سالي ؟ قولي نعم ! أرجوك... أريد أن أعرف ذلك؛ الآن إذا سمحت !
- إذا كان ذلك مهماً جداً عندك؛ أنا أقول نعم.
أصغيت إلى صوتها العذب، الحنون الدافئ، يتدفق حرارة وأنوثة ورقة، حتى أحسست بأنه يتدفق إلى داخلي كجدول رقراق فيمتزج بدمي، فينحدر إلى أحاسيسي وعواطفي، فشعرت كأنني ثمل بخمرة سماوية !
- تتزوجينني؟! قلت بفرح مجنون، وقد قفزت واقفاً.
- نعم. هل تريد أن أوقع على ورقة ؟! قالت وهي تبتسم.
- طبعاً... طبعاً... ورقة الزواج.
ووجدتني أحتوي جذعها بذراعي، وأهجم عليها وأعب من شفتيها عباً، وأنهل من رحيقهما، وأشرب من أنفاسها شرباً ! لقد قبلتها على شفتيها، وعينيها، وخديها، وأذنيها، وشعرها، وعنقها، وصدرها وكل مكان وقعت عليه شفتاي. كنت أريد أن أعبّر عن فرحتي الغامرة بها، وأطمئن نفسي بأنني لن أخسرها، وأننا سنكون معاً بعد اليوم. استجابت هي لعناقي، ولكن بطريقة متحفظة خجلى.
وعندما أحسست بأن جسمينا قد وصلا ذروة الاشتعال، حملتها بين يدي كطفلة صغيرة، فصارت تضحك بجذل طفولي، وتتقلب بين يدي، ولكن عندما شعرتْ بأنني أتجه بها نحو غرفة النوم، وأدركت بأنني أريد أن أطارحها الغرام، خلصت نفسها من بين يدي بغضب ممزوج بالقسوة والخشونة، صائحة بي :
- إياك أن تحاول ذلك قبل الزواج، وإلا فاعتبر موافقتي لاغية.
شعرت بالخجل والندم معاً، فاعتذرت لها بانكسار ومذلة، ولعنت في سري تسرعي وشبقي كليهما؛ ولكنها سرعان ما طيّبت خاطري، وعبّرت لي عن مسامحتي بأن قالت "لا بأس" وصارت تقبلني وتلف يديها حول عنقي تارة، وخصري تارة أخرى. لم أستجب لقبلاتها وعناقها بنفس الحماس السابق، فقد كنت ما زلت أشعر بالندم وأحس بالانقباض !

*****

الفصل الثاني والعشـــرون

عدت إلى البيت متأخراً، وكان أول شيء أفعله هو الاستماع لتسجيلات التليفون، فقد كان عليه أربع مكالمات. جاء صوت ألكسس تعلمني أنها مشتاقة لي جداً، وأنها تعد الثواني لتعود إلى كاليفورنيا، وأنها لم تعد تطيق رؤية مدينتها ولا الناس الذين بها من معارف وأصدقاء، وأنها لم تعد حتى تهتم كثيراً بالبقاء مع والديها بعد رحيل جدتها، وقالت بأنها ستتصل ثانية بعد نصف ساعة لعلي أكون قد عدت. كان موعد مكالمتها الساعة السابعة إلا خمس دقائق، كما قال المسجل، أي أنها تكلمت من مدينتها في الساعة العاشرة إلا خمس دقائق، حسب التوقيت المحلي لولايتها. استمعت إلى الرسالة الثانية والثالثة والرابعة وقد كانت جميعها منها، تقول بأنها ستتصل بعد نصف ساعة. نظرت إلى

ساعتي، ومن مقارنة وقت الرسالة الرابعة على الوقت الحالي، وجدت أنها ستتكلم بعد أقل من عشر دقائق.

عندما سمعت الصوت أسقط في يدي، إذ شعرت بأن شيئاً ضخماً قد سقط على رأسي، أو أن مصيبة حّلت بي. لقد ظننت أن ألكسس قد تفكر بالبقاء في الجنوب بعد وفاة جدتها، وأنها قد تتخلى عن فكرة العودة إلى كاليفورنيا، وأنها لا بد وأن تنغمس باهتمامات جديدة ورفقاء جدد. ولكن ها هي تعود ثانية. أعوذ بالله ! ماذا يمكن أن أفعل ؟! كيف يمكنني أن أفهمها بأنني أريد أن أنتهي من هذه العلاقة المجنونة الطائشة، وأنني لا أريدها أن تكون لي صديقة بعد اليوم ؟ ! أخذت أتميز من الغيظ وأفكر بطريقة للتخلص منها. وبدأ خيالي يطرق كل باب ويفكر في كل حل، فوجدت أن الطريقة الوحيدة للهرب منها، هي أن آخذ سالي ونهرب إلى مكان نختفي به ولا تعلم عنا شيئاً. ولكن كيف أقنع سالي بفكرتي، وماذا أقول لها ؟!

وقطع علي حبل أفكاري رنين الهاتف، انتفضت من مكاني، وقلت لنفسي "لا ترد. إنها ألكسس. دع آلة الهاتف تسجل مكالمتها الخامسة" لم أستطع مقاومة يدي التي امتدت إلى السماعة، وشعرت أن قلبي قد هفا شوقاً إليها، وأن مجرد التفكير بمكالمتها قد ألهب لواعج الشوق في داخلي، وحالما قلت "آلو" جاء صوتها:

- داشو، حبيبي أين كنت. مشتاقة إليك... أكاد أجنّ من كثرة الشوق. أعد الدقائق لأن أراك وتضمني إلى صدرك. الحياة لا طعم لها ولا معنى بدونك !

- وأنا مشتاق إليك يا ألكسس. مشتاق إلى ضماتك وقبلاتك. وجدت لساني يقول على غير وعي مني.

- صحيح يا حبيبي؟ ! ما أسعدني بك وبحبك ! أنا أشعر بوحدة قاتلة بعيدة عنك. أكاد أحترق من شدة الشوق ! ليتك أتيت معي. قالت ذلك وانفجرت تبكي.

- قولي لي ما حدث. كيف حال البابا والماما بعد رحيل جدتك ؟ سألت باهتمام صادقاً.

- هما حزينان جداً لأجلها، ولكن ليس كحزني أنا. لقد كنت متعلقة بها، ولم أكن أعرف أنها سترحل يوماً وتتركني. فراقها ترك فراغاً مخيفاً في حياتي؛ ولكن أشكر الله أن عوضني إياك عنها.

- شكراً يا حبيبتي. تستطيعين دائماً أن تعتمدي عليّ. سأبقى دائماً إلى جانبك أرعاك وأحبك ! مرة أخرى وجدت لساني يقول دون إرادة مني، وقد تمنيت حقاً لو أنها الآن إلى جانبي، فقد أحسست برغبة محمومة إلى جسدها، إذ صار جسمي يهتز ويرتجف شوقاً ورغبة ، فأدركت عندها أن مضاجعتها والتحام جسدينا هو مرض عضال، من الصعب لي الشفاء منه. وأدركت أيضاً أن حبها مسكون في داخلي وحتى في عظامي، ولا يمكن التخلص منه. إنه يجري مع دمي ! ولكنني يجب أن أحاول، وأن أظل أحاول، إذ لعلّ وعسى.

- آه يا حبيبي داشو ! كم أتمنى لو أنني الآن بين ذراعيك... في أحضانك... تعصر جسمي بيديك، فأنا أموت شوقاً إليك.

- صدقيني وأنا كذلك. قلت صادقاً.

- لا تقلق، فُرجت. سأراك غداً مساء. انتظرني في المطار. سأكون في مطار لوس انجلوس في السابعة مساء، حسب التوقيت المحلي لكاليفورنيا.
- سأكون بانتظارك. أسرعي إلي يا ألكسس. يا أغلى امرأة على الأرض، فأنا لا أستطيع الانتظار مدة أطول. قلت وأنا أتصور نفسي أحملها إلى الفراش، وأغرق نفسي في ترف جسمها الباذخ.
- داشو ! أنت لم تقل لي أين كنت هذا المساء ؟ هل كنت عند مارينا هارتمان ؟ قل لي يا حبيبي. اصدقني القول. أرح قلبي. أرجوك! الغيرة تحرقني ! قالت باستعطاف أحزنني.
- أنا لم أر مارينا منذ شهور، صدقيني. اقسم بعينيك الجميلتين. قلت صادقاً.
- إذن مع من كنت. أنا أعرف، أنت لا تحب أن تكون خارج البيت طويلاً.
- لقد كنت مع مندوب "جمعية النجدة" وعرب آخرين. لقد أعلمتك عن ذلك قبل سفرك. هل نسيت ؟ نحن نجتمع ونخطط لرحلة التضامن مع شعب الانتفاضة، لنقيم المظاهرة أمام البيت الأبيض.
- آه ! لقد نسيت. بالمناسبة كيف تسير الأمور. آمل أن تكونوا قد وفقتم في جلب عدد كبير من المؤازرين.
- نعم. لقد حصلنا على قائمة لا بأس بها.
- طبعاً سأذهب معكم. لا تنس أن تضيف اسمي إن لم تفعل بعد.
- لا. لا. هذا لا يمكن. صحت لا شعورياً وقد تصورت عظم المشكلة.
- ولم يا حبيبي ؟ ! هل ما زلت تخجل أن ترى بصحبتي؟ متى سنتخلص من هذا الكابوس ؟! على كل حال لا تحزن. أظن أنني وجدت الحل !
- وما هو ؟ قولي لي إذ لعله حلّ غير مناسب. قلت هلعاً.
- لن أقول لك الآن. إنه سرّي. ستعرفه في الوقت المناسب. قالت ذلك وصارت تضحك.
- إياك أن تفعلي شيئاً دون إعلامي مسبقاً وإلا سأغضب منك.
- لا تخف. هذا القرار سيفرحك جداً جداً. انتظر وسترى.
- عظيم ! إذن أخبريني عنه قبل تنفيذه.
- إلى اللقاء يا حبيبي. تصبح على خير وأحلام سعيدة. سأراك في السابعة مساء الغد. ثم سمعت أصوات عدة قبلات على خطوط الهاتف وأغلقت السماعة.

بعد أن هدأ قليلاً تأجج عواطفي نحو ألكسس، وبعد أن خفّت حدة اشتعال مشاعري نحوها، تساءلت "لم أشعر بهذا الشعور الجامح نحوها؟ ولم قلت لها ما قلت؟ لقد ارتبطت حديثاً، وبعد معاناة ومطاردة وإقناع، بفتاة لها كل مميزات ما يتمناه الرجل الواعي المثقف بالمرأة من علم وثقافة وذكاء؛ ومن جمال وأناقة وكبرياء ... ! ولم هذا الجشع والفجع، وهل يحدث هذا بإرادتي وتصميمي مع سبق الإصرار والترصد، أم أنها قوة تتحكم بي وتستبد بتصرفاتي، ولا طاقة لي بها ولا سلطان لي عليها ؟! وهل حقاً أن عندي ترسبات مستعصية كما قال صديقي جورج ؟! ولما لم أستطع الحصول على إجابة، ولما عجزت عن تفسير كُنه ما يحدث، قلت بلهجة المقهور... المحبط... والمظلوم العاجز... وطني ! يا وطني الكبير ! إنني أحقد عليك وأنقم... إنني ألعن العادات التي تربيت عليها وأحتقر

التقاليد التي ترعرعت فيها... وطني... يا وطني ! كم أحبك وكم أكرهك ! " وعندها نزلت دمعتان كبيرتان كجمرتين حرقتا جفوني !

*****

مرّت ثلاثة أيام لم أر ألكسس. لم تأت إلى شقتي، ولم تهاتفني وأنا بدوري لم أهاتفها، ومع أنني شعرت بشوق لرؤيتها وسماع أخبارها، إلا أنني كنت أرجو أن تكون قد عزمت أمرها، وحزمت حقائبها وعادت إلى بلادها؛ أو أن تكون قد قابلت إنسانا فأحبته وأحبها وقررا العيش سوية، أو الرحيل إلى أية جهة يريدان. المهم أن تختفي من حياتي لأنني أريد أن أتفرغ لسالي وحبها.

كنت قد قابلت ألكسس بالمطار، وأحضرتها إلى شقتي، وقضينا حتى الفجر ونحن نتبادل الغرام، وكأن لنا شهوراً أو سنوات لم نر بعضنا. وفي الصباح الباكر أوصلتها إلى شقتها لتستعد وتذهب إلى الجامعة. لم تقل شيئاً، سوى أن برأسها فكرة تريد أن تنفذها، وأنني سأسمع عنها وأعجب بها.

- ولم لا تقولين لي فكرتك الآن؟ سألت بحدة وغيظ.

- ستعرفها في حينها، وستعجب بتصرفاتي وآرائي. إنها فكرة رائعة لكلينا. قالت ذلك وهي تحمل حقيبتها وتغادر السيارة، وتصعد إلى شقتها.

منذ تلك اللحظة لم أرها ولم أسمع منها ولا عنها شيئاً؛ وهذا هو اليوم الثالث ينقضي على تلك الحادثة ويبدأ اليوم الرابع؛ وإنه يوم السبت. لقد تكلمت مع سالي طويلاً، فأعلمتني بأن عليها واجبات دراسية كثيرة، تحب أن تقوم بها أولا، فاتفقنا على أن أمر عليها بحدود الساعة السادسة وأن نخرج للعشاء.

كانت الساعة تقريباً العاشرة والنصف ضحى، عندما رنّ جرس الهاتف، وكانت المتكلمة ألكسس. أفرحني جداً سماع صوتها وأحسست بشوق لرؤيتها وعناقها، ولكنني وقبل أن أسألها عن أحوالها قالت:

- أنا قادمة إليك الآن. قالت ذلك وأغلقت السماعة قبل أن تسمع رأيي، وقبل أن أتمكن من الاعتذار.

"يا لها من مجنونة متهورة ! لا بد أنها الآن تركض نازلة إلى سيارتها. ستكون هنا خلال مدة قصيرة. يا إلهي ! أية مصيبة تحل بي ! لقد كان عقلي يتمنى لو أنها تختفي من حياتي إلى الأبد، ولكن قلبي كان يرقص طرباً لحضورها. لقد طلب إلي عقلي أن أهاتفها وأطلب إليها أن لا تحضر، لأنني أحب فتاة أخرى، وأريد أن أمضي حياتي معها... أي أن أصارحها بالحقيقة؛ ولكن قلبي كان يسخر من عقلي ويعلمني بأنني لا أستطيع، وأنني أريدها أن تأتي إلي وأن تظل حاضرة في حياتي ".

ألقيت بنفسي على الكنبة العريضة في الصالة، أفكر في طريقة تريحني من هذه البنت المجنونة، وأخذت أضع كل الاحتمالات، ولكن بلا فائدة. فكرت بالأيام التي مضت منذ أن التقيت بها آخر مرة، وكم شعرت بالراحة إذ اختفت من حياتي لفترة، ولكن ها هي تعود ثانية كالقدر الأهوج. اللعنة ! ماذا أفعل ؟! إنني عاجز عن التفكير !

استمرت بي الهواجس. نهضت، وصنعت فنجاناً من القهوة. شربت قهوة ساخنة، وأخذت دوشاً ساخناً أيضاً، وألقيت بنفسي على الكنبة من جديد. لم تكن صورة ألكسس لتفارق مخيلتي، صورة ذلك الجسم الطويل النحيل، الجسم الفائر المملوء نشاطاً وحيوية.

الجسم الذي استعبد عواطفي وأحاسيسي. ترى كيف ستأتي الآن ؟! ببنطال قصير، وبلوز لا يكاد يغطي نهديها ! آه ما أجمل وأحلى أن أدفن رأسي بينهما، وأن تداعب شفتاي حلمتيهما ! يا إلهي! كيف يمكن أن أستغني عنها، أنا مولع بها إلى هذا الحد... حد الهوس ! رباه ! رحماك ! أنني مخلوق ضعيف أمام الجمال... ضعيف... ضعيف... ضعيف...!

ليت القدر خلق ألكسس وسالي في امرأة واحدة ! آه، نعم ليته...! إذن... لربما قنعت ! ولكن هيهات ! أنا رجل مفجوع في حب المرأة ! قدري ! آه يا قدري كم ظلمتني وقسوت عليّ !

نهضت من مكاني كالملسوع. كيف يمكن أن أخرج من هذه الورطة ؟ ساعدني يا رب ! فكّ أسري وخلصني من أغلالي ! خلّصني من رقي... من عبوديتي... من مرضي... أرجوك... أرجوك...!

*****

انفتح باب الشقة، وها هي ألكسس تدخل الصالون بقامتها الفارعة، وتدق الأرض بكعب حذائها بصورة عنيفة ومثيرة للأعصاب ! حملقت بها من مقعدي فوق الكنبة باندهاش وحيرة. كانت ترتدي زي سيدة محتشمة، وتحمل حقيبة يد كلاسيكية، وعلى رأسها قبعة بيضاء فاخرة ! يا إلهي ! ما هذا ؟! كانت تحمل بعض الفساتين بعلاقاتها، وكذلك بعض الصور الكبيرة بإطاراتها الجملية المنمقة ... ألقت بها جميعاً فوق الكنبة ؛ وقبل أن أفتح فمي، وأنا ما زلت مندهشاً مذهولاً مما أرى، هجمت عليّ وصارت تقبلني على شفتي وعيني ورأسي وعنقي وكل مكان تقع عليه شفتاها، بطريقة هوجاء رعناء، وكأنما لنا سنوات غائبين عن بعض...!

نهضت من مكاني، وأنا ما زلت أنظر بذهول لما أرى. ومرة أخرى، فتحت ذراعيها من جديد وضمتني إليها. لفحني عطرها الفاغم، وانثالت خصلات شعرها الذهبي المتناثر تغطي وجهي، وتتهدل على صدري، قالت :

- أعذرني يا حبيبي لغيابي عنك كل هذه المدة. لقد كنت أسوي الأمور، ولم أرد أن أكلمك أو أراك حتى ينتهي كل شيء. والآن ها قد انتهى كل شيء !

- عم تتحدثين، وما هذا الذي تحملينه وتلبسينه ؟ وماذا فعلت بنفسك ؟!

- حبيبي داشو ! لقد فعلت كل ما يرضيك. شطبت اسمي من الجامعة، ولم أعد أدخلها.

- ماذا تقولين؟! أمجنونة أنت؟ بقي على نهاية الفصل ثمانية أسابيع فقط، تضيعي عليك التعب كله في لمح البصر؟ ما هذا التصرف الأحمق ؟ صحت بها غاضباً ثائراً، وقد أطلقت نفسي من بين يديها بخشونة.

- أنا لست مجنونة ولا حمقاء ؛ أنا عاشقة ... ! لو تتصور قسوة العذاب الذي عانيته بعيدة عنك وأنا في مدينتنا "سفيرفل" في ولاية تنسي، لما لمتني ولعذرتني. كنت أشعر من شدة شوقي إليك، كأنما إنسان يضع يده بأحكام على فمي فيمنعني من التنفس ! أريد أن أعمل كل ما يرضي حبيبي... ما يرضيك وما يسعدك ! قالت ببرود وهي تبتسم.

- وهل تعتقدين أن تصرفك اللامسؤول هذا يسعدني ؟! قلت وأنا أهز يدي اليمنى بعصبية وغضب لاهب.

- لا أريد أن يقول أحد بأن البروفيسور دهشان يتعايش مع تلميذته، وداخل شقته. أنظر يا حبيبي. ها أنا أصبحت سيدة متميزة. لم أعد صبية رعناء مراهقة. أنظر إلى ملابسي المحتشمة وقبعتي وحذائي ونظارتي. أنظر... ألا يعجبك ما ترى ؟! لقد انتهى وجود ألكسس الصبية المغامرة، وجاءتك السيدة ألكسس المحترمة الرزينة المحتشمة !

- وهل تظنين أن تصرفك هذا يسعدني ؟ ! إنه على العكس تماماً، يحزنني ويغضبني معاً. قلت هذا وتهاويت جالساً على الكنبة من شدة التأثر.

جلست ألكسس إلى جواري وخلعت قبعتها، وقفازيها ونظارتها ووضعتها جميعاً على الطربيزة وهي تقول:

- ياه ! ما أجمل الراحة والهدوء في البيت، إلى جانب الرجل الذي نحب !

لم أعلق، حاولت استيعاب المفاجأة الجديدة. أخذت أنقل نظراتي بين وجه ألكسس، وأشيائها المكدسة بالقرب من الباب.

"وأخيرا وقع ما وقع. وها هي الصبية ثانية تبرز في حياتك يا سهيل ! ياللكارثة ! ماذا ستقول سالي عندما تعرف أن ألكسس تسكن معي وفي شقتي ؟ إسمع، كن رجلاً واطردها، وارم أشياءها على الرصيف، بل ارمها هي وأشياءها إلى الشارع. إذا تهاونت لحظة، فلن تستطيع أن تكبح جماحها... سوف تدمر هذه الصبية الحمقاء... الرعناء... كل الأحلام التي أملت فيها في حياة سعيدة مع سالي. إن عينيها تنظران إليك بشهوة ونهم ... كن شجاعاً وتصرف بالأسلوب الصحيح ! يكفيك ضعفاً أمام حبها. تخلص منها، كن رجلاً ! ".

- قم يا حبيبي وساعدني على إحضار حاجياتي من السيارة. قالت ألكسس ذلك، وأمسكت بيدي ترفعني عن الكنبة.

انقدت لها كالمنوّم، أو كطفل وديع ينقاد لأمه، ونزلنا الدرج سوية، وبدأنا نفرغ السيارة من حمولتها ونضعها كيفما اتفق في الصالون. استغرقت العملية أكثر من نصف ساعة، وقبل أن نأخذ مقاعدنا، توجهت ألكسس إلى الثلاجة وعادت تحمل علبتين من البيرة المبردة، فتحت الأولى وناولتها لي، وفتحت الثانية وبدأت تحتسيها.

- هل أنت غاضب مني يا داشو ؟ أنا فعلت هذا لأنني لا أستطيع أن أعيش بعيدة عنك. قالت بلهجة دلع مغناجة، وأصابع يدها اليمنى تعبث بشعر رأسي، وعيناها تتأملان وجهي.

- طبعاً أنا غاضب منك ! أنا غاضب جداً ! كان يجب أن تعلميني قبل أن تنفذي خطتك. خصوصاً انسحابك من الجامعة. أنت تعلمين كم أنا غيور على تعلم الفتاة.

- أنا مدركة ذلك تماماً. لأن أخواتك لم يتعلمن.

- ولهذا فأنا مسكون بهاجس تعلم الفتاة. قلت.

- هل أفهم أنك غاضب لتركي الجامعة، أما مجيئي للسكن هنا فأنت راض عنه !؟

- تستطيعين أن تقولي ذلك. ولو أنني كنت أفضل لو أنك أخبرتني قبل أن تخطي هذه الخطوة الحمقاء !

- لقد اتخذت هذه الخطوة التي كنت أنت متردداً في اتخاذها، والتي كان يجب أن تنفذها أنت ! لقد وعدتني أنك ستفعل ذلك قبل أربعة شهور، ولما لم تقدم على اتخاذ قرار... اتخذته أنا !

- ومن قال لك إنني كنت متردداً في اتخاذ القرار؟ ! أنا كنت أنتظر الوقت المناسب ! قلت بخشونة الرجل الشرقي الذي شعر بأن أنثاه قد تغلبت عليه ولو بالمنطق.

- أظن أن الوقت الآن مناسب جداً. أنا أحبك ولا أريد أن أبقى دقيقة واحدة بعيدة عنك، إلا عندما تكون في قاعة المحاضرات. قالت ذلك وأخذت علبة البيرة من يدي ووضعتها هي والعلبة التي بيدها على الطربيزة. ولفت يديها حول عنقي، وانهالت علي تقبيلاً وبحرارة سعّرت الدم في عروقي، وحتى شعرت كأنما تأكل شفتي. استجبت لقبلاتها لفترة، ولكنني عندما تذكرت سالي، انقبضت نفسي وأبعدتها عني بلطف قائلاً:

- أرجوك ِ! دعيني أجلس قليلاً، لأنني حتى الآن لم أستوعب ما عملته. قلت ذلك وتناولت علبة البيرة وجلست على الكنبة، بعد أن ابتعدت عنها قليلاً.

- أي عمل تعني، تركي للجامعة أم رحيلي وسكني هنا ؟

- طبعاً تركك الجامعة، فأنا أريدك أن تتعلمي وتتخرجي من الجامعة، إذ أريد أن تكون صديقتي خريجة جامعة ومثقفة، وليست خريجة مدرسة ثانوية فقط. أما سكنك معي فقد سبق ووعدتك بتحقيقه بعد أن أمهّد للأمر. قلت جاداً في الأولى وغير صادق في الثانية.

- يا حبيبي ! يا داشو! بعض الطلبة هنا في أميركا ينهون الدراسة الثانوية، ويؤجلون الالتحاق بالجامعة لمدة قد تمتد عشرين سنة. كل الذي سأمكثه أنا خارج الجامعة نصف عام دراسي؛ أي فصلاً واحداً فقط. أنا الآن قلقة عليك. دائماً متوترة الأعصاب لأنك دائماً قلق وخائف أن يعرف من في الجامعة بأن أستاذاً وطالبته يعيشان معاً؛ وأنا خائفة وقلقة لخوفك وقلقك. دعنا نتمتع بحبنا ونسعد به. قالت ذلك ونهضت حيث وضعت حاجياتها، وأخذت حقيبة جلدية كبيرة، وبدأت تجرها على عجلاتها باتجاه غرفة النوم. وعندما مرّت من أمامي قالت وعيناها ترقصان فرحاً :

- داشو! في هذه الحقيبة مفاجأة لك.

- وأية مفاجأة ؟! سألت وأنا أحملق بالحقيبة.

- المفاجأة هي المفاجأة. انتظر... قالت ذلك وأسرعت تجر الحقيبة إلى غرفة النوم، ثم أوصدت الباب خلفها. قلت لنفسي "ماذا يمكن أن تكون المفاجأة؟! يا إلهي! إنك تضعف يا سهيل أمام هذه الجنية. هيا... أخرجها عنوة من البيت، أسمعها كلاماً يجعلها تكرهك وتبتعد عنك إلى الأبد. هيا كن شجاعاً، تحرر من حبك لها، من ولعك بجسدها. إنهض واستجمع شجاعتك... ماذا ؟ هل ستقوم الآن ؟ "

وانفتح باب غرفة النوم، وخرجت ألكسس وكأنها حورية تخرج من البحر. كانت ترتدي قميص نوم مغلق بالكامل؛ قميصاً من الحرير الأبيض الشفاف الذي يلتصق بالجسد، وقد بدا نهداها الفائران تحته، وكأنهما بلا غطاء. كانا مشدودين إلى الأمام، ومندفعين كمدفعين مصوبين؛ أما جذعها الأسفل فكان عارياً تماماً، على الرغم من أنه ملفوف بالقميص الحريري الشفاف. كان جسدها كله ملفوفاً بالقميص وعارياً تماماً في نفس الوقت.

أخذت أتأمل ما أرى بعينين زائغتين نهمتين، وهي تدور حول نفسها، وتستعرض مفاتنها بطريقة فنية ساحرة، وكأنها عارضة أزياء حاذقة محترفة. وكلما استدارت بدا كل شيء في جسدها واضحاً للعيان، ولكنه ملفوف ومشدود داخل القميص الشفاف الصارخ. أخذت تمشي في الصالة، وتدق الأرض بكعبي حذائها وكأنما تدق فوق أعصابي ! قلت وقد تيقظت كل خلجة في كياني:

- ما هذا يا ألكسس؟ تبدين كاسية عارية. وأخذت أضحك ضحكات متشنجة مأزومة. توقفت الصبية عن الحركة، وقد ظهرت على وجهها علائم الخيبة.

- لم أتوقع أن يكون جسدي مضحكاً. كنت أظنه غير ذلك !

- إنه ليس مضحكاً يا جميلة الجميلات. إنه فاتن ومثير!

- ولماذا تضحك إذن ؟ سألت وقد بدأت الخيبة تفارق وجهها.

- تذكرت شيخ المسجد، في مدينتنا الباسلة الصامدة، الذي يتحدث عن الكاسيات العاريات، والذي كان دائماً يوصينا بأن نغض الطرف عندما نراهن، وكيف أن النظر إليهن يدخلنا جهنم، فقلت هذا تجسيد لما يقول.

- ولماذا تغض النظر عندما ترى شيئاً جميلاً ؟ وهل دينكم يحرّم عليكم النظر إلى ما هو جميل ؟!

- فقط النساء الجميلات، لأنهن يفتنّ الناظر إليهن !

- داشو ! لم أفهم ما تقول ! ماذا تعني ؟!

- أعني أنك مخلوقة فاتنة تخلبين لبّ الناظر إليك، وأنا الآن أتأمل تحفة فنية رائعة، منحني إياها الله، وهي حبيبة القلب ألكسس.

- صحيح يا داشو ؟! هل أنا حقاً جميلة ؟! أرجوك قلها ثانية. إنني لا أصدقها من إنسان غيرك ! قالت وقد استعادت هدوءها، وغطت وجهها ابتسامة زادتها سحراً وجاذبية.

- وهل تشكين في قولي ؟ أرجوك تابعي ما كنت تعملين. أحب أن أشاهدك هكذا لساعات وساعات !

وعادت تمشي في الصالة... كان جسدها الضارب للحمرة يميس داخل القميص الحريري الوهمي، وكأنما هي "موناليزا" داخل الإطار في متحف اللوفر في باريس. ومع حركة ذراعيها كانت تبدو شعرات ما تحت الإبط كبقعتين من القهوة العربية اليمنية المحروقة. رحت أتأمل قسمات الجسد الفائر، وللحظات خيل إلي بأنني أراقب عرضاً جنسياً في ملهى ليلي في شارع 42 في مدينة نيويورك، أو في ناد للتعري ... وتصورت بأنني أجلس وسط جمهور يصفق لعرض تقدمه فنانة حاذقة ومحترفة تعرض أجمل جماليات الجسد البشري، تحيط بها كوكبة مجوسية يعبدون... ويقدسون...!

استرخيت في مكاني على الكنبة، وأطلقت العنان لتخيلاتي، فشعرت بأن رأسي يعتريه دوار فظيع، وألقيت رأسي على الكنبة. جاءت ألكسس وجلست إلى جواري، وهي أشبه بقطعة الكريم داخل وعاء وهمي. ملّست على جبيني، وجذبت رأسي باتجاهها، جابهتني شفتاها كفلقتي الفستق، وأحسست بهما تسبحان على جبيني وخدي ثم شفتي، ولم أعد بعدها أفكر في أي شي، سوى أنه لم يعد بوسعي أن أستجمع واحداً بالمائة من الشجاعة التي كنت أتوهمها وأعتدّ بها في نفسي ! ما أضعفني، بل ما أجبنني أمام الجمال المتميز !

- الكنبة غير مريحة يا حبيبي. لقد افتقدت فراشنا كثيراً. قم يا داشو! قالت بطريقة حالمة... دافئة... وعيناها تضجان بالشهوة.

قامت برشاقة وكبرياء من على الكنبة وأمسكت بيدي، فنهضت معها وعيناي ما زالتا تحدقان مبهورتين بما أمامهما؛ وقادتني فانقدت لها كالمسحور أو المنوم !

*****

استيقظت في صباح اليوم التالي متأخراً؛ أيقظني صوت حركة ألكسس في البيت. كانت ترتب أشياءها التي أحضرتها معها. وأخذت تدق المسامير لتعليق لوحاتها وأعمالها الفنية في هذا الحقل. إن ألكسس رسامة موهوبة، وأعتقد أن لها مستقبلاً باهراً. لقد أعلمتني أنها تعشق الرسم وتمارسه منذ كانت طفلة في الثامنة. لقد شجعتها أستاذة الرسم، وكذلك جدتها التي تحب الرسم وتمارسه هي أيضاً كهواية؛ ولقد رسمت لي صورة أذهلتني حقاً لإتقانها وبراعتها !

في مكتبي اختارت مساحة جيدة نصبت فيها لوحة الرسم التي تعمل عليها، دون أن تستشيرني، إذ لعل ذلك يرجع إلى أنها تعرف جيداً أنني لا أعارض ما تفعل، لأنني أؤمن بسداد رأيها وحكمة تصرفها في مثل هذه الأشياء. وباختصار ، بدا البيت شيئاً آخر. كل شيء مرتب وفي مكانه، وقد صار منظر الشقة يريح النفس ويشرح القلب، مما أسعدني جداً، وإن لم أبح لها بهذا ! وكان طعام الإفطار جاهزاً، وعندما جلست إلى الطاولة، جلست ألكسس إلى جواري والتصقت بي وهي تصب لي عصير البرتقال، وتمزج القهوة بالحليب وتضع الخبز "بالتوستر" لتحميصه.

- حبيبي ! لقد كتبت قائمة طويلة بما سأشتريه من حاجيات الطعام؛ ولكن قل لي ماذا تحب أن أعدّ لك على الغداء. أنا طباخة ماهرة، علمتني أمي الطبخ منذ كنت في الرابعة عشرة من عمري.

- ولكنني أتغدى عادة في مطعم الجامعة.

- لقد نسيت أن اليوم الأحد، وأن مطعم الجامعة مغلق. ثم إنك لا تحتاج لأن تتناول وجبات الطعام بعد اليوم في مطعم الجامعة... أبدًا. سأوصلك كل يوم إلى الجامعة في الصباح، وأحضرك للغداء، ثم أعيدك وأعود في المساء لآتي بك، وأكون قد طبخت لك الأكلة التي تحب. سنتناول العشاء سوية في مطعم، ليلة أو ليلتين في الأسبوع. قالت ذلك وهي تداعب خدي وتبتسم. ولما لم أعلق أضافت:

- سأقضي النهار في تنظيف البيت والطبخ، وعندما أفرغ منهما، أجلس إلى مرسمي أكمل اللوحة. أما في المساء بعد العشاء، فسألقم الكمبيوتر فصول روايتك، بعد أن تنتهي من إعداد محاضراتك، اللهم إلا إذا أحببت أن نسهر في الخارج أو نزور أحدا من أصدقائك.

ومرة أخرى لم أعلق ولم أتفوه بكلمة، وإنما اكتفيت بهزات متواصلة من رأسي علامة الموافقة. في الحقيقة أن ترتيب ألكسس لحياتي أسعدني وأراحني كثيراً، حتى أنني تمنيت ولفترة قصيرة، لو أن سالي لم تكن، أو لو أنها تختفي لفترة حتى أشبع من هذه الحياة الجديدة. ولكن سرعان ما عاودني القلق والتوتر، إذ ماذا أقول لسالي وكيف أتصرف مع هذا الوضع الجديد؟! امرأة تسكن معي، وأخرى مخطوبة لي تنتظرني. كان الله في عوني على هذه الورطة التي أوقعت بها نفسي بسبب غبائي وقصر نظري !

دخلت ألكسس الحمام، ووصل إليّ صوت غنائها مترافقاً مع صوت سقوط الماء، فهرعت إلى الهاتف وطلبت سالي، واعتذرت لها عن عدم استطاعتي أخذها إلى العشاء هذه الليلة أيضاً، ولا حتى رؤيتها، لأن مندوب جمعية النجدة ومعه مجموعة من الطلبة العرب، غير الذين حضروا معه الليلة الماضية، جاءوا إلى شقتي للبحث في أمور الرحلة، وقد أضطر لمصاحبتهم إلى بيت أحد الزملاء لنواصل البحث والتخطيط هناك.

- على الرغم من أنني أتطلع بشوق للقائنا الليلة، وأنني أشعر الآن بخيبة أمل، كما أحسست الليلة السابقة، إلا أن القضية الوطنية تأتي أولًا. قالت سالي ذلك وأحسست بالألم والانكسار في صوتها.

- آسف يا حبيبتي. سأعوض لك ذلك قريباً. لا أستطيع التكلم طويلاً لأنهم ينتظرونني. إلى اللقاء.

قلت ذلك وأغلقت السماعة وخفقات قلبي تضرب طبلتي أذني من شدة القلق والخوف. عندما عدت إلى مقعدي على الكنبة، تساءلت: إلى متى سأظل أعيش في الكذب ؟ ! ثم ما هي الوسيلة التي ستنقذني مما أنا فيه ؟! وبقيت فترة طويلة أحدق بإحدى الرسمات التي علقتها ألكسس على جدار الصالة، بعينين جامدتين حائرتين. ولكنني لم أحصل على جواب، ولم أجد في الأفق منفذاً من الممكن أن أخرج منه. اللعنة ! اللعنة ! اللعنة !

*****

الفصـــل الثالث والعشـــرون

بدأت الاستعدادات للرحلة إلى العاصمة الأميركية، وأخذت أعدّ حاجياتي الشخصية، ولكنني كنت أعيش جو الدوامة. أخذ يغمرني شعور خفي أشبه بشعور من يعيش مع زوجتين، لا تعرف إحداهما عن الأخرى؛ فهذه ألكسس مقيمة معي في البيت ليل نهار، وتوصلني إلى الجامعة وتعيدني منها، وتعدّ لي طعامي، وتغسل وتكوي لي ملابسي، وتصرّ على أن تحممني وتقلم أظافر يدي وقدمي؛ وتعتني بشؤون البيت ... وهي سكرتيرتي أيضاً التي تطبع محاضراتي ومادة روايتي؛ ووسط هذا الجو العائلي الجديد الرافه والباذخ، أشعر بأن لسالي عليّ حقاً زوجياً غامضاً ... إنه التزام ! آه ما أشد قيود الالتزام للذين عندهم ضمير وإحساس بالمسؤولية ... ! صحيح أنني أتحاشى بالمرة أن

أترك لها مجالاً بأن تأتي إلى بيتي، وأعمل جهدي لأن أراها في الجامعة، وأزورها في بيتها، ومع ذلك فإنني أتصرف دائماً كالخائف، كالمجرم الذي يتوقع أن يلقى القبض عليه في كل لحظة. أخشى أن يفتضح أمر علاقتي المزدوجة مع سالي وألكسس. سترك يا رب !

عندما أذهب في الليل لزيارة سالي، ثم أعود متأخراً للبيت، تمطرني ألكسس بعشرات الأسئلة: أين كنت ومع من سهرت؟ في كل مرة أقول لها بأننا نجتمع نحن الشباب العرب، لنخطط للرحلة، وأختلق لها شتى المعاذير. ولكن إلى متى ؟ كانت تطلب مني دائماً أن أصطحبها إلى هذه الاجتماعات المزعومة ! ولكنني أقنعتها بأنني أفضل أن لا يعرف إخواني العرب بأن لي صديقة، كانت إلى مدة قريبة طالبتي، وإنها تصغرني عشر سنوات. ولقد طلبتْ إلي مراراً أن يكون مكان الاجتماع في شقتي، أي أن يأتوا إلي بدلاً من أن أذهب أنا إليهم، فأقنعتها لنفس السبب "لا أريدهم أن يروك في شقتي." نقاشات طويلة كانت تدور بيننا بهذا الخصوص، وفي كل مرة كنت أقنعها بأنني على حق وهي على خطأ. ولكن ماذا سأقول لها، وكيف سأتصرف بعد أن نعود من الرحلة. قلت لنفسي ، لكل حادث حديث.

عندما كنت أزور سالي في بيتها أو أراها في الجامعة ألمح الأسئلة الحائرة المستعطفة في عينيها. تريد أن تسألني لماذا لا أدعوها لزيارتي في البيت ؟ ولكن سالي فتاة مهذبة، ذات كبرياء، ولا تحرجني بالأسئلة، وهي أيضاً منهمكة هذه الأيام بالأعداد لأطروحتها وكذلك الاستعداد للرحلة؛ كما إنها ستسافر بعد الانتهاء من الامتحانات إلى مدينة سياتل، ومن هناك ستطيران، هي وأمها، إلى العاصمة الأميركية ونتقابل فيها.

*****

انتهت الامتحانات، وأخذت سالي إلى المطار، ووعدتها بأنني سأتفرغ لها بعد العودة من الرحلة، ولست أدري لماذا قلت هذا، وما الذي سيتغير في وضعي بعد العودة من السفر ؟! لعله الشعور بالذنب الذي جعلني أقول ما قلت ... واستأجر السيد مونتكيو سيارة كبيرة لترحيل ما عنده من أثاث في سانتا مونيكا إلى سان هوزيه، حيث سينضم نهائياً إلى زوجته وأولاده، على أن يعود قبل يوم السفر المحدد بيوم واحد، وهو تسعة أيام بالضبط، لنطير معاً إلى العاصمة الأميركية.

لقد قضينا، ألكسس وأنا، أسبوعا تاريخياً، ومن أسعد الأسابيع، إذ كانت ألكسس تصرّ على أن تعمل لي مساجاً كل يوم، وأن نتعشى في مطعم فاخر كل ليلة، وأن نشاهد فيلماً في هوليوود أو نحضر مسرحية ... أما وسط النهار، فقد كنا نقضيه إما على شاطئ البحر أو في الجبال. كنت أتصل كل ليلة تقريباً بسالي، من هاتف أجرة أو من الشقة إن أمكن ذلك، ونتحدث طويلاً عن الشوق والمعاناة وعن خططنا للمستقبل !

جاءني صديقي السيد مونتكيو ليلة السفر، وسهرنا سوية حتى ساعة متأخرة من الليل. أعدت لنا ألكسس العشاء، وتركتنا لتغسل أدوات الطعام، ومن ثم أوت إلى الفراش. كانت تتصرف كأنها الزوجة، ولم يكن من الصعب على جورج أن يكتشف حقيقة ما يجري، وعندما جلست وإياه نتحدث في هدأة الليل، قرأت في عينيه كثيراً من الأسئلة الحائرة ! لقد كان ينقل نظراته بيني وبين ألكسس، وهو لا يقول شيئاً، إذ يبدو أن الرجل

يحترم ويقدر الورطة التي أنا فيها. أما أنا فكنت في منتهى الحيرة والارتباك، وكذلك كنت في أشد الخجل والقلق منه، خصوصاً كلما أتذكر ما قاله لسالي ليلة الاجتماع من أنني لست أهلا للثقة. وها هو الآن يتأكد بنفسه من مقولته !

*****

ذهبت ألكسس لتنام مبكرة، بعد يوم وليلة حافلين بالحركة والنشاط، وبقيت أنا وجورج جالسين في الصالون. قال جورج بلهجة تهكمية ساخرة، أحسست كأنها سكاكين تغوص في داخلي.

- يجب أن لا تنام هذه الليلة قط ! إذ لا بد أن الحزن الذي يستولي عليك بسبب فراق هذه الفرخة الناعمة ، سيبعد النوم عن عينيك. ثم أخذ يضحك ويكركر بلا انقطاع.

- جورج ما بك ؟! هل تتشفى بي ؟! أهذا هو مفهومك للصداقة ؟!

قال وقد توقف عن الضحك، ولكن هذه المرة بنظرة خبيثة :

- أحسدك على قوة أعصابك ! كيف ستتصرف ! أنت في ورطة يا صديقي. هل تفهم؟! أنت في ورطة قاتلة، وإلى متى ستصمد ؟! لا أدري ! المرأة الأميركية لا تستسلم للأمر الواقع إذا لم يعجبها !

سكتُّ، ولم أتفوه أنا بكلمة، فلم يكن لدي ما أبوح به، فأكمل :

- هل تحب الاثنتين يا سهيل؟ ما هذه المأساة التي تعيشها؟ أنا أفهم بأن الرجل المسلم من الممكن أن يتزوج بأربع نساء في وقت واحد، ويتردد على أربع بيوت ... ولكنه يفعل ذلك في وضح النهار، وأمام العالم كله؛ فكل امرأة تعرف أن لها مجرد حصة، حصة ما في هذا الرجل؛ أما أن يعيش ويتعايش رجل مع نساء لا تعلم إحداهن بالأخرى، وفي نفس المدينة، فهذا ما لا أستطيع أن أفهمه أبدا !

واصلت الصمت. كانت الحيرة تأكل أعصابي، والقلق يمزق وجداني، ولم أجد ما أرد به على جورج. عاد يتحدث وأنا مجرد مستمع لا يجد ما يشارك به في الحديث. وأخيرا بدا عليه أنه ملّ من التحدث إلي، فنهض وتناول حراماً وشرشفاً ومخدة، كانت ألكسس قد وضعتها له، وتكوّر على الكنبة العريضة وأخذ يستعد للنوم. وحالما ألقيت بنفسي في الفراش، لم أجد إلا وألكسس، على جري عادتها كل ليلة، قد زحفت باتجاهي وألصقت جسمها بي، وتناولت يدي اليمنى ودستها تحت رقبتها بعد أن رفعت رأسها قليلاً، وسحبتُ يدي اليسرى ونومتها فوق رقبتها، ثم فعلت هي نفس الشيء بيديها. إنها تصر دائماً على أن ننام هكذا متعانقين !

*****

كانت الساعة تقارب الفجر، وسحبت نفسي من بين ذراعي ألكسس، ونهضت، إذ لا أريد أن أوقظها قبل أن نكون جورج وأنا قد استحممنا وحلقنا ذقنينا وارتدينا ملابسنا.

كانت ألكسس نائمة على بطنها، وبدا ظهرها عارياً تماماً، كانت ترتدي سروالاً صغيراً لا يكاد يستر عجزها. كانت قطعة من الجمال الرباني. انحنيت كالعابد ، وطبعت

قبلة خفيفة على عنقها، فكنت كأنما أنا في محراب قدسي أتعبد به ! تململت في فراشها فظهر نهدها الأيمن، قبلته بتعبد وخشوع. استيقظتْ تماماً، ثم أدارت نفسها حتى صار وجهها وصدرها في مقابلتي. فتحت ذراعيها وكأنما لتحتويني بينهما. ترددت بإلقاء نفسي فوقهما، فطلبتْ إلي أن أقترب منها، ولما نمت فوقها صارت تقبلني بوله، أما أنا فصرت أقبل شفتيها وعنقها وصدرها ونهديها. توقفت طويلاً في تقبيل نهديها، إذ إنني أشعر بسعادة جلّى كلما قبلتهما وداعبتهما.

- ستشتاق إليهما. قالت وهي تضحك جذلى.

- سأشتاق إليك كلك، وليس فقط إليهما. سأشتاق إلى كل ذرة في جسمك... وإلى أحاديثك وروحك... أنا أحبك يا ألكسس... أحبك بجنون... أشعر بالضياع بعيداً عنك ! صدقيني ! وجدت نفسي أقول، وعاطفة عنيفة تهز كياني ، وقد تزاحمت الدموع في عيني ...!

- إذن خذني إليك للمرة الأخيرة قبل أن تغادر ! قالت وقد تأجج وطيس عواطفها وحركاتها.

- لا. ليس الآن. لقد تأخرت على السيد مونتكيو. إنه لا يتردد في تجريحي إن غضب ! فهو كما تعرفين جريء إلى درجة الوقاحة ! إنني أتصوره الآن يقف خلف باب غرفة النوم ليقرعه. قلت هامساً .

- أرجوك. أشعر أن جسمي يحترق شوقاً إليك. قالت بتوسل ورجاء.

- قلت لك لا أستطيع. ليس لي رغبة إطلاقا عندما أكون مشدود الأعصاب، قلقاً. ثم إننا تطارحنا الغرام مرتين الليلة الماضية. قلت هذا وخلّصت نفسي من بين ذراعيها ونهضت. لاحظت الخيبة والحزن يغطيان وجهها، مما أحزنني وآلمني جداً !

على الرغم من أن للسيد مونتكيو ذقناً، فلا بد من أن يقوم ببعض التشذيب والترتيب لها يومياً. خرجت إلى الصالون، فوجدته مضاء، وكان جورج قد استحم وحلق وارتدى ملابسه بالكامل، وبدا كأنه على أهبة الاستعداد للخروج.

- أرجو أن تكون قد نمت نوماً هادئاً. قال بعد أن ردّ علي تحية الصباح.

- لم أذق النوم للحظة. كنت مرتعاً للخوف والقلق.

- كان الله في عونك ! إنك بحاجة إلى معجزة لتنقذك من ورطتك التي أوقعت نفسك بها؛ باختيارك، ومع سبق الإصرار!

- أرجوك يا جورج! لا تنكأ جروحي. أتوقع منك العون والمواساة وليس اللوم والتشفي.

- أنا لا ألوم ولا أتشفى ! أنا أشعر بالشفقة ممزوجة بالألم.

ولكني ما كدت أخرج من الحمام لأرتدي ملابسي، إلا ووجدت أن طاولة المطبخ مملوءة بأطايب الطعام، كانت ألكسس قد جهزتها. البيض المسلوق والمقلي، العسل والمربى معاً، سلطة الفواكه المشكلة، عصير البرتقال والجريب فروت، الشاي والقهوة، بالإضافة إلى "السيريل" والحليب.

- عليك اللعنة يا سهيل ما أحقرك وأنذلك ! إنك تكفر بنعم الخالق ولا بد من أنه، سبحانه وتعالى، سيحرمك من كل هذا يوماً ! هذا هو ناموس الكون ! قلت لنفسي !

- أمامكما وقت طويل قبل أن تصلا إلى واشنطن دي سي. قد لا يقدمون لكم أكلا على الطائرة إطلاقا، وإن فعلوا، فقد لا تحبه يا داشو! قالت ألكسس.
- صاحبك داشو، هذا البدوي، يفضل أكل المنسف أو المقلوبة أو الكرشات المحشية بالأرز واللحم على الطيارة. قال السيد مونتكيو بلهجة تهكمية ساخرة ولاذعة، وهو يجوس بناظريه بين مفاتن ألكسس المرتدية "الروب" فوق قميص النوم.
- ما هذا يا سيد مونتكيو ؟ ! أنا لم أسمع اسم هذا الطعام من قبل. قالت ألكسس وهي تنقل طرفها بين جورج وبيني.
- هذه أسماء أكلات عربية نأكلها بالوطن يا حبيبتي ! قلت مبالغاً في التودد.
- ولماذا لم تعلمني إياها حتى أطبخها لك ؟!
وانفجر جورج يضحك، ولكنني تداركت الموقف، فقلت:
- سأفعل ذلك حالما نعود من رحلتنا. أحب أن آكلها من بين يديك يا حبيبتي. قلت ذلك وتناولت يديها الاثنتين، ووضعتهما إلى جانب بعض، برقة واحترام زائدين، وقبّلت أناملهما، مما أسعدها وأطربها كثيراً. لقد ظهر ذلك جلياً على قسمات وجهها !
- شكراً يا حبيبي. أنت حقاً رجل شهم مهذب ! قالت بعد أن قبلتني قبلة خاطفة على خدي الأيمن.
- ما أقل ما تعرفين من الحقيقة القاتلة ! وجدت السيد مونتكيو يقول.
اصفرّ وجهي، وقفز قلبي، وارتفعت دقاته، حتى أحسست بأنه سيهرب من خلال طبلتي أذني ... إذ أن جورج أحيانا، يقول كلاماً واضحاً وصريحاً لدرجة الوقاحة، فقلت بسرعة مخافة أن يسترسل في كلامه:
- ألا تعتقد يا جورج بأننا تأخرنا، وأننا يجب أن نسرع ! أخشى أن تفوتنا الطائرة !
- لا تخف لن أقول شيئاً. أنا رجل ملتزم. قال.
- ماذا تعني يا سيد مونتكيو ؟! سألت ألكسس وقد ضيقت حاجبيها وحملقت بوجهه.
- أنا أعني بأنك ربة بيت رائعة. شكراً للفطور. إنه لذيذ جداً. قال ذلك وشرب آخر قطرة من القهوة في فنجانه. ونهض وكذلك فعلت ألكسس وتبعتهما أنا.

*****

في الطريق إلى المطار، لم يتفوّه السيد مونتكيو بكلمة واحدة، لقد كان يدخن بطريقة غريبة لم أعهدها منه قبلاً ؛ فقد كان عادة يقص نصف السيجارة الأسفل ويلقي به بعيداً، ويكتفي بتدخين النصف الأعلى ؛ أما اليوم، فهو يدخن السيجارة كاملة ! كان يجلس في المقعد الخلفي صامتاً، ولاحظت من مرآة السيارة، بأنه مستغرق في تفكير عميق. كنت أنا الذي يقود سيارة ألكسس، وكانت هي تجلس إلى جانبي، وكانت تقريباً هي الوحيدة التي تدير معركة الكلام. كنت أعلق بكلمة هنا وأخرى هناك، بين الفينة والأخرى.
- سأفتقدك كثيراً... سأسلي نفسي أثناء غيابك بطبع المسودات من رواياتك... أتوقع لها نجاحاً ساحقاً... عندي ثقة بأنها ستكون على قائمة أكثر المبيعات...! سأحاول أيضاً أن أكمل الرسمة التي بدأتها لوالدتك بملابسها الوطنية... سأرسلها لها حالما أنتهي من رسمها... إنني أحب والدتك كثيراً... لقد أهدتني أغلى إنسان في الوجود... أنا واثقة أنها ستحبني هي أيضاً... بعدها سأبدأ برسم صور أخواتك وأخيك مجتمعين. أعتقد أنهم سيفرحون بها... لن أخرج من البيت إلا لشراء الحاجيات... سأنتظر مكالمة منك كل

يوم... أريدك أن تنجح وتصبح مشهوراً، كما أريد لقضيتكم العادلة الإنصاف، وأن يعرف الشعب الأميركي الظلم الذي حلّ بشعبكم... أنا حزينة أنني لا أستطيع السفر معك بجسمي، ولكن تأكد بأن روحي معك دائماً لا تفارقك. إذا غيّرت فكرك وأردتني أن أنضم إليكم، فسأكون عندك خلال ساعات... تعود إلي بالسلامة يا حبيبي. سأعد الأيام إلى أن تعود. سيكون اليوم أسبوعا، والأسبوع شهراً. أرجوك لا تغب عني أكثر من أسبوع، لأنني سأتعذب كثيراً، وقد أموت من الشوق والبعاد...!

كان كل كلام ألكسس طيلة الطريق إلى المطار مثل هذا الكلام، وكنت بين الفينة والأخرى أقول كلمة لأطيب بها خاطرها وأطمئنها بأنني أنا الآخر أحبها كثيراً، وأنني سأظل أفكر بها، وأنني لن أغيب أكثر من أسبوع. ولقد طمأنتها أيضا بأنني سأكلمها كل يوم أكثر من مرة إذا استطعت.

سمعت السيد مونتكيو ينظف حلقه بطريقة مبالغ بها؛ وكأنما ليقول لي " يكفيك كذباً ودجلاً أيها الوغد، سينتقم منك الخالق يوماً أيها النذل ... ! " وعندما تلاقت عيوننا بالمرآة، نظر إلي نظرة شعرت كأنما يخرج منها لهيب يحرقني !

في قاعة المسافرين، وبعد أن سلّمنا حقائبنا إلى موظفة المطار، هجمت عليّ ألكسس تعانقني، وتقبلني على كل مكان في جسمي، مما أخجلني وأربكني أمام صديقي جورج، الذي ابتعد عنا قليلاً، حالما وضعت ذراعيها حول رقبتي، وبدأت بتقبيلي، ثم انفجرت تبكي بهستريا مما جلب انتباه كل من في القاعة الكبيرة .

في هذه اللحظة، اهتزّ وجداني، واستيقظ ضميري، وتحركت كل جارحة في جسمي ألماً وحزناً وندماً، إذ شعرت باحتقار شديد... شديد... لنفسي، ولكياني ولكل وجودي، وتمنيت لو أنه كان متواجداً معي في هذه اللحظة مسدس، لكنت أطلقت النار على نفسي، لأنه تأكد لي بأنني لا أستحق حب هذه المخلوقة البريئة، الطاهرة، الوفية، وأنني لست إلا نذلاً من أنذال العرب ... أنذال الربع الخالي وحفر الباطن وصحراء تهامة ...!

لم أقل شيئاً، ولم أفتح فمي، وإنما فككت يديها من حول رقبتي، بقدسية وبحنان وتعبد، واتجهت نحو بوابة الدخول. لم أنظر خلفي قط، وبقيت سائراً حتى صالة انتظار المسافرين، وهناك رميت بنفسي فوق المقعد. أحسست بهامشيتي وضحالتي وخوائي ... وأنني مكبل بقيود الخرافات الغيبية والقيم الهلامية، كما أحسست وكأنما أنا كومة متحركة من الخداع والنذالة والانحطاط الحضاري، وأنني نتاج مجتمع متخلف، عفن، آسن؛ وأننا جميعاً قطعان من المنافقين والدجالين والمشعوذين، ندعي الطهر والتقوى والصلاح، مع أننا لا نعرف من هذه القيم إلا اسمها. وأن أولئك الذين نطلق عليهم اللاأخلاقيين والإباحيين، وننعتهم بكل ما في القاموس من صفات دونية، لا يكذبون كما نكذب، ولا ينافقون كما ننافق ولا يخدعون كما نخدع ...! اللعنة ! اللعنة !

وتساءلت بثورة لاهبة وغضب ماحق، عن سر انحطاطنا وتخلفنا، حتى أصبحت أخلاقياتنا وقيمنا ومثلنا العليا، يحددها ويرسمها لنا فرج المرأة وقضيب الرجل ...! وبكل ما بي من قوة وغضب، وبكل ما في أعماقي من إحباط وقهر؛ وبأعلى صوتي بصقت في الهواء "تفوووه ... ! " لم يبق واحد في القاعة إلاّ وسمعها، لأنني رأيت كل من حولي ينظرون إليّ باستنكار وتعجب !!

جاء صديقي جورج، ولم يجلس قريباً مني، وإنما جلس في الركن الآخر من الصالة؛ وبقينا على هذه الحالة، كل يحدّق بالفراغ أمامه، حتى سمعنا صوت الموظفة تطلب إلينا أن نستعد، لأن موعد أقلاع طائرتنا قد حان .

*****

نعم ياصديقي جورج ؛ إن معك الحق كل الحق ، أن تبتعد عني وأن تهرب مني ، بل وأن تحتقرني وتزدريني...! ومعك الحق كل الحق حتى أن تخلع حذاءك وتبصق على قاعه وتضربني به...! صدقني إنني لا ألومك إن فعلت واتهمتني بالجبن والخسة والنذالة، وكذلك إن وصفتني بالانحطاط والوضاعة والخيانة...! كيف لا أكون نذلا وخسيسا يا صديقي، وأنا أقابل كل محيطات هذا الحب والوفاء والتضحية من ألكسس، بالخيانة والغدر والأنانية ؟! وكيف لا أكون وضيعا وجبانا وأنا أهرب من كل هذا في رابعة النهار ، تحت وهم أنني غير كفؤ للزواج وتحمل مسؤولياته، وبحجة أنني ملتزم بقضايا الوطن وهمومه ؟!!

إنني يا صديقي وبحكم تكويني الفكري وحسي التاريخي، أعاني من عفنٍ روحي وصدأ وجداني وانحطاط أخلاقي ... ! لقد سُرقت مني طفولتي يا جورج، ونُهب مني شبابي، وسُلبت مني أحلامي...! لقد امتُهنت كرامتي، وأهينت رجولتي، وديس على كبريائي ! أنا ليس لي طفولة، ولا حتى يفاعة ... فمنذ أن بلغت التاسعة من عمري وأنا أتحمل مسؤولية ابن الخامسة والعشرين ... !

سامحني يا صديقي واغفر لي ، فأنا نتاج مجتمع قبلي، سادي، قمعي واستبدادي ... ذو عصبية جاهلية، يعتبر أن الأخلاق والصدق والشرف والوفاء ليست إلا أوسمة فخر وبطولات دونكوشيتية معلقة على جدار الفرج وموطنها المسالك البولية !

لقد ولدت من رحم الخرافة، وأرضعت كل غيبيات الجهل والجهالة ، وترعرعت في أحضان التفاهة، وعندما كبرت لفتني عباءة الإقليمية والقبلية الجاهلية ، ثم انحسرتُ وتقزمت فارتديت ثوب العائلية ... !

لقد فتح لنا الغرب أبوابه على مصراعيها بحضارته التي لا ننتمي إليها، وعاداته وتقاليده وطريقة تفكيره الغريبة علينا؛ وكذلك منحنا حريته التي لا حدود لها، والتي لم نستطع التأقلم معها ، ولا ندري كيف نستفيد منها ونتعامل معها؛ فضعنا فيها وأضعنا أنفسنا وهويتنا !

لقد أتينا إلى الغرب ونحن محرومون من كل شيء... نعم من كل شيء يحتاجه كائن حي ! جياع وعطشى لدرجة الانسحاق... درجة الموت؛ وكان جوعنا وعطشنا في حقول مختلفة؛ بعضنا عطشه الحرية، وآخرون عطشهم العلم والمعرفة بشتى أشكالها وألوانها؛ وبعضنا جوعه العواطف والجنس التي تحرمها مجتماتنا فتعتبرها عاراً ومنقصة ؛ فغرقنا وأغرقنا أنفسنا في تلك البحار، لنروي عطشنا القاتل، ولنشبع جوعنا الماحق، ولنداوي حرماننا المدمر...!

إن عواطفي القومية والدينية مثخنة بالجراح يا صديقي جورج، وأشعر بوحدة داخلية تمزق كياني وتفتت كبدي، وباغتراب مسعور ودائم ينخر في عظامي... وبخوف ينهلع له قلبي، وتصطكّ له ركبتاي ...! إنني أفتش عن مرفأ أمين ألقي بمراسيّ فيه، وكلما ظننت أني وجدته اكتشفت أنه ليس إلا وهما أو سرابا...!

أعذرني يا صديقي ! إنه الألم والقهر والمعاناة ! لقد فلت مني زمام الأمر، فلم تعد لي السيطرة على تصرفاتي... إنني أشعر أنني تقزّمت وتدنّيت حتى وصلت أسفل درجة من النذالة و القذارة والخسة والأنحطاط ... !

*****

الفصــل الرابع والعشـــــــرون

نزلنا في فندق قريب من "الكابيتول هيل". وصلنا الفندق عند العصر، ووجدنا سالي وأمها قد سبقتانا إليه. كان عناقاً حاراً بيننا نحن الثلاثة، السيدة نورما وسالي وأنا ! ولقد شعرت أن أم سالي كانت أكثر مرحاً وانطلاقاً، وأحسست وكأنما تريد أن تحتضنني بقلبها وعينيها. كانت سعيدة وكأنما ترقص من الحبور !

- عندما أعلمتني سالي بأنكما ستتوجان حبكما بالزواج، فرحت فرحاً لم أفرح به من قبل، وشعرت بسعادة لم أسعد مثلها يوماً. صدقني يا بني إنني لم أكن أكثر سعادة عندما تقدم والد سالي يطلب يدي مني الآن، لأنني واثقة بأن ابنتي اختارت الرجل المناسب لتتزوجه. أشعر الآن بالراحة والاطمئنان.

اكتفيت بالابتسام وشكرها على ثقتها بي.

- أنا متأكدة بأنك ستسعدها، وأنها بدورها ستسعدك، لأنني أعرف مقدار حبها واحترامها لك. أنا سعيدة جداً جداً، وإن العالم لا يتسع لفرحتي... أكاد أطير من الفرح! قالت ذلك ومسحت دمعتين سقطتا من عينيها أزالتهما بظهر يدها.

أحزنني منظر المرأة التقية الوقورة المحترمة، وهي تتصرف مثل هذا التصرف البريء، وتقول كلاماً لا يقوله إلا الساذجون الأغرار، ولكنني عذرتها بسبب حبها لابنتها واهتمامها بمستقبلها ثم بتفكيرها العظيم بي !

تنحنح اللئيم جورج، ونظر إلي نظرات خبيثة ذات معنى، وتصورته وكأنما يقول للمرأة "كم تحزنني سذاجتك وطيبة قلبك؛ وكذلك بلهك وغباؤك؛ لا تسترسلي مع أحلامك ولا تذهبي بعيداً مع أوهامك. إنك لو تعلمين الحقيقة لحزنت بدلاً من أن تفرحي، بل لبكيت دماً بدلاً من دموع السعادة هذه ! "

كانت غرفنا في الدور السادس؛ ثلاث غرف متجاورة، سالي وأمها في غرفة بسريرين مفردين، وجورج وأنا كل في غرفة بسرير مزدوج؛ هكذا كان نظام الفندق.

لقد أدركنا بأن بنا جوعاً شديداً، واقترحت أنا أن نستبدل ملابس السفر وأن نتناول طعام العشاء مبكرين، فرحب الجميع بالفكرة. ولكن نقطة الجدل كانت فيما إذا كان من الأفضل تناول العشاء في مطعم الفندق أو في مطعم آخر، ولكن سرعان ما حسم الأمر، إذ اقترحت السيدة نورما أن نتعشى الليلة في مطعم الفندق، وأن نسهر أيضاً في ردهته، ثم نأوي إلى الفراش مبكرين، حيث إننا جميعاً متعبون من السفر والإعداد له.

- فكرة رائعة ! قالت سالي وجورج يقاطعان بعضاً.

- وغداً صباحاً ننهض مبكرين لنتفرج على معالم العاصمة، وبعد الظهر يجب أن نتصل ببقية الوفود التي لا بد وأن يكون قد اكتمل وصولها لنرتب لمظاهرة بعد غد. قلت.

- أنا أعرف العاصمة جيداً، والأماكن السياحية بها؛ فقد أتيت إليها مراراً، وسأكون دليلكم في هذه الجولة. قال السيد مونتكيو.

كنا الأربعة الوحيدين الذين نجلس في ردهة الدور السادس بعد العشاء، وكنا نرى الناس تمرّ بنا داخلة أو خارجة. كنا نتحدث في كل شيء وعن كل شيء، وكان أكثرنا حديثاً السيدة نورما ! حدثتنا عن مدرستها وأصدقائها وجمال ولايتها وكذلك عن قراءاتها، وعن... وعن... وعن... وكان أقلنا كلاماً هو السيد مونتكيو، فقط كان يستمع بأذنيه ويرقبنا بعينيه، تماماً كالثعلب، ويدخن السيجارة تلو الأخرى، ويحتسي فناجين الشاي والقهوة باستمرار.

جلست سالي إلى جواري على كنبة عريضة، وجلست أمها بالقرب منها؛ تشرب شاياً ساخناً تصبه من إبريق ملون فاخر أمامها. أما جورج فقد جلس قبالتنا ينفث دخان سجائره بهدوء. كانت سالي جالسة كقطة وديعة إلى جواري، وكانت ملتصقة بي، إذ كنت أطوق عنقها بيدي اليمنى، وكانت متكئة برأسها على صدري.

كانت السيدة إركسون تنقل طرفها بيننا وبين التلفاز، فكانت كلما نظرت إلينا، سالي وأنا، تبتسم ابتسامة عريضة، خصوصاً عندما كنت أنقل يدي أحيانا من خلف رقبة سالي لألعب بشعرها أو لأداعب خديها. لقد كانت تراقب بغير اهتمام برنامجاً عن الطبيعة؛ أما أنا فشعرت لحظتها بأن ثقل الأيام الفائتة قد انزاح عن ظهري، فلم أعد أفكر في مشكلتي مع ألكسس، إذ إنها الآن بعيدة عني آلاف الكيلومترات. أخذ صديقي جورج ينظر إلي نظرات ذات مغزى، خصوصاً كلما لاحظ أن سالي تقترب مني، وتلتصق بي كقطة تنشد الدفء في ليلة باردة، أو وهي تتأمل وجهي طويلاً، ثم تقبلني على أذني وعنقي، وتعبث بأصابعها في شعري. لقد أحسست كأنما نظراته شواظ من نار تحرقني !

- لقد وعدتني يا حبيبة القلب ويا منى النفس، أن تريني كل الأماكن الممتعة في الولايات الأمريكية، وأنا أعدك أنني سأريك الشرق الذي طالما سمعت عنه، وحلمت برؤيته. لا أدري إذا كانت الصورة ستطابق الواقع. على كل حال آمل أن لا يخيب ظنك، لأن خيبة الظن تؤلم كثيراً. قلت لسالي وعيناي تتأملان إبداعات الخالق .

- إنني أنتظر بشوق ولهفة لأرى الشرق وأستمتع بجماله، وكذلك لأرى مكان ولادتك، والأماكن التي نشأت بها وترعرعت. سأكون سعيدة جداً على أية حال. وعليك أن تساعدني في المواءمة بين الصورة التي رسمتها له وبين الواقع عندما أراه .

ضحك جورج بخبث، ولاحظت أنه يختلس إلينا النظرات كالثعلب، فتذكرت لحظتها أنه سمعني يوماً وأنا أتحدث مع ألكسس عن جمال الشرق وسحره، وكيف أنني سآخذها لترى كل بقعة جميلة وتاريخية به. قلت لنفسي "هذا الرجل يصر على أن يذكرني بمأساتي، وبالورطة التي أنا واقع فيها؛ إنه ضميري وجلادي في آن واحد. تباً له ... ! "

- جورج ! لا تسخر من كلامي. أرجوك ! أنا أحدث حبيبة القلب عن روعة الشرق وسحره. قلت له شبه مغتاظ !

- ثق بي. كن متأكدا بأنني لا أفسد الجو عليك. بالعكس؛ سترى أنني خير رفيق. اغفر لي مشاكستي يا صديقي.

نظرت إليّ سالي نظرة تعبر عن أنها لا تفهم شيئاً، ولم أكن في وضع يسمح لي أن أفسر أي شيء ! استمرت السيدة نورما تتابع البرنامج التلفزيوني وتحتسي الشاي. وفجأة، عادت صورة ألكسس تتراقص أمامي، فاعترتني موجة من الحزن الشديد ! مسكينة ألكسس، بالأمس كانت رائعة، وحزينة في نفس الوقت. عندما دخلت إلى غرفة النوم، وجدتها ترتدي بنطالاً من الحرير الخفيف يلتصق بجسدها، وبلوزاً يكشف عن مفاتن صدرها. كانت تقف عند الشباك عندما دخلت الغرفة، وكانت تنظر للبعيد...كان وجهها مفعماً بالحزن، وعندما رأتني أدخل الغرفة هشّت لي، وجذبت نفسها من أحزانها. اقتربت مني والتصقت بي، قبلتني قبلة خفيفة واحتوت رأسي بيديها، وأخذت تعبث بأذني وتسألني كم من الوقت سأمضيه في "دي سي". خلعت جاكيتي، وجلست على طرف السرير. تمددت هي على السرير منبطحة على بطنها، ووضعت رأسها على ركبتي وأخذت تتحدث في كل شيء. كانت حزينة لأن الرحلة فاجأتها، وكانت تريد أن تستشيرني فيما إذا كنت أوافق على الزواج، وأن نرتب حياتنا على هذا الأساس. نهضتْ وأرتني ثوب الزفاف الذي ورثته أمها عن جدتها، والذي أعطته أمها لها، لتورثه هي إلى ابنتها. لبسته ووقفت قبالة المرآة الكبيرة، وطلبت مني أن أقف إلى جوارها لنرى كيف تكون صورتنا عندما نتزوج ! لم أحتمل المنظر ساعتها، ذهبت إلى الحمام وأنا في غاية التأثر. مسكينة ألكسس، وتباً لي، ما أحقرني وأنذلني؛ تباً للشرق الذي زرع كل هذه العقد بي ! إنني لست أهلا لثقتها وحبها !

نبهتني سالي، وأعادتني إلى جوّ الجلسة.

- حبيبي سهيل ! أراك قد سرحت. خذني معك في أحلامك ! حلق بي بين الغمام ! إنني أحب التحليق ... ! قالتها برومانسية حالمة !

انفجر اللئيم جورج يضحك بصوت عالٍ كأنه قصف الرعد، مما جعل الأربعة أشخاص، رجلان وامرأتان، الذين كانوا يجلسون في الطرف الآخر من القاعة، يشاركونه الضحك.

لقد تأكد لي بأن السيد مونتكيو قد أطلق قهقهاته دون إرادة منه، حيث لاحظت موجة من العرق تغطي وجهه، قلما شاهدت مثلها من قبل، أتبعها اعتذاره الشديد لسوء تصرفه ! حدجته بنظرة عتاب ولوم وتقريع، وتابعت حديثي متجاهلاً سخريته!

- إنني أفكر في معانقة الوطن والأهل والأصدقاء، ومتى سيكون ذلك، وآمل أن يكون سريعاً. قلت.

- إنه وطني أيضا. سأحبه كثيراً. ربما ليس بمقدار حبك له، ولكنني سأحبه كثيراً. قالت سالي بحماس زائد.

- وأنا أعتبره وطني أيضا، فقد عشت زمناً طويلاً في كثير من أقطاره. ما رأيكم أن نذهب إلى هناك ونبقى به؟ وجودنا فيه يجنبنا لوم الآخرين وعتابهم. ما رأيك يا آنسة سالي ؟ قال السيد مونتكيو.

- كما يريد سهيل. إنني أتمنى ذلك من أعماق قلبي. قالت سالي بصوت ناعم وكأنما تحلم، ثم لفّت يدها حول عنقي وقبلتني قبلة خفيفة على أذني، ثم ألقت برأسها على صدري.

- سوف نبحث كلنا عن عمل في إحدى الجامعات هناك، ونعيش بهدوء وسلام بعيدين عن مشكلات ومناكفة سكان "سانتامونيكا" و"وست وود فلج" ومن بهما. نحن الأميركان مرغوبون ومرحب بنا في كل مكان نذهب إليه ! وأتبعها بغمزة من عينه اليسرى، وابتسامة خبيثة صفراء من شفتيه.

"إنني أفهم ما يقوله جورج وما يعنيه. اللئيم ! كلما حاولت أن أنسى أو أتناسى، ولو للحظات، يتشاقى الشيطان فيذكرني. يريد أن يفسد الجو ! كم أغضب منه وأنقم عليه أحيانا، ولكنني أحبه ! أحبه بعمق ... عليه اللعنة ! "

- مشكلات ومناكفات ؟! مع من ؟ ! أنا لا أعرف أحدا يسبب لنا مشاكل ! ماذا دهاك يا صديقي؟ سألته وداخلي يتأجج غضباً، وأن كنت أتظاهر بعدم المبالاة.

- أعذراني يا أصدقائي ! إنني أخرّف ! أنسيتما أنني رجل عجوز ؟! قال وأتبعها بضحكته المعهودة الجوفاء !

- أنت لست خرفاً يا سيد مونتكيو؛ أنت إنسان خفيف الروح، تحب أن تسعد من حولك بنكاتك وقفشاتك...! قالت السيدة نورما وهي تتثاءب وقد غطت فمها بظهر يدها اليسرى.

*****

بدا التعب على السيدة نورما. ظهر ذلك في ذبول عينيها وشحوب وجهها. أسندت ظهرها إلى الكنبة وأغمضت عينيها، إذ لا شك لتريح نفسها قليلاً. قالت سالي بحنان ونعومة:

- ماما تريد أن تنام ، إنها متعبة. كان عليها أن تقوم بواجبات كثيرة قبل أن نبدأ الرحلة.

- هذا صحيح. اسهروا أنتم. سأدخل إلى غرفتي.

لعل ما قالته ابنتها شجعها على تسريع مغادرتها، ثم نهضت منسحبة وهي تقول:

- اعذروني لعدم بقائي لمشاركتكم سهرتكم الجميلة. اقضوا ليلة سعيدة. تصبحون على خير.

ابتعدت المرأة، وسمعنا صوت إغلاق الباب. مرّ النادل وطلبت منه أن يحضر لنا ثلاثة "شوبات" كبيرة من البيرة. وبعد أن أحضرها رفع جورج كأسه وقال " نخب العروسين السعيدين، سالي إركسون وسهيل دهشان ! "، رفعنا كؤوسنا وضربناها نحن الثلاثة ببعض. أخذت سالي جرعة كبيرة، وأحسست أنها تشرب بمتعة وتلذذ، لم أعهدها بها من قبل، ولاحظت أنها في مزاج جيد. كان وجهها يطفح بالبشر والهدوء، ولكنني أحسست أنها كانت مصممة على مناكفة جورج، والدخول معه في مجابهة ودّية. قالت:

- هلا أفصحت يا سيد مونتكيو ! إنك تخفي شيئاًً ...! لا تحاول الإنكار، أستطيع أن أقرأك كما أقرأ كتاباً ... ! منذ أن وصلتما أنت وسهيل، وأنا أشعر بأنك تخفي سراً، وتحب أن تفصح عنه.

- أنت على حق. إنك فتاة ذكية. نعم، يوجد سر أخفيه عنك ... ارتكب خطيبك فعلة أخفاها عنك، لو عرفتها لجننت وطار عقلك. قال جورج وقد علت وجهه مسحة من الجد الصارم.

تجمد الدم في عروقي، وأحسست بأن قلبي قد توقف عن الخفقان، وأن عيناي تكادان تطيران من محجريهما، وتحول لساني في فمي إلى قطعة من الحجر. ...! لا شك أن كؤوس البيرة قد لعبت بعقل صديقي، فأفقدته الشعور بالمسؤولية وعدم إدراكه للسرّ الذي سيذيعه. إنه لا شك يريد أن يعلم سالي عن قصتي مع ألكسس. فتحت فمي، وأدرت لساني لأصيح به محذراً إياه، ولكن صوتي لم يخرج من فمي لشدة توتري !

- وما هي الفعلة التي ستجعلني أفقد عقلي ويخفيها عني سهيل؟! أرجوك يا سيد مونتكيو تكلم. سألت سالي وهي الأخرى قد كسا وجهها مسحة من الجد الصارم، وصارت تحملق بوجه جورج الذي ابتسم وقال:

- كان هذا الغبي، على وشك أن يستقيل من الجامعة ويعود إلى وطنه، أو يرحل إلى بلاد أخرى، لولا أنني نصحته بالتمهل قبل أن يقدم على مثل هذه الخطوة الحمقاء. لقد أصر على الاستقالة، ولكنني منعته بالقوة، باسم الصداقة وبما لي عليه من دالة.

- ولم يا سيد مونتكيو؟! سألت سالي وقد اتسعت حدقتا عينيها وهي تحملق به، وعلت وجهها صفرة قاتمة.

- عندما طلب إليك أن تتزوجيه ورفضت، استولى عليه حزن شديد، وخفت أن يموت هماً وكمداً، فقد قال لي؛ ما زالت سالي التي أحبها كثيراً لا تقبل الزواج بي، فلن أستطيع أن أعيش في بلد تعيش هي به، لأني لن أحتمل العذاب، ولذلك يجب أن أرحل.

وكأن جبال البلقاء وعجلون والقدس كانت ترقد فوق ظهري فانزاحت عنه، وبدأت دقات قلبي تخفق من جديد، وانساب الدم المتوقف في شراييني، ولكن لساني الناشف ما زال متجمداً في مكانه.

- صحيح يا حبيبي؟! لماذا لم تخبرني؟! ما أسعدني ! أتحبني إلى هذه الدرجة؟ ما أغباني أن أرفض طلبك ! ما أقسى قلبي إن سببت لك كل هذا الحزن والمعاناة !

كانت سالي تتصرف بطريقة عاطفية كطفلة مراهقة لم أعهدها فيها. لقد فقدت رزانتها وتحفظها وكبرياءها في لحظات، وهجمت عليّ تعانقني وتقبلني بطريقة ليس بها سيطرة على عقلها وعواطفها، مما جعل السيد مونتكيو ينفجر مقهقها بحرية ودون قيود، وبطريقة أزعجتني وأثارت حفيظتي، حتى خفت أن يخرج النزلاء من غرفهم يحتجون على هذه الضحكات والقهقهات الرعناء واللامسؤولة !

خلصت نفسي من بين ذراعي سالي، وهجمت على "شوب" البيرة أفرغه دفعة واحدة في جوفي، وكذلك فعلت سالي ولحق بها جورج. لم يكد يستقر بنا المقام فوق مقاعدنا، ودون أن أستشير صاحبيّ، قفزت كالملدوغ، وتوجهت إلى الهاتف الموضوع غير بعيد منا، واتصلت ببار الفندق وطلبت إليه أن يُرسل هذه المرة، ثلاثة كؤوس من الويسكي المضاعف إلى ردهة الدور السادس، وكذلك ثلاث شطائر من اللحم.

- أنا لا أشرب الويسكي يا حبيبي. أنت تعرف ذلك. أنا أشرب البيرة في الصيف فقط لأروي بها ظمأي، وأتناول النبيذ مع الطعام فقط ! قالت سالي محتجة.

- وأنا كذلك، أنت تعرف هذا يا شيخ البدو. قال جورج هو الآخر محتجاً.

- وأنا أريدكما أن تكسرا هذه العادة لمرة واحدة فقط ... الليلة ... لأنها ليلة خاصة ! قلت ذلك بصوت جهوري، مملوء بالأنفة والكبرياء وكأنما أخطب بهما، ثم تابعت:

- والذي منكما لا يشرب ما طلبت، فمعنى ذلك أنه لا يحبني ولا يحترم شعوري ولا رغبتي ... !

- ولا يهمك يا روحي. أنا سأشرب حتى لو كان سمّاً ! لا تغضب. قالت سالي شبه متوسلة.

- حاضر يا شيخ البدو. وأنا سأفعل ذلك وأمري إلى الله. قال السيد مونتكيو بإذعان واستكانة.

بدأ كل واحد منا يداعب كأسه بتمهل ورقة، وكأنما يداعب من يحب، ولاحظت أن سالي تتذوق كأسها وتبلعه بصعوبة، وكأنما هي مرغمة على شربه؛ وعزوت ذلك إلى انعدام تجربتها باحتساء المشروب الثقيل. أما جورج وأنا فقد بدأنا نلتهم شطائر اللحم ونشرب بعدها الويسكي، وسرعان ما تبعت سالي خطانا، وإن كانت تفعل ذلك بصعوبة لاحظتها من تغيرات وجهها.

كانت سالي تتصرف على سجيتها، تأكل وتشرب وتمازح جورج، وأحيانا تسحب رأسي نحوها وتقبلني كيفما اتفق، على خدي، شعري، أذني، رقبتي، شفتي، أي شيء تقع عليه شفتاها.

كنت أول من أنهى كأسه، ثم تبعني جورج، ونظرت إلى كأس سالي فوجدته قد انتصف. لمحت إلى الساعة المعلقة على الحائط فوجدت العقربين متعانقين. حملتُ كأسها وحاولت أن أسقيها منه، ولكنها اعتذرت بأنها لا تستطيع المزيد. احترمت رغبتها وصرت أستمع إلى جورج وقد انطلق لسانه بالحديث فجأة، بعد هذا الصمت الطويل، وصار يتكلم من الشرق والغرب، ويخوض في شتى المواضيع، التي لا رابطة بينها في كثير من الأحايين.

شعرت بذراع سالي اليسري تحتوي ظهري، وقد ازدادت بي التصاقاً ثم ألقت برأسها على كتفي بتراخ وتكاسل؛ فقلت:
- هل داهمك النعاس يا حبيبتي ؟ إذا كنت تريدين الذهاب إلى فراشك سأوصلك إلى غرفتك.
أومأت برأسها بالإيجاب، ثم همّت بالنهوض. فقال جورج:
- أنا سأسهر وحدي ! لا أشعر بالنعاس، اذهبا أنتما إلى غرفتكما.
ارتجف جسم سالي بشدة، وشعرت أن جميع حواسها قد استنفرت، وكأنما استيقظت من نومها إثر كابوس مرعب، ففتحت عينيها معبرة عن الدهشة، وكذلك فعلت أنا؛ وإن كان ما قاله صديقي قد فتح شهيتي لجسد سالي.
- غرفتنا ؟ ! هل سمعتك جيداً أم أنني واهمة؟ ! سألت سالي بلهجة تحد، وقد اتسعت حدقتا عينيها، وقطبت قسمات وجهها !
- نعم غرفتكما. أنتما الاثنان. سالي إركسون وسهيل دهشان. هل تصدقين أذنيك الآن ؟ أم تريدينني أن أعيد ما قلت ؟ لقد حجزت غرفة للسيدة نورما، وأخرى لي، وثالثة لكما. أردت أن أسدل الستار على الوهم. أريدكما أن تعيشا قصة حبكما في الواقع. في الحقيقة. قال جورج وهو يصرّ على مخارج الكلمات.
- إنك قد لا تعلم بأنني لن أشارك سهيل غرفته، إلا بعد أن نتزوج ويباركنا الـ...
- لقد أعلمني سهيل ذلك؛ ولكنني أتساءل؛ هل تريدين القسيس أم الشيخ ذو العمامة ؟
- لا فرق. الذي يريده سهيل موافقة عليه.
وضحك جورج ضحكة طويلة... ضحكة المخمور، وقال وهو يتصنع الجد:
- يقول المسلمون: خير البرّ عاجله. وأنا أوافقهم. لذلك أعلنكما يا سالي بنت نورما، وسهيل ابن... ابن... ما اسم أمك؟ لقد ذكرتها لي مرة ولكنني نسيتها.
- أمينة. اسم أمي أمينة.
- أعلنكما يا بروفيسور سهيل ابن أمينة، ويا آنسة سالي بنت نورما، زوجاً وزوجة على سنة الله وسنة رسوله ﷴ أو عيسى أو موسى أيهما تريدانه !
- لماذا اسم أمي وليس اسم أبي ؟! ثم هل يجوز الزواج بهذه الطريقة ؟! أعني دون التواجد في بيت من بيوت الله، وحضور رجل دين، وشاهدين اثنين، وكتابة عقد زواج رسمي ؟! سألت سالي باستغراب ودهشة ... !
- نعم، يجوز إذا تعذر وجودهم في ذلك الوقت ؛ على أن يكتب الكتاب الرسمي فيما بعد. قلت وقد تجاهلت الشق الأول من السؤال.
وأخذ جورج يضحك ضحكة متصلة، ثم أمسك بيدي وبيدها واحتواهما بين يديه، وقد غطى أيادينا نحن الثلاثة بالفوطة القماشية التي أحضرها النادل عندما أحضر الويسكي والشطائر، وهو يقول:
- ردّي الجواب يا حورية الحوريات، وأنت أيضاً يا شيخ البدو. هل تقبل الآنسة سالي بنت نورما، زوجة لك مدى الحياة، لا تخدعها ولا تخونها ولا تحب عليها ؟ ولما أجبته "نعم" التفت إلى سالي وقال: هل تقبلين سهيل ابن أمينة زوجاً لك مدى الحياة، تحبينه وتطيعينه ولا تخدعينه ولا تحببن إنسانا آخر غيره ؟ ولما أجابت سالي بالإيجاب، قال: أنتما الآن زوجان على سنة الله وسنة أحد أنبيائه. قبّل العروس أيها الفارس الهمام،

والبطل المقدام، ويا قاهر قلوب الحسان، ويا دونجوان القرن العشرين ...! قال هذا وانفجر يضحك من جديد.

ألقت سالي برأسها على صدري، وهي تحتويني بذراعيها، وتعانقنا بنهم وشوق، وكأنما نتعانق لأول مرة بعد حب عنيف طويل.

قبّل السيد مونتكيو العروس على جبينها، وعانقني وتمنى لنا حياة سعيدة، ومن ثم تركناه وتوجهنا إلى غرفتنا لنفكّ صيام الحرمان الطويل، الطويل، الذي عانينا كلانا منه زمناً ليس بالقصير.

لا أدري، لماذا تذكرت هذه الليلة مقولة ألكسس لي يوماً، بأنني لا بدّ وأن أكون شمبانزي، وأنني من سلالتها ! لقد قالت لي سالي الليلة محتجة، ولكن بدلال وبطريقة مغناجة، تقريباً نفس ما قالت ألكسس قبل شهور، وأنا أحاول أن أضاجعها للمرة الثالثة !

- مرتان في ليلة واحدة تكفي يا حياتي ! إذا أسرف الإنسان في الجنس فإنه ككل المتع الأخرى في الحياة، يفقد لذته وجماله ! قالت سالي بسعادة ومتعة، وعيناها تتأملان وجهي بإعجاب.

- ولكنني أريد أن أعوض ما فاتني يا جميلة الجميلات! إذ إنني ومنذ أول يوم وقعت عيناي عليك وأنا أذوب شوقاً لعناقك والالتحام بك.

لم تعلق سالي، وإنما احمرّت وجنتاها وعرق جبينها من الخجل، ولكنها حالت بيني وبين نيلها للمرة الثالثة، رغم الإلحاح والرجوات.

- لو أمضي حياتي كلها وأنا أطارحك الغرام بتواصل، لما شبعت منك يا حبيبتي، إنني كلما مارست الجنس معك كلما تأججت النيران في دمي تطلب المزيد ! أنا في جوع دائم لعناقك والالتحام بك !

- لا تحاول. قلت لك يكفي. قالتها بإصرار وعناد وتحد، وقد أبعدتني عنها بحزم ولكن بلطف.

في تلك اللحظة صرت أقارن بين ألكسس وسالي؛ الأولى لن تقول يكفي مهما بلغ عدد المرات، ما زلت أنا أريد ذلك؛ والثانية ترفض إلا مرتين اثنتين فقط في الليلة الواحدة ! تساءلت هل سبب هذا الرفض وذلك القبول يعزى إلى شخصية الفتاتين وتربيتهما، حيث إن ألكسس تفكر وتتصرف كالمرأة العربية لا تقول لا لرجلها، وتعتبر أن جسدها ملك لفحلها يفعل به ما يريد؛ وقت ما يريد، دون اعتراض منها أو تذمر؛ بينما سالي تعتبر جسدها ملكاً لها وليس لرجلها سلطان عليه، إلا إذا أعطته هي هذا الحق؛ وكذلك تفكر بنفسها كالأميركية تقف على قدم المساواة مع ذكرها، وأن لها نفس الحقوق ؟! أم أن سبب هذا التصرف هو تركيب فسيولوجي في الأولى يختلف عنه في الثانية ؟!

عندما رفضت محاولاتي وفشلت مساعي مع سالي، لأطارحها الغرام للمرة الثالثة، ألقيت بنفسي على الطرف الثاني من الفرشة، منهكاً خائر العزيمة، وكان الوقت فجراً، وسرعان ما رحت في سبات عميق.

*****

لقد كانت رحلتنا إلى القدس، العاصمة الفلسطينية، وليست إلى واشنطن" دي سي، "العاصمة الأمريكية ؛ وكانت المظاهرة التي سنقوم بها حول أسوار القدس القديمة ، وليست أمام البيت الأبيض !

الغرفة التي نقيم فيها، سالي وأنا، تطل على منظر بديع في تلك الليلة الرائعة. وقد جلست وإياها في الشرفة ننظر إلى الأضواء التي تغمر أسوار القدس، وقد بدت الأنوار تغمر أيضا باب العمود ! كانت المدينة ساكنة هادئة ، وقد أخذت سالي تتحدث بلا انقطاع عن ما شاهدته في الصباح من مشاهد العنف خارج الأسوار، وعن المدينة الحزينة التي سموها ظلماً وزوراً مدينة السلام ، والتي لم تر السلام لحظة واحدة في تاريخها الطويل. وبدأت تستعرض الأحزان التي لفتها من عهد "يبوس" الكنعانية إلى عهد "بيلاطس، النبطي الروماني" إلى أن جاءها رابين مُكسر عظام الأطفال وجماجم الرضّع !

كنت أنصت إلى سالي باهتمام شديد وشغف زائد، وهي تتحدث لي همساً وكأنما هي تناجيني. كانت أنفاسها تحرق صدري، وشعرت بالدمع المتقد ينحدر من عينها الجميلتين إلى خديها فيبلل عنقي. قلت:

- سالي حبيبتي...! عيوني...! جئنا من أقاصي الأرض لنبحث عن وسيلة ندخل السرور بها إلى قلب هذه المدينة الحزينة النازفة، التي نسيها العرب والمسلمون ، وليس لنبكي معها !

- آسفة يا حبيبي. ما أبعد المسافة بين الحلم والواقع، وما أشسع البون بين ما هو كائن وما نتمنى لو يكون ! ماذا سيحصل غداً عندما تتشابك أذرعنا في سلسلة لا نهاية لها حول أسوار المدينة ؟! هل سنفلح في حماية الأطفال ورفع معنوياتهم، أم أن أولاد عمومتك القتلة المحترفين سيكسرون أرجلنا وأذرعنا نحن أيضاً... أولئك المغول التتر الكذبة الذين يدعون بأنهم أحفاد إبراهيم ورضوان وداوود ... ؟!

- حبيبتي ونور عيوني سالي ! دعي أحداث الغد للغد ، هذه ليلة جميلة، والمدينة تلفها السكينة والهدوء، ونحن الآن جزء منها، نذوب فيها ونتلاشى بحبها وحنيتها ... دعينا نعبّ لحظات السكينة ... ,,,رجوكِ ... أرجوكِ يا سالي... أغمضي عينيك وذاكرتك... إنها لحظة من أجمل لحظات العمر، أن أضمك إلى صدري، وأستنشق عطر أنفاسك وأنظر في عينيك، ثم أعبث بشعرك ... !

ألقت سالي برأسها على صدري، وشعرت لحظتها بسعادة ربانية، وأنني أتحدث مع الخالق في ركسة نورانية، فتمنيت لو أن الزمان يتوقف، ولا يطلع نهار المواجهة مع قتلة الأنبياء والأطفال الرضع ... !

*****

تشابكت أيدي الآلاف من الناس ... وتماسكت أذرعهم وهم يقفون في سلسلة لا نهاية لها حول أسوار القدس. كان ذراعي الأيمن يمسك بذراع سالي، بينما يمسك ذراعي الأيسر بذراع السيدة نورما، وأمسكت هي بذراع جورج الذي أمسك بدوره بذراع صبية أخرى ... وأخذ الجنود الصهاينة يصوبون بنادقهم نحونا، وارتفعت جلبة لا نهاية لها ! قالت السيدة نورما بصوت مجلجل وهي ترتجف من الحماس والرعب معاً :

- اصمدوا أيها الأخوة والأخوات أمام جنود بيلاطس النبطي الذين يسوقون سيدي المسيح إلى الجلجلة. لا تضعفوا أمامهم، ولا تخافوا منهم. إنهم جبناء رعاديد منذ الأزل ...!

وأخذت المرأة تهذي بما حفظته من أقوال يوحنا المعمدان ... وبدأ جورج يصرخ بصوت جهوري أجش "اقتلونا يا قتلة الأنبياء. لن تخيفونا يا أعداء الله، ويا أعداء الإنسانية !" وفجأة تراءى لي الدكتور هانس هارنبيرق من بعيد، وثلة من الجنود الإسرائيليين المدججين بالسلاح محيطين به، وهم يتناوبون عليه، وكل واحد منهم يأخذ دورة، ينهالون عليه بأعقاب بنادقهم وبساطيرهم، وهو ينظر إلى أعلى، إلينا، فوق أسوار القدس ويصيح ،" يا جو..ر.. ج ! يا سهـ...يـ..ل ! أنا صامد، صامد، صامد ... ! " كانوا يضربونه بوحشية وشراسة صارختين، على رأسه الأصلع وظهره وكتفيه، وعلى قدميه وكل جزء من جسمه ... وكان الدم ينزف من رأسه ووجهه بغزارة ... !

كانت أشعة الشمس الحارقة تلسع الوجوه، وكانت أجسامنا تسبح في بحر لجيّ من العرق والدموع ... في باب العمود، كان صوت الرصاص يلعلع في الهواء، وكان الدخان الكثيف يتصاعد بحركة حلزونية من احتراق المطاط، الذي يحرقه الصغار ينفسون به عن غضبهم، ويعبرون به عن كراهيتهم واحتقارهم، و لينشر سحابة كئيبة فوق آليات المحتلين ... !

عادت السيدة نورما وكأنها تهذي :

- لقد صلبنا أنفسنا على أسوار القدس. تعالوا ودقوا المسامير في زنودنا، أيها السفاحون العتاة ! إنكم تجيدون ذلك يا أبناء بيغن وشامير ورابين وشارون ونتنياهو ... !

أما أنا، فقد أخذت أغني مقطعا من أغاني الثورة الفلسطينية "هاتوا القيود وكبّلوا أقدامنا ". و" أخي جاوز الظالمون المدى، فحق الجهاد وحق الفدا " !

*****

كنا نجلس اربعتنا مع العائلة في بيتنا بالعاصمة. جاء الأهل من مدينتنا السلط الصامدة ومن أماكن أخرى ليهنئوا والدتي وشقيقاتي وأخي بعودتي إلى الوطن، وليباركوا لهم بزواج ابنهم من أميركية ذات جمال مميز، سليلة الحسب والنسب ! وجلست سالي مصمودة في صدر الصالون، تتقبل التهاني هي الأخرى فرحة جذلى، ووضعوا أمامنا أكواما من الورود على الأرض وفوق الطاولات، وفي كل الزوايا. همست سالي في أذني بعد أن قدمت لها الأقارب.

- حبيبي ! ما أكبر القبيلة ! كلهم أقارب لك ويحملون اسم دهشان ؟!

- نعم يا حبيبتي ! كلهم أفراد قبيلتنا التيدة ، ويحملون اسمها؛ ولكنهم أكثر بكثير مما ترين بكثير... بكثير جداً ! غداً عندما نغادر إلى مدينتنا التي ولدت وترعرعت فيها، لنلبي دعوة العشيرة للغداء، سوف تشعرين أنك في حمى قبيلة بكل ما في الكلمة من معنى ...! سيأتونك من القرية والمدينة، ومن الريف ومن الغور والجبل ... كلنا نعيش بقانون القبيلة يا روحي، فالقبيلة هي التي تشرّع لنا، وهي التي ترعى مصالحنا، وهي التي تحكمنا وتحمينا وتتحكم بأقدارنا وبمقدراتنا ! لا قانون يعلو على قانون العشيرة ... ! قلت بسعادة وأنا أتمايل طرباً !

- يا حبيبي ما أسعدني بك وبعشيرتك ! الآن فقط أشعر انني حقاً أعيش وأن لحياتي معناً... أتمنى لو أقضي العمر كله بين ظهرانيهم، أنعم بحكمهم وأسعد بقوانينهم، وأستظل بواحة ديمقراطيتهم، ونقاوة حبهم ... ! كم أنا حزينة على الأيام التي قضيتها بعيدة عنهم ... !

ونهضت أمي لتوفي بنذرها؛ نهضت لترقص بسبب عودة ابنها وعرسه ... ابنها الذي رفع رأسها عالياً ... عالياً أما الجيران والمعارف وأفراد القبيلة ! ترقص على "نقرة الكف"، ثم جذبت سالي من يدها، وأخذت ترقص معها ! لم أكن أعرف أن أمي ماهرة في الرقص إلى هذا الحد، لدرجة الكمال. لم تكن ترقص، كانت وكأنها تسبح مع ذرات الأثير. رقص أهل مدينتنا ممزوج بالرقص الأميركي ... يا للعجائب والغرائب ! حقاً إنه زمن المتناقضات ! وأخيرا التقى الشرق مع الغرب، التقى التخلف مع التكنولوجيا وعانق الجهل العلم. فسبحان المبدل ! سبحان الذي يُبدل ولا يتبدل ! سبحانه...! سبحانه... ! حقاً إنه زمن العجائب والغرائب ... !

عندما عادت سالي إلى جواري، فيما استمرت النسوة الجالسات يغنين ويهاهين، ودخلت الصبايا الحلبة بملابسهن ليرقصن، دخلن بأثوابهن الفلكلورية المطرزة بالحرير والقصب ؛ قالت لي سالي بأنفاس متلاحقة وهي تكاد تطير فرحاً:

- كما شاهدت في الأفلام، هكذا كانوا يفعلون في زمن ألف ليلة وليلة. نحن نعيش الآن ليلة خالدة من ليالي ألف ليلة وليلة. كم أتمنى لو أعيش ليالي كثيرة مثل هذه الليلة ! حبيبي سهيل ! أنا سعيدة، سعيدة، سعيدة ... ! إمسك بي حتى لا اتلاشى مع الأثير !

- وسيظلون يفعلون ذلك يا حبيبتي. أنسيت ما كنت أرويه لكما، أنت والماما، عن شرق الأريحية والتعاطف. شرق الكرم والشهامة ! العرس في بلادنا فرحة للقبيلة كلها، وفرحة للجيران وفقراء الحي أيضا، قبل أن يكون فرحة للعروسين والأهل ...!

- يا حبيبي ما أروع ذلك ! لا تخرجني من جو القبيلة. إنه ساحر وجميل... انه رومانسي ... الآن فقط بدأت أشعر أنني أعيش حقاً ! انني سأموت إن تركته بعد أن تعودت عليه ... فشكراً لك !

وأخذت سالي ترقب والدتها التي اندمجت هي الأخرى في جو الفرحة ... أخذت تصفق للراقصين، وتتمايل مع اهتزازاتهم، ثم اقتربت أمي منها، ورفعتها من جلستها، وأخذت الامرأتان ترقصان في وسط الصالة، فيما استمرت الأكف تصدر رنيناً موسيقياً متواصلاً !

جاء السيد مونتكيو وبسمة كبيرة تغطي وجهه، وفرحة عظيمة تدغدغ أعطافه، وهمس في أذني:

- سهيل ! لماذا تعود إلى كاليفورنيا ! لو كنت مكانك لما غادرت هذا الوطن. لو عشت العمر كله في أميركا، لن تفرح بأمسية كهذه قط. لماذا تعود ؟ أنت الآن خارج الزمن الملعون، في الخدار... منطقة الشفق... دائرة الغسق... أنت الآن تسبح في ملكوت الله العليّ، وبعيداً عن الأفعى الناعمة... ألكسس !

- جورج لماذا تفسد عليّ فرحتي؟! إنك تحاول أن تدخل إلي الإحساس بإمكانية الهبوط من الجنة ! أرجوك.

- بل صدقاً، أنا أقصد ما أقول، هذا الوطن أنا أعرفه جيداً، وأعرف طيبة قلوب أهله وحُسن طباعهم؛ وعلى الرغم من كل ما فيه من جهل وتخلف، ومن محسوبية ورشوة، ومن فساد وترهل، ومن قمع وديكتاتورية؛ وكذلك وعلى الرغم من كثرة الهوامير الأخطبوطية، زبانية السلطان ومريديه الذين ينهبون أقوات الشعب ويمتصون دماءه؛ فإن العيش به يظل أفضل كثيراً كثيراً من العودة إلى كاليفورنيا. هنا تشعر بدورك الإنساني، وتمارس آدميتك وتحياها؛ أما هناك فليس للحياة هدف ولا معنى، فأنت مجرد رقم مهمل في الحاسب الآلي ! هل تفهم ؟ رقم مهمل مهمل في الحاسب الآلي... ؟!

*****

كنت أسوق سيارتي "اللاندروفر" بالقرب من "طبق أم قيس" وبدأت تلوح للأنظار أجزاء من الشواطئ الجنوبية والشرقية لبحيرة طبريا، أحد أجزاء الوطن العربي المغتصب. أصابتني فرحة غامرة أول الأمر، وأنا أنظر لسطح الماء الأزرق الذي بدا خلّاباً وآسراً للناظرين؛ ولكن سرعان ما تبدل الحال؛ إذ أصابني ما يشبه الغثيان وأنا أرى وطني الذي استولى عليه الصهاينة بقوة السلاح وتواطؤ العالم كله، بما فيهم ساستنا وقادتنا !

كانت سالي تجلس إلى جواري وتقرأ معالم الفرحة والحزن معاً على وجهي، بينما جلس السيد مونتكيو والسيدة نورما في المقعد الخلفي يتحدثان. قلت:

- يا سيدة نورما، من هنا، من جنوب البحيرة، بدأ السيد المسيح رحلته الميمونة إلى القدس مع تلاميذه؛ ولأنه كان يخشى الجنود الرومان أن يقبضوا عليه، فلم يسافر عبر نابلس ورام الله، بل اتجه شرقاً إلى الأردن. على أية حال، سنواصل رحلتنا في حدود المسار الذي عبره مع تلاميذه، وستكون رحلتنا في حدود رحلته. لا أحد يعرف بالضبط الطريق التي سلكها، لكنني تعلمت من الاستشراق أن الطرق القديمة حلت محلها الطرق الحديثة، بدون تعديل كبير؛ فالطرق الرومانية هنا في الأردن، وهناك على الساحل الفلسطيني، لا زالت على حالها واتجاهاتها. ما رأيك يا سيد مونتكيو في تحليلي؟

- هذا صحيح. قال صديقي جورج ورافقها بهزة من رأسه. أما أنا فتابعت:

- ولذلك لن أتجه عبر الطريق الجديد، من إربد إلى عمان، فهذا طريق حديث، لم يكن أساسه موجوداً زمن الرومان، ولكن سوف أتجه إلى عجلون، وأواصل الرحلة إلى السلط ومادبا، وسوف نتوقف في المكان المزعوم الذي أطلّ فيه سيدنا موسى، على ما يزعمون أنه "أرض الميعاد" ثم ننزل إلى أريحا، وسوف نزور المغطس، ونصعد إلى العيزرية والقدس. هناك تصبح الطريق التي سلكها السيد المسيح أكثر وضوحاً.

دخلنا بلدة الشونة، وعلى الرغم من أن المكيف كان يعمل بكامل طاقته، إلا أننا أحسسنا في داخل السيارة كأنما نكاد نختنق مما جعل جورج يطلب منا أن نأذن له بفتح شباك السيارة، لعل نسمة هواء معقولة تدخل فتلطف الجو وتنعش نفوسنا المخنوقة من لفح الهاجرة. ضغطت على بنزين السيارة، على أمل أن نجتاز المنطقة المنخفضة، ونبدأ نصعد الجبال حيث الحرّ يكون أخف قليلاً. تجاوزنا الحاجز الشرقي من النهر، الذي يفصل بين الأردن وفلسطين، ودخلنا جانبه الغربي، حيث أوقفنا حاجز يقف عنده جندي إسرائيلي مدجج بالسلاح، طلب أن يرى ما نحمل من وثائق. أخرج كل منا جواز سفره وناوله له، وبعد أن نظر في جوازت سفر السيدة نورما وابنتها سالي والسيد مونتكيو

أعادها لهم مصحوبة بابتسامة وكلمة شكر، أما أنا، وبعد أن نظر إلى جواز سفري ورخصة السيارة، سألني إن كان معي تصريح بالدخول لي وللسيارة. قلت بأدب جم وأنا أفرش ابتسامة عريضة على شفتي:

- أنا عربي، وهذه بلادي، فلا أحتاج إلى تصريح للدخول إليها!

ضحك طويلاً باستهزاء وسخرية، وكأنما يستمع لنكتة أعجبته كثيراً، وبعد أن توقف قال باحتقار وغطرسة:

- هذه البلاد لنا. نحن حررناها منكم بعد أسر طويل، أما أنتم فعودوا من حيث أتيتم، إلى الصحراء حيث موطنكم، وحيث ولد ودفن نبيكم البدوي الدجال. قالها بغطرسة واستعلاء أبنا ء صهيون !

لم يبق بي ذرة عقل، وأحسست لشدة غضبي أن الدم بدأ ينفر من عيني ومن أذني، وصحت به بكل ما أملك من طاقة:

- تستهزئ بنا وتسخر من ديننا يا ابن الزانية ! سأؤدبك وأنسيك هذه المقولة. قلت ذلك وضربته بقبضة يدي على أسنانه من خلال شباك السيارة بكل ما فيّ من غلّ وحقد، فنزل دمه بغزارة. وفي مثل لمح البصر، سدّد رشاشه إلي، ولكنني عاجلته بفتح باب "اللاندروفر" وضربته به بعنف وقوة، فسقط على الأرض، فهجمت عليه وركبت فوقه وقد غرست أسناني بكتفه وأظافري بعنقه، وأنا أصرخ بأعلى صوتي "سأقتلك أيها القذر... سنبيدكم عن آخركم، أيها المجرمون السفلة...! أنتم يا أحط وأحقر مخلوقات الأرض...! أنتم يا قتلة الأنبياء وأعداء الإنسانية...! أيها الخنازير...!" وأمسكت رأسه بيدي الاثنتين، وصرت أضرب رأسه إلى الأرض ضربات عنيفة متتالية، وهو يستغيث ويستنجد !

- حبيبي سهيل ! فليحرسك المسيح ! لا بدّ وأنك رأيت كابوساً مخيفاً. إنك تصرخ بصوت مكتوم ! سمعت سالي تقول وهي تضرب بلطف على خدي محاولة إيقاظي.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. قلت هذا بالعربي أولا، ثم قرأت سورة الصمدية، بعدها تكلمت إلى سالي قائلاً:

- نعم يا حبيبتي، كان كابوساً مزلزلاً، سأقصه عليك فيما بعد. أولا صباح الخير يا أجمل عروس في الدنيا، ويا أغلى حبيبة بالوجود. قلت ذلك وأنا أفرك عيني بيدي، وما زلت واقعاً تحت تأثير ما رأيت في نومي !

- صباح الخير يا حبي، يا حياتي. أنا سعيدة... سعيدة... سعيدة ...!

- ستكون أيامك كلها سعادة منذ الآن. قلت وقد هجمت عليها أعانقها بحرارة وشوق، وكأنما أريد أكلها !

- أرجوك! أجلّ هذا إلى فيما بعد. لا شك أن الماما والسيد مونتكيو ينتظراننا. لقد تأخرنا عليهما كثيراً. قالت ذلك وهي تكركر، وقد دفعتني عنها بلطف.

- فلينتظرا إلى آخر العمر.

- سهيل! لا تنس أنك تتكلم عن حبيبة قلبي الماما. قالت ذلك وقفزت كالغزال من الفراش واقفة.

- إذن، أسرعي واستحمي وانضمي إليهما.

وأصرت سالي على أن نستحم معاً، وأن تحممني هي بيديها ونحن نقف في الحمام تحت "الدوش"! تأملت كل ذرة من جسمها، فشكرت الله وحمدته أن منح حبيبتي كل هذا الحُسن والجمال، إلى جانب الأخلاق والذكاء والثقافة.

*****

قبل أن تفتح سالي باب غرفتنا لنخرج، همست بأذني بأنها ستكتم أمر زواجنا العاجل هذا عن والدتها وكذلك عن والدها، لأنهما قطعاً سيشعران بالحزن والخيبة. ولما سألتها السبب أعلمتني بأنهما كانا دائماً يتحدثان عن زواج ذو مراسيم احتفالية كثيرة وعظيمة، وبواسطة رجل دين كنسي وليس من قبل محكمة مدنية !

- ولكنها لا بد وأن تعرف الآن بأننا قضينا الليلة سوية في غرفتي، ولا بد أيضاً أنها تعرف بأننا تطارحنا الغرام ! قلت.

- مطارحة الغرام ليست مشكلة عندهما ولا تعنيهما بكثير ولا بقليل. ما يهمهما هو كتابة عقد الزواج بواسطة رجل دين وكذلك تواجد بعض الحضور، ثم الاحتفال.

- كما تشاءين. قلت وأنا أهز رأسي علامة الموافقة. ثم فجأة تذكرت شيئاً فقلت:

- ولكن ألا تعتقدين بأن جورج قد أعلمها بقصة زواجنا، وما حدث الليلة الماضية ؟!

- ربما فعل ذلك، ولكنني واثقة بأنها لن تأخذه على محمل الجد، واعتبرت ذلك مزاحاً من إحدى نكاته الساخرة...! قالت ذلك وأغلقت الباب خلفها.

أما أنا، فقد أمضيت بعض الوقت متجمداً في مكاني، أحدق بالحائط أمامي، أفكر فيما قالت وأحاول أن أجد له تفسيراً؛ ولما لم أستطع الوصول إلى جواب أغلقت باب الغرفة خلفي وخرجت!

*****

لقد توصلت إلى قناعة تامة، بعد الانتهاء من المظاهرة أمام البيت الأبيض، بأن جميع مظاهرات الاحتجاج التي نقوم بها، نحن العرب والمسلمين، سواء أكانت على مستوى الوطن العربي الكبير، أو على مستوى البلاد الإسلامية، أو حتى على مستوى البلاد الأوروبية والأميركية، ومهما كانت هذه المظاهرات ضخمة ومعدّاً لها؛ وكذلك حتى لو حضرها كل زعماء العرب والمسلمين مجتمعين، هم وبرلماناتهم؛ فإنها لا تعادل حجراً ترميه صبية صغيرة من صبايا الانتفاضة، وتؤلم به رأس جندي إسرائيلي، أو رأس مستوطن عنصري حاقد، خرج لتوه من رحم التوراة ! إن هذا الحجر له وقع واستجابة على الرأي العام العالمي وعلى الحكومة الأميركية، وكذلك الحكومة الإسرائيلية، أكثر بكثير من كل المظاهرات الاحتجاجية التي نقوم بها نحن والمتعاطفون معنا من جنسيات أخرى !

لقد قرأت مرة كلمة قالها المفكر الفذ والوطني الصادق المرحوم فارس الخوري، مندوب سوريا في مجلس الأمن، ورئيس جمهوريتها زمن أحد الانقلابات العسكرية؛ بأن قضية فلسطين لن تُحلّ إلاّ على أرض فلسطين، وبالقوة العربية، وأن كل وسيلة غير هذه هي مضيعة للوقت وهدرٌ للمال.

تكلم يوم المظاهرة السيد مونتكيو، إلى الناس الذين وقفوا يتفرجون علينا، أو الذين يستفسرون عن سبب تحشدنا هنا، وكذلك تكلم الكثيرون غيره من المؤيدين والمتعاطفين لقضيتنا، سواء جاءوا من العاصمة نفسها، أو من خارجها، وسواء كانوا عرباً أو أمريكيين، وكذلك تكلمت أنا، وعرضنا كلنا وجهة نظرنا في هذه الجموع. وجاء مندوبو ومصورو بعض محطات التلفزة والجرائد والمجلات، وصوروا وأخذوا كلاماً وأجروا مقابلات، ولكنها بالنهاية تمخضت عن لا شيء، أقل من لا شيء ؛ فكل ما نشر كان لقطات قصيرة لا تختلف عن مظاهرة تجري في أحد أقطار الوطن العربي الكبير ، احتجاجاً على رفع ثمن سلعة تافهة من المواد التموينية! فيا لمضيعة الوقت والجهد ويا لهدر المال والطاقات !

تفرجنا نحن الأربعة على العاصمة الأميركية وعلى معالمها. واستأجرنا سيارة وتفرجنا كذلك على ولايات مجاورة. ذهبنا إلى مدينة نيويورك وأمضينا بها ثلاثة أيام، لم نترك معلماً حضارياً إلا وزرناه. ثم ذهبنا وتفرجنا على شلالات "نياقارا" ! حقاً لقد كانت إجازة ممتعة وشهر عسل رائع. كنت أتصل يومياً، وطيلة الثمانية أيام التي قضيناها بألكسس، وأخبرها وبالتفصيل عن جميع نشاطاتنا، طبعاً جورج وأنا فقط، وماذا حدث معنا ولنا أولاً بأول. كانت تستحثني بسرعة العودة لاشتياقها لي وعدم احتمالها الصبر مدة أطول، وكنت أؤكد لها بأن ما عندي من أشواق يفوق الوصف !

كان جورج يجلدني بعد كل مكالمة بسياط سخريته اللاذعة وتهكماته الجارحة؛ وكنت أنا أتجاهلها تماماً ولا أعلق عليها، وكأن الأمر لا يعنيني بقليل أو كثير، وإن كنت في أعماق وجداني أقاسي وأتمزق !

في اليوم الذي سبق عودتنا، طلبت إلينا السيدة نورما وكذلك سالي، وألحتا بالطلب بأن نتوقف في مدينة سياتل، بطريقنا إلى كاليفورنيا، وقضاء أسبوع على الأقل في ضيافتهم، لتريانا معالم ولايتهما وجمالها وجزرها، ولأقابل الراهب الذي كتب عن الأرض المقدسة، وكذلك، وهذا هو الأهم، لأن والد سالي يريد أن يراني ويتعرف على الإنسان الذي سيصبح زوجاً لابنته الحبيبة والوحيدة، والتي لا همّ له في الحياة إلا سعادتها والاطمئنان على مستقبلها.

لقد أفرحتني الدعوة كثيراً فرحبت بها وقبلتها دون تردد؛ إذ أحسست بأنها ستطيل بقائي مع سالي وستؤخر مواجهتي الحتمية مع ألكسس؛ أما صديقي السيد مونتكيو، فقد اعتذر بحجة كثرة التزاماته العائلية، فركب الطائرة إلى سان فرنسيسكو، وهناك ينتظره أحد أفراد عائلته ليأخذه إلى بيته في مدينة سان هوزيه.

أمضيت وقتاً من أسعد أيام حياتي في تلك الولاية الساحرة. لقد لاحظت أنها أجمل وأنظف من كاليفورنيا، وتكثر بها الجزر والبحيرات، وأن الناس بها ملتزمون وفي نفس الوقت محافظون ومؤدبون جداً. أحبني والد سالي كثيراً، وأحببته أكثر، أولاً لأنه والد من أحب، وثانيا لأنه رجل ذو ثقافة واسعة، وعلى خلق عظيم وهادئ. وكذلك قابلت الراهب وأسعدتني مقابلته، وقرأت كتابه في ليلة واحدة، عكفت عليه حتى الصباح. كان الراهب والكتاب ممتعين جداً، وشجعته على نشره، وطلب مني أن أكتب مقدمة قصيرة لكتابه ففعلت.

لم تترك سالي بقعة جميلة إلا وأرتني إياها، مما كان يضطرنا أحيانا لأن ننام في منطقة سفرنا لبعدها عن سياتل أولاً، وثانياً لسحر المكان وروعته !

استغرقت زيارتنا أسبوعين وخمسة أيام، أي ثلاثة أسابيع تقريباً، وقد تمنيت لو أقضي الصيف بطوله، ثلاثة شهور لولا أن سالي عليها أن تعود إلى " وست وودّ فلج " في كاليفورنيا ، حيث الجامعة ، من أجل إكمال أطروحتها.

- سهيل. الأيام التي قضيناها معاً، جعلتني أحبك كثيراً وأحترمك. لقد أصبحت قريباً جداً مني، فأنت خطيب ابنتي، كما أنك من ذلك الوطن الذي ولد فيه مخلصنا السيد المسيح.

- شكراً يا سيدة نورما. وأنا أحبك وأحترمك كثيراً.

- بل قل يا ماما. لقد أصبحت الآن ابني. مثلما هي سالي ابنتي.

- بالتأكيد. وأنا أعتبرك أمي الثانية. إنك أنت أمي في أميركا.

- يشرفني ويسعدني كثيراً أن أكون أمك الثانية.

- إن سالي درة ثمينة، فحافظ على درتك يا بني! قال الوالد بلهجة خجولة وصوت هادئ رزين، وهو ينظر في وجهي كأنما ليقرأ وقع كلماته في نفسي!

- سأخبئ سالي في أحشائي، وسأحافظ عليها محافظتي على عيني! لا تقلق يا عمي. إنها عندي أغلى ما في الوجود ! قلت.

- اطمئن يا أبي ! إن سهيل رجل بكل معنى الرجولة، وهو إنسان شهم وملتزم ؛ ثم إنه يحبني ولا يستطيع أن يعيش بدوني ! قالت سالي بلهجة ثقة وإيمان.

- آمل يا ابنتي ! آمل ! قال الأب وهو يهز رأسه.

- اطمئن يا زوجي العزيز! إن ما تقوله سالي عن سهيل هو نفس معتقدي! قالت الأم تطمئن زوجها.

لم يعلق بعدها أحد منا، وإن كنت أنا تساءلت بيني وبين نفسي؛ هل حقاً أنا إنسان صادق ملتزم؟! أعني بالنسبة للمرأة ؟! وهل حقاً أستطيع أن أعيش بحب امرأة واحدة؟! لا أظن ذلك. أنا أعرف نفسي جيداً. أنا إنسان صادق وملتزم في كل القضايا والأمور، ما عدا في استمرار حبي لامرأة واحدة ! اللعنة ! اللعنة! ما هذا المرض العضال الذي لا أستطيع الشفاء منه ؟! رحمتك اللهم !

لم أستطع ولا مرة أن أتصل بألكسس، حيث إن سالي كانت دائماً ملازمة لي ، بالإضافة إلى أنني كنت أعيش حياة رومانسية، وجوّاً عائلياً لم أعهده إلا عندما كنت في الوطن بين أهلي وأحبتي. كان الكل يحاول إسعادي، وكان الجميع يخدمونني بطريقة لم أكن حتى أتصورها بالأحلام ! كان السيد إركسون مثقفا ثقافة واسعة، فكان عندما يتكلم أجلس أمامه جلوس الطالب المؤدب الشغوف بالعلم، يجلس إلى أستاذه الشيخ ! لقد أمضينا أربعتنا ساعات طويلة نتناقش في الدين والفلسفة والسياسة والأخلاق ، مما جعلني أتمنى لو أبقى العمر كله أعيش هذا الحلم الجميل !

*****

لحظة أن أقلعت بنا الطائرة، سالي وأنا ، من مطار "سياتل" قاصدة لوس أنجلوس ، وأنا أشعر بالانقباض والتوتر، على عكس سالي التي كانت جداً سعيدة ومبتهجة ! لقد كنت

في حالة قلق وشرود ذهن مخيفين، فقد كانت سالي تسألني أحيانا عن شيء محدد ، فأجيبها عن شيء آخر ، أو لا أجيبها إطلاقا، مما حدا بها لأن تستفسر عن سرّ ذهولي ووجومي وسرحاني.

لم يعد متسع من الوقت للتهرب من مواجهة الحقيقة؛ فإن الكارثة لا بد وأن تحدث سريعاً. إنها مجرد وقت. لقد زاد في توتري وإحباطي عندما سألتني سالي رأيي ونحن في سيارة الأجرة التي تنقلنا من مطار لوس أنجلوس إلى مدينة سانتامونيكا، فيما إذا كان من الأنسب أن نتخلى عن شقتي ونحتفظ بشقتها أو العكس، ما زلنا سنسكن معاً في النهاية !

- أنا أرى أن يبقى كل واحد منا في شقته بالوقت الحاضر حتى تناقشي أطروحتك، وإن كنت أفضل أن نسكن معاً منذ الليلة، لأن سكننا معاً سوف يبعثر جهودك في القضاء على كثير من وقتك بدون دراسة، وأنت الآن بحاجة إلى تكثيف الجهود واستغلال كل دقيقة من وقتك وتفكيرك.

قالت وهي تبتسم خجلى، وتنظر إلي نظرة ذات مغزى:

- هل تعني بأننا سنمضي كل وقتنا بالفراش بدلاً من الدراسة ؟! سألت وقد احمرّت وجنتاها ومصمصت شفتيها !

- إنك تعرفين كم أحبك. وأنا عندما أكون إلى جانبك لن أتركك تدرسين، سأقضي كل الوقت أضمك إلى صدري وأقبلك وأداعبك... و... و... الخ... الخ...!

- إذن أنت ترى أنه من الأحسن لنا أن ننتظر الأربعة شهور المقبلة قبل أن نسكن معاً ؟!

- طبعاً يا حبيبتي. وإلا لن تجدي وقتاً للبحث والدراسة، فستضطرين عندها للتخلي عن الحصول على شهادة الماجستير، وهذا ما لا أريده ولا أظن أنك أنت نفسك تريدينه !

هزّت رأسها موافقة وهي ترمقني بنظرة متقدة وقالت:

- بعد الانتهاء من مناقشة الأطروحة سأتفرغ لخدمتك وحبك !

- هل أفهم أنك لا تحبين أن تعملي ؟!

- الماما والبابا قالا بأنه لا حاجة لأن أشتغل أثناء تحضيري للدكتوراة، إذ إنهما سيتكفلان بدفع جميع مصاريفي وسيكون الاعتناء بك وخدمتك هو عملي عندما لا نكون في قاعة المحاضرات .

- أرجوك أن تكفي عن قول مثل هذا، إذ أخشى أن يتوقف قلبي عن الخفقان من زخم السعادة ! سأجعلك أسعد حبيبة على وجه الأرض... فقط انتظري وستتحققين من ذلك بالوقت المناسب. قلت ذلك وأحطتها بيدي اليمنى وشددتها إلي، فألقت هي برأسها على كتفي والفرحة تغمر وجهها والسعادة تفيض من عينيها !

- ليس عندي ذرة من شك. وانتظر أنت أيضا وسترى كيف تكون حياتك معي، سأجعلها نعيماً متواصلاً !

"يا رب استجب لأقوالها. إنك أنت الوحيد القادر على إيجاد حلّ لمشكلتي ! " قلت ذلك في سري.

اقتربت مني وقبلتني بحرارة وشهوة ... كانت سيارة الأجرة قد خرجت عن الطريق السريع، ودخلت إلى أحد الشوارع القريبة من سكنها.

- ما رأيك أن تقضي الليلة معي فترتاح، وأوصلك غداً إلى شقتك ؟ سألتني سالي بعد أن توقفت سيارة الأجرة أمام باب العمارة التي تسكنها.

رنّت الكلمات في وجداني وأشعلته، وكأن مطرقة انهالت على رأسي تضربه "توصلني إلى شقتي وتدخلها ؟ ! وترى ألكسس وتعرف ما بيننا ؟! يا للهول! وإذا قضيت الليلة في شقتها فإلى متى أخفي رأسي من العاصفة ؟! رحمتك اللهم وسترك ! ألطف بعبدك سهيل ابن أمينة، وجد له مخرجاً من ورطته هذه...! "

- لا، لا. يجب أن أذهب الآن إلى شقتي. لقد افتقدت كتبي وأبحاثي. ثم لا شك أن هناك رسائل من الوطن تنتظرني ! إنني أموت شوقاً لسماع أخبار الأهل.

- إذن، سأدخل حاجياتي وأحضر مفاتيح سيارتي وأوصلك إلى هناك.

- لا، لا. لا يمكن أن أزعجك. أنت متعبة، وبحاجة إلى الراحة. الرحلة كانت طويلة وشاقة ! ستوصلني سيارة الأجرة نفسها.

- ولكن هذا سيكلفك كثيرا، كثيراً جداً.

- لا بأس. الفلوس تهون أمام راحتك يا أغلى من في الوجود !

وأمضينا أكثر من ثلاث دقائق نتجادل، هي تصرّ على إيصالي وأنا أرفض بشدة. وأخيرا أذعنت لرجائي، وأنا شاكر للخالق إذ إنه أنقذني من أول ورطة كان من الممكن أن تواجهني فتقصم ظهري وتزلزل كياني .

صعدت درج العمارة على رؤوس أصابعي وبخطى خفيفة لم أسمعها أنا نفسي، ولكنني ما كدت أدس المفتاح بالباب وأديره ثم أفتحه، حتى رأيت ألكسس في آخر الصالون واقفة تحدق بمن فتح الباب ! فما كادت تقع عيناها عليّ حتى جمدت في مكانها وصارت ترتجف كدرويش هزّه الشوق إلى الخالق فأصابته حمى التسبيح والتكبير، ثم انفجرت تبكي بهستيريا أرعبتني ... ! ألقيت بما أحمل على السجادة، وهرعت إليها أضمها إلى صدري، فتهاوت بين يدي، فحملتها إلى الكنبة، ومددتها فوقها وأنا أسألها عما بها ! لم تجب على أسئلتي، وإنما احتد انفعالها وازداد ارتجافها واشتد بكاؤها، وعلت شهقاتها وتنهداتها، حتى خفت أن يكون قد أصابها مسّ من الجنون أو نوبة هستيريا ! وبعد فترة ليست بالقصيرة استطاعت أن تتكلم من بين دموعها وشهقاتها.

- عندما مضى اليوم الأول والثاني ولم تهاتفني، اشتعلت النيران في قلبي، وفقدت عقلي ! صرت كالمجنونة أدور في جنبات الشقة وأنا أصيح بأعلى صوتي ! قلت لا بد وأن يكون قد حدث لك مكروه، إذ لا شك أنك اصطدمت بسيارة أخرى، وأنك في حالة صحية سيئة لم تتمكن بسببها من مهاتفتي.

قلت وقد يسرّ الله لي الجواب الذي صار لي عشرة أيام أحاول إيجاده:

- فعلاً هذا ما حدث يا حبيبتي ! لقد كنت والسيد مونتكيو نقود السيارة المستأجرة في طريقنا من مدينة نيويورك إلى شلالات "نياقارا"، وكنت لحظتها أفكر بك وأحلم بلقائك، وأتصورك بين أحضاني؛ عندما تجاوزتنا شاحنة مسرعة، يبدو أن سائقها كان ثملاً للطريقة الهوجاء التي كان يقود بها؛ فضربت بمؤخرة سيارتنا، فأخرجتنا عن الطريق الرئيسي وألقت بنا بعيداً. لقد كنا محظوظين جداً إذ إن المنطقة التي رمتنا إليها كانت مستوية وخالية من المواد الصلبة، إذ لو كانت وادياً أو ماء أو حتى طريقا معاكسا، لما كنت الآن جالساً أمامك أكلمك !

وهنا نهضت ألكسس واقفة، واندفعت نحوي كالسهم وتعلقت بذراعيها برقبتي ولفّت رجليها حول خصري، تعلقت بي كطفل يرى أمه بعد معاناة وغياب طويلين، تعانقني ودموعها تنزل غزيرة وبحرقة أكثر من السابق، ثم صارت تتحسس رأسي وصدري ويدي وقدمي برعب وقلق.

- هل كسر شيء من عظامك ؟! أعني هل حدث لك مكروه ؟!

- لم يحدث لجسمي أي مكروه، وكذلك السيد مونتكيو، فقط رضوض. المشكلة أننا فقدنا الوعي لمدة أسبوع وخاف الأطباء أن نكون فقد فقدنا الذاكرة، لذلك نحمد الله أن ذاكرة كل واحد منا قد عادت إليه الآن.

وهجمت عليّ تقبلني وتعانقني وتلفني وتتحسس جسمي من جديد.

- الحمد لله. لقد استجاب الله لأدعيتي، فقد كنت أقضي الليل والنهار أصلي للخالق، وأطلب من السيد المسيح أن يعيدك إلي سالماً معافى. شكراً له لقد استجاب لدعائي !

- لقد استجاب الخالق لدعائك، وها أنا أمامك كما أنا دائماً. قلت وقد أحسست بالسعادة حقاً وبالرضاء عن نفسي؛ كما شعرت بالارتياح الشديد فقد انزاح عن كاهلي همّ ثقيل كنت أتمزق لأتخلص منه.

كان وجه ألكسس شاحباً، وكان جسمها هزيلاً، وكانت عيناها غائرتين، ولكنني لاحظت أن بطنها قد كبر قليلاً، فعزوت ذلك إلى إسرافها في الأكل. لقد قرأت لعالم نفسي بأن بعض المحزونين المقهورين يبدّدون قهرهم وحزنهم بتناول كميات من الأكل بصورة مستمرة، إذ إنهم لا يشعرون حتى أنهم يأكلون.

- لقد اتصلت بالفندق الذي نزلتم به، فأعلمتني الموظفة بأنكما تركتما ولا تعرف إلى أين.

وهنا أحسست بأن قلبي قد سقط هلعاً مخافة أن تكون موظفة الفندق قد أعلمتها بأننا كنا أربعة أشخاص لا اثنين ؛ ولكن يبدو أنها لم تفعل، لأن ألكسس لم تعلق على ذلك. كذلك فقد أخبرت السيد مونتكيو ساعة وداعنا أن لا يهاتفني أبدا، لأنني أردت أن تظن ألكسس بأننا معاً ولم نفترق، وأنني سأكلمه حال وصولي شقتي.

- وأين السيد مونتكيو؟! سألت ألكسس بصوت متعب وهي تمسح دموعها بالمنديل الورقي الذي قدمته لها.

- أخذ الطائرة المتوجهة إلى مطار "أوكلاند" ومن هناك يركب الباص إلى "سان هوزيه" أو يقابله أحد من أفراد عائلته بالمطار.

- لماذا لم تهاتفني يا حبيبي، حالما عاد إليك وعيك ؟! سألت باستغراب وحيرة.

- قلت في نفسي لأجعلها مفاجأة لك !

- ما هذا المنطق الغريب ؟ ! أية مفاجأة هذه بعد أن كدت أفقد عقلي وأموت ؟!

- آه ما أغباني يا حبيبتي ! صحيح أية مفاجأة هذه. يبدو أنني من شدة الصدمة لم أعد أفكر سوياً. نعم، كان يجب أن أهاتفك وأطمئنك. أنا آسف. آسف جداً ! ثم انحنيت وقبلتها قبلة خفيفة على شفتيها.

- ثم لماذا تأخذ سيارة أجرة ؟ كان بإمكانك أن تعلمني لأحضرك من المطار ! قالتها بغيظ.

- ألم أقل لك بأنني لم أعد أفكر تفكيراً سوياً ! مرة أخرى أنا آسف يا حبيبتي.

- لن تذهب بعد اليوم إلى أي مكان بدوني، ولا لأي سبب كان ! لن أدعك تفعل ذلك. قالت وقد انفرجت شفتاها الذابلتان عن ابتسامة باهتة حزينة.

- لن أسافر بعد اليوم بدونك. لقد كنت حقاً قاسي القلب أنانيا، فاعذريني. قلت صادقاً وأنا أشعر بندم شديد أحسست أنه أحرق عظامي، وأن داخلي يتمزق أسفاً وحزناً عليها. وتساءلت مرة أخرى فيما إذا كنت حقاً جديراً بهذا الطهر والسريرة النقيّة، وأنني أستحق كل هذا الحب والاهتمام والتضحية منها ! آه رحماك يا رب! أنقذني من هذا السعير !

- لا بد وأنك تموت جوعاً ؟ لم أكن أعرف بأنك عائد إليّ الليلة وإلا لكنت حضّرت لك ما تحب من الطعام.

- لا تزعجي نفسك. لقد أطعمونا على الطائرة.

- كان هذا قبل ساعات. أنت مدعو الليلة إلى مطعم "الستيك هاوس" فأنا أعرف أنك تحب كثيراً اللحم البقري المشوي الذي يقدمه. دعنا نحتفل الليلة بعودتك، نشرب النبيذ ونرقص حتى الصباح كعادتنا ! قالت ذلك ونهضت وأنهضتني معها بنشاط فائق، كما لاحظت إشراقة وجهها بعد أن كان لا لون له، فأدركت أنه الحب الذي أعاد إليها نشاطها وحيويتها، وكذلك ابتسامتها وإشراقة وجهها.

- تعال لنستحم سوية، فقد اشتقت جداً لأن أحممك بنفسي.

- وأنا اشتقت إلى أن تحمميني بيديك الجميلتين. قلت ذلك ومررت بيدي على خدها أداعب وجنتيها.

- أحقا ما تقول ؟ ما أسعدني بعودتك.

- طبعاً يا حبيبتي، ثم إن سعادتي بعودتي إليك لا تقل عن سعادتك إن لم تكن أكثر.

- إذن أسرع لندخل الحمام، فقد بدأت أشعر بأنني أكاد أموت جوعاً.

وبعد أن دخلنا الحمام، وكان كل منا يخلع ملابسه أضافت ألكسس:

- إن لي أسبوعا كاملا أعيش على القهوة والعصائر ! إنني ومنذ سافرت لم أتناول وجبة كاملة، آكل لقمة هنا ولقمة هناك وبدون شهية. ليس لي رغبة حتى أن أعيش وأنت بعيد عني... صدقني يا حبيبي !

وضعت نفسي في "البانيو" واسترخيت كلية، وأنا أستمع إلى صوت الماء يسقط فوق جسمي ليملأ حوض "البانيو"، وقد أسلمت نفسي لألكسس وهي تغسل رأسي بالشامبو، وتفرك لي جسمي وأنا أشعر بمتعة صميمية، وإن كان في أعماقي قلق ممزق، إذ كيف يجب أن أتصرف، وماذا عليّ أن أفعل لأخلص نفسي من هذه الورطة التي أوقعت نفسي بها ؟! ومرة أخرى تمنيت لو أن سالي وألكسس تتحدان وتصبحان امرأة واحدة !

أكلنا شرائح اللحم البقري اللذيذ الفاخر، وشربنا النبيذ الفرنسي المعتق، ورقصنا ولكن هذه الليلة بهدوء وتعقل، ولمدة قصيرة، فقد كنا نحن الاثنين مرهقين جسمياً وعاطفياً، وغادرنا المطعم على غير عادتنا، عند منتصف الليل !

*****

استيقظت من نومي على مداعبات ألكسس. كانت تعبث بشعري تارة، وتداعب خدي وأذني تارة أخرى، وتقبل أنفي وشفتي تارات؛ ولما أدركت بأنني قد استيقظت بكل وعيي، قالت:

- إنهض أيها الرجل الكسلان ، الساعة تقترب من العاشرة.

- صباح الخير يا حبيبتي. حقاً إنني كسلان. ولكن صدقيني إنك شبعت نوماً قبل أن أغفو أنا. لم يزر النوم جفني إلا عند الفجر ! قلت صادقاً وأنا أقبل يدها التي تعبث بشعري، وأتأمل بتصوف نهديها العاريين !

- ولم يا حبيبي؟ ! هل من مشكلة تقلقك؟ ! لا تخف عني شيئاً إطلاقاً ما زلت أنا إلى جانبك. على كل حال، أرجوك أخبرني همومك، وأنا سأجد لها الحل. أنت تعرف حبيبتك ألكسس حلالة المشاكل، كل عقدة ولها عندي حل. قالت وهي تضحك بطريقة طفولية، ولكن بلهجة الصادق الواثق. كانت تصوب سبابة يدها اليمنى إلى رأسها بطريقة الإنسان الذي يصوب مسدساً إلى رأسه.

ضحكت بألم، وكنت أحس ناراً تشتعل في داخلي، وتمنيت لو أنها قضية غير المشكلة التي تقلقني لكنت حقاً استشرتها، ولكانت بالفعل وجدت لها حلاً ولكن... آه يا لكن !

- لا شيء يشغل بالي إطلاقا يا حبيبتي ! ما زلتِ أنتِ إلى جانبي، فالعالم كله ملك يدي... يبدو أن آثار الاصطدام ما زالت تنهك جسمي. قلت بنفس مقبوضة وقلب محبط.

- ولم لا تذهب إلى مستشفى الجامعة وتطلب إليهم أن يعملوا لك فحصاً كاملاً ؟ ! أنت ربما لا تعرف أن الإنسان قد لا يشعر بالألم إلا بعد مضي عدة أيام على الحادث.

- أنا أعرف ذلك يا حبيبتي. ولقد عملوا لنا، السيد مونتكيو وأنا، آخر فحص شامل أول أمس، وقالوا بأننا بصحة جيدة، ولم يكن للحادث تأثير على صحتنا إطلاقا. ولهذا السبب سمحوا لنا بمغادرة المستشفى.

- الحمد لله ! بالمناسبة، إنك لم تقل لي ماذا فعلوا بالسائق، والتأمين، ومتى المحاكمة، وكل هذه الأشياء ؟!

- السائق هرب ولم يتعرف البوليس على هويته. أما شركة تأمين السيارة التي كنا نقودها فقد دفعوا عنا تكاليف المستشفى وتصليح السيارة. لقد دفعوا كل شيء، وأغلقت القضية.

- مرة أخرى، الحمد لله الذي أعادك إليّ سالماً. والآن إنهض واستحم لأجهز لك الفطور. أنا لم أفطر بعد. شربت كأس عصير برتقال وفنجان قهوة فقط؛ أم هل تريدني أن أحممك أو لا ؟

- لا... لا، لا تزعجي نفسك. سآخذ حماماً سريعاً وسأكون جالساً على طاولة الطعام خلال عشر دقائق. جهزي أنت الفطور. قلت ذلك وأبعدت الغطاء عني، ونهضت واقفاً.

- بعد الفطور، سأزف إليك بشرى ستفرحك كثيراً... كثيراً جداً، وتجعلك تنسى آلام جسمك، وكل ما يزعجك. ثم إنك ستحبني أكثر ! قالت وهي تبتسم خجلى.

- ولم لا تقولين البشرى الآن ؟! سألت وقد بدأ حب الاستطلاع يتعاظم في داخلي، كما بدأ عقلي يفكر باحتمالات عديدة. لقد خشيت أن تقول بأنها نفذت فكرتها واشترت بيتاً حول الجامعة، وتريدنا أن نرحل إليه، لأنها سبق وعرضت عليّ الفكرة فرفضتها، وهي الآن تريد أن تضعني أمام الأمر الواقع !

- سأقولها لك بعد الانتهاء من الفطور. لأن فرحة الخبر قد توقف عندك شهية الأكل. أنا أريدك أن تأكل جيداً... أن تتغذى كي تعوض ما فقد جسمك أثناء وجودك بالمستشفى.

- الذي يفقد الشهية يا "شاطرة" هو الخبر السيء، وليس الخبر المفرح. قلت وأنا أقهقه من سذاجتها.
- الخبر المفرح هو كالخبر المحزن، كلاهما يفقدان الإنسان شهية الأكل؛ وإن كان فقدان الشهية يدوم طويلاً مع الثاني، ومدة قصيرة مع الأول. قالت بلهجة الخبير الواثق.
- إياك أن تكون البشرى هي أنك ذهبت واشتريت ذلك البيت الفاخر الذي أريتني إياه !
- لا، لمّا افعل ذلك بعد. على كل حال هذا الخبر أكثر أهمية وخيراً من شراء البيت. وإن كنت ستوافقني رأساً على شراء البيت بعد أن تسمع ما سأقوله لك.
لقد قويت غريزة حب الاستطلاع عندي لدرجة أنني لم أستطع مقاومتها، فهجمت على ألكسس أعانقها وأقبلها وأستحلفها بمعزة "داشو" عندها أن تقول لي هذا الخبر المهم والسعيد، لأني لا أستطيع الانتظار !
- قلت لك لن أخبرك إلا بعد الفطور. لا تحاول. إنك تضيع الوقت. أدخل واستحم بسرعة، وبعد الأكل سأقوله لك. قالت وهي تبعد يدي الملتفتين حول خصرها، وتدفعني باتجاه الحمام.
استحممت على عجل، وتناولت فطوراً سريعاً، وقلت لها وأنا أحدق بوجهها وقلبي يقفز بين جنبي:
- ها أنا حققت لك كل ما طلبته مني، والآن قولي لي البشرى، إنني أذوب شوقاً لسماعها.
- أنا حامل في شهري الثالث !!
- ماذا ؟ ! صحت بها بصوت مزلزل، وكان إنساناً طعنني بسكين في قلبي !
- أنا عرفت بأنك ستجن فرحاً. من منا لا يذوب شوقاً لرؤية ثمرة حبه تمشي أمامه ؟! أنا أعرف بأنك تحب الأطفال. نعم يا داشو، أنا حامل في الشهر الثالث. إن سهيلاً الصغير يكبر الآن في أحشائي ! قالت ذلك وأغمضت عينيها حالمة وعانقت الفراغ.
شعرت لحظتها بأن صخرة بحجم جبل قد ضربتني فوق رأسي، وتأرجحت فوق الكرسي، فأمسكت بالطاولة حتى لا أسقط ! نظرت إليها بعينين جاحظتين تكادان تطيران من محجريهما:
- لا شك أنك تمزحين. قولي بربك أنك غير جادة، وأنك لا تعنين ما تقولين ! قلت ونار تحرق قلبي.
- ولماذا لا تصدقني وتشك فيما أقول ؟! هل تعني أنني ما زلت صغيرة، وأنني لست أهلا للحمل؟! عمري الآن ثمانية عشر عاماً ونصف، ويحملن وأعمارهن فقط أربعة عشر عاماً، وبعضهن...
- أنا أعرف كل ذلك. أنا واثق من أنهن يحملن وأعمارهن حتى ثلاثة عشر. إن ما أعنيه هو كيف سمحت لنفسك أن تحملي ولم تخبريني مسبقاً ؟! ألست أنا شريكاً في هذه العملية ؟ ! ثم إن الوقت غير مناسب. قلت وأنا أهز إبهام يدي اليمنى بغضب عارم، وثورة جامحة، وكأنما أطلق رصاصات فتستقر في جوفها !
قالت بصوت عال، وبلهجة المصعوق المخذول النازف وقد نهضت عن الكرسي وهي ترتجف غضباً:

- كل شيء أعمله لإسعادك يزعجك ويضايقك، وتقول ما كان يجب أن أفعله ! الوقت غير مناسب. ومتى سيكون الوقت مناسباً؟! قل لي بربك، إنني لو أتيت وقلت لك بأنني سأحمل منك لكنت رفضت وقلت لا.

- وهل أنت واثقة بأن الجنين الذي في داخلك هو مني؟ ! قلت وأنا أشير بيدي وأهز برأسي على الطريقة العربية !

ليتني لم أقلها، فقد تشنجت ألكسس من الغضب والصدمة معاً، وصارت ترتجف بشكل أرعبني وأقلقني معاً، ثم صارت تبكي وتصرخ بهستيريا، لم يبق عندي ذرة من شك بأن الجيران وكذلك الذين كانوا يعبرون الشارع قد سمعوا ما تقول ! خفت أن تفقد عقلها، فتفقد السيطرة على نفسها !

- نعم أنا واثقة يا بروفيسور سهيل دهشان، أن الجنين الذي في أحشائي هو ابنك. السبب بسيط، بسيط جداً، إنني منذ أتيت إلى كاليفورنيا لم يمسسني رجل... لم أسمح لأحد أن يقبلني ولا حتى أن يلمس يدي. من السهل جداً أن تتأكد إن كان ابنك أو لا. زيارة قصيرة للمستشفى يعلمونك الحقيقة. قالت بمعاناة وتفجع.

- حتى لو كان ابني حقاً، فأنا لا أريده. أنا لا أريد أن يكون لي أولادٌ ! أنا لست أهلا لأن أكون أباً ! أنا لا أفكر إطلاقا بالأولاد. أنا لا أقدر على تحمل المسؤولية ! قلت ذلك وألقيت بنفسي فوق الكنبة العريضة، وأسندت ظهري إلى الخلف.

شعرت لحظتها بأن الأرض تميد بي؛ وللحظات فكرت أن هناك شعوراً وهمياً لدى ألكسس. ربما تتوهم أنها حامل ! أخذت أراجع نفسي، كنت حريصاً جداً على أن لا تحمل ألكسس مني. كنت أسألها دائماً إن كانت تستعمل حبوب منع الحمل، وكانت دائماً تؤكد لي بأنها تفعل. إذن، لماذا كذبت عليّ ؟! هل حملت مني عن قصد وإصرار، أم أن الحمل حدث رغماً عنها ؟! لقد قرأت وسمعت بأن كثيراً من الأوقات تحمل الواحدة منهن، حتى وهي تستعمل هذه الحبوب. وسألتها بفجاجة، وعيناي تقدحان شراراً وجسمي يرتجف غضباً:

- إذا كنت حاملاً حقاً، فهل حدث هذا بإرادتك أم رغماً عنك ؟!

نظرت ألكسس إلي وكأنها تهم بأن تصفعني، تمنيت لو أنها تفعل ذلك لأركلها برجلي وأطردها من البيت. لكن الصبية شعرت بانكسار وخيبة أمل. سارت خطوات ووضعت يدها على معدتها، وقالت:

- إنك تجعلني أتقيأ. ما كنت أظنك قاسي القلب إلى هذه الدرجة ! أنت متجمد العواطف !

- أنا أسال بجد. هل أنت حقاً حامل؟ ! وكيف يمكن أن يحدث هذا ؟! وإذا كنت كذلك، فمن المستحيل أن يكون ابني ! قلت بجفاء وغلظة وبصوت عال.

عندها بدأت ألكسس تبكي وتنْشج، وسارت نحو الحمام. سمعتها وهي تحاول أن تتقيأ. وبقيتُ في الصالة، تملكني مزيج من الغضب والخوف والدهشة معاً. فكرت أن أجري إلى الحمام فأضرب رأسها بالجدار حتى تموت، فأتخلص منها ! ارتعشت... تجمد الدم في عروقي ووقف شعر رأسي، إذ أجد نفسي أفكر بمثل هذا الأمر؛ هل انقلبت فجأة إلى وحش كاسر؟! أين حناني ورومانسيتي ورقة مشاعري ؟! أكلها تلاشت بلحظات !

عادت من الحمام، وهي تضع طرف المنشفة على فمها، وجلست إلى جواري باستكانة مزّقت قلبي. أدهشني منها ذلك الخنوع، وجلسنا صامتين وقتاً طويلاً. كانت تتلوى من الألم، وكان وجهها أشبه بصفحة تزداد سواداً. أما عيناها فكانتا حمراوين تدمعان. فكرت في كل شيء. فكرت في أن أهرب إلى اللامكان. فكرت في أن أغادر كاليفورنيا برمتها. فكرت في أشياء كثيرة حتى أحسست بأن دماغي سينفجر من كثرة التفكير. ألقيت ظهري على الكنبة، وأغمضت عيني. شعرت بشيء من الراحة، فقد كان من المريح جداً لي أن لا أتورط أكثر بالحديث أو التصرف.

*****

في المساء خرجت ألكسس من غرفة النوم، وجاءت إلى حيث كنت جالساً خلف المكتب أتلهى بأي شيء. كانت ترتدي شيئاً خفيفاً معلقاً بشيال فوق كتفيها، وبالكاد يستر نهديها وبطنها وركبتيها. كان ظهرها عارياً تماماً، وكانت تلك البذلة الخفيفة من قماش حريري ناعم بلون البرتقال المتناسق مع لون جسدها البض المتورد. كان شعرها يتهدل على كتفيها وترتدي في قدميها حذاء خفيفاً مربوطاً بسيور حمراء تصل إلى ما دون الركبة. وخيل إلي أنها ليست حاملاً، وأنها تكذب عليّ. ربما تريد أن تستأذنني بالحمل، فقد ألمحت إلى ذلك بطريقة غير مباشرة أكثر من مرة، ولكنني تجاهلت تلميحاتها وتظاهرت بعدم الفهم. أفرحتني الفكرة جداً، دغدغت أعطافي، ولمت نفسي لتسرعي بالحكم، وكيف لم أفكر بهذا من الأول، وجاءت تمشي مثل حورية خارجة من البحر للتو، وجهها متورد، وعيناها كما عهدتهما صافيتين، مملوءتين حباً وحناناً.جلستْ إلى جواري على كرسي صغير متحرك، وابتسمت بعذوبة، قالت:

- داشو! حبيبي. أنا أحبك جداً جداً، ولا أستطيع أن أعيش بدون حبك وبعيدة عنك لحظة واحدة. أنا أتألم جداً إن رأيتك غاضباً أو حزيناً !

- وأنا أحبك يا ألكسس. أنت تعرفين أنني لا أستطيع أن أستغني عنك ولا عن حبك. أنت بالنسبة لي كالماء والهواء ! قلت لأشجعها على الكلام، فقد شعرت أنها على وشك أن تخبرني بأنها ليست حاملاً، وأن ما حصل كان مجرد مزحة ثقيلة، لتكشف وقع الخبر على نفسي. افترت شفتاي عن ابتسامة. قالت:

- كنت أنتظر عودتك يا حبيبي على أحر من الجمر، وبعد ذلك تقول بأنك لا تريدني أن أحمل منك. لماذا يا حبيبي؟ ! داشو، أنا لا أريد أن أتشاجر معك، أنا لا أريد أن أغضبك. أنا أكره أن أراك مهموماً. أنا أريد أن أراك دائماً مسروراً. إذا كنت لا تريد الطفل فأنا مستعدة للتخلص منه للإجهاض. وانفجرت تبكي من جديد بكاءً مرّاً موجعاً، انفطر له قلبي !

تبخرّ الوهم ومع ذلك شعرت بشيء من الانفراج؛ شيء من الراحة، التنازل عن الطفل للإجهاض !

- ألكسس. حبيبتي . مستحيل أن تكوني حامل، كنت أوصيك دائماً، وكنت أنت حذرة. أنا واثق من ذلك.

- نعم. كنت حذرة جداً. ولكن ما حدث كان خارجاً عن إرادتي. للأسف أنا لا أكذب عليك. لكن من أجلك سأتخلى عن الطفل. سأتخلى عن العالم بأسره !

ابتسمت قليلاً، فأمسكت بيدي، ونهضتْ، ونهضنا إلى غرفة النوم، جلست على حافة السرير. جلستْ إلى جانبي واحتوت عنقي بحرارة بذراعيها، وعندما بادلتها حركة الضم بحركة مشابهة، أحسست بدفء جسدها وفيض عواطفها، شعرت بأنها تخلع القميص عن جسدي. كانت أناملها تتحسس ظهري بلطف ورقة، وكان عطرها المثير يزكم أنفي ويلهب أحاسيسي وهي تشد على جسدي بذراعيها وتقبلني، قالت:

- حبيبي لا تغضب، سأفعل كل ما تريد. أنت أغلى من عيوني... من أهلي... من كل من أعرف ! أنت أغلى ما في الوجود، وكل ما عداك، لا شيء... أقل من لا شيء.

لم أعلق، وإنما كنت أحاول أن أستوعب ما يجري. أخذت أتحسس بطنها الذي كان ضامراً كما عهدته. خيل إلي أنه أكثر امتلاء. قد أكون مخطئاً. لم أكن قادراً على أن أصدق حكاية الحمل هذه، والتي كانت أشبه بكابوس أتمنى أن أستيقظ منه. أخذت تفك أزرار بنطالي. شعرت بأن جسدي يسترخي، ولم تكن لي رغبة في أن أقاوم؛ وعندما كان البنطلون ينزاح عن جذعي الأسفل، كانت ألكسس تقبل كتفي وصدري.قبلات تأمل وتعبد وتأنٍ ... قبلات طويلة. ثم أخذت تفكّ الشيالات وتسحب بذلتها الخفيفة عن جسدها.

رن جرس الهاتف، نقز جسمي، اشتدت ضربات قلبي، فنهضت كالملسوع أجري. أمسكت بالسماعة وأنا حزمة من القلق والأعصاب المتوترة ! جاء صوت سالي ناعماً عذباً حنوناً، يضج بالشوق واللهفة والأنوثة !

- حبيبي سهيل، أتكلم من المنطقة، من "وست وود"، من شارع "ولشر"، أبعد عنك حوالي الميلين فقط، أتيت لأصفف شعري. اشتقت إليك جداً. أريدك أن ترى تسريحة شعري الجديدة ! قلت أود أن أمر بك لأشرب القهوة معك، ونتحدث قليلاً قبل أن أعود إلى الشقة، ثم لتدعوني أو أدعوك إلى العشاء إن أحببت.

- أوه ... ! أنتِ في المنطقة ؟! جميل ! رائع ! أنت في المنطقة ؟؟ نعم، المنطقة ! يا عيني على المنطقة ! يا لجمال المنطقة ! أنا أموت بالمنطقة ! كلنا فداءً للمنطقة ! نموت جميعاً وتحيا المنطقة ! كنت أهذي ... أهلوس ...!

غامت الدنيا في عيني، وشعرت بالدبق يثبت لساني في سقف حلقي، وأن للعابي مذاقاً مقرفاً، وكأنما أحدهم وضع مرارة جسم إنسان في فمي وفجرّها ! كنت عاجزاً تماماً أن أقول شيئاً... أي شيء ما عدا كلمات جوفاء لا معنى لها. نظرت إلى ألكسس التي كانت عارية تماماً وهي تتمطى على حافة السرير بانتظار أن أكمل محادثتي وأعود إليها.

- أنا عاتبة عليك، وحزينة أيضاً ! إنك لم تأت لرؤيتي، ولا حتى هاتفتني ! على كل حال لن أمكث طويلاً يا حبيبي، إلا إذا طلبت أنت ذلك. ربما أنك لم تفتقدني، ولكنني أنا أفتقدك كثيراً. إلى اللقاء. وسمعت صوت انغلاق سماعة الهاتف.

- من يتكلم يا داشو؟ وقبل أن تسمع الجواب، استطردت:

- إذا رن الهاتف مرة أخرى لا ترد عليه. دع الآلة تسجل المكالمة. عندنا شيء نعمله أهم من الرد على الهاتف. قالت ذلك وصارت تكركر، وقد فتحت ذراعيها، إذ لا شك أنها كانت تنتظر اقترابي منها لتعانقني.

أخذت أجر نفسي إلى السرير؛ جلست على حافته، واحتويت رأسي بيدي، كأنما لأمنعه من التفجر، فقد كان بي صداعٌ ممزقٌ ...!

قالت ألكسس بقلق وهي تنهض وتحتضنني بلهفة:

- حبيبي ! ما بك ؟ ! من المتكلم ؟ ! هل أعلمك أحدهم خبراً سيئاً ؟ ! قل لي. أقلقتني عليك !

لم أجب على أسئلتها، وإنما نهضت خارجاً من الغرفة، وتبعتني ألكسس احتوت ظهري العاري بذراعيها؛ وأنامت رأسها فوقه؛ وعندما وصلت إلى الصالة، رميت بنفسي فوق الكنبة ... التصقت بي جالسة إلى جواري، واحتوت رقبتي بذراعيها. تخلصت منها إلى حيث لبست ملابسي، استعداداً للزائرة، وأخذت أتمشى في الصالة على غير هدي. نهضت ألكسس ودخلت إلى غرفة النوم، ثم خرجت وهي تلبس بذلتها الخفيفة. لاحظت أنها جلست على الكنبة، وقد بدا وجهها الأصفر يعكس أقصى ملامح الخوف والقلق وخيبة الأمل.

لم أكن ساعتها قادراً على أن أقول أي شيء... أية كلمة. كنت حزمة مشتعلة من الاحتراق والتوتر ! فكرت في أن أخرج، أهرب، إلى أين؟ ! لا أدري؟ إلى أي مكان خارج الشقة. مكان أحتمي به من رؤية سالي وألكسس ... !

- حبيبي ما بك ؟! قل لي أرجوك. هل هناك أخبار سيئة ؟! قل لي! لقد تجمد الدم في شراييني خوفاً وقلقاً ! هل هناك شيء هام ؟!

- لا. لا. سأخرج قليلاً وسأعود في الحال.

وسرعان ما دخلت ألكسس الغرفة، وبدأت ترتدي ملابس الخروج، ثم جاءت فيما كنت ما زلت أرتدي جوربي . لقد كان جسمي كله يرتجف، حتى كنت أجد صعوبة بالتحكم بربط سير حذائي. قالت بدلال مغناج :

- هل ستدعوني إلى العشاء في الخارج ؟! دعنا نذهب هذه الليلة إلى المطعم الصيني. إنك تحب الأكل الصيني.

- إذا شئتِ. قلت مغمغماً. كان كل همي أن أكون خارج الشقة، حتى لو كان المكان إحدى زنزانات الوطن الحبيب ! بل حتى لو كان سقر نفسها !

- اسمع يا حبيبي، لا تقلق، سأفعل كل شيء تريده. نعم كل شيء. اعتبرني طوع بنانك. إنني جاريتك يا أغلى حبيب في الدنيا. إذا كنت لا تريد هذا الطفل، لأنك غير مستعد نفسياً له، لا بأس. سننجب الكثيرين عندما تكون مستعداً نفسياً وعاطفياً. أنا مستعدة للحمل منذ أن قابلتك. صدقني أنني منذ اليوم الأول للقائنا، وأنا أحلم بطفل جميل منك، سهيل الصغير. ما أروع أن تكون ثمرة الحب طفلاً يخلد هذا الحب ! إنه تجسيد حبّي وحسّي له ! قالت ذلك وطوقت عنقي بذراعها اليسرى لتقبلني، ولكنني أبعدتها عني ونهضت واقفاً كالعامود.

في تلك اللحظة، سمعت صوتاً عند الباب، فأحسست بأن قلبي توقف عن الخفقان، وأن الأرض تعطلت عن الدوران، ولدهشتي وجدته ينفتح ! كيف ؟ لا أدري ! وتدخل سالي كغيمة متحركة من الفرح والسعادة، وعندما وقع نظرها على ألكسس تجمدت في مكانها، اكفهر وجهها، واتسعت حدقتا عينيها، وقالت بغضب ماحق:

- لماذا ألكسس هنا يا سهيل ؟! ماذا تفعل في شقتك؟! وهل ما زلت على علاقة بها ؟!

لم أجد الجواب المناسب. بل لم يفتح الله عليّ بجواب... أي جواب...! أخذت أنقل نظراتي بين الامرأتين حائراً، مذهولاً، مصعوقاً. ولما لم أقل شيئاً، أعادت سالي السؤال، ولكن هذه المرة بطريقة فجّة، وبصوت أعلى من سابقة، وكان الشرر يتطاير من عينيها !

- لماذا لا تجيب على سؤالي يا سهيل ؟! ماذا تفعل ألكسس هنا ؟! ألم تخبرني بأنها لم تعد تعني شيئاً بالنسبة لك، وأن علاقتك بها لا تتجاوز معرفة طالبة بأستاذها ؟! ثم ألم تعدني بأنه لن تكون في حياتك بعد اليوم امرأة سواي ؟! وأنني أنا حبك الحقيقي والوحيد ؟!

وهنا نطقت ألكسس، ولعلها فاقت من دهشتها وذهولها :

- السؤال؛ كيف تدخلين أنت إلى بيتي بلا استئذان أيتها الوقحة ؟!

- بيتك ؟! أنت تسكنين هنا ؟! ومنذ متى ؟! سألت سالي وقد اتسعت عيناها فأصبحتا حجم وجهها، يخرج منهما لهيب كأنه سياط من جهنم !

- نعم بيتي. وهل أنا بحاجة إلى أن أستأذن منك لأعيش مع حبيبي ؟ ! قالت ذلك واقتربت مني ولفت ذراعيها حول خصري، وأخذت تقبلني وكأنما لتبرهن لها على صدق قولها.

- حبيبك ؟! تعانقينه وتقبلينه أمام عينيّ؟! يا إلهي ماذا أسمع وماذا أرى؟! هل أنا حقاً في الحقيقة أم أحلم ؟! قالت ذلك وعانقت يداها رأسها كأنما لتمنعه من الانفجار.

- أنتِ في الحقيقة يا هذه، لا تحلمين. من أنتِ ؟! أنا لم أركِ من قبل قط. وهل حقاً تعرفين حبيبي؟! قالت ألكسس ذلك لسالي، ثم التفتت إلي تسألني وهي تحدق بي !

- من هذه المرأة يا داشو؟! وهل حقاً تعرفها؟! قل لي أرجوك. تكلم. لماذا أنت صامت ؟!

لم أفتح فمي لأن لساني كان ما زال معطلاً متجمداً، وحتى إن طاوعني، فإنني لا أدري ماذا أقول...!

- قل لها من أكون يا حبيبي. قل لها أننا نحب بعضاً من مدة طويلة، وأننا مخطوبان وسنتزوج رسمياً قريباً. قل لها أننا متزوجان، وبقي علينا فقط مراسيم الزواج ! قل لها أننا كنا معاً ولأكثر من ثلاثة أسابيع في مدينة "دي سي" العاصمة ، وفي مدينة "سياتل" أيضا، وأننا عدنا من رحلتنا فقط مساء أمس !

لم أقل شيئاً، إذ لا شك أنني كنت في تلك اللحظة، في منطقة وسط الشفق، منطقة تزاحم البشرية، بين الحقيقة والعدم؛ وحيث الناس يعيشون كخيالات متحركة...! كنت مسطولاً في مكاني كالصنم، أحدق بعينين ميتتين متجمدتين بالمرأتين، واسترسلت سالي تشرح لألكسس تفاصيل ما حدث في الرحلة وقبلها، ثم طلبت منها أن تغادر البيت إلى غير رجعة.

صرخت ألكسس في وجهها، وتقدمت منها وهي تزأر غضباً وقد كورت يدها لتضربها على وجهها.

- سأحطم رأسك أيتها الفاجرة. سأمزق لحمك بيدي هاتين. أين أخرج ؟! هذا بيتي، وسهيل زوجي. إنني حامل، وابنه في أحشائي ! قالت ذلك وصارت تشير إلى بطنها بارتعاش وعصبية.

بدأت سالي ترتجف وأخذت تبكي بحرقة ولوعة وهي تنظر إلي وكأنما تستنجد بي. صاحت بها ألكسس:

- أخرجي من هنا يا وقحة. تقتحمين بيتي وتطالبين بأن أخرج منه. ثم نظرت إلي وصاحت بكل طاقتها:

- داشو ! أطردها ! أخرج هذه الكلبة من هنا. قل لها إنك لا تحب امرأة سواي، وإن ابنك في أحشائي.

قالت سالي وقد شعرت أنها تحاول أن تحتفظ بشيء من كرامتها وأن تصون بعضاً من ماء وجهها؛ كما أحسست بأنها تحارب في معركة خاسرة. فردت بلهجة هادئة ذليلة ومخذولة:

- سأخرج إن طلب مني سهيل ذلك. أنا جئت لزيارته، وهو وحده الذي يستطيع أن يرحب بي أو يقول غير ذلك. ثم نظرت إلي وكأنما تستحثني على الكلام. ولما لم أقل شيئاً، سألتني:

- سهيل ! أنت حقاً متزوج وأنا لا أعلم؟! أم أن هذه المرأة تبتزك ؟! هل هي حقاً حامل منك كما تقول ؟! إذن لماذا صار لك شهوراً طويلة تلح عليّ في أن أتزوجك ؟!

اهتزت أرنبتا أنف ألكسس، وبدأت تبكي وتقول:

- داشو حبيبي ! أي كابوس نعيشه ؟! ماذا تريد هذه المرأة ؟! هل صحيح أنك تحبها وأنكما ستتزوجان ؟!

لم أكن قادراً على الكلام. كنت وكأنما أنا قطعة من الصخر فقدت جميع حواسي.كنت محنطاً في مكاني، أحدق بعينين متجمدتين بالمرأتين دون أن أنبس ببنت شفة ! غيرّت مقعدي، وجلست على كرسي عند الباب، فيما ظلت سالي واقفة، قالت لها ألكسس:

- في الوقت الذي كان به هذا المخلوق يقول لكِ بأنه يحبك ويطلب منك أن تتزوجيه، كان يعيش معي ويقول لي نفس الكلام، وإن كان لم يطلب مني بعد أن أتزوجه، ولكنني أحمل ابنه في أحشائي. هذا النذل ينكر ابنه ولا يصدق أنني حملت منه، وعندما اقتنع، فقد طلب مني أن أتخلص منه لأنه ليس في وضع نفسي أن يكون أبا. كان ينام معي، ولا شك أنه كان ينام معك أنت أيضا ! كان يقنعك بأنك الوحيدة التي يحب والوحيدة التي في حياته، وكان في نفس الوقت يخبرني بأنه يحبني وأنني الوحيدة في حياته. كان يقول لي بأنني أغلى من عيونه، وأنه لا يستطيع أن يعيش بدوني، وبعيداً عني ... لا شك أنه فعل ذلك معك ! والآن هو ينكرني وينكر ابنه، وبالتأكيد فإنه سوف ينكرك أنت أيضا قبل مضي أسبوع على زواجكما. إنه مخلوق بلا ملكات آدمية... ! إنه حشرة... !

انفجرت سالي تبكي، وأخذت تتحرك في الصالة على غير هدى كالمحمومة، ثم رمت نفسها على أول كنبة في الصالة وهي تنشج نشيجاً مرّاً. وهنا فتح الله عليّ فقلت مخاطباً إياها:

- لا تبكِ يا حبيبتي. سأشرح لكِ كل شيء، وبالتفصيل. قلت ذلك ونهضت ثم سرت نحوها، وحاولت أن ألفّ يدي حول خصرها، وأن أقبلها على جبينها، خدها، شفتيها، لأسترضيها ولأطيب خاطرها؛ ولكنها دفعت يدي عنها بغضب، وابتعدت عني وهي تنظر إلي بكراهية ماحقة واحتقار مزلزل، وقالت:

- ابتعد عني أيها الكذاب المخادع ... أيها النذل الحقير! كنت أظنك قد تغيرت، وأنه لا نساء في حياتك غيري؛ ولكنني للأسف الشديد كنت مخطئة. كنت ساذجة، بلهاء، مغفلة. أنت مريض ! نعم أنت مريض ! ومرضك عضال لا دواء له !

نهضت ألكسس من مقعدها كالمجنونة، وحملقت بي بغضب جارف وقالت وهي تصرخ بهستيريا:

- حبيبتك ؟! وتقول لها حبيبتك أمامي ؟! يا لك من وقح بلا أخلاق. أيها الوغد السافل. يا أحقر مخلوقات الله !

ثم تناولت مزهرية من الكرستال كانت قريبة منها، وألقتها بكل ما عندها من قوة على صدري، فأخطأتني فتهشمت وهي تسقط على الأرض. دفعت بوحشية الخزانة التي عليها التلفاز، فانهارت على الأرض وتكسر الجهاز إلى شظايا ثم أتبعته بالفيديو، وأخذت تكسر كل شيء تراه في طريقها وهي تصرخ كالمجنونة؛ ثم ذهبت إلى الزاوية حيث كان الكمبيوتر فحملته بين يديها ورفعته فوق رأسها، وبكل ما عندها من قوة ألقت به إلى الأرض، فتطايرت شظاياه في كل زاوية من زوايا الصالة. دخلت بعدها غرفة النوم وخرجت منها بعد فترة وجيزة تحمل أربع لوحات زيتية كبيرة الحجم ذات أطر خشبية فاخرة، لوالدتي وأخي ولأخواتي ولي، كانت قد رسمتها لنا، ثلاث منها نقلتها عن صور جماعية أخذت لنا في الوطن، وانهالت عليها تكسيراً وتمزيقاً؛ ثم دخلت الغرفة ثانية وخرجت منها وهي تحمل حقيبة صغيرة لعل بها بعضاً من حوائجها. في طريقها خارج الشقة نظرت إلي بعينين متقدتين، ثم بصقت باتجاهي وخرجت بعد أن صفقت الباب خلفها؛ ثم كأنما تذكرت شيئاً، فتحت الباب ثانية وقالت وقد شعرت أنها تحرقني بنظرات الاحتقار والكراهية:

- هذا الجنين الذي في أحشائي، سأجهضه وألقي به في مجاري المياه العادمة، لأنني لا أقبل أن يكون لابني أب نذلٌ. ثم صفقت الباب خلفها ثانية.

- الحمد لله أنها خرجت. لقد تخلصت منها. سالي حبيبتي. هذه الفتاة هي التي طاردتني ورمت بنفسها إلي. دعيها تذهب إلى الجحيم. سأشرح لك كل شيء بالتفصيل؛ بصدق وأمانة وأنت تعرفين أنني لا أكذب.

سارت الصبية خطوات باتجاه الباب، وقالت وهي تنظر إلي كبقايا بيضة فاسدة تزكم رائحتها الأنوف:

- لا تشرح لي شيئاً. أيها الرجل الذي لا يكذب. كل شيء واضح أيها المخلوق المزيف. لقد استوعبت الدرس، وفهمت الحكاية ! أنت مخلوق مريض ولا يمكن شفاؤك ! ثم خرجتْ.

*****

اتصلت هاتفياً بسالي عصر اليوم التالي، وكلي أمل بأن تكون قد هدأت وفارقها غضبها، فأعتذر لها وأطلب منها المسامحة والغفران، واعداً إياها بأن تكون هذه آخر علاقة لي مع امرأة سواها؛ ولكنها أغلقت السماعة حالما عرفت أنه أنا. حاولت ثانية وثالثة، كانت تغلق السماعة حالما تميز صوتي، أما في المرة الرابعة فلم تجب. انتظرت حتى الغروب فاتصلت، وحالما ميزّت صوتي أغلقت السماعة. حاولت بعدها مرات عديدة، فكان الهاتف دائماً يعطي إشارة أن السماعة مرفوعة. قلت لأذهب إليها بنفسي، ضربت جرس الشقة، فانتظرت طويلاً حتى فتح الباب، وحالما وقعت عيناها عليّ صفقت الباب دون أن تتفوه بكلمة.

لقد أذهلني وأحزنني ما شاهدت. كان وجه سالي أصفر شاحباً حزيناً، تعلوه مسحة كمسحة الموت، وكان شعرها منكوشاً وعيناها حمراوين كقطعتين من جمر. ضربت الجرس ثانية، فلم يفتح الباب، وأعدت ضربه ثالثة ورابعة فلم يفتح. جلست على عتبة الباب ما يقارب الخمس دقائق ثم ضربت الجرس فانفتح الباب وصفقته في وجهي ثانية. وبقيت أضربه وانتظر قليلاً ثم أعاود ضربه دون أن تردّ علي، وما هي إلا دقائق عندما وجدت ضابطي بوليس يقفان خلفي، ويطلبان مني أن أرفع يدي فوق رأسي، وأن أجمد في مكاني، وعندما فعلت ذلك، تقدم أحدهما وتحسس جسمي جيداً، ولما لم يعثر على سلاح معي، طلب إلي أن أستدير نحوهما، ولما فعلت وجدت أن الأخرى هي شرطية. سألاني إن كنت أنا البروفيسور سهيل دهشان، ولما أجبتهما بالإيجاب طلبا مني أن أرافقهما إلى سيارة الشرطة الواقفة أمام باب العمارة، وهناك أعلماني أن أصطحبهما إلى المخفر.

- ما هي التهمة الموجهة إلي؟ سألت بانكسار ومذلة.

- إزعاج الآنسة سالي إركسون، ومحاولة الدخول إلى شقتها دون رضاها. قالت الشرطية الأنثى.

- ولكنها خطيبتي وسنتزوج قريباً... قريباً جداً ! قلت بحماس.

- هذا لا شأن لنا به. هي أعلمتنا بأنك تزعجها، وأنك تريد دخول شقتها عنوة. قال الشرطي الرجل.

- وماذا ستفعلان بي ؟ سألت بقلق وقد تجمد لساني.

- نأخذك إلى المخفر، ونسألها إن كانت تريد أن تقدم شكوى ضدك فنسلمك إلى المحكمة. أجاب الشرطي.

- وإن تنازلت عن حقها؟ سألت وقلبي يثب عالياً بين جنبي.

- نكتب عليك تعهداً بعدم إزعاجها ثانية، ثم نطلق سراحك.

في مخفر الشرطة، وبعد أن اتصلوا هاتفياً بسالي، سألوها إن كانت تريد أن تقدم شكوى ضدي، أجابت بالنفي، وطلبت إليهم أن يعلموني بأنها لا تريد أن تراني ولا تحب أن أتصل بها، وأنني إن فعلت فإنها لا محالة ستأخذني إلى المحكمة !

*****

اتصلت في اليوم التالي، هاتفياً بوالدة سالي، لأستعين بها على إقناع ابنتها لنعود إلى بعض، معتمداً على رصيدي عندها من الاحترام والتقدير، وما تكنه المرأة لي من محبة

وإجلال؛ ولخيبة أملي، فإن المرأة ما كادت تسمع صوتي حتى أعلمتني بإن النمرة غلط. تأكدت من الرقم ثانية، ولكنها هذه المرة قالت بغضب ممزوج بالعتاب والتأنيب:

- قلت لك أن النمرة غلط، ولا يوجد أحد بهذا الاسم. ألا تفهم؟ لا يوجد أحد بهذا الاسم ! وأغلقت السماعة، وقد شعرت كأنما المرأة تبكي من شدة الحزن !

في المساء عاودت الاتصال، فرد عليّ والد سالي، وحالما حييته قال الرجل ولكن بهدوء وأدب:

- قالت لك زوجتي في الصباح بأن النمرة غلط، وأنه لا يوجد أحد بهذا الاسم؛ أقول لك الآن لا تتعب نفسك ثانية، لأنه لا يوجد أحد بهذا الاسم هنا. مع السلامة، وأغلق السماعة هو أيضاً.

ولست أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة، حكمة كانت أمي قد ذكرتها لنا نحن أولادها الستة، بنين وبنات، وكانت موجهة الكلام لي، وكنت وقتها طفلاً صغيراً ربما في السابعة من عمري !

- يا بني ! "من طلبه كله خسره كله !" هكذا يقول المثل ! تذكر هذه الحكمة عندما تكبر!"

قالتها وكنا جميعاً، هي ونحن، متحلقين حول الموقدة، نتدفأ على نار حطب السنديان من برد كانون القارس، في إحدى ليالي الشتاء الطويلة الطويلة، ونقتل الوقت بالاستماع إلى قصص السالفين التي كانت تقصها علينا جدتي فلحى، رحمها الله، ونشوي البلوط الذي أحضره لنا من الغابة ابن الجيران ناجي. وبعد أن وزعت والدتي كمية البلوط بيننا بالتساوي، وبعد أن أعطيت حصتي كاملة، أصررت وبعناد وقوة، على مقاسمة أخواتي البنات حصصهن ! ولأنني ولدت في مجتمع عفن ، ممعن في الجهل والتخلف، وغارق في السخف والعفن، ويعتبر أن الولد الذكر خيرٌ من أخته الأنثى، وأنه هو كل شيء؛ وهي لا شيء؛ فقد ُأعطيتُ ما طلبت ...! ولا أدري كيف، فإن حصتي من البلوط، قد تحولت كل واحدة منها، أقول كل واحدة منها بلا استثناء، وبقدرة قادر إلى قطعة من الفحم الأسود أثناء عملية الشوي ...!

فها أنا الآن، أريد أن أحصل على حب سالي وألكسس فأخسر الاثنتين معاً ! يا سبحان الله ! سبحان الذي خلق السموات والأرضين، والعزة للذي أنطق النملة والشجر والحجر، وعرف كل نفس بأي أرض تموت ! التاريخ يعيد نفسه ... !

*****

لقد أمضيت أسبوعا كاملاً أحترق وأتمزق، والله وحده فقط يعلم كم قاسيت وتعذبت. كنت أشعر بالاختناق عندما أكون في شقتي أو داخل أربعة جدران، فأهرب إلى الخارج ! كنت أجوب شوارع "وست وود فلج" و "سانتا مونيكا" على غير هدى، بالسيارة حيناً ومشياً على الأقدام أحيانا، ولا أعود إلى سكني إلا وأنا منهك القوى خائر العزيمة، لا أقوى على الحراك ... ! حتى النوم جافاني، وعندما أستطيع أن أغفو، كنت أستيقظ فزعاً مذعوراً، أظل لمدة طويلة أهذي وأرتجف، حتى تدركني رحمة السماء فأغفو من جديد ... !

- تمت -

"وست وود فلج" ـ كاليفورنيا.

للمؤلف

1- في بلاد السمن و العسل. رواية
2- تيه البروفيسور دهشان. رواية
3- فبكت و بكيت. رواية
4- كريستينا ... الحب المحرّم ! رواية

*****

باللغة الإنجليزية:

- ✓ Beads of Memory. Triology
- ✓ August Rain. Novel
- ✓ The Sucide of my Taboos… Elizabeth! Novel
- Celeste… A Teardrop On The Cheek Of Destiny ! NovelI!

*****

للتواصل مع المؤلف على البريد الإلكتروني:
majidabujohar@yahoo. COM

لقد تخرّج الموءلف من ثلا ث جامعات . 1) جامعة باسدينا ـ باسدينا ـ كاليفورنيا.2) جامعة ولاية كاليفورنيا ـ لوس أنجلوس ـ كاليفورنيا . 3) جامعة كاليفورنيا ـ UCLA ـ كاليفورنيا .

لقد درّس الموءلف في : 1) جامعة باسدينا ـ باسدينا ـ كاليفورنيا 2) الجامعة الأردنية ـ عمان ـ الأردن . 3) جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة ـ المملكة العربية السعودية . 4) دار المعلمين العالية ـ عمان ـ الأردن .